











مَحَلَّة

كُلِّبَتِ الْأَكْبَابُ



جامعة القاهرة

المجلد الحادى والعشرون — الجزء الأول

مايو سنة ١٩٥٩

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦٢



# مجلة كلية الآداب



المجلد الحادى والعشرون — الجزء الأول

مايو سنة ١٩٥٩

مطبعة جامعة القاهرة  
١٩٦٢

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، فى مايو وديسمبر ، وتطلب من  
مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية  
العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور محمد حمدى البكرى  
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وثمان الجزء الواحد من أى  
مجلد ثلاثون قرشا مصرية .

## فهرس القسم العربى

صفحة	
١	من مباحث الهمزة العربية للدكتور عبد الحليم محمد النجار . .
٥٩	حرف الضاد وكثرة مخارجه فى اللغة العربية للدكتور يحيى نامى .
٦٥	فى تاريخ الأديان ( رؤوس أقلام ) ملخص محاضرات القاها الأستاذ الدكتور اسماعيل راجى الفاروق الأستاذ بجامعة ماجل بمونتريال
٧٥	محافظات الجمهورية العربية المتحدة فى العصر الاسلامى للدكتورة سماعد ماهر . . . . .
١٩٧	دراسة لبعض التحف الاسلامية للدكتور عبد الرحمن فهمى امين متحف الفن الاسلامى . . . . .
٢٤٣	( جهادية ) الجيش المصرى والخدمة تحت علم آخر للدكتور محمد رفعت رمضان . . . . .



## من مباحث الهمزة في العربية

للككتور عبد الحليم على محمد النجار

أختصت الهمزة بين حروف الهجاء العربي بأحكام كثيرة يختلف أمرها بين العسر واليسر . ومن أهم هذه الأحكام ما يتصل بتحقيق الهمزة ووجوه تخفيفها ، وقد خفيت أسباب ذلك على عامة المتقنين حتى إنهم ليسمعون أنواع التخفيف في بعض قراءات القرآن فيخفى عليهم وجهها بل ربما أنكروها ، كما أن لغتنا العامية وغيرها من السنة العربية الدارجة قد ورثت كثيراً من أحكام التخفيف حتى يُخيل لكثير من الناس أن هذه الظواهر من خصائص العامية وليس من حقها أن تنتسب إلى العربية الفصحى .

وقد حداني ذلك إلى تناول أهم مباحث الهمزة ، مع إطالة النفس في مبحث التخفيف ، لآيين جليلة الأمر في قراءة القراء ، ولأوضح أيضاً ما تمت به عاميتنا إلى العربية الفصحى من نسب عريق ، وسبب وثيق في هذا المظهر .

### ١ - تعريف :

الهمزة هي الصوت الجهور الشديد الخارج من أقصى الحلق والقابل للحركات . هذا هو مقتضى كلام سيبويه في باب الانغماس والحديث عن عدد الحروف العربية وخارجها ومهموها ومجهورها الخ<sup>(١)</sup> .

وأقصى الحلق هو أبعد مما يلي الصدر . وهو المخرج الأول من مخارج الحروف العربية الستة عشر عند سيبويه ومن تابعه<sup>(٢)</sup> : وهو المخرج الثاني عند الخليل وأكثر النحويين والقراء ومنهم ابن الجزرى<sup>(٣)</sup> ، وكذلك عند ابن سينا<sup>(٤)</sup> . وهؤلاء يعدون

( ١ ) أنظر الكتاب ٢ : ٤٠٤ وما بعدها .

( ٢ ) أنظر الكتاب في الموضع السابق .

( ٣ ) أنظر كتاب : النشر في القراءات العشر لابن الجزرى ١ : ١٩٨ وما بعدها .

( ٤ ) أنظر كتاب : أسباب حدوث الحروف لابن سينا القاهرة ١٣٣٢ هـ .

المخرج الأول هو: الجوف، الذى تخرج منه حروف اللين الثلاثة، على حين يسقط سيبويه  
مخرج الجوف، ويوزع حروف اللين على مخرج أخرى، فالألف عنده من أقصى الحلق،  
والياء من وسط اللسان، والواو من الشفتين.

ويخرج من أقصى الحلق عند سيبويه ثلاثة أحرف: الهزة. والهاء. والألف.  
فالهزة والألف حرفان مجوران، والهاء، حرف مهموس. ومن ناحية أخرى: الهزة  
حرف شديد، والألف والهاء رخوان.

والجهور — كما يفسره سيبويه — هو حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس  
أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت<sup>(١)</sup>. وبعبارة أخرى: الجهر هو  
انحباس جرى النفس عند النطق بالحرف لقوته، وذلك من قوة الاعتماد على مخرجه<sup>(٢)</sup>،  
كما فى الهزة والعين والغين والجيم والقاف وغيرها.

والشديد — كما يفسره سيبويه أيضاً — هو الذى يمنع الصوت (لا النفس) أن  
يجرى فيه<sup>(٣)</sup>. وبعبارة أخرى: الشدة هى انحباس جرى الصوت عند النطق بالحرف  
لكمال قوة الاعتماد على المخرج<sup>(٤)</sup>، كما فى الهزة والقاف والكاف الخ.

وإذا فالهزة عند سيبويه هى الحرف الوحيد الذى يخرج من أقصى الحلق مجتمعاً فيه  
صفتا الجهر والشدة.

بقى أنه تقل عن الخليل أنه يرى أن العين هى أقصى حروف الحلق، لا الهزة، خلافاً  
لسيبويه. وقد قل ذلك السيوطى (المتوفى ٩١١ هـ) عن المفضل بن سلمة الكوفى  
(المتوفى ٢٩٠ هـ) قال: «ذكر صاحب العين أنه بدأ كتابه بحرف العين لأنها أقصى  
الحروف مخرجا». قال: «والذى ذكره سيبويه أن الهزة أقصى الحروف مخرجا». قال:  
«ولو قال بدأت بالعين لأنها أكثر فى الكلام وأشد اختلاطاً بالحروف لكان أولى<sup>(٥)</sup>».

(١) أنظر: الكتاب ٢: ٤٠٥

(٢) أنظر: نهاية القول المفيد فى علم التجويد لمحمد مكى نصر ص ٤٤

(٣) أنظر: الكتاب ٢: ٤٠٦

(٤) أنظر: نهاية القول المفيد ص ٤٦

(٥) أنظر المزهى للسيوطى ١: ٩٠ (ط. الحلبي).



كذلك جاء في شرح ابن يعيش (المتوفى ٦٤٣ هـ) على مفصل الرخشرى (المتوفى ٥٣٨ هـ) : « روى الليث عن الخليل أن الألف والواو والياء والمهزة جوف ، لأنها تخرج من الجوف ولا تقع في مدرجة من مدارج الحلق ولا اللهاة ولا اللسان ، إنما هي هواء وكان الخليل يقول : الألف والواو والياء هوائية ، أى أنها في الهواء ، وأقصى الحروف العين ، ثم الحاء ، ثم الهاء ، فلولا بحثة في الحاء لكانت كالعين ، ولولا هبة في الهاء لكانت كالحاء لقرىبا منها . فهذه الثلاثة في جن واحد <sup>(١)</sup> .

وجاء أيضا في مقدمة لسان العرب : وقال الخليل بن أحمد : حروف العربية تسعة وعشرون حرفا ، منها خمسة وعشرون حرفا صحاح لها أحياء ومدارج ، وأربعة أحرف جوف : الواو والياء والألف اللينة والمهزة ، وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف ، فلا تخرج في مدرجة من مدارج الحلق ولا مدارج اللهاة ولا مدارج اللسان الخ <sup>(٢)</sup> .

هذا ، ولا ندري هل يصح هذا القول عن الخليل ؟ ونحن لم نجد له ذكراً عند من تابعه من التحويين والقراء . فلم يشر إليه سيبويه ، وهو تلميذ الخليل وناقل علمه ، وإن صح أنه خالفه في عدد الخارج ستة عشر ، لا سبعة عشر كما نقله النحاة والقراء عن الخليل . ثم إن هؤلاء في متابعتهم لل خليل جعلوا المهزة من أقصى الحلق ، لا من الجوف كما ورد في النقول السابقة . بل لقد صرح ابن الجزرى في كتابه : النشر في القراءات العشر ، بما يخالف هذا القول عن الخليل ، حيث ذكر ابن الجزرى أن حروف الجوف هي الألف والواو والياء ، ثم قل عن مكى بن أبى طالب قوله : « وزاد غير الخليل معهن (أى مع حروف الجوف الثلاثة المذكورة) المهزة ، لأن مخرجها من الصدر وهو متصل بالجوف <sup>(٣)</sup> » .

وإذا فهذا من ذهب اليه غير الخليل . وهو صريح في أن الخليل لا يجعل المهزة من مخرج الجوف .

وقد يكون عزو هذا القول لل خليل إنما حصل بطريق الاستنباط من صنيعه في ترتيب كتاب العين ، حيث بدأ بحرف العين ، وأتبعه بقية حروف الحلق : الحاء والهاء

(١) أنظر شرح المفصل لابن يعيش ١٠ : ١٢٤

(٢) أنظر لسان العرب ١ : ١٣ (ط . بيروت) .

(٣) أنظر كتاب النشر لابن الجزرى ١ : ١٩٩

والحاء والغين ، جاعلا الألف في آخر الحروف التي وضع نظامه عليها ، مع الواو والياء<sup>(١)</sup> ، غير مفرق بين الألف الممهوزة والألف اللينة ، فظن من قرنه الألف الممهوزة بالواو والياء والألف اللينة أنه لا يفرق بين الألف الجوفية والألف الممهوزة من حيث المخرج ، وأنه يعد الممهوزة من حروف الجوف ..

وربما أيد ذلك الاحتمال قول ابن كيسان محمد بن أحمد التحوي البغدادي ( المتوفى ٢٩٩ هـ ) : « سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهوسة خفية لا صوت لها ، فزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء ، فوجدت العين أنصع الحرفين ، فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف ؛ وليس العلم بتقديم شيء على شيء ، لأنه كله مما يحتاج إلى معرفته ، فبأى بدأت كان حسنا ، وأولاهما بالتقدم أكثرها تصرفا<sup>(٢)</sup> » .

نفي هذا الكلام اعتذار الخليل من البدء بالهمزة ، وما ذاك إلا أنه كان متوقعا أن يبدأ بها ، أولا من جهة أنها أول حروف الأبجدية ، وربما أيضا لأنها أول الحروف الحقيقية مخرجا وهو الحلق ، لأنها من حروف الجوف كما تقدم . واعتذاره واضح ، لأن الهمزة — كما قال — لا تثبت على حالة واحدة ، بما يلحقها من التخفيف والإبدال والحذف .

على أن من الحق أن هناك من علماء العربية من يرى أن الهمزة من الجوف كالألف اللينة ، غير أن في الهمزة شدة رفضها إلى الحلق ، كما أن النون من طرف اللسان ، وترتفع إذا شددت بالفتحة إلى الخيشوم .

ولكن ذلك غير منهج الخليل كما تقدم<sup>(٣)</sup> .

## ٢ - الهمزة بين حروف الهجاء العربي :

اختلف علماء العربية في الهمزة ، هل هي حرف مستقل عن الألف بين حروف الهجاء ، أو هما حرف واحد ؟ فعلى الأول تكون حروف الهجاء العربي تسعة وعشرين حرفا ، وعلى الثاني ثمانية وعشرين .

(١) أنظر المزمع للسيوطي ١ : ٨٩

(٢) أنظر المزمع للسيوطي ١ : ٩٠

(٣) أنظر كلام مكى بن أبي طالب عند ابن الجزرى في النشر ١ : ١٩٩

وممن يرى ترادف الهززة والألف ، وعد حروف الهجاء تبعاً لذلك ثمانية وعشرين حرفاً ، الامام الكوفي أبو زكريا يحيى بن زياد القراء ( المتوفى ٢٠٧ هـ ) كما نقل ذلك عنه السيوطي<sup>(١)</sup> حيث يقول : « يرى ( أى القراء ) ترادف الهززة والألف ، فيقول الهززة هي الأصل ، والألف الساكنة هي الهززة ترك هزها » .

ولم تبد للقراء حجة فيما ذهب اليه إلا قوله إن الهززة هي الأصل . وهذا لا يكاد يتضح له وجه إلا عند أكثر أهل الحجاز الذين يخففون الهززة ، خلافاً للتيمييين ومن يحققونها من العرب ، على أنها أيضاً في حالة التخفيف عند الحجازيين لا تأخذ البتة صورة الألف الساكنة كما سيتبين فيما بعد .

وأياً ما كان فإن القراء يرى أن الهززة هي الحرف الأصلي المستقل بنفسه في حروف الهجاء ، أما الألف فهي حرف فرعي عنده غير مستقل بنفسه . وعلى ذلك فعدة الحروف — كما يرى القراء — ثمانية وعشرون حرفاً .

ويوافق أبو العباس المبرد من البصريين ( توفى ٢٨٥ هـ ) القراء في عد الحروف ثمانية وعشرين ، ولكنه يذهب إلى عكس ما ذهب اليه القراء في جعل الهززة هي الأصل والألف هي الفرع . فهو يسقط الهززة من حروف الهجاء لأنها لا تثبت في الخط على صورة واحدة ، وليست لها صورة مستقرة ، فلا يعتد بها إذاً مع الحروف التي أشكلها محفوظة معروفة<sup>(٢)</sup> .

وقد رد عليه أبو الفتح عثمان بن جني ( المتوفى ٣٩٢ هـ ) بأن العبرة في إثبات الحروف بالخط لا بالخط ، لوجود اللفظ قبل الخط ، والهززة موجودة في اللفظ كغيرها من الحروف ، واقتلابها في بعض أحوالها لعارض كتخفيف أو إبدال لا يخرجها عن كونها حرفاً ، ألا ترى أن اقتلاب غيرها في بعض أحوالها لعارض لا يخرجها عن كونها حرفاً<sup>(٣)</sup> .

أما جمهور النحاة واللغويين فعدة الحروف عندهم تسعة وعشرون حرفاً ، بعد الهززة والألف جميعاً منها .

( ١ ) في همع الموامع ٢ : ٢٢٨ وانظر حاشية الصبان على الأشموني في أوائل باب الإبدال .

( ٢ ) أنظر : سر صناعة الاعراب لابن جني ١ : ٤٦

( ٣ ) أنظر : سر صناعة الاعراب ١ : ٤٨

### ٣- رسم الهززة :

سبق لك قول أبي العباس المبرد إن الهززة لا تثبت في الخط على صورة واحدة وليست لها صورة مستقرة . وفي مثل ذلك يقول أبو منصور الأزهري صاحب التهذيب (المعنى ٣٧٠ هـ) : « اعلم أن الهززة لا هجاء لها ، إنما تكتب مرة ألفاً ومرة ياء ومرة واو » .

ولكن هذا لا يعنى أن الأزهري أيضاً ممن يجعلون عدد الحروف ثمانية وعشرين كالمبرد أو الفراء ، بل هو يصرح بأنها تسعة وعشرون حرفاً بضم الهززة اليها <sup>(١)</sup> .

وقد فسر ابن جني سبب ذلك الاختلاف في كتابة الهززة حيث يقول . إن الألف التي في أول حروف المعجم هي صورة الهززة في الحقيقة <sup>(٢)</sup> . وإنما كتبت الهززة واو أو مرة وياء أخرى على مذهب أهل الحجاز في التخفيف ، ولو اريد تحقيقها البتة لوجب أن تكتب ألفاً على كل حال . يدل على صحة ذلك أنك إن أوقفها موقفاً لا يمكن فيه تخفيفها ولا تكون إلا محقة لم يجر أن تكتب إلا ألفاً ، مفتوحة كانت أو مضومة أو مكسورة . وذلك إذا وقعت أولاً ، نحو : أخذ ، وأخذ ، وإبراهيم . فلما وقعت موقفاً لا بد فيه من تحقيقها اجتمع على كتبها ألفاً البتة . وعلى هذا وجدت في بعض المصاحف : ، يستزأون ، بالالف قبل الواو ، ووجدتها أيضاً : « وإن من شئ إلا يسبح بحمده » بالالف بعد الياء . وإنما ذلك لتوكيد التحقيق <sup>(٣)</sup> .

وبما ذكر يضح أن اختلاف صورة الهززة في الكتابة متأثر بلغة أهل التخفيف من عرب الحجاز ، وهي اللغة الفصحى وعليها رسم المصحف . ومرجع هذا الاختلاف إلى قواعد النحر والصرف واللغة ، وإذا قد كان ملحوظاً في كتابة الهززة الرمز إلى أصلها الصرف والاشتقاق ، فصعب أمر كتابتها إلا على الواقفين على جليلة ذلك .

ومن ثم نشأت منذ عهد جد مبكر رغبة كثير من العلماء في تبسيط كتابة الهززة على عامة الناس وجعلها في متناول الجميع . ومن أقدم من عُرفت له كلمة في ذلك الامام .

(١) أنظر لسان العرب ١ : ١٧ ( ط - بيروت ) .

(٢) يعنى أن الألف في بعض استعمالاتها تصور الهززة ، وهذا لا يمنع أن تصور الألف اللينة أيضاً في نحو قام وجاء ، كما ذكره ابن جني نفسه في سياق النص .

(٣) أنظر : مرصعة الاعراب ١ - ٤٦ - ٤٧ .

أبو زكريا الفراء حيث يقول : « يجوز أن تكتب ( الهزرة ) ألفاً في كل موضع (١) » .  
واشتدت هذه الرغبة إلحاحاً في عصرنا الحديث فشغلت الجمع اللغوي زمناً طويلاً ،  
ثم انتهى فيها أخيراً إلى قرار يضبط قواعد رسم الهزرة في مواقعها المختلفة .  
ويمكن الرجوع في رسم الهزرة واختلاف وجهات النظر فيه منذ كتابة القرآن  
حتى وقتنا الحاضر إلى المراجع التالية :

( أ ) في رسم المصحف : كتاب المقنع . وكتاب المحكم ، كلاهما لأبي عمرو عثمان  
ابن سعيد الداني ( المتوفى ٤٤٤ هـ ) .

( ب ) في قواعد رسم الهزرة والخلاف في ذلك بين اللغويين والنحاة : شرح الرضى  
الاستراباذى ( المتوفى ٦٨٦ هـ ) على كتاب الشافعية لابن الحاجب المصرى  
( المتوفى ٦٤٦ هـ ) ج ٣ ص ٣١٢ وما بعدها ، وكتاب معجم الهوامع شرح  
جمع الجوامع للسيوطى ، وكتاب المطالع النصرية لنصر المهورى ، وكتاب  
الإملاء للشيخ حسين والى ، وغير ذلك .

( ج ) في قواعد رسم الهزرة طبقاً للقرار الذى وافق عليه مؤتمر الجمع اللغوي في الدورة  
السادسة والعشرين سنة ١٩٥٩ - ١٩٦٠ : مجموعة البحوث والمحاضرات  
للدورة السادسة والعشرين لمؤتمر مجمع اللغة العربية ١٩٥٩ - ١٩٦٠  
ص ٢٠٩ - ٢١٠

#### ٤ - أقسام الهزرة وحركاتها :

والهزرة قسمان :

فالقسم الأول : هزرة الوصل ، وهى التى تثبت ابتداء وتسقط وصلاً ( أى عند وصل  
كلمتها بما يسبقها ) ، ويقال أيضاً : هى التى تثبت في أول الكلام وتسقط في الدرج ( أى في  
وسط الكلام ) . ولها مواضع قياسية ، وأخرى سماعية ، فننقل هزرة الوصل في :

( أ ) ماضى التمامى والسداسى ، نحو : انطلق واستخرج .

( ب ) أمر التمامى والسداسى ، نحو : ابتهج واستغفر .

---

( ١ ) نقلاً عن الأستاذ محمد بهجة الأثرى في مجلة مجمع اللغة العربية ١٢ : ١١٣

(ج) مصدر الحماسى والسداسى ، نحو : انتظار واستكبار .

(د) أمر الثلاثى الساكن ثانى مضارعه لفظا ، نحو : اكتب واضرب .

بخلاف ماعرك ثانى مضارعه ، نحو : يعد ويزن ويقول ، فلا يحتاج إلى همزة الوصل ،  
نحو : عد وزن وقل .

(هـ) آل الموصولة ، ونظيرها : أم فى لفة خير .

وسميت همزة الوصل فى عشرة أسماء ، وهى :

ابن ، إيفة ، إبنم ، امرؤ ، امرأة ، اسم ، است ( بالإنفراد والتثنية والجمع فى جميع هذه  
الأسماء ) ، اثان ، اثتان ، أيمن الله <sup>(١)</sup> .

والأصل فى همزة الوصل وجوب الكسر . وقد تدعو دواعى التخفيف والتيسير  
الصوتى إلى مخالفة هذا الأصل :

(١) فهى واجبة الفتح فى أداة التعريف .

(ب) وهى واجبة الضم فى ماضى الحماسى والسداسى المبنيين للمجهول ، وكذلك فى أمر  
الثلاثى المضموم العين أصالة ، نحو : اكتب وانصر ، بخلاف نحو : اسأوا ، لأن  
أصله : امشيوا .

(ج) ويترجح ضمها على كسرها فيما كسرت ضمة عنه عرضا ، نحو : اغزى .

(د) ويترجح فتحها على كسرها فى : أيمن الله وأيم الله .

(هـ) ويترجح كسرها على ضمها فى لفظ : اسم

(و) ويجوز الكسر والضم والاشمام فى نحو : اختير ، واعتيد ، بالبناء للمجهول .

والقسم الثانى : همزة القطع ، وهى الهمزة الثابتة أصالة فى الإهداء والوصل والانتاء .  
وهذا لا يمنع ما يرد عليها عرضا من تخفيف أو حذف كما سيأتى .  
وهمزة القطع قابلة للحركات الثلاث ، كما هى قابلة للمسكون .

---

(١) هذا على مذهب البصريين الذين يحملون « أيمن » بجميع صورته اسما مفردا من أيمن والبركة .  
أما الكوفيون فهو عندهم جمع « أيمن » كما نقل ذلك ابن هشام فى المغنى عن الفراء ؛ ولذا فهمزته عندهم  
همزة قطع ، كما نص عليه أيضا فى المصباح فى المادة .

## ٥ - (١) تخفيف الهزمة :

تقع الهزمة في الكلم العربي ابتداءً ، ووسطاً ، وآخرها ، نحو : أمر ، وسأل ، ونشأ .  
ومثلها في ذلك سائر اللغات السامية .

وقد هدى الاحساس اللغوي علماء العربية الاقدمين ، ولا سيما من عرفوا اللغات  
الاعجمية ، إلى أن وقوع الهزمة في وسط الكلم أو طرفه يكاد يكون من خصائص العربية<sup>(١)</sup> .  
ومن ثم يقول احمد بن فارس ( المتوفى ٣٩٥ هـ ) : « انقردت العربية بالهزمة في عرض  
الكلام ، مثل : اقرأ ، ولا يكون في شيء من اللغات إلا ابتداءً »<sup>(٢)</sup> .

ومجربى الشيخ طاهر الجزائري ( المتوفى ١٣٣٨ هـ ) أيضاً هذا المجربى فيقول : « فان الفارسية  
وأكثر اللغات المشهورة لا يوجد فيها مثل ذلك »<sup>(٣)</sup> ، معنى وقوع الهزمة وسطاً أو طرفاً .  
ثم يقول : وقد رزى في الفارسية ما وردت فيه الهزمة في لغبر المصدر فيكون ذلك آية  
أنه مأخوذ من العربية .

كذلك قد تشتمل اللغات الهندية - الأوربية على الهزمة في وسط الكلام ، ولكن  
ذلك يحدث في الغالب عرضاً لا أصالة ، كما في نحو : reaction . بل كثيراً ما نجد الهزمة  
الواقعة ابتداءً في بعض هذه اللغات ، كما في الفرنسية : homme ، تعامل معاملة همزة  
الوصل في العربية ، فنسقط مثلاً إذا دخلت عليها أداة التعريف : l'homme .

ولما كانت الهزمة حرفاً ثقيلاً - إذ يخرج من أقصى الحلق وله نبرة قوية - خففها  
بعض العرب في غير الابتداء ، فكان للهزمة حالتان :

( أ ) التحقيق : وهو أن نخرج نبرة لا ينحى بها نحو حرف من حروف اللين .

( ب ) والتخفيف . وهو أن تزال تلك النبرة بحذفها أو إبدالها حرف لين أو المثل  
بها نحوه .

ولا يدخل في حالات التخفيف إبدال نحو : آمن ، فإن هذا إبدال واجب لا تكون  
معه الهزمة ذات حالتين ، ولا نحو : وقتت ، في : أقتت ، فإن الإبدال هنا وإن كان جائزاً  
فهو جارٍ عند جميع العرب ، أو هو على الأقل لغة بعضهم . وإذا فالتخفيف هو إزالة نبرة

( ١ ) في مقابلة اللغات الأعجمية التي كانت معروفة لم حينئذ ، وهم لم تكن لهم دراية باللغات السامية .

( ٢ ) أنظر كتابه : التصريب لأصول التعريب ص ١١

( ٣ ) المرجع السابق .

الهزة لغير سبب قوى يجرى على مقتضاه كلام سائر العرب : وعلى ذلك فليس من التخفيف .  
أيضا أن تجتمع الهزتان في كلمتين ، نحو : أأججى وعربى ، وسيأتى بيان ذلك :

كذلك ليس من التخفيف عنعنة تميم ، كما روى في قول ذى الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم  
فان ذلك لغة لهم .

وقد ساعد على تخفيف الهزة قربها من الألف ، وبذلك قربت أيضا من أخوها :  
الوار والياء ، فعاملها العرب معاملة أحرف العلة في التثنية وأجروها مجراها . ومن ذلك  
أنها تبدل من ثانی المثلين ، كما في قول الراجز :

يا لك من تمر ومن شيشاء<sup>(١)</sup> ينشب في المسعل والهاء<sup>(٢)</sup>

أنشب من مآشر<sup>(٣)</sup> حداد<sup>(٤)</sup>

يريد : حداد . فهذا مثل قولهم : تقضى البازى ، في تقضض ، وتنظى في تظان ، وهو  
باب معروف في اللغة<sup>(٥)</sup> .

### (ب) أهل التخفيف من العرب :

وأهل التخفيف هم أكثر أهل الحجاز ، وبخاصة فريش . ومن أهل الحجاز أيضا  
من يجرى على التحقيق . ويقول سيديويه : « واعلم أن الهزة التي يحقق أمثالها أهل التحقيق  
من بني تميم وأهل الحجاز ، وتجعل في لغة أهل التخفيف بين يين ، تبدل مكانها  
الألف ... »<sup>(٦)</sup> .

ومن أهل التخفيف من الحجازيين خزاعة ، ومنهم كثير عزة . روى المرزبانى .

(١) هو التمر لا يشهد نواه .

(٢) بكسر اللام جمع لهأة ، وهى أقصى الحلق .

(٣) جمع مثشار ، وهو المئشار ، وأصله : مآشير ، فحذف الياء للشر .

(٤) أنظر لسان العرب في مادة (حدد) .

(٥) أنظر المزهرة للسيوطى ١ : ٤٦١ - ٤٦٢ ، ٤٦٨ (ط . الحلبي) .

(٦) أنظر شرح الرضى على ثلثية ابن الحاجب ٣ : ٣١ وما بعدها .



في الموشح أن كثيراً دخل على عبد العزيز بن مروان فأشده شعراً ، فقال له بعض جلسائه :  
لحنت ، قال : في أي شيء ؟ قال في قولك :

لا أنزر النائل الخليل إذا ما اعتل ، نزر الظنور لم ترم <sup>(١)</sup>  
وإنما هو : ترم . فقال له : اسكت ، هكذا كلام قومي <sup>(٢)</sup> .

هذا ، ومن العجب أن كثيراً يهز مع ذلك في غير موضع الهز فيقول :  
وللأرض أما سودها فضجلك يياضاً وأما يياضها فاسوأدت <sup>(٣)</sup>  
ويقول أيضاً في مدح عبد العزيز بن مروان :

وأنت ابن ليلي خير قومك مشهداً إذا ما احمرت بالعبط العوامل <sup>(٤)</sup>  
فتراه يهز : اسود واحمار ، وكأن هذا جرى مجرى التوهم عنده لعدم إلفه بالذير ،  
وربما كان أيضاً لضرورة الشعر . وقد ورد كثير مثل ذلك في كلام العرب على سبيل  
الشفوذ ، ومن قيل التوهم <sup>(٥)</sup> .

#### التخفيف في لسان العامة

ويجري التخفيف في لسان العامة في مصر . وكان ذلك لأن النازلين الأولين بمصر  
كان معظمهم من الحجاز ، مع ميل العامة : في الغالب أيضاً إلى التخفيف في كلامهم ، وقد  
عمد القاهريون ومن سار على منوالهم إلى إبدال الهزنة من القاف لأن القاف أثقل من  
الهزنة . ويجري التخفيف عندهم بالحذف وبالإبدال ، كما في نحو : البير في البئر ، والمرأة  
في المرأة ، وكما يقولون : اشترت الكتاب بربعة قروش ، أي بأربعة قروش ، ويقولون  
مية في مائة ، فهذا إبدال مع تشديد .

#### ( ج ) أهل التحقيق :

وأهل التحقيق هم تميم وقيس وبعض أهل الحجاز على ما سلف .

---

(١) أي لا ألح على خليل في النائل أي العطاء ومسألته ، يقال : نزه أي ألح عليه في السؤال ،  
وقوله النائل كأنه يريد : في النائل . ونزر الظنور أي كنز الظنور ، وهي الماطقة على غير ولدها  
في الرضاع ، ولم ترم أي لم تعطف على ولدها .

(٢) أنظر : الموشح المزرب بأى ١٤٦

(٣) أنظر الخصائص ٣ : ١٢٧ وأنظر ديوان كثير .

(٤) أنظر ديوان كثير ٢ : ٩٧

(٥) أنظر : باب في شواذ الهز ، في كتاب الخصائص لابن جني ٣ : ١٤٢ وما بعدها .

على أن هناك ألفاظاً وردت مخففة عند الجميع ، نحو : يرى — على ما سيأتى بيانه —  
ونحو : التهى ، والبرية ، والحطاية .

ويقع عند التبيين في الهزة ما يشبه التخفيف وليس به ، وهو : العتنة كما سبقت  
الإشارة إلى ذلك . جاء في القاموس : « وعتنة تميم إبدالهم العين من الهزة ، يقولون :  
عن موضع أن » <sup>(١)</sup> . وجاء في اللسان بعد إيراد هذا أيضاً : وأنشد يعقوب ( هو :  
ابن السكيت ) :

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتل لأخرة لا بد عن ستصيرها  
وقال ذو الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصباية من عينيك مسجوم  
أراد : ألن ترسمت ، وقال جرير المود :

فما أبى حتى قلن ياليت عتنا تراب وعن الأرض بالناس نخسف

قال الفراء : لغة قريش ومن جاورهم : أن ، وتميم وفيس وأسد ومن جاورهم يجعلون  
ألف ه أن « إذا كانت مفحوة عينا ، يقولون : أشهدك رسول الله ، فإذا كسروا  
رجعوا إلى الألف . وفي حديث قيلة : نحسب عنى نائمة أى نحسب أنى نائمة . ومنه حديث  
حسين بن مشيت : أخبرنا فلان عن فلانا حدثه ، أى أن فلانا ، قال ابن الأثير :  
كأنهم يفعلونه ليجح في أصواتهم <sup>(٢)</sup> » .

وفي نوادر أبي زيد : وأنشدتني أعراية من بني كلاب :

فعلمن وإن هويك عنقى قطاع أرمام الجبال صرورم

فقلت لها : ما هذا ؟ فقالت هذه عنتنا . وبعضهم يقول : عتنة بنى فلان <sup>(٣)</sup> .

ويرى بعضهم أن رسم الهزة برأس العين لهذا الإبدال . ومن ذلك أن اللغويين إذا  
أراد أن يبيتوا عن الهزة في الكلام مثلوها بالعين في الوزن ، فيقولون : الآه زنه : العاع .

(١) أنظر القاموس في مادة ( عتن ) .

(٢) أنظر لسان العرب ١٣ : ٢٩٥ ( ط . بيروت ) .

(٣) أنظر نوادر أبي زيد ٢٨

وفي اللسان: «اللى بوزن: اللعا: النور الوحشى... والجمع: آلاء مثل: ألعاع،  
مثل: جبل وأجبال والآتى: لآة مثل: لعاة» (١).

ويمتحن أصحاب رسم المصاحف الهزئة بالعين، وذلك لأن الهزئة لم تكن لها صورة  
في الرسم الثنائى. قال الثانى: «واعلم أن الهزئة يمتحن موضعها من الكلمة بالعين.  
فحيث وقعت العين وقعت الهزئة مكانها. وسواء كانت متحركة أو ساكنة، أو لحقها  
التنوين أو لم يلحقها. فتقول فى: آمنوا: عانوا، وفى: وآتى المال: وعانى المال.  
وفى: مستزين: مستزين، وفى: خاسعين: خاسعين، وفى: مبرعون: مبرعون،  
وفى قوله: متكئون: متكئون» (٢).

هذا، ولا يدخل فى التخفيف الذى يقى عن تميم ومن يلهم ما جاء من التخفيف  
لضرورة الشعر، فإن هذه الضرورة يقع فيها كل الشعراء من تميم وغيرهم، ومن المشهور  
فى ذلك قول الفرزدق وهو تميمى:

راحت بمسلة البغال عشية فارعى فزاره لا هناك المرتع (٣)  
ومن هذا التخفيف أيضاً قول حسان:  
فدونك فاعلم أن تقضى عهدنا أباه الملاء الذين تهابوا (٤)  
فقد خفف لفظ: الملاء، وهو حجازى.

#### (د) السبب فى التخفيف عند الحجازيين:

يعيا الباحث بالوقوف على السبب فى اطراد تخفيف الهزئة عند عامة أهل الحجاز.  
وقد يكون ذلك إلى أنهم، وقد كانوا أفصح العرب، كانوا يؤثرون الميل إلى السلاسة  
وسهولة التعبير، وتجذب الثقل فى النطق على وجه العموم. وربما يبدو أيضاً أن الحجازيين  
كانوا بسبب من الروم فى جوارهم والتعامل معهم فى رحلاتهم إلى الشام للبحارة وغيرها،  
فأدخلوا عنهم التخفيف، على حين ظلت تميم وفيس — وكانوا فى نجد — بمنزل عن الاختلاط  
بالأجنى، فبقيت على التحقيق والبر.

(١) أنظر لسان العرب ١٥: ٢٣٨ (ط. بيروت).

(٢) أنظر المقنع لأبى عمرو الدانى ١٥٠.

(٣) أنظر ديوان الفرزدق ٥٠٨ (ط. الصاوى).

(٤) أنظر ديوان حسان بن ثابت.

## (هـ) حكم التخفيف :

التخفيف لمن يتكلم بالعربية من قبيل الامتصان لا الوجوب . فليس ممنوعاً أن يترك التخفيف ويعمل الى التحقيق ، بل هو الأصل . غير أن الظاهر أن أهل التخفيف من العرب كانوا يلتزمونه ، لاسيما اذا صح ما روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من قوله : « نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا أصحاب نبر ( أى همز ) ، ولولا أن جبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ما همزنا (١) » .

وقد يجمع العرب على التزام التخفيف في بعض الألفاظ ، كالحائية ، ألزموها التخفيف لكثرة الاستعمال . ومن ذلك : النبي والبرية ، عند الزخشرى ، فقد قال في المفصل : « وقد ألزم ذلك ( يريد التخفيف ) في نبي وبرية » ، ويقول ابن يعش في شرحه لهذا الموضع من المفصل : « يريد ترك الهمزة وقلها إلى ما قبلها وإدغامها على حد خطية ، إلا أنه في نبي وبرية لازم لكثرة الاستعمال بحيث صار الأصل مهجوراً ، فأعرفه (٢) » . وقد رد هذا القول بوجوب التخفيف ابن الحاجب في الشافية إذ يقول : « وقولهم : ألزم ( أى التخفيف ) في نبي وبرية غير صحيح ، ولكنه كثير (٣) » .

ولسيويه مقال في هذا ، وهو : « وقالوا نبي وبرية فالزمها أهل التحقيق البديل ، وليس كل شيء نحوهما يفعل به ذا ، إنما يؤخذ بالسبع . وقد بلغنا أن قوماً من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبي وبرية ، وذلك قليل رديء (٤) » .

قال ابن سيده في المحصص : « ولم يستردتها سيويه ذهاباً منه إلى أن أصله غير الهمز ، وإنما استرداها من حيث كثر استعمال الجمهور من العرب لها من غير همز . قال أبو عبيد قال يونس : أهل مكة يخالفون غيرهم ، يهزون النبي والبرية ، وذلك قليل في الكلام (٥) » .

(١) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٢

(٢) أنظر شرح المفصل لابن يعيش ٩ : ١٠٩

(٣) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٢

(٤) أنظر الكتاب ٢ : ١٧٠

(٥) أنظر المحصص ١٤ : ٨

هذا ، ويرى ابن الحاجب فيما ذكره من أبطال وجوب التخفيف فيما سبق إلى الذنب عن نافع في قراءته : النبيء بالهمز في القرآن حيث وقع ، كما يقرأ هو وابن ذكوان : البرية . قراءة نافع توافق قراءة أهل مكة ، وإذا فلا عيب عليها ولا غضاضة <sup>(١)</sup> .  
والزخشرى مواقع بلحين المقرئين كما يقر ذلك أبو حيان في تفسيره <sup>(٢)</sup> . والقراءة قد تأتي على القليل وعلى المرجوح في الاستعمال العربي ، ومن ذلك قوله تعالى : « وجمع الشمس والقمر » <sup>(٣)</sup> ، فالكثير تأنيث الفعل في مثل ذلك ، وإن جاز الوجان .

وقد ورد في شأن همز : النبيء حديث عن أبي خدر ، وهو ما أخرجه الحاكم في المستدرک أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبيء الله ، فقال : لست نبيء الله ولكن نبي الله <sup>(٤)</sup> .

على أن هذا الحديث إن صح فهو يفيد أن همز : النبيء ، لغة عربية . قال أبو عبيد . « أنكر ( النبي صلى الله عليه وسلم ) عدوله عن الفصحى ، أى فيجوز الوجان ولكن الأنصح بغير همز » <sup>(٥)</sup> .

وقد يكون إنما كره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يرمى به من يضر السوء إلى أخذه من . نبأ من أرض إلى أرض أى خرج منها ، فإذا سمع : يا نبيء الله ، جملة على معنى : يا من خرج من مكة إلى المدينة ، وقد يكون غرض القائل من هذا أنه خرج على غير وجه التكرمة .

وفي كلام سيويه السابق أيضاً ما قد يكون تعريضا بقراءة نافع ، إذ استردأ همز : النبيء ، الذى قرأ به نافع كما سبق . والنحويون مولعون بخطئته في القراءة ، قال أبو عثمان المازني في تعريفه : فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة : معائش ، بالهمز فهى خطأ

(١) أنظر إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر ٥٨ وما بعدها .

(٢) أنظر البحر المحيط لأبي حيان ١٥٠ : ١٥١

(٣) الآية ٩ من سورة القیامة ، وأنظر شرح الأشموني على الألفية ٢ : ٣٥ - ٣٦ (على هامش حاشية الصبان ط . الحلبي) .

(٤) في تفسير القرطبي ١ : ٤٣١ : « قال أبو علي : ضعف سند هذا الحديث ، وما يقوى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المادح : يا عاتم النبثاء . . . » يريد قول العباس بن مرداس : يا عاتم النبثاء إنك مرسل بالحق كل حتى السبيل هذا كما

فالنبتاء جمع تبيء بالهمز .

(٥) أنظر إتحاف فضلاء البشر ٥٨

فلا يلتفت إليها ، فانما أخذت عن نافع بن أبي نعيم ، ولم يكن يدري ما العربية ، وله أحرف يقرؤها من نحو هذا (١) .

على أن أكثر من روى عن نافع بروى : معاش ، بالياء ، وإنما روى عنه : معاش بالهمز ، خارجه بن مصعب كما ذكر ذلك ابن جني في شرح هذه التبعة من التصريف (٢) . وقد قيل في : النبي ، إنه من البوابة أى الرضة ، وعلى ذلك لا يكون فيه تخفيف . ورد ذلك بأنه يجمع على : نبثاء ، فهو مهووز أصالة كما حقق ذلك سيويته وتبعه الرضى وابن الحاجب وعمامة النحاة (٣) .

وأما البرية فيقول القراء : إن كانت من برا الله الخلق فأصلها الهمز ، وإن كانت من البرى ، وهو التراب ، فالياء أصلية (٤) .

ومن الذى أصله الهمز أيضا : الذرية ، إذا أخذت من : ذرا الله الخلق . فإن أخذت من النذر والياء للنسب ، لم تكن من هذا الباب (٥) .

ومما التزم فيه التخفيف بالحذف ما صيغ من الرؤية مبدوءاً بزيادة غير همزة الوصل ، وكان فعلا متصرفاً أو جارياً على الفعل . وذلك كالفعل المضارع الثلاثى والمزيد ، والفعل الماضى المزيد ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، نحو : برى ، وأرى ماضياً ومضارعاً ، ومرى (٦) .

وخرج عن الضابط المذكور : مرآة ، ومرأى ، وما أراه ، وهو أراى من فلان ، فتحذف ذلك لا ينطبق عليه هذا الضابط ، لأنه إما جامد غير متصرف كفعل التعجب وأفعل التفضيل ، وإما غير جار على الفعل .

ويستثنى من ذلك الضابط ما لا يكثر استعماله ، إذ كان مناط الحذف كثرة الاستعمال . ومن هذا قولهم : أرأت الشاة والناقة فهى مرئية إذا استبان حملها .

(١) أنظر كتاب المصنف لابن جني شرح قصر المازنى ١ : ٣٠٧ .

(٢) أنظر الكتاب السابق ١ : ٣٠٨ .

(٣) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٥ .

(٤) أنظر لسان العرب ١ : ٣١ .

(٥) أنظر اللسان فى الموضع السابق .

(٦) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤١ .

ومن الواضح أن ما خرج عن ضابط الزام التخفيف يجوز فيه التخفيف والتحقيق .  
ومن ذات فعل الأمر ، لابتدائه همزة الوصل ، فلك أن تقول : رمحدا<sup>(١)</sup> ، وأراًحمدا .  
فأما أنقل التفضيل ونقل التعجب فالظاهر أن التخفيف يتمتع فيها لما يترتب عليه من  
ضياع النصفة .

ومما ورد فيه التخفيف الجائز قول الشاعر :

حجرة عقب العباس عيونهم بمرى هناك من الحياة ومسح

ويستثنى أيضاً مما يجرى مجرى الفعل في الضابط السابق اسم مفعول الثلاثي ، وهو :  
مرى ، فحقه الإتمام ، والظاهر أنه لا يجوز فيه التخفيف لما يترتب عليه من التباسه بلفظ :  
مرى ، اسم مفعول من مرأه يمره إذا استخرجه .

وقد تقدم أن الأمر من الثلاثي يجوز فيه التحقيق ، وهو ما يفهم من كلام سيوييه ،  
وصرح به الفارسي في الحلييات . وفي التسهيل لابن مالك وشرحه للدميني أن الأمر  
كالمضارع ياتزم فيه الحذف . وعجالة التسهيل والشرح : « والتزم غالباً النقل ( أى حذف  
الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها ) فيما شاع من فروع الرؤية . وهي ( أى الفروع ) :  
مصدر رأى البصرية ، والرأى ، والرؤيا ( وهي مصدر رأى النامية ) والمراد بفروع ذلك  
كلمات المضارع نحو : أرى ، ويرى ، وترى ، ونرى ، والأمر نحو : ره » .

هذا ، والتزام الحذف والنقل فيما ذكر عند جمهرة العرب . وحكى سيوييه عن أبي الخطاب  
أن من العرب من يحقق ويقول : أراها<sup>(٢)</sup> . وفي شرح التسهيل أن هؤلاء هم : تيم اللات ،  
ومن ذلك قول سراقه الباري :

أرى عيني مالم ترأياه كلانا عالم بالترهات

فما رواه أبو زيد<sup>(٣)</sup> . وروى أبو حاتم عن أبي عبيدة : مالم تبصره . وإذا فلا  
شاهد فيه . وروى أبو زيد للأعلم بن جرادة السعدي :

( ١ ) في مثل : ر محمدا ، يرى أبو علي الفارسي أنه يجب كتابة هاء السكت « ره محمدا » نظراً  
لوقوف عليها . وأنظر الحلييات .

( ٢ ) عبارة سيوييه : وحديث أبو الخطاب أنه سمع من يقول : قد أراهم ، يجرى بالفعل من رأيت  
على الأصل ، من العرب الموثوق بهم .

( ٣ ) أنظر نوادر أبي زيد ٨٥

وَأَنشَدَ أَبُو زَيْدٍ أَيْضًا عَنْ رَجُلٍ لَمْ يَسْمَعْهُ :

والعيش منقلب إذ ذاك أفتاناً

والدار جامعة أزمان أزمانا

بالبين عنك بما رآك شتانا (٢)

و نقل عبد القادر البغدادي في شرحه لشواهد الشافية هذا الشعر عن أبي زيد في كتاب

ومن هنا يتبين أن تحقيق الهز فيما ذكر جاء في شعر سراقه البارقي ، ورجل من

نمى ، والأعلم السعدى ، ولا يعرف واحد منهم من تيم اللات . فالظن أن نسبة التحقيق

(و) موضع التخفيف :

لا يكون التخفيف في ابتداء الكلام . فإذا وقعت الكلمة المبدوءة بالهمزة في بدء

الكلام لم يكن سبيل إلى التخفيف ، لأنها في حالة التخفيف إنما تدبر على حسب ما قبلها .

وليس حذف همزة الوصل في نحو : سل ، من باب التخفيف ، لأن همزة الوصل إنما

حذفت لتحرك ما بعدها ، فاستغنى عنها .

وهناك ألفاظ سقطت الهزرة في أولها حتى أصبحت في الاستعمال عارية منها ، ولا يذكر

بالهزة فيها إلا ورودها في بعض الاشتغال . ومن ذلك : الناس ، فان أصله الأناس .

**وقد ورد ذلك في قول الشاعر :**

إن المنايا يطالعون على الناس الآمنين (٣)

ويؤيد ذلك الاشتقاق . فهو من الأنس . ويرى بعضهم أنه لا حذف هنا ، وإنما

لفظ: الناس ، من ناس إذا تحرك (٤) .

(١) أنظر الشاهد ١٦٠ في شرح شواهد الشافية البغدادى ٤ : ٣٢٩

(٧) أنظر شرح شواهد الشافية في الموضع السابق .

(٢) أنظر الخصائص لابن جني ٣ : ١٥١ ، وأنظر اللسان في مادة : نوس .

( ٤ ) أنظر لسان العرب في مادتي : أنس ونوس .



ومن ذلك : اللوكة للزينة ، أو للزينة بالرطب . فأصلها : الألوقة . وقد وردت  
الألوقة بهذا المعنى <sup>(١)</sup> . والذي يجعل الأصالة للألوقة الاشتقاق من التألق أى البريق .  
وإذا فُذِلَ لوقة عولة ، وألوقة فعولة :

وظن ابن سيده أن من يقول برد اللغظين إلى مادة واحدة يجعل الأصالة لكلمة :  
لوقة ، فيكون مثال ألوقة أضلة . واعترض هذا بأن الواجب حينئذ الصحيح لا الاعلال .  
وهاك عبارته على ما فى اللسان : « وقد توهم قوم أن الألوقة ، لما كانت هى اللوقة فى المعنى  
وتقاربت حروفهما ، من لفظها ، وذلك باطل ، لأنها لو كانت من هذا اللفظ لوجب  
تصحيح عينها ؛ إذ كانت الزيادة فى أولها من زيادة الفعل والمثال مثاله ، فكان يجب على  
هذا أن يقال . ألوقة ، كما قالوا فى : أثوب وأسوق وأعين بالصحة ليفرق بذلك بين  
الاسم والفعل <sup>(٢)</sup> . »

ومن ذلك جابة ، فى قولهم : أساء سبها فأساء جابة ، فأصلها : إجابة ، ثم كثر فجرى  
بجرى المثل فحذفت همزته تخفيفاً ، هذا ما يراه أبو العباس المبرد . ويرى ابن جنى أن إجابة ،  
فعله من : أفل ، كأرذمت الساء رزمة ، وأجلب القوم جلبه . وجعل مما يؤيد رأيه قولهم :  
أطعت طاعة ، وأطقت طاقة ، وليس واحد منها بمثل ، ولا كثر فيجرى بجرى المثل  
فحذفت همزته <sup>(٣)</sup> .

ومما يشبه الحذف فى مثل ذلك عند العامة قولهم : الميرى ، فى : الإميرى .

( ز ) هل للتخفيف شرط ؟

يدعو أن التخفيف بالتسهيل حيث يتحقق موضعه لاثمى فيه ولا حاجز منه .  
فأما التخفيف بالحذف وتقل الحركة فيقول فيه الرضى : « ولا يجوز تقل الحركة  
فى باب : أناطر <sup>(٤)</sup> ، لإلزامهم نون انقل السكون <sup>(٥)</sup> » . وفى التسهيل أن هذا هو  
ما عليه الأكثر ، ومقتضاه أن قوماً من النحاة يجهلون النقل فيه فيقولون : إنطر .

( ١ ) أنظر لسان العرب فى مادة ( ألق ) .

( ٢ ) أنظر لسان العرب فى مادة ( ألق ) .

( ٣ ) أنظر الخصائص ٣ : ٧٤

( ٤ ) مطاوع أطره يطره أطرا - من باب ضرب ونصر - إذا عطفه فانمطف أى ثناه فانثى .

( ٥ ) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٦

ولكن هل يجوز النقل إذا كان يحدث لبسا في الصيغ والابنية ، كما في نحو : استلثم ، أى لبس الائمة أى الفرع ؟. فلو خفف لثقل : استلثم ، فالتبس بالافتعال من السلم وهو الحجر ، يقال : استلثم الحجر الأسود . وفي كتاب الكتاب لابن درستويه ما يقضى بجواز التخفيف <sup>(١)</sup> ، ولذلك يكتب استلثم : استلثم ، وكذلك : يستلثم ، فلا يثبت لها صورة في الرسم ، وهذا يقضى عنده بئويتها في التخفيف . وكذلك : أسار ، فهو يكتب : أسر يسر ، دون صورة الهزة نظراً لذلك . وإذا خفف أسار إلى : أسر ، التبس بفعل من الأسر .

### ( ح ) التخفيف في الجامد :

تقدم بعض القول في أفضل التفضيل وفعل التعجب من رأى <sup>(٢)</sup> . والظاهر أن فعل التعجب لا يجرى فيها التخفيف ، لأن الإعلال الجارى عند عامة العرب لا يجرى فيها ، نحو : ما أقومه بالحق وأقوم به ، وداعى الاعلال أشد من داعى التخفيف . وأفضل التفضيل يجرى بجرى التعجب .

### ( ط ) التخفيف في لسان المتعلمين :

يجرى المتعلمون بمصر في هذا العصر على تحقيق الهز في قراءتهم ، ولا يكادون يعرفون التخفيف . وكان السبب في هذا قراءة القرآن على رواية حفص عن عاصم . وتجري هذه القراءة على التحقيق إلا في قوله تعالى : « أنجى وعوى » <sup>(٣)</sup> ، فهو هنا يسهل الهزة ويجعلها بين يين .

### ( ي ) أضرب التخفيف :

#### أضرب التخفيف ثلاثة

الأول التسهيل ، أو بين يين : وهو أن تأتى بالهزة بينا وبين حرف حركتها ( وهو الألف أو الواو أو الياء ) وتجعل الحركة التى عليها مختلصة سهلة بحيث تكون كالساكنة :

( ١ ) أنظر كتاب الكتاب لابن درستويه ص ١٤

( ٢ ) أنظر ص ١٧ من هذا البحث .

( ٣ ) فى الآية ٤٤ من سورة : فصلت .

والتسهيل — على هذا النحو — هو الأصل في التخفيف ، ويقصر بعضهم التخفيف عليه ، وذلك لما فيه من المحافظة على جوهر الهزمة . ويأتى بعده الإبدال ، لما فيه من التعويض منها . ثم يأتى في النهاية الحذف ، لما فيه من إضاعة الهزمة والاستغناء عنها بنقل الحركة ، ومن هذا يتضح أن إطلاق التخفيف على القسمين الأخيرين من باب التوسع .

وهل من التخفيف بالحذف قصر المملود وفيه حذف الهزمة ؟

الظاهر أن التخفيف بالحذف لا يشمل ذلك ، لأن المراد الحذف بعد نقل الحركة . وأيضاً قصر المملود إنما تجيزه الضرورة ، والتخفيف بالحذف يجري في اختيار الكلام على ما تقدم .

مواضع التسهيل :

يجرى التسهيل في المواضع الآتية :

١ — إذا كانت الهزمة مكسورة بعد متحرك كيفما كانت حركته <sup>(١)</sup> ، نحو : سم ، وسئل ، ومثين ، ونحو : قال إسحاق ، ورأيت إبلك ، وعلت إيماني . أى سواء أ كان ذلك في كلمة واحدة أم كلمتين .

٢ — إذا كانت الهزمة مضبوطة بعد متحرك كيفما كانت حركته <sup>(٢)</sup> ، نحو : ثوم ، ومثون ، وسئول ، ونحو : قال أسامة ، ورأيت أمه ، وكن خادماً لأمك .

٣ — إذا كانت الهزمة مفتوحة بعد فتح ، نحو : سأل ، وقال أبوه <sup>(٣)</sup> .

٤ — إذا كانت الهزمة متحركة بعد ألف كيفما كانت حركتها ، نحو : تسامل ، والتسائل ، وقائل ، ونحو : رعى أباه ، ونادى أمه ، وسقى إبله <sup>(٤)</sup> .

وترى أن الهزمة المسهلة لا تقع بعد ساكن غير الألف ، وذلك لأنها قريبة من السكون ، ولا تقع هزمة بين بين إلا في موضع لو كان فيه ساكن لجاز ، ويستثنى من ذلك الألف .

(١) أنظر كتاب النشر لابن الجزرى ١ : ٣٣٢

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

وينقل ابن الجزرى عن أبى حيان فى الارتشاف<sup>(١)</sup> أن الكوفيين أجلزوا أن تقع همزة بين بين بعد كل ساكن (أى ألفا أو غيره) كما تقع بعد المصرك ، كما يذكر أن أباحيان علق على ذلك بقوله : هذا يخالف لكلام العرب . والعجب أن الكوفيين يرون — كما سيأتى — همزة بين بين ساكنة ، فكأنهم يحذرون التقاء الساكنين فى هذا الباب إذ كانت الهمزة فى حكم المد .

ووافق الكوفيين من القراء أبو العلاء الهمدانى فيما وقع فيه الهمزة بعد حرف مد (نحو : يسوء ويحيى) ، قياسا لغير الألف على الألف . قال ابن الجزرى : « وذلك ضعيف جدا ، فأنهم إنما عدلوا إلى بين بين بعد الألف لأنه لا يمكن معها النقل ولا الإدغام (يريد الإبدال) ، بخلاف الياء والواو . والله أعلم » .

على أن الحافظ أباعمر الدانى حكى ذلك فى «موثلا»<sup>(٢)</sup> و «الموردة»<sup>(٣)</sup> ، وقال إنه منذهب أبى طاهر بن أبى هاشم . وهو قريب فى «موثلا» من أجل اتباع الرسم عند من يأخذ به ، إذ كتب فى المصحف العثمانى دون همز . وسهل بعضهم للنبي بين بين ، واستضعفه صاحب النشر<sup>(٤)</sup> .

#### تعقيبات :

(١) يخالف الأخفش فى تخفيف الهمزة المكسورة بعد ضم ، نحو : سئل ، والمضومة بعد كسر ، نحو . يستزى . فيخفف بالإبدال ، فى الأول واو ، وفى الثانى ياء ، لما فى نقل شبه الياء الساكنة بعد الضم ، وشبه الواو الساكنة بعد الكسر . والمنقول عنه قوله بالإبدال فى هذين الموضعين أننا كان الحرف . وقال ابن الجزرى : « والذى رأيت أنه فى كتاب معانى القرآن له (أى للأخفش) أنه لا يميز ذلك إلا إذا كانت الهمزة لام الفعل ، نحو : « سترئك »<sup>(٥)</sup> ، و « التلوت »<sup>(٦)</sup> . وأما إذا كانت عين الفعل ،

(١) المرجع السابق .

(٢) فى الآية ٥٨ من سورة الكهف .

(٣) فى الآية ٨ من سورة التكاوير .

(٤) أنظر النشر لابن الجزرى ١ : ٣٧٨ .

(٥) فى الآية ٦ من سورة الأعر .

(٦) فى الآية ٢٣ من سورة الواقعة .

نحو : مثل ، أو من منفصل ، نحو : يرفع إبراهيم ، ويشاء أبى ، فانه يسهلها بين بين كذهب سيويه . والذي يحكيه عنه النحاة والقراء إطلاق الإبدال في النوعين . وأجازه كذلك عن حزة في الوقف أبو العرب القلانسي وغيره ، وهو تاهر كلام الشاطبي . ووافق أبو العلاء المحدثاني على جواز الإبدال في المضمومة بعد كسر فقط مطلقاً أى في المنفصل والمتصل ، فأم الفعل أو لامه وحكى أبو العز ذلك في هذا النوع خاصة عن أهل واسط وبغداد ، وحكى تسهيل بين بين عن أهل الشام ومصر والبصرة . وحكى الاستاذ أبو حيان النحوى عن الأخفش الإبدال في النوعين ، ثم قال : وعنه في المكسورة المضموم ما قبلها من كلمة أخرى التسهيل بين بين ، فنص على الوجهين جميعاً في المنفصل (١) ،

هذا ، ويرى بعضهم تسهيل الهززة في هذين الموضعين يجعلها بين الهززة وحركة ما قبلها لا حركتها هي ، ويسمى هذا : بين بين البعيد . ويقول الرضى . انه ( أى هذا البعض ) أثر ذلك فواراً بما لزم سيويه في بين بين المثنور من بجىء شبه الواو الساكنة بعد الكسر ، وشبه الياء الساكنة بعد الضم ، وبما لزم الأخفش من بجىء الواو الصريحة متحركة بالكسر بعد الضم في سول ومن بجىء الياء الصريحة متحركة بالضم بعد الكسر في مسنزون (٢) .

ويرى ابن الجزرى أن بين بين البعيد غير ممكن لفظاً ، فانه لا يمكن منه إلا بعد تحويل حركة الهززة إلى حركة ما قبلها أو إثباتها إياها (٣) . ففى نحو : مثل ، لا بد من تحويل الكسرة إلى الضمة أو إثباتها للضمة حتى تناسب الواو . وهو يسمى هذا الوجه وجهاً معضلاً . انظر قوله في مسألة ينشئ وشبه مما وقعت الهززة فيه مضمومة بعد كسرة . وذكر أن فيها خمسة أوجه : « وخامها الوجه المعضل ، وهو تسهيلها بين الهززة والياء على الروم (٤) » . ويقول مثل هذا في ص ٤٧٥ من الجزء الأول من النشر .

ولا يعرف صاحب التسهيل بين بين البعيد . ويذكر الرضى أن بعضهم نفسه أيضاً إلى الأخفش (٥) . وفي حواشى الجار بردى على الشافية أن صاحب هذا المذهب ( أى بين بين

( ١ ) أنظر النشر ١ : ٤٣٧

( ٢ ) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٦

( ٣ ) أنظر النشر ١ : ٣٨٣

( ٤ ) أنظر النشر ١ : ٤٦١

( ٥ ) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٦

البعيد ( أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح <sup>(١)</sup> . وفي النشر حكى هذا المذهب في كافيه : وابن شريح هذا والد أبي الحسن السابق . وعبارة النشر : « وقد أبعد وأغرب ابن شريح في كافيه حيث حكى تسهيلها ( يريد الهمزة المكسورة بعد أخرى مضومة ) كالواو <sup>(٢)</sup> » . فابن شريح حكى هذا المذهب فقط ، وإذا فهو مذهب قديم قبل أبي الحسن وأبيه .

(ب) همزة بين بين في حكم المتحركة . يرى البصريون أنها متحركة وإن كانت قريبة من الساكن . ويرى الكوفيون أنها ساكنة . وقد احتج سيويه عليهم بقول الأعشى :

أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَضْرِبَهُ رَيْبُ الْمُنُونِ وَدَهْرٌ مِثْلُ خَبْلِ <sup>(٣)</sup>

فقد جرى التسهيل في الهمزة الثانية ، وهي في حكم المتحركة ؛ إذ لو كانت في حكم الساكنة لالتقى ساكنان . ولا يكون هذا في الشعر إلا في المقارب <sup>(٤)</sup> ، كقول الشاعر :

فذلك القصاص وكان الفقا . من فرضا وحما على المسلمينا

وهذا الاحتجاج من سيويه مبني على ما براه هو من وجوب التخفيف إذ يزعم أن أحدا من العرب لا يحقق الهمزتين في هذا الموضع ، ولا يرى هذا الكوفيون . وهم يقرمون بالتحقيق نحو : « أأنزتهم <sup>(٥)</sup> » ، فقد احتج سيويه عليهم بما لا يرون . وكان الأعشى من بلدة « مفوحة » باليمامة ، وهي بعيدة عن الحجاز ، فكان من أهل التحقيق .

وكان الاختش تأثر بالكوفيين في همزة بين بين فلم يجز ذلك في المكسورة بعد ضم والمضومة بعد كسر ، وذهب إلى مذهب الإبدال كما سبق . وإلى ذلك ينظر قول الرضى : « إذ لو سهلت لكانت الأولى ( أى في يستزنون ) كالواو الساكنة ولا نجىء بعد الكسرة ، والثانية ( أى في مثل ) كالياء الساكنة ولا نجىء بعد الضمة ، كما لا نجىء الألف بعد الضمة والكسرة <sup>(٦)</sup> » . وقد عقب الرضى على هذا القياس بقوله : « وهذا الذى ذهب إليه قياسا على مؤجل ومائة وإن كان قريبا ، لكن لسيويه أن يفرق ويقول :

( ١ ) ص ٢٥٧

( ٢ ) أنظر النشر ١ : ٣٨٣

( ٣ ) أنظر الكتاب ٢ : ١٦٧

( ٤ ) أنظر الكامل للبهراني ١ : ٢٠

( ٥ ) في الآية ٦ من سورة البقرة .

( ٦ ) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٦

المسئلة المفتوحة لم يستحل بجيها بعد الضم والكسر ، لكن لما استحال بجيء الألف الصريحة بعدهما منع بجيء شبه الألف ايضاً بعدهما . وأما الواو الساكنة فلا يستحيل بجيها بعد الكسرة بل يستعمل ، وكذلك الياء الساكنة بعد الضمة ، فلم يمنع بجيء شبه الواو الساكنة بعد الكسرة وشبه الياء الساكنة بعد الضمة <sup>(١)</sup> .

هذا ، والأحسن في الاحتجاج على الكوفيين قول أبي طالب — كما أنشده في اللسان :

أمن أجل جبل لا أباك ضربته بمنسأة قد جر جحك أجلاً <sup>(٢)</sup>  
وأبو طالب قرشى من لغته تخفيف الهزة ، فالهزة في : منسأة ، لو كانت في حكم الساكنة لم يستقم وزن البيت ، والهزة هنا صدر مفاعيلن في الطويل .

(ج) التسهيل عند القراءة . أخذ به بعض القراء في بعض الحروف . قرأ به نافع وأبو جعفر في ( رأيت ) إذا وقع بعد همزة الاستفهام . وكذلك سهل بعضهم في نحو ( أفأصفاكم ربكم ) <sup>(٣)</sup> . ونحن نقرأ لخص عن عاصم بالله هيل في ( أأنجي وعري ) <sup>(٤)</sup> .

\*\*\*

٢ — والضرب الثاني من ضروب التخفيف هو : الحذف . وحذف الهزة يسبقه نقل حركتها إلى ما قبلها لتكون دليلاً عليها . ومن ثم كان شرط هذا الضرب أن يكون ما قبل الهزة ساكناً قبل الحركة . وهو يكون فيما يأتي :

- ( أ ) أن تكون الهزة بعد ساكن صحيح ، نحو : مسلة في مسألة ، وخب في خب .
- ( ب ) أن تكون الهزة بعد واو أو ياء غير زائدين للذ ، نحو : شى وشو في شىء وسوء . ويدخل في ذلك نحو : « فريضكم » بدل : في أرضكم ، واتبو مرم ، بدل : واتبوا أرمكم ، مما جاء في كلمتين لا كلمة واحدة .

ونقل السيرافي — كما في الرضى <sup>(٥)</sup> — أن بعض العرب ينقل مثلثاً حركة الهزة المنفصلة ( أى في كلمتين ) إلى آخر الكلمة المتحركة بحركة بنائية ، نحو : قال سحاق ،

( ١ ) الموضع السابق .

( ٢ ) أنظر لسان العرب في مادة ( نسا ) .

( ٣ ) في الآية ٤٠ من سورة الإسراء .

( ٤ ) في الآية ٤٤ من سورة السجدة .

( ٥ ) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٧

وقال سامة (بدلا من : قال اسحاق وقال أسامة) ؛ وأن بعضهم يحذف في هذا دون  
 قتل للحركة (أى قال اسحاق وقال سامة) . وقد بينا من قبل أن قياس هذا هو  
 التسهيل بين يين .

وبرى القراء أن النقل والحذف لا يكونان إذا كان الساكن قبل الهزة حرف مد ،  
 سواء أكان مزيدا للدم لم يكن . وإذا فلا قتل في نحو : « في أنفسكم <sup>(١)</sup> » ، بخلاف :  
 « يابى آدم <sup>(٢)</sup> » ، لأن الياء في الأخير ليست مدا <sup>(٣)</sup> .

### تعقيبات :

(١) عدل بعض العرب عن النقل والحذف في نحو : يسألون ، استكراها للحذف ،  
 فأثر القلب المكافى ، ليتسنى له التخفيف بالاببدال ، فقال : يسألون ، قال الشاعر :

إذا قام قوم ياسلون مليكم عطاء فدهماء الذى أنا مسائله <sup>(٤)</sup>  
 ومن هذا : يابس ، فى : يباس . وقد قرأ البزى فيما روى عنه ربيعة <sup>(٥)</sup> : « ولا تايسا  
 من روح الله <sup>(٦)</sup> » ، وكذلك : « فلما استايسا منه خلصوا نجيا <sup>(٧)</sup> » .

(ب) الحركة المنقولة من الهزة على الساكن قبلها تعد حركة غريبة عن الحرف ،  
 فلا تستقل على الواو والياء فى مثل : شى وسو . ولا يتقلب لها الحرف فى نحو : جيل  
 مخفف : جبال للضيع ، وتوم مخفف توأم .

(ج) وما يحصل بالمسألة الأخيرة مسألة : الأحمر . وذلك إذا أدخلت أل المعرفة  
 على المبلوء بالهزة ، وقلبت حركتها على أل فتحركت اللام بها ، ثم ابتدأت بالكلمة ،  
 فهل تبقى هزة الوصل فى النطق أو تحذف ؟ فلى الأول قول فى الاجتهاد : الأحمر خير من

(١) كما فى الآية ٢٣٥ من سورة البقرة .

(٢) كما فى الآية ٢٧ من سورة المائدة .

(٣) أنظر النشر لابن الجزرى ١ : ٣٩٩

(٤) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٩ وأنظر أيضا الشاهد ١٥٨ فى شر شواهد الرضى

على الشافية ٣٢٢

(٥) أنظر النشر لابن الجزرى ٢ : ٢٩٦

(٦) فى الآية ٨٧ من سورة يوسف .

(٧) فى الآية ٨٠ من سورة يوسف .



سواء ، وأرض مستديرة ، وعلى الثاني : لحر ولرض . وأكثر العرب على الأول . وعلى هذا قول الرقاشي :

ألا استرحنا واستراحت ركابنا وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي<sup>(١)</sup>  
ويحمل ذلك علم الاعتداد بالحركة العارضة .

ومن عدم الاعتداد بالحركة العارضة هنا أيضا بقاء حذف ما حذف لالتقاء الساكنين قبل التخفيف ، نحو ( فلرض ) في ( في الأرض ) و ( من لرض ) في ( من الأرض ) . وعلى ذلك قراءة : « قالان اجئت بالحق<sup>(٢)</sup> » في : « قالوا الآن » ، وهي قراءة نافع في إحدى الروايتين عنه<sup>(٣)</sup> . وقد نال ابن جنى عن هذه القراءة : « إنها القراءة القوية<sup>(٤)</sup> » . ويؤخذ من النشر أن جمهرة القراء على ذلك<sup>(٥)</sup> . ولم يشذ إلا بعض ألفاظ سنذكرها في الوجه الثاني .

أما الوجه الثاني وهو الاعتداد بالحركة العارضة — ويعبر عنه بإجراء غير اللازم بجري اللازم — فيقال عليه : في لرض ، ومن لان . وجاء منه قول الشاعر :

وقد كنت تخفى حب سمراء حقبة فبح لان منها بالذي أنت بأخ<sup>(٦)</sup>  
فأسكن الحاء التي كانت متحركة لالتقاء الساكنين في : بح الآن ، لما تحركت اللام للتخفيف . ومنه قول الآخر :

جديدي حديدي منكم لان إن بني فزارة بن ذيسان  
قد طرفت ناقهم يانسان مشياً سبحان ربي الرحمن<sup>(٧)</sup> :

فتراه سكن ميم ( منكم ) لما تحركت لام : الآن ، وقد كانت مضمومة عند التحقيق في قولك : منكم الآن . قال ابن الجوزي في النشر : « وعلى ذلك قرأنا لابن محيصن

( ١ ) أنظر كتاب الوزراء للجيشياري ٢٣٦

( ٢ ) في الآية ٧١ من سورة البقرة .

( ٣ ) أنظر البحر المحيط لأبي حيان ٢٥٧ : ١

( ٤ ) أنظر الخصائص ٣ : ٩١

( ٥ ) أنظر النشر لابن الجوزي ٤٠٩ : ١

( ٦ ) أنظر الخصائص ٣ : ٩٠

( ٧ ) أنظر الخصائص ٣ : ٩١

(يسألونك عن لمة) <sup>(١)</sup> و (عن لنفال) <sup>(٢)</sup> (من لامين) <sup>(٣)</sup> . وشبهه بالاسكان في التون وإدغامها . وهو وجه قراءة نافع ومن معه : (عادا لولى) في النجم <sup>(٤)</sup> .

وأشار ابن جنى في الخصائص إلى وجه آخر ، وهو أن يكون التوين في (عادا) كان مكسورا لسكون اللام بعده في الأصل ، وإن كانت الآن متحركة ، ثم سكن للادغام . قال . ومثله ما أشده أبو زيد :

ألا يا هند هند بنى عمير أرث لان وصلك أم جديد

أدغم توين (رث) في لام (لان) <sup>(٥)</sup> . ومن ذلك قراءة نافع في رواية ثانية :  
« قالوا لان » <sup>(٦)</sup> .

هذا ، والاعتداد بحركة اللام العارضة في إبقاء همزة الوصل في الابتداء بنحو : الجهر ، بناء على أن أداة التعريف هي اللام ، وهو رأى سيبويه . فأما على رأى الخليل : أن الاداة أل ، وأن الهمزة همزة قطع بدليل فتحها ، فانها تبقى سواء أهل العارض أم اعتد به . وقد ذكر ذلك الطبري <sup>(٧)</sup> ، وتبعه ابن الجزرى <sup>(٨)</sup> . وإذا كان الوجهان واردان في العربية — أى الاعتداد بحركة اللام العارضة وإهمالها — فلا يسع الخليل إنكار علم الابتداء بالهمز . فأما أن يطل منعه في أداة التعريف ، وإما أن يجعل للهمزة هنا حكم همزة الوصل في كل شيء ، فيستوى هنا إذا وجها الخليل وسيبويه .

ويذكرنا باب : الجهر ، مما خفت فيه همزة القطع ، بباب الاستغفار ، مما دخلت فيه أداة التعريف على همزة الوصل لا القطع . فهل يقال في الابتداء : استغفار من الذنوب واجب ، أو : استغفار ؟ أى إذا حركت اللام بحركة التخلص من التقاء الساكنين فهل يكون الحكم كما لو تحركت بحركة النقل في جواز الوجين على ما سبق ، أو لهذه المسألة حكم آخر ؟

(١) في الآية ١٨٩ من سورة البقرة .

(٢) في الآية ١ من سورة الأنفال

(٣) في الآية ١٠٩ من سورة المائدة .

(٤) في الآية ٥٠ من سورة النجم وأنظر النشر ١ : ٤١٠

(٥) أنظر الخصائص ٣ : ٩١

(٦) أنظر البحر المحيط لأبي حيان ١ : ٢٥٧

(٧) أنظر حواشي الجاريدى على الشافية ٢٥٨

(٨) أنظر النشر في الموضع السابق .

يؤخذ من كلام ابن يعيش على المفضل أنه لا عبرة بهذه الحركة ، وأنه يؤتى بالهمزة البتة . ومن كلامه قوله : « ومن ذلك الانطلاق ، حركوا اللام لالتقاء الساكنين ومع ذلك همزة الوصل ثابتة لم تحذف <sup>(١)</sup> » . ويقول الجاربردى : « والأظهر أن باب الاحتدار والاستغفار كذلك في جواز أستغفار ولستغفار <sup>(٢)</sup> » . وكتب في حواشيه : « قوله الأظهر الخ ، كذا في شرح الشريف أيضاً . ومقابل الأظهر في هذا الباب وجوب الحذف ، لأن حركة اللام لموجب وهو التقاء الساكنين بخلاف باب الأحمر ، فاتها لمجرد التخفيف » .

فترى بما ذكر أن مسألة الانطلاق فيها ثلاثة أقوال : قول بوجوب همزة في الاجداء ، وقول بوجوب حذفها ، وقول بجواز الأمرين مع ترجيح إثباتها . فأما القول بوجوب إثبات همزة فلا أن حركة التخلص من الساكنين لم يعتد بها في نحو لم يقيم الرجل حيث لم تعد العين المحذوفة من فعل يقوم بسببها ، فكذلك لا يعتد بها هنا ، فبقي همزة كما لو كانت اللام ساكنة ، وهو رأى ابن يعيش واحتجابه . وأما القول بوجوب حذف همزة فلا أن حركة اللام حركة واجبة فأشبهت الأصلية ، فكان معها حذف همزة . وقد علمت أن العرب لم تسر وراء هذا النظر ؛ إذ لو سارت إليه وقصدت قصده لأعادت ما حذف للسكون في نحو لم يقيم الرجل ، ولم يكن الذين . فأما قياسها على مسألة الجر فله بعض الوجه ، وإن كان الأوجه علم الاعتداد بها كما سبق .

وقد عرض القراء لهذه المسألة ، قال في النشر : « وأما الاجداء بالاسم من قوله تعالى : ( بئس الاسم ) ، فقال الجعبري : وإذا اجندأت بالاسم فالتى بعد اللام على حذفها للكل ، والتي قبلها بقياسها جواز الإثبات والحذف ، وهو الأوجه لرجحان العارض الدائم على العارض المفارق . لكن سألت بعض شيوخى فقال : الاجداء بالهمز وعلايه الرسم انتهى . قلت : الوجهان جائزان مبنيان على ما تقدم في الكلام على لام التعريف . والأولى الهمز في الوصل والنقل ، ولا اعتبار بعارض دائم ولا مفارق ، بل الرواية ، وهى بالأصل الأصل . وكذلك رسمت . نعم الحذف جائز <sup>(٣)</sup> » .

(١) أنظر شرح المفضل لابن يعيش ٩ : ١١٥

(٢) أنظر حواشى الجاربردى ٢٥٩

(٣) أنظر النشر لابن الجزرى ١ : ٤٠٩

ويوضح من هذا أن الجعبري يميل إلى ترجيح الحذف نظرا إلى أن حركة التقاء الساكنين دائمة ، وابن الجزري يرى رجحان الإثبات قياسا على مسألة الأجر ، كما يرى الجاربردي ، وابن يعيش يرى أنها حركة التقاء الساكنين وهي لا يعتد بها . فأما حركة الجر فحركة تخفيف فهي تخالف تلك . وقد يقال إن الحركتين تتساويان في أنهما جميعا عارضتان ، فما الفرق بينهما ؟ ويفرق بينهما الجاربردي بأن حركة اللام أشبهت حركة سل ، إذ كانت اللام كالجزء من الكلمة لفظا لكونها على حرف واحد ، ومعنى لأنها غيرت مدلولها من التكرار إلى التعريف . وكأنه يرى أن مسألة : الجر اجتنبها قياس آخر ، وبقي نظيرها وهو حركة التقاء الساكنين على حكمه . ولكن هل هذا القياس يجري في اللام المحركة بحركة التقاء الساكنين ؟ نعم يجري عنده . ويدل على ذلك أنه يقول : « والأظهر أن باب الإعتدال والاستغفار وكذلك الخ » . فالجاربردي يفرق في حكم حركة التقاء الساكنين ، وابن يعيش يسلك بهما منهجا واحدا .

بقى وجه الاعتداد بالحركة العارضة في ( سل ) فلا يؤتى معها بهزة الوصل التزاما عند غير الأعفاس . فلا يقال في الإجداء : إسل . وقد ذكر ابن الحاجب في الجواب عن ذلك أن في ( سل ) اتحاد الكلمة في الحرف المنقول عنه والحرف المنقول إليه ، فكان الحركة في مكانها ، بخلاف باب الأجر ، فإن الحركة انتقلت من كلمة إلى أخرى ( وهي أداة التعريف ) فلم تكن في مكانها وكانت على شرف الزوال فلم يعتد بها . وكذلك اعتد بالحركة العارضة في ( قل ) لما تقدم في ( سل ) . ولما كانت الحركة هنا لازمة واجبة لوجوب الإعلال وجب طرح هزة الوصل دائما (١) .

ومن فروع الاعتداد بالعارض وإجراء غير اللازم مجرى اللازم في هذا الباب الإدغام في قوله تعالى : ( لكنا هو الله ربى (٢) ) ، وأصله : لكن أنا ، خففت الهزة بحذفها وإلقاء حركتها على نون لكن فصارت : لكن نا ، فأجرى الإدغام (٣) .

وقيل : حذف الهزة من ( أنا ) على غير قياس ، فالتقت نون ( لكن ) وهي ساكنة ، ونون ( أنا ) فأدغمت فيها (٤) . وقد دعا إلى هذا التخريج وأن أصلها ( لكن أنا ) الوقف

(١) أنظر شرح الشافية ٣ : ٤٢

(٢) في الآية ٣٨ من سورة الكهف .

(٣) أنظر الخصائص ٣ : ٤١ وأنظر الكشف للزمخشري في تفسير الآية من سورة الكهف . وأنظر أيضا البحر المحيط لأبي حيان ٦ : ١٢٨

بالألف . وأيضاً فقد قرأ ابن عامر وغيره بأبواب الألف وصلوا ووقفوا ، وخرج الوصل على لغة تميم في إثبات ألف أنا ، قال الشاعر :

أنا شيخ العشيرة فاعرفوني      حبيلاً قد نذريت الستاما (١)

وروى عن أبي عمرو أنه وقف بالهاء لا بالألف .

قال « الزمخشري » ونحوه قول القائل :

وترميني بالطرف أى أنت مذهب      وتهليني لكنّ إياك لا أقل

أى لكنّ أنا إياك لا أقل (٢) . وقال أبو حيان في ذلك : « لا يعين ما قاله (الزمخشري) في البيت لجواز أن يكون التقدير : لكنني ، فحذف اسم لكن ، وذكروا أن حذفه فصيح إذا دل عليه الكلام ، وأنشدوا على ذلك قول الشاعر :

قلو كنت ضياعاً عرفت قرابتي      ولكن زنجي عظيم المشافر (٣)

وقد قرئ : « لكننا هو الله » ، بناء على علم الاعتداء بالعارض ، ويظهر أن وجهه هو أن الحركة كأنها لا تزال على الهز فكأنها فاصلة بين التوين ، فلم يكن سبيل إلى الإدغام (٤) .

### الحذف بدون نقل الحركة :

حكى سيدييه عن العرب أن منهم من يقول : هو يجيك ويسوك ، في يجيئك ويسومك ، ويقول في النصب : يريد أن يجيك ويسوك ، كرهوا الضمة في الأول لنقلها ، وأظهروا الفتحه لحقتها . ويقول هؤلاء في الجزم : لم يج ولم يس ، بحذف حرف العلة كما لو كان آخر الفعل (٥) . ويروي أن بعض العرب قال : من أراد أن يأتيك فليج (٦) . ويقول في الوقف : لم يج ولم يس ، بالاسكان . وإذا خففت على هذا نحو : يرمي إخوانه ، بدون إظهار الحركة على ما قبل الهزة ، قلت : يرمي إخوانه ، بحذف الياء إذ تسكن مع الحاء .

(١) أنظر البحر المحيط لأبي حيان ٦ : ١٢٨

(٢) أنظر الكشاف في تفسير آية الكهف .

(٣) أى لكنك زنجي ، وأنظر الكشاف في الموضع السابق والبحر المحيط ٦ : ١٢٨

(٤) أنظر المحتسب لابن جني في الآية من سورة الكهف .

(٥) أنظر الكتاب ٢ : ١٧١

(٦) أنظر المختصر لابن سيده ١٤ : ١٥

وضابط هذا الباب أن تقع الهزة لام كلمة وقبلها واو أو ياء ما كـتـان ، أو صدر كلمة وقبلها واو أو ياء ما كـتـان . وذكر الرضى من هذا الباب أيضا أن تكون قبل الهزة ألف نحو : يشاء ، تحذفها فتقول : هو يشاء ، ولم يش ، وتقول على قياس هذا : هو يش سئلة سهلة (١) .

وظاهر كلام سيويه أن هذا التخفيف قياسي إذ كان منسوبا إلى فريق من العرب (٢) . وقد جاء من الحذف الشاذ نحو : قال إسحاق ، وقال سامية ، أى قال إسحاق وقال أسامة (٣) .

ومن الشاذ أيضا حذف الهزة إذا وقعت بعد ألف من كلمة أخرى ، نحو : محسن زيدا ، فى : ما أحسن زيدا ، وتمرك يا محمد ، أى ما أمرك . فإن كان بعد الهزة متحرك فبقيت الألف ، كما فى قول الشاعر :

ما شد أنفسهم وأعلمهم بما يحبى الزمار به الكريم المسلم  
ذكر الثنود فى هذا صاحب المخصص (٤) . وظاهر عبارة الرضى أنه قياس إذ يقول :  
• وقال بعضهم : تحذف الهزة المنفصلة أى التى فى أول الكلمة إذا وقعت بعد الألف الخ (٥) .

وما يلحق بهذا الحذف لضرورة الشعر . ومن ذلك قول الشاعر :  
نحن اللغو بعكاظ طبروا شررا  
من روس قومك ضربا بالمصايل  
فروس أصله : رموس ، تحذفت الهزة . ووزنها الآن : قول لا فعول .  
ومن الحذف للضرورة أيضا قول الراجز :

بصرية تزوجت بصرية  
بطعها المالح والطريـا  
وجيد البر لها مقليا  
حتى تفت صرتها نيا

(١) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٦

(٢) أنظر الكتاب ٢ : ١٧١

(٣) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٧

(٤) أنظر المخصص ١٤ : ١٦

(٥) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٧

فقوله : تت أصله : نأت ، خذف الهزة للشعر . ويقول الجواليقي : « وتنت أصله تنأت ، فأبدل الهزة ألفاً وحذفها لالتقاء الساكنين <sup>(١)</sup> » . والظاهر أنه لا داعي لهذا الإبدال ثم الحذف ، وأنه يقال بالحذف أولاً كما قدمنا .

ومن حذف الهزة سماعاً بلا ضابط ، ما ذكرناه في كلمة : الناس <sup>(٢)</sup> . ومن ذلك أيضاً : سامة ، في : أسامة . وقد جمع الشاعر فيه بين الهمز وحذفه في قوله :

عين بكى لسامة بن لوى علق من أسامة العلاقة

لا أرى مثل سامة بن لوى حملت حظه اليه الناقة <sup>(٣)</sup>

وقيل إن سامة من سام يسم ، والأكثر على الأول .

ومن الحذف الشاذ قولهم : ويله ، وأصله : ويل لأمه ، فحذف لام ويل وتونيه ، وحذفت همزة أم ، فبقى ويله ، فاللام لام الجر ، ألا تراها مكسورة <sup>(٤)</sup> .

وقد يجوز أن تكون اللام المحذوفة لام الجر ، كما حذف حرف الجر من قولهم : الله لا أفضل ، وفي قول رؤبة : خير عافاك الله ، جواباً لمن قال كيف أصبحت ؟ يريد : بخير ، وقول الشاعر :

رسم دار وقت في ظلال كدت أفضى الغداة من جلله <sup>(٥)</sup>

وعلى هذا — فيما يظهر — تكون اللام في : ويله ، مضمومة .

ولم يجعل أصل هذا : وى لأمه ، لما صرح بالأصل المذكور في قول عبد الله بن عتبة الضبي :

لام الأرض ويل ما أجنث غداة أضر بالحسن السيل <sup>(٦)</sup>

ومن ذلك أيضاً ما حكاه ثعلب في خبره له مع ابن الأعرابي بحضرة سعيد بن مسلم عن امرأة قالت لبنات لها ، وقد خلون إلى أعرابي كان يالفهن : أفي السوتنته ! قال ثعلب

(١) انظر شرح أدب الكاتب للجواليقي ٢٩٦

(٢) انظر ص ١٨ فيما سبق .

(٣) ديروى : علق ساق سامة العلاقة وانظر اللسان في مادة : فوق .

(٤) انظر الخصائص ٣ : ١٥٠

(٥) الموضع السابق .

(٦) الموضع السابق .

فقال لي ابن الأعرابي : تعال إلى هنا اسمع ما تقوله . قلت : وما في هذا ؟ أرادت أفي السومة  
أنته ، فأقلت فضحة أتن على كسر التاء فصارت بعد تخفيف همزة السومة كما قالت <sup>(١)</sup> .

وكان قياس التخفيف في ذلك : أفي السومة ينته ، بابدال همزة أتن ياء ، لافتتاحها  
بعد كسرة ، كما سيأتي في باب الابدال .

ومن الحذف الشاذ أيضاً قراءة ابن كثير : « أنها الحلى الكبر » <sup>(٢)</sup> ، إذ كان ما قبل  
الهمزة متحركاً . ومنه قول الشاعر :

تصب لثات الخيل في حجراتها وتسمع من تحت العجاج لها ازملأ <sup>(٣)</sup>  
وكذلك قول الراجز :

ان لم أناتل فالبسوني برقمأ

### الحركة المنقولة :

ينبغي المحافظة على هذه الحركة ؛ إذا كانت دليلاً على الهمزة المحذوفة ، كما تقدم .  
غير أنه قرئ : « أرنا » <sup>(٤)</sup> ، بسكون الراء . وجاء ذلك — كما يرى الفارسي في الحلييات —  
لعدم لزوم هذا الاسكان ، فانه يزول في قولك : أر زيدا ، والقاري بالاسكان في الكلمة  
المذكورة هو ابن كثير ، كما في البحر المحيط <sup>(٥)</sup> ، وفي ذلك يقول أبو حيان : « وقد أنكر  
بعض الناصب الاسكان من أجل أن الكسرة تدل على ما حذف فيجب حذفها . يعنى أن  
الأصل كان : أرأ ، فقلت حركة الهمزة إلى الراء وحذفت الهمزة ، فكان في إقرارها دلالة  
على المحذوف . وهذا ليس بشيء ؛ لأن هذا أصل مرفوض ، وصارت الحركة كأنها  
حركة الراء : وقال الفارسي : ما قاله هذا القائل ليس بشيء ؛ إلا تراهم أدغوا في : لكننا  
هو الله ربى ، والأصل : لكن أنا ، ثم نقلوا الحركة وحذفوا ثم أدغوا . فذهب الحركة

(١) الخصائص في الموضع السابق .

(٢) الخصائص ٣ : ١٥١

(٣) الخصائص ٣ : ١٥١

(٤) كما في الآية ١٢٨ من سورة البقرة .

(٥) إنظر البحر المحيط لأبي حيان ١ : ٣٩٠



في (أرنا) ليس بليون ذهبها في الادغام . وأيضاً فقد سمع الاسكان في هذا الحرف نصاً عن العرب ، قال الشاعر :

أرنا إداوة عبد الله نملؤها من ماء زمزم إن القوم قد ظنوا  
وأيضاً فهي قرامة متواترة ، فإنكارها ليس بشيء <sup>(١)</sup> .

وإذا فالفارسي وأبو حيان يريان أن كسر الراء بعد حذف الهزة كأنه حركة أصيلة فيجوز تسكينها ، كما يجوز تسكين كفف .

### التخفيف بالحذف والنقل عند القراء :

اخص بهذا الضرب من القراء ورش . وهو لا يأخذ القاعدة على عمومها ، بل يخصها بأن تكون الهزة أول الكلمة والساكن قبلها آخر الكلمة وليس حرف مد . وتعتبر أداة التعريف كلمة في هذا الباب ، نحو : (ومتاع لى حين) <sup>(٢)</sup> و (إمخرة) <sup>(٣)</sup> و (من امن) <sup>(٤)</sup> . فأما إذا كان حرف مد فلا نقل ولا حذف ، نحو (في أنفسكم) <sup>(٥)</sup> و (قالوا آمنا) <sup>(٦)</sup> ، وأما إذا كان الساكن والهمز في كلمة واحدة فلا حذف ولا نقل إلا في كلمات معروفة ، رداً في (ردأ) <sup>(٧)</sup> والقرآن في (القرآن) <sup>(٨)</sup> وسل في (أسأل) <sup>(٩)</sup> ومل في (ملء الأرض ذهباً) <sup>(١٠)</sup> .

وتفصيل ذلك في كتاب النشر لابن الجزرى <sup>(١١)</sup> . وتقدم تخریج (لكننا هو الله رى) على النقل والحذف <sup>(١٢)</sup> .



(١) الموضع السابق .

(٢) في الآية ٣٦ من سورة البقرة .

(٣) في الآية ٤ من سورة الضحى .

(٤) كما في الآية ٦٢ من سورة البقرة .

(٥) كما في الآية ٢٣٥ من سورة البقرة .

(٦) كما في الآية ١٤ من سورة البقرة .

(٧) في الآية ٣٤ من سورة القصص .

(٨) كما في الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٩) كما في الآية ٨٢ من سورة يوسف .

(١٠) في الآية ٩١ من سورة آل عمران .

(١١) انظر النشر لابن الجزرى ١ : ٤٠٣ .

(١٢) انظر ص ٢٠ فيما سبق .

٣ — والضرب الثالث من ضروب التخفيف : الابدال . وقاعدة هذا الضرب من التخفيف أن تبدل من الهزة حرف حركة ما قبلها ، أى واوا إذا كان ما قبلها مضموماً ، وألفا إذا كان مفتوحاً ، وياء إذا كان مكسوراً . وذلك كله إذا لم يكن ما قبلها حرف علة ، أو تبدل من الهزة مثل الحرف الذى قبلها إذا كان حرف علة .

ومواضع الابدال ما يأتى :

(١) أن تكون الهزة ساكنة ، فتبدل من جنس حركة ما قبلها فى المتصل والمنفصل ، نحو : بئر ، وسؤل ، وكأس ، ونحو : قال أنا ، تريد قال أنا ، و « الذين » (١) ، فى : الذى آمن ، و « قال وتنا » (٢) ، أى : قالوا أنا . ومواء أكان السكون أصلياً نحو : بئر ، أم كان عارضاً للبناء أو الجزم ، نحو : أنبيء ، وإن يشأ . ولا يعتد أبو عمرو بسكون البناء أو الجزم ، فهو يحقق الهزة فى نحو : « نبي عبادى » (٣) ، و « يبيء لكم من أسركم مرفقا » (٤) .

وسكون الوقف مجوز للابدال أيضاً . قال سيبويه : « فأما الذين لا يحققون الهزة من أهل الحجاز فتقولهم : هذا الجبا فى كل حال ، لأنها هزة ساكنة قبلها فتحة . فإنما هى كالف (رأس) إذا خففت . ولا تشم لأنها ألف كالف مثق . ولو كان ما قبلها مضموماً لزمها الواو ، نحو : أكو (أى جمع كماء) . ولو كان مكسوراً لزمته الياء نحو : أهى ، وتقديرها : أهنع . فإنما هذا بمنزلة جونة وذيب . ولا إشمام فى هذا الواو لأنها كواو ينفرو (٥) . والجبا فى كلام سيبويه معناه جليس الملك ، وجمعه : أحباء . وأهقأ أى : أعطى ، يقال : هنأه يهنؤه ويهنئه ، وفى المثل : إنما ستميت هاتنا لتهقأ ، ويروى : لهنأ ، أى لنعطى ، يضرب لمن عرف بالاحسان (٦) . ومعناه : أجر على عادتك ولا تقطعها . ويقال أيضاً : هنأ الإبل يهنؤها ويهنئها ، أى طلالها بالهناء ، وهو ضرب من القطران .

(١) فى الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .

(٢) فى الآية ٢٩ من سورة النكبات .

(٣) فى الآية ٤٩ من سورة الحجر .

(٤) فى الآية ١٦ من سورة الكهف .

(٥) انظر الكتاب ٢ : ٢٨٦ .

(٦) انظر اللسان فى مادة (هنأ) .

(ب) أن تكون الهززة مفتوحة بعد كسرة ، نحو : مية في : مئة ، قال :

ليت الحمام ليه إلى حماميه ونصفه قديه تم الحمام ميه .

ومنه قراءة أبي جعفر : « رياه الناس <sup>(١)</sup> » و « خامسيا <sup>(٢)</sup> » ، و « ناشية <sup>(٣)</sup> » ، و « شانيك <sup>(٤)</sup> » ، و « استزي <sup>(٥)</sup> » ، و « مليت <sup>(٦)</sup> » ، و « مئة <sup>(٧)</sup> » ، و « فنة <sup>(٨)</sup> » وتثنيتهما ، وفي غير ذلك .

(ج) أن تكون مفتوحة بعد ضم ، نحو : مؤذن ، تقول : مؤذن ، وفؤاد ، تقول : فواد .

ويجري ورش على هذا إذا كانت الهززة فاء الكلمة ، نحو : ، « يوده » ، في : « يؤده <sup>(٩)</sup> » ، « ويواخذ في : « يؤاخذ <sup>(١٠)</sup> » ، ويولف في : « يولف <sup>(١١)</sup> » . ويروي عنه أيضا الابدال في : الفؤاد وفؤاد ، مما الهززة فيه عين . فاما اللام فقد اختص بابدالها حفص في : « هزوا » أتى وقعت في القرآن . وكذلك أبدل حفص في « كفوا » في سورة الإخلاص .

(د) أن تكون مضومة بعد كسر عند الألف ، قبل ياء ، نحو : يستزيون في « يستزئون » . وقد تقدم كلام في هذا في مواضع بين بين <sup>(١٢)</sup> .

(هـ) أن تكون مكسورة بعد ضم عند الألف ، على ما تقدم <sup>(١٣)</sup> .

(و) أن تكون الهززة بعد واو أو ياء مدتين ، أي مزيدتين لحض المد والاشباع

---

(١) في الآية ٣٦٤ من سورة البقرة .

(٢) في الآية ٤ من سورة الملك .

(٣) في الآية ٦ من سورة المزمل .

(٤) في الآية ٣ من سورة الكوثر .

(٥) في الآيات ١٠ من الأنعام و ٣٢ من الرعد و ٤١ من الأنبياء .

(٦) في الآية ٨ من سورة الجنى .

(٧) كما في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة .

(٨) كما في الآية ١٣ من آل عمران .

(٩) في الآية ٧٥ من آل عمران .

(١٠) كما في الآية ٦١ من سورة النحل .

(١١) في الآية ٤٣ من سورة النور .

(١٢) انظر ص فيما سبق .

(١٣) انظر ص فيما سبق .

وإطالة النفس ، نحو : قروم ، وخطيئة ، ونسيء ، فبذل من مثل ما قبلها ويجرى الإدغام ،  
فتقول : قروم ، وخطية ، ونسي .

( ز ) أن تكون الهزة بعد ياء التصغير ، نحو : أفيس في : أفيس تصغير : أفوس  
جمع فأس ، ونحو : خطى تصغير : خطء أو خطأ . والسبب في هذا أن ياء التصغير تجرى  
بجري المدة في لزوم السكون وعدم قبول الحركة ، فلم يكن سبيل إلى تخفيف الهزة معها  
غير الإبدال .

( ح ) أن تكون الهزة بعد واو أو ياء أصليتين ساكنتين ، نحو : سوء ووشى ،  
تقول : سووشى . وهذا من إجراء الأصلي بجري الزائد . وروى عن أبي جعفر في إحدى  
الروايتين : كنية في « كهيئة الطير <sup>(١)</sup> » في سورن آل عمران والمائدة . والتخفيف في  
هذا الضرب لغة لبعض العرب حكاه سيبويه <sup>(٢)</sup> . والظاهر أنه سماعي .<sup>١</sup> وأما القياس  
فالحذف والتقل كما تقدم <sup>(٣)</sup> .

( ط ) أن تكون الهزة مفتوحة في أول كلمة وقبلها واو أو ياء ساكنتان ، نحو :  
في أنفسكم ، تقول : في نفسكم ، ونحو : يدعروا به ، تقول : يدعوباه . وقال الشاعر :

هل انت محي الريح أوت سائله

وهذا بإجراء المنفصل بجري المتصل ، وخص بحالة الفتح لفتحها . وظاهر كلام سيبويه  
أن هذا الضرب قياسي <sup>(٤)</sup> .

تعقيب :

الحرف المبدل حرف عارض . ومن أثر ذلك أنه لا يجري الإدغام في نحو : الروبا ،  
تخفيف : « الروبا <sup>(٥)</sup> » ، وفي نحو : ريبا ، تخفيف : « ريبا <sup>(٦)</sup> » .

وقد يجري بجري الأصلي فيجرب الإدغام . وقرئ بالوجهين في هذين الحرفين :

( ١ ) انظر النشر لابن الجزرى ١ : ٢٩٩

( ٢ ) انظر الكتاب ٢ : ١٧٠

( ٣ ) انظر صر قياسى

( ٤ ) انظر الكتاب ٢ : ١٧٠

( ٥ ) كما في الآية ٤٣ من سورة يوسف .

( ٦ ) في الآية ٧٤ من سورة مريم .

فهي رثيا روى عن السوسى إبدال الهزة ياء ، فيجمع بين اليامين من غير إدغام <sup>(١)</sup> .  
 وقرأه أبو جعفر: ريا ، بإبدال الهزة واو أو ثم قلب الواو ياء وإدغامها في الياء التي بعدها <sup>(٢)</sup>  
 وفي الوقت أبجز الوجان: الرويا ، بالابدال دون إدغام ، والريا بالادغام <sup>(٣)</sup> . وقد أبان  
 الداني عن هذا بقوله : واختلف أصحابنا في إدغام الحرف المبدل من الهزة وفي إظهاره  
 في قوله ( ورثيا ) ، و ( توي ) <sup>(٤)</sup> ، و ( توييه ) <sup>(٥)</sup> ، فمنهم من يدغم الثاني للخط ،  
 ومنهم من يظهر لتكون البديل عارضا . والوجان جائزان <sup>(٦)</sup> . وإنما كان في الإدغام  
 اتباع للخط لأن الهزة لا صورة لها في هذه الالفاظ في الرسم العثماني .

وكان قياس ما تقدم أن يجزى الوجان في نحو : خجوة وخطية ، يقال : خجوة ،  
 وخجوة ، وخطية ، وخطية . وقد عرض لذلك الرضى فقال : « فان قيل : إذا كان المد  
 الجائز اقلا به عن الهزة حكمه حكم الهزة فلم وجب الادغام في : برية ومقروة بعد  
 القلب ، وهلا كان مثل : ريبا غير مدغم مع أن تخفيف الهزة في الموضعين غير لازم ؟  
 قلت : الفرق بينهما أن قلب الهزة في برية ومقروة لقصد الادغام فقط حتى تخف الكلمة  
 بالادغام ، ولا مقضى له غير قصد الادغام . فلو قلبت بلا إدغام لكان تقصا للرض .  
 وليس قلب هزة رثيا كذلك لأن مقتضيه كسر ما قبلها كما في بر ، إلا أنه اتفق هناك  
 كون ياء بعدها <sup>(٧)</sup> . »

ومن آثار الحكم بعروض البديل من الهزة أن الهاء المضومة في نحو : أنبهم تخفف  
 أنبهم ، يجوز كسرها اعتدادا بالعارض ، والوجان عند القراء . قال الداني : « واختلف  
 أهل الأداء أيضا في تدوير حركة الهاء مع إبدال الهزة ياء قبلها في قوله ( أنبهم ) و ( نبهم )  
 فكان بعضهم يرى كسرها من أجل الياء ، وكان آخرون يقرئونها على ضمتها لأن الياء عارضة ،  
 وهما صحيحان <sup>(٨)</sup> . »

(١) انظر النشر ١ : ٣٨٧

(٢) انظر النشر ١ : ٣٨٩

(٣) انظر النشر ١ : ٤٩٣ .

(٤) في الآية ٥١ من الأحزاب .

(٥) في الآية ١٣ من سورة المارج .

(٦) انظر كتاب التيسير للداني ٣٩

(٧) انظر شرح الرضى على الشافعية ٣ : ٤٧

(٨) انظر التيسير للداني ٣٩

## الإبدال الشاذ:

### والإبدال الشاذ أنواع:

(١) ما ينقاس في الشعر وحقه غير الإبدال . وقد ذل فيه سيويوه : « وقد يجوز في ذا كله البديل حتى يكون قياساً متلباً (أى لازماً) إذا اضطر الشاعر ، قال الفرزدق :

راحت بمسلة البغال عشية فارعى فرارة لا هناك للريح

وقال القرشي زيد بن عمرو بن نفيل :

سالتني الطلاق إفرأني قلّ مالي قد جئتني ينكر

فهؤلاء ليس من لقيم يسل ولا يبال . وبلغنا أن سلت تسال لغة (١) .

ويوضح من كلام سيويوه أن العبرة في هذا الإبدال للشعر بأن تكون الهزة منحركة مطلقاً ، فبديل بدل الضمة واوا ، وبعد الكسرة ياء وبعد الفتحه ألفا ، أياً كانت حركتها هي . وبديل على ذلك أنه فسر البديل قبيل ذلك بقوله : « واعلم أن الهزة التي يحقق أمثالها أهل التحقيق من بني تميم وأهل الحجاز (٢) وتجعل في لغة أهل التخفيف بين بين تبدل مكانها الألف إذا كان ما قبلها مفتوحاً ، والياء إذا كان ما قبلها مكسوراً ، والواو إذا كان ما قبلها مضموماً » .

وذا يقول الشاعر في ستم مثلاً : سام ، وفي لؤم : لام .

ولكن ابن يعيش — ويوافق الرضى (٣) — يقيد ذلك بأن تكون حركة الهزة موافقة لحركة ما قبلها ، يقول ابن يعيش : « فيبدلون من المفتوحة المفتوح ما قبلها ألفاً فيقولون في سأل : سأل ، وفي قرأ : قرأ ، وفي منسأة : منسأة ، ومن المضومة المضوم ما قبلها واوا ، ومن المكسورة المكسور ما قبلها ياء (٤) » .

(١) انظر الكتاب ٢ : ١٧٠ ، هذا وقد خلت على هذه اللفظة التي يذكرها سيويوه قراءة : « سأل سائل بذياب واقع » ، فهذه القراءة نفسها دليل على أن سأل يسال لغة وليست من ضرورة الشعر ، بل لقد زعم الزنجشري أنها لغة قريش ، ولكن رد ذلك عليه أبو حيان ؛ ولم يأخذ سيويوه بهذه اللفظة في الشعر لأنها ليست لغة الشعراء ، وانظر البحر المحيط ٨ : ٣٣٢

(٢) أى بعضهم وهم قليل منهم كما سبق في ص ١٠

(٣) انظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٧

(٤) انظر شرح المقفيل ٩ : ١١٢

والحق مع إطلاق سيويوه ، فقد جاء (ترجى) في قوله تعالى : « ترجى من تشاء »<sup>(١)</sup> قرىء بالهمز وغير الهمز ، ويقول الزجاج : « أرى ترجى خففا من ترجىء لمكان توى »<sup>(٢)</sup> ، أى فذلك شبه بالازدواج بين ترجى وتوى في الآية . وهذا ليس بعيد مما نحن فيه ، إذ الازدواج يحمل على ما يحمل عليه الشعر ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : أرجمن مأزورات غير مأجورات ، ومثل الفدايا والعشايا ، وهو باب معروف في العربية<sup>(٣)</sup> . وإذا خفى الآية إبدال الهززة المضومة ياء لكسر ما قبلها ، وهو يتفق مع إطلاق سيويوه . وقال جبار بن جزء أخى الشماخ :

رب ابن عم لسلمى مشعل يحبه القوم وتشتهه الابل  
وإنما هو تشتهه . .

وقد استشهد سيويوه في ذلك أيضا بقول عبد الرحمن بن حسان :

وكنت أذل من وتد بقاع يشجج رأسه بالنهر واجى

يريد : واجى . وانتقد هذا عليه بأن الهززة ساكنة للوقف ، فخصفها بالإبدال قياسى . وقد أجاب عنه الزخشرى في مناهيه<sup>(٤)</sup> على الفصل فقال : « لا يقال : وقف على الهززة في واجىء تم قلبها ياء لكسرة ما قبلها ، لأنه لو وقف لوقف على الجيم الذى هو حرف الروى »<sup>(٥)</sup> . يريد الزخشرى أن الياء في ( واجى ) لو كانت خففة من الهززة لكانت هي الروى ، إذ الهززة الخففة تخفيفا قياسيا في حكم الحقيقة ، فكانت الياء روى ، وروى القصيدة الجيم بدليل ما قبله :

فأما قولك الخلفاء منا فهم منعوا ويريدك من وداج  
ولولاهم لكنت كحوت بحر هوى في مظلم الغمرات داجى<sup>(٦)</sup>

( ١ ) في الآية ٥١ من سورة الأحزاب وأنظر البحر المحيط في الآية .

( ٢ ) أنظر لسان العرب في مادة ( رجأ ) .

( ٣ ) أنظر النوع الثامن والشرين ( معرفة الاتباع ) في المزهري للسيوطي ١ : ٤١٤

( ٤ ) هي جمع مولة لكلمة : منه ، والمراد تعليقات الزخشرى على الفصل التى يتم كل تعليق منها بقوله . انتهى منه ( أى من المؤلف ) فجمعت وسميت : مناهى الزخشرى على الفصل .

( ٥ ) أنظر شرح شواهد الشافعية للبندادى ٣٤٢

( ٦ ) أنظر شرح الرضى على الشافعية ٣ : ٤٩

فالروى إذا هو الجيم ، ويجب أن تكون الياء في ( واجي ) ياء محضة أبدلت من الهزمة  
إبدالا غير قياسي ، ولا يكون فيها شائبة التخفيف .

( ب ) الفاظ ورد فيها الإبدال وحقق الحذف أو بين بين . ومن ذلك : الكيمة في :  
الكيمة ، والمرأة في : المرأة ، والقياس : الكمة ، والمرء . وقد جاء : المرء ، على القياس  
في قول دعبل :

فاحفظ عسرتك الأذنين إن لهم حقا يفرق بين الزوج والمرء<sup>(١)</sup>  
وطريق الإبدال في هذا — على شذوذه — أن تنقل حركة الهزمة إلى ما قبلها ،  
فتسكن ، فيأتي الإبدال . وبعضهم يقرر توم حركة الهزمة على ما قبلها يدعى المجاورة ،  
فيبدل ألفا ، ثم يجلب حركة لمناسبة الألف . وكان في ذلك شذوذ لأن إبدال الهزمة  
لم يكن ليصار إليه بعد نقل الحركة ، بل كان القياس حذفها مبالغة في التخفيف واكتفاء  
بديلها على الوجه الأول . والتوم لا يبنى عليه قياس ، على الوجه الثاني .

والكوفيون يقيسون هذا الإبدال . فيجوزون : يسالون ، ويجلرون ( في يجارون )  
والنشأة ( في النشأة ) قال ابن الجوزي : « ولم يوافق على ذلك أحد من القراء إلا أبو العلاء  
المعاني ، فذكره وجها آخر ، وقد ذكره كثير منهم في ( النشأة ) فقط ، من أجل أنها  
كتبت بالألف<sup>(٢)</sup> » .

ومما جاء فيه أيضا الإبدال وحققه بين بين : المنسة في : المنسة . والمنسة هي العصا  
الغليظة التي تكون مع الراعي من نسات البعير إذا زجرته ليزداد سيره . وفي تفسير  
أبي حيان أنها سميت بذلك لأنها ينسأ بها أي يؤخر ويطرده . قرأ نافع وأبو عمر :  
« منسائه<sup>(٣)</sup> » على الإبدال . وقرأ باقي السبعة بالهزمة مفتوحة .

ومما ورد على الإبدال في الشعر قول الشاعر :

إذا دبت على المنسة من هرم      فقد تباعد عنك الله والنزل<sup>(٤)</sup>

( ١ ) انظر شرح الكامل للمرصي ٢ : ٢٤٩ .

( ٢ ) انظر كتاب النشر ١ : ٤٣٥ .

( ٣ ) في الآية ١٤ من سورة سبا .

( ٤ ) انظر اللسان في مادة ( نسأ ) .



فهذا إن كان من أهل التحقيق كان الابدال لضرورة الشعر ، وإن كان من أهل التخفيف لم يكن للضرورة ، بل جرى على لفظه .

ومن هذا أيضا : ذائب ، وأصلها : ذائب ، إذ كان واحدة : ذؤابة . عمد العرب إلى الابدال فرارا من اجتماع شبه ثلاث همزات أو ألفات ، وكان الابدال إلى الواو نظرا — فيما يظهر — إلى تخفيف المفرد : ذؤابة ؛ إذ كان تخفيفه بالواو ، فتحصل المشاكلة بين المفرد والجمع .

(ج) ألفاظ ورد فيها البديل على غير وجهه . من ذلك نحو : قريت في : قرأت . والوجه في إبدالها أن يقال : قرأت بالألف . وقد سمع هذا التخفيف أبو زيد فقال : سمعت العرب تقول : قريت وتوضيت ، وجعل أبو زيد ذلك قياسا ، وكذلك الكوفيون . وظاهر عبارة المصباح في الخاتمة أن هؤلاء يرون قلب الهزة ياء ، وكأن ذلك لأن الياء أقرب إلى الألف من الواو ، ولأن اللام ياء أكثر منها واوا . ولكن السيرافي — وتبعه الرضى — يرى أنهم يدلون على غير منهج واحد ، قال : « وقد أجاز الابدال الكوفيون وغيرهم من البصريين نحو أبي زيد على وجوه مختلفة ، فبعض ما يدلونه واوا ، ومنه ما يدلونه ياء ، على غير قياس محض ، يقولون في مصدر : رفأت الثوب : رفو ، وفي خبء : خبو ، كما قالوا في رفأت : رفوت ، وفي نشأت : نشوت ، وفي خبأت : خبيت ، وفي قرأت : قريت (١) » . والنزاع في شرح السيرافي على سيدييه : خبي ، ولكن الرضى — كما رأيت — نسب إليه : خبو ، كما نسب إليه : نشوت ، والنزاع نسب إليه صاحب المصباح : نشيت . ونشأ ينشو بمعنى نشأ ينشأ ، حكاه قطرب كما في اللسان في المادة . وقوله عن أبي زيد والكوفيين أنهم يقولون في رفأت : رفوت ، فالنزاع في نوادر أبي زيد : « رفأت الثوب أرفؤه رفئا » ، وقال بعضهم : رفيت الثوب أرفيه رفيا على التحويل ، وهو قول بني كعب بن عبد الله بن أبي بكر (٢) .

ولم يرض سيدييه قول أبي زيد وقياسه لهذا الضرب : ويقول السيرافي في ذلك : « وهذا عقد سيدييه رضى كله ، وليس له أصل يطرد عليه » .

(١) انظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٠

(٢) انظر كتاب النوادر لأبي زيد ١٩٣

وظاهر كلامهم أن التخفيف لمعوز اللام ، سواء أسند إلى الضمير أم لم يسند ، فيقول أصحاب هذا المذهب : قرا محمد الكتاب ، وبدا على القراءة ، كما هي لغة العامة . وقد سأل سيويه أبازيد معترضا على مذهبه : سيويه : كيف قول في المضارع من قرأ مخففا ؟

أبو زيد : أقول : أقرأ بالآلف .

سيويه : القياس : أقرى مثل أرمى ، فقد تركت مذهبك <sup>(١)</sup> ،

يريد سيويه أنه لو كان هذا الإبدال قويا ، ومنهجا سويا لعمول الحرف معاملة المختوم بالآلف ، فلا يكون منه فعل يفعل بفتح العين فيها . وفي شرح شواهد الشافية للبخاري : « وإنما أنكر سيويه هذا لأنه إنما يجيء فعلت أفعِل (بفتح العين فيها) إذا كان لام الفعل أو عينه من حروف الحلق ، ولا يكاد يكون هذا في الآلف ، إلا أنهم قد حكوا : أبي يأي ، فجاء على فعل يفعل <sup>(٢)</sup> » .

ولا يقال إن الذي جوز ذلك أن الآلف في حكم الهزلة إذ كانت مخففة عنها ، أي فهي في حكم حروف الحلق ، وذلك أن هذا التخفيف على غير ما نهجت العرب في أمثاله ، فهو إبدال محض لا تخفيف ، فمت حجة سيويه على أبي زيد . وبذلك يبطل تعقيب صاحب المصباح على سيويه ، إذ يقول : « وجوابه — مع التعويل على السماع — أنهم إن التزموا الحذف جئى على القياس ، مثل : قرئت الماء في الحوض أقرب ، وإلا أبقوا الفتحة في المضارع تنبها على انتظار الهزلة ، فلو قيل : أقرى ، زالت الحركة التي تنتظر مع الهزلة ، فلهذا حافظوا عليها <sup>(٣)</sup> » . وإنما تجعل الحركة دليلا على الهزلة في حالة التخفيف بالحذف كما تقدم .

وليس من الإبدال الشاذ قول الرسول عليه الصلاة والسلام حين ضرب في الخندق :

بسم الله وبه يدينأ ، ولو عبدنا غيره شققنا ، حبذا ربا وحبذا ديننا <sup>(٤)</sup> .

(١) انظر المصباح المنير في الخاتمة .

(٢) انظر شرح شواهد الشافية للبخاري ١١

(٣) انظر المصباح المنير في الخاتمة .

(٤) انظر الروض الأنت للسبيل ٢ : ١٨٩

تقد أبدل الهزمة ياء لكسر ما قبلها ، والكسر في هذا الفعل لثة أنصارية : بئىء كما في اللسان<sup>(١)</sup> ، فهو إبدال تياسي .

(د) ومن الإبدال الشاذ لكونه على غير وجهه ، ولكونه في غير مكانه ، الإبدال في نحو : الأحمر ، وفي : جزء . ففي الأول حكى الكسائي والفراء أن من العرب من يقلب الهزمة لاما في مثل هذا ، فيقول : ألجر ، والرض ، وهكذا في بقية الباب . حكى ذلك السيرافي وقال : « فان كانت هذه الرواية صحيحة فالتائلون بها إنما قلبوها ولم يلقوا حركتها على اللام لأنه ليس من شأن هذه اللام أن تحرك قلبوها من جنس اللام على جهة المجاورة للكثير ، كما يقولون : لو ، إذا جعلوها اسما فيزيدون واوا من جنس الواو التي في : لو » .

وظاهر هذا أن يكون قياساً ، إذ نسب إلى قوم من العرب . والظن أن الفراء والكسائي سماع بعض العرب ينطق بذلك على غير ما ينطق الناس ، فظننا أن قبلاً ينطق بهذا تحكيما ما تقدم ، فلذلك أدرج هذا في قسم الشاذ .

وفي : جزء ، قرأ أبو جعفر والزهرى<sup>(٢)</sup> : « ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً<sup>(٣)</sup> » ، و « جزء مقسوم<sup>(٤)</sup> » ، و « من عباده جزءاً<sup>(٥)</sup> » . وحمل أبو حيان ذلك على غير الإبدال ، فهو يقرر أنه حذف الهزمة ثم ضعفت الزاي ، كما يقال في الوقف : هذا فرج ، بالشديد<sup>(٦)</sup> : والشذوذ في هذا ظاهر .

#### إبدال لا تمييزه العربية :

يقول العامة : تايب ، وبابج ، وقايل ، وصايم ، ونحو ذلك ، فيبدلون من الهزمة في اسم الفاعل من الأجوف ياء ، سواء أكانت عينه واوا أم ياء . وقد يرد عنهم الوجهان : الواو والياء في اسم الفاعل من الواوى ، يقولون : عاوز وعازز ، من عاز يعوز . وقد عرض لذلك ابن الجزرى في بحث تقيس نسوقه هنا ، قال : « فاما إبدال الهزمة ياء في نحو : خائفين ، وجائر ، وأولئك ، ووواوا في نحو : أبناؤكم ، وأبناؤد ، فاني تتبعته من كتب

(١) انظر لسان العرب في مادة (بدأ) .

(٢) انظر النشر لابن الجزرى ١ : ١٩٩

(٣) في الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٤) في الآية ٤٤ من سورة الحجر .

(٥) في الآية ١٥ من سورة الزخرف

(٦) انظر البحر المحيط لأبي حيان ٢ : ٣٠٠

القراءات ونصوص الأئمة ومن يعتبر قولهم فلم أر أحدا ذكره ولا نص عليه ولا صرح به ولا أفهمه كلامه ولا دلت عليه إشارة سوى أبي بكر بن مهران ، فإنه ذكر في كتابه في وقف حمزة وجها في نحو : تأنيبات بإبدال الياء ، وفي نحو : رءوف بإبدال الواو ، ورأيت أبا علي الأهوازي في كتاب : الإيضاح ، حكى هذا عن شيخه أبي إسحاق إبراهيم ابن أحمد الطبري ، وقال : ولم أر أحدا ذكره ولا حكاه من جميع من لقيت غيره . قلت : ثم إنني راجعت كتاب الطبري — وهو : الاستبصار — فلم أره حكى في جميع ذلك سوى بين بين لا غير . والقصد أن إبدال الياء والواو محضتين في ذلك مما لم تجزه العربية ، بل نص أئمتنا على أنه من اللحن النسي لم يأت في لغة العرب ، وإن تكلمت به البيط . وإنما الجائز من ذلك هو بين بين لا غير (١) .

وقال الأشموني في مبحث إبدال الهزة : « وأما إبدال الهزة في ذلك ( يريد نحو : قائل ) ياء محضة فنصوا على أنه لحن . وكذلك تصحيح الياء في نحو : بائع ، . ولو جاز تصحيح الياء في : بائع لجاز تصحيح الواو في : قائل .

ومن ثم امتنع ققط الياء ، من قائل وبائع ، قال المطرزي : ققط الياء من قائل وبائع عامي ، قال ومر في بعض تصانيف أبي الفتح بن جني أن أبا علي الفارسي دخل على واحد من المتسبين بالعلم ، فإذا بين يديه جزء مكتوب فيه : قائل بقطتين من تحت ، فقال أبو علي لذلك الشيخ : هذا خط من ؟ فقال : خطي ، فالتفت إلى صاحبه وقال : قد أضعنا خطوانا في زيارة مثله ، وخرج من ماعته (٢) .

### اجتماع همزتين :

وهذا الباب ليس من التخفيف المقصور على أهل التخفيف من العرب . وإنما هو من قبيل الاعلال الصرفي الواجب عند النحاة في معظمه ، والجاري على ألسنة العرب جميعا في الجملة . وإنما نذكر أحكامه هنا تسميا للكلام ، ولما في بعض أحكامه من الخلاف كما سترى :

إذا اجتمع همزتان ازداد القلن واشتدلت داعية التخفيف . ومن ثم يجري التخفيف

(١) انظر للشر لابن الجزري ١ : ٤٥٤

(٢) انظر الأشموني في مبحث إبدال الهزة ( ٤ : ٢١٦ بحاشية الصبيان ) .

في ذلك حتى عند أهل التحقيق . ويقول سيديوه : « فليس من كلام العرب أن تلتقي هزنان فتحققا<sup>(١)</sup> » . ولا يبيح سيديوه وأكثر النحاة أن يقرأ بالتحقيق (أمة) و (أنزرتهم) و يرون ذلك لئلا يقر القارىء عليه ؛ ويحملون على الشنوذ ما حكاه أبو زيد : غفر الله له خطاؤه ، ودرأى في جمع : دريئة<sup>(٢)</sup> ، ولفأى في جميع : لفينة<sup>(٣)</sup> ، وما أنشدوا :

فإنك لا تدري متى الموت جائئ إليك ولا ما يحدث الله في غد<sup>(٤)</sup>

وبرى قوم صواب القراءة بالتحقيق ، وهي قراءة الكوفيين : عاصم وحزمة والكسائي ، ووافقهم ابن عامر الشامي . وكذلك يرى قوم في نحو : أمة ، تسهيل الثانية بتقريبها من الياء ، كما يرى قوم زيادة ألف بين الهزتين . ورد هذا في القراءة كما ورد أمة بالياء الصريحة<sup>(٥)</sup> ، وهو القياس كما يلتزمه البصريون ، وإن انكر الزخشي الوجه الأخير فقال في سورة التوبة : « وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ولا يجوز أن تكون . ومن صرح به فهو لاحق مخرف<sup>(٦)</sup> » . وقد رد عليه صاحب النشر فقال : « وهذا مبالغة منه ، والصحيح ثبوت كل وجه من الوجوه الثلاثة ، أعنى : التحقيق ، وبين بين ، والياء المحضة ، عن العرب ، وصحته في الرواية<sup>(٧)</sup> » . كما رد عليه أبو حيان فقال : « وذلك دأبه (يعنى الزخشي) في تلحين المقرئين ، وكيف يكون ذلك لئلا يقرأ به رأس البصريين النحاة أبو عمرو بن العلاء ، وقارىء مكة ابن كثير ، وقارىء مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نافع<sup>(٨)</sup> » .

نحو آئب :

هذا ، وليس من اجتماع الهزتين نحو : آئب ، وآئل ، ورائء الناس ، مما يفصل بينهما الألف . فالهزنان هنا تحققان وتخفان كما لو كانت كل منهما مفردة . فالهزمة الثانية

(١) انظر الكتاب ٢ : ١٦٧

(٢) هي حلقة يتعلم الرى عليها ، وما يستتر به من الصيد ليختل .

(٣) هي قطعة لم لا علم فيها .

(٤) انظر الخصائص ٣ : ١٤٣

(٥) انظر البحر المحيط لأبي حيان ٥ : ١٥

(٦) انظر الكشاف ١ : ٥٤٦

(٧) انظر النشر لابن الجزرى ١ : ٣٧٤

(٨) انظر البحر المحيط ٥ : ١٥

ق : آئب وشبهه تكون بين بين عند إرادة التخييف ، وفي : رثاء تبدل الأولى ياء ،  
والثانية بين بين .

وقد جاء في جمع ذؤابة : ذؤائب ، بقلب الأولى واوا لكونه أنصى المجموع وهو  
مقلدة التخييف ، ولكون واحده قلب همزته واوا على سبيل التخييف القياسي . ومحمل  
هذا الشذوذ ، وقل الرضى أن الاختس يرى الابدل في مثله قياسا ، لاجتماع الهمزتين  
والفاصل ضعيف . قال : وليس بوجه ، لأن القياس مع اجتماع الهمزتين تخفيف  
الثانية لا الأولى .

وكان صاحب المطالع النصرية رأى الإبدال في : ذؤائب ، قياسا ، فطرد القياس  
إذ يقول : « نعم إذا كان قبلها ألف مسبوقة بالهمزة ، نحو : آيل وآيس وآيب ،  
تبدل ياء حقيقة بمقتضى القياس الصرفي . نظيره ما قالوه في جمع ذؤابة على ذؤائب ، حيث لم  
يجسوه على أصله : ذائب . وقد ورد من حديث الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم :  
( آيرون تائرون عابرون ) ولم يروه أحد بالهمز (١) . وتعبه صاحب الجلسوس على  
القائوس بأن الصرف يقضى بالتزام الهمز بلا استثناء (٢) . وعد صاحب المطالع آيسا من  
هذا الباب ليس على ما ينبغي ، فإن الياء تصح فيه اصحتها في فعله : آيس ، وبه استدل على  
القلب من : ينس ، كما هو معروف ، فليس فيه همزتان . وفي المحصى : « قال ابن جني :  
وينبغي أن يكون قوله :

وما أنا من سيب الإله آيس

فيمين زواه هكذا ، غير مهوز العين وأن بعد ألف فاعل ياء صحيحة . وذلك أنها  
لما صحت في : آيس ، صحت في : آيس ، كما أنها لما صحت في : عور وصيد ، صحت في :  
عالور وصايد . قال ابن سيده : إنما قال : فيمين رواه هكذا لأن الرواية المعروفة :  
يالنس (٣) .

(١) أنظر المطالع النصرية لنصر المحدثين في مبحث : الهمزة في المشو .

(٢) الجلسوس على القاموس لأحد فارس الشدياق ٨٣

(٣) أنظر المحصى لابن سيده ٣ : ١٧٠

### التخفيف بالحذف في اجتماع الهزتين :

جاء التخفيف بالحذف في مضارع : أفضل الرباعي المبدوء بهزة التكلم ، نحو : أكرم  
وقياسه كما يأتي : أؤكرم . وهاك تفصيل القول في التخفيف عند اجتماع الهزتين :

### أحوال التخفيف عند اجتماع الهزتين :

الهزتان المجتمعتان تكونان في كلمة أو كلمتين :

### الهزتان في كلمة :

قد يجيب التحقيق فيهما جميعا ، وذلك إذا سكنت الأولى وتحركت الثانية في صيغة  
موضوعة على التضعيف كسأل ، ورأس . ولا يكون ذلك إلا إذا اتصلت الأولى بالفاء من  
الكلمة . وذلك أن الهززة ثقيلة ، ولا سيما إذا ضعفت ، فإذا وليت الأولى أول الكلمة  
خفت ، وأما في غير ذلك فلا يجوز . فلا ينبغي من قرأ نحو : قد ولا فلز .

ويجوز اجتماع الهزتين في صيغة غير موضوعة على التضعيف ، وحينئذ فلا تحقيق ،  
وعند ذلك قلب الثانية ياء ولا تلغى ، نحو قرأى على وزن سبطر من : قرأ . وحاصل  
ما ذكرناه من وجوب تحقيق الهزتين أن تكونا جميعا في موضع العين .

ويجوز التخفيف فيما وراء ذلك :

(١) قبل الهززة الثانية من جنس حركة ما قبلها إذا سكنت بعد هزة متحركة ، نحو :  
آثر ، وأومن وإيمان . وسيلها في ذلك سبيل الهززة الساكنة المفردة . واجتماع الهزتين  
فضل يحتم هذا التخفيف ، وهو كذلك يدخل في باب الاعلال الصرقي عند الجميع ،  
فليس مقصوراً على أهل التخفيف ، وإنما ذكر هنا لاستكمال الكلام ، وفيه يقول ابن مالك :

ومدا ابدل ثاني الهزتين من كلمة أن يسكن كآثر واثمن

وقد شذ من ذلك قراءة عاصم في رواية عنه : « لإتلاف قرش » بهزتين ، وقراءة  
العامية « لايلاف » على القياس<sup>(١)</sup> . قال ابن إياز في شرح تصريف ابن مالك :  
« ولا يقال : إيلاف فيعال كضراب ، وآلف فاعل كضارب ، لأننا قول : لا يجوز  
ذلك لوجهين . أحدهما أنه كان يلزم أن يحى فيه إلف كضراب ، إذ ضراب أكثر

(١) أنظر البحر المحيط في سورة قريش .

من ضراب ، وإن كان الأصل ، والثاني أن فاعل يحى مصدره على مفاعلة كمضاربة ، ولم ينقل ذلك في : آلف . وما يؤيد هذا تحقيق الهزتين في القراءة السابقة على شذوذه . وإذا فوزن إيلاف إفعال ، لا فيفال .

وتبدل الثانية ياء في أحوال :

(ب) أن تكون مكسورة بعد همزة متحركة ، كيفما كانت الحركة ، نحو المجهول لمثل أكرم من : أن وأم ، تقول : أين في السوق ، وأيم محمد في المجلس . والكسر عارض في هذين المثالين . فأصل أين : أون ، نقلت حركة النون إلى الهمزة توصلا إلى الادغام . وكذلك القول في : أيم . وكذلك نحو : أيمعة جمع إمام .

والاخفش يبدل المكسورة بعد ضم واوا ، فيقول : أوم ، وأون ، كما يصنع في الهمزة المفردة إذ يقول في سؤل : سول .

(ج) أن تكون الهمزة الثانية لاما ، كيفما كانت حال الهمزة الأولى وكيفما كانت حركتها . وذلك نحو مثال جعفر من قرأ ، تقول : القرأى ، ومثال جخذب منه : القرئ ، وأصله : القروؤ ، فأبدلت الضمة كسرة ، كما في الأولى ( جمع دلو ) ، ومثال زبرج منه : القرئ ، ومثال قطر منه : قرأى ، وفي مثال معد : قرأى ، وأصله : قرأاً . ولم يخفف مثل هذا بنقل حركة الهمزة الثانية إلى الأولى وحذف الثانية فيقال : قرأ ، لأن الحركة دليل الهمزة المزالة ومذكورة بها ، فكان الهزتين لا تزالان على الاجتماع .

وهنا بحث . وذلك أنه في مثل : قرأاً ، التزم القلب إلى الياء ، فهلا جاز الادغام كما كانت الهزتان في موضع العين ، نحو : سأل ورأس ، على ما سبق ؟

وتدع الكلام هنا لابن إياز في شرح تصريف ابن مالك : « فإن قيل » : لم لم يدغم الأولى في الثانية ويستغنى بها عن القلب ، كما في سأل ورأس ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أن أبا عثمان ذكر أنه سأل أبا الحسن عن ذلك فأجابه بما معناه : أن العينين لا تكونان إلا بلفظ واحد . وأما اللامان فقد يكونان مختلفين كسيطر ودرهم ، ومتفقين كقعد ورعد ، وجلب ، فلذلك اختلفت الحال بينهما . الثاني أنه يجوز في الحشو ما لا يجوز في الطرف . ألا ترى أنه لا يجوز اجتماع الواوين أولاً ويجوز ذلك حشواً ، نحو هووى وطوى ، في النسب إلى هوى وطوى . وهناك كلام أبي عثمان المازني في تصريفه : « وتقول في مثل قطر من قرأت : قرأى كما ترى ، ومثل معد : قرأى ،



تفخيز الهمزة . فسألت أبا الحسن — وهو الذي بدأ بهذه المقالة — قلت : ما بال الهمزة الأولى إذا كان أصلها السكون لا تكون مثل همزة سأل ورأس ؟ فقال : من قبل أن العين لا تنجى أبداً إلا وبعدها مثلاً ، واللام قد يجيء بعدها لام ليست من لفظها . ألا ترى أن قطراً وهمللة وسبطراً قد جاءت بلامين مختلفين . وكذلك جمع الأربعة والخمسة . والعينان لا يكونان كذلك ، فلذلك فرت <sup>(١)</sup> . وقال أبو الفتح بن جني في شرحه : « كأن أبا الحسن لما اعتبر الكلام فوجد أن العين لا تكون إلا من لفظ العين ، نحو طاء قطع ، ولام سلم ، ووجد اللامين قد يختلفان نحو : همللة وباءها ، وكان اجتماع الهمزتين في كلمة واحدة مكروها ، قال في مثل قطر بن قرأت : قدرأى وأصلها : قرأاً بوزن قرح ، قلب الأخيرة ياء ، ويقطها ياء دون الواو لأن هذا موضع قلب فيه الواو إلى الياء لأنها رابعة . ولولا أنه لا يوجد في كلامهم عينان بلفظين مختلفين لقبل في سأل ونحوه : سأوال ، قلب الثانية ، ولكن هذا غير موجود في كلامهم . فأرت العينان بلفظ واحد . وقلت الثانية من نحو : قرأى ، كما قبلت في جاء ونحوه ، ولولا قل الهمزة لما وجب تغيير نحو : قرأى ، ألا ترى أنك تقول في مثل قطر من غزوت : غزو ، ولا تغير الواو ، لأن من كلامهم إدغام الواو في الواو وهما غير عيين ، ولا يوجد ذلك في الهمزة <sup>(٢)</sup> . »

ومن أمثلة ما يقلب ياء لموضع اللام نحو جاء على رأى سيبويه . إذ يرى سيبويه أن (جاء) أصله : جأى ، قبلت الثانية ياء على قاعدة اجتماع الهمزتين . فأما الخليل فيقول بالقلب المسكن ، فيرى أن أصله : جأى ، ثم قلبت الهمزة على الياء فرأى من اجتماع الهمزتين وهو قبل . ولكن سيبويه يقول أنه بعد اجتماع الهمزتين قلب الثانية ياء قلباً لازماً ، فاجتماع الهمزتين ليس بلازم ضربة لازب حتى يفر منه لأن عندنا قاعدة تخلص منه <sup>(٣)</sup> .

وتبدل الهمزة واوا في مواضع :

(د) أن تكون مضمرمة بعد همزة مضبومة أو مفتوحة أو مكسورة في غير موضع اللام ، نحو مثال أبل من : أم ، تقول : أوم ، ونحو : أوب جمع أب ، ونحو مثال أصبع من أم أيضاً : إوم . والاببدال في هذا على منهج التخفيف .

(١) أنظر المصنف لابن جني ٢ : ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) الموضوع السابق .

( هـ ) أن تكون مفتوحة بعد ضم أو فتح نحو : أويدم وأوادم ، مصغر آدم من الأدمة وجمعه ، ونحو مثال أفعل من أم ، تقول : أوم .

ويخالف المازني في المفتوحة بعد فتح فيقول : أيم ، وهذا مع موافقته الجمهور وأبا الحسن في جمع آدم على أوادم ، مخالفاً قاعدته . وهو يرجع الواو في أوادم إلى أن الهزنة الثانية في آدم قلبت ألفاً ، وروعت هذه الألف في الجمع قلبت واوا ، كما يقال في جمع خاتم : خواتم . وقد جعل القياس عنده أن يراعى في الفرع حال الأصل . فيقول في تصغير أئمة : أئيسة . وفي جمعها لو جمعت : أيام .

ويرى الجمهور أن التصغير والتثنية والجمع ترد الالفاظ إلى أصولها ، وأن داعي قلب الهزنة ألفاً في المفرد قد زال في الجمع . فالواو في أوادم مبذلة من الهزنة لا من الألف ، ألا ترى إلى : ميزان وموازن ، فقد رجعت الواو إلى أصلها في الجمع لما زال موجب القلب في المفرد . وسأسوق كلام أبي عثمان وتقيب أبي الفتح عليه : « قال أبو عثمان : وزعم الخليل أنهم حين أبدلوا الهزنة ألفاً جعلوها كالألف الزائدة التي في خالد ونخاتم . فحين احتاجوا إلى تحريكها فعلوا بها ما فعلوه بألف خالد حين قالوا : خوالد ونخواتم . قال الشاعر :

أخالد قد علقك بعد هند فشيبي الخوالد والهنود

فكذلك فعلوا بألف آدم حين قالوا ، أوادم . . . قال أبو عثمان : وسألت أبا الحسن عن : هذا أفعل ، من أمت أى قصدت ، فقال : هذا أوم من هنا ، فجعلها واوا حين تحركت بالفتحة ، كما فعلوا ذلك في : أويدم . فقلت له : كيف تصنع بأئمة ، ألا تراها : أفئلة ، والفاء منها همزة . فقال : لما حركوها بالكسرة جعلوها ياء ، وقال : لو بنيت مثل أبل من أمت لقلت : أوم ، أجعلها واوا . فسألته كيف تصغر أئمة ؟ فقال : أئمة ، لأنها قد تحركت بالفتح . وليس القول عندي كما قال ، لأنها حين أبدلت في آدم وأخواتها ألفاً ثبتت في اللفظ ألفاً كالآلاف التي لا أصل لها في الياء ولا في الواو ، فحين احتاجوا إلى حركتها فعلوا بها ما فعلوا بالآلاف . فإما ما كان مضاعفاً فإنه تلقى حركته على الفاء ولا تبدل همزته ألفاً ، ولو أبدلت ألفاً لما حركوا الألف ، لأن الألف قد يقع بعد المدغم ولا يغير . فتفسيرهم أئمة يدل على أنها لا تجرى مجرى ما يدل منه الألف . والقياس عندي أن أقول في هذا أفعل من ذا من أمت وأخواتها : هذا أيم من ذا ، وأصغر أئمة : أئيسة ،

ولا أبدل الياء واوا لأنها قد ثبتت ياء بدلا من الهزمة ، إلا أن هذه الهزمة إذا لم يلزمها تحريك تبعث ما قبلها . فلو بنيت من الأدمة مثل أبلم قلت : أودم ، ومثل إصبغ : إيدم ، ومثل أفكل : آدم ، فاجعلها ألفا إذا انفتح ما قبلها ، وياء ساكنة إذا انكسر ما قبلها ، وواوا ساكنة إذا انضم ما قبلها . فإذا أصبحت إلى تحريكها في تكسير أو تصغير جعلت كل واحدة منهن على لفظها الذي ثبت عليه ، فأترك الياء ياء والواو واوا ، وأقلب الألف واوا ، كما فعلت ذلك العرب في تصغير آدم وتكسيه . فهذا هو القياس عندى . وأبو الحسن يرى أنها : إذا تحركت بالفتحة أبدلها واوا كما ذكرت لك . وإذا قال العالم قولاً مقديماً فللمتعلم الاعتداء به والاحتجاج لقوله ، والاختيار بخلافه إذا وجد لذلك قياماً ، والله الموفق<sup>(١)</sup> .

وقال أبو الفتح بن جنى في الإصحاح لأبي الحسن والرد على أبي عثمان : « يقول أبو عثمان : لما ثبتت الياء في أئمة بدلا من الهزمة فسيبها أى تجرى مجرى الياء التى لاحظ لها في الهزمة ، كما أن ألف آدم لما ثبتت بدلا من الهزمة جرت مجرى ما لاحظ له في الهزمة وهو ألف خالد . وهذا القول ليس بمرضى من أبي عثمان ، لأن الياء في أئمة إنما اقبلت عن الهزمة لانكسارها ، فإذا زالت الكسرة زالت الياء التى وجبت عنها ، كما أن الياء في ميزان لما وجب انقلابها عن الواو لانكسار ما قبلها زالت عند زوال الكسرة في قولهم : موازين وموزين . فإن قال نائل : فإن الياء في ميزان إذا فارقت هذا الموضع رجعت إلى الواو في نحو قولهم : موازين وموزين ، فما تنكر أن يكون البدل في أئمة أقوى منه في ميزان ، فلا يزول وإن زالت الكسرة ؟ قيل : هذا إلزام فاسد ، لأنك لو جمعت آدم على فعل وضعلان لقلت : آدم وأدمان ، فرجعت الهزمة لما زالت الأولى ، كما رجعت الواو في موازين لما زالت الكسرة . وإنما لم ترد فاء الفعل في أوادم وأويدم إلى الهزمة لأنه كان يلزم ما منه هربوا ، وهو اجتماع همزتين ، ألا ترى أنهم لو قالوا : آدم وأويدم لزمهم اجتماع همزتين ، كما كان يلزمهم قبل التكسير والتحقير في آدم . فلما كان يجب في التحقير والتكسير اجتماع همزتين لم يكن إقرار الهزمة في الجمع والتحقير كما لم يكن ذلك في الواحد . والعلة الموجبة للقلب في الواحد هى موجودة في الجمع والتحقير ، وهى اجتماع همزتين ، وليس كذلك ميزان ، لأن الياء إنما وجب انقلاب الواو اليها لانكسار ما قبلها . فإذا جمعت أو سحرت زالت الكسرة فرجعت الواو . فهذا الفصل بين رد الواو في تحقير

(١) أنظر المصنف لابن جنى ٢ : ٣١٥ وما بعدها .

ميزان وتكسيه وترك الهز في تحقير آدم وتكسيه . فإن قال قائل : فإذا كان القياس عند سيويه أن يقول في تحقير مثل قائم : قويم ، فيقر الهزة ولا يحذفها ، وإن كانت الألف التي عنها وجبت الهزة قد زالت ، ويصح في لزوم الهزة بأنها قوية لكونها عينا والعين أقوى من اللام ، فما تنكر أن يكون النقل في أئمة لازما أيضا ، وإن زال ما يوجب البديل من الكسرة فقها ياء فقول : أئمة ، بل يكون هذا أخرى لأن الفاء أقوى من العين ؟ قيل : هذه المسألة لم ينطق فيها سيويه لأنها محدثة بعده . على أنه لو كان لسيويه فيها قول مخالف لقول أبي الحسن لم يلزمه ما أورده يا أيها السائل . وذلك أن سيويه شبه ياء التحقير بألف التكسير بقرت الياء في قويم مجرى الألف في قوائم . فلما كان يقول : قوائم فهز ، كذلك قال : قويم فهز . ونظير هذا تصحيحهم للتحقير نحو : أسود وقصور ، في قولهم : أسود وقصور . وإنما ذلك لتشبيههم ياء التحقير بألف التكسير . وأيضا فإن الياء قريبة من الألف . ولذلك قالوا في طيء : طائي ، وفي الحيرة : حاري ، فأبدلوا الياء ألفا . فلما كان بين ياء التحقير وألف التكسير هذا الاشتباك وهذه المتاسية أقر سيويه الهزة في قولهم : قويم ، وإن زالت ألف فاعل . هذا مع ما احتج به من أن العين قوية . وليس كذلك الياء في أئمة . لأنها إنما وجبت عن الكسرة ، كما وجبت ياء ميزان عن الكسرة ، فمضى زالت الكسرة زالت الياء من أئمة كما كان ذلك في ميزان . وأنت إذا حقرت قلت : أئمة . فقد أزلت الكسرة ولم يكن موضعها مجرى مجراها فقر الياء كما شئت ياء التحقير بألف التكسير وأقرت الهزة ، وإنما قبلها في أئمة ضمة ، والضممة إنما تجب عنها الواو لا الياء .

ولو جاز لقائل أن يقول : لا أزيل الياء في أئمة إذا زالت الكسرة ، بل جاز لآخر أن يقول : لا أزد الواو في ميزان إذا زالت الكسرة بتحقيق أو تكسير . وهذا لا يقوله أحد ، لوضوح سقوطه . وقياس قول أبي عثمان أن يقول في جمع أيدم : أيادم ، فيقر الياء ولا يقلبها ، لأنها قد ثبتت ياء في إيدم كالياء التي لاحظ لها في الهز ، فكما يقول في جمع فعلل من بعث : يباع ، كذلك يلزمه أن يقول في جمع إيدم : أيادم . والحجة عليه في هذا كالحجة التي هيض قبيل ، لأن الكسرة التي أوجبت الياء قد زالت فينبغي أن تزول الياء زوالها . وقياس قول أبي الحسن : أوادم ، لأنها قد تحركت بالفتح ، وفي التحقير : أويدم . وأبو عثمان يلزمه أن يقول : أييدم ، ولا يرد الهزة كما شرط فيما كتبناه عنه . ولا يلزم أبا الحسن أن يرد الهزة عند زوال الكسرة كما ردوا ميزان عند زوال الكسرة ، لأنه

لم يكن قلبها ياء لأن قلبها كسرة ، وإنما استحق القلب في الجملة لتلا تجمع همزتان ، ووجب انقلابها ياء حون الواو لانكسار ما قبلها ، فاذا زالت الكسرة لم يجب رد الهزة وإنما يجب زوال الياء التي عدل الياء عن أختها الواو والآلف بعد وجوب القلب ، فاذا زالت الكسرة وتحركت الياء بالفتحة جعلت ولوا ، كما قالو : أوادم وأويدم ، ولولم يقبلوا لقالوا : آدم وأويدم ، وهذا لا يجوز ، فلم يكن للقلب بد لذلك .

ويؤكد قلب الهزة واوا هنا قولهم في ذؤابة : ذؤائب . فالواو في ذؤائب بدل من الهزة ، كأنها كانت : ذائب ، فكرهوا اجتماع همزتين بينهما ألف ، فأبدلوا الأولى واوا ، كما أنهم لما كرهوا أولول جمع أول ، أبدلوا الثانية همزة ، وكما أنهم لما أرادوا البذل في ثنية مثل حمراء وجمعه والنسب اليه قالوا : حمراوان ، وحمراوات وحمراوى ، وقالوا في علياء : علياوان ، وقالوا أيضاً : رداوان ، وقالوا أيضاً في ثنية قراء : قراوان ، فهذا يدل على كثرة انقلاب إحداها إلى الأخرى . قال أبو العباس : إنما كان ذلك فيما لأن الهزة في مخرجها نظير الواو في مخرجها ، يريد أنها طرفان ، هذه أسفل الحروف ، وهذه أعلاها (١) .

ومما ينبغي ملاحظته أن قول أبي عثمان في شأن ألف آدم وانقلابها في أوادم قال به سيبويه ، وقد عزاه هو إلى الخليل . وهاك عبارة الكتاب : « وإذا جمعت آدم قلت : أوادم ، كما أنك إذا حقرت قلت : أويدم ، لأن هذه الآلف لما كانت ثانية ساكنة وكانت زائدة لأن البذل لا يكون من أنفس الحروف فأرادوا أن يكسروا هذا الاسم الذي قد ثبت فيه هذه الآلف صيروا ألفه ألف خالدة (٢) » .

وقد رأيت فيما تقدم أن التخفيف لحق الهزة الثانية ولم يلحق الأولى ، وأنه انحصر في الإبدال . وقد يكون بالتسهيل كما مر بك في بعض القراءات (٣) ، وقد يكون في الأولى كما في قراءة رواها صاحب البحر المحيط في سورة قريش ( ليلاف قريش ) بحذف الهزة الأولى شفوذا .

وظاهر أن الهزة الأولى ينالها من التخفيف ما ينالها لو كانت مفردة . ففى نحو :

(١) أنظر المصنف لابن جني ٢ : ٣١٨ وما بعدها .

(٢) أنظر الكتاب ٢ : ١٦٩

(٣) أنظر الكتاب ٢ : ١٦٨

من آمن ، تخفف بالقل (من امن) وفي نحو (وأمنوا) يكون بالتسهيل بين بين ،  
وفي نحو (ياهل الكتاب آمنوا) تخفف : ياهل الكتابيا منوا .

ونكرر في ختام : هذا البحث أن التخفيف في معظم هذا الباب يلحق بالابدال  
ويخرج من التخفيف الجائز ، وفي ذلك يقول سيويه : « واعلم أن الهمزتين إذا التقيا  
في كلمة واحدة لم يكن بد من بدل الآخرة ولا تخفف ، لأنها إذا كانتا في حرف واحد  
لزم التقاء الهمزتين الحرف ، وإذا كانت الهمزتان في كلمتين فإن كل واحدة منهما قد تجرى  
في الكلام ولا تلتق بهنزة همزة ، فلما كانتا لا تقاربان الكلمة كانتا أثقل ، فأبدلوا من  
إحدهما ، ولم يجعلوهما في الاسم الواحد والكلمة الواحدة بمنزلة ما في كلمتين<sup>(١)</sup> » .  
فترى من هذا أن الابدال في هذا الضرب ليس مقصوراً على أهل التخفيف بل هو  
عام عند جميع العرب .

الهمزتان في كلمتين :

إذا اجتمعت الهمزتان في كلمتين فلهما حالتان : أن تكون الأولى همزة الاستفهام ،  
وأن تكون في آخر الكلمة .

(١) فإن كانت الأولى همزة الاستفهام فالتخفيف إنما يلحق الثانية ، أما الأولى  
فمبتدأ بها . وقد ذكرنا من قبل أن التخفيف لا يكون في الإبداء . هكذا يرى الرضى .  
ويقول سيويه : وإن جاءت ألف الاستفهام وليس قبلها شيء لم يكن من تحقيقها بد ،  
وخففوا الثانية على لقم<sup>(٢)</sup> .

فترى من هذا أنه اشترط في التزام تحقيق الأولى ألا يكون قبلها شيء .

والتخفيف هنا واجب عند البصريين يلحق بالابدال القياسي ، إذ كانت الهمزتان  
في حكم ما في الكلمة الواحدة ، من حيث كانت همزة الاستفهام كالجزء مما بعدها لكونها  
حرفاً واحداً . ولا يبيح البصريون تحقيق الهمزتين ، وإنما ورد في قراءة الكوفيين . وعليها  
قراءة حفص : (أننرتهم) بالتحقيق .

والتخفيف يجري هنا على حد ما جرى فيما سبق في أغلب أحواله . فتبدل من جنس  
حركة ما قبلها إذا كانت ساكنة ، نحو : آمن محمد ؟ وإذا كانت متحركة خففت بجعلها  
بين بين . وجاز الفصل بين الهمزتين بألف .

(١) للموضع السابق .

فأما تحقيق الهمزتين فهو عند الكوفيين كما ذكرنا ، ويفصل بعضهم بين الهمزتين بألف أيضا . وقد قرئ بهذه الأوجه الأربعة قوله تعالى : ( أنذرهم ) ، وقرأ بعضهم بابدال النامية ألفا . وقد أنكر هذه القراءة الزخشرى وجعلها لحنًا لتكون الهززة متحركة فلا مكان لقبها ألفا ، وللزوم التقاء الساكنين على غير حده . وقد رد على الزخشرى بصحة الرواية بذلك ، فنحمل على الشنوذ .

ويقول الرضى : إن حكم الهززة الثانية المتحركة هو حكمها مسبوقه بهززة في كلمة واحدة سواء ، إلا أن تخفيف الثانية هنا أكثر . ويقضى هذا أن يقال في : أنت : أونت ، أو : أبنت ، كما في : أوم وابن . ولم يعرف هذا لفبر الرضى .

وإذا دخلت هززة الاستفهام على المبدوء بهززة الوصل فإن كانت هززة الوصل مضمومة أو مكسورة سقطت وخروج الأمر عن اجتماع الهمزتين . وإن كانت مفتوحة أبدلت ألفا أو سهلت .. وذلك في الداخلة على ( أل ) أو ( أئمن الله ) . ومن ذلك قوله تعالى : ( الذكربن حرم أم الأئبين ) . وقول : آئمن الله لأفعلن . والتسبيل مرجوح ، وقد قرئ به . وإنما لم تسقط هززة الوصل مع الفتح لئلا يلتبس الاستخبار بالخبر .

(ب) أما إذا لم تكن الهززة الأولى هززة الاستفهام ، وحيث تكون آخر الكلمة ، فيرى البصريون التزام التخفيف . وعندهم أن التبيين يخففون أحدهما ، الأولى أو الثانية ، والهجازيين يخففونها جميعا . وجاء في قراءات الكوفيين التحقيق لهما . ونحن قرأ لخص عن عاصم — وهى قراءة كوفية — : « إذا جاء أشراطها » .

وتخفيف الهمزتين على لغة الهجازيين يكون باعتبار كل منهما كما لو كانت مفردة . فنقول في قارئ أيبك : قارئ أيبك ، بابدال الأولى ياء وتسبيل الثانية .

وحكى شيخ الإسلام وغيره وجها آخر : أن تخفف كل منهما كما لو كانت ملفقة مع هززة فنقول في قارئ أيبك السلام : قارئ ويك على رأى أبى الحسن ، و : قارئ ييبك على رأى أبى عثمان المازنى .

وقد قل عن أبى عمرو في قراءة حذف أولى المتفتحين في الحركة نحو : إذا جا أشراطها . وعن ورش وقبل قلب الثانية من جنس حركة ما قبلها . والله أعلم .





## حرف الضاد وكثرة مخارجه في اللغة العربية

بقلم الدكتور خليل يحيى نامى

تتأثر اللغات السامية عن غيرها من اللغات الأخرى بوجود حروف الإطباق كاملة فيها وهى الصاد والضاد والطاء والظاء ، ولا توجد الضاد إلا فى لغات الشعبة الجنوبية وهى اللغة العربية واللغات العربية الجنوبية واللغات الحبشية ، ولا توجد الظاء إلا فى اللغة العربية بلهجاتها القديمة والحديثة وفى اللغات العربية الجنوبية القديمة منها والحديثة وكذلك فى اللغة الأوجريزية التى هى من اللغات للسامية البالية .

وإذا تتبعنا إبدال الضاد بالحروف المائلة لها فى الخارج فى اللغات السامية وجدنا أن الضاد العربية تقابل صادًا فى اللغات الأكادية وفى اللغة العبرية (١) ، كما تقابل صادًا أيضًا وظاء فى اللغة الأوجريزية (٢) ، وكانت الضاد تكتب صادًا فى الكتابات البطية وكذلك فى الكتابات العربية القديمة الجاهلية منها والإسلامية (٣) إلى أن فرق العرب بين الحروف المتشابهة فى الشكل والصورة بوضع الإعجام فى القرن الثانى الهجرى ، وقد تدل كل هذه الاستشهادات على أن الضاد العربية كانت منذ أقدم الأزمنة قريبة فى المخرج من مخرجى الظاء والصاد ، وكان يخرج الظاء فى الأصل كما نعرف عبارة عن ذال مطبقة (٤) ، كما أن الظاء فى الخارج مثل الذال والفاء وهى من حيز واحد هو ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا (٥) ، وتعرف هذه الحروف الثلاثة باسم الحروف اللثوية لأن مبدأها

(١) انظر : Brockelmann, Grundriss, 1. Band, S. 128-29

(٢) انظر : Cyrus H. Gordon, Ugaritic Manual, p. 23

(٣) انظر خليل يحيى نامى : أصل الخط العربى ص ٨٧

(٤) انظر قول سيبويه فى الكتاب ج ٢ ص ٤٠٦ وهو : ولولا الإطباق لصارت

الطاء ذالا والصاد سينًا والظاء ذالا . . . الخ

(٥) انظر سيبويه ج ٢ ص ٤٠٥

من اللثة (١). والصاد حرف مطبق مهبوس وهي من حروف الصفيح ، وحروف الصفيح هي الصاد والسين والزاي ، وتسمى هذه الحروف أيضا أسلية لأن مبدأها من أسلة اللسان وهو مستند اللسان (٢)، ومخرج الضاد كما جاء في الكتاب لسيويه هو : من بين أول حافة اللسان وما يليه من الاضراس (٣) ، مع أن ابدال الضاد بغيرها من الحروف المماثلة لها في الخارج يدل على أنها كانت تنطق في القديم كالذال المطبقة أو كالزاي المنخفضة أي أن مخرجها كان من طرف اللسان لا من حافته كما وصفه سيويه في الكتاب ، كما أننا نجد في الكتب العربية ما يثبت أنها كانت تنطق كالذال المطبقة أو كالزاي المنخفضة ، فقد جاء في الجزء العاشر من شرح المفصل لابن يعيش صحيفة ١٢٧ ما يلي : والصاد الضعيفة من لغة قوم اعتصمت عليهم فربما أخرجوها ظاء وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها فلم يثأت لهم ذلك فخرجت بين الضاد والظاء. ورسم الضاد في الكتابات العربية الجنوبية القديمة وفي الكتابات النودية والصفوية يكاد يكون قريبا في الشكل من رسم حرفي الصاد (٤) والذال ، وتد يدل هذا على أن حرف الضاد كانت قريبة في المخرج في زمن هذه الكتابات من مخرجي الذال والصاد ، كما أن إبدال الضاد بالزاي في نقش سبأ متأخر يدل على أن مخرج الضاد عند العرب الجنوبيين كان عبارة عن ذال (٥) مطبقة ، وكذلك عند النوبيين والصقريين ، غير أن رسم الضاد في الكتابات الليمانية وهي من الكتابات العربية الجاهلية المشتقة من القلم المسند كان عبارة عن رسم الطاء العربية (٦) الجنوبية ، وقد نفهم من ذلك أن مخرج الضاد في أيام الليمانيين كان قريبا من مخرجي الذال والطاء أي أن مخرج الضاد كان في ذلك الوقت يرفع طرف اللسان إلى الفك الأعلى أو إلى جهة الحنك . ويقول الأستاذ ليتمان عن نطق الضاد ما يلي : كان اللفظ الأصلي بالذال المنخفض لا ضاد بالذال المنخفض ويظهر هذا من نطق الأعراب في البداية ومن تاريخ هذا الحرف عند الفرس وعند الآثراك حيث نجدهم رسوه زادا ولفظوه

(١) انظر : شرح المفصل لابن يعيش ج ١ ص ١٢٥

(٢) انظر : شرح المفصل ج ١ ص ١٢٥ .

(٣) انظر سيويه ج ٢ ص ٤٠٥

(٤) انظر : G. R. Driver, Semitic Writing, p. 145 Enno Littmann, Thamud und

لوحة ١ Safa, S. 20 Van den Branden, Les Inscriptions Thamoudéennes

(٥) انظر : ص ١٨ و Maria Hafner, Alttisdröbische Grammatik

(٦) انظر ص ٣٣ - ٣٤ Werner Cappel, Lihyan und Lihyanisch

كالزاي ، وفي زمان النبي كان القرشيون يلفظونها ضاداً لأن (tād) صارت (dād) كما صارت  
الذال في بعض اللهجات العربية دالاً ، وكذلك كلمة (tāb) صارت بالألمانية (ding) (١) .

وتحدثنا الكتب العربية أن خرج الضاد كان قريباً من مخرج اللام ، فقد جاء في الجزء  
الثاني من الكتاب لسيويه ص ٤٢٩ ما يلي : ومثل ذلك قول بعض العرب : الطبع في  
اضطجع أبدل اللام مكان الضاد كراهية التقاء المطبقين فأبدل مكانها أقرب الحروف منها  
في الخارج والانحراف وقد بين ذلك .

وقال في صحيفة ٤١٦ من ذلك الجزء ما يلي : واللذان خالطها (٢) الضاد والشين لأن  
الضاد استطلت لخالطتها حتى اتصلت بمخرج اللام .

وجاء في لسان العرب في مادة (ضجع) ما يلي : قال أبو عثمان المازني : إن بعض  
العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول : الطبع ، ويبدل مكان الضاد أقرب  
الحروف إليها وهي اللام .

وجاء في الجزء الأول من كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري ص ٢٥٥  
ما يلي : والحرف المستطيل هو الضاد لأنه استطل عند النطق به حتى اتصل بمخرج اللام  
وذلك لما فيه من القوة بالجهر والاطباق والاستعلاء ، والاستعلاء هو أن تصعد هذه  
الحروف في الحلق الأعلى .

وجاء في صحيفة ٢١٩ من ذلك الجزء ما يلي : والضاد انفرد بالاستطالة وليس في الحروف  
ما يصير على اللسان مثله فإن السنة الناس فيه مختلفة ، وقل من يحسنه ، فهم من يخرج  
ظاهراً ومنهم من يمزجه بالذال ، ومنهم من يجعله لاما مفخمة ، ومنهم من يشبه بالزاي ،  
وكل ذلك لا يجوز . اهـ .

ويتبين لنا من الأقوال التي ذكرناها كثرة مخرج حرف الضاد ، ولذلك اختلف  
العرب في وصفها في الكتب العربية ، ومما يستحق الذكر أن الضاد متعددة المخرج  
في اللهجات العربية الحديثة .

(١) الأستاذ الدكتور أنوليتمان : بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي -

مجلة كلية الآداب - المجلد العاشر - الجزء الأول مايو سنة ١٩٤٨ ص ٢ - ٣

(٢) الضمير في (خالطها) يعود على اللام .

واختلف الباحثون في أصل مخرج الضاد فقال بعض المستشرقين إنه كان عبارة عن لام مطبقة وبتين ذلك من قول المستشرق برحستراس في كتابه التطور النحوي حيث يقول في صحيفة ١٠ من ذلك الكتاب ما يلي : فالضاد العتيقة حرف غريب جداً غير موجود حسب ما أعرف في لغة من اللغات إلا العربية ، ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب ، غير أن للضاد نطقاً قريباً منه جداً عند أهل حضرموت وهو كاللام المطبقة . اهـ .

ونضيف على ذلك بالقول : إن هذا النطق موجود أيضاً في لهجات منطقة ظفار كالمهرية والشرحية كما هو موجود أيضاً في منطقة دثينة بناحية أبن بجنوب بلاد العرب . وهو موجود أيضاً في لهجات الجزيرة بالسودان<sup>(١)</sup> ويقول بعض المستشرقين الآخرين إن أصل مخرج الضاد كان ذالاً مطبقة أى أن مخرجها كان من طرف اللسان لا من حافتها كما وصفه العرب في كتبهم ، ويدللون على ذلك بتاريخ الحرف عند الفرس وعند الأتراك فإنهم رسموه زائداً ونطقوا به كالزاي ، كما أن بعض قبائل البدو ينطقونه ذالاً مطبقة أى أنهم احتفظوا بنطقه القديم ، ويضيف بعض المستشرقين إلى ذلك قائلين : إن الضاد العربية أبدلت ظاءاً في اللغة الأوجزنية التي كان يكتب بها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد فكانوا يقولون يظحك عوضاً عن يضحك ، أى أن نطق الضاد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان قريباً من نطق الظاء أى أنها كانت تنطق في ذلك الوقت ذالاً مطبقة أو كالزاي المفخمة .

وفي ضوء ما سبق أن ذكرناه لكم نقول نه من الجائز أن نطابق الضاد باللام المطبقة كان من خصائص جنوب بلاد العرب في عهدها الأولى ، وأنه نشأ من أثر اختلاط الشعوب العربية السامية بالجماعات الحامية وغير الحامية ، ولذلك نراه موجوداً الآن في بعض المناطق المتصلة اتصالاً وثيقاً بالجماعات غير السامية كبعض أنحاء حضرموت وفي لهجات منطقة ظفار وفي بعض لهجات الجزيرة بالسودان .

وتحول مخرج الضاد في اللغات العربية الجنوبية القديمة إلى ذال مطبقة في الألف الأولى قبل الميلاد لأن أصحاب تلك اللغات كانوا يقومون بنقل التجارة من جنوب الجزيرة

(١) انظر رسالة الدكتوراه التي تقدم بها عبد الحميد طلب لكلية الآداب وهي: لهجات الجزيرة بالسودان - مخطوطة بمكتبة الجامعة .

العربية إلى وسطها وشمالها واختلطوا بالشعوب العربية الشمالية التي كانت تنطق الضاد بمخرج قريب من مخرج الظاء أى بذلك مطبقة أو بزأى مفخمة ولذلك نجد في اللغات العربية الجنوبية القديمة تبدل زايًا ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل سكان بعض المناطق اليمنية المنعزلة أو المتصلة اتصالاً وثيقاً بالجماعات الحامية وغير الحامية ينطقون الضاد بالنطق اليمنى القديم الذى يشبه اللام المطبقة ، وقد انتقل ذلك النطق القديم للضاد إلى شمال بلاد العرب في أيام الفتح العربى ، أو قبل ذلك التاريخ عندما أخذت الجماعات اليمنية تنزح إلى الشمال طلباً للرزق ، ولذلك انتشر النطق القديم للضاد في شمال بلاد العرب ورواه علماءهم القدماء في كتبهم .

أما نطق الضاد بالذال المطبقة أو بالزأى المفخمة فالظاهر أنه كان عند عرب الشمال منذ الألف الثانى قبل الميلاد كما يتبين ذلك من ابدال الضاد بالحروف المائلة لها في الخارج عند الجماعات السامية الأخرى كالأكديين والآوريثيين والعبريين . أما نطق الضاد بمخرج قريب من مخرج الطاء وهو النطق المصرى للضاد فقد كان موجوداً كما سبق أن ذكرنا عند الحيثانيين العرب الذين كانوا يقطنون شمال بلاد العرب منذ القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً أى أنه كان قديماً عند العرب . وبهذا القول نكون قد انتهينا من الكلام عن حرف الضاد وعن تاريخ مخارجه المختلفة .



## في تاريخ الأديان ( رؤوس أقلام )

ملخص محاضرات ألقاها الأستاذ الدكتور اسماعيل راجي الفاروق

الأستاذ بجامعة ماجل بمونتريال

في كلية الآداب بجامعة القاهرة

### المحاضرة الأولى :

إن التراث العربي في علم الأديان غني جداً . إن معظم رجال الفكر الإسلامي العربي ألفوا في الأديان وقدموا لمؤلفاتهم بأبحاث في علم الأديان . وهذه المصنفات جديرة بأن تبعث وتشر ، بل من أن تترك للغيار والزمن في مجموعات المخطوطات .

كلنا نعرف ابن حزم والشهرستاني ، إلا أن قليلاً منا يعرفون قد ابن حزم للكتاب المقدس ويقدرّون أن مبادئ تقده هذا هي الآن مبادئ علوم النقد الكتابي في الغرب .

ومنذ ابن حزم والعرب في سبات عميق . لكن الغرب أيقظته يقظة العرب وبهره ما حققوه في الآداب والعلوم . فأخذ يعلم وينمو . وجاء القرن السادس عشر وعصر الفتوحات العلمية ، ثم عصر التنوير ثم عصر العقلية ثم الثورة الصناعية وقربت التجارة والمواصلات أطراف الأرض لبعضها البعض . فكان عصر الاستعمار وجاء بعده عصر الاستقلال والانبعاث .

فالיום يتقابل العالم كله بعضاً ببعض مقابلة الند للند . والمقابلة بالدرجة الأولى ثقافية ، أيديولوجية . ولا يخفنا ما للدين من أثر في الثقافة ، فهو الثقافة بمعناها الأوسع ، بمعناها القيومي العميق . والأمم كلها في حالة انبعاث جديدة . فعصرنا إذاً عصر انبعاث الأديان .

فإذا ما أردنا تفهم العالم حولنا ، وجب علينا تفهم الأديان . فهي حصيلات الثقافة وبلوراتها .

قد يمترض على هذا ان الأديان موضوع ديني ، محله في المعاهد الدينية لا في الجامعات أو المعاهد العلمية . يرتكز هذا الاعتراض على تفهم خاطئ لموضوع الأديان . علم الأديان علم موضوعي ، غايته تفهم الدين كظاهرة انسانية وتتبع هذه الظاهرة في المجتمع والتاريخ ودراسة ما أنتجته من تعبيرات عن ماهيتها وأهدافها .

ويتمرض أيضا ان علمية علم الأديان تقتض ان هذا التذويب مبعالج الإسلام كبقية الأديان ، دون اعتبار ان هذا الدين هو دين الله ، أي فوق الحقائق الطبيعية والاجتماعية والعلمية . فهو ليس من صنع البشر بل من صنع الله .

ولا شك ان الإسلام دين الله . ولكنه أيضا دين الفطرة والنظر . يتوصل الإنسان اليه ارتقاء إذا حكم عقله ، لا إذا أغفله . الإسلام لا يأمرنا بخناج العقل بل الفعل ، وليس في العربية كلمة بمعنى faith أو credo ، فلايمان دائما يقين ، واليقين دائما معرفي لا تقلي . فإذا تقدم المسيحي والمهندوكي بشجاعة إلى قاعة التحليل العقلي ، فخرى بالمسلم أن يسبقهما اليها .

وللمسلم أن يخشى كيف يشاء إذا كان لا يميز بين الإسلام كدين الله والإسلام كدين السلف . أما المسلم العاقل فهو يميز بينهما وينسب التاموسية للأول فقط مع احترامه للثاني كمحقق كامل أو غير كامل للأول .

وقضية تقابل العقل بالدين قضية قديمة في الإسلام . ورأت الأمة ان حلها في الطريق الوسط فتالت ، متبيزة عن المعزلة والاشاعة على السواء ، ان العقل الفردي يخطئ ويصالح بالوحي . أما العقل كمعقل فلا يتعارض قط مع الوحي . وليس الوحي إلا أعلى درجات الوعي العقلي .

وللدين في وطننا مقام وأثر كبير يجدر بنا درسه بشكل علمي ، موضوعي . وبما أن جمهوريتنا قاعدة حركات الانبعاث في العالم العربي والعالم الآسيوي الإفريقي ، يجدر بنا أن نفهم أديان هذه الدوام لنفهم القوى المحركة فيها ، لنفهم منطق ثقافتها .

### المحاضرة الثانية :

للم الأديان ، كبقية العلوم ، منهاج بحث تغير بتغير الفلسفات . فهناك الطريقة السيكلولوجية والاجتماعية والفلسفية والفينومينولوجية والتاريخية .



يقصر المذهب السيكلوجي ظاهرة الدين كأنها حالة نفسانية . وعليه ، يخرج الدين من كونه وعيا ملكوت غير ملكوت الظواهر إلى كونه مجرد حالات انفعالية شبيهة بالأحلام والعقد النفسية . ولكن الدين وعى ملكوت آخر تصدر عنه أوامر أعلى أنها ليست منى ، ولست قادراً على التحكم فيها بل على العكس هى التى تحكمى . لذلك قال علماء النفس ، ومنهم بونج ، أن الدين حقيقة وجودية مثلما وصفت . وأنهم لا يهدفون من قولهم أنها ظاهرة نفسية تحويل مكاتبها الميتافيزيقية بقدر ما يهدفون إلى تحليلها وتفهمها . فحسب . قال بونج أن النفس تسير بين قطبين ، من جهة ، العالم الخارجى والمعرفة الواعية ، ومن جهة أخرى اللاوعى ، وهو جماعى ، يتألف من مجموعة صور الوجود . ومشكلة الإنسان فى رأيه ، هى التوفيق بين القطبين فى الحياة . إلا أن اللاوعى لا وجود له سوى فى الوعى الشخصى . فالمشكلة وحلها سواء فى كونهما فى ذات الفرد . فكلهما ذاتيان . وإن لأم هذا التفسير قانون الأخلاق المسيحية والبوذية الأول — إلى ارضاء الضمير واطمئنان النفس إلى ما تفعله الذات الفردية — فهو لا يتفق مع نظريات الأخلاق الأخرى التى ترى فى الفلاح أمراً موضوعياً بالإضافة إلى كونه ذاتى . ونتيجة ذلك ان كل ما قاله بونج فى الله عبث بعد أن هوى به من صعيد التنزيه إلى الصعيد الذاتى . وتعريفه له على طريقة الاشراق الافلوطينية عرفها تراثنا ورفضها .

ويقول المذهب الفلسفى بأن الأدبان جميعاً ماهية واحدة ، يمكننا أن نكتشفها بالتحليل المنطقي ، وانها القسطاس الذى تقيس به الأدبان ونحكم به عليها . وأول استنتاج يستنتجه أصحاب هذه النظرية هو أنه طالما الماهية واحدة فلا بأس أن تعدد الظواهر . وفى الواقع ، خلاص الظواهر هو الهدف . وان جر ذلك نسبة القيم والأخلاق . ففاندى — مثلاً ، الذى يقول بالمذهب الفلسفى ، يقول بأن الدين لا يمكن إلا أن يكون سواد يشى ، أى اقلبى . وفى هذا النتيج ضعفتان : الأول ، انه يفرض نظرية عقلية على ظاهرة وجودية عرفياً ، والثانى ، أنه يزيل حقانية الدين بالمعنى الظاهرى أو المقاديرى . ولا عجب فإن معظم الداعين لهذا المذهب فى الشرق والغرب متصوفون . أما الفلاسفة ، أمثال كانت وهيجل فكلهم فى الأدبان مرتبط بكلامهم عن المعرفة ، وقد سقط الأول بسقوط الثانى .

ويقول المذهب الفينومينولوجى ، وهو مذهب جيمس وأوطو وفان درلوف واليادى وسميث ، ان كل دين من الأدبان مجرى تاريخى يتألف من الحالات الانفعالية للأشخاص

الأعضاء فيه . فالدين جديد في كل صباح . لعلم الأديان أن يدرسه ويتبين القوى المحركة فيه وظواهرها ونتائجها . وإن فعل ذلك فإنه يستطيع توجيه الجرى إلى حيث يريد ، أر على الأقل أن يؤثر في اتجاه الجرى أو يثبته . والضعف الأكبر في هذا المذهب أنه ينكران للدين جوهر أو ذات . ولكن ، كيف له فصل الظواهر عن بعضها البعض وفرز ما هو ديني منها ثم فرز الظواهر الدينية عن بعضها البعض لمعرفة ما هو بوذي وهندوسي وإسلامي ومسيحي منها ؟ لا بد له إذا من أن يفترض خلصة ما ينكره علنياً .

وهناك طائفة من المذاهب الأخرى ، الحيوانى ، والاجتماعى والارتقاءى والنفسانى — الجنسى ، وكلها طبيعية وصفية .

والطريقة المثلى ، هي الطريقة التاريخية ، وبالتالي ، « تاريخ الأديان » . فهى تقبل كل ماتجهه الطرق الوصفية من معلومات عن الأديان . وتقبل النظريات المنطقية العقلية لا كنهائية بل كأدوات بحث تساعد على الوصول إلى الحقيقة . وهى تحافظ على ماهية الدين وناموسيته كشيء جاء من عل . وهى مع هذا ، تعتبر أن للدين تاريخ وتطور فهى تدرسه بقصد تبين منطق حركته في التاريخ البشرى . وهى ، وإن جمعت بين فضائل الطرق الأخرى ، لا تعرض لنقائصها لأنها تصر على اعتبار الدين ظاهرة وجودية من جهة ، وتأخذ بقول رجال الدين بأن الدين أمر لا كأمير الظواهر الأخرى .

### المحاضرة الثالثة :

يقسم تاريخ الأديان العالم إلى ثلاثة أقسام كبيرة : العالم الشرق أو الهندى ، والعالم الغربى أو الاغريقى . والعالم السامى أو العربى . وإن كانت هذه التقسيمات غير محكمة الدقة فهى ذات معالم بيّنة . فعلى العالم الشرق ، يتألف الوجود من عالمين متضادين في الطبيعة والقيمة . عالم الواقع وهو خيالى وشر . والعالم الآخر وهو حقيقى وخير . يجب التخلص من الأول إلى الثانى وهذا هو الاخلاق والفلاح . وهذا قرار يكتشفه العقل ، فالعالم الآخر صامت لا يدعو ولا يدعى .

ويرى العالم الغربى أن الوجود ملكونان تربطها صلة التكامل ، باتجاه الماسكوت الآخر . فأصل الاله بشرى أرضى وقد أصبح لها عندما بلغت قواه البشرية درجة تفوق سائر البشر . فالعالم الآخر إذا نجسيد لما يريد هذا العالم أن يكون في الواقع إذا ، ليس هناك

ثنائية بالمعنى الصحيح . فالملكوت الآخر ليس إلا امتداداً لهذا الملكوت . وتجد هذه النظرة إلى الوجود في القسم الأكبر من التراث الفرعوني والتراث الإغريقي .

أما العالم العربي فيرى أن الوجود ملكوتان منزهان عن بعضهما كل التزوية ومع هذا فهو يرى أيضاً أن بينهما علاقة وطيدة جداً ، علاقة أمرية . فالأمر الخلقى ، يصدر من الملكوت الآخر إلى هذا الملكوت . والعوالم الثلاثة ليست جغرافية ، وليس لها وحدات تاريخية معروفة . إلا أنها وحدات فكرية . وليست دينية بمعنى مللية .

لننظر إلى العوالم الثلاثة مرة أخرى . في العالم الشرق ، يعرف هذا الملكوت بالواقع ويعرف الملكوت الآخر بالترافنا . الأول ظاهري ، موقت ، شر ، والثاني حقيقي ، أزلي ، خير . الأول هو الأصل والثاني صدقة ، وعلى الإنسان أن يعود لأصله . ومن السطحية أن ينسب هذا إلى الدين العربي . « إن إلى ربك الرجعى » ليست إختياراً ميتافيزيقياً ، بل أمراً أخلاقياً .

وفي العالم الغربي ، العكس تماماً هو الصواب . الملكوت الآخر هو هذا الملكوت ولكن على غير حالته الطبيعية . أى على حالته الينغية . لذلك جاءت الآلهة تشخيصاً للقوى الطبيعية . وهذا هو واقع الدين الإغريقي قبل الحركة الفلسفية السقراطية المطهرة ، وهو أيضاً واقع الدين الفرعوني في الزعة الغالبة فيه ، وهى نزعة ميفس . وصات الينا آثارها في « لوحة شباكا » ، فقد بقيت هذه النزعة متسلطة مدى ٢٥ قرناً . والذي تعبّر عنه لوحة شباكا كلامياً ، هو نفسه الذى تعبّر عنه « لوحة الملك نارمر » فنياً تصويرياً في الألف الثالث قبل الميلاد . والآخرية تمثل الملك كموحد للأرضين بلباس ناجيها وبمحجم غير طبيعى — فهو إله لا بشر — كمحرك للناس والخلوقات . وهذه هى مادة وفحوى الفن الفرعوني — مدى العصور ، أما في الفن السابق لمصر نارمر ، مثل « لوحة الصيد » المعروفة ، فلرموز الآلهة أبدى تعمل مع الملك على تحريك الناس والخلوقات . وبدل هذا على أن تأليه الملك حدث في التاريخ . ونعطينا لوحة شباكا قصة هذا التأليه . فتقول بأن مانس وحد الأرضين وبني العاصمة ميفس . وأنه الإله . إلا أن مانيس لم يكن إلا ملكاً غزا الأرضين بمساعدة عقرب ووحدهما شيئاً فشيئاً . فالعمل السياسى إذاً ، أو الواقعى ، عكس على الإله أو الملكوت الآخر ، وأصبح هو . أى أن الملك أصبح الإله ، « والحيطان البيضاء » أصبحت مكان موت أوزيرس وبهته في كل سنة ،

وأصبحت العاصمة السباء . ولا ينكران هنالك نزعة أخرى في الدين الفرعوني ، مغايرة لهذه ، أى ثنائية فيها تنزيه للملكوت الآخر ، إلا أنها ليست بالنزعة الغالية .

وفي العالم العربي بلغ التنزيه وبلغت الثنائية أوعى مراحلها . « ليس كمثلته شئ » ، ليست إسلامية فحسب بل عربية ، سامية ، ويتلقى الواقع أوامر من الملكوت الآخر ، هى ما يجب عليه أن يكون . إلا أن الأوامر ليست الملكوت الآخر . فعلى الواقع أن يبقى هو بنفسه ، فهو خير في ذاته ، إلا أنه يجب عليه أن يمثل للينبغي أن يكون الصادر إليه . ليس الإله رجلا كاملا ولا الرجل إشرافاً وحدناً للاله . هو خليفة الله في الواقع .

ويقسم تاريخ الأديان العالم العربي إلى خمسة عصور : ما قبل إبراهيم — حتى ١٨٠٠ ، الإبراهيمي — حتى ١٢٨٠ ، الموسوي — حتى الميلاد ، العيسوي — من الميلاد ، وأخيراً ، المحمدى — من الهجرة .

#### المحاضرة الرابعة :

يقوم الدين العربي على الوعي الماورائى . ويتألف هذا الوعي من خمسة عناصر .  
التنزيه ، ارتباط الملكوتين ، امرية اليجب أن يكون ، خيرية الواقع ، وقابليته للتكبير .  
وعلى أن تتبين هذه العناصر في كل من العصور الخمسة .

ويجب علينا التخلص من الحكم بأن الإسلام بدأ بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلاسلام قديم ، والدين ذو تطور ومحمد رسول مكمل . إذا لا بد لجوهر الإسلام من أن يكون موجوداً في العصور السابقة ، ولا بد من أن يكون هناك تطور جاء الرسول لا كماله . وبرهان الأولى الآيات « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا .. وإن من أمة إلا خلا فيها نذير .. وما أهلكنا من قرية إلا لأهلها ظنوا .. ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين » .. الخ ودليل الثافية ، علم معقولة انكانية تنزيل القرآن على الأولين ، أو على إبراهيم أو موسى أو عيسى عليهم السلام .

المسلمون يفضون الجاهلية — وبحق . إلا أن هذا يجب أن لا يحول دون تبينهم القيم الحقيقية في تاريخ ما قبل الهجرة . وليس كل ما قبل الهجرة جاهلية . وللإسلام تاريخ قبل محمد ، غير ما قاله القرآن عن ذلك التاريخ ، لأن : « .. ورسلا قد قصصنا عليك من قبل ورسلا لم قصصهم عليك .. » ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

إذا ، وجب علينا أن نبحث عن دين الله في ما قبل الهجرة . ولكننا لن ندرع وجود قرآن عربي مبين ، ولا فقه مالك وكلام الأشعري . فإسلام هذه الأزمان مطابق لعقليتها . إذا ، علينا أن نترك الآثار نحدثنا بلقنها وثقاتها ومفاهيمها . وعلى الأقل ، علينا أن نفتتح من عقليتنا ما قاله الطبري عنها .

وهذه الآثار مع كل أسف ، لم تدرس من قبلنا ، وعلومها كلها غريبة ، مسيحية . ولن ننظر أن يعاملها الغرب معاملة صادقة . فمع أنها « علوم » و — « تهذبات علمية » فهي لن تخلص للحقيقة ، لا لأنها ليست علمية كافية ، بل لأنها علمية . فالعلمية ليست صفة البحث المطلوبة هنا فحسب . بالإضافة إليها يلزم التفهم العاطف المقدر . ذلك لأن المبحوث ليس أحجاراً أو مساطر نباتية أو حيوانية أو فلكية ، بل معاني الهية انسانية .

ويجب علينا ، ثالثاً ، أن لا نرصد من تعدد ما يسميه الأولون بالآلهة . فالآله في تلك العهود لم يكن « الله » . « فآله » تعني تعريقاً كأننا لا شريك له ، أى أجدنا . أما عندهم ، فتعني كلمة « اله » أما كنية لله الاحد وأما رمزا لبشر ، في الأولى ، الآله صفة من صفات الله ، وفي الثانية ، كانت تعني زعيماً أو ملكاً أو شعباً من الشعوب . فدوموزي وأنكمدوليسا الهين بل رمزين لشعب البادية المتنقل وشعب الفلاحة المستقر . علينا في مطالعنا لآثار الأولين ، أن نوقف مقولات تفكيرنا وثقافتنا الحاضرة في epoché وتقفز إلى داخل الظاهرة فنحسب نفسنا جالسين مع أجدادنا السومريين والأكادميين والعومريين يحدثوننا عن أنفسهم فنفهم ما يقولون .

فبن سومروا كاد ، ولا يجوز فصلها عن بعض ( ترمز القصة إلى كل منها باسم جاجاميش واسم أوتابشتيم وتؤكد وحدتها قائلة :

Gilgamesh said to him, to Utnapishtim, the faraway

As I look upon thee Utnapishtim

Thy features are not strange, even as I art thou

Thou art not strange at all, even as I art thou.

وصلت إلينا ملحمة مطلها « عندما الباب لم يكن لها اسم » . . . قص كيف خلق العالم وجعل فيه البشر . وفيها ان مجلساً إلهياً أعضاؤه الآلهة الخمسون اجتمع لمبايعة مردوك الها عليهم . وفي هذه الملحمة تتجلى عناصر الوعي الماورائي الخمسة .

## المحاضرة الخامسة :

لنقرأ ملحة « عندما الباء لم يكن لها اسمها » في كتاب

Pritchard, James, B., *Ancient Near Eastern Texts Relating to the old Testament*, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1950, pp. 67 ff.

نجد الثنائية في الآيات Verily, he is supreme ... ص ٧٠ وما يليها . ونجد  
الفيزية للملكوت الآخر في الآيات No one among the gods is his equal...  
وما يليها . ونجد امرية البجب أن يكون في الآيات His commands we have exalted  
above the gods... وما يليها ، ص ٦٩ ، ونجد في ص ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦ ما يثبت أن  
المؤلف اعتبر مردوك خالقاً مواد الآلهة ومدبراً لأمورها . ونجد خيرية ملكوت الواقع  
وقابليته للتكميل ووقوع واجب التكميل على الانسان في الآيات A likeness on Earth  
of what he has wrought in Heaven... ، وما يليها .

وفي سومرواكاد ، وصلت علانة الملكوتين ببعضهما أروع الصور . وهناك تمثالا  
الدين العربي كامية ، كقانون ، مصدره الملكوت الآخر . وليس قانون ليبث — إيشطار  
وقانون حمورابى إلا بلورة لهذه الامرية . لنقرأ نص القانونين في الكتاب المذكور  
ص ١٥٩ وما يليها وص ١٦٥ و ١٧٨ وما يليها .

ولا بد من الملاحظة أن هذا الوجع الماورائى الذى يجعل فى الآثار أصل المدنية  
السامية — أو العربية . هو حياتها وتغيرها الدائم عن كيانها . ووحدة هذه الآثار هى  
وحدة الأمة التى أخرجتها ، أى الأمة العربية خلال سبعة آلاف من السنين . فالتاريخ  
القديم هو تاريخها . وهى أمة واحدة لا لوحدة لغتها فحسب ، أو لوحدة جغرافيتها ،  
أو وحدة البشرية فيها فحسب بل — وهذا هو الأهم — لوحدة الدين أو الايديولوجيا .

ولا شك أن الثنائية والنزيرة والامرية وجدت في التراث المصرى القديم . إلا أنها لم  
توجد فيه بمثابة المجرى الأم ، بل كالفرع المناوىء للآم أحياناً كما في عصر الهيكسوس  
والعبارنة ، والدين المغلوب على أمره غالباً . فلكون راع صفات لا تقل تنزيهية عن  
صفات مردوك ، ذى الاسماء الحسنى « الحسنيين » . وكذلك نشيد أتون الشير وأنشيد  
توتعميس النوحيدة .

لنقرأ شيئاً من هذه الأناشيد ، لا سيما... Whilst thou wert alone ص ٣٧١ من الكتاب المذكور ما يليها وص ٣٧٣ وما يليها . نرى أن لنشيد آتون نزعاً pantheistic هندية ، لا عربية ، ونجد أن المجد في الأناشيد التوحيدية هو إما فرعون أو النيل أي الطبيعة ، أي ملكوت الواقع .

#### المحاضرة السادسة :

مراجع حراسة تاريخ الأديان في العالم العربي في العصر الإبرهيمي هي : آثار تل الحريري (ماري) ، آثار راس شمرا (أوجاريت) ، آثار فلسطين ، آثار تل الهارثة ، التوراة ، القرآن الكريم .

تقول الآثار بأن موجات متتالية من المهاجرين من الصحراء الغربية ومن العراق نزلت في ديار الشام . وتعرف هذه الهجرات بالهجرات الآرامية . وتقول الآثار أيضاً أن هؤلاء المهاجرين نزلوا في سوريا وشرق الأردن وتغلغلوا إلى الداخل شيئاً فشيئاً وعلى دفعات . وقد أسسوا ممالك صغيرة على تخوم الصحراء عرفها عصر موسى كموآب وعيلام ، وآدم ، وحشبون وفاران ، إلخ وعرفها العصر العيسوي . كغسان والحيرة والبراء وتدمر إلخ . وتدل الآثار على أن القوانين والعادات بين هذه القبائل المهاجرة كانت متشابهة وقريبة من بعضها البعض ، بل واحدة . مما لا شك فيه أن دين معظم هذه القبائل كان نفس دين البلاد التي هاجروا منها ، كما أنه لا بد أن يكون المهاجرون ذوى رأى خاص مندمع في اتجاه ما أو غيره ، وبذلك يكونون متميزين بعض الشيء عن إخوانهم الباقين . فالهجرة تقتضى نوعاً من الاختلاف في الحيوية أو وجهة النظر بين المهاجر والقاعد .

وهنا ، جاءت التوراة وجاء القرآن الكريم يؤديان رسالتهما . كلاهما توجه إلى حوادث التاريخ التي هي واحدة . وكلاهما تقيم هذه الحوادث بطريقته الخاصة ، تحت مؤثرات ومبادئ مختلفة . فالتوراة صبرت هذه الحقائق التاريخية في قالب يؤكد العنصرية ، أما القرآن الكريم فقد قدمها في قالب يؤكد الخنيفية . ولكن المسألة ليست بمجرد اختلاف وجهه النظر بين الكتائين . فالتوراة ، يوماً ما ، هي أيضاً قدمت الحقائق من وجهة نظر الخنيفية . إلا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن . وهذا دليل على أن الخنيفة ، أو الحبر التاريخي كما قاله القرآن الكريم ، هو الحق . فوجود الخنيفية في التوراة بشكل محرف ، دليل خارجي على صدق خبر القرآن الكريم .

ولكن ماهى العنصرية وماهى الخيفية؟ العنصرية هى تفضل حزب أو قبيلة من المهاجرين انفسهم كنوع أفضل من المخلوقات واتباع نظام أخلاق يقضى بالحفاظ على سلامة عنصركم وعدم الانصهار فى أية قبيلة أو شعب أو أمة أخرى . أما الخيفية ، فهى تفضل المهاجرين أنفسهم كنوع رسالة ، يحملونها إلى البشر أجمع ، ويحققونها بالانصهار فى جسم البشرية انى كانوا وباهداء الذين ينصرون معهم عن طريق المصاهرة والمؤاخاة ، لغتهم وثقافتهم ورسالتهم .

لذلك ، جاءت التوراة بعد أن بلورتها العنصرية تقول بأن ابراهيم هاجر لأن يهود أمره بذلك . ولكنها تعتمد السكوت على أمر يهود . فهى تقول أنه أمر تلقائى عرفى ، أى لا سبب له . فالتة ، فى نظرها ، فضله لأنه هو . وقد فضل ذريته لأنها ذريته ، بل قطع عهدا ( لا ميثاقا ، والفرق بين العهد والميثاق ان الأول ذو اتجاه واحد أى يلزم جهة واحدة فقط ) على نفسه بتفضيلها مهما حصل إلا الأبد . حتى الاله ، تمثلته كاله هذا العنصر من دون الناس . أما القرآن الكريم ، بقاء يعلن ان الله اله الجميع لا قدرة وقهرا بل حبا ورحمة . وجاء يؤكد ان هجرة ابراهيم لسبب وجيه ، هو التوحيد ، وان الله أعطى له ميثاقا بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات ، وأنه تعالى سيعاقبه أشد العقاب ، بل سيستبدله وقومه ، إذا لم يحققوا هذه الأمانة .

إذا ، أمانا نزعان: نزعة أقلية متعنتة ونزعة أكثرية متفتحة أخلاقية . ولولا الأولى ، لما استطاع المهاجرون الذين تابعوا سيرهم إلى مصر الإبقاء على عنصركم فى مصر ولما اضطهدهم المصريون . خلافا لما ناله الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه ، متنوعات ؛ ولولا استمرارها لما قامت النبوة اللاودية المؤلمة ولما كان تاريخ اليهود المعروف . فالهود أفاء هذه النزعة . ولولا الثانية ، لما جاءت ثورة اختناكون على الدين الفرعونى ، ولما استطاع الخارجون من مصر أن ينصروا فى قبائل سيناء ومدين وممالك النجوم الشامية كما فعلوا .



## محافظات الجمهورية العربية المتحدة

في العصر الإسلامي

للدكتورة سعاد ماهر

### التقسيم الإداري للإقليم المصري في العصر الإسلامي

تقسم مصر من الوجهة الجغرافية منذ أقدم العصور إلى قسمين أساسيين ، هما الوجه البحرى أو أسفل الأرض أو الريف ويقع في دلتا نهر النيل ، والوجه القبلى أو الصعيد أو أعلى الأرض . وقد أجرى حاكمو القسطين تقسيمها إلى عدة أقسام صغيرة ليسهل حكمها والاشراف عليها ، وأطلقوا على هذه الأقسام أسماء تغيرت بغير الزمان وتعدد الحكام ، ولما دخل العرب مصر وجدوا ان الرومان قد قسموها إلى أقسام إدارية صغيرة يعرف كل منها باسم ( Nomo ) ، جرىا على سياستهم المحيطة التى اتبجوها في البلاد التى فتحوها ، فأبقى العرب النظام الإدارى والمالى على ما هو عليه وأبدلوا باسم ( نوم ) كلمة كوره .

وفي أوائل العصر الإسلامى كانت مصر مقسمة إلى سبعة أقاليم أولها الجفار وقاعدته القوما وآخرها الواحات<sup>(١)</sup> . وكانت هذه الأقاليم السبعة تنقسم بدورها إلى ثمانين كورة<sup>(٢)</sup> . واستمر هذا التقسيم حتى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله في القرن الخامس الهجرى فضل عنه وقسمت البلاد إلى كور كبيرة بلغ عددها ٢٢ كورة ، اثنتا عشرة منها في الوجه البحرى وعشر في الوجه القبلى وكان عدد القرى في الوجهين ٢١٤٨<sup>(٣)</sup> قرية منها ١٦٠١ في الوجه

( ١ ) أحسن التقاسيم من ١٩٣ ، المقرئى ج ١ ص ٣٠٥

( ٢ ) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٩ ، المقرئى ج ١ ص ٧٢ و ٧٣ و ٧٤

( ٣ ) أبو صالح الأريقى : ص ٩

البحرى و٥٤٧ في الوجه القبلى . ولما جاء الايوبيون أضافوا إلى هذا التقسيم كورنين فأصبح عددهما ٢٤ كورة <sup>(١)</sup> .

وفي العصر المملوكي أمر الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥هـ أن يفك زمام الأراضى وأن يعاد مسحها وتقسيمها إلى أقسام يعرف كل منها باسم « عمل » على أن يكون عددها ٢١ عملا بدلا من ٢٤ كورة . فكان الوجه البحرى ١٢ عملا والوجه القبلى تسعة أعمال ، وقد عرف هذا الأمر أو الرسوم باسم (الروك الناصرى) <sup>(٢)</sup> . وقد استمر هذا التقسيم طوال العصر المملوكي أى حتى سنة ٩٢٣هـ .

وفي العصر العثمانى فك زمام القطر وأعيد مسحه وتقسيمه إلى ١٣ قسما سمي كل قسم باسم ولاية <sup>(٣)</sup> ، منها سبعة في الوجه البحرى وستة في الوجه القبلى ، ودون ذلك في دفتار عرفت باسم (دفتار الترابيع) . ويشمل الوجه القبلى ولايات : الاطفيحية والقيومية والهنساوية والاشمونين والمنفلوطية وجرجا ، ويشمل الوجه البحرى ولايات : القليوبية والشرقية والدقهلية والغربية والمنوفية والبحيرة والجيزة ، هذا بالإضافة إلى ست محافظات هى الإسكندرية ورشيد ودمياط والعريش والسويس والقصر ، وكان برأس كل ولاية حاكم أو كاشف وبرأس المحافظة محافظ أما القاهرة فكان يرأسها شيخ البلد .

وفي عصر محمد علي أعيد تقسيم البلاد إلى ٣٤ قسما سمي كل منها مأمورية . وفي سنة ١٨٣٣ أعاد التقسيم مرة ثانية وجعلها ١٤ قسما وسمى كل منها مديرية .

وقد ظلت هذه التسمية مبارية إلى أن عمل عنها سنة ١٩٦٠ في عهد نورتنا المجيدة ، فقد أبلل بكلية مديرية كلمة محافظة وقسمت البلاد إلى ٢٥ محافظة على نحو ما كانت عليه في عهد الفاطميين والأيوبيين من حيث العدد ، إذا كانت ٢٤ كورة وإن اختلفت الأقسام في الساحة والحدود . وسأتناول فيما يلى كل محافظة على حدة فاذا ذكر تاريخها وآثارها وأعلامها وأقسامها الادارية .

(١) ابن ماق ص ١٤

(٢) المقرئى ج ١ ص ١٤١

(٣) ابن ايس ص ٧

## محافظة القاهرة

أسس الفاطميون بعد فتحهم مصر سنة ٣٥٨ هـ مدينة القاهرة لتكون عاصمة للملكم الجديد ومركزاً للشر دعوتهم الدينية . وقد عملوا منذ اللحظة الأولى على حماية هذه العاصمة فأحاطوها بسور وكان ذلك على يدى قائدهم الصقل . ولما تهدم ذلك السور بعد ثمانين عاما ، أعاد بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٠ هـ بنائه بالحجر والآجر ، ولا تزال بعض أجزاء هذا السور الأخير باقية حتى اليوم . عند باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح ، كما عمل خلفاء الفاطميين على تعمير المدينة فشيخوا الدور والقصور والمنابر، وزرعوا البساتين والمتنزهات ، وأناموا المساجد والجوامع وأنشأوا المكتبات العامة ودور العلم وأهمها الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، ودار الحكمة . كذلك أنفقوا أنبايعهم وأشيايعهم الخطط ، فسكنوها وعرفت بأسمائهم .

ولما تولى صلاح الدين الأيوبي ملك مصر سنة ٥٦٧ هـ ، كان عليه أن يحصن عاصمة البلاد حتى يطمئن عليها أثناء غيابه في محاربة الصليبيين في بلاد الشام ، فأنشأ قلعة الجبل على صخرة مفصولة من جبل المقطم ، ثم أحاط عواصم مصر الاسلامية الأربع ، وهى مدينة القسطنطينية والمسكر والقطائع والقاهرة بسور واحد . وعلى ذلك يمكننا القول أن عاصمة صلاح الدين شملت عواصم مصر الاسلامية الأربع السابقة ، وأطلق عليها جميعا اسم القاهرة ، أما أسماء العواصم الأخرى فقد نضأت إذ أضحت كأنها أحياء في قاهرة صلاح الدين . ولما كانت الدولة الأيوبية سنية المذهب ، فقد عملت منذ توليها مقاليد الحكم على نشر هذا المذهب ومناهضة المذهب الشيعى الذى كان سائداً في العصر الفاطمى ، فأنشئ لذلك كثير من المدارس المنهية .

وفي عهد دولتي المماليك البحرية والبركسية ، بلغت مدينة القاهرة شأوا كبيرا من الناحيتين المادية والأدبية ، جعلها محط أنظار العالم كله ، خاصة بعد أن أقل نجم مدينة بغداد باستيلاء المغول عليها سنة ٦٥١ هـ ، وسقوط مدينة قرطبة على يد الفرنجة سنة . وقد نتج عن ذلك أن أضحت مدينة القاهرة السوق الكبير للبلاد الاسلامية والعربية ، فكان عليها أن تنشئ مباني عامة لاستضافة الوافدين عليها من التجار والرحالة ، ومن أجل هذا كثرت في هذا العهد إنشاء الخانات والوكالات والقنادق ، التى لا يزال الكثير منها باقيا حتى اليوم . وبمالمالاشك فيه أن العصر المملوكي يعد بحق العصر الذهبى لمدينة القاهرة ،

على الرغم مما تخلفه من المنازعات والثورات والشغب الذى كان يحدث عند تولية كل سلطان جديد .

وعلى الرغم من التدهور السياسى والأدبى والاجتماعى الذى عاينه مدينة القاهرة أثناء الحكم العثمانى ، فإنها ظلت محتفظة بمكانتها العمرانية ، فقد قام كثير من السلاطين وولايتهم فى مصر بتشديد كثير من العمارات الدينية ، كما انتشر فى ذلك العصر عادة بناء الأسبلة والتكايا التى تجلت فيها طرز الفن العثمانى .

وفى القرن التاسع عشر ضاقت مدينة القاهرة بسكانها فامتدت مبانيها شمالا وجنوبا وضمت اليها من الناحية الادارية وعرفت بضواحي القاهرة . وفى سنة ١٩٦٠ ضمت لمحافظة القاهرة بعض الاعمال التى كانت تتبع غيرها من الأقسام الادارية ، وفيما يلى بيان بضواحي القاهرة .

### الضواحي الجنوبية :

حلوان : (١) أنشأ عبد العزيز بن مروان والى مصر مدينة حلوان سنة ٦٨ هـ ، ويقول ياقوت « إن حلوان قرية من أعمال مصر مشرفة على النيل من جهة الصعيد بينها وبين الفيضاط فرسخان ، وأول من اختطها عبد العزيز بن مروان ، وضرب بها الدنانير وبقي بها دوراً وقصوراً واستوطنها وزرع بها بساتين وغرس فيها كروماً ونخلاً » . ويستفاد مما ذكره المقرئ (٢) قحلا عن ابن عبد الحكم ، أنه كان يوجد بصحراء حلوان عيون ماء عذبة غير عيونها الكبرى . ثم يضيف ، إن عبد العزيز بنى هناك سنة ٧٠ هـ مقبلاً للنيل . وجاء فى الخطط للمقرئ (٣) « إن عبد الله ( المأمون ) أمير المؤمنين لما قدم مصر أقام فى حلوان » . وقد سعدت حلوان طوال العصور الوسطى وازداد عمرانها بإقامة الأمراء والاعيان فيها ، ثم أخذت بعد العصر المملوكى فى القرن ١٦ م تتقهقر حتى تخربت قصورها ومساجدها وكنائسها ويقول الجبرتي « إن شيخ البلد أحرقتها سنة ١٧٨٦ م ، أما الآن فإنها قرية عادية مدفونة فى غابة من النخيل » . وظلت حلوان قرية مهجورة ومضربة حتى القرن ١٩ م

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ١٩ ، المقرئ ج ١ ص ٣٣٧ ، أحسن التقاسيم ج ص ١٧ ، الكنتى ص ٤٩

(٢) المقرئ ج ١ ص ٣٣٩

(٣) المقرئ ج ١ ص ٣٣٨

ففيه اكتشفت عيونها الكبريتية وأُنشئت الحمامات سنة ١٨٩٩ م . وقد زادت أهميتها عندما قتل إليها المرصد من مكانه بالعابية إلى مقره الحالي بمحاون وأُنشئت بها معانق للنسج والحريز والحديد والصلب .

طره : قرية قديمة منذ العصر الفرعوني ، ولما جاء العرب استعمالوا اسمها القبطي (Trovo) ومعناه ( أرض المغارات الخفية ) أى المخاجر ، وهى تقع على شاطئ النيل الشرقى وهى شهيرة بمحاجرها التى تخرج الحجر الجيرى الأبيض الجميل . ووردت فى معجم البلدان <sup>(١)</sup> ( طرا ) قرية فى شرق النيل قرية من القساطل من ناحية الصعيد . وجاءت فى معاجم البلدان الأخرى ( طرا ) من الاعمال الاطفيحية . وقد عثرت مصلحة الآثار فى مغارة قديمة فى جبل طره على بعض الأوراق البردية تتضمن تفسيراً للكتاب المقدس وتربيع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى ، ولعل وجود هذه المخطوطات فى تلك المغارة يشير إلى الدير الذى ذكره أبو صالح <sup>(٢)</sup> أن القديس ارستيبوس كان يقيم به فى تلك المغارات ، والذى عرف فيما بعد باسم دير القصير . ويقول المقرئ أن الحاكم بأمر الله أمر سنة ٤٠٠ هـ بهدم دير القصير ، ومع ذلك ظل أجزاء منه باقية حتى القرن ( ١٤ م ) ، حيث اندثرت تماماً .

المعادى : قرية قديمة عرفت باسم منية السودان <sup>(٣)</sup> . ويقول أبو صالح الأرمينى <sup>(٤)</sup>

أن دير العدوية واقع بأرض منية السودان ، ولا يزال هذا الدير موجوداً بين المعادى وطره ، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى سيده مغربية أنشأته تسمى العدوية ويسميه النصارى الآن كنيسة العنراء . وقد وردت فى كثير من معاجم البلدان <sup>(٥)</sup> العربية باسم العدوية ، ووردت فى الانتصار <sup>(٦)</sup> « العدوية ضمن ضواحي القاهرة بين بركة الحبش (دير الطين) وطرا » . وفى العصر العثمانى عرفت العدوية باسم ( معادى الخيرى ) حيث كان بها مرمى المراكب المحصنة لتعدية الناس ، وكان يتولى رياضة تلك المعادى رجل يسمى على الخيرى فنسبت إليه واشتهرت باسمه . وكانت المعادى تابعة لتاحية البساتين ومنذ سنة ١٩٦٠ أصبحت تابعة لمحافظة القاهرة .

( ١ ) معجم البلدان ج ٧ ص ٣٧

( ٢ ) الديورة والكنائس : ص ١١٩

( ٣ ) الادريسي نزهة المشتاق ص ١٩٦ ، القاموس الجغرافى ج ٣ ص ١٧

( ٤ ) الديورة والكنائس ص ١٣٧

( ٥ ) ابن علقمى ص ١٧٢

( ٦ ) ابن دقماق ص ١٨٤

أثر النبي (١) : قرية صغيرة كانت تتبع مديرية الجيزة ، وهى على الشاطئ الشرقى لليل ، وملاصقة لدير الطين أخذت اسمها من وجود حجر قديم على هيئة قدم تزعم الناس أنه أثر قدم النبي عليه الصلاة والسلام . وقد أدخل هذا الحجر فى المسجد الذى أقامه الملك الظاهر بيبرس وبني قبة فوق هذا الأثر . وفى القرن ( ١٦ م ) ضمت الأراضى الزراعية فى منطقة البستان المشوق وبركة شطا وبركة الشعبية إلى بعضها ، وتكون منها زمام خاص باسم ناحية أثر النبي (٢) ، وهى الآن تتبع محافظة القاهرة ويسمى العامة أثر النبي بالتاء بدل الاء .

### الضواحي الشمالية :

عين شمس والمطرية : عين شمس (٣) مدينة مصرية قديمة عرفت باسم ( أون ) أى الشمس وترجم البطالة الاسم فصارت تعرف فى وقتهم باسم ( هليوبوليس ) ، وفى العصر المسيحي استعمل الأقباط الاسم القديم ( أون ) . ولما دخل العرب مصر ترجعوا الاسم إلى العربية فأصبحت تعرف باسم مدينة الشمس . وكان بجوار المدينة عين ماء معروفة سماها العرب عين شمس فقلب اسمها على اسم المدينة وعرفت به .

وقد نقل ابن سعيد عن كتاب « لذة الملمس فى حلى كورة عين شمس » أنها كانت فى قديم الزمان عظيمة الطول والعرض ومصلة البناء بمدينة مصر حيث قامت مدينة القسطنطينية ، ومعنى هذا أن مدينة عين شمس كانت إلى ما قبل الفتح العربى تمتد من موقعها الحالى جنوبا حتى حصن بابليون ، والآن يطلق اسم عين شمس على محطة عين شمس وعلى المساكن المجاورة لها الواقعة على السكة الحديدية فى شمال المطرية .

والمطرية من المدن المصرية القديمة قال عنها ياقوت (٤) « أنها من قرى مصر وبأرضها يزرع شجر البلسان يستخرج منه نوع من الدهن الطيب » . وقال عنها ابن الجيعان (٥) ، أنها من ضواحي مصر وذكرها المقرئى (٦) باسم منية مطر .

( ١ ) المقرئى ج ٤ ص ٢٩٥ ، القاموس الجغرافى ج ٣ ، ص ٣

( ٢ ) الخطط التوفيقية ج ٥ ص ٦

( ٣ ) نزهة المشتاق ج ١٧٦ ، معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٥ قوانين ابن منى ص ١٦٧

( ٤ ) معجم البلدان ج ٨ ص ١٦١

( ٥ ) النحلة السنية ص ١٨٢

( ٦ ) الخطط ج ٣ ص ٢٢٧

مصر الجديدة : يستفاد مما جاء في خطط المقرئى<sup>(١)</sup> ان الريدانية اسم يطلق على بستان كبير انشاه ريدان الصقلي أحد خدام العزيز بالله الفاطمى ، وجاء فى القاموس<sup>(٢)</sup> الجغرافى ان اسم الريدانية كان يطلق على البستان وما جاوره من الأرض الرملية التى كانت تمتد فى ذلك الوقت ما بين باب الحسينية وبين الصحراء التى بها الآن مصر الجديدة . ويؤيد ذلك جميع الوقائع والأحداث التاريخية التى وقعت فى الريدانية منذ نهاية عصر المماليك سنة ١٥١٧ وفى سنة ١٨٠٠ عندما التقت الحملة الفرنسية بجيوش العثمانيين هناك . أما اسم مصر الجديدة فلم يطلق عليها إلا فى سنة ١٩٠٦ عندما اشترتها الشركة البلجيكية ، وقد أتمت أملاك الشركة البلجيكية الآن وأصبحت ملكا للدولة .

\*\*\*

## محافظة أسوان

أسوان لغة الحزن ، من قولهم أسي الرجل إذا حزن ، ورجل أسيان وأسوان أى الحزين . ومن الطريف ان المقرئى<sup>(٣)</sup> يحاول تفسير اسم أسوان على هذا الأساس اللغوى دون النظر إلى اشتقاق الاسم من الاسم الفرعونى . فقد كانت تعرف باسم سونو<sup>(٤)</sup> (أى السوق) وذلك لشهرتها بحركتها التجارية بين مصر وبلاد النوبة والسودان ، ثم حرفت الكلمة وأصبحت أسوان . ويقول البعض أنها مشتقة من كلمة صوان ، وذلك لوجود محاجر الصوان والجرانيت فيها بكثرة . وكانت أسوان فى العصر الإسلامى نفرا من نفور كورة القوصية<sup>(٥)</sup> واستمرت كذلك حتى نهاية العصر المملوكى ، وفى العصر العثمانى أصبحت نفرا لولاية جرجا ، وذلك لأن أهل الأسبوطية والاختيمية والقوصية ضمت بعضها إلى بعض وجعلت ولاية واحدة باسم جرجا . وفى عصر محمد على ضمت إلى مديرية اسنا . وفى سنة ١٨٨٨ م أصبحت قاعة لمديرية الحلود وفى سنة ١٩٠٠ جعل اسم المديرية أسوان وقاعدتها أسوان واستمرت حتى سنة ١٩٦٠ فأصبحت محافظة . وقد انتشر الإسلام بأسوان منذ بدء ظهوره ، فقد عثر على شاهد قبر يرجع إلى سنة ٣١١ هـ عثر على شواهد

(١) الخطوط ج ٣ ص ٢٢٩

(٢) القاموس الجغرافى ج ١ ص ١٧

(٣) المقرئى ج ١ ص ٣١٩

(٤) سليم حسن ج ١ ص ٧٥

(٥) معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٨ ص والتجوم الزاهرة ص ٢٩٢ ج ٥ حاشية

قصور أخرى مكتوب عليها الاسم ثم نجى بعده كلمة الانصارى<sup>(١)</sup> ، ومعنى ذلك ان مدينة أسوان سكنها أقوام من العرب من القرن الأول الهجرى ممن عاصروا الرسول عليه الصلاة والسلام .

ازدهرت أسوان في العصر الاسلامى ، إذ ظلت منذ الفتح حتى القرن السادس الهجرى طريقا إلى عيذاب حيث تبحر السفن إلى الحجاز والهند ، واشتغل أهلها بالتجارة وخاصة العطاراة وسن القيل والصمغ ودرى النعام . كما كانت تمتاز بالتمر ، ويقول المقرئى<sup>(٢)</sup> في ذلك ، والبلد كثير التخل خصيب كثير الخير ، تودع التواء في الأرض فثبت نخلة ويؤكل من ثمرها بعد سنتين ، ويقول القاضي الفاضل ، ان محصول ثمر أسوان في سنة واحدة ثلاثون ألف أردب من التمر . وكانت حدود أسوان متداخلة مع بلاد النوبة ، ولذلك كان على من يملك من أهلها ضياعا داخلة بأرض النوبة أن يؤدي خراجها إلى ملك النوبة ، وقد اقيمت هذه الضياع من بعض رجال النوبة في صدر الاسلام في عهد الدولة الأموية والعباسية . وقد أغار ملك النوبة<sup>(٣)</sup> سنة ٣٤٤ هـ في العهد الاخشيدى على أسوان ففرج اليه محمد بن عبد الله الخازن بمجنوده برأ وبحراً وهزمه وأسر وسبي كثيرا من النوبيين وسار جنوبا حتى وصل ابرم وفدحها . وكان ثمر أسوان حتى نهاية العصر الفاطمى خاضعا خضوعا تاما للدولة فقد كان بأسوان دائما قوات من الجيش على أهبة الاستعداد لمهايمه ضد غارات النوبة والسودان ، فلما زالت الدولة الفاطمية أهل أمر الثغر مما شجع ملك النوبة على الهجوم والابتلاء عليه . وفي سنة ٧٩٠ هـ استطاع بنو الكنز أن يستردوا الثغر من ملك النوبة ولكنهم احتفظوا به لأنفسهم فقامت بينهم وبين ولاية أسوان من قبل دولة المماليك عدة حروب حتى كانت محنة سنة ٨٠٦ هـ عندما انخفض منسوب مياه النيل وحدثت مجاعة وخرب اقليم الصعيد وتخلت الدولة عن الثغر ولم يبق للسلطان في المدينة وال<sup>(٤)</sup> ، واستمر الحال على ذلك بضع سنين حتى زحف أهل هواره على بنى الكنز سنة ٨١٥ هـ وهزمهم وهدموا سور المدينة وتركوها خرابا يبابا . وفي نهاية القرن (٩) هـ استعادت المدينة مكاتبها التجارية .

(١) Monneret de Villard : La Musulmana di Aswan. P 2

(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٩ ، للمقرئى ج ١ ص ٣٣١

(٣) المقرئى : ج ١ ص ٣٢٠

(٤) لتجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٠١ ، أمانة الأمة ص ٤٢



وسكن أسوان قبائل من فحطان وتزار وريعة وضر والانصار وبني هلال وكثير من القرشيين ويقول الادفوى<sup>(١)</sup> أنه كان بأسوان ثمانون رسولاً من رسل الشرع ، كما عثر على وقف مكتوب عليه اسم أربعين شريعاً ووقف آخر عليه اسم ستين شريعاً .

وكانت أسوان مركزاً تجارياً كانت كذلك مركزاً ثقافياً مهماً في القرنين السادس والسابع للهجرة ، فقد كانت بها ثلاث مدارس<sup>(٢)</sup> لتدريس علوم الشريعة واللغة العربية أقدمها مدرسة أسوان وقد درس بها العلامة اسماعيل بن محمد بن حسان الانصارى ، والمدرسة السيفية وقد تولى التدريس فيها العلامة عمر بن محمود الانصارى المتوفى سنة ٦٦٧ هـ والمدرسة النجبية وقد درس بها علماء أجلاء منهم العلامة الحسن بن محمد بن عبد العزيز ابن الفضل المتوفى سنة ٧٠٢ هـ وقد تخرج في هذه المدارس عدد عظيم من العلماء والأدباء .

وقد يكون من الطريف أن نذكر أن فكرة بناء خزان بأسوان نشأت في عهد الحاكم بأمر الله ، فقد بلغه أن الرياضى الكبير والمهندس البصرى الحسن بن المهيم ، قال ، لو كنت في مصر لمعت في نيلها عملاً يصلح به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فأرسل إليه الحاكم بأمر الله يدعوهُ إلى الحضور وبرغبه في ذلك فلما حضر استقبله الخليفة وأكرمه وطالبه بما وعد به في أمر النيل فصار معه الصنائع حتى وصل إلى الشلال وعابن الموقع الذى تخبره ولامر ما امتنع بعد ذلك عن تنفيذ فكرته وتظاهر بالجنون .

ولا تقتصر الآثار الباقية في أسوان على تلك التى ترجع إلى العصر الفرعوى والبطلى والرومانى ، بل أنها تزخر كذلك بالآثار المسيحية والإسلامية . ومن أهم آثارها القبطية دير الأنبا سمعان<sup>(٣)</sup> الذى يطلق عليه أهل أسوان اسم الأنبا هدى نسبة إلى رئيس الرهبان الذين عاشوا في القرن (٥ م) في البقعة التى أقيم فيها الدير فيما بعد . ويقع الدير على تل مرتفع في الصحراء الغربية قبالة جزيرة (الفتين) ولهذا الدير أهمية خاصة لأنه يعطينا فكرة شاملة عن حالة الأديرة في مصر العليا في العصور الوسطى إذ أنه ظل أهلاً بسكانه منذ إنشائه حتى القرن (١٢ م) ويتكون الدير من الكنيسة ومسكن الرهبان الذى يتكون من طابقين العلوى لسكنى الرهبان ، أما الطابق الأول فكان يستعمل كمخازن لحفظ الأطعمة ومعامر

(١) الطالع السعيد ص ١٣

(٢) الثوبة : عبد الله بن أحمد بن سليم الاسوانى ص ٢١٧ ، الطالع السعيد ص ١٤

(٣) أبو صالح الأرمينى ص ١٧

للزيوت وأفران وما إلى ذلك مما يمكن الرهبان من المعيشة داخل أسوار الدبر مستقلين عن العالم الخارجى ومفرغين للعبادة .

أما عن الآثار الاسلامية فإن أقدمها يرجع إلى القرن الأول الهجرى . وهو شاهد قبر من الحجر الجيري عليه كتابة باسم ابن حجر الاسوانى ومؤرخ سنة ٣١ هـ وهو يمثل أقدم كتابة على الحجر فى مصر الاسلامية كذلك احتفظت لنا بجبانة أسوان بعدد كبير من القبور وشواهدما التى تمتد تاريخها من القرن الثانى للهجرة حتى العصر المملوكى . وبهذه الجبانة توجد أول محاولة لإقامة القباب على الأضرحة فى مصر وكان ذلك فى العصر الفاطمى <sup>(١)</sup> . ومن أهم هذه المباني ( السبعة وسبعين ولى ) ويقول الاسوانيون عنه أنه ضريح ، ولكنه فى الواقع مسجد كما يتضح من تخطيطه ، فهو يتكون من شكل رباعى تبلغ مساحته ١٢ متراً مربعا وقد غطيت هذه المساحة بتسع قباب وله مدخلان . ويشبه هذا للبنى مشهد طباطبا ، غير أن الدعائم ذات التخطيط الصليبى قد حل محلها اعمدة من الجرانيت ، كما أن المحراب مستدير من الخارج بخلاف طباطبا فهو مربع وبذلك يمكن إرجاع هذا الأثر إلى العصر الفاطمى <sup>(٢)</sup> .

وبالقرب من ( السبعة وسبعين ولى ) يوجد ضريح كبير يعرف باسم المشهد ، الذى يشبه من حيث أقبائه وقبابه أضرحة السيدة عائكة والاعفرية والشيخ يونس والسيدة رقية بالقاهرة ، ويمكن إرجاع هذا الأثر إلى نهاية العصر الفاطمى <sup>(٣)</sup> . وعلى بعد نصف ميل جنوب فندق « كاتاركت » يوجد فناء غير منتظم التخطيط فى ركنه الشمالى مئذنة تعرف باسم الطابية <sup>(٤)</sup> وهى مبنية من الطوب من الخارج ومن الطلى من الداخل ، وقد سقطت الطبقة الثالثة للمئذنة وبذا القبة . وتمتاز هذه المئذنة بوجود كتابات على الطبقة الثانية ، وقد حدثت هذه الكتابة من استعمال قوالب الطوب بأوضاع مختلفة ، وقد تكون هذه المئذنة من عمل بدر الجمالى . وعلى الجانب الشرقى لىر النيل جنوب الشلال يوجد مشهدان يعرفان عند أهل التوبة باسم المشهد البحرى ( أو الباب ) وباسم ( مئذنة بلال <sup>(٥)</sup> ) ،

( ١ ) Creswell. III p. 142

( ٢ ) المرجع السابق ص ١٤٤

( ٣ ) المرجع السابق ص ١٤٥

( ٤ ) المرجع السابق ص ١٥٢

( ٥ ) المرجع السابق ص ١٤٧ - ١٤٩

للمشهد القبلى . وقد كان من نتائج التعليق الثانية لحزان أسوان ، أن غمرت المياه المشهدين ولم يعد يظهر منهما غير المئذنتين ، والمشهدان من عمل بلر الجمالى أيضاً .

وفى شرق المدينة وعلى التل المعروف باسم جبل هارون أقام محمد على طايه ، كما أقام قلعة فى وسط المدينة لتعليم وتدريب الجنود الذين أتى بهم من السودان .

\*\*\*

## محافظة قنا

قنا مدينة مصرية قديمة شهيرة بالصعيد الأعلى<sup>(١)</sup> ، تقع على الشاطئ الشرقى لليل ، وكانت منذ عهد الدولة الفاطمية حتى نهاية الحكم المملوكى من أعمال القوصية ، وفى العصر العثمانى كانت من أعمال ولاية جرجا ، وفى سنة ١٨٣٣ ضمت مأمورية قنا إلى مأمورية اسنا وتكون منها مديرية واحدة تارة باسم مديرية نصف ثلثى قبلى وأخرى باسم مديرية عوم قنا واسنا . وفى سنة ١٨٥١ م سميت المديرية باسم قنا وقاعدتها قنا وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت محافظة .

وقال ابن جبير<sup>(٢)</sup> عن قنا ، انها من مدن الصعيد المشهورة وكانت بيضاء أنيقة ذات مبان مشيدة وكانت معظم مبانى المدينة طوال العصور الوسطى بالآجر واللبن وأكثرها مكون من طابقين . ولما أصبحت المدينة عاصمة للمديرية فى القرن (١٩ م) بنيت بها القصور لذوى الجاه والثروة والاشراف<sup>(٣)</sup> ، وكثرت أسواقها وازدهمت الحوانيت بأنواع البضائع الثمينة . وكان بها كثير من أرباب الحرف ولكل طائفة شيخ ، وكان بها نحو اثنتى عشرة وكالة لاستقبال التجار الأجانب والوافدين عليها . وبمدينة قنا قطعة أرض تقرب مساحتها من الفدان تؤخذ منها طينة طفلية تصنع منها الاواني الفخارية التى تشتر بها المدينة ، وعلى الرغم من استمرار الاخذ من هذا الفدان فإن مساحتها لا تنقص وذلك لأن مياه الفيضان ترسب فيه كل سنة كمية من الطين تعادل تقريباً ما يؤخذ منه ، كما أنه قريب من مصرف قنا فعندما تزل السيول من جبال البحر الأحمر تحمل معها طينة طفلية ترسبها فى ذلك الفدان قبل أن تتجمع فى المصرف القريب منها .

(١) معجم البلدان ج ٧ ص ١٦٣ التجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٩٢

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٤

(٣) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ١٢١

وكان يوجد بمدينة قنا طريق يوصل إلى القصير يمر أولاً بين الجبل والساحل متجهاً إلى الجنوب حتى يصل إلى بئر عتير شرق نبط ثم يستقيم إلى جهة الشرق حتى يصل إلى القصير . وبالمدينة عدد كبير من الأضرحة والمقامات المشهورة ، إلا أن المباني القائمة عليها ليست قديمة ، وذلك لكثرة ما نالت عليها من أذى الإصلاح والتعمير . ومن أجل من ينسبون إلى قنا السيد عبد الرحيم الفناي<sup>(١)</sup> من مواليد نزعا من أعمال سبته بالأندلس ، وهو شيخ مشايخ المسلمين وامام المارفين رحل من المغرب وأنام بمكة سبع سنين ثم قدم قنا أنام بها وتزوج وله أولاد توفى سنة ٥٩٢ هـ .

قوص : مدينة هامة في محافظة قنا وقد كان لها في العصور الوسطى شأن عظيم ليس في المحافظة فحسب بل في الصعيد<sup>(٢)</sup> فقد كانت قوص قاعدة الانام منذ العصر الفاطمي حتى القرن التاسع عشر . ويقول عنها ابن حبير<sup>(٣)</sup> ، انها مدينة حافلة بالأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة لأنها محط للرحال ويجتمع الرحال وملقى الحجاج المغاربة والقاهريين والاسكندرانيين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عذاب وإليها انقلاهم . وقال ابن الكندي ، كان يوجد بقوص سائر أصناف الثمر والحبب الكارمي الذي لا رماد له والقمح الخاق والكروم ، ومعادن الذهب والجوهر والنفط الذي ظهر سنة ٨٣٤ هـ . وجاء في مسالك الأبرار<sup>(٤)</sup> ، أنه كان بقوص كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة والمحمامات ومزارع الخضروات والبساتين كما كان بها مائة وخمسون مغلقاً<sup>(٥)</sup> ولكل مغلق ساقية ذات أربعة وجوه . وكان بقوص دار للضرب ، ويقول الادفوى أنه عثر في سنة ٦٧٢ هـ في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس على فلوس مدفونة ويرجع تاريخها (وقت قرائتها) إلى ألف وثلاثمائة سنة .

ويقول أبو صالح<sup>(٦)</sup> الأرميني ، أن كلمة قوص كلمة قبطية معناها الدفن ، وسميت كذلك

(١) الطالع السيد ص ١٩

(٢) المقرئى ج ١ ص ٣٨١ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٩٢ (حاشية) ، ج ٦ ص ٢٨٣

(٣) ابن حبير ص ٣٥

(٤) لابن فضل المعزى ج ٣ ص ٨١

(٥) المغلق هو الحديقة التي لا تقل مساحتها عن عشرين فداناً .

(٦) أبو صالح الأرميني ص ٨٧

لتخصص أناس من أهلها في دفن الملوك ( الفراعنة ) كما كان بها قوم لهم معرفة تامة بصيد الثعابين والحيات والمقارب بواسطة عزائم وأقسام سحرية يقرأونها عليها . ويقال <sup>(١)</sup> أن طائفة الحواة في القطر المصري من قوص ويؤيد ذلك ما رواه المقرئ <sup>(٢)</sup> عن الأمير نكتبای حاكم قوص في عهد السلطان محمد بن قلاوین وقصة المرأة الساحرة معه

وكان بقوص ستة مدارس <sup>(٣)</sup> ودار للحديث وكثير من المدارس الجامعة والزوايا ولا تزال تحفظ المدينة بجامع يعرف بالجامع العتيق يرجع تاريخ إنشائه إلى العصر <sup>(٤)</sup> الفاطمي وبالجامع منبر خشبي يرجع إلى ذلك العصر ، وهو تحفة فنية رائعة في فن زخرفة الأخشاب بالحشوات الجمجمة ، ومن الشخصيات الهامة التي تنسب لقوص <sup>(٥)</sup> ، العلامة أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن المنصور بن عاصم الأزدي المكي القوصي النشأة المصرية الدار الكاتب الشاعر المعروف بالهاء زهير صاحب الديوان المشهور . وهناك طائفة كبيرة من العلماء ورجال الدين ممن ينسبون لقوص ولا يتسع المجال لذكرهم . ولم يقتصر طلب العلم والفضل في قوص على الرجال فحب بل تعداه إلى النساء كذلك ، فقد انجبت قوص سيدات فضليات خلفن وراءهم ذكريات عاطرة تشهد بما كانت عليه المرأة المصرية في العصور الوسطى من مكانة مرموقة بين العلماء وأهل الرأي ومن أشهرهن تاج النساء ابنة عيسى بن علي بن وهب القوصية ، كانت فقيهة في علوم الدين والقراءة وتوفيت سنة ٦٧٩ هـ . وكذلك السيدة خديجة بنت وهب الشقيرة توفيت بالقاهرة سنة ٦٩٩ هـ . والسيدة رقية بنت محمد بن علي بن وهب ولدت وتربت في قوص واستوطنت القاهرة وتوفيت بها سنة ٧٤١ هـ .

اسمنا : مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى اسمها القبطي ( اسنى ) وكانت في العصر الفاطمي قاعدة كوره اسنا <sup>(٦)</sup> ، وفي العصر المملوكي كانت من أعمال القوصية ، وفي العصر العثماني أصبحت من أعمال ولاية جرجا . وفي سنة ١٨٣٣ م أصبحت اسنا قاعدة مأمورية

( ١ ) الخط التوفيقي ج ١٤ ص ١٢٨

( ٢ ) المقرئ ج ١ ص ٣٨٢

( ٣ ) الطالع السعيد ص ١١

( ٤ ) Creswell. III p. 236

( ٥ ) الطالع السعيد ص ١٢

( ٦ ) النجوم ج ٦ ص ٣٦٠

قائمة بذاتها وكانت هذه المأمورية تضم أحيانا إلى قنا ويتكون منها مديرية واحدة وفي سنة ١٨٦٨ فصلت اسنا عن قنا وأصبحت مديرية اسنا . وكانت تتكون من أربعة أقسام وهي اسنا وادفو والكنوز وحلفا ، ولما ظهرت أخطار الثورة المهدية في السودان ألغيت مديرية اسنا وأضيفت إلى مديرية قنا ، وكان ذلك سنة ١٨٨٨ م .

كانت اسنا ولا تزال مدينة عظيمة بلغ عدد منازلها في القرن ( ١٤ م ) ثلاثة عشر ألف منزل كلها مبنية بالآجر وكان بها سبعون <sup>(١)</sup> حارة كبيرة . وكان بها ثلاثمائة وسبعون فدانا مفروسة نخيلا وكرما وقصبا . قال الادفوى <sup>(٢)</sup> انه كان يحصل سنويا من اسنا أربعون ألف أردب تمرا واثنا عشر ألف أردب زيبا . وكان بها كثير من المتاجر والحوانيت والحانات . ترد إليها البضائع من القاهرة والأقاليم القبلية وأهمها الاقمشة كالبرد والأردية المسماة الشقق الخاصة بالرجال والنساء ، وكان بها كثير من الحرف كصناعة المنسوجات الصوفية السبكة المعروفة ( بالكليم ) وصناعة المقاطف ونحوها مما يصنع من سعف النخيل . كذلك كان يرد إلى اسنا القوافل الآتية من سنار تحمل إليها الحاصلات السودانية كما كانت تشتهر بأبراج الحمام <sup>(٣)</sup> . ومن الأحداث الهامة التي وقعت باسنا وذكرها ابن نغرى بردى <sup>(٤)</sup> ، خروج ابن الصوفي العلوى بالصعيد ودخوله اسنا سنة ٢٥٥ هـ فنهبا وقتل أهلها فبعث إليه أحمد بن طولون بجيش التي به في ناحية ( هو ) فانهزم جيش ابن طولون فأرسل إليه جيشا آخر فالتقى بالهزيمة وانهمز ابن الصوفي وفر إلى أسوان ثم إلى مكة . ويقع باسنا عدد غير قليل من الأقباط وبها دير وكنيسة منعزلان عنها من الجهة القبلية وتعرف باسم كنيسة مقتلة النصارى نسبة لاستشهاد كثير منهم بها في العصر الروماني <sup>(٥)</sup> ، كما ان ديرها من أشهر الأديرة وبالمدينة كثير من المساجد الجامعة ، أقدمها الجامع العمري الكبير <sup>(٦)</sup> وبه لوحة تأسيسية من الرخام ومحفور عليها كتابة كوفية باسم بدر الجمالي سنة ٤٤٧ هـ في عهد الخليفة المستنصر . ومن المساجد الهامة هناك جامع الضوى نسبة

(١) معجم البلدان ج ٩ ص ٢٦٦

(٢) الطالع السعيد ص ١٧

(٣) الخطط التوقفية ج ٨ ص ٦٠

(٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦

(٥) أبو صالح الأرميني ص ٨٧

(٦) Creswell. III p. 146

إلى الشيخ الضوى المدفون بداخله ، وله قبة . وكان بأسنا كثير من البيوتات المعروفة بالاصالة والرياسة والفضل حتى قيل أنه كان بها في وقت واحد سبعون شاعرا وخرج منها جمع كبير من أهل العلم والأدب . ومن بيوتها العريقة بنو السديد ، وبنو الحطيب وبنو أشراق وبنو النصر . فقد تولى معظم أعضائها مراكز رئيسية وهم الذين بنوا جامع الخطبة في سنة ٤٢٠ هـ ثم أضافوا إليه زيادة سنة ٤٩٥ هـ وإن كانت يد الإصلاح والتعمير قد توالى عليه فلم تترك أثرا للبقى القديم . وكان المذهب الشيعى منتشرا بأسنا حتى العصر المملوكى وقد استطاع الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطى عندما وفد إليها أن يخفف من حدة التشيع .

\*\*\*

## محافظة سوهاج

سوهاج مدينة مصرية قديمة في الصعيد الأوسط ، كانت تابعة لـلكورة القوصية في العصر الفاطمى ثم أعمال القوصية في العصر المملوكى ، وبعد أن ألغيت ولاية القوصية سنة ١٥١٧ م أصبحت تابعة لولاية جرجا . وفي القرن العشرين أصبحت سوهاج قاعدة مديرية جرجا وفي سنة ١٩٦٠ أصبحت عاصمة محافظة سوهاج . وتشتهر سوهاج بصيد السمك ، الذى يعمل منه نوع من الطعام يعرف باسم الملوحة ، ويقبل أهل الصعيد وخاصة الأقباط منهم على تناوله ، ويقول الفيروزبازى عن الملوحة أنها تصلح المعدة ، أما القزوينى فيقول ان التمنضض بها نافع في إزالة الثن من الفم . وفي جزيرة النيل شرقى مدينة سوهاج توجد نزلة صغيرة يسكنها جماعة من عرب بنى واصل يقال لهم أولاد محروس ، وقد عبر أولاد محروس النزلة وبنوا فيها المساجد والبيوت وغرسوا النخيل والأشجار ، وزرعوا قصب السكر وأنواع الخضر التى كانوا يبيعونها لسوهاج واخميم . كما كانوا يزدعون فيها أنواعا من الحشخاش الذى يستخرج منه الأفيون ، وكان مشهورا في القاهرة باسم الأفيون الاخيمى . وبمدينة سوهاج مساجد جامعة وزوايا عامرة ومن أشهرها مسجد الشيخ العارف<sup>(٢)</sup> بالله ، ويضم المسجد كتابا لتعليم الاطفال الصغار كما يضم مكتبة ، ومن حسانات الشيخ العارف أنه رتب للأطفال جريبات ، في الصباح وثرديدا في المساء واستمرت خدته من بعده تودى هذه الجريبات للأطفال ، ويقول الجبرتى<sup>(٣)</sup> أنه يوجد بجوار مسجد

(١) النجوم الزاهر ج ٦ ص ٤٠ حاشية

(٢) المخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٦٧

(٣) الجبرتى ج ٢ ص ١١٢

العارف ، مدافن للأمرء والصناجق من ولوا حكم سوهاج وإن مراد بك ، الذى حرض المالك ضد محمد على عند توليه الحكم ، ثم فر إلى سوهاج مدفون عند الشيخ العارف . وكان يوجد فى غرب سوهاج ديران<sup>(١)</sup> هما الدير الأحمر والدير الأبيض (أو دير الأب شوده) وقد تهدمت معظم مباني الديرين ولم يبق صالما غير كنيسة الدير الأبيض .

ويذكر السنخوى<sup>(٢)</sup> أن من شيوخ سوهاج الأفاضل الشيخ محمد بن محمد بن أبى بكر الشمس الانصارى السوهاجى (نسبة إلى سوهاج) ولد بسوهاج سنة ٨٠٥ هـ وهو خطيب مدرس الجاى ، والحانيكية كما تولى عدة وظائف بها ثم استقر به المطاف بمشيخة مدرسة الايتشية بباب الوزير .

اخميم : بلدة مصرية قديمة من مدن الصعيد الأوسط على الشاطئ الشرق للنبيل ، وكانت فى العصر الفاطمى قاعدة كورة الاخميمية ، واستمرت كذلك حتى نهاية العصر المملوكى وفى العصر العثمانى ألغيت الاخميمية وأضيفت بلادها إلى ولاية جرجا ، وأصبحت اخميم إحدى المدن التابعة لمركز سوهاج وفى سنة ١٩٠٣ فصلت البلاد الواقعة شرق النيل من مركز سوهاج وجعلت مركزا باسم اخميم وهى قاعدة المركز منذ ذلك التاريخ وتتبع الآن محافظة سوهاج<sup>(٣)</sup> .

قال أبو الفداء ، مدينة اخميم من المدن الكبيرة بيوتها مبنية من الطوب اللبن ومساجدها وزواياها من الحجر وحاراتها متسعة ونظيفة . كما كانت من أشهر مدن الصعيد فى صناعة المنسوجات فى المصرين القبطى والاسلامى وكانت منتجاتها تصدر إلى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وكانت بها مصانع حكومية لصناعة النسيج تعرف (بالطراز) وكان من الثوب من الطرز الصوف الرقيق ، أو الملم أو المطرف من الكتان يبلغ عشرين دينارا<sup>(٤)</sup> . كذلك اشتهرت اخميم بالانطاع ، كما اشتهرت بجرها وغلالها ، إذ كانت من أكبر المدن المنتجة للغلال فى الصعيد ، وكانت بها معاصر لزيت السليج<sup>(٥)</sup> .

(١) أبو صالح ص ٩١

(٢) الفتوة اللائع ج ٩ ص ٧١

(٣) للتجوم الزاهرة ج ٩ ص ٤٠ (حاشية) .

(٤) القرزى ج ١ ص ٣٨٧

(٥) معجم البلدان ج ١ ص ١٥٣



وكان باخيم عدد غير قليل من الأقباط ولهم بها كنيسة عظيمة<sup>(١)</sup> إحداهما تعرف باسم كنيسة سوتير (أى المخلص من العذاب) والثانية كنيسة القديس ميخائيل وكان من عافتهم فى الاحتفال بعيد الشعانين أن يخرجوا من الكنيستين مع القساوسة والقمامسة فى هيئة مخمل حاملين المبخار والطر والصلبان والأنجيل والشموع ويقفون أمام بيت قاضى القضاة برهة من الزمن يتلون فيها بعض صفحات من الإنجيل وينشدون بعض المقطوعات فى مدحه ، ثم يتابعون بعد ذلك الوقوف أمام بيوت أعيان البلد ووجهاها من المسلمين . ويوجد باخيم كثير من الأديرة منها دير السبع جبال ، وكان خارج ذلك الدير عين ماء تظلمها شجرة الصفصاف وتعرف المنطقة باسم وادى الملوك ، وذلك لأنه ينمو بها نبات يشبه نبات السلمج ، له عصارة حمراء داكنة تستعمل فى الصباغة وقد عرف النبات باسم (ملوك) لأن عصاراته كانت تستعمل فى صباغة الحرير القرمزى الذى اقتصر لبسه على الملوك والأباطرة فى العصر الرومانى . وفى الجبال ، إلى الشرق من اخيم مغارات كثيرة بعضها مقابر والعض الآخر كان يسكنه الرهبان هربا من ظلم أباطرة الرومان ، ويقول القريزى<sup>(٢)</sup> ان بطرك قسطنطين واسمه نسطورس قفى إلى اخيم لخلاف فى العقيدة بينه وبين بطرك الاسكندرية وروما ودمشق ، وأقام بها سبع سنوات ثم مات ودفن بها وقد دان بمذهب نسطورس ، نصارى إيران والعراق والموصل والجزيرة والفرات ، وعرفوا بالنساطرة .

وجاء فى كتاب البيان والاعراب<sup>(٣)</sup> أنه كان باخيم جماعة من بنى قرة فضيلة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة الذى ينتهى نسبهم إلى معد بن نزار بن معد بن عدنان جد النبى عليه السلام ، كما كان بها قبيب اشراف يقال أنه من ذرية الشيخ كمال الدين ابن عبد الظاهر صاحب المقام الشهير بهذه البلدة . ومن أشهر أعلام مدينة اخيم أبو الفيض ذوالنون بن ابراهيم المصرى ، يقول عنه ابن خلكان ان أباه كان نوبيا من أهل اخيم وأنه كان أعظم علماء عصره أدبا وعلماء توفى سنة ٢٤٨ هـ ودفن بالقرافة الكبرى .

جرجا : مدينة مصرية قديمة على الضفة الغربية لليل ، كانت تتبع كورة القوصية فى العصر الفاطمى ولما ألغيت أعمال القوصية فى العصر العثمانى أنشئ بها ولاية جديدة باسم جرجا ، وفى سنة ١٨٩٠ أصبح اسمها مديرية جرجا ، وقامت بها جرجا وفى القرن العشرين

(١) أبو صالح الأرمينى ج ٩٢ ، القريزى ج ٤ ص ٤١٧

(٢) القريزى ج ٤ ص ٤٠٧

(٣) القريزى ص ٧٣

أصبحت سوهاج قاعدة مديرية جرجا وفي سنة ١٩٦٠ أصبحت جرجا مركزاً في محافظة سوهاج .

كانت مدينة جرجا في العصرين الفاطمي والمملوكي من أكبر مدن الصعيد الأوسط وأشهرها (١) وكانت رفعتها متمعة وأسواقها غاصة بالبضائع المحلية وخاصة صناعة الجلود وصناعة الأثاث من الأخشاب ، وبالبضائع المستوردة من السودان . وكانت منازلها تتكون من طابقين وأحياناً من ثلاثة وهي مبنية من الآجر كما استعمل الزجاج للنوافذ والفتحات وبها عشرون مسجداً وقد عرف أحدها باسم الجامع الصيني وذلك لتعشيش جدرانها الداخلية بطلاط القاشاني الملون (٢) كما كان يوجد بها مساجد معلقة .

كانت ولاية جرجا طوال العصور الوسطى مقراً لإقامة الولاة والحكام والصناجق كما أنها كانت ملجأ وملاداً للعاصين من الأمراء الخارجين على سلطة الملك أو السلطان ، وكان حاكمها يقع تحت نفوذه هواره ، وكذا أهل الواحات الجنوبية والوادي الكبير الذي يؤدي إلى طريق القوافل السودانية ويقول المقرئ (٣) أن الظاهر برقوق في سنة ٧٨٥ هـ أنزل عرب هواره بيلاد الصعيد بعد أن نزحوا من طرابلس الغرب وأصلهم ناحية جرجا فأقاموا بها وعبروها واستقروا بها وجاء في الجبرقي (٤) أن عرب هواره كانت لهم مواقف مشرفة في محاربة الحملة الفرنسية حين زحفت على الصعيد .

\*\*\*

### محافظة أسيوط

أسيوط بلدة مصرية قديمة على الشاطئ الغربي للنيل كانت طوال العصر الإسلامي حتى نهاية العصر المملوكي قاعدة لأعمال الأسيوطية وفي العهد العثماني الفيت الأسيوطية وأضيفت إلى ولايتي المنفوطية وجرجا ، وفي سنة ١٨٢٦ أعيد إنشاء مأمورية أسيوط وفي سنة ١٨٣٣ سميت مديرية وفي سنة ١٩٦٠ أصبحت محافظة قاعدتها أسيوط .

عرفت أسيوط منذ أقدم العصور بخصوبة أرضها وكثرة خيراتها فقد ذكر الكندي (٥) ، أن أحد عمال الخليفة هارون الرشيد وصف له بلاد الدنيا فما استحسن غير أسيوط ،

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١٣

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٥٣

(٣) البيان والأعراب ص ٣٧

(٤) الجبرقي ج ١ ص ٥١

(٥) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١٣ (الحاشية)

وقال<sup>(١)</sup> ياقوت ان كورة أسيوط كانت إحدى متزهات أبي الجيوش خماروية . ويقول المقرئى<sup>(٢)</sup> إن أبا بكر الماردانى وزير هارون بن خماروية جلس على الحرمين ضياعا تبلغ غلتها السنوية ما يقرب من مائة ألف دينار ، منها أسيوط وأعمالها . ويقول ياقوت ، ان خراج أسيوط ٣٦ ألف دينار أو زيادة ، ويضيف ، حدثني بعض النصارى من أهلها ان فيها خمسا وسبعين كنيسة وهم بها كثير . وكانت أسيوط في العصر المملوكي غاصة بالبضائع المحلية مثل الابزاز ( التوابل ) وقصب السكر والكثان والتيلة والأفون ، والحبوب والبقول ، وكذا البضائع المستوردة ، ولعل السبب في ازدهار مدينة أسيوط بالتجارة هو وقوعها عند نهاية حرب الأربعين الذي يمتد من دارفور جنوبا واليا شمالا .

ويقول المقرئى<sup>(٣)</sup> ان في أسيوط طائفة من أولاد اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن علي ابن أبي طالب يعرفون باسم الشريف قاسم . وكانت أسيوط منبع العلماء ونوى الفضل ومن أجل علمائها أبو بكر كمال الدين السيوطى تولى منصب القضاء بها وتوفى سنة ٨٥٥ هـ وترك ابنه جلال الدين السيوطى وهو لم يولد بأسيوط . وإنما تنسب اليه من جهة أبيه ، ويظن الكثيرون ان جلال الدين دفن بأسيوط ولكنه توفى بالقاهرة ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة سنة ٩١١ هـ . ومن النصارى نبغ أسعد بن مهذب ابن زكريا بن قدامة بن نينا شرف الدين بماتى اتصل جده بأمير الجيوش بدر الجمالى وتولى استيفاء الديوان ، ولما مات تولى ابنه زكريا ديوان الجيش في آخر دولة الفاطميين ثم خلفه ابنه أسعد بن مهذب على ديوان الجيش في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وابنه الملك العزيز عثمان ثم ولى النظارة وتوفى سنة ٦٠٦ هـ . ومن أبناء أسيوط البررة عمر مكرم ولد بها سنة ١٧٥٥ م وتعلم بالأزهر وقضى حياته الأخيرة في خدمة القضاء الوطنية واستمر يناضل حتى توفى سنة ١٨٢٢ م وكانما كانت الأقدار لمحفظ لأسيوط دائما حظا من الجحد والذكر الحسن ، فلم تكسب الأحداث تنوالى على مصر نتيجة خيانة الحاكم واغتصاب المستعمر الدخيل لحقوق الشعب وأتوانه حتى أشار التاريخ بأصبعه إلى ولید من بنى مر إحدى قوى أسيوط ، إلا وهو جمال عبد الناصر الذى ولد في ١٥ يناير سنة ١٩١٨ م وتولى قيادة ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ المباركة ، كما تولى رئاسة الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨ .

( ١ ) ياقوت ج ١ ص ٢٥١

( ٢ ) المقرئى ج ٢ ص ١١٧

( ٣ ) البيان والاعراب ص ٣٤

وإذا كان العالم العربي يفخر بالرئيس جمال عبد الناصر ويشيد بفضل الكثيرون من أقطاب السلام وأنصار التحرر في العالم فإن لأسبوط أن تتيه به تقديرا وإكبارا .

وبأسبوط كثير من الآثار التي ترجع إلى العصر الاسلامي ، أهمها الجامع المعروف باسم سيد محمد البقلي وهو مهجور اليوم . ويتبين من الأجزاء الباقية من أعمدته الجرانيتية وأرضية الفسقية الرخامية أنه من الكنائس التي تحولت إلى جوامع في أوائل العصر الاسلامي ، على أنه من المؤكد أنه عمر في العصر المملوكي ، إذ وجد بجواره أحواض المياه التي كانت تشرب منها معسكرات المماليك (١) ، ومن العمارات المدنية قنطرة تعرف اليوم باسم قنطرة المحلوب كانت توصل المياه إلى بركة الجنوب ويرجع تاريخ هذه القنطرة على أقل تقدير إلى العصر العثماني إذ وجدت صورتها في خرائط الحملة الفرنسية . ومن المساجد التي ترجع إلى القرن ١٩ م مسجد سليم الكاشف الذي يقول عنه الجبرتي (٢) ، أنه من المباني العظيمة المزخرفة على هيئة مساجد مصر ، ومسجد السنجق الذي يقع في سوق الحمام ، ويمتاز هذا المسجد بأنه مبني بالطوب الأسود اللون الذي لا مثيل له بأسبوط ومن حيث التخطيط فهو يشبه مسجد محمد علي بالقاهرة .

أبو تيسج : مدينة مصرية قديمة إسمها باشتنا أي الخزن أو الشونة وترجمها الرومان إلى بوتيكي ومنها إسمها العربي أبو تيسج (٣) . وفي سنة ١٨٢٣ م أنشئ قسم أبو تيسج وجعلت أبو تيسج قاعدة له ، وما زالت أبو تيسج قاعدة لمركز أبو تيسج أحد مراكز محافظة أسبوط . ذكرها باقوت (٤) فقال : أبو تيسج بلدة بالصعيد ، عامرة زهرة ذات نخيل كثير وشجر وثير . وقال ابن دقماق أبو تيسج من المدن المليحة بها جامع كبير قديم ( اندثر الآن ) وبها مدارس وحمام مليحة وتيسارية وفنادق ولها سوق أسبوعي كبير ويقوم بها قاض ، ويقول المقرئ (٥) ، أنه كان بالبلدية كنائس كثيرة تهدمت الآن ( أي في القرن ١٥ م ) إلا القليل . وكان بها دير يعرف باسم الحواريين في مكان قفر وقد اختط الشيخ أبو بكر الشاذلي بجواره بلدة

( ١ ) الخلط التوفيقية ج ١٢ ص ١٠٨

( ٢ ) الجبرتي ج ١ ص ٩٢

( ٣ ) القاموس الجغرافي ج ٢ ص ١٥٧

( ٤ ) معجم البلدان ج ٩ ص ١٠٩

( ٥ ) المقرئ ج ٣ ص ٤٠٩

أسماء منشأة الشيخ . وينسب إلى هذه المدينة الشيخ عبد الرحمن بن البويجي الذي يقول عنه السخاوي (١) أنه حضر دروسه بالمدرسة الفاضلية وتوفي سنة ٨٦٤ هـ .

منفلوط : مدينة مصرية قديمة كانت تسمى منبالوط وهي كلمة قبطية معناها الحجر الوحشية ، وفي الراك الناصري سنة ١٣١٥ م أنشئ إقليم جديد فصارت قراه من أعمال الأسونين ومن السيوطية وعرف بالأعمال المنفلوطية . وفي سنة ١٨٣١ م ضمت مأمورية منفلوط إلى أسبوط وأصبحت من وثها قها من أسبوط (٢) . ويقول ابن جبير (٣) أن منفلوط ذات أسواق فيها سائر ما يحتاج إليه ، وفي نهاية من الطيب وليس في صعيد مصر مثلها ، ويقول المقرئ (٤) أن عرب الجهات القبلية زاد تعددهم وإفادهم وفي سنة ٧٠١ هـ فرضوا ضريبة على البياعين وأرباب الحرف والصنائع بمدينة منفلوط وأسبوط واحتقروا الحكام وعطلوهم عن جمع الأموال وجعلوا منهم رئيسين سمو أحدهم بيرس والآخر سلار وجعلوا من تحت الرئيسين أمراء لبسوا السلاح على هيئة العساكر وأطلقوا المسجونين فاجتمع أولو الأمر وسيروا إليهم عدة جيوش ففقت عليهم قضاء مبرما ولم تقم لهم قائمة منذ ذلك التاريخ .

ومن علماء منفلوط المشهورين (٥) محمد بن أبي بكر بن محمد بن حريز ولد بها سنة ٨٠٤ هـ ثم انتقل إلى القاهرة لطلب العلم ، ثم عاد إلى منفلوط وولى القضاء بها ، ثم تولى القضاء بالديار المصرية .

\*\*\*

## محافظة المنيا

المنيا مدينة مصرية قديمة قال اميلينو وجوتيه أن اسمها Moone ومعناها الموضع وخالفهما في ذلك ماسيرو إذ قال أن كلمة المنيا اسم عربي وجاء في خطط المقرئ (٦) منية الحصب نسبة إلى الحصب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل الرشيد ،

( ١ ) الضوء اللامع .

( ٢ ) القاموس الجغرافي .

( ٣ ) ابن جبير ص

( ٤ ) السلوك ص ٩٥

( ٥ ) الضوء اللامع ج ٧ ص ١١٣

( ٦ ) المقرئ ج ١ ص ٣٣١

وجاء في قوانين<sup>(١)</sup> الدواوين منية بنى خصيب من أعمال الاشمونين ، وجاءت<sup>(٢)</sup> في نزهة المشتاق أنها قرية عامرة حولها ، جنات وأرض متصلة المزارع وقصب وأعشاب كثيرة ومتنزهات ومبان حسان ، وقال ياقوت منية<sup>(٣)</sup> أبى الخصيب مدينة كبيرة على شاطئ غربي النيل في الصعيد الأدنى بمصر ، وهي مدينة ذات مرأى جميلة وبها مدارس وحمامات وأسواق ، وأضاف ، ويقال ان الخصيب عمرها أيام ولايته وأنشأها لابنه وسماها باسمه فعرفت به . وفي سنة ١٨٢٢ م قسمت ولاية الاشمونين إلى تسعين سمي القسم البحري منه المنيا ومقره مدينة المنيا ، وفي سنة ١٨٩٠ صارت قاعدة لمديرية المنيا وفي سنة ١٩٦٠ أصبحت عاصمة محافظة المنيا . وذكر ابن بطوطة<sup>(٤)</sup> في رحلته قصة طريفة عن مدينة المنيا رأيت أن أذكرها على ما فيها من أحداث تشبه الأساطير : يقال ان بعض خلفاء بنى العباس تغير على أهل مصر فأراد أن يوليها أحقر عبيده إذلالا لهم وتنكيلا بهم ليسير فيهم سيرة سوء ، وكان أحقر عبيده الخصيب ، إذ كان يتولى تسخين الحمام تغلغ عليه وولاه مصر فلما استقر خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة واشتهر بالكرم فكان أكابر أهل البلاد وأقارب الخلفاء يقصدونه فيجزل لهم المطايا . واقتصد الخليفة يوما بعض أقاليمه وغاب عنه ثم حضر بعد مدة فسأله عن مضيئه فذكر أنه قصد خصيا بمصر وذكر له ما أعطاه وكان قدرا عظيما وأثنى عليه ، فضرب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب واخراجه من مصر إلى بغداد وأن يطرح في أسواقها فلما أتاه الأمر بالقبض عليه حبل بينه وبين دخول منزله وكان معه ياقوتة عظيمة ثقبها عنده وخاطها في قميصه ليلا . وسملت عيناه وطرح في سوق بغداد ، فمر عليه بعض الشعراء وهو مطروح فقال له يا خصيب انى كنت قد قصدتك من بغداد إلى مصر ممتدحا فوافقت انصرفك عنها وأحييت أن تسبح القصيدة فقال كيف لى بباعها وأنا على ما تراه قال انما قصدى سماءك لها أما المطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت لهم جزاك الله خيرا ، وأنشد :

أنت الخصيب وهذه مصر . . فدفننا فكلنا كما بحر

فلما أتى على آخرها قال له افتق هذه الحياطة فصل فقال خذ هذه الياقوتة فأبى ، فأقسم عليه فأخذها وذهب إلى سوق الجوهرين ليبيعها فلما عرضها عليهم قالوا له هذه لا تصلح

(١) قوانين الدواوين ص ١٢٢

(٢) ابن ديمق ص ٩٧

(٣) معجم البلدان ج ٨ ص ١٨٨

(٤) رحلة ابن بطوطة ص ١٩٨

إلا للخليفة فرغوا أمرها اليه فأمر باحضار الشاعر واستفهم عن أمر الباقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر باحضاره بين يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب أن يعطيه هذه النية ففعل فسكنها خصيب إلى أن توفى وأورثها عقبه .

وقال المقرئى<sup>(١)</sup> انه كان بها ، ست كنائس منها كنيسة معلقة وهى كنيسة السيدة ، كما كان بها كثير من الاديرة أهمها دير الراهب ومشهور بدير سواده ، وسواده عرب نزولوا هناك ( بالمتيا ) غفروا ذلك الدير . وبالمتيا كثير من الاضرحة ذات القباب أهمها ضريح الشيخ الفولى .

الفشن : مدينة مصرية قديمة اسمها القبطى فنشى<sup>(٢)</sup> بتقديم النون على الشين ويؤيد ذلك انها وردت فى كتاب المباهج باسم الفشن من الأعمال البهنساوية ثم حرفت إلى الفشن ، وهو اسمها الحالى . وجاء فى معجم البلدان<sup>(٣)</sup> ان الفشن قرية من أعمال النهى . وفى قوانين ابن عمى<sup>(٤)</sup> الفشن من أعمال البهنساوية . وفى العصر العثمانى أصبحت الفشن قاعدة ولاية البهنسا وذلك لأن مدينة البهنسا تقع على بحر يوسف وبعيدة عن النيل ، أما الفشن فتقع على النيل وتتوسط بلاد ولاية البهنسا وفى سنة ١٨٢١ نقلت :اصمة الولاية من بلدة الفشن إلى المتيا وصارت الفشن قاعدة لقسم الفشن ، وفى سنة ١٨٤٤ جعلت الفشن قاعدة لمديرية الواسطى وفى سنة ١٨٥١ قسمت المديرية إلى قسمين وعادت الفشن قاعدة لقسم الفشن وفى سنة ١٨٩٠ سمي مركز الفشن . وبمدينة الفشن كثير من المساجد ذات المآذن الرشيفة<sup>(٥)</sup> أشهرها جامع الشيخ شردن وبه ضريحه . وكانت أسواقها عامرة بالسلع فى العصور الوسطى<sup>(٦)</sup> .

البهنسا : كانت البهنسا قاعدة لكورة البهنسا ثم قاعدة للأعمال البهنساوية فى العصر المملوكي ، ثم لولاية البهنسا فى العصر العثمانى ، ولما اضمحلت البهنسا لوقوعها على بحر يوسف

( ١ ) المقرئى ج ٤ ص ٤١٧

( ٢ ) الخلط التوفيقية ج ١٤ ص ٧٥

( ٣ ) ياقوت ج ٦ ص ٣٨٥

( ٤ ) ابن عمى ص ٢٩٧

( ٥ ) الخلط التوفيقية ج ١٤ ص ٧٦

( ٦ ) وتقع مدينة الفشن الآن محافظة بنى سويف.

وبعدما عن النيل نقلت القاعدة إلى الفشن مع بقاء الولاية باسم البهنسا ، وفي سنة ١٨٣٠ اختفى اسم البهنساوية من الأقسام الادارية . وأصبحت البهنسا قرية من قرى مركز بني مزار . ذكرها الادريسي ، البهنساوية عامرة بالناس جامعة لأهم شتى ، وهي واقعة على الضفة الغربية من خليج النهى (بحر يوسف) وينسج بها للخفاصة الستور المعروفة بالبهنسية ، والمقاطع السلطانية والمضارب الكبار والياب المتخيرة . ويضيف المقدمي ويصنع بها الستور والأنماط من مزارع بوهير . ويقول المقرئى<sup>(١)</sup> ان الستر الواحد منه كان يبلغ طوله ثلاثين ذراعا وقيمة الزوج منه مائتا مثقال ذهب ، ويضيف أنه كان باقلم البهنسا مائة وعشرون قرية غير الكفور ، ويجمع قط مصر على ان السيد المسيح والسيدة العفراء كانا بالبهنسا ثم تركاها ورجعا إلى القدس . وقال بعض المفسرين عن الرواية في قوله تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » إنها البهنسا ، وقيل أنها دمشق أو بيت المقدس . وكانت البهنسا حين فتحها العرب ، كما يقول بن عبد الحكم عالية الجبلان حصينة الاسوار والبنان ، متبعة الأبراج والأركان وكان لها أربعة أبواب ، ولكل باب ثلاثة أبراج وبين كل برجين شرافات وكان بها أربعون رباطا وكنائس وقصور ، فلما أخذت بالفتح تغيرت معالمها وأندثر كثير من آثارها . وقد أقيمت بها كثير لمن المساجد والعمائر الاسلامية وقد بقيت هذه الآثار حتى مجيء الحملة الفرنسية<sup>(٢)</sup> . وكانت مدينة البهنسا تشتهر بزراعة أشجار السنط التي كان يؤخذ أغصانها لبناء سفن الأسطول المهرى ، وقد ورد في قوانين ابن مماتي<sup>(٣)</sup> أن خراج البهنسا كان يدفع سنطا .

وقد ظهر بالبهنسا كثير من جبابذة العلماء منهم الامام القرافي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ادريس الصنهاجى البهنسى الذى اتت إليه رياسة المالكية في عصره توفي سنة ٦٨٤ هـ . وجاء في تاريخ الجبرقى<sup>(٤)</sup> أن الامام الشيخ عبد الحى بن الحسن بن زين العابدين الحسينى

(١) المقرئى ج ١ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣

(٢) المخطط الترفيقية ج ١٠ ص ٢

(٣) ابن ماتي ص ٣٧

(٤) الجبرقى ص ٤٩



الهنسي جاء إلى مصر ونزل يولاق وتلمذ على علماء عصره ودرس بالجامع الحضري وتوفي سنة ١١٨١ هـ ودفن بمقابر الخلفاء .

القيس : وردت في كتاب البلدان <sup>(١)</sup> والمسالك أن مدينة قيس تقع غربي النيل وهي حسنة البناء جميلة الجهات فيها قصب السكر وأنواع التمور والحيرات الكثيرة . قال ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص بعث قيس بن الحرث إلى الصعيد فصار حتى أتى القيس فنزل بها فسميت به ، وقد وردت هذه الرواية في كثير من المراجع العربية ، ويقول محمد رمزي <sup>(٢)</sup> أن هذه الرواية غير صحيحة لأن القيس كانت معروفة بهذا الاسم قبل الفتح الاسلامي لمصر ، وإنما يحتمل أن النسي فتحها بعد دخول العرب لمصر هو قيس بن الحارث المرادي ولمصادفة تشابه اسمه باسم القيس ظن مؤرخوا العرب أنها نسبت إليه . وردت في قوانين ابن عماتى <sup>(٣)</sup> أن قيس من أهال الهندسالية وهي الآن قرية بمحافظة المنيا بمركز بني مزار ويقول الكنتلي عن أهل قيس ، ولهم ثياب صوف وأكسية مرعزية وليست هي بالدنيا إلا بمصر ويضيف أن معاوية بن أبي سفيان لما كبر كان لا يدفأ فاجتمعوا أن لا يدفئه إلا أكسية تعمل بمصر صوفها المرعزي العسلي الغير مصبوغ فعمل له منها عدد بقيس فلما احتاج منها إلا إلى واحدة ، ولهم طراز القيس في المتور والمضارب يعرفون به .

ومن انقص <sup>(٤)</sup> التي تروى عن القيس أنه ظهر بها في عهد الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبي سرب <sup>(٥)</sup> فأمر متولى الهندسالية بكشفه فجفع ما يذيف عن مائتي رجل فلم يجدوا له قراراً فأمر بعمل مركب طويل دقيق وحملوا معهم ما يلزمهم من الآلات والزاد وغابوا في السرب ستة أيام أربعة منها دخولا إلى جوفه ويومين رجوعاً إلى رأس السرب . ولم يبقوا في هذه المدة على نهايته فكتب بذلك وإلى الهندسالية إلى الملك الكامل فتعجب مجاً كثيراً ولما انتهى من محاربة الصليبيين في دمياط خرج إلى القيس وشاهد السرب المذكور .

( ١ ) المسالك ص ٨١

( ٢ ) التاموس الجغرافي ج ٣ ص ٢١٤

( ٣ ) ابن عماتى ص ٧٨

( ٤ ) المقرئى ج ١ ص ٣٣٠

( ٥ ) السرب بفتح السين وسكون الراء ومعناها الطريق في الماء كأنه الكهف الممتد .

## محافظة بنى سويف

بنى سويف مدينة مصرية قديمة ذكرها أميلينو في جغرافيته باسم Pouphisa بوفيسا وقال أنها منية بوش وبما أن بنى سويف معروفة بالنسبة إلى موقعها بأنها موردة قديمة ولا تزال محفظة بأهميتها التجارية فإنه يرجح أن كلمة بوفيسا هي الاسم المصرى القديم لمدينة بنى سويف ، وأنها هي بذاتها التي سماها العرب منفسوية وهو الاسم الذى ورد في قوانين ابن ماقى (١) وأنها من أعمال البنسولية .

وكان اسمها على لسان العامة بنسوية ، ثم حرفت في القرن التاسع الهجرى إلى بنى سويف للتخفيف ولتسهيل النطق ، دون مراعاة للأصل حتى ليقادر إلى ذهن من يسمع كلمة بنى سويف أنها عربية في صدرها وعجزها ، ولكن الحقيقة أن اسمها مصرى قديم وحرف (٢) . وذكر السخاوى (٣) في الضوء اللامع عند الكلام على ترجمة محمد بن عبد الكافى بن عبد الله ابن أحمد بن على العبادى : قال : ويعرف بالبنساولى بالنسبة إلى قرية تعرف قديما باسم بنسوية واشتهرت بنى سويف حتى صار يقال في النسبة إليها السوفى ومحمد بن الكافى هذا من قهاء القرن الرابع عشر الميلادى .

ولما فك زمام القطر المصرى استعمل المسلحون اسم بنى سويف وقيدوا أطيائها بهذا الاسم فعرفت به رسمياً من ذلك الوقت . وفي سنة ١٨٣٣ أصبحت بنى سويف مديرية وعاصمتها بنى سويف وفي سنة ١٩٦٠ صارت محافظة .

وكانت مدينة بنى سويف تشتهر بمبانيها وعمارتها المبنية بالحجر الجبرى وأعمدتها المرمرية . وكانت كثيرة القيساريات والفنادق والحمامات . . . وكانت مساجدها عامرة . . . ومن أشهرها الآن جامع البحر . وبها عدة مزارات أهمها عند أهل بنى سويف مقام الشيخة حورية التي يحفل بمولدها كل سنة (٤) .

وفي الجبال القبلية لبنى سويف في ناحية البياض توجد محاجر المرمر ، والمرمر المستخرج من هذه المنطقة متعدد الألوان وخاصة اللون المائل إلى الصفرة والخضرة (و المرقق) وهو أقل جودة من المرمر المستخرج من محجر أسبوط .

(١) ابن ماقى ص ٣٩

(٢) القاموس الجغرافى ج ٣ ص ١٥٥

(٣) الضوء اللامع : ج ٩ ص ١١٧

(٤) المخطط التوفيقية ج ٩ ص ٩٢

ومن الفقهاء الذين ينسبون إلى بني سويف الشيخ محمد عبد الكافي الانصارى العبادى  
البنسماوى والمعروف بالسويفى وقد سبقت الاشارة إليه .

ومن أشهر رجالها فى القرن التاسع عشر الميلادى مصطفى بك السراج ، ولدها  
سنة ١٨٢٤ ، وكان أبوه انكشاريا وأمه سويفية . عين مترجما تحت رئاسة رفاعة الطهطاوى  
وتوفى سنة ١٨٦٨ م ودفن بالامسكندرية .

بيبا : قاعدة مركز بيا ذكر اميلينو فى جغرافيته فقال ان اسمها القبطى بيا Baba  
بفتحين . وكانت بيا قرية مصرية قديمة وردت فى معجم<sup>(١)</sup> البلدان بيا بفتحين مدينة بمصر  
من جهة الصعيد غربى النيل من كورة البنسا ووردت فى قوانين<sup>(٢)</sup> ابن مئان وفى العصر  
العثمانى بيا الكبرى من الاعمال الهندسوية ، وقد حذف من اسمها كلمة الكبرى . ولما أثنى  
قسم بيا سنة ١٨٥٧ م جعلت بيا مقراً له وفى سنة ١٨٩٠ م سى مركز بيا .

وبمدينة بيا الآن كنيسة قبطية قديمة مشهورة باسم دير الشهيد كما يوجد بها مسجد أثرى  
يرجع تاريخ إنشائه إلى القرن السابع الهجرى ولا تزال واجهته تحتفظ ببعض النقوش  
التي ترجع إلى ذلك التاريخ<sup>(٣)</sup> . وكانت معظم مباني المدينة من الأجر واللبن وأسواقها  
عامرة بأنواع الحبوب والمواشى والمنسوجات الصوفية والقطنية واللحم والعقاقير وحمر  
الحلفاء واللوف والحبال كما يكثر بها النخيل وزراعة الدخان البلدى وقصب السكر  
التي قامت عليه صناعة السكر .

الوسطى : كانت قرية قديمة اسمها الاصلى جزيرة الواسطا وردت فى قوانين ابن مئان<sup>(٤)</sup>  
وغيرها من المراجع انها من أعمال الاطفيحية وبسبب قوة جريان ماء النيل بعدت هذه  
الجزيرة عن الشاطئ الشرقى للنيل واتصلت بالشاطئ الغربى منه وقد وردت فى كتاب  
وقف السلطان الغورى ضمن أراضى الشاطئ الغربى باسم الواسطى من أعمال الجيزة لأنها  
كانت تابعة للجيزة فى ذلك الوقت<sup>(٥)</sup> . وفى سنة ١٨٨٦ أصبحت قاعدة مركز الواسطى

( ١ ) ياقوت ج ١ ص ١٩٢

( ٢ ) ابن مئان ص ٢٩

( ٣ ) الخطة التوفيقية ج ٩ ص ٣

( ٤ ) ابن مئان ص ١٥٩

( ٥ ) القاموس الجغرافى ج ٣ ص ١٢٩

وينطقها العامة الواسطة ، ومن القرى التابعة لمركز الواسطى أنفسط وبنو حيين وبنو جين  
جماعة من العرب المستوطنين بها نسبت إليهم ، وكذا زاوية المطلوب وقد وردت في وقف  
السلطان النورى . إنها كانت تسمى مينة بنياس .

\*\*\*

## محافظة الفيوم

الفيوم قاعدة محافظة الفيوم ، وهى من المدن المصرية القديمة ويقول جويتيه واميلينو  
وغيرهما من المؤرخين الذين كتبوا عن الفيوم ، ان اسم الفيوم في العصر الفرعونى كان  
( Chdat ) أو ( Chsdit ) ، ومعناها الجزيرة ، لأنها كانت وقت تكوينها واقعة في بحيرة  
موريس ، ثم سماها القبط ( Piôm ) ومعناه مركز أليم ، ومنها أخذ العرب كلمة فيوم  
وأضافوا اليها أداة التعريف فصارت الفيوم<sup>(١)</sup> . ويزعم المسعودى<sup>(٢)</sup> ان معنى الفيوم  
ألف يوم ، ويبدو أنه بنى هذا الزعم على القصة التى ذكرها المقرئى<sup>(٣)</sup> ، وتلخص  
في أن فرعون مصر طلب من سيدنا يوسف الصديق أن يستصلح أرض الفيوم لابنته ، فحفر  
يوسف خليجاً يصل الفيوم بالنيل كي تصرف فيه المياه الزائدة وقت الفيضان ، مما أصلح  
أرض الفيوم ، وقد استغرقت تلك العملية من يوسف سبعين يوماً فلما رأى فرعون تلك  
الأعمال التى أنعمها يوسف قال لوزرائه « هذا عمل ألف يوم » فسميت الفيوم . ونذ غاب  
عنه ان فرعون مصر لم يكن يعرف العربية . ومدينة الفيوم ظلت منذ نشأتها في العصر  
الفرعونى حتى الآن قاعدة لاقليمها ، وردت في معاجم<sup>(٤)</sup> البلدان أنها ضمن كور مصر ،  
ونجاء في أحسن<sup>(٥)</sup> التقاسيم ، الفيوم بلد جليل به مزارع الارز الفائق ، والسكتان  
الدون<sup>(٦)</sup> ولها قرية سرية تسمى الجوهريات وقال الادريسي<sup>(٧)</sup> ، الفيوم مدينة كبيرة  
ذات بساتين وأشجار وفواكه وغللات ، وأكثر غلاتها الارز وهو أكثر من سائر  
حبوبها ، ولها جانبان على وادى اللاهون (بحر يوسف) . ويقول القضاى « الفيوم

(١) القاموس الجغرافى ج ٣ ص ٩٦

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١١٥

(٣) المقرئى ج ١ ص ٣٩٩ - ٤٠٢

(٤) المسالك لابن حرداذبه ص ٢٣٧ ، تقويم البلدان ج ١ ص ١١٤

(٥) المقدسى : ص ١٩٩

(٦) النون : الجيد .

(٧) نزهة المشتاق ص ١٧٣

وهي مدينة درها يوسف النبي عليه الصلاة والسلام بالوحى وكانت ثلثمائة وستين ضيعة تمد كل ضيعة منها مصر يوما واحدا فكانت تمد مصر السنة . وكانت تروى من اثني عشر خراعا ( وهو أقل منسوب لمياه الفيضان ) ولا يستبحر ما زاد عن ذلك لأن يوسف عليه السلام اتخذ لهم مجرى ورتبه ليديم لهم دخول الماء فيه وقومه بالحجارة المنضدة وبنى به اللاهون . ويضيف الكندى وليس في الدنيا ما بنى بالوحى غير هذه الكورة ولا بالدنيا بلد أنفس منه ولا أخصب ولا أكثر خيرا ولا أغزر أنهارا ، ولو قايسنا بأنهار القديم أنهار بصرة ودمشق لكان لنا بذلك الفضل . ولقد عد جماعة من أهل العقل والعرفه مرافق القيوم وخيرها فإذا هي لا تحصى فتركوا ذلك وعدوا ما فيها من البياض مما ليس عليه ملك لأحد من مسلم ولا معاهد ، فإذا هو فوق السبعين صفا ، .

ولعل المراد بالوحى في عبارتي القضاء والكندى الإلهام لأنه من معاني الكلمة لغة . وقال عبد الحكم<sup>(١)</sup> ان القيوم أقامت سنة بعد الفتح لا يعلم المسلمون بمكانها حتى أناهم رجل فذكرها لهم فأرسل عمرو بن العاص جيشا ، ( وقد اختلفت الروايات في اسم قائد الجيش قبيل ربيعة بن حبيش بن عرفة الصدقي ، وقيل مالك بن ناعمة الصدقي ، وذكر قيس بن الحارث الذي صار حتى أتى قيس قزل بها والتي تزعم المراجع العربية أنها سميت باسمه ) ، ويقول ابن عبد الحكم فلما هجموا عليها لم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم .

أما عن خراج مدينة الفيوم ، فجميع المراجع<sup>(٢)</sup> العربية على أنها كانت أغنى كور مصر ، قال ابن زولاق ، حدثني أحمد بن محمد بن طرخان الكاتب قال ، عملت على الفيوم لكافور الأخشيد في هذه السنة ( يعني سنة ٣٥٦ هـ ) ففقدت بها ستمائة ألف دينار ، وعشرين ألف دينار ، ومنها البياض الذي يعيش الناس فيه من أهل ما لا يضبط ولا يحاط بعلمه ، وذلك غير المرافق والخيرات التي تحت أيدي الملاك . وقال القاضي الفاضل في كتاب متجددات الحوادث ، ان متحصلات الفيوم بلغت في سنة ٥٨٥ هـ مائة ألف واثنين وخمسين ألف دينار وسبعمائة وثلاثة دنانير . وقال البكري ، والفيوم معروف هناك بغل في كل يوم ألفي مثقال ذهباً . وقد أطلب كل من تكلم عن تاريخ مصر عن خيرات مدينة الفيوم حتى أصبح اسمها يقرن باسم مصر ، فيقول اليه قولي مثلا<sup>(٣)</sup> كن يقال في مقدم الأيام مصر والفيوم

( ١ ) فضائل مصر ص ٢٧ ، معجم البلدان ج ٦ ص ٤١٤

( ٢ ) معجم البلدان ج ٦ ص ٤١٦ ، تقويم البلدان ص ١١٤ ، المتريزي ج ١ ص ٤٠٢

( ٣ ) البلدان ج ١٤٥

لجلالة الفيوم وكثرة عمارتها ، وبها الفصح الموصوف ، وبها يعمل الخيش ، ويقول على مبارك (١) ، أن صناعة الخيش ظلت قائمة بالفيوم حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وأنها كانت غنم الميرى به . وورد في الخطط التوفيقية ، أن بالفيوم سمكا كثيرا ، فقد ذكر مؤرخ بطارقة الاسكندرية في تاريخ الشهداء أنه انكشف في الفيوم بركة متسعة بها كثير من البطى ، ينقل منه إلى القساط في كل يوم مقدار عظيم ، فكان ما ينقل إليها يحمل على عشرين جملا ، وكانت تعطى لمن يلتزمها في السنة بستين دينارا ، وكان البطى نوعين كبير وصغير ، فالذى وزن الواحدة منه أربعة أرطال تباع العشرة منه بتسعة دراهم ، وما فوق العشرة منه بمشرة دراهم ، والكبير تباع العشرة منه بخمسة عشر درهما ، وكانت الواحدة منه ربما تزن خمسة عشر رطلا أو أكثر . على أن شهرة الفيوم بالسك ترجع إلى ما قبل العصر الاسلامي . فقد تكلم هيردوت عن سمك الفيوم ، فقال أن السمك كان يملح ويبيق طوال السنة وأن الأهل تسلكه بكثرة فضلا عما يطعم به الحيوانات المقدسة . وقد بلغت مدينة الفيوم من الأهمية في القرنين السادس والسابع للهجرة أن عمل برج الحمام بالقاهرة خاص بها وسمى باسمها لتلقى البريد عن طريق الحمام الزاجل ، وقد ورد (٢) بالمقرئى أنه كان بالقاهرة في موضع يعرف بالبرقية ، برج حمام يسمى برج الفيوم ، وكان بناؤه بأمر الأمير نضر الدين عثمان الاستادار في سلطنة الملك الكامل بن صلاح الدين وكانت الفيوم من إقطاعاته ، فكان حمام البريد يأتى بأخبار المديرية إلى هذا الأمير فينزل بهذا البرج .

وذكر أبو صالح الأرمي (٣) ، أنه يوجد بالفيوم كثير من الأديرة والكنائس ومن أهمها دير بالقرب من حجر اللاهون باسم دير إسحق وهو على جبل في جنوب الفيوم بموضع يعرف باسم يربنوده يحيط به ثلاثة أسوار من الحجر وإليه يذهب الناس ، ومن الكنائس الهامة بها كنيسة ميكايل وقع بالقرب من الباب المسى يباب السور ، وهى عظيمة الاتساع وبناؤها محمولة على عمد غاية في الدقة ، والجمال وهى نادرة المثال بصعيد مصر ، ويشق مدينة الفيوم بحر يوسف إذ يمر بوسطها وعليه قنطرتان قديمتان إحداهما في أول المدينة توصل إلى الأسواق والثانية عند نهايته وعلى هذه القنطرة جامع .

(١) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٨٤

(٢) المقرئى ج ١ ص ٤٠١

(٣) أبو صالح ص ٧٨

ومباني المدينة من الأجر وحاراتها ضيقة وغير مستقيمة ، وكان بها كثير من الخانات والحوانيت العامرة بأصناف البضائع . وبمدينة الفيوم كثير من المساجد الجامعة ، أشهرها جامع الروي سمي باسم الشيخ الروي المدفون بجواره وضرع مزار مشهور ، ويزعم العامة أنه من نسل رويل أخى يوسف عليه السلام ، وذكر المقرئى ، أن صلاح الدين الأيوبي ، أنعم على علي ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين ، بالفيوم وأعمالها ، وأن هذا الأخير أقام بها مدرستين إحداها للشافعية والثانية للمالكية .

وقد كان بمدينة الفيوم كثير من العلماء والفقهاء من مختلف النحل والأديان ، فقد جاء في كتاب الفهرست لأبي الفرج ، أن من علماء اليهود وأفاضلهم ابن سعيد الفيومي كان متمكنا في اللغة العربية وله كثير من المصنفات ، ومن العلماء المسلمين الشيخ شعبان الفيومي (١) الأزهرى الامام الفقيه والشيخ سليمان الفيومي ومن شعرائها المطبوعين ، عبد البر بن عبد القادر وهو من أديباء الفيوم المحدثين .

### محافظة الجيزة

كانت محافظة الجيزة ، في عهد الفراعنة والبطالة والرومان ، ثلاثة أقسام منفصلة بعضها عن بعض ، وهي قسم أوسيم وقسم منف وقسم أطفيح ، وبقي هذا التقسيم أيام العرب أيضا . وفي العصر الفاطمي ضم قسما أوسيم ومنف وتكون منها قسم واحد باسم الجيزة وبقي قسم أطفيح قائما بذاته . واستمر هذا التقسيم طوال العصر الأيوبي والملوكي وكان يقال لها الأعمال الجيزية ، وفي العصر العثماني سميت ولاية الجيزة وفي سنة ١٨٥٩ م ألغيت مديرية الجيزة ، وأحيلت أعمالها إلى مديرتي القليوبية وشرق أطفيح وفي سنة ١٨٨٩ م أعيد تكوين مديرية الجيزة وفي سنة ١٩٦٠ أصبح اسمها محافظة الجيزة (٢) .

والجيزة من المدن القديمة التي أنشئت وقت الفتح العربي ، نال ياقوت (٣) ، الجيزة بالكرم لغة العرب أى أفضل موضع فيه كله . والجيزة ببلدة في غربي القسطنطينية مصر قبالتها ولها كورة كبيرة واسعة وهي من أفضل كور مصر ، وجاء في الخطط (٤) المقرئية

(١) الطالع السعيد ص ٧٦

(٢) القاموس الجغرافي .

(٣) معجم البلدان ج ٣ ص ١٩٢

(٤) المقرئى ج ١ ص ٣٣٢

الجزيرة الناحية ، والجانب الجز جانب الوادى وقد يقال فيه الجزيرة ، ثم قال والجزيرة اسم لقربة كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربى تجاه مدينة القسطنطين . وورد فى الانصار (١) ، أن مدينة الجزيرة هى مدينة إسلامية بنيت سنة ٢١ هـ ، وفى أحسن (٢) التقاسيم أن الجزيرة مدينة خلف العمود ( مقياس النيل بالروضة ) كانت الطريق إليها من الجزيرة ( جزيرة الروضة ) على جسر إلى أن قطعه الخليفة الفاطمى .

ويقول ياقوت (٣) وكذا القضاى عن السبب الذى من أجله أنشئت مدينة الجزيرة ، ولما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل القسطنطين جعل طائفة من جيشه بالجزيرة خوفاً من علو يشاهم فى تلك الناحية . فلما استقر عمرو فى القسطنطين أمر الذين خلفهم بالجزيرة أن ينضموا إليه فكروا ذلك وقالوا هذا مقدم قدمناه فى سبيل الله وأقننا به ما كنا بالذين نرغب عنه ونحن به منذ شهر . فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بنحرو بذلك فود عليه عمر ، كيف رضيت أن تترك عنك أصحابك وتجعل بينك وبينهم بحراً لا تدرى ما يغلبهم فلعلك لا تقدر على غيائهم ، فاجمعهم إليك ولا تفرقهم فإن أبوا وأعجبهم مكانهم قابن عليهم حصناً من فى المسلمين ، فجمعهم عمرو وأخبرهم بكتاب عمر فامتنعوا من الخروج من الجزيرة فأمر عمرو ببناء الحصن عليهم ، فكروا ذلك وقالوا لا حصن أحسن لنا من سيوفنا ، وكرهت ذلك همدان ويافع ، فأقرع عمرو بينهم ففقت القرعة على يافع فبنى فيه الحصن فى سنة إحدى وعشرين و فرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين . وأمرهم عمرو بالخطب بها فاختطت كل قبيلة خطة لها .

وبما تقدم ، يتبين لنا أن مدينة الجزيرة هى ثانية اثنتين اختطها العرب بمصر بعد فتحهم لها ، ومن القصص التى يرويها المقرئ (٤) عن الجزيرة ، يقال أن مسجد التوبة الذى بالجزيرة كان فيه تابوت موسى عليه السلام الذى فلقته أمه فى النيل ، وبها النخلة التى أودعت مريم تحتها عيسى عليه السلام . كما ورد فى المقرئ قلاً عن القضاى ، سجن يوسف عليه السلام بوضو من عمل الجزيرة ، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا السكان ( كذا ) وفيه أثر نبيين أحدهما سجن يوسف ، وذكر أنه سجن به سبع سنين ،

( ١ ) ابن دقان ص ٥٧

( ٢ ) المقلى ص ١٩٣

( ٣ ) معجم البلدان ج ٣ ص ١٩٣

( ٤ ) المقرئ ج ١ ص ٣٣٣



وكان الوحي ينزل عليه والنبى الآخر موسى عليه السلام ، وقد بنى على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى . ( وهو مسجد التوبة ) . ولا يمتنينا في هذا البحث أن نحقق ما جاء في هذه القصص ، ولكن الذى نستطيع أن نقول به ان هذه المنطقة ظلت طوال العصر الاسلامى ينظر اليها كنقطة مباركة « يرجى أن يستجاب فيها الدعاء ويقول القضاعى في ذلك ، ان كافور الاخشيلى سأل أبا بكر بن الحداد عن موضع معروف بإجابة الدعاء ليدعو فيه فأشار عليه بالدعاء على سطح سجن يوسف ، ثم يضيف وكان لسجن يوسف وقت ، يضى الناس اليه يتفرجون عليه . وذكر المسبحى<sup>(١)</sup> في حوادث سنة ٤١٥ هـ ان الخليفة الفاطمى ، الظاهر لا عاز دين الله ، خرج وعدى في سائر عساكره إلى الجيزة في أربع عشاريات ، وأربع عشرة بقلة من بغال النقل ، وفي جميع من معه خاصته وحرمة إلى سجن يوسف عليه السلام ، وأقام هناك يومين وليلتين ، ويقال ان كعب الأحبار الصحابى مدفون بالجيزة<sup>(٢)</sup> . ويقول المقرئى<sup>(٣)</sup> ان أول مسجد جامع بنى بالجيزة أنشأه محمد بن عبد الله الخازن سنة ٣٥٠ هـ بأمر الأمير على بن الاخشيد وأشرف عليه كافور ، وكان الناس قبل ذلك يصلون الجمعة في مسجد همدان . ثم بنيت بعد ذلك عدة جوامع أشهرها الجامع القديم المعروف بجامع أمير الجيوش . وجاء في الجبرئى<sup>(٤)</sup> ، ان بالجيزة جامعاً يعرف بجامع أبى هريرة الذى جدد سنة ١١٨٨ هـ . وأبو هريرة هذا ليس هو الصحابى المعروف . فقد ذكر ابن جبير<sup>(٥)</sup> ، وفي سنة ٧٢٤ هـ ، منع الناصر محمد بن قلاوون الوزير أن يتعرض إلى شيء مما يتحصل من مال الجيزة فصار جميعه يحمل اليه ، وأضاف ، ويخارج الجيزة موضع يعرف بأبى هريرة فيظن من لاعلم له أنه أبو هريرة الصحابى وليس كذلك ، بل هو منسوب إلى ابن ابنته . وجاء في تحفة الأرباب<sup>(٦)</sup> وبغية الطلاب ، ان أبا هريرة الصحابى مات على فراسخ من المدينة وحمل اليها ودفن بالبقيع ويقول على مبارك<sup>(٧)</sup> ، ومدينة الجيزة كثيرة الأسواق والوكائل والحانات وحوانيت معلومة

(١) تاريخ مصر ص ٢١٧

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ١٩٤

(٣) المقرئى ج ١ ص ٣٣٤ ، التجوم للزاهرة .

(٤) الجبرئى ص ٦٣

(٥) ابن جبير ص ٢٢

(٦) السخاوى ص ٥٩

(٧) الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٥٨

بالتجارة والبضائع من جميع الأصناف ، كما يوجد بها كثير من أبواب الحرف ، فيوجد بها نخار البز والخبر والنحاس والعقاقير والدخان ومعاصر الزيوت وطواحين بخارية ، ومعامل للفخار وأتوال لنسج القطن وغيره . وقد اتخذت سكناً للأمرأ والماليك وكبار رجال الدولة منذ العصر العثماني . ومن العلماء الأفاضل الذين ينتسبون إلى الجيزة الريع الجيزي صاحب الامام الشافعي ، وهو أبو محمد الريع بن ملجان بن داود بن الأعرج الأزدي توفي سنة ٢٥٦ هـ بالجيزة ودفن بها . ومنهم بهاء الدين أبو الحسن علي بن هبة الله خطيب مصر وأعلم أهل زمانه وقد منحه كثير من المؤرخين فقال أبو المحاسن<sup>(١)</sup> أنه كان كثير الصحبة بالملك الصالح نجم الدين أيوب . ولما سافر إلى الحج أهدى إليه ملك البين هدية فقبلها فحرق عليه وفارق صحبته وتوفي سنة ٦٤٩ هـ . ومنهم أيضاً الطبيب علي بن رضوان<sup>(٢)</sup> بن علي بن جعفر ، كان عالم مصر في أوانه في أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وكان أول أمره منجماً ، ثم قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق ، وصنف كتباً بلغت اثنين بعد المائة كلها مبتكرة مستبطة توفي سنة ٤٦٠ هـ .

بولاق المذكور : قال المقرئ<sup>(٣)</sup> عند ذكر جامع التكروري ، أن هذه الناحية من قرى الجيزة ، كانت تعرف بمينة بولاق ، ثم عرفت ببولاق التكروري ، بعد أن نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري في عهد العزيز بالله الفاطمي ، وكان الناس يعتقدون فيه الخير والصلاح ، فلما مات بنى عليه قبة وعمل بجانبها جامع ، فاشتهرت هذه القرية من ذلك الوقت باسم بولاق التكروري . ويقول محمد رمزي<sup>(٤)</sup> ، أن بولاق قرية مصرية قديمة اسمها يلاق Bilag وهي كلمة مصرية قديمة معناها المرساة والموردة وأطلق هذا الاسم على يلاق هذه لأنها كانت الموردة قبل إنشاء مدينة الجيزة ثم حرف اسمها إلى بولاق . ولما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون<sup>(٥)</sup> سنة ٧١٣ هـ مدينة جديدة على النيل تجاه القاهرة سماها بولاق لأنها مورده ترسو فيها السفن القادمة إلى القاهرة والمسافرة منها . وذكر المقرئ أنه بعد سنة ٧٩٠ هـ طغى ماء النيل على بولاق التكرور ،

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩٢

(٢) حيون الأبناء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٩٩ ، تاريخ الحكماء لابن القفطي ص ٤٤٣

(٣) المقرئ ج ١ ص ٣٣٢

(٤) القاموس الجغرافي ج ٣ ص ٩

(٥) النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٨٧ ، المقرئ ج ١ ص ٣٣٤

فأخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن ، خفاف أهل البلد أن يأخذ ( النيل ) ضريح الشيخ التكرورى والجامع لقربهما من النيل ، فقتلوا الضريح والجامع إلى داخل البلد ، ولا يزال ضريح الشيخ التكرورى فى مكانه الذى قتل إليه بالبلد القديمة وليس فى بولاق التكرورى كما يظن البعض . ويقول محمد رمزى أنه فى سنة ١٨٦٣ م حول مجرى النيل من الغرب إلى الشرق لإمكان توفر الماء اللازم لشرب سكان القاهرة ، وبذلك أصبحت مساكن قرية بولاق التكرور بعيدة عن شاطئ النيل وفى سنة ١٨٦٨ م هدمت مساكن هذه القرية وعوض أهلها فانقلوا إلى مكانها الحالى بجوار محطة بولاق التكرور ، ويوضح لنا من هذا أن قرية بولاق التكرور هذه ليست فى مكانها الأصلى القديم ، وأن الجامع الذى بنده الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ قد اندثر وأز اللوح الرخام الذى كان مركبا على بابه قتل إلى باب ضريح الشيخ يوسف التكرورى الموجود الآن مع أضرحة أخرى بين مبنى وزارة الزراعة ومبنى المتحف الزراعى .

المنارات : وهى قرية مصرية قديمة اسمها الأصلى منية أندونه ، ذكرها المقرئى<sup>(١)</sup>

فقال ، إنها إحدى قرى الجيزة ، عرفت بأنلونة كاتب أحمد المدائنى . كان يتقاضياع موسى ابن بفا التى بمصر فقبض أحمد بن طولون على أندونة هذا وأخذ منه خمسين ألف دينار . ووردت هذه القرية فى قوانين ابن ماقى<sup>(٢)</sup> مع منية قادوس المجاورة لها باسم منية قادوس وأنلونة من أعمال الجيزة ، وفى الروك الناصرى ، فصلت من منية قادوس ، وذكرها ابن أياس<sup>(٣)</sup> باسم المنارات ، وفى تاريخ سنة ١٨٣٨ ميت أندونة وهى المنارات . ويقول محمد رمزى ان المنارات جمع منية وكانت تطلق على ثلاث قرى متجاورة فى السكن وكل قرية منها تسمى منية وهى منية أندونة ، ومنية قادوس ومنية الشباس ، ولما اختفى اسم منية أندونة أصبح اسم المنارات خاصاً بهذه الناحية .

العزيرية : هى من القرى القديمة وردت فى كتب أحسن التقاسيم<sup>(٤)</sup> قال ، ان العزيرية وهى من مدينة منف القديمة ، وقد اختفت وخربت وكانت مصر فى القديم وبها كان ينزل فرعون ، وفيها قصره ومسجد يعقوب ويوسف . وذكرها ياقوت<sup>(٥)</sup> ان العزيرية خمس

(١) المقرئى ج ١ ص ٣٣٥

(٢) ابن ماقى ص ٢٣٧

(٣) ابن أياس ج ٣ ص ١١٢

(٤) المقسى ص ١٩٤

(٥) مسجم البلدان ج ٦ ص ١٧١

قرى بصر ، تنسب إلى العزيز بالله الفاطمي ومنها قرية بالجيزة . وورد في صبح<sup>(١)</sup> الأعيى ، أنه يوجد في شمال منف بلدة صغيرة تعرف بالعزيزية يقال أنها كانت منزلة العزيز وزير الملك ، وهناك مكان على القرب يعرف بزيلخا ، ويقول محمد<sup>(٢)</sup> رمزي أنه لما خربت مدينة منف منذ آخر أيام الحكم الروماني ببصر ، أقيم على أطلالها وفي أراضيها قرى العزيزية ومنية رهينة والبدرشين وصقارة ، ثم يضيف ، والظاهر أنه لما تولى العزيز بالله الفاطمي اختاروا له خمس مدن قديمة وأطلقوا عليها اسمه تخليداً لذكره وكانت إحداها العزيزية هذه . ووردت العزيزية في دواوين ابن عماني<sup>(٣)</sup> ، العزيزية من أعمال الجيزة .

ساقية مكي : هي من النواحي القديمة ، اسمها الأصلي ساقية مكة<sup>(٤)</sup> ، سميت بهذا الاسم لأن أراضيها كانت وقفا على اشراف مكة المكرمة . وفي بدء تكوين هذه الناحية كان عليها ساقية فعرفت بساقية مكة ، وحرفت إلى مكي في العصر العثماني . ووردت باسمها الحان في وصف الحملة الفرنسية لمصر .

ميت القايد : وهي من القرى القديمة اسمها الأصلي منية القايد ، أنشأها القائد فضل ابن صالح<sup>(٥)</sup> أحد قواد جيش الخليفة العزيز بالله الفاطمي . وردت في قوانين ابن عماني<sup>(٦)</sup> منية القايد من الأعمال الجيزية . وفي تاريخ سنة ١٨١٣ م حرف اسمها من منية إلى ميت ومن القايد إلى القايد .

ميت عقبة : هي من القرى القديمة اسمها الأصلي منية عقبة ، ذكرها المقرئ<sup>(٧)</sup> أن الذي أنشأها هو عقبة بن عامر الجنيني والى مصر من قبل الخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٥ هـ ، ولأنها كانت واقعة في ذلك الوقت على الشاطئ الغربي للنيل قبل تحويله إلى الشرق ، عرفت باسم منية عقبة . وردت في قوانين ابن عماني<sup>(٨)</sup> منية عقبة من أعمال الجيزية ، وفي تاريخ سنة ١٨١٣ حرف اسمها إلى ميت عقبة .

(١) صبح الأعيى ج ٦ ص ١٤٧

(٢) القاموس الجغرافي ج ٣ ص ٦

(٣) ابن عماني ص ٩٧

(٤) القاموس الجغرافي ج ٣ ص ١٥

(٥) ياقوت ج ٦ ص ١٧٢

(٦) ابن عماني .

(٧) المقرئ ج ١ ص ٣٣٤

(٨) ابن عماني ص ٩٧

## محافظة المنوفية

تكونت كورة المنوفية في العصر الفاطمي نسبة إلى مدينة منوف التي كانت قاعدة لها ،  
وفي سنة ٧١٥ هـ سميت الأعمال المنوفية وفي العصر العثماني أطلق عليها ولاية المنوفية ،  
وفي سنة ١٨٢٣ م سميت مديرية المنوفية وأصبحت قاعدتها شين الكوم بعد أن كانت <sup>(١)</sup>  
منوف وفي سنة ١٩٦٠ أصبحت تعرف باسم محافظة المنوفية .

منوف : مدينة قديمة ذكر جوتييه وكذا أمبليثو أن اسمها القبطي Banoufris وهي  
منوف العليا ، وقال ابن حوقل <sup>(٢)</sup> ، أن منوف مدينة كبيرة بها حمامات وأسواق وأهلها  
أهل تناية <sup>(٣)</sup> ويسار ، وفيهم من وجوه الناس ولها إقليم عظيم وعمل ، يليه عامل كبير وقاض .  
ووردت في ابن ممتي <sup>(٤)</sup> ، منوف من أعمال المنوفية ، وفي معجم <sup>(٥)</sup> البلدان منوف  
من نرى مصر القديمة بأسفل الأرض من بطن الريف ويقال لكورتها المنوفية . وذكرها  
القفشندي <sup>(٦)</sup> فقال ، عمل المنوفية أوله من الجنوب القربة المعروفة بشطنوف ، على أول  
الفرقة الغربية من النيل ، ومقر ولايته مدينة منوف ، وهي مدينة إسلامية ببيت بدلا من  
مدينة قديمة كانت قد دُخِرَتْ ، وبقيت آثارها كيماناً ، وولايتها من أنفس الولايات  
وقد أضيف إليها عمل إيار وهي جزيرة بني نصر ، ثم أضاف ، ومنوف مدينة حسنة  
ذات أسواق ومساجد ، ومسجد جليل للخطبة وحمام وخانات . وجاءت في تاريخ <sup>(٧)</sup>  
سنة ١٨١٣ باسم منوف العلا ، لأنها تقع بالقرب من رأس الدلتا في مكان أعلى  
مما تقع فيه منوف السفلى التي تعرف اليوم باسم محلة منوف بمركز طنطا . وكانت منوف  
قاعدة الإقليم من الفتح العربي حتى سنة ١٨٢٦ ثم صارت قاعدته شين الكوم لتوسطها  
بين بلاد الإقليم .

(١) القاموس الجغرافي ج ٢ ص ٢٢٢

(٢) ابن حوقل ص ٢٣٧

(٣) تنايه أي أهل فلاحه وزراعة .

(٤) ابن ممتي ص ٢٧٨

(٥) ياقوت ج ٨ ص ١٧٨

(٦) صبح الاعشى ج ٩ ص ١٢٧

(٧) القاموس الجغرافي ج ٢ ص ٢٢٢

**شين الكوم :** من القرى المصرية القديمة اسمها الأصلي شين السرى ، وردت في قوانين ابن مفلح<sup>(١)</sup> شين السرى من أعمال المنوفية ، وفي تاريخ سنة ١٨١٣ م وردت باسمها الحالي ، وفي سنة ١٨٢٦ ، أصبحت شين الكوم قاعدة المديرية ثم قاعدة المحافظة في سنة ١٩٦٠ وجاء في الخطط التوفيقية<sup>(٢)</sup> عن شين الكوم ، أن الجغرافيين اتفقوا على أن هذه المدينة هي محل قرية قديمة سماها هيودوت (أريشس) وأنها في جزيرة اسمها (بروزيتيس) ويعارض محمد رمزي<sup>(٣)</sup> هذا الرأي فيقول ، أن ما جاء في الخطط التوفيقية خاصا بشين غبر صحيح لأن جزيرة (بروزيتيس) هي التي تسمى جزيرة نصر وأن شين الكوم لم تكن من قرى تلك الجزيرة .

**الشهداء :** جاء في معجم البلدان<sup>(٤)</sup> ، مقابر الشهداء موضع بأرض مصر وامت فيه حروب بين مروان بن الحكم وجنوده وبين الزيرية من أهل مصر سنة ٦٥ هـ وقتل من الفريقين عدد عظيم ، فدفن المصريون قلاهم في هذا الموضع وسموه مقابر الشهداء . وإذا تتبعنا الأحداث التاريخية وجدنا إن مصر كانت في القرن الأول الهجري تحت حكم الدولة الأموية ، ولما مات الخليفة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة فصار أنصاره بمصر وأظهروا دعوته وسار اليه جماعة منهم ، فأرسل إلى مصر عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم واليا عليها فوصلها في شعبان سنة ٦٤ هـ في جمع كبير من أنصار عبد الله بن الزبير الذين يسعونهم الخوارج . ولما بوع مروان بن الحكم الأموي بالخلافة جهز جيشاً أمر عليه ابنه عبد العزيز بن مروان وأرسله إلى مصر ، فأجمع ابن جحدم على حربه ومنعه من دخول مصر ، ثم جاء الخليفة بنفسه إلى مصر وحارب الفريقين عدد عظيم ، وانتهت المعركة بانصرام مروان بن الحكم ودخوله النسطاط سنة ٦٥ هـ وبعد انتهاء المعركة دفن أنصار ابن الزبير قلاهم ، في ذلك الموضع بجوار قرية بربستا ،

(١) ابن مفلح ص ٢٧٩

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٦ ص ٤٧

(٣) القاموس الجغرافي ج ٢ ص ١٨٢

(٤) ياقوت ج ٥ ص ٢٥٨

(٥) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩٥

فاشتهر بين أهلها باسم مقابر الشهداء . وكان يوجد بجوار تلك المقابر كافر صغير عرف من ذلك الوقت باسم الشهداء وكان من توابع سرسنا ثم أخذ هذا الكافر يتسع بزيادة ميانيه ، وعدد سكانه إلى أن أصبح قرية ورد ذكرها في تاريخ سنة ١٨١٣ م باسم سرسنا والشهداء ثم فصلت الشهداء عن سرسنا وأصبحت ناحية قائمة بذاتها .

أشمون : قرية مصرية قديمة اسمها القبطى ، كما ذكرها اميلينو Gemouni ثم حُرف إلى أشوم . وردت في نزهة المشتاق <sup>(١)</sup> باسم اشمن جريس ، بين أم الدينار ، والجريس ، وهي مدينة صغيرة في الغرب كثيرة العمارات والبساتين والجنات ، وذكرها ياقوت <sup>(٢)</sup> باسم أشوم قال ، وهي أشوم الجريسات بالمنوفية بمصر . وفي تاريخ ١٨١٣ <sup>(٣)</sup> وردت باسم أشمون جريس لمجاورتها لنانحية جريس وتميزاً لها من أشمون الرمان التي بمركز دكرنس .

وقد أنجبت محافظة المنوفية كثيراً من العلماء والأعلام في الطب والسياسة والاجتماع والقانون ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشيخ محمد موسى البجيرى ولد في بلدة بجيريم إحدى قرى مركز قويسنا ، ونشأ نشأة دينية حفظ القرآن ثم التحق بالأزهر وتخرج فيه وانكب على البحث والاطلاع في العلوم الدينية والقوية حتى عين عضواً بهيئة كبار العلماء وشيخاً للمذهب الشافعى وتوفي سنة ١٣٢٩ هـ . ومن علمائها الفقهاء كذلك الشيخ محمد الحضرى الذى تولى القضاء في السودان ، كما تولى تدريس التاريخ الاسلامى في الجامعة المصرية وتوفي سنة ١٩٢٧ م . ومن أبناء المنوفية المناضلين البررة عبد العزيز حجازى عمر ، الذى لقبه ناظر المدرسة الخديوية بلقب فهمي لذكائه وفطنته فعرف بعبد العزيز فهمي ، ولد بقرية كفر المصباحية سنة ١٨٨٢ ، وتخرج في كلية الحقوق وعين بوظائف الحكومة ولكنه استقال وآثر الحاماة ، فاستطاع أن يؤدى واجبه نحو وطنه بالاشتراك مع الوفد المصرى في المطالبة بحقوق البلاد كما اشترك في وضع الدستور الاول للدولة . ومن أفواله المأثورة ، منيت البلاد باستعمارين ، الاستعمار الانجليزى واستعمار أسرة محمد على ، وان الاستعمار الاخير أشد خطراً على البلاد من الاستعمار الاول .

( ١ ) الادريسي ص ٢٧٩

( ٢ ) معجم البلدان ج ١ ص ٢٦٠

( ٣ ) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١٥٧

## محافظة الغربية

تكونت كورة الغربية في العصر الفاطمي ، وأطلق عليها اسم الغربية لوتوعها غربي فرع النيل ، وعرفت بأعمال الغربية في العصر المملوكي ثم ولاية الغربية في العصر العثماني . ثم في سنة ١٨٢٣ سميت مديرية الغربية ثم أصبحت محافظة الغربية سنة ١٩٦٠ . وكانت المحلة الكبرى قاعدة لاقليم الغربية من عهد الدولة الفاطمية حتى سنة ١٨٣٦ التي نقل فيها ديوان المديرية من المحلة إلى طنطا ، وكان يشرف في ذلك الوقت على مديرتي المنوفية والغربية مدير واحد باسم مدير روضة البحرين<sup>(١)</sup> . وقد تواضعت بعد ذلك شهرة المحلة واعتبرت قرية صغيرة من نواع قم سمود ، ثم عادت إليها شهرتها وزاد عدد سكانها بسبب المحالج والمصانع الكبيرة التي أنشأتها فيها شركة مصر من سنة ١٩٢٠ ، فأصبحت المحلة الآن من أكبر المدن المصرية وأشهرها .

المحلة الكبرى : من المدن المصرية القديمة اسمها انقبلى دقلا ، ولما فتحها العرب سمىها محلة دقلا ، وعرفت بمحلة شريقون ثم سميت المحلة الكبرى لأنها أكبر البلاد المسماة باسم المحلة<sup>(٢)</sup> بمصر . وذكرها المقدسي<sup>(٣)</sup> باسم المحلة الكبرى وقال انها مدينة على نهر الاسكندرية (أى فرع رشيد) ، بها جامع لطيف وليس بها أسواق كثيرة غير أنها عامرة تزينة الشط حسنة النهر يقابلها صندفا عامرة كذلك وبها جامع، شها بمدينة واسط إلا أنه ليس بينهما جسر يلعبرون في المراكب ووصفها الإدريسي<sup>(٤)</sup> قال ، المحلة مدينة ذات أسواق عامرة وتجارات شاملة ، وذكرها ياقوت<sup>(٥)</sup> المحلة عدة مواضع بمصر منها محلة دقلا وهى أكبرها وأشهرها تقع بين القاهرة ودمياط ، ثم ذكر بعدها محلة أبى الهيثم ، ثم محلة شريقون بمصر أيضا وهى المحلة الكبرى مدينة مشهورة بالديار المصرية وهى ذات جنتين أحدهما سندفا والآخر شريقون . ويعلق محمد رمزي على ياقوت فيقول يفهم من عبارة ياقوت ان محلة دقلا هى بلدة أخرى غير المحلة الكبرى في حين أنها بلدة واحدة . والظاهر ان ياقوت

(١) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٥٨

(٢) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ٨

(٣) المقدسي ص ١٩٨

(٤) الإدريسي ص ١٧٥

(٥) ياقوت ج ٦ ص ١٦٩



لم يتنبه لذلك وقت وضع معجمه . ووصفها ابن دقاق<sup>(١)</sup> وصفا شاملا ، قال ، وتعرف بمدينة المحلة وهي قصبة إقليم الغريبة من الديار المصرية . وولايتها قديما تعرف بالوزارة الصغيرة . ثم يضيف وفي بلاد مصر نحو المائة قرية تعرف كل منها بالمحلة تتميز بلقب تعرف به أو بنسبة تعرف بها . والمحلة هذه مدينة كبيرة ذات أسواق وبها جامع ومدارس وقياسر وبزازين وفنادق ، ومنارة وبساتين وشققا نهر من النيل .

طنطا : هي قاعدة محافظة الغربية اسمها القديم (Tantant) ويقول محمد رمزي<sup>(٢)</sup> إذا قارنا اسمها القديم بالإسماء التي جاءت في المعاجم وكتب المؤرخين تبين لنا أن اسم طنطا هو الاسم المصرى القديم لهذه المدينة . وجاءت في كتاب<sup>(٣)</sup> المسالك باسم طندنا بين فيشة بنى سالم وبين محلة المرحوم . وأضاف وهي ضيعة حسنة عظيمة بها جامع لطيف وحمام ولها ضياع وأسواق . ووردت في نزهة المشتاق<sup>(٤)</sup> باسم طنطنه . وهي مدينة متحصنة صغيرة ذات أسواق ورزق داره وأحوال صالحة وأهلها في رفاهة وخصب . وإجاءت في قوانين<sup>(٥)</sup> ابن مماتي طندنا من أعمال الغربية ، وفي الضوء الالامع<sup>(٦)</sup> طنندا ؛ وفي تاريخ الجبرق طننداء والنسبة إليها طنندائى . وفي العصر العثمانى حذفت الدال من طندنا لتسهيل النطق فصارت طنتا ، ثم غُمت التاء لتوافق ذوق العامة فصارت طنطا وهو اسمها الحالى الذى وردت به في تاريخ<sup>(٨)</sup> ١٨١٣ وقد زادت شهرة مدينة طنطا وارتفع شأنها من يوم أن دفن بها ولي الله السيد أحمد البدوى المتوفى سنة ٦٧٥ هـ وقبره مزار ويحتفل سنوياً بإحياء ذكرى مولده فيقصدوها خلق كثير ، وضريح السيد البدوى تعلوه قبة وله جامع كبير وإليه ينسب المعهد الدينى الاحمدى .

(١) ابن دقاق ص ١٧٢

(٢) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١٠٢

(٣) المسالك لابن حوقل ص ٢٢١

(٤) الادريسي ص ١٩٧

(٥) ابن مماتي ص ١٢٧

(٦) السخاوى ج ٧ ص ١٧٣

(٧) الجبرق ج ٢ ص ٧٧

(٨) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١٠٢

كفر الزيات : كان في إقليم القرية قرية قديمة تسمى جريسان<sup>(١)</sup> وردت في قوانين ابن عمات أنها من أعمال جزيرة بن نصر ، وفي القرن الحادى عشر الهجرى طغى النيل على بلدة جريسان فأكل مساكنها عن آخرها ، فاضطر أهلها إلى السكنى في أراضيها الزراعية الواقعة في الجهة الشرقية من جريسان المندثرة ، وأنشأوا بلدها قرية جديدة عرفت باسم كفر الزيات نسبة إلى الحاج على الزيات صاحب مصانع الزيت الموجودة بها في ذلك الوقت . وكانت كفر الزيات تابعة لمركز بسيون وفي سنة ١٨٧١ م نقل المركز من بسيون إلى كفر الزيات وذلك لوقوعها على السكة الحديدية الرئيسية . وكفر الزيات اليوم من أشهر مدن مصر ، إذ يوجد بها معامل لاستخراج الزيت والسمن الصناعى من بذرة القطن وبها مصانع الصابون ومحال القطن .

النحرية : من القرى القديمة اسمها الاصلى النحرية<sup>(٢)</sup> . وكانت في بدء تكوينها ضيعة أنشأها تحرير الارغلى الاخشيدي المعروف باسم الشوزانى وذلك في القرن الرابع الهجرى ، ففرت بالنحرية نسبة إليه ، ثم صارت أرضها تثقل في أيدي المظطعين إلى أن صارت في إقطاع الأمير شمس الدين سنقر السعدى ذكرها ابن أياس<sup>(٣)</sup> قال ، وفي سنة ٧٢٦ هـ عمرت القرية المعروفة بالنحرية من أعمال القرية ، وكان سبب إنشائها أن أرض الضيعة كانت جارية في إقطاع الأمير شمس الدين سنقر السعدى تقيب الجيوش المنصورى فبنى بها جامعا وطاحونا وخانا وتزايدت العمار حتى صارت بلدا كرسيا ، وسكن بها جماعة كبيرة من الفلاحين فبلغ خراجها في كل سنة خمسة عشر ألف دينار فبلغ ذلك الملك الناصر محمد بن قلاوون فأخذها من الأمير سنقر السعدى وصارت من جملة بلاد السلطان . وجاءت في الخطط المقرية ، النحرية قرية من الأعمال القرية أسس حكرها الأمير شمس الدين سنقر السعدى تقيب الجيوش في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون وبالغ في عمارتها فبلغت في أيامه عشرة آلاف درهم فضة . ثم خرج عنها للسلطان الناصر محمد فعمرت واتسعت أمرها حتى أثنى فيها ما يزيد على ثلاثين بستانا ووصل حكرها لكثرة سكانها إلى ألف درهم فضة لكل فدان . وصارت بلدا كبير العمل يبلغ في السنة

(١) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١٠٢

(٢) المقرئى ج ١ ص ٤٠٣ ، الصفحة الستة ص ٧٠

(٣) ابن أياس ج ٣ ص ١٦١

ما بين خراجي وهلالى ثلاثمائة ألف درهم فضة ، وخمسة عشر ألف دينار ذهباً ومات  
 منقر السعدى سنة ٧٢٨ هـ . وذكرها ابن دقاق قال ، التحريرية مساحتها ١٢٧٠ فدانا  
 وعبرتها ثلاثون ألف دينار وهى مدينة كبيرة ذات أسواق وقياس وفنادق وجامع  
 وبها تجار مياسير . ويضيف على مبارك <sup>(١)</sup> على ذلك ، وبني بها السلطان الناصر محمد جامعاً  
 سماه المحمودية وكان به ٣٥٠ عموداً ورتب فيه عشرين درهماً وبني حول المسجد الدكاكين  
 والفنادق ووقفها عليه . وجعل له كذلك مائة فدان طيناً يؤخذ خراجها ويصرف على  
 العلماء والمدرسين ، وكان بها ١٢٠ مسجداً كبيراً وصغاراً وعشرون حماماً وستون معصرة  
 للزيت وغير ذلك من الأسواق والدكاكين وكانت من أجمل المدن الإسلامية وهى آخر  
 ما بنى فى مصر من المدن . والآن استولى عليها الخراب من ظلم الولاة والكشوفية .  
 وقد حرف اسم هذه البلدة من التحريرية إلى التجارية فى العصر العثمانى <sup>(٢)</sup> . وهى تتبع الآن  
 مركز كفر الزيات .

\*\*\*

## محافظة القليوبية

هى من أقاليم الوجه البحرى بمصر استحدثت فى سنة ٧١٥ هـ بمرسوم من الملك الناصر  
 محمد بن قلاوون حين أمر بعمل الروك الناصرى ، وكانت نواحها قبل ذلك تابعة لإقليم  
 الشرقية ، ثم فصلت عنها باسم أعمال القليوبية نسبة إلى مدينة قليوب التى كانت قاعدة لها .  
 وفى العصر العثمانى أطلق عليها ولاية القليوبية ثم مأمورية القليوبية وفى سنة ١٨٣٣ سميت  
 مديرية القليوبية وقاعدتها بنا وفى سنة ١٩٦٠ سميت محافظة القليوبية وظلت قاعدتها بنا .  
بنا : من القرى المصرية القديمة اسمها القبطى ( Banabo ) ومنه اسمها العربى بنا .  
 وردت فى كتاب البلدان <sup>(٣)</sup> أنها ضمن مدن أسفل الأرض . وذكرها الإدريسى <sup>(٤)</sup>  
 منية العسل وهى جليلة كثيرة الأشجار وتصل بها العبارات . وجاءت فى قوانين ابن عماتى <sup>(٥)</sup> ،

(١) الخطط التوفيقية ج ١٧ ص ٥

(٢) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١٢٢

(٣) اليعقوبى ص ٥٧

(٤) الإدريسى ص ٦٩

(٥) ابن عماتى ص ٤٧

بها العسل من أعمال الشرقية ويقول محمد رمزي<sup>(١)</sup> في معنى كلمة بها ، ويتكون اسم بها المصري من مقطعين بى ومعناها بيت أو حظيرة وبها ومعناها شجر الجميز ، فكان بها معناها حظيرة شجر الجميز ، ولا يخفى أن شجر الجميز كان له شأن يذكر عند قدماء المصريين فكانوا يصنعون منه التوايت والآثاث والتماثيل . ثم يضيف ويحتمل أن تكون بى أداة التعريف وبها جميز فيكون بها الجيزة . ولها مثل وهي الجيزة التي بمركز السنطة بمديرية الغربية .

أترِب : مدينة قديمة اسمها ( Atrebi ) ومنه اسمها العربى . وكانت أترِب قاعدة أبرشية في القرن الثامن الميلادى ، وقد بدأ الحراب يدب في مساكنها منذ القرن الثالث عشر الميلادى . ثم اندثرت بعد ذلك إلا أن اسمها ظل باقيا بين البلاد المصرية على اعتبارها ناحية قديمة ذات وحدة مالية ، وردت في الانتصار ، أترِب من التلال المجموعة مساحتها ٧٥٨ فدانا من أعمال الشرقية . وفي تاريخ ١٨١٣ لنخسى اسمها فلم يرد في عداد النواحي المصرية ولكنه ظهر بعد ذلك ، ففي سنة ١٩٤٢ فصلت عن بندر بها من الوجهة الادارية وعادت بلدة باسمها أترِب .

شين القناطر : قرية قديمة اسمها الأصلي شيين ذكرها ياقوت<sup>(٢)</sup> شيين من قرى الحوف بمصر بين بليس والقاهرة ، ولأجل تميزها عن شيين التي بالنوفية ذكرها بن ممانى<sup>(٣)</sup> باسم شيين القصر من أعمال الشرقية . وتكلم بن أبياس<sup>(٤)</sup> عن شيين القناطر فقال ، أنها سميت شيين القناطر لأنها اشترت بالقناطر التي أنشأها عندها على بحر أبى المنجا الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٣٥ هـ .

قليوب : من القرى القديمة وردت في كتب معاجم البلدان أنها من أعمال الشرقية وجاءت في الانتصار<sup>(٥)</sup> قليوب مدينة عظيمة حسنة يقال أنه كان بها ١٧٠٠ بستان وقد خرب أكثرها وهي كرسى الاقليم وبها يقيم متولى الحرب السعيد ، وبها من أنواع الفواكه

( ١ ) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١٢٨

( ٢ ) ياقوت ج ٥ ص ٢٦٠

( ٣ ) ابن ممانى ص ١٤٧

( ٤ ) ابن أبياس ج ١ ص ١٧٥ ، ج ٣ ص ٢١٠

( ٥ ) ابن دقاق ص ٢٣٧

شئ كثير رخيص وبها خليج السردوس وهو أحد تزهات الدنيا لأنه يسار فيه بين بساتين  
متشابكة وأشجار ملففة وفواكه دانية . وجاء في الخطط التوفيقية <sup>(١)</sup> ، أن محمد الشواربي  
من أهالي قليوب كان عنده وثيقة عليها علامة قاضى مصر ومؤرخة سنة ٨٩١ هـ وكذا وثيقة  
أخرى مؤرخة سنة ١٠٦١ هـ تشيران إلى وجود البحر السردوس بمدينة قليوب . ويضيف  
على مبارك ، ولا يعلم هل كان الماء إذ ذاك يجري فيه أو كان يدخله وقت الفيضان ،  
وأن محله الآن ترعة صغيرة تسمى الرحوسية . وقال ابن جبير من أحسن البلاد التي مررنا  
عليها موضع يعرف بقلوب على بعد ستة أميال من القاهرة في الأسواق الجميلة ، ومسجد  
جامع كبير حافل مشيد البنيان . وقال النابلسى صاحب كتاب دواوين الديار المصرية  
أن قليوب كانت ذات بساتين وسط وأشجار كثيرة وأنها كانت كأنها ذخيرة لهم (للملوك  
الدولة الأيوبية) وحكمها حكم المعادن (يعنى أشجار السنت) وهى لبيت مال المسلمين  
ليس لاحد فيها اختصاص وكان لها ديوان وقد أهلها أولو الأمر وصار الناس يقطعون منها  
ما يختارونه ويحضرونه إلى ساحل مصر ويصالحون ديوان ساحل السنت عن الثلث المقرر  
للديوان بشئ يسير ويبعونه بالأموال الكثيرة . ويقول أنه كان بقلوب وضواحيها سنت  
يساوى ما يقرب من مائة ألف دينار .

ويقول ابن أياس <sup>(٢)</sup> أن أكثر أهل قليوب مسلمون ، ومنهم دائلة مشهورة من عدة  
أجيال تعرف بعائلة الشواربية ، يقولون أنهم من قبيلة تسمى بهذا الاسم من عرب الحجاز  
القاطنين الصفراء والجديدة نقل جدم الأعلى إلى الشام ثم إلى مصر وكان دخوله بلاد مصر  
بنزته وأتباعه في القرن السابع للهجرة فنزل أولا على بحر أبي المنجى وأقام هناك ثم انتقل  
إلى قليوب . ويضيف أن السبب في توطنهم تلك الجهة أنه لما شرع السلطان الملك يعزى  
البندقدارى في بناء قاطر أبي المنجى جعل دورها عليهم وأنعم عليهم بأطيان رزقة هى إلى الآن  
(القرن السادس عشر) تحت أيدي ذريتهم وتسمى رزقة الشواربية من أطيان ناحية البرادعة  
ورتب لهم في مقابلة ذلك بالروزنامة مبلغاً من النقود يصرف لهم كل سنة .

وينسب إلى قليوب جماعة من أهل العلم والفضل نذكر منهم الشيخ محمد بن محمد الشمس  
القليوبى ثم القاهرى الشافعى وجاء فى الضوء <sup>(٣)</sup> اللامع أنه كان يعرف بالحجازى .

(١) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١٤٧

(٢) ابن أياس ج ٢ ص ٥٤

(٣) السماوى ج ٩ ص ٢٥٩

وكان إماماً عالماً فاضلاً ماهراً في الفرائض والحساب والعريية توفي سنة ٨٤٩ هـ ودفن بالقاهرة . ومنهم الشيخ أحمد القليوبي العالم الفقيه المحدث كان جاعاً للعلوم الشرعية متضللاً في العلم العقلي ، وكان خيراً بشئون الطب ، وله مصنفات كثيرة منها حاشيته على شرح المنهاج وكتاب في الطب ومناسك الحج . توفي سنة ٨٦٦ هـ .

\*\*\*

## محافظة كفر الشيخ

كفر الشيخ من القرى القديمة اسمها الأصلي دميثون ، وردت في قوانين ابن ميمون (١) باسم دميثون وورد في تاريخ ١٨١٣ م دميلاق . وهي كفر الشيخ طلحه نسبة إلى الشيخ طلحة الشاذلي صاحب المقام الموجود بها . ويقول محمد رمزي أنه لاحظ أن الكثير من القرى المصرية القديمة قد تغيرت أسماءها في العصر العثماني وسميت بأسماء المشايخ أصحاب المقامات الموجودة بها ، مثال ذلك دميثون هذه التي سميت كفر الشيخ والطا التي سميت أبو العز بمرکز كفر الزيات نسبة إلى الشيخ أبو العز المدفون بها ، ودربوط بلباسة التي سميت الشيخ زياد بمرکز منافه نسبة إلى الشيخ زياد بن هفيرة المدفون بها وأهریت التي سميت الشيخ فضل بمرکز بني مزار نسبة إلى الشيخ فضل المدفون بها . ويعال محمد (٢) رمزي السبب في هذا التغير هو رغبة أهالي هذه البلاد في إحياء ذكرى أصحاب هذه المقامات ولفت نظر الناس إليهم لزيارتهم والتبرك بهم في الموالد التي تقام سنوياً . ولا يخفى ما يعود على خدمة هذه المقامات من فائدة وما يكسبه أهل البلد من رواج لحاصلهم وتجارتهم . هذا بالإضافة إلى رغبة الأهالي في التخلص من الأسماء المستعجنة التي لا يعرفون لها معنى . وفي سنة ١٨٣٣ م ضمت كفر الشيخ لمديرية الغربية وفي سنة ١٩٣١ انضمت عن مديرية الغربية ثم أصبحت فيما بعد مديرية مستقلة تماماً عن الغربية وفي سنة ١٩٦٠ تغير اسمها إلى محافظة .

لقاس : يستفاد مما ورد في كتاب الضوء (٣) اللامع عند الكلام على ترجمة الشيخ أحمد بن سليمان بن نصر الله إبراهيم الشهاب البلقاسي أن هذه المدينة قديمة وأنها كانت موجودة قبل القرن التاسع الهجري ويقول محمد رمزي أنها كانت من كفر ناحيق

(١) ابن ميمون ص ٢٨٣

(٢) القاموس الجغرافي ج ٢ ص ١٤٣

(٣) السخاوي ج ٣ ص ١٤٧

المبا والسكر قيد زمامهما في العصر العثاني باسم بلقاس لشهرتها بين القرى في ذلك الوقت . وفي سنة ١٨٩٢ نقل ديوان مركز بلاد الأرز شرقا إلى بلقاس ثم نقل المركز إلى شربين . وفي سنة ١٩٤٣ فصلت بلقاس عن شربين وأصبحت قاعدة المركز وهي تتبع الآن محافظة كفر الشيخ .

قوة : ذكرها أميلينو باسم ( Poi ) ثم قلبت الباء المثلثة فاء كما قلبت في الفيوم وفاو وغيرهما من المدن المصرية القديمة <sup>(١)</sup> . وردت في معجم <sup>(٢)</sup> البلدان ، قوة بليدة على شاطئ النيل من نواحي مصر قرب رشيد بينها وبين البحر ستة فراسخ وهي ذات أسواق ونخل كثير . ثم أضاف في تفسير معنى كلمة قوة قال ، والقوة العروق التي تصبغ بها الثياب الحر . ووردت في تزهة <sup>(٣)</sup> المشتاق أنها على فرع النيل الغربي وهي مدينة حسنة كثيرة النواكح والحصب بها أسواق وتجارات ولما أثنى قسم بلاد الأرز غرب جعلت مدينة قوة مقراً له .

البرج : كانت هذه القرية تسمى البرلس وهي من الثغور المصرية القديمة التي تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بين دمياط ورشيد وإليها تنسب بحيرة البرلس <sup>(٤)</sup> وكان اسمها القديم ( Paralos ) ومنه اسمها العربي . ويطلق اسم البرلس أيضا على المنطقة الساحلية المعروفة باسم إقليم البرلس الممتد على مداخل البحر الأبيض المتوسط بين بحيرة البرلس التي كانت تسمى قديما بحيرة نسترو وهي التي كان العرب يسمونها نستراوه وكان لها إقليم مفسوب إليها .

وفي العصر الأيوبي أنشأ صلاح الدين بلدة البرلس هذه حصنا على ساحل البحر الأبيض للمحافظة على الشواطئ المصرية من غارات الصليبيين عليها وقد عرف هذا الحصن باسم البرج . ومنذ ذلك الوقت عرفت بلدة البرلس باسم البرج واختفى اسمها الأصلي .

دسوق : من القرى القديمة وردت في قوانين ابن مئق <sup>(٥)</sup> أنها من أعمال الغربية ، وهي قرية كبيرة عامرة من أعمال مصر ، وإليها ينسب سيدى إبراهيم الدسوقي صاحب

(١) القاموس الجغرافي ج ٢ ص ١١٣

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٤٠٦

(٣) الادريسي ص ١٥٩

(٤) القاموس الجغرافي ج ٢ ص ٣٣

(٥) ابن مئق ص ١٤٧

المقام العظيم الكائن بها . وفي سنة ١٨٤١ أنشئ بمديرية الغربية قسم إدارى باسم قسم المنصورة وجعل مقره بلدة دسوق لأنها أكبر بلادها وفي سنة ١٨٩٦ تمى مركز دسوق بدلا من المنصورة .

سخا : قرية قديمة اسمها القبطى ( Sekhōen ) ومنها اسمها العربى . وردت فى كتاب المسالك <sup>(١)</sup> والبلدان ، سخا من كور مصر القديمة وذكرها ابن حوقل <sup>(٢)</sup> سخا ( بالصاد ) مدينة كبيرة ذات حمامات وأسواق وعمل واسع ، وأقليم جليل له عامل بمسكر وجند وغللات وبها الكتان الكثير وزيت الفجل وقمح عظيمة .

وفى قوانين <sup>(٣)</sup> ابن عماد وفى التبعة ، سخا كورة بمصر وقصبتها سخا بأسفل مصر وفى الآن ( القرن الثالث عشر ) قصبة كورة الغربية ودار الوالى بها . وفى تاريخ ١٨١٣ م وردت باسمها الحالى وهى تتبع الآن مركز كفر الشيخ .

\* \* \*

### محافظة الدقهلية

تكون إقليم الدقهلية باسمه الحالى فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان قبل ذلك مقصبا إلى كور صغيرة كل كورة قائمة بذاتها ثم ضم بعضها إلى بعض وسميت الدقهلية نسبة إلى قاعدتها دقهلة . وكان بجوار إقليم الدقهلية من الجهة الشمالية كورة الابوانية ، وهى إقليم المنزلة الحالى وسميت بالابوانية نسبة إلى قاعدتها أبوان التى خربت بسبب طغيان بحيرة المنزلة عليها ، وكانت منطقة صناعية أهله بالسكان ، وقد اختفت هذه الكورة من الأقسام الادارية المصرية فى الروك الناصرى سنة ٧١٥ هـ وضمت بلادها إلى إقليم الدقهلية . وكان بجوار إقليم الدقهلية من الجهة الجنوبية كورة المرتاحية وكانت فى المنطقة التى تشمل اليوم بلاد مركزى المنصورة وأجا وقاعدتها بلدة نوسا الفيظ . وسميت المرتاحية نسبة إلى الطائفة من الجنود المغاربة الذين دخلوا مع جيش جوهر الصقل ، قائد الدولة الفاطمية ، ورغبوا فى الاشتغال بالزراعة فأنزلهم ببلاد تلك الكورة فعرفت بهم منذ ذلك الوقت . وقد ضمت هذه الكورة إلى إقليم الدقهلية الذى كان يشمل مراكز فارسكور ودكرنس والمنزلة فى الروك الناصرى ، وصار الجميع إقليما واحدا باسم كورة المرتاحية والدقهلية وكانت قاعدته

( ١ ) اليعقوبى ص ٧٨ ، ابن خرداذبة ص ٨٦

( ٢ ) ابن حوقل ص

( ٣ ) ابن عماد ص ٥٩ ، التبعة السنية ص ١٦٠



أشمون الرمان إلى آخر دولة المماليك . وفي العصر العثماني أطلق عليها ولاية الدقهلية وقلت  
قاعدتها من أشمون الرمان إلى المنصورة <sup>(١)</sup> . وفي سنة ١٨٣٣ عرفت باسم مديرية الدقهلية  
وفي سنة ١٩٦٠ أصبح اسمها محافظة الدقهلية .

المنزلة : قرية من القرى المصرية القديمة اسمها القبطي ( Mendjili ) ومعناها  
دار الضيافة ، ويقول محمدرمزي <sup>(٢)</sup> ، أن كلمة المنزلة العربية تؤدي إلى شيء من هذا  
المعنى ، وهي بذلك قرية الشبه لفظا ومعنى من الاسم القبطي . وقد ذكرها المقرئ <sup>(٣)</sup>  
عند الكلام عن تطهير الملك الظاهر بيبرس لبحر أشمون الذي يعرف اليوم بالبحر الصغير ،  
باسم منزلة ابن حسون ، ووردت في الصفحة السنية <sup>(٤)</sup> باسم منق راضى وعصفور  
وهي المنزلة من أعمال الدقهلية ، ولا تزال هذه البلدة إلى اليوم تكون من قريتين متجاورتين  
واقعتين على الشاطئ الشرقى للبحر الصغير وبينهما فضاء وتقع المنزلة في نهاية البحر الصغير  
من جهة بحيرة المنزلة ، وكانت تابعة لمركز دكرنس ، وفي سنة ١٩٢٩ أُنشئ مركز ساج  
بمديرية الدقهلية سمي بمركز المنزلة .

أشمون الرمان : اسمها القبطي شمون أرمان ومنه اسمها العربي أشمون الرمان ،  
وقد عرفت في العصر الإسلامي باسم أشمون طنح ، وردت في معجم البلدان <sup>(٥)</sup> ، أشمون  
طنح مدينة في الدقهلية قرب دمياط بمصر ، كذلك وردت في قوانين ابن ممتى وفي الصفحة  
السنية <sup>(٦)</sup> ، أشمون طنح مدينة من أعمال الدقهلية والمراةحية . ولما تكلم عليها ابن دماق <sup>(٧)</sup>  
قال : أشمون طنح وتعرف بأشمون الرمان فصبه كورة الدقهلية وهي مدينة ذات حمامات  
وأسواق وجامع وفنادق . وقد أعيد إليها اسمها القبطي أشمون الرمان في العصر العثماني .

وكانت أشمون الرمان من أشهر المدن المصرية وظلت كذلك حتى أوائل العصر العثماني  
ثم أخذت تضئحل عندما أصبحت المنصورة قاعدة الاقليم ، وأصبحت أشمون الرمان قرية  
تابعة لمركز دكرنس .

( ١ ) القاموس الجغرافى ج ١ ص ٢٦

( ٢ ) القاموس الجغرافى ج ١ ص ٢٠٣

( ٣ ) السلوك ص ١٩٥

( ٤ ) ياقوت ج ١ ص ٢٦٣

( ٥ ) التلحة السنية ص ١٠٠

( ٦ ) ابن الانتصار ص ٢٧

شطأ : من القرى القديمة جاءت في كتب البلدان والمعاجم <sup>(١)</sup> ، شطأ بقرب دمياط على البحيرة يسكنها القبط وإليها ينسب الجنس الشطوى . وجاء في المقرئى <sup>(٢)</sup> ، أن شطأ مدينة عند نيس ودمياط وإليها تنسب الثياب الشطوية . ويقال أنها عرفت بشطأ ابن المأموك ، وكان أبوه خال المقوقس ، وكان وقتها على دمياط ( أى حاكما عليها ) فلما ملكها المسلمون انضم إليهم ثم اشترك معهم في موقعة ضد أهل تيس فاستشهد في سنة ٢١ هـ ودفن حيث هو الآن ( القرن الخامس عشر ) خارج دمياط وبني على قبره ، ولا يزال قبره يزار حتى اليوم ، واليه تنسب هذه القرية ، ويقال له الشيخ شطأ أو سيدى شطأ ، وهى تتبع الآن مركز فارسيكور .

ميت غير : قرية قديمة اسمها الاصلى منية غير ، وردت في نزهة المشتاق <sup>(٣)</sup> ، منية غير قرية لها سوق ومتاجر ودخل وخرج قائم . ووردت في الصفحة السنية <sup>(٤)</sup> ، مبنيا غير وحماد من أعمال الشرقية ، ويقول محمد رمزي ، وأما منية حماد التى ذكرت مع منية غير فقد اشتركت معها بسبب اشتراكهما معاً في السكن والزمام ، وفي الروك الناصرى ألفت منية حماد وأضيفت إلى زمام منية غير ، وفي العصر العثمانى حرفت منية إلى ميت ، فأصبحت ميت غير .

المنصورة : أنشأ هذه المدينة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب من ملوك الدولة الأيوبية سنة ٦١٦ هـ عندما احتل الصليبيون مدينة دمياط ، وقد جعلها ثكنات لمسكره وسماها المنصورة تذكراً بانقصاره على الصليبيين . ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط . وقد صارت المنصورة بعد ذلك مدينة كبيرة بها المساجد والجامعات والفنادق والأسواق .

وأول من كتب من الجغرافيين عن المنصورة هو ياقوت الحموى <sup>(٥)</sup> فقد ذكرها في معجمه الذى كتبه بعد إنشائها بست سنوات ، المنصورة بلدة أنشأها الملك الكامل

( ١ ) ياقوت ج ٥ ص ٢٦٤ ، التحفة السنية ص ٣٠

( ٢ ) المقرئى ج ١ ص ٣٦٤

( ٣ ) الادريسي ص

( ٤ ) التحفة السنية ص

( ٥ ) ياقوت ج ٨ ص ١٧٧

ابن العادل ابن أيوب بين دمياط والقاهرة ، ورايط بها في وجه الأفرنج لما ملكوا دمياط وذلك سنة ٦١٦ هـ . وقال ابن دقاق (١) ، أن المنصورة بناها الملك الكامل بن العادل قبالة جوجر عند مفترق النيل إلى دمياط وأشوم وبينها جزيرة تسمى البشور ، بناها في وجه العدو لما حاصرت الفرنج دمياط ، وهى مدينة بها حمامات وأسواق وفنادق وهى على ضفة النيل الشرقية .

وذكرها القرزى (٢) فقال : أن هذه البلدة على رأس بحر أشوم ، تجاه ناحية طلخا ، بناها الملك الكامل بن الملك العادل سنة ٦١٦ هـ عندما ملك الفرنج مدينة دمياط ، فزل في موضع هذه المدينة وخيم به وبني قصراً لسكنائه وأمر من معه من الأمراء والساكر بالبناء فبني هناك عدة درر ونصبت الأسواق ، وأدار عليها سوراً مما يلي البحر (فرع النيل الشرق) وستره بالآلات الحربية والستائر ، وميت هذه المنزل المدينة المنصورة تقاؤلا بالنصر ، ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط ثم صارت مدينة كبيرة بها المساجد والفنادق والحمامات والأسواق .

وقد شهدت مدينة المنصورة معارك أخرى للصليبيين ، عندما جاءت الحملة الصليبية السابعة لغزو مصر بعد مضى ثلاثين عاماً من انزاهم في دمياط ، فقد جاءت الحملة سنة ١٢٤٩ م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا واستولت على دمياط ، ثم تقابل الجيش الصليبي مع الجيش المصرى في المنصورة حيث دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس انهزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة ، لم تهم لهم بعدها قاتمة ، ولذلك اعتبر المؤرخون معركة المنصورة في سنة ١٢٥٠ م بداية نهاية الصليبيين في الشرق وأنها كانت سبباً في خروجهم من آخر معاقلهم في عكا سنة ١٢٩٢ م . ولا تزال دار ابراهيم بن لقمان كاتم مر السلطان ، التي أسر فيها لويس التاسع باقية بالمنصورة بجوار مسجد الشيخ المواقى ، ويقوم فيها اليوم مهحف تاريخي تخليداً لآثار تلك المعركة .

وجاء في الخطط التوفيقية (٣) . أنه كان بمدينة المنصورة نحو عشرين مسجداً عامرة بالجمعة والجامعة ومن أقدمها مسجد عبدالله المواقى ، ويقال أن الملك الصالح أيوب

(١) ابن دقاق ص ٢٦٥

(٢) القرزى ج ١ ص ٣٧٣

(٣) الخطط التوفيقية ج ١٦ ص ٥١

هو الذى بنى هذا المسجد ، ثم جدد فى العصر العثمانى سنة ١٩٩٨ هـ ، ومن المساجد الهامة أيضا مسجد الشيخ يسن المشهور بصنّيق الأوليا ، وهناك مسجد المحمودية الذى أنشاه محمود بيك أحد أتباع الملك الصالح نجم الدين ، وغيرها من المساجد مما لا يتسع المجال لذكرها ، كما يوجد بها كثير من الزوايا والمزارات .

وينسب إلى المنصورة كثير من العلماء والفقهاء منهم محمد بن محمد بن أحمد بن عمر ابن كميل المنصورى الشافعى ويعرف بابن كميل ولد سنة ٨٢٠ هـ بالمنصورة ، وتولى القضاء ببلده وبمنية سليل ودمياط ونهم الشيخ رمضان بن محمد المنصورى الأحملى المشهور بالهامى ، وكان شاعرا مطبوعا ينشد فى الجموع ، ولد بالمنصورة وتوفى سنة ١١٩١ هـ .

\*\*\*

## محافظة الشرقية

عرف إقليم الشرقية باسمه الحالى فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان قبل ذلك مقسما إلى مد: كور صغيرة كل كورة قائمة بذاتها ، ثم ضم بعضها إلى بعض وسميت الشرقية لوقوعها فى الجهة الشرقية من الوجه البحرى ، وفى سنة ١٨٢٦ قسمت الشرقية إلى مأموريات وكانت كل مأمورية قائمة بذاتها ، وفى سنة ١٨٣٣ ضمت هذه المأموريات بعضها إلى بعض فأصبحت إقلييا واحدا باسم مديرية الشرقية وقاعدتها مدينة الزقازيق<sup>(١)</sup> وفى سنة ١٩٦٠ تغير اسمها إلى محافظة وظلت قاعدتها مدينة الزقازيق .

وعندما جاء عمرو بن العاص لفتح مصر سار على رأس جيش مكون من أربعة آلاف مقاتل حتى محيط رخا فالعريش التى استولى عليها بسهولة على الرغم من أنها كانت مدينة ذات حصون . ويقول بطر أن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير فى معارك بليس حين نشوب الحرب كما قتل من المسلمين عدد ليس بالقليل . وقيل أن ابنة المقوقس كانت فى بليس حين اشتداد المعارك فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكربة ، فكسب بذلك محبة المصريين . وبعد أن أمضى العرب فى بليس قرابة شهر هبطوا منها إلى أم دين لاستكمال الفتح حتى تم لهم ما أرادوا وأصبحت مصر قطرا إسلاميا كان ولا يزال درة فى تاج الدول الإسلامية .

(١) القاموس الجغرافى ج ١ ص ٢٢

وقد سلك عمرو بجيشه بعد استيلائه على الفرما طريق بلدة القنطرة ملتزماً بذلك جانب الصحراء ، وحدث في أثناء الفتح العربي أن كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ما حولها فأصبح الطريق من هناك صعب المسالك ، وكان جيش عمرو كله من الفرسان ولم تكن لديهم وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار ، فسار من القصاصين جنوباً واجتاز نلال وادى الطميلات في موضع قريب من التل الكبير حتى بلغ بلدة بليس .

وقد جاء مصر في العهد الأموي مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية بعد هزيمته أمام خصومه العباسيين في راجية الزاب الأكبر المشهورة . وقد أقام في طريقه فترة في بعض قرى الشرقية ومنها أرسل قوات للاستيلاء على مصر الوسطى والاسكندرية ولكن دهمته جيوش العباسيين بقيادة صالح بن علي في بلدة بوصير بإقليم الفيوم حيث لقي حتفه . وقد أرشد عنه أعراب الشرقية الذين كان قد انتشر في ربوعهم المذهب الشيعي ولم تقف ثورات أعراب الشرقية بزوال الدولة الأموية بل كانت أكثر التهايا في عهد العباسيين ، وعلى أثر وفاة الرشيد ونشوب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون عاد أعراب الشرقية إلى ثورتهم القديمة لأن الأمين قد تحبب إليهم بأن عهد بعض الوظائف الكبرى إلى رؤسائهم فضمن بذلك ولائهم حتى ثاروا في وجهه وإلى مصر من قبل المأمون وتغلبوا عليه وقتلوه ولما استتب الأمر للمأمون عين عبد الله بن طاهر والياً على مصر فاستطاع بحزمه وسداد رأيه أن يقف ثورات المصريين عامة ويبعد الهدوء إلى ربوع القطر بأجمعه .

وفي غضون القرن الثالث الهجري انقطع ما بين مصر ودولة بني العباس من أسباب وانقسام ما كان يربط مصر بمركز الخلافة ببغداد من عرى الروابط وتربع على عرش مصر إذ ذاك أحمد بن طولون الذي أنشأ له في مصر دولة دائمة لها الشام وبعض أقطار أخرى وخشى بأسها الخليفة العباسي .

وفي نهاية الدولة الفاطمية عمت الفوضى والاضطراب ربوع البلاد إثر النزاع بين الوزيرين المصريين شاور وضرغام وامتد النزاع خارج حدود مصر إذ توالى كل منهما — إيماناً في الكيد لخصمه — على أن يستعين بجيوش غير مصرية للانتقام والفتك من منافسه فطلب ضرغام من الصليبيين الحضور إلى مصر ليضمنوا له الوزارة دون غيره شاور الذي استعان بدعوره بسلطان حلب ( نور الدين ) لنفس الأمر ، فما كان من نور الدين إلا أن أرسل جيوشه بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي فالتقى بجيوش ضرغام

من المصريين عند بليس حيث انتصر شركوه وهبط بعد ذلك إلى القسطنطينية . ولم يلبث أن قتل ضرغام وفاز شاوور غير أنه تنكر لحلفائه وناصره ، ومد يده إلى الصليبيين واخذ منهم أعوانا له ضد شركوه فقدم ملك بيت المقدس إلى بليس وضيّق الحناق على جيش نور الدين ولم يرفع الحصار عن المدينة إلا بعد أن جاءته الأنباء بأن نور الدين استولى على أملاك الصليبيين في الشام عند ذلك أمرع ( أماريك ) ملك الفرنجة في العودة .

### العرب في الشرقية

زعم كثير من المستشرقين أن العروبة في وادي النيل بشطريه لا يتجاوز تاريخها عصر الفتح الاسلامي الأولي ، ولو درس هؤلاء الهجرات الآتية من طريق سيناء إلى مصر الفرعونية دراسةً عابرةً لكفاهم ذلك في دحض هذا الزعم على أنه من الثابت والمتفق عليه اليوم أن موجات الساميين قد انبعثت منذ فجر التاريخ من جزيرة العرب إلى البلاد التي تدخل اليوم في نطاق الوطن العربي الأكبر ، بل إلى بلاد أخرى غيرها ، وكل ما في الأمر أن الذي أطلق على هذه الشعوب كلمة ( الساميين ) هو عالم نمساوي في القرن الثامن عشر ، اقتداء بما ورد في بعض أسفار التوراة من أن هذه الشعوب تنسب إلى سام بن نوح عليه السلام .

ومن بين هذه الشعوب العرب المقيمون في جزيرتهم ، وجزيرة العرب ، هي المهد الأول للساميين أنفسهم ، فلا معنى لأن نفرق في الاصطلاح بين العرب المقيمين في الجزيرة وبين العرب النازحين منها . وغاية ما قضيه من هذا الاصطلاح ، أن الساميين عرب سموا كذلك نسبة إلى جدهم الأول ، أما لفظ العرب ، فهو في الأصل نسبة إلى ( العربية ) أي الصحراء ، أو مكان يقع في الشمال الغربي من جزيرة العرب كان يسمى بهذا الاسم <sup>(١)</sup> .

وفي مدة فتح عمرو بن العاص لمصر لم تكن قناة السويس موجودة ، وكان النيل يغمر البلاد مدة الفيضان ، فإذا انحسرت مياهه تركت مستنقعات وأراضي منقطعة بالكلية والحشائش صالحة لرعي الأغنام في معظم أراضي الشرقية ، وبخاصة الشمالية منها والجوارية للصحراء مما شجع القبائل العربية بعد الفتح على الرحيل إليها لقربها منهم فأخذوا يتنقلون فيها ولم يحضروا فأرقا بينها وبين صحارى بلادهم .

(١) البيان والاعراب ص ٣٧

وقد استوطن كثير من العرب بعد الفتح في الجهات الشرقية من مصر ، واستعمروا بها حتى أواخر الدولة العباسية حيث سادت القوضى بالبلاد العربية وحل الفسطاط بمصر ، فوحد بعض القبائل من الشرقية ومن مصر كلها متجهين ناحية الغرب وبخاصة إلى طرابلس ، ولما عاد الأمن والرخاء إلى مصر في عهد الفاطميين عاد بعض هذه القبائل إلى مصر ، ومن ذلك العهد سمي العرب الذين لم يرحلوا إلى الغرب عرب الشرق بينما سمي من عاد منهم إلى مصر عرب الغرب .

لبت حال العرب على الحال التي بينها حتى أحضر ابن الحبحاب<sup>(١)</sup> عامل الخراج في العصر الأموي مائة بيت من قيس ، وأقطعهم أرضا في بليس وزودهم بالخيول والإبل وجعل مهنهم حراسة القوافل بين ساحل البحر الأحمر وداخل البلاد ، فأفادوا من ذلك فائدة كبيرة الأمر الذي جذب بيوتا أخرى من قيس لتلحق بهم .

وعند تولى الدولة العباسية زمام الخلافة كافأ عبد الله السفاح الخليفة العباسي عرب بني هلال ، فمنحهم منطقة بليس ، وذلك لمناصرتهم له وانضمامهم لهصفوه عند محاربتة بني أمية في موقعة الزاب .

ولما ضعفت الدولة الفاطمية ثار عليها المعز بن باديس زعيم بربر صنهاجة ، فأرسل الخليفة المستنصر سنة ١٠٤٩ م إلى بني هلال وسلمهم أرض المغرب ، وكان غرضه من ذلك تخفيف وطأة الفسطاط الذي حل بالبلاد ، كما كان يبغي من وراء ذلك تأديب النوار المتذاربة لخروجهم عن طاعته ، فهاجر كثير من عرب الشرقية إلى شمال أفريقيا تحت رياسة بني هلال ، تقاومهم ابن باديس ولكن مقاومته باءت بالفشل ، وتوغل العرب في طرابلس وتونس وتظاهروا مع القبائل البربرية .

ولما فتح صلاح الدين الشام انتقلت طائفة من قبيلة ثعلبة وتزلوا بالشرقية وكان فيهم من ذاع صيته وأمر ( باليوق والقلم ) أي أصبحت له الكلمة في الجيش والديوان ) . وفي عهد المماليك قام عرب الشرقية بهزات كثيرة قتل فيها عدد كثير منهم سنة ١٢٥٤ م أيام سلطنة المعز أيك التركاني ، إذ أن العرب ثاروا بزعماء حصن الدولة العربي على المماليك وذلك لمواالاهم الأيوبيين ورغبهم في الثأر لمقتل توران شاه الذي قتل المماليك

( ١ ) الدولة والقضاء ص ١٧ ، لتنجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٣

بعد موقعة المتصورة ، غير أن العرب هزموا عند الصحام بالماليك ومنذ ذلك الوقت تفرق العربان وخمدت جلوتهم .

وفي عهد الحكم العثاني قام عرب الشرقية وغيرهم بهورات كثيرة بقيادة ابن بقر وفي عهد محمد علي سالم عرب الشرقية في حملته على بلاد العرب ، إذ قدموا له الخيل وحربوا الجند على طريقة الكر والفر المعهودة في الحروب عند الوهابيين ، وكانوا في ذلك العهد يقومون أيضا بخفارة الدروب وطرق القوافل ، ويحملون البريد والمعدات وكانوا خبراء في معرفة الطرق والمسالك والدروب . وعندما قامت ثورة عرابي اندفع العرب وانضموا إلى جانب الثوار وذلك لميلهم بسليقتهم للحرب فقاتلوا في كفر الدوار وعند القتال في التل الكبير .

ومن أشهر قبائل العرب في الشرقية الهنادى وقبيلة سمالوى والطبيلات والعبادة والساعة والصوالح والحراي .

الزقازيق : الزقازيق من المدن الحديثة الكبيرة في مصر ، تقع على بحر موسى وكانت قاعدة مديرية الشرقية وهي الآن عاصمة محافظة الشرقية . وجاء في المخطط التوفيقية (١) أن السبب في نشأتها يرجع إلى إنشاء كثير من الترع والقناطر وتعميم طرق الري والصرف في مديرية الشرقية في القرن التاسع عشر ، وذلك لإصلاح أراضيها وتوسيع دائرة العمران فيها لزيادة إيرادات الحكومة من ضرائب الأقطان ، ويقول على مبارك : « لما بدأ العمل لإقامة قناطر محل سد بحر موسى وحضر العمال والمستخدمون أحدثوا بجوارها عششا من الطين والأخصاص على جانبي بحر موسى لإقامتهم وتبعهم في ذلك الباعة ونحوها وتكاثر الناس شيئا فشيئا وازدادت الأبنية الخفيفة وبعد الانتهاء من عمل القناطر سنة ١٢٤٨ ١٨٣٢ هـ م بقيت تلك المنازل مسكونة وازداد العمران بها . وأقامت الدولة مسجداً مبنى خاصاً بها وأخذت المدينة في الاتساع والعمران حتى أن الدولة جعلتها قاعدة للمديرية بدلا من مدينة بلبيس .

وعلى الرغم من أن مدينة الزقازيق تعد من المدن المصرية الحديثة إلا أنها نشأت في مناطق وأماكن عريقة في القدم فهي الجنوب الشرقى للزقازيق يوجد تل قديم يعرف باسم

(١) المخطط التوفيقية ج ١١ ص ٢٣



تل بسلطة ، يبلغ متوسط ارتفاعه نحو ٢٥ متراً ومساحته نحو ستائة فدان وهو غنى بما عثر عليه وما يزال يعثر من آثار ترجع إلى العصر الفرعوني والبطلمي والروماني . وكان هذا التل يعرف عند الفراعنة باسم ( بيرياست ) حيث أقاموا عليه مدينة كانت من أكبر مدنها فقد اتخذها بعض الحكام قاعدة لهم ومقرأ لحكمهم .

أما عن سبب تسمية المدينة باسم الزقازيق فقد جاء في القاموس الجغرافي<sup>(١)</sup> أن جماعة من العمال الذين قاموا ببناء قناطر بحر موسى كانوا من كفر الزقازيق الواقع في شمال مكان القناطر وكان من بينهم رجل مقدم اسمه الشيخ زقزوق اختاره الباشمهندس رئيساً للعمال ، وقد عرف المكان الذي أقيمت فيه مساكن العمال باسم نزلة الزقازيق نسبة إلى أفراد عائلة زقزوق المذكور من جهة . وإلى كفر الزقازيق موطنهم الأصلي بالقرب من القناطر ، ولما تم بناء القناطر سنة ١٨٣٢ أصبح من الضروري تسميتها ، فاختير لها اسم قناطر الزقازيق نسبة إلى نزلة الزقازيق . ويضيف محمد رمزي وأما القول بأنها سميت الزقازيق نسبة إلى نوع من السمك يعرف بالزقزوق وجمعه الزقازيق كان يخرجها الصيادون من قناطرها أو من مستنقع بالقرب منها ، فيرجع إلى الصدفة من وجود هذا النوع من السمك الذي كان ولا يزال يصاد بكثرة من خلف القناطر السابق ذكرها كما يصاد من خلف أغلب القناطر بالوجه البحري ، فظن بعض الناس أن الاسم نسبة إلى السمك المذكور ثم انتشرت هذه الرواية البعيدة عن الصواب . وكانت مدينة الزقازيق منذ نشأتها تابعة من الناحية الإدارية إلى مركز القنايات ، وفي سنة ١٨٩٠ فصلت عنها وأصبحت مأمورية قائمة بذاتها وفي سنة ١٨٩٦ نقل المركز من القنايات إلى الزقازيق لتوسطها بين بلاد المركز ثم صارت كما قدمنا عاصمة الشرقية .

التل الكبير : عرفت هذه الناحية بهذا الاسم لوقوعها فوق التل المنخفض من أطلال مدينة بيتوم القديمة ، وكان يوجد ناحية قديمة تسمى وادي السدير وردت في التحفة<sup>(٢)</sup> وفي الانتصار وفي المخطط المقرزية ، أنها من أعمال الشرقية . وفي تاريخ سنة ١٥٣٣ م ورد هذا الوادي باسم وادي العباسة لما اخته لأراضي ناحية العباسة ، ويقال له اليوم وادي الطويلات نسبة إلى جماعة من العرب نزلوا به يقال لهم الطويلات .

(١) محمد رمزي ج ١ ص ٨٩

(٢) التحفة السنية ص ١٧ ، ابن دقماق ص ١٥

وفي تاريخ ١٨٢٤ م أُلغى اسم وادى العباسية وأضيف إلى ناحية العباسية ، وكان الوادى المذكور يشمل على قريتين قديمتين هما التل الكبير هذه والظاهرية وفي سنة ١٨٧٠ م قسمت منطقة التل الكبير من الوجهة الادارية إلى قسمين التل الكبير والشرق ، وفي سنة ١٨٩٢ م ضمتا إلى بعضها وصارتا ناحية واحدة إدارية باسم الشرق ، وفي سنة ١٩٣٢ تغير اسم الشرق إلى التل الكبير لشهرتها ، حتى أن المعركة التي وقعت بين المصريين والانجليز سنة ١٨٨٢ عرفت به . وكانت هذه الناحية تابعة لمركز الزقازيق فلما اتى مركز أبو حماد سنة ١٩٤٠ ألحقت به لقربها منه .

العباسية : من القرى القديمة وردت في معجم البلدان <sup>(١)</sup> : العباسية هي بلدة من الديار المصرية أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام ، ذات نخل طوال . وسميت بعباسية نسبة إلى بنت أحمد بن طولون ، لأن خمارويه بن أحمد بن طولون لما زوج ابنته فطر الندى من الخليفة المستنصر العباسي ، وخرج بها من مصر إلى العراق عملت أخيه عباسية في هذا الموضع قصراً وأحكمت بناءه وبرزت إليه لوداع بنت أخيها ، فلما سافرت فطر الندى عبر ذلك الموضع بالقفر وصار بلداً لأنه في أول أودية مصر من جهة الشام . كذلك وردت هذه القصة في تاريخ الملوك للطبري في حوادث سنة ٢٨٢ هـ سنة ٩٠١ م . ومن هذه الرواية يفهم أن مدينة العباسية لم يكن لها وجود قبل ٢٨٢ هـ .

وذكر المقرئ في خطه <sup>(٢)</sup> رواية تخالف الرواية السابقة قال : أن هذه البلدة ولد بها العباس بن أحمد بن طولون ولذلك سماه أبوه العباس ، أى أن بلدة العباسية كانت موجودة في زمن أحمد بن طولون ، ولكن أحمد بن طولون توفي سنة ٢٧٠ هـ مما يجعل رواية المقرئ غير صحيحة . ووردت العباسية في كتاب أحسن التقاسيم للقدسي هي قصة الريف عامرة طيبة رفعه سرية شرب أهلها من النيل في موضع الريف والحصب ، وبنياهم أفرج من بنيان مصر ولها تجارات تحمل إليها وجامع حسن من الأجرام . كذلك وردت في تاريخ ١٨٢٤ م ولا تزال معروفة باسم العباسية من يوم إنشائها حتى الآن ، وتبع الآن مركز أبو حماد .

(١) ياقوت ج ٦ ص ١٠٦

(٢) المقرئ ج ١ ص ٣٧٤

**بليس :** قاعدة مركز بليس ، وهى من المدن القديمة تقع بين عين شمس وبين بسطة في حدود الصحراء الشرقية ووردت في المصادر العربية باسم بليس ، وجاءت في كتب معاجم البلدان<sup>(١)</sup> بليس مدينة مليحة وهى قصبة الحوف (أى قاعدة إقليم الشرقية) وبها والى الحرب وبها جامع ومدارس وأسواق وفنادق وبساتين وبها نخل كثير ويمر بها نهر من النيل أيام زيادته وهى مسوية . ويضيف المقرئى<sup>(٢)</sup> في خططه « أن بليس سميت في التوراة أرض جاشان » وكانت بليس قاعدة الحوف الشرقى في أوائل العصر الاسلامى ، ثم قاعدة الأعمال الشرقية من العصر الفاطمى حتى نهاية العصر المملوكى ، ثم قاعدة ولاية الشرقية في سنة ١٨٣٢ م حين قل ديوان المديرية إلى مدينة بالوزايق ، وبذلك أصبحت بليس قاعدة لقسم بليس وفي سنة ١٨٧١ م سمي مركز بليس .

وينسب إلى محافظة الشرقية كثير من العلماء والفقهاء قديما وحديثا ، ومن أشهر المحدثين الشيخ عبد الله الشرقاوى ، ورد في الجبرى أنه ولد سنة ١١٥٠ ( القرن الثامن عشر الميلادى ) ، في قرية ( الطويلة ) من إقليم الشرقية ( تتبع مركز فانوس الآن ) ولذا لقب بالشرقاوى ، وقد أظهر من الكفاية والنبوغ ما أعله لتولى منصب مشيخة الأزهر سنة ١١٠٨ هـ وكانت له مواقف مذكورة مشكورة ضد الظلم في العصر العثمانى كما كانت له مواقف خالدة مع الحملة الفرنسية .

ومن أبناء محافظة الشرقية الذين تفخر بآثارهم العلمية مصر الحديثة ، محمود الفلكى الذى ولد ببلدة الشبانان بالشرقية سنة ١٨١٥ م ومن أهم مصنفاته التقويم العربى الذى وضعه سنة ١٨٤٦ وطبع بمطبعة بولاق ، ووضع رسالة في المكايل والمقاييس المصرية . ومن آثاره العلمية الجليلية أن وضع مدفع الظهر في خط الزوال بالقلعة ، وتوفى سنة ١٨٨٥ م بالقاهرة ومن أبناء الشرقية الأبطال أحمد عرابى الذى ولد سنة ١٨٤١ م بقرية ( هريه رزنة ) من أعمال مركز الزقايق . تلقى علومه بالأزهر ، ثم انقطع عنه وبقى في قريته يرثى القرآن ، ثم التحق بالخدمة العسكرية ، وتزعج حركات الجيش ضد الحديرو توفيق ، ثم قاد الجيش ضد الغزو البريطانى سنة ١٨٨٢ م وهى عرابى ورفاقه إلى جزيرة سيلان ، حيث قضى نحو ١٩ سنة حتى صدر العفو عنه سنة ١٩٠١ ، وتوفى سنة ١٩١١ ،

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ١٦٢ ، المقدسى ص ١٩٦

(٢) المقرئى ج ١ ص ٢٩٦

وقد وضع قبل وفاته مذكرات عن الثورة العرابية سماها (كشف الستار عن سر الأسرار) ضمنها وقائع الحرية ومشكلات السياسة في أيامه، ومن أبناء الشرقية الفاهين الذين كان لهم نصيب السبق في ميدان المال والاقتصاد طلعت حرب الذي ولد في (ميت أبو علي) من قرى الزقازيق، وتخرج في كلية الحقوق سنة ١٨٨٩ م واشتغل في قلم قضايا الدائرة السنية مترجماً، وأخذ يترقى في قلم القضايا حتى ظهرت طلائع الأزمة الاقتصادية سنة ١٩٠٦، فأسس سنة ١٩٠٨ شركة مالية مصرية بمحة هي شركة التعاون المالي وفي ٧ مايو سنة ١٩٢٠ افتتح بنك مصر، وسار البنك منذ هذا التاريخ مريان الشريان في الجسد بفضل روح طلعت الوثابة يؤازره تشجيع المصريين.

\*\*\*

### محافظة البحيرة

هي من الأقسام الإدارية التي امتجدت في العصر الاسلامي باسم كورة البحيرة وفي عهد الدولة الفاطمية أضيف إليها كور أخرى مجاورة لها، فصارت إقليماً كبيراً باسم البحيرة، وفي سنة ٧١٥ هـ أطلق عليها اسم أعمال البحيرة، وفي سنة ٩٣٣ هـ = سنة ١٥٢٧ م سميت ولاية البحيرة وفي سنة ١٨٣٣ تغير اسم الولاية إلى مديرية وفي سنة ١٩٦ أصبحت تعرف باسم محافظة البحيرة وناعلتها دمنهور.

دمنهور : قاعدة محافظة البحيرة، وهي من المدن المصرية القديمة، ذكرها جوتييه في قاموسه فقال، ان اسمها المصري دمنهور Deomn Hor، أي مدينة الإله هور واحتفظ القبط بالاسم المصري ومنه اسمها العربي الحالي. وردت في تقويم البلدان<sup>(١)</sup>، أن دمنهور بلدة بينها وبين الاسكندرية يوم واحد في طريق مصر، وكانت بها وقعة بين عبيد بن السرى ابن الحكم (والى مصر من قبل الخليفة المأمون سنة ٢١١ هـ) وبين خالد بن يزيد بن مزيد. وجاء في الانتصار لابن دقاق<sup>(٢)</sup> : دمنهور مدينة قديمة عامرة وبها جامع ومدارس وحمامات وفنادق وقبائر وغير ذلك، وهي قاعدة البحيرة. وبها مقام نائب الوجه البحرى، وهي في الجنوب الشرقى من الاسكندرية وبينها مرحلة (أى سفر يوم) وتعرف بدمنهور المدينة. وجاء ذكرها في قوانين ابن عماد<sup>(٣)</sup> وفي النسخة دمنهور الوحش من أعمال البحيرة.

(١) تقويم البلدان ص ١٠٦

(٢) ابن دقاق ص ٨٥

(٣) ابن عماد ص ٩٦

وجاء في الخطط التوفيقية أنه أضيف إلى اسمها كلمة الوحش لأنه كان يقربها محل كان يعرف بذلك . وجاء في كتاب السلوك<sup>(١)</sup> أنه حدث في زلزال سنة ٧٢١ هـ (١٣٢٠ م) : أن بطاقة وقت من وإلى البحيرة بأن كنيسة في مدينة دمنهور قد هدمنا والناس في صلاة الجمعة ، ويضيف ان السلطان بقوق جدد أسوار دمنهور في سنة ٧٩٢ هـ . وكانت دمنهور ذات وحدة مالية ولها زمام خاص ، إلا أنه لم يكن متصلا بسكنها ، بل يفصلها عنه أراضي ناحية شبرا الدمنهورية ، ولذلك فصل في تاريخ ١٢٧٣ هـ زمام دمنهور عنها ، وتكون منه ومن أراضي نواحى أخرى — ناحية جديدة — عرفت باسم أبعادية دمنهور ، فأصبحت دمنهور مقصورة على سكنها القائم على قطعة أرض ، يلاق عندها زمام نواحى شبرا الدمنهورية وسكنيده وقرطسا وقرها وطاموس ومنشية غربال . وفي سنة ١٩٣٥ أصبحت دمنهور مدينة قائمة بذاتها ، على أرض خاصة بها فصلت من زمام النواحى الست السابقة الذكر<sup>(٢)</sup>.

وفي مدينة دمنهور دفن الشيخ عبد الرحمن الحالى ، وكان يقال له الدمنهورى ، لأنه تولى قضاءها زمنا طويلا ، وجاءت ترجمته في الضوء اللامع للسخاوى أنه ولد بحلب سنة تسعة وخمسين وسبع مائة هـ ، حفظ القرآن وتفق بحلب ثم بالقاهرة ، ثم ولى قضاء دمنهور الوحش زمنا ، وكان فاضلا كيسا .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مدينة دمنهور كانت قاعدة لإقليم البحيرة من العهد الفرعونى حتى اليوم ، فكانت قاعدة لمركز دمنهور من سنة ١٨٢٦ وقاعدة للمأمورية دمنهور من سنة ١٩١٢ وقاعدة للمديرية ثم للمحافظة من سنة ١٩٦٠

إيثاى البارود : من القرى المصرية القديمة ، ذكرها اميلينو في جغرافيته فقال : أن اسمها القبطى إيتى وهى إيساى ووردت في قوانين ابن ممتى<sup>(٣)</sup> إيتيه من أعمال خوف رمسيس ، وجاءت في التحفة السنية ، أنها من أعمال البحيرة . والظاهر أنه أنشئ بها في العصر العثمانى معمل للبارود عرفت باسم إيتيه باروت ، وباروت كلمة تركية معناها البارود ، وفي تاريخ ١٢٢٨ هـ وردت معربة باسم إيثاى البارود ، وهو اسمها الحالى . ويطلقها العامة تيه البارود<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرزى ص ١١٥

(٢) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ٢٨٤

(٣) ابن ممتى ص ١٧

(٤) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ٢٣

وفي سنة ١٨٨٤ قتل المركز من بلدة الدلتجات إلى إيتاي هذه لوقوعها على السكة الحديدية ، وذلك أصبحت إيتاي قاعدة للمركز مع بقائه باسم الدلتجات ، وفي سنة ١٨٩٦ مهي مركز إيتاي البارود .

رشيد : بنى من الثغور المصرية القديمة ، وردت في جغرافية استرابون باسم Bolbitine وأنها تقع على مصب فرع بوليتين . وذكرها اميلينو في جغرافيته فقال أن اسمها القبطى Raschit ومنه اسمها العربى رشيد ، ويقال أن رشيد كانت تقع إلى الشمال من موقعها الحالى ، الذى نقلت إليه في سنة ٢٥٦ هـ في عهد أحمد بن طولون .

وجاء في كتاب المسالك لابن حوقل (١) ، أنها مدينة على النيل فرية من مصبه في البحر المالح من فوهة تعرف بالاشتوم ، وهى المدخل من البحر ، وبها أسواق صالحة وحمامات ونخيل كثير وارتفاع (إبراد) واسع . ووردت في نزهة المشتاق (٢) ، رشيد مدينة متحضرة بها سوق ونجار وفعله ، ولها مزارع وغلات ، وحظنة وشعير وبها بقول حسنة كثيرة وبها نخيل كثير . ووردت في معجم البلدان (٣) : رشيد بليدة على البحر والنيل قرب الاسكندرية بمصر ، وفي الانصار (٤) ، ثغر رشيد المحروس من الأعمال الاستراتيجية عند مجمع البحرين (يعنى بذلك النيل والبحر الأبيض) وبها جامع وحمام وأمير مركز ، وبها كوم الأفراح وبأعلاه منار يرى منه مراكب الفرنج القادمة ، وهى على شاطئ النيل ، وأهلها كلهم موابطون وعامتهم صيادون في السمك والطير .

وبما يذكر بالفخر لأهل هذا الثغر انتصارهم على الحملة الانجليزية التى جاءت سنة ١٨٠٧ م . وكانت مدينة رشيد محافظة من محافظات مصر القديمة وفي سنة ١٨٩٥ ألغيت محافظة رشيد وجعلت مركزا ثانيا من مراكز مديرية البحيرة ، وممنذ سنة ١٨٩٦ أصبحت رشيد قاعدة مركز رشيد .

وينسب إلى رشيد على بن ابراهيم الحباط الرشيدى الشافعى الشيخ الامام الحجة الولي المصنف في علوم الدين واللغة ، ولد برشيد وبها نشأ وحفظ القرآن وتصلر للتدريس بها وتوفى سنة ١٠٩٤ هـ ودفن بها .

- 
- (١) ابن حوقل ص ٢٣٨  
(٢) الاديبى ص ١٤٧  
(٣) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٢  
(٤) ابن دقاق ص ٥٨

وادی التطرون : وتمتاز الصحراء التي تقع إلى الغرب من محافظة البحيرة باحتوائها على كثير من الكنائس والأديار وخاصة المنطقة التي تعرف باسم وادی التطرون . ويعرف هذا الوادی أيضا بالأسماء الآتية ( وادی هيب ) و ( برية الأسقيط ) ومعناها برية التسك ( و برية شبات ) وهي محرفة من اللغة المصرية القديمة ( شبيت ) ومعناها میزان القلوب <sup>(١)</sup> . وقد ذكر استرابون الذي زار مصر في القرن الأول الميلادی أن هذا الوادی كان يقال له إقليم التطرون ، وأنه يوجد به منبعان يستخرج منهما مقادير كبيرة من ملح البارود ( التطرون ) .

وكان هذا الوادی فيما بين القرنين الرابع والسابع الميلادی ، عدد عظیم من الأديار وكان بعضها مخصصاً لإقامة الرهبان الأجانب مثل الروم ، والآرمن والسيريان والأجاش ، ولا يزال بوادی التطرون حتى الآن ٣٤ ديراً ، أربعة منها عامرة والباقي خرب ، وإن كانت آثارها باقية . أما الأربعة القائمة الآن بوادی التطرون فهي دير اليرموس ، سمي بهذا الاسم لأن القديسين مكسيموس ودمايوس ، إبنی ملك الروم ، كانا أول من زهب به . ويرجع تاريخ هذا الدير إلى أواخر القرن الرابع الميلادی . وتبلغ مساحته ١٠٧٠٠ متر مربع ، وهو يقع على مسيرة ساعة غرب ملاحات وادی التطرون في البقعة التي تدعى تريا أو جبل بروتوج الذي ورد ذكره في سير الشهداء <sup>(٢)</sup> .

ودير السيدة العذراء المعروف بدير السريان ، أنشئ كغيره من أديار برية شبات في القرن الرابع الميلادی ، ثم هدم وأعيد بناؤه وأدخلت عليه تعديلات في أزمنة مختلفة . وتبلغ مساحته ٧٠٠٠ متر مربع ويقع إلى الجنوب من دير اليرموس وقد اعتنق السريان المسيحية على يد بطرس الرسول واتحدوا مع الأقباط في العقيدة ويعتبر دير السريان من أهم أديار وادی التطرون من الوجهة الأثرية والفنية ، ومن المرجح أنه كان يوجد بهذا الدير عند تأسيسه في القرن الرابع الميلادی جماعة من الرهبان السريان ، ولذا سمي باسمهم .

ودير أنبا بشوى وينسب إلى بشوى مؤسس الدير الأحمر بالقرب من سوهاج . أسسه أتباعه في القرن الرابع ، وقد أعيد بناؤه في عهد الأنبا يعقوب سنة ٨٢٠ م .

(١) أبو صالح الأرميني ص ٦٨

(٢) للقرنيزي ج ٤ ص ٤٠٩

ورم سنة ١٣١٩ وكان آخر تجديد له منذ ١٧٠ سنة . وتبلغ مساحته ١١٣٠٠ متر مربع وهو أكبر أديرة وادى التطرون .

ويقع دير أبو مقار إلى الجنوب الغربى من دير أنبا بشوى وتبلغ مساحته ٨٠٠٠ متر مربع ، أنشأه القديس مكار يوس ( أبو مقار ) الذى عاش فى القرن الرابع . ومما يذكر عن هذا الدير ، أنه ترجم به الكتب المقدسة من اليونانية إلى القبطية ومن القبطية إلى الحبشية وقد اشتهر رهبانه بالبحر فى العلوم اللاهوتية .

\*\*\*

## محافظة مطروح

كانت مرسى مطروح تتبع مصابة الحدود التى أنشئت فى سنة ١٩١٧ على أثر الاضطرابات التى سادت الصحراء فى خلال الحرب العالمية الأولى ( ١٩١٤ — ١٩١٨م ) وكان نظام هذه المصلحة يهدف إلى توحيد الاختصاصات الحكومية على اختلافها فى إدارة واحدة فأصبحت جميعها مركزة فى يد المصلحة . وفى سنة ١٩٤٦م غير اسم المصلحة وأصبحت تعرف باسم سلاح الحدود الملكى وقد تولى بدوره جميع السلطات الحكومية ، ثم تقرر فى هذه السنة تعميم القضاء المصرى الجارى العمل به فى وادى النيل وتطبيقه فى أنحاء الصحراء المصرية .

ثم أطلق على المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى واحة سيوه والفراة والبحرية جنوبا اسم محافظة الصحراء الغربية وكانت مرسى مطروح عاصمة لها ، وفى سنة ١٩٦٠ انفصلت عنها الواحات البحرية والفراة وأصبحت تعرف باسم محافظة مطروح مع بقاء مرسى مطروح قاعدة لها .

ومرسى مطروح بلدة قديمة ، كان لها شأن كبير فى عهد البطالمة والرومان ، واشتهرت بتصدير الشعير والاسفنج والبلح والأغنام ، كما كانت مصيفا للملوك والأمراء منذ العصر البطلمى ، ومطروح ميناء صغير يحوى منخلها سلسلة من الصخور الطبيعية ، وفى وسط هذه الصخور منخل صغير يسمح بمرور المراكب الصغيرة الحجم . وحول الميناء عدد من البحيرات يفصل بينها حاجز رملى بسيط لا يلبث أن ينطيه البحر أحيانا فيبداً هذه البحيرات بمياهه فتصبح وكأنها بحيرة واحدة . وتحد هذه البحيرات من الجهة البحرية تلال من الرمال المتحجرة تحدد شرقا وغربا لمسافات طويلة فتصحب هذه البحيرات عن ساحل البحر



وتجعلها كملجأ أمين للسفن وقوارب الصيد . وعلى راية مرتفعة في مطروح يوجد بقايا حصن أنرى قديم ند يكون من العصر الرومانى .

والقسم الساحلى من المحافظة ليس له اسم معين ، وهو يمتد من الاسكندرية شرقاً إلى السلوم غرباً ، فقد سماه القرطاجيون باسم ساحل ( ليبيا ) وورد ذكره فى كتاب هيرودوت . وكان هذا الساحل طريق القوافل والغزاة منذ العصر الرومانى ، كما اتخذته العرب عند غزوهم الأندلس ثم طرقه الفاطميون عند فتحهم لمصر وكانت هى المرة الوحيدة التى نجحت فيها غزوة من الغرب فى تاريخ مصر . وتخترق هذا الطريق عدة وديان ، ويمتاز باحتوائه على عدة آبار ، ولذلك كثر استعمال العربان له حتى الآن لسهولة العبور على الماء والحطايا به ( الحطايا واحات صغيرة متلاصقة ) كما يوجد به كثير من الزوايا التابعة للطريقة السنوسية . وقد أسس هذه الطريقة محمد بن على السنوسى المعروف بالسنوسى الكبير فى سنة ١١٠١ هـ <sup>(١)</sup> ، ونشر مبادئه بين البدو والقبائل ، وجعل منهم قوة روحية وعاملا على بث السلام والأخاء بينهم . وانتشرت الزوايا السنوسية فى الصحراء المصرية حتى بلغت العشرين .

ويسكن مطروح قبائل عربية من أولاد على وجماعة كبيرة من المهاجرين من طرابلس وبعض المغاربة وجالية يونانية . كما يقيم بها جماعة من السنوسية . وهم يتمتعون بمركز دنى محترم وبقدرة واحترام الأهلىن . وتعتبر مطروح أكبر مركز تجارى بالمحافظة لسهولة مواصلاتها . ووجود طريق للقوافل بينها وبين سيوه .

برج العرب : أنشئت هذه المدينة عقب العمليات الحربية التى قامت بين القوات البريطانية وبين السنوسيين سنة ١٩١٦ م ، وانهت بطرد السنوسيين من الصحراء الغربية . ولما كان السنوسيون هم الذين أثاروا هذه الحرب ، فقد قرر هدم الزوايا السنوسية وتشتيت رجالها حتى تقف الدعوة السنوسية بين العربان ، وكان من بين هذه الزوايا زاوية مهمة مشهورة هدمت وأقيم مكانها بلدة « برج العرب » . ولما احتقرت الأحوال واستلب الأمن بالصحراء عادت العربان إلى عجلاتها المهجورة واستأنفوا حياتهم العادية كرمى الماشية وزراعة الشعير ، وغزل الصوف ، وصناعة الأكلية .

(١) المرابطون للدكتور حسن محمود ص ١٣٨

السلوم : يقول المقرئى <sup>(١)</sup> « أن الساحل الممتد بين الاسكندرية وأرض انطابوليس (ويحتمل انطينوبوليس) وهى برقة تشتمل على مائة وأربع وعشرين قرية غير الكفور . وأن مدينة (مراقية) كورة من كور مصر الغربية وهى آخر حد لها ، وفى آخر أرض (مراقية) توجد أرض (انطينوبوليس) وهى برقة وبعدها عن مدينة (سنترية) (سيوه) نحو بردين » . واعتمادا على الأوصاف التى ذكرها المقرئى نرجح أن تكون مدينة (مراقية) التى ذكرها هى مدينة السلوم . وبمدينة السلوم عدة مسارب ( يطلق اسم مسرب عادة فى الصحراء على أحسن الطرق وأشهرها ) تصلها بعدة مدن بالصحراء شرقا وغربا ، كما توجد بها عدة مدقات (دروب متعرجة) .

\*\*\*

### واحة سيوه

عرفت سيوه منذ أنتم المصور باسم جنة الصحراء ، فقد قصدوها الملوك والفرزة الفاعنون طلبا للراحة ، والاستجمام الجسدى والروحى ، ويؤيد هذا القول ما تركوه من معابد وآثار . ويرجع تاريخ اتصال سيوه بالعالم إلى سنة ١٥٠٠ ق م . وبلغت شأوا عظيما فى عهد رمسيس الثالث . وظلت خاضعة للحكم المصرى حتى سنة ٥٥٠ ق م . وفى سنة ٥٢٥ ق م حاول فيز ملك الفرس غزوها فسير إليها جيشان من جنوده وفرسانه الأقوياء ، وكان غرضه من إرسال هذا الجيش هو تحطيم معبد آمون ، إلا أن الجيش هلك عن آخره ، ولم يبق من جنوده من يعود إليه ليحكى المصير الرهيب الذى لقيه الجيش . وفى سنة ٣٣١ ق م يعم الاسكندر المقدونى وجهة شطر سيوه مخترقا الصحراء من ساحل البحر الأبيض ، ولم يكن غرضه من هذه الزيارة التلميز والتخريب كقمباز ، ولكنه كان يبغي التودد إلى المصريين عن طريق آمون وكمثته . ولما جاء الرومان إلى مصر ، استعمروا الواحة كذلك فقد كانت تخدمهم بالخصلات الجيدة من الزيتون والبلح .

ولما ظهرت المسيحية وبدأ عهد الاضطهاد الدينى الذى كان يلقاه المسيحيون على أيدي أباطرة الرومان ، فر كثير من القساوسة والرهبان إلى سيوه واتخذوها ملجأ لهم وأنشأوا فيها الكنائس والأديار واستمتع ذلك دخول كثير من أهلها فى الدين المسيحى .

(١) المقرئى ج ١ ص ٢٧٤

وفتح العرب (١) مصر سنة ٦٤١ م إلا أن واحة ، يوه ظلت مجهولة لهم حتى سنة ٥٠ هـ = ٦٦٠ م فقد حدث في عهد عبد العزيز بن مروان ، أن أخبره بعض العرب أنهم ضلوا طريقهم في الصحراء ، وأنهم عثروا على بلد غني بالخصولات والقواكه ، فأرسل عبد العزيز جيشاً للبحث عنها . ولكن الجيش عاد بعد شهر دون أن يعثر على الواحة المخفية في الصحراء وظلت سيوه مجهولة لا يدركها أحد ، حتى كان سنة ٨٠ هـ إذ عثر عليها موسى بن نصير بعد مسيرة سبعة أيام ، وأشرف عليها فرأى فيها مدينة حصينة ، أبوابها صعبة المرتقى ، حاول أن يفتوها ولكن جهوده باءت بالفشل ، فحاصرها ، وظل على حصارها مدة طويلة ، ولم يفلح في دخولها ، واضطر أخيراً إلى العودة دونها ، وفي القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي تمكن العرب من دخولها عن طريق بني هلال وبعض القبائل العربية ، ومن ثم بدأ انتشار الاسلام بها ، إلا أنها لم تخضع خضوعاً تاماً للحكم الاسلامي في مصر إلا في أواخر العصر الفاطمي سنة ١١٠٠ م .

ومنذ نهاية العصر الفاطمي انقطعت أخبار سيوه ولم نسمع عنها شيئاً يذكر حتى كان عام ١٢٢٠ م حين اشتد الخلاف بين أهلها وانقسموا فريقين واستنجد فريق منهم بوالى مصر ، فأرسل إليها جيشاً أخضعها خضوعاً تاماً وضمت سيوه إلى حكم مصر نهائياً ، وفرضت عليها الجزية وقدرها (١٠٠٠) ألف ريال سنوياً ثم زيدت إلى (٦٠٠٠ ريال) ، وظلت سيوه على هذه الحال حتى ظهر الستمسي الكبير ، الذى سبقت الإشارة إليه ، ففشر تعاليمه في أوجاء سيوه وأقام فيها كثيراً من الزوايا ، وامتد سلطانه بين العرب حتى أقام في الواحة محكمة ، لمقاومة المذنبين . وفي أواخر أيامه قدم القاهرة ووسكر بالقرب من أهرام الجيزة حيث استقبل استقبال الملوك وتوفى سنة ١٨٦٥ م . وجاء في الخطط التوفيقية (٢) أن سيوه كانت قاعدة الواحات البحرية التابعة لمديرية البحيرة . وفي سنة ١٩١٧ ضمت لمحافظة الصحراء الغربية . وفي سنة ١٩٦٠ أصبحت تتبع محافظة مرمى مطروح .

وتد وردت سيوه في المراجع العربية باسم ( منيتريه ) ، فيقول المقرئى (٣) أن مدينة ( منيتريه ) من جملة الواحات وهى الآن ( أى القرن ١٥ م ) بلد صغير يسكنه نحو ستمائة رجل من البربر يعرفون بسيوه ولقبتهم بالسيوية وهى قرب من لغة زناته ،

(١) سيوه للدكتور أحمد فخري ص ٣٩ - ٤٣

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١١١

(٣) المقرئى ج ١ ص ٣٧٩

وبها حدائق نخل وأشجار من زيتون وتين ، وغير ذلك وكرم كثير . وبها الآن ( القرن ١٥ م ) نحو عشرين عينا تسبح بماء عذب . ومن طريف ما يقوله القرينى عن أهلها : « وتبيت الجن بأهلها كثيراً وتخطف من اقتردهم وتسع الناس بها عذيف الجن » . وجاء فى معجم البلدان <sup>(١)</sup> : ( سنترية ) بلد فى غرب الفيوم دون قران السودان وهى آخر أعمال مصر وتمتد من نواحى واح الثالثة وهى قصبة الواحة ، وقد نسب إليها بعض « أهل العلم » . وقال البكرى : « سنترية كثيرة الثمار والعيون والحصون وأهلها كلهم بربر لا عرب فيهم » .

ويقول الأستاذ Derry أن أهل سيوه خليط من البربر والبدو والسودانيين ، وأنهم منذ أقدم العصور ، يختلفون عن سكان مصر ، وأنهم أكثر اتصالاً بشمال إفريقيا منهم بوادى النيل . ويقول الدكتور غفرى ، أن سكان سيوه الحاليين يختلفون عن سكان باقى الواحات المصرية ، كما أن لهم عاداتهم ولغتهم الخاصة . ويقول أهل سيوه الحاليون أنهم من سلالة قبيلة ( الحمديد ) البربرية وقبائل ( أمرات ) و ( اليجا ) و ( الهندوا ) البدوية ، وينقسم أهل سيوه الآن إلى شعبتين ، الشعبة الشرقية أو ( التحصيب ) والغربية أو ( اللافيا ) .

وواحة سيوه عبارة عن منخفض عظيم فى صحراء ليبيا يحدها شرقاً واحة الزيتون وغرباً ناحية المراغى ( المراقى ) والأرض المنزرعة بها تبلغ ربع مساحتها والباقى عبارة عن أرض سبخة وتلال رملية وبحيرات ملحة . وتألف الواحة نفسها من عدة واحات صغيرة أهمها سيوه وتنقسم إلى سيوه شرق وسيوه غرب ، وواحة الانغورى ، والمراغى وخمسة وأبو الشروف ، وقوريش ، والزيتون . ويتبعها إدارياً عدة واحات صغيرة متلاصقة من الشرق والغرب وتسمى الخطايا وأهمها من الشرق الجارة وتسمى ( جارة أم الصغير ) والقطارة والبحرين وسترا واطيا والعرج وتبجيج وتاميرا . ومن الغرب للبيج والمراقى وأم عشة ودهيه . والجربا وأم غزلان وشياطا . والأراضى المنزرعة ترتفع من نحو ثلاثة إلى أربعة أقدام عن الأراضى السبخة ، وتحاط دائماً بسياج من جريد النخيل لينتج عنها هبوب سفن الرمال الخفيفة . وللوصول إلى سيوه عدة طرق ، ويسمى العرب هذه الطرق بالمسارب ، التى تسمى عادة بأسماء الآبار التى تقع عليها ، فسرب الاسطبل نسبة إلى بئر الاسطبل الشهير ، ومسرب الخمسة نسبة إلى بئر الخمسة ، الذى يحتوى على خمس فتحات

يردها السابلة والعربان ، أما سرب الاخوان ، فقد سمي كذلك نسبة إلى الاخوان السنوسيين لأن هذا السرب يصل إلى واحة جنيوب قلعة السنوسيين . على أن أهم المسارب وأحسنها هو طريق مطريح — ميوه ، وهو الطريق الذي سلكه الاسكندر المتدفى ، ويحتوى على كثير من الخوانات التي يرجع معظمها إلى العهد الرومانى . والتي أعيد جهرها بعد أن كان قد طمس معظمها .

ومن الآثار الاسلامية التي لا تزال باقية حتى الآن بسبوه الجامع العتيق ، ويقال أنه رجع إلى العصر الفاطمى ، أى أنه قد مضى عليه نحو الف عام ، والمسجد مبني من اللبن والطى ( الجالوص ) ومثذنه على شكل مخروطى وهى تشبه مآذن مساجد شمال إفريقية ، ويسمى أهل سيوه ( الصومعة ) وهو نفس الاسم الذى يسمى به المآذن مسلمو شمال إفريقية .

وأهالى سيوه (١) وشعبها بسطاء وديعون نشأوا على الفطرة ، وكان لا تقطعهم عن العالم مدة طويلة تأثير عظيم على أخلاقهم . ولذلك فإن الكثير من معتقداتهم ، هى فى الواقع من رولسب الماضى البعيد ، الذى يرجع إلى عهد الفراعنة ، ففى سيوه يكثر المنجبون والسحرة من الرجال والنساء ، وهم متخصصون فى كتابة الأحجية والتأيم بأنواعها ويعتقدون فيها اعتقاداً كبيراً ، ويحملها الجميع بلا استثناء . وهم يعتقدون فى تناسخ الأرواح فيؤمنون بقمص الأرواح الشريرة فى الحيوانات كالماز والبقر والحمر ، وأنها إذا قابلت إنساناً فإنها تأخذ فى التضخم حتى تبلغ أبواب السماء .

ولأهل سيوه (٢) تقاليد خاصة بهم ، منها أن العروس توجه بعد عقد القران إلى العين وتستحم وتلبس زداء أبيض وتمكث فى حجرة مفردة بحيث لا تراها البنات العذارى . ويطلقون على الأرملة اسم ( الغولة ) ويتجنبون رؤيتها مدة أربعين يوماً من وفاة زوجها . وعندما يريد الرجل السفر ترش والدته أو أقرب الناس اليه لبناً وتدبر رغيفاً من الخبز حول رأسه سبع مرات وكل من تسلم عليه من النساء تضع فى يده بيضة ويخرج معه الرجال بعد صلاة العصر إلى خارج البلد ويدعون له بالسلامة والتوفيق ثم يؤذن أحدهم الآذان الشرعى ثم ينصرفون . وعند عودته ينتظر خارج البلد ويرسل رسولا إلى أهله ، فيخرج أقل به لمقابلته .

(١) الدكتور أحمد فخرى ص ٥

(٢) للمرجع السابق ص ٧

ويقول رؤساء القبائل وأعيان الواحة أن نظامهم القضائي مستمد من النظام القضائي الذي وضعه المسلمون في شمال إفريقية وبلاد الاندلس ، منذ فتحهم لتلك البلاد . كما يقال أن هذا القانون سجل بالخط الكوفي وبقي في الواحة توارثه طبقة معينة من القضاة . وكان القانون يتألف من ستة وثلاثين مادة . ولما اضمحل نفوذ القضاة نتيجة للاستعمار العثماني والإيطالي لصحراء ليبيا بطل تنفيذ القانون القديم ، وحل محله القضاء بالعرف واستمر الحال على ذلك سنة ١٨٧٣ م حين شكل مجلس من الأعيان عرف بالمجلس الكبير ، ومجلس آخر يضم مشايخ الواحة عرف بمجلس المشايخ . يعمل تحت إشراف مجلس الأعيان . ولما أصبحت سيوة تتبع مديرية البحيرة ، وضع لها قانون جديد سنة ١٨٩٧ م وبعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ اتبعت سيوة قوانين حاكم الصحراء . وفي سنة ١٩٤٦ تقرر تعميم القضاء المصري في أنحاء الصحراء .

\*\*\*

## محافظة الاسكندرية

ورد في معجم البلدان <sup>(١)</sup> ياقوت أن الاسكندر المقدوني بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ثم تغيرت اسمائها من بعده ، ولم يبق ما يعرف بهذا الاسم الآن (أى في القرن ١٣ م) غير الاسكندرية العظمى التي بمصر . ثم يقول ياقوت أن بعض المفسرين ذكروا أن مدينة الاسكندرية هي المعنية في الآية الكريمة : « ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » ويضيف (وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « خير مسلحكم الاسكندرية » ، (السلحة = المرقب) ويعزو المقرئ <sup>(٢)</sup> السبب في فتح العرب لمصر والاسكندرية إلى القصة التالية « أنه لما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة وقدم عمرو بن الخطاب عند الجابية (يلاد الشام) خلا به عمرو بن العاص واستأذنه في المسير إلى مصر وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية وعرف طرقها ورأى كثرة ما فيها وكان سبب دخوله إياها ، أنه قلم مرة إلى بيت المقدس لتجارة في ثمر من قرش ، فاذا هم بشاس من أهل الاسكندرية قلم للعلاء في بيت المقدس ، فبينما عمرو يرضى إبله

(١) ياقوت ج ١ ص ٢٣٥

(٢) المقرئ ج ١ ص ٢٢٢

إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فسقاه عمرو ، فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه وكانت إلى جنب الشماس حفرة فخرجت منها حية عظيمة تقتلها عمرو ، فلما استيقظ الشماس أخبره عمر بنجر الحية قبل الشماس رأسه وقال له ، قد أحياني الله بك مرتين ، مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية ، ثم سأله ، كم دية أحلكم ينكم ، فقال له عمرو مائة من الابل فقال الشماس « إني رجل غريب في هذه البلاد ، فهل لك أن تبغني إلى بلادي ، ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك دينين ، فقال له عمرو ، وأين بلادك ، قال مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية » ، فسأله عمرو « وكم يكون مكشي في ذلك قال شهراً فأتلقى معي ذاهباً عشراً وتقيم عندنا عشراً وترجع في عشر . فانطلق عمرو مع الشماس حتى أتيا إلى مصر . ومضى إلى الاسكندرية فظفر إلى كثرة ما فيها من العمارات والأموال وكثرة أهلها فأنجذب بها ، ووافق دخول عمرو ، عبداً عظيماً يجتمع فيه ملوكهم وأشراهم في ملعب المدينة العظيم . وفي هذا العيد يتراعى الملوك والأمراء بكرة من ذهب مكللة يتراعى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكرامهم ، فمن وقعت الكرة في كفه واستقرت لم يمت حتى يملكهم ، فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الأكرام كله وكساه ثوب ديباج ، ونهب به إلى الملعب وجلس عمرو والشماس مع الناس ، فرمى رجل الكرة فأقبلت نوى حتى وقعت في كم عمرو فصبجوا من ذلك وقالوا ما كذبنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة ، أنرى هذا الأعرجي يملكنا ، هنا ما لا يكون أبداً ، ثم أعطى الشماس لعمرو ألفي دينار ثمن مائتين من الابل . حيث لا يوجد ابل بمصر . فقبضها عمرو ، وانطلق عائداً .

ومهما يكن من أمر هذه القصة فإن الذي تستطيع أن تؤكد في ثقة واطمئنان هو أن عمرو بن العاص زار مصر والاسكندرية قبل الفتح العربي لها ، وأنه كان يوجد بمدينة الاسكندرية ملعب كبير يحضر احتفالاته الأمراء ووجهاء القوم . كما نستخلص من هذه القصة مبلغ ما كانت عليه مدينة الاسكندرية من الثروة والبذخ ، إذ استطاع شماس أن يفندى نفسه ألفي دينار . ولما جاء عمرو بن العاص لفتح مصر صار إلى حصن ( بابلون ) فقابلته المصريون كمنفذ لهم من ظلم الرومان وجورهم فاستتب له الأمر في مدينة منف بسهولة واستسلم له المقوقس وسلمه البلاد بلا مقاومة تذكر . ثم توجه عمرو إلى الاسكندرية ودخلها منتصراً بعد حصار دام أربعة عشر شهراً من باب كانوب فوجد أمامه مدينة لم تزل رغم ما قاسته في العصر الروماني عامرة خلافة ، فأراد جعلها عاصمة لمصر ، فكتب إلى الخليفة

عمر يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول الذي أوفده عمرو « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ، قال نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل فكاتب عمر إلى عمرو إلى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم ، فحول عمرو من الاسكندرية إلى الفسطاط وكان عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة حامية من أهل المدينة ( المنورة ) ترابط بالاسكندرية ، وكان لا ينفل عن أمرها خشية أن يرتد الروم إليها .

ولما دخل عمرو مدينة الاسكندرية وسار في شارع كانوب الرئيسى ذى التماثيل الجميلة على الجانبين والأعمدة الجرافيتية الرشيقة وأقواس النصر الفخمة ، رأى عن يساره ميدانا عظيما به قبر الاسكندر وقبور ملوك البطالمة ، وعن يمينه منارة الاسكندرية يعلوها الشاهد ، فاتخذ منها مسجدا لإقامة الصلاة ، ثم رأى أمامه قصور الملوك وكنائس الاسكندرية وبقايا مدرسة الاسكندرية ومكتبتها ، وكتب إلى الخليفة يقول ، لقد فتحت مائة لا أقول عنها إلا أنها تحتوى على أكثر من ٤٠٠٠ قصر ، ٤٠٠٠ حمام ، ٤٠٠٠ مسرح ، ١٢٠٠٠ حانوت ومخزن ، ٤٠٠٠٠ يهودى ، ومع ما قد يكون في هذه الأرقام من المبالغة إلا أنها تدل على أهمية المدينة عند الفتح العربى .

ولما تولى عثمان الخلافة بعد عمر ، أعطى ولاية مصر جميعها إلى عبد الله بن سعد ابن أبى سرح أخيه من الرضاع ، فطبع أهل الاسكندرية وتقتضوا العهد ، فقبل لعثمان ليس لها إلا عمرو بن العاص فان هيئته في قلوب أهل مصر قوية فاتخذ عثمان ، ففتحها ثانية عنوة وسلمها إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح وخرج من مصر فارجع إليها إلا في عهد معاوية (١) .

ولقد كان للنزاع الذى قام بين الأمين والمأمون ولدى هارون الرشيد سنة ١٩٦ هـ أثر كبير في القوضى والشغب الذى ساد مدينة الاسكندرية سنة ١٩٩ هـ ، فقد كتب كل من الأخوين إلى الولاة بمصر والاسكندرية يدعمهم إلى القيام بالدعوة له ، فأدى ذلك إلى تنازع الأمراء للحصول على ولاية المدينة . ومما دعا إلى تفاقم الحالة في الاسكندرية رغم استقرار الأمور في الدولة العباسية بعد قتل الأمين وتولى المأمون الخلافة ، وفود جماعة إليهم من أهل قرطبة بالأندلس بعد هزيمتها في موقعة الرض سنة ١٨٢ في عهد الخليفة الحكم بن هشام ، وكان عندها عشرة آلاف رجل . فلما نزلت هذه الجماعة بالاسكندرية

(١) فتوح مصر ص ٤٢ ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٦ ، المقرئى ج ١ ص ٢٦٣



صارت تنصر والياً على آخر طمعاً في كسب النفوذ على حساب المتنازعين ، وانتهى الأمر بهذه الجماعة أن صارت تولى وتغزل من تشاء من ولاية الاسكندرية . وما زالت الاسكندرية (١) وأعمالها في اضطرابات وفوضى إلى أن قدمت جيوش الميز لدين الله بقيادة جوهر العقلى سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م فملكها وما برحت إلى أن قام بها نزار بن المستنصر . فقد حدث بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ أن بادر الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى بالمقادة بالأمير أحمد أصغر أبناء المستنصر خليفة ولقيه بالمستعل بالله ، فلما علم بذلك الأمير نزار أكبر أبناء المستنصر ، خرج من مصر مغاضباً واستنجد بوالى الاسكندرية افكين الذى بايع نزار بالخلافة ونعته بالمصطفى لدين الله وأحضر أهل الفخر لمبايعته ، فبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالى فخرج في جيش إلى الاسكندرية لمحاربتهم ولكنهم انهزم ورجع بمن معه إلى القاهرة ، وأخذ يتجهز ثانية إلى المسير لمحاربة نزار . واستطاع في هذه المرة من دخول الاسكندرية والقبض على نزار وافكين وبعث بهما إلى القاهرة حيث قتلا .

ويقول المقرئى في حوادث سنة ٥٦٢ هـ : وقعت موقعة البابين بين شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمى وبين أسد الدين شيركوه قائد جيوش نور الدين زنكى ، فانهم عسكر شيركوه ومضى إلى الاسكندرية فخرج اليه أهل الفخر وسروا بقدومه وصلوه المدينة ثم سار منها يريد بلاد الصعيد واستخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الفخر في ألف فارس فنزل عليه شاور ومعه (أمرى) ملك الفرنجة (الصلبيين) فقام معه أهل الفخر واستعدوا لقتال شاور فكان ما أخرجه أربعة وعشرين ألف فارس ، فوعدهم شاور أن يضع عنهم المكوس والواجبات ويعطهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين ، فأبوا ذلك وألحوا في قتاله فحاصروهم حتى قل الطعام عندهم . فتوجه اليهم شيركوه وقد حشد من العربان جموعاً كثيرة فبعث اليه شاور وبذل له خمسة آلاف دينار على أن يرجع إلى الشام فأجابته إلى ذلك وقصحت المدينة وخرج صلاح الدين إلى أمرى ملك الفرنجة وجلس معه ، فما زال به شاور أن يسلمه صلاح الدين فلم يوافق بل سيره إلى عمه شيركوه ، ودخل شاور الاسكندرية .

وفي سنة ٦١٢ هـ = (القرن ١٣ م) اجتمع بالاسكندرية ثلاثة آلاف من نجار الفرج ، وقدمت بطسة (سفينة حربية) إلى الميناء تحمل ملكين من ملوك الفرنجة ،

(١) المقرئى ج ١ ص ٢٧٨

وحاولوا الثورة وقتل أهل البلد وامتلاك الثغر ، فوجه الملك العادل أبو بكر بن أيوب إليها وقبض على التجار المذكورين وعلى البطسة وصادر أموالهم وسجنهم وسجن الملكين وعاد إلى القاهرة .

وفي سنة ٦٧١ هـ ( القرن ١٣ م ) وردت الأنباء بخروج الفرنجة إلى الغور المصرية . فاهتم الملك الظاهر بيبرس بأمر الشوانى ( السفن الحربية ) ونصب على أسوار الاسكندرية نحو مائة منجنيق . من هذا السرد التاريخي يتبين لنا أن مدينة الاسكندرية كانت طوال العصور الوسطى ، أكثر المدن تأثراً بالأحداث السياسية التي تعرض لها مصر وذلك لقوتها ومناعتها ووفرة ثروتها مما جعلها ملجأ آمناً لكل ثائر أو هدف لكل غاز . كما أن موقعها الجغرافي كميناء على ساحل البحر الأبيض المتوسط مكنها من التأثير في مجريات الحوادث بسهولة اتصالها بالعالم الخارجى .

وقد أدت هذه الأحداث والحروب المتواصلة إلى إهمال العناية بآثار المدينة القديمة أو صيانتها فكانت المدينة تسير في طريق الخراب بخطوات كبيرة ، حتى أن المؤرخ ياقوت ( المتوفى سنة ١٢٢٩ م ) لم يجد في مدينة الاسكندرية عندما زارها شيئاً يذكر سوى ( عمود السوارى ) . فإذا أضيف إلى ذلك الهزات الأرضية العنيفة أو الزلزال الذى حدث في بداية القرن الرابع عشر والذي أتى على كافة مباني ومعالم المدينة وسبب انخفاضاً هائلاً في أرضها ، حتى أن الرحالة ( برناردى بريديناخ ) الذى زارها سنة ١٤٨٣ م لم ير إلا أنقاضاً شاسعة وخراباً عاماً . وكانت دهشته كبيرة عندما شاهد السور المائل الذى يحيط بالمدينة .

ولم يقتصر الأمر على المباني والآثار بل تعداها إلى المشروعات العمرانية ، فقد طمس فرع النيل الكانوبى وانقطعت المياه العذبة عن بحيرة مريوط ، وجفت هذه البحيرة وأصبحت غير صالحة للملاحة ، وبذلك احتلت مدينة رشيد مكانها كميناء بحرى ونهرى .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر بدأت الحياة تنبض في المدينة من جديد وعادت إليها شهرتها وصفتها الأولى ( عروس البحر الأبيض المتوسط ) على أن عمارها السريع أدى إلى ضياع معالم المدينة اليونانية والرومانية .

كثر الجدل حول موضوع حريق مكتبة الاسكندرية ، فذهب فريق من مؤرخى الفرنجة إلى القاء تبعة هذه الجريمة الشنعاء على كاهل العرب عند فتحهم مصر ، وهو أمر

لا يتفق مع الحقيقة أو الواقع فضلا عما نعرفه — وتؤكد المراجع التاريخية والأثرية كلها من محافظة العرب على كل تراث الأمم والشعوب التي خضعت لهم والاستفادة منه في شئون دولهم الناشئة ، فأننا لم نسمع أن شعبا من الشعوب القديمة قد اهتم بترجمة علوم الأسبقين وحرص على الاستفادة منها كما فعل العرب حتى عرف العصر العباسي الأول الذي بدأ سنة ٧٥٠ م بعصر الترجمة وإحياء التراث . ولست أريد في هذا المجال أن أسير وراء العاطفة في الحكم وإنما اعتمد على الوقائع الثابتة التي لا تقبل الجدل أو النقاش <sup>(١)</sup> .

ان أول ضربة أصيبت بها مكتبة الاسكندرية الشيرة كانت سنة ٤٨ ق . م عند فلولم ( يوليوس قيصر ) إلى هذه المدينة لتأييد ( كليوباترة ) ضد أخيها صاحب العرش الشرعى ، فقد لجأ هذا الأخير إلى الشعب لنصرته ضد الغاصب ، ققام ( أشيلاس ) القائد المصرى لتجذنه وحاصر قيصر وكليوباترة في القصور الملكية ، ورأى قيصر أن لا نجاة له إذا استولى المصريون على المواصلات ، وقطعوا عليه خط الرجعة من جهة البحر ، فعمد إلى إضرام النار في ٧٢ قطعة من المراكب الحربية الكبيرة التي كانت راسية في الميناء الشرقية بالإضافة إلى تلك التي كانت على وشك الانتهاء من البناء في الترسانة . وقد كان لهيب النار شديدا حتى امتد إلى الأرصفة فأحرقت النار مخازن الجبرك والشون ومخازن الكتب التابعة للمكتبة التي كانت تطل على الميناء الشرقية بجانب القصور الملكية ، وقد قدر عدد المجلدات التي احترقت بما مقداره ٤٠٠.٠٠٠ مجلد ، وقد اعترض كثير من مؤرخي الفرنجة على صحة هذه الواقعة وعلى القول بوصول النيران إلى المكتبة بحجة أنه لم يذكرها أحد من كتاب ذلك العصر ، وان موقع المكتبة كان بعيدا عن رصيف الميناء الشرقية ، ولكنهم لم يستطيعوا تقي واقعة احتراق هذا العدد الهائل من الكتب ، وقالوا انها كانت معروضة للبيع في محلات التجارة العادية لأن تجارة الكتب كانت رابحة جدا في ذلك الوقت ، وللدرد على ذلك قول ، ( أولا ) بعد المكتبة عن الرصيف لا يمنع وصول النار اليها خاصة بعد أن وصلت إلى الجبرك والشون ، ما دامت المكتبة داخل نطاق الميناء . ( ثانيا ) إذا كان من المستبعد وصول النيران إلى المكتبة رغم وجودها داخل الميناء ، فمن المستحيل إذن وصولها إلى المحلات التجارية داخل البلد ، ( ثالثا ) ان عدم ذكر المراجع

---

(١) تصدى عبد الطيف البندادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ في كتابه ( الافادة والاعتبار ) لذكر مكتبة الاسكندرية ، ويعتبر عبد الطيف أول عربي نسب حريق المكتبة إلى عمرو ، وأيده في روايته المؤرخ المملوكى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ في كتابه المسمى « مختصر تاريخ الدول »

المعاصرة لهذه الواقعة ، فمن المرجح بل ومن المعقول أن يكون ذلك تديراً سياسياً قصد به عدم إثارة الشعور وخلق الاضطرابات .

وفي ثانيا تاريخ كليوباترة نجد ان ( انطونيو ) بعد أن استولى على ( بروجام ) أهدى كليوباترة مجموعة كبيرة من مجلدات مكتبته . ولعل اهداء أنطونيو لهذه المجموعة الكبيرة من الكتب لها ، كان يعنى شبه تعويض للمكتبة التي احترقت والتي كانت كليوباترة السبب غير المباشر في حرقها ، وإلا فبماذا نفسر سر اهداء الكتب إلى كليوباترة إذا كانت المكتبة سليمة لم تحرق . وقد وضعت هذه الهدية في مكتبة أنشئت بالسيرايوم وسميت بنت المكتبة الاولى .

ومن المحقق ان حالة مكتبة الاسكندرية قد انحطت كثيرا بعد الاحتلال الروماني خاصة عند نهاية القرن الثاني الميلادي ، وذلك بسبب نقل كثير من الكتب إلى روما ، نتيجة لحوادث السلب والنهب التي حدثت في عهد الإمبراطور ( كرا كالا ) . وفي سنة ٢٧٠م هدم الحاكم الروماني ( أوريليان ) حي ( البروشيون ) — وهو حي القصور الملكية والمكتبة بالميناء الشرقية هدماً تاماً انتقاماً من المدينة لثورتها ، فلبأ بعض رجال جامعة الاسكندرية ومكتبته إلى معبد السيرايوم وسافر البعض الآخر إلى القسطنطينية .

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر بصفة قاطعة أنه منذ نهاية القرن الثالث الميلادي على الأكثر . كانت مدرسة الاسكندرية ومكتبها الرئيسية قد تلاشتا وزالتا من الوجود نتيجة للاضطرابات السياسية ، وانتشار المسيحية ولما قام به المسيحيون من هدم آثار الوثنية والقضاء عليها .

وفي سنة ٣٨٩ هدم البطرك ( نيوفيل ) جاء على أمر الإمبراطور ثيوديسيوس معبد السرايوم وكسر تمثال ( سرايس ) الشير وأضرمت النيران في هذا الملجأ الأخير للوثنية . ويقال أنه نجى من الحريق بعض أجزاء المعبد ، وربما جزء من المكتبة الملحقة به ، وعلى أية حال فإن ذلك لا يمكن اعتباره مكتبة عمومية ذات أهمية تذكر .

أما عن القصة التي وردت في المراجع الأجنبية عن حرق عمرو بن العاص لمكتبة الاسكندرية فهي تقول : ان قسيساً كان بمدينة الاسكندرية اسمه ( جون فيلويرونوس ) وكان صديقاً حميلاً لعمرو بن العاص ، طلب إليه أن يرخص له بنقل بعض الكتب التي أصبحت بحكم الفتح من أموال الحكومة الجديدة ، فأرسل عمرو يستأذن الخليفة

عمر بن الخطاب في ذلك ، فأجابه الخليفة بهذا الجواب « إذا كان ما جاء هذه الكتب مطابقا لما جاء به القرآن الكريم فهي تكرر لا فائدة منه ، وإذا كان ما جاء بها مخالفا لما جاء به القرآن فهي خطر فأحرقها » . ويكفي في تنفيذ ما جاء هذه القصة أن نعلم أن (جون فيلوبونوس) كان قد مات قبل الفتح العربي .

من هذا السرد التاريخي نستطيع أن نقول في قبة واطمئنان أن عمرو بن العاص يرى من قصة حرق مكتبة الاسكندرية براءة الذنب من دم ابن يعقوب ، وأن هذه الاسطورة إنما أريد بها الخط من قدر العرب والمسلمين فلم يعرف عن العرب في تاريخهم الطويل أنهم أحرقوا كتبنا وإنما التاريخ الأوروبي هو الملىء بمحادث حرق الكتب وتكفي لحة من تاريخ محاكم التفتيش لمعرفة أن حرق الكتب كان نظاما ومبدءا لدى الأوروبيين ولعل مؤرخي أوروبا نسبوا إلى عمرو حرق مكتبة الاسكندرية قياسا على نظامهم هذا . ومبدءهم في إحراق الكتب .

لقد عثر في الحفريات التي أجريت سنة ١٨٦٦ م<sup>(١)</sup> على أسوار المدينة القديمة التي أقامها الاسكندر وأنها ملوك البطالمة من بعده وكان عرض أساسات هذه الأسوار يبلغ خمسة أمتر وكانت مبنية بالأحجار الجيرية المنحوتة المأخوذة من محاجر المكس أما المونة فكانت من الجير والحرقا . وكانت الأسوار متعددة الأبراج والكيرة منها في الزوايا والأركان أما الصغيرة فتدخل الأبراج الكيرة ، وكانت الأسوار تتبع الشاطئ مبدئة من الغرب حتى نهاية شارع كانوب (طريق الحرية الآن) وممتدة شرقا حتى رأس لوكياس (مدخل الميناء الشرق الآن) بمحاذاة شاطئ البحر ثم تنحدر جنوبا حتى تقابل ترعة الاسكندرية (حلت محلها المحمودية الآن) ثم تسير معها حتى تصل إلى اجداء الأسوار مكونة بذلك شكلا مستطيلا .

وقد هدمت أجزاء كثيرة من الأسوار القديمة وأعيد بناؤها في القرن الثاني للميلاد في عهد الإمبراطور هدریان وعهد انطونيوس كما أجريت لها بعض الترميمات في القرن الثالث الميلادي . وفي القرن التاسع الميلادي أعاد أحمد بن طولون بناء الأجزاء التي تهدمت من الأسوار . كذلك كشفت الحفريات عن أحد عشر شلوعا رئيسيا ، تم عرضا من الشمال إلى

(١) الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٥٩

الجنوب وسبعة شوارع طويلة كانت تمر من الشرق إلى الغرب . وكانت هذه الشوارع مرصوفة بطريقة واحدة من أحجار البازلت الأسود والأصفر . وكان الشارع الأوسط من الشوارع السبعة الطويلة هو أهم الشوارع وكان اسمه شارع ( كانوب ) وهو محل طريق الحربة الحالي وكانت المدينة مقسمة إلى خمسة أحياء يرمز لكل حى منها بحرف من الحروف الهجائية اليونانية فيقال حى « الفا » وحى « دلتا » الخ (١) .

وفي العهد البطلمي ، ربطت جزيرة فاروس بالشاطئ بواسطة رصيف عرف باسم الهيبتاستاد ، وقد تم هذا الرصيف حوض الاسكندرية إلى مينائين مستقلين وبقي هذا التقسيم حتى (٢) الآن . وعلى جزيرة قريبة من جزيرة فاروس أنشأ بطليموس الثانى سنة ٢٨٠ م منارة الاسكندرية واستمرت تودى عملها حتى القرن (الرابع عشر) . وقد استطاع الرحالة المعمرى أبو الجحاج يوسف البلوى الأندلسى المعروف بابن الشيخ الذى زار مدينة الاسكندرية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، أن يعطينا وصفاً دقيقاً للمنارة ، فيقول ، أن المنارة تتكون من ثلاثة أدوار ، الأول مربع الشكل والثانى على شكل مشن والثالث اسطوانى وتعلوه قبة ضخمة بداخلها فانوس كبير يضيء طريق المراكب ، ويبلغ ارتفاع المنارة ١٢٠ متراً وبها ٣٠٠ غرفة . واعتماداً على الأوصاف والمقاييس الدقيقة التى أعطاها ابن الشيخ ، لاسمها وأنه كان بناء قادراً ورواية دقيقاً ، استطاع بعض الباحثين الاسبان اعطاءنا صورة جديدة لشكل المنارة ، لعلها أدنى إلى الحقيقة من كل ما عرفناه عنها حتى الآن (٣) .

وفي نفس البقعة التى كانت بها منارة الاسكندرية ، وعلى أمتاعها ، بنى السلطان قايتباى طابية الاسكندرية التى تعد من أهم القلاع المصرية على الإطلاق والتى تنظر قلعة الجبل التى بناها صلاح الدين بالقاهرة . ويرجع تاريخ هذه الطابية إلى سنة ١٤٧٧ هـ عندما رأى قايتباى تقوى الضامين ومحاولتهم تأسيس دولة استعمارية تهدد للدول المجاورة لها لذلك فكر فى حماية أهم ثغور ساحل مصر الشمالى .

(١) المقرئى ج ١ ص ٢٧٢ ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهرى ص ٢٩

(٢) دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطلمة للدكتور نصحي ص ١١ ( مطبعة الانجليو سنة ١٩٥٩ ) .

(٣) كتاب ألف ياه لابن الشيخ ج ٢ ص ٥٣٧ ، ٣٨ ( طبعة القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ ) .

وتسكون الطاية من شكل شبه مربع يبلغ طولها ١٥٠ متر وعرضها ١٣٠ متراً وتبلغ مساحتها ما يقرب من ٢٠ ألف متر مربع . ويحيط البحر الأبيض بالطاية من جهات ثلاث ، وقد تأكلت الجهتان الشمالية والشرقية ، في بعض أجزائها ، أما الجهة الغربية فتكاد تكون سليمة . وبداخل الطاية وبالجهة الشمالية الشرقية منها يوجد برج المسجد ، وهو مربع الشكل وفي كل زاوية من زواياها الأربع يوجد برج صغير مستدير ، وتبلغ مساحة المسجد ٣٠ متراً مربعاً . وفي الجدار الجنوبي الغربي يوجد باب المسجد وهو قليل الغور ويعلوه عقد مدبب . ومن هذا الباب ندخل إلى درفاعة ومنها إلى صحن المسجد . ويحيط بالصحن أربعة إيوانات ، لها تخطيط متعامد . وفي الجهة الغربية من المسجد توجد حجرة بها ضريح لا يعرف صاحبه . وفي الدور الأرضي للمسجد يوجد دوران بهما حجرات وممرات ودهاليز مسقوفة بالآتباء المقاطعة ويوجد في حوائط البرج جميعها فتحات لرمى السهام ، كما يعلو الجدران الشرافات والمزاغل التي تسمح بوضع المكاحل ، وبأعلى واجهة برج المسجد يوجد أربعة مسافط . وقد بنيت جدران المسجد من الحجر المنحوت أما السقوف المنيقة فقد بنيت من الآجر ، وكان يوجد على باب المسجد لوحتان من الحجر منقوش عليهما « عز لولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي عز نصره <sup>(١)</sup> » ، وللأسف فقدت اللوحتان .

ويقع المدخل الرئيسي للطاية في الركن الجنوبي الغربي ( المستعمل الآن مخازن مهمات ) . وهناك مدخل آخر يوصل إلى فناء الطاية ، وعلى امتداد هذا الباب يقع باب المسجد . وفي الزاوية الشمالية الشرقية يوجد برج كبير ، يستعمل الآن كمنظرة لاستطلاع البواخر الحربية ولمراقبة الميناء . ويقول ابن أياس أنه كان يوجد في البرج الشالي المثل على البحر مقعد ، يستطيع من يجلس فيه أن يرى المراكب على مسيرة يوم قبل دخولها الميناء . وكان يحيط بالطاية من الداخل حجرات للجنود . ومطابخ وحواصل ، وقد أجزيت للطاية عدة ترميمات وإصلاحات في مختلف العصور وقد كتب عنها كثير من الرحالة في العصور الوسطى <sup>(٢)</sup> وصفها ابن أياس <sup>(٣)</sup> فقال وجعل حول هذا البرج ( الطاية ) مكاحل مربعة

(١) نصحي ص ١٢

(٢) Van Berchem: Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum I P. 37

(٣) قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة للدكتور عبد الرحمن زكي ص ١٥٥ - ١٦٠

(٤) ابن أياس ص ١٩٨

بالمدافع ليلاً ونهاراً لئلا تطرق الأفرنج الفجر ، ويجعل شاراً من خواصه وهو باش عليه  
يقال له قصوة المحدثي الخاصكي ، وقيل أن السلطان صرف على بناء هذا البرج زيادة على  
مائة ألف دينار وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار .

وفي عهد السلطان الغوري سنة ١٥١٠ م نالت الطاية كثيراً من عنايته وزاد في عدد  
جندها والضباط المنتظمين وعين لها صناع للأسلحة والزرد لعمل الدروع الواقية ، كما كانت  
الطاية في ذلك الوقت تضم سجناء لكبار الممالك الذين يهملون في الدفاع عن البلاد .  
وقد أصدر الغوري مرسوماً عسكرياً ينهى فيه عن إخراج السلاح من الطاية وقد جاء فيه  
« لا أحد يأخذ من البرج الشريف بالاسكندرية سلاح ولا مكاحل ولا بارود ولا آلة  
ولا غير ذلك ومن خالف ذلك من جماعة المالك والعبيد والزردكاشية وخرج منه شيء  
شق على باب البرج وعليه لعنة الله » (١) .

أما في العصر العثماني فقد أهمل أمر الطاية وأصبحت في حالة يرثى لها بعد أن كانت  
منيعاً مهابة أيام المالك . وعندما استولى الفرنسيون على الاسكندرية ووضعوا يدهم على  
قلعة قايتباي غثروا في أبراجها وأقيمتها على أسلحة كثيرة مكسدة وسيوف علاها الصدا  
واستبدل من شكلها وما عليها من نقوش على أنها أسلحة الصليبيين ومن مخلفات حملة  
لويس التاسع التي جاءت إلى مصر سنة ١٢٥٠ م وباعت بالفشل .

وفي القرن التاسع عشر زاد الاهتمام بالطاية فرمت قلاعها وأبراجها وزاد ما تحتويه  
من مدافع فأصبحت تحتوي على ٢٠ مدفع حصون و ١٢ مدفع هاون ، وفي النصف الثاني  
من القرن ١٩ م زاد عدد مدافع الحصون حتى بلغت ١١٠ بينما نقصت مدافع الهاون  
فصارت ستة .

ويوجد بمدينة الاسكندرية ٤٩ مسجداً جامعاً ، ٩٧ زاوية وعدد لا يحصى من  
الأضرحة ومن أقدم مساجد الاسكندرية جامع العطارين الموجود بشارع سوق العطارين  
وقد جددته بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٧٧ هـ كما هو ثابت  
في اللوحة التأسيسية الموجودة في قاعة المنارة على يسار الداخل من الباب الشرقي .

ولما كان مسجد العطارين ، هو المسجد الجامع للفاطميين في الاسكندرية ، فقد نقل  
الأيويون الخطبة من هذا الجامع إلى المسجد الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٧ هـ =  
١١٨١ م جرياً على السياسة التي اتبعوها في محاربة الشيعة وشر المذهب السني .



وإلى جانب الناحية الدينية ، فقد كان هذا الجامع مركزاً ثقافياً تولى التدريس فيه نخبة ممتازة من العلماء ، منهم أبو العباس المرسى وكان من أولياء الله الصالحين . وكذلك قام بالتدريس فيه تاضى قضاة الاسكندرية أحمد بن أبي المعالي ، والعلامة ابراهيم بن محمد ابن عبد الواحد ، والشيخ أبو محمد الصعيدى شيخ قراء الاسكندرية كما تولى التدريس فيه العلامة محمد بن سليمان بن أحمد الصنهاجى المراكشى ، واتخذ مسكناً له إلى أن توفى سنة ٧١٧ هـ ودفن فيه ، وأقيمت فوق ضريحه قبة ما زالت باقية حتى اليوم . ويكون الجامع من خمسة أروقة . وبجوار المحراب منبر بسيط ، وفى الطرف الشمالى الشرقى قبة وفى الجدار الغربى توجد ذكوة المبلغ التى تعرف فى الاسكندرية باسم الصندرة .

ومن المساجد المشهورة بمدينة الاسكندرية جامع سيدى أبى العباس المرسى ، ويوجد برأس التين وكان فى الأصل مسجداً صغيراً ، ولكنه جدد سنة ١١٨٩ هـ على أيدي بعض الحجاج المغاربة ، ثم تولى وزارة الاوقاف بعد ذلك ترميمه وإقامة الشعائر الدينية به . وكان الشيخ مرسى أبو العباس من العارفين بالله ، أخذ الطريق عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، توفى سنة ١٧٦ هـ ودفن فى جامعهم . وقبره مشهور يزوره أهل الاسكندرية وغيرهم من الترددين عليها ولا سيما المغاربة .

ومسجد سيدى ياقوت العرش ، المدفون فيه الشيخ ياقوت الذى كان إماماً عارفاً عابداً زاهداً وهو من أجل من أخذ عن أبى العباس المرسى ، وكان حبشياً ولد بالحبش وهو مشهور بين الطائفة الشاذلية توفى سنة ٧٠٧ هـ ودفن بمسجده وقبره مشهور يزار وله مولد فى رمضان من كل سنة .

ومن المساجد الهامة كذلك مسجد البوصيرى ، وهو مسجد الامام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى . صاحب البردة ، والهمزية وله مصنفات كثيرة ، وكان أبوه من دلاص وأمه من بوصير قرية تقرب دلاص بمديرية بنى سويف .

وبمدينة الاسكندرية كنائس كثيرة المشهور منها ثلاث عشرة كنيسة ، عشر منها للنصارى وثلاث لليهود .

بحيرة مريوط : حفرت هذه البحيرة فى العصر الفرعونى وكان ماء النيل يأتى إليها من الجهة القبلية والبحرية فتسير فيها السفن بأنواع البضائع والتجارة . وكان يخرج من البحيرة عدة فروع منها ما هو للرى ومنها ما هو للملاحة والرى معاً ، ويقول المقرئى<sup>(١)</sup> ان الماء

كان يصل إلى البحيرة عن طريق خليج الحافر ، ولا تختلف سعة البحيرة الآن عما كانت عليه قديما إلا أن السفن لا تجرى فيها بكثرة كما كان الحال في العصور السابقة . وكانت البحيرة تجف في بعض الأحيان ، كما حدث سنة ١٨٠١م<sup>(١)</sup> حين جفت جفافا تاما ، ثم ملئت بالمياه المالحة الواردة من قطع (أبو قير) . فقد حدث عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر أن حاصر الأسطول الإنجليزي شواطئ الاسكندرية ورابطوا في منطقة (أبو قير) وعمدوا إلى قطع جسر بحيرة المعدي بقصد منع الامدادات والذخيرة التي كانت تأتي للجيش الفرنسي من القاهرة ، فامتلات البحيرة بالماء المالح ودخل فيها كثير من السفن الإنجليزية . ولما رحل الجيش الفرنسي والأسطول الإنجليزي عن مصر سد القطع جفت البحيرة قليلا . وفي سنة ١٨٠٧ قطع الإنجليز السد مرة ثانية بعد انهزامهم في موقعة رشيد ، وبعد خروجهم من مصر سد القطع مرة أخرى وبقي على ذلك حتى الآن .

وذكر استرايون أنه كان يوجد بالبحيرة ثمانى جزر والمعروف منها الآن سبعة الأولى جزيرة الطفلة والثانية يقال لها كوم الحار وكوم الخرز والثالثة تسمى جزيرة السمران وهى تجاه كفر الدوار وينضم إليها كوم الويلى وكوم العيسة وقد دلت آثارها على أنها كانت أكبر الجزائر ، والرابعة تقع تجاه بركة أبى الخير على يمين المتوجه إلى الاسكندرية . أما الجزر الثلاث الباقية فتقع في المكان المعروف باسم ذراع البحر .

وعلى البحيرة توجد مدينة مريوط ، وهى من المدن القديمة فقد ذكرها هيرودوت كما ذكرها مؤرخو العرب ، وتقع بالقرب من الاسكندرية وموضعها الآن في مواجهة بركة الشيخ أبى الخير . وكانت المدينة من أهم المراكز التجارية ، كما أنها كانت تقع في منطقة استراتيجية هامة بالنسبة لمدينة الاسكندرية ، فقد مر بها قيصر الروم كما مر بها عمرو بن العاص عند توجهه لفتح الاسكندرية ، وفي القرن التاسع عشر كانت الطريق الذى سلكته جيوش الحملة الفرنسية في طريقها من الاسكندرية إلى القاهرة .

ترعة الاسكندرية<sup>(٢)</sup> : كانت ترعة الاسكندرية تمر في خط يكاد يكون هو خط ترعة محمودية الحالية وعند حجر التوتية تقريبا كانت تفرع إلى فرعين ، فرع منها واسمه ترعة كانوب وكان يمتد بمحاذاة شاطئ البحر الايض ليفدى مدينة كانوب .

(١) المخطط التوثيقية ج ١٥ ص ٤١

(٢) المقرئى ج ١ ص ٢٧٣

وهي مدينة أبو قبر ، التي سميت بهذا الاسم لأن رفات الأنبا كير نقلت ودفنت بها ، وذلك في القرن (١٥ م) ، والفرع الثاني يمتد إلى الاسكندرية وكان اسمه ترعة الاسكندرية . وكانت هذه التربة الأخيرة تدور حول المدينة من الجنوب وتصب في ميناء كيبوتوس الداخلية بالقرب من مصب ترعة المحمودية الحالية ، كما كان لها فرع آخر يصب في الميناء الشرق ، وكان هذا الفرع يمر في خط يكاد يكون هو خط ترعة الفرخة الحالية التي تغذي المدينة الحديثة بمياه الشرب .

وكانت ترعة الاسكندرية دائما محل عناية ورعاية جميع الملوك والولاة الذين نوالوا على حكم مصر في العصر البطلمي والروماني والاسلامي . ولكن الثورات والفتن التي سادت مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي والتي انتهت بطي فرع النيل الكانوبي في القرن الثاني عشر الميلادي وعجز الحكومة عن كسح هذا الطمي ومداومة أعمال الصيانة ، كل هذه العوامل أدت إلى ردم ترعة الاسكندرية . وفي العصر المملوكي أعاد السلطان الأشرف فتح ترعة الاسكندرية وأصلحها وأطلق عليها اسم التربة الأشرفية وجعل فيها عند مدينة الرحمانية . وبعد انقضاء العصر المملوكي أهملت التربة الأشرفية فردمت مرة أخرى وبقي الحال على ذلك حتى كان سنة ١٨١٧ فأنشئت ترعة المحمودية في نفس مكان ترعة الاسكندرية تقريبا . وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى السلطان محمود الثاني ، وكان الغرض من إنشاء هذه التربة هو إمداد المدينة بمياه النيل للشرب ، وإيجاد طريق ملاحى بين الاسكندرية وبقا أنحاء القطر .

\*\*\*

## محافظة دمياط

مدينة دمياط من ثغور مصر القديمة على الشاطئ الشرقى لفرع النيل المعروف بفرع دمياط ، وبينها وبين مصب هذا الفرع في البحر الأبيض ١٥ كيلو متراً واسمها القبطي Tamiat ومنه اسمها العربى .

وكانت دمياط القديمة تقع إلى الشمال من دمياط الحالية ونقلت إلى مكانها الحالي منذ سنة ٦٣٣ هـ . وهي من المحافظات القديمة التي تولى إدارتها محافظ باعتبار أنها من الثغور التي أنشئت سنة ١٨١٠ م . وفي سنة ١٩٠٦ ألغيت محافظة دمياط وألغى مركز فارسكور

وضمت بلاده إلى دمياط وجعلت مركزاً واحداً باسم مركز دمياط وقاعدته مدينة دمياط ولكن هذا التغيير لم يدم طويلاً ففي سنة ١٩٠٩ أعيدت محافظة دمياط وجعلت فارسكور<sup>(١)</sup> قاعدة له .

وقد خضعت مدينة دمياط للحكم الاسلامي منذ فتح العرب مصر ، فقد ورد في كتاب فوح البلدان للبلخاري : لما فتح عمرو بن العاص الفسطاط ، وجه عدير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودقيله وتبا وبوصير ، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط .

ومنذ أن دخل العرب مصر ، أخذت بعض القبائل العربية تزح إليها لاستيطانها وكان بعضهم قد قدم مع عمرو بن العاص . وجاء البعض الآخر بعد ذلك وكانت لهم عدة أقطاعيات في جميع الولايات والأعمال . فانتقلت بطون من قريش ، ومنهم قوم من نصر ابن معاوية من هوازن سكن حول دمياط وتنيس ، ونزل بنو نصر في وسط الدلتا ، ومنذ سنة ٦٤٢ م بدأت دمياط تتعرف إلى العرب المهاجرين إليها من شبه الجزيرة العربية ، وإلى المرابطين من رجال الجيش الفاتح ، كما بدأت بناية المساجد بها ، ( ولا يزال يوجد بدمياط اليوم مسجد قديم يسمى جامع فاتح ، يقال أنه يرجع إلى عهد عمرو بن العاص ، جدد عدة مرات فاندثرت معالمه الآن ) . على أنه من الواضح أن العرب لم يجهلوا في دمياط وتنيس وسائر جزر بحيرة المنزلة ما يرغبهم في الهجرة إليها في جموع كثيرة ، ولعل ذلك راجع إلى اشتغال أهلها بالملاحة والصناعة وهي حرف تركها العرب لأربابها ، جرياً على السياسة التي استنوها لأنفسهم ، وهي ترك الحرف والصناعة والإدارة في أيدي أهلها وأن يتولوا هم الإشراف والحرب ، ولذلك فقد ظلت أكثرية أهل دمياط حتى القرن العاشر الميلادي من القبط . وشملت كورة دمياط مثلثاً شمالياً يشطره فرع دمياط شطرين ويحده البحر الأبيض المتوسط من شماله وجانبيه ، فكانت بذلك تشمل مساحة من محافظتي الإقنيلية والغربية الحاليين . وكان يدخل في زمامها من البلدان ، شطا وبورة البستان ، وفي شرقها كورة تنيس وحاضرتها مدينة تنيس وبحيرة المنزلة وإلى غربها كورة البجوم وجنوبها كورة دقيلة ، وقد ظل هذا التقسيم الإداري على حاله حتى أوائل العصر الفاطمي .

( ١ ) التاموس الجغرافي ج ١ ص ٨

وقد لاقت مدينة ديباط الشيء الكثير من غارات الروم المدمرة المتوالية وكانت أولها سنة ٩٠ هـ والثانية سنة ١٢١ هـ. ويصف القرزى<sup>(١)</sup> الغارة الأولى بقوله : وما زالت مدينة ديباط بين المسلمين إلى أن نزل عليها الروم في سنة ٩٠ هـ فأسروا خالد بن كيسان ( واليا من قبل الدولة الأموية ) وكان على البحر هناك وسيروه إلى ملك الروم ، فأنقذه إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التي كانت بينه وبين الروم .

وعلى الرغم من فشل الدولة الرومانية في هذه الحملة ، إلا إن أساطيلها عادت ثانية إلى ديباط بعد نحو ثلاثين سنة في خلافة هشام بن عبد الملك ، وقد جاء في خطط القرزى أن مراكب الروم كانت ثلاثمائة وستين مركباً وأنهم قتلوا وسبوا وذلك في سنة ١٢١ هـ . ويرجع السبب في هذه الغارات التي كانت تشنها الدولة الرومانية الشرقية بين الحين والحين إلى أنها لم تنس منذ أن أخرجت من مصر ، أنها فقدت أكبر ولاياتها وأكثرها خيراً . فظلت تطالع إلى استردادها ، فكانت محاولتها الأولى في القرن السابع الميلادي بعد الفتح ثم أغار أسطولهم مرتين على ديباط في القرن الثامن الميلادي . ثم عادوا فغاروا عليها ثلاث مرات في القرن التاسع و مرة أخرى في القرن العاشر ، و انتهت تلك الغارات كلها بالفشل ، ولكنها أدت إلى عناية الخلفاء وولاة مصر بتحصين الموانئ وتزويدها بالحاميات المراقبة .

وفي القرن التاسع الميلادي ، في عهد الدولة العباسية ، قسم الوجه البحري إلى ثلاثة أقاليم بدلا من الاقليمين الكبيرين ( وهما الحوف والريف ) ، ففصل من الحوف بعض الكور وأطلقوا عليها اسم ( الحوف الشرق ) ، وكذلك فصلت بعض الكور من شرق الريف وأطلقوا عليها اسم ( الحوف الغربي ) ثم ضم ما فصل من الحوف والريف وجعل منه إقليما ثالثا ، عرف باسم ( بطن الريف ) وكانت كورة ديباط جزءا من بطن الريف . ثم عادوا فقسوا بطن الريف إلى قسمين سمى الشرق منهما باسم بطن الريف وأما الغربي فسمى ( الجزيرة ) وبقيت ديباط كما كانت جزءا من بطن الريف<sup>(٢)</sup> .

ولما تولت الدولة الفاطمية كان أول ما وجهت إليه عنايتها بعد استقرار الأمور ، هو وضع نظام جديد للضرائب ، وتحصيل ما تأخر منها . فقد جمع من ديباط ونيس

( ١ ) القرزى ج ١ ص ٣٤٤

( ٢ ) القاموس الجغرافي ج ١ ص ٨

والاشمونين في يوم واحد من سنة ٩٧٣ م أكثر من مائتين وعشرين ألف دينار ، وذلك أمر لم تعهده مصر من قبل ، وقد أدت حالة الهدوء والاستقرار التي نصبت بها البلاد في العصر الفاطمي إلى ازدهار الصناعة والتجارة ولا سيما في المدن العريقة كدمياط ومدن بحيرة المنزلة ، التي اشتهرت منذ أقدم العصور بصناعة المنسوجات الجميلة ، والتي أفرد لها كل من تكلم عن مصر من مؤرخي العصور الوسطى صفحات طوال يعدد فيها أنواع منسوجات دمياط وخاماتها وطرزها . وأتمناها وما إلى ذلك .

ذكر المقدسي<sup>(١)</sup> ، وأما الثياب الشطوية ( شطا قرية بين دمياط وتانيس ) ، فلا يمكن أن ينسج منها شيء إلا بعدما يختم عليها بختم السلطان ، ولا تباع إلا على يد سماسرة قد عقدت عليهم ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته ، ثم تحمل إلى من يطويها ، ثم إلى من يشدها بالقشر . ثم إلى من يشدها بالسنت ، وإلى من يحزمها وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، وكل واحد يكتب على السنت علامته ، ثم تقش المراكب عند إقلاعها . ويتحدث ابن حوقل<sup>(٢)</sup> عن دمياط وبحيرتها عام ٩٧٦ م فيقول : ومن جليل مدن مصر تيس ودمياط ، وهما مدينتان لا زرع فيها ولا ضرع لانهما جزيرتان في وجه النيل ، غربهما وجنوبهما وشرقهما وشمالهما البحر . وبهما يتخذ رفيع الديق والشرب ، والمصبغات من الحلال السنية التي ليس في جميع الأرض ما يداها في الحسن والقيمة ، وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتي دينار إذا كان فيه ذهب وما لا ذهب فيه يبلغ المائة دينار . وأصلها من الكتان . كذلك وردت أسماء مدن وقرى كثيرة تابعة لناحية دمياط ، اشتهرت بصناعة المنسوجات ، مثل ديق وتونة ودبرة وغيرها من مدن جزائر بحيرة المنزلة . فيذكر الكندي<sup>(٣)</sup> أنه كان يصنع هناك ( بناحية دمياط ) الكتان الديق والمقصور الشفاف والأردية وأصناف المناديل الفاخرة الأبدان ، والأرجل والمخاد والفروش المقلد والطراز ويبلغ الثوب المقصور منها خمسمائة دينار وأقل وأكثر .

ولم تقتصر نهضة دمياط وكورها في العصر الفاطمي على الناحية الفنية والصناعية فحسب بل شملت كذلك الناحية الثقافية ، فقد كانت مساجد دمياط حافلة بطلاب العلوم الدينية

(١) المقدسي ص ١٩٥

(٢) ابن حوقل ص ٢٢٧

(٣) الكندي ص ١٧

وبالزوار من الفقهاء والشعراء والكتاب الذين سجل بعضهم مشاهداته كما فعل شمس الدين المقدسى في كتابه (أحسن التقاسيم) أو من القضاة مثل أحمد بن مطرف أبو الفتح المقدسى الذى تولى القضاء فى دمياط سنة ٤١٢ هـ . ومن أدياب دمياط فى القرن الثانى عشر الميلادى ، أشهر شعراء الدولة الفاطمية ، ابن قادوس الدمياطى ، والأديب ميخائيل أستف دمياط فى سنة ١١٨٤ م وله عدة مؤلفات أخلاقية ودينية .

وقبيل نهاية الدولة الفاطمية ، بدأت دمياط فترة جديدة فى تاريخها الإسلامى ، هى فترة الجهاد ضد الحروب الصليبية ، فقد تعرضت دمياط لغزو روجر ملك صقلية سنة ١١٥٥ م ، فى عهد الخليفة الفاتر الفاطمى ووزيره ابن زريك ، ولم تمنع أسوار دمياط أو حصنها الذى بناه المتوكل من اقتحام روجر لها لضعف الحامية ، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يستطع البقاء فيها طويلا وانسحب . وفى سنة ١١٧٠ عاود الصليبيون الكرة مرة أخرى ، فقد أرسل إمبراطور القسطنطينية أسطولاً لحصار دمياط تمهيداً لفتح مصر ، فاستنجد الخليفة العاضد ، (آخر خلفاء الفاطميين) بثور الدين زنكى ، فأرسل اليه جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي . ولما علم بذلك الفرنج وهم حول دمياط خشوا على أملاكهم التى استولوا عليها على سواحل الشام من غزو نور الدين فاضطروا إلى الرحيل عن دمياط ، بعد أن غرق لهم عدد من المراكب وتشتى بينهم المرض ، وبرىء المقرضى أن صلاح الدين اتفق على صد هذه الحملة أكثر من نصف مليون دينار .

ولما استقل صلاح الدين بحكم مصر ، وكانت الأنباء قد وصلت باستعداد جديد للفرنج لغزو مصر ، أمر بتحصين قلعة تيس وأسوارها ، وترميم سور دمياط وتزويدها بالقاتلة . وفى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) سار صلاح الدين إلى دمياط ليشرف بنفسه على إصلاح سورها وأبراجها وسلسلتها ، وقبل وفاته بعام واحد (٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م) أمر السلطان صلاح الدين بإخلاء مدينة تيس ونقل أهلها إلى دمياط وقطع أشجار وبساتين دمياط وأخرج النساء منها ثم حذر خندقاً حول دمياط وأنشأ جسراً عند السلسلة لوصول البرج بها . وخلت تيس إلا من المقاتلة وانتقلت مناسجها وصناعاتها إلى دمياط ورحل بعضهم إلى المحلة الكبرى وكانت هذه الهجرة مقدمة للفرجة المتعاقبة التى حلت بهذه المدينة عندما أمر الملك الكامل ابن العادل سنة ١٢٢٨ م بهدمها فوالت من الوجود حتى لا تقع فى أيدي الأتراك الذين ظلوا يهدونها عدة قرون .

ولما اتضح للصليبيين من انتصارات صلاح الدين عليهم في الشام واستعادته لبيت المقدس وغيره من المدن ، أن مصر هي حصن الاسلام ومورد الرجال والسلاح ، قرروا في سنة ١٢١٨ الذهاب إلى دمياط للاستيلاء عليها على اعتبار أنها مفتاح مصر وقلعتها الامامية ، فامتولوا عليها وظلوا بها ستة عشر شهراً ولكنهم اضطروا أخيراً للرحيل عنها سنة ١٢٢١ م بعد أن عقدوا الصلح مع السلطان الكامل . وعاد الصليبيون بعد ثلاثين سنة يحاولون الاستيلاء على مصر تمهيداً للاستيلاء على بيت المقدس وبلاد الشام ، فجاءت حملة لويس التاسع سنة ١٢٤٩ إلى دمياط ، وانتهت هذه الحملة بالفشل الذريع وأسر فيها لويس التاسع وأزله دار ابن لقمان في المنصورة ولم يفك أسره إلا بعد دفع فدية كبيرة ، وخرجت آخر فلول هذه الحملة من مصر في مايو سنة ١٢٥٠ م . وكان من أثر هذه الحملات المستمرة على دمياط والتي انتهت بغزوة لويس التاسع أن تخربت المدينة ، مما دعا إلى إنشاء بلدة صغيرة بالقرب منها تسمى بالنقضية<sup>(١)</sup> وكانت مدينة ذات أسواق وحمامات وما زال بدمياط حتى اليوم حتى بهذا الاسم يعرف بالقربية القديمة .

ولما تولى بيبرس البندقدارى أمر الدولة المملوكية ، رأى ان دمياط الجديدة لم تعد تحمياً أسوار منيمة ، وان السلاسل الحديدية التي تعترض النهر لا تقوى وحدها على المقاومة فأمر في سنة ١٢٦١ م بسد مصب النيل بالأحجار حتى لا تستطيع سفن الأعداء أن تعبر إلى داخل البلاد . وكان من أعمال بيبرس المدنية ان اهتم بالطريق الزراعى الذى يصل دمياط بالقاهرة وأنشأ به ست عشرة قنطرة ، كما نظم البريد على ظهور الابل والخيول . وكانت أهم الخطوط البريدية في عصره ، الخط بين القاهرة ودمياط وبين القاهرة وكل من أسوان والاسكندرية ، وكان يخرج البريد من دمياط الى غزة ومنها تنفرع سائر خطوط البريد في بلاد الشام وترسل المراسيم السلطانية إلى أنحاء السلطنة . كما كانت هناك خطوط جوية بواسطة الحمام الزاجل . وكانت مدينة دمياط في القرن الخامس عشر ملجأً للمهاجرين من العراق بعد ان استولى عليها التتار . ويقول ابن إياس<sup>(٢)</sup> : وكانوا ( أهل العراق ) يجتمعون ويتراقون ويخرجون من دمشق إلى مصر ، فكان أكثرهم ينزل إلى البحر ، ويحجى من جهة دمياط ويدخلون مصر وهم في أتمس حال .

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ٨٥

(٢) ابن إياس ج ٢ ص ٣٠



ويروى السيوطي<sup>(١)</sup> في حوادث سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٥) في أوائل حكم بوسباى :  
وقع بدمياط حريق عظيم حتى احترق قدر ثلثها وهلك بها من الناس والدواب شيء كثير  
ومن سلاطين المماليك الذين أقاموا بمدينة دمياط الملك المنصور ، الذى خلعه السلطان اينال  
(١٤٥٣ م) وتناه إلى الاسكندرية ، ثم نقله السلطان قايتباى مكرما إلى دمياط وبقى  
بها حتى توفى سنة ١٤٨٧ حيث تقا جنته إلى القاهرة . وقد زار المؤرخ المشهور تقي الدين  
المقرئى دمياط فى القرن الخامس عشر ، ووصفها شعرا ونثرا فى خطه حيث أفرد لها فصلا  
شائقا ، وقد جمع فى هذا الفصل مجمل ما وقع لها من أحداث فى نحو عشرين صفحة وأشار  
إلى المصادر التى نقل عنها ، ولكنه لم يفصل بين الحقيقة والخرافة .

ولما ضفت دولة المماليك الشراكسة فى القرن السادس عشر ، أخضعت دمياط منتهى  
للمعمرين من المماليك ، وأهل أمرها كما أهل غيرها من الموانئ ووقفت حركة التصدير  
والتوريد نتيجة لفرض الضرائب الباهظة ولا تنتشر الظلم وعبث القراصنة الأجانب بالشواطئ ،  
وظلت كذلك حتى دخل العثمانيون مصر واستولوا عليها سنة ١٥١٧ م .

وقد عانت دمياط فى العصر العثمانى ما عانته البلاد كافة ، ولكنها كانت نسبيا بمنأى  
عن الفتن وقاتل المماليك وأحزابهم ، والصراع بين الهيئات الثلاث الحاكمة ، ( وهى  
الوالى والديوان والمماليك ) ، ولهذا انصرفت إلى تجارتها وصناعاتها بالرغم من تدهور  
الاحوال الاقتصادية ، نسبيا نتيجة لإهمال أمر الميناء وانسداده بالرمال ، ومع كل هذا فإن  
الحركة التجارية فى الميناء لم تقطع ، فقد كان يصدر منها الأرز والمنسوجات والقمح والبطارخ  
والملاح كما كانت ترد إليها السفن محملة بالآخشاب والصابون والتبغ والفواكه والنقل .

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١١٩٨ ، أدلت دمياط بدلوها فى الدفاع عن  
كيانها ، والنرد عن استقلالها ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى التسليم سنة ١٨٠٠ . وبدأ  
نابليون فى تحصين منطقة دمياط وإنشاء انقلاع بها ، ومعدنا على مبارك<sup>(٢)</sup> فى خطه عن  
الحصون التى أنشأها الحملة الفرنسية فى دمياط وما تبقى منها فى عصره فيقول : إن قلعة  
البوغاز الكبرى أنشئت زمن دخول الفرنسيون فى القرى القديمة الممتدة بجزيرة البرج ، التى  
هدمها بونابرت لقيام أهلها ليلا على عساكره وذبحوا منهم جملة ، وبقى بأقاصها تلك

(١) السيوطى ص ٩٦

(٢) الخطط الترفيقية ج ١٠ ص ٧٧

البقعة ، ولم يبق من آثارها إلا الجامع الذى يوسطها ومنزل صغير . وفى جهتي البوغاز شرقاً وغرباً ، قلعتان أنشئتاً فى زمن الفرنساوية بصورة الاستحكامات الدائمة . وقد تولى الجنرال كليبر الاشراف على تحصين دمياط خشية استيلاء الانجليز أو العثمانيين عليها .

وكانت دمياط يوم تولى محمد على الحكم سنة ١٨٠٥ أهم الثغور المصرية وأعظمها تجارة بل إنها كانت أعظم من الاسكندرية شأنًا ، فلما أصلح ميناء الاسكندرية وحفرت ترعة المحمودية ، أخذت السفن التجارية الكبرى تغد إليها ، وكان من نتيجة هذه المشروعات عودة العمران والحركة التجارية إلى الاسكندرية ، والقضاء على معظم تجارة دمياط ورشيد ، وأصبحت تجارة دمياط مقصورة على ما تحمله إليها المراكب الشراعية التى تقف خارج البوغاز المسلود بالرمال . وقد زاد فى إهمال ثغر دمياط إنشاء الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة ، فأصبحت الاسكندرية ميناء مصر الأول كما زاد فى إضعاف شأن ميناء دمياط إنشاء بورسعيد عند مدخل قناة السويس ، كذلك كان لإنشاء الخط الحديدى الذى وصل بين مدن فلسطين وبين القنطرة عن طريق العريش أثر ملحوظ مما أصاب ميناء دمياط من الإهمال وإضعاف حركته التجارية والعمرانية .

\*\*\*

### محافظة بورسعيد

أنشئت مدينة بورسعيد سنة ١٨٥٩ فى الموضع الذى اختاره المهندس دى لسبس حين ابتداء فى حفر قناة السويس . وكانت بورسعيد قاعدة محافظة القنال وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت محافظة مستقلة وأصبح على القنال ثلاث محافظات هى بورسعيد والإسماعيلية والسويس .

وقد جاء فى الخطط التوفيقية<sup>(١)</sup> أن مدينة بورسعيد بنيت فى منطقة قديمة معروفة ففى تقع على بعد ٢٨ كيلومتراً غربى مدينة الطينة ، التى كانت تقوم فى النهاية الشرقية لبحيرة المنزلة . وجاء فى معجم البلدان لياقوت<sup>(٢)</sup> : الطينة بليدة بين الفرما وثنيس من أرض مصر . « ويضيف على مبارك فى خططه ، أنها كانت من أعظم مدن مصر وكانت تعرف أُولاً باسم ( ييلوز ) ومعناها الطينة ، ومن ثمّ فقد أطلق عليها العرب اسم الطينة . كذلك

(١) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧٧

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٧

ذكرها استرابون وقال أنها كانت تبعد عن البحر قدر ميلين وانها كانت عامرة وبها الحصون المنيعة، وذلك لوقوعها على حدود مصر الشرقية . ويضيف على مبارك ، ان مدينة الطينة لاقت الكثير من أهوال الحروب التي تعرضت لها مصر طوال العصور التاريخية ، من العصر الفرعوني والبطلمي والروماني ، والاسلامي ، ومع ذلك ظلت عامرة أهلة بالسكان حتى الحروب الصليبية ( في القرن الثالث عشر الميلادي ) فقد أغار عليها الصليبيون ونهبوها وتكررت غاراتهم ونهبهم وسلمهم لها ، مما أدى إلى خرابها ، ولم يبق بها غير قلعة واحدة من القلاع التي بناها العرب وتعرف باسم قلعة الطينة وكانت تقع عند مدخل بحر الطينة لمنع دخول المراكب اليها ، ومن الآثار التي ترجع إلى العصر الاسلامي ببلدة الطينة ، سور مربع يقع على تل دال ، وبجته البحرية باب يفتح على البحر ، ويعرف هذا السور باسم القصر . وذكر ابن اياس<sup>(١)</sup> : انه كان بها : ( أى الطينة ) قلعة وناس متوطنون إلى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ( ١٥١٧ م ) حتى الفتح العثماني فقد أشيع في تلك السنة بعد موت السلطان الغوري ان أوائل عساكر ابن عثمان ( السلطان سليم الأول ) قد وصلوا إلى قطيا وتملكوا قلعة الطينة وهرب من كان بها من السكان . وجاء في نزهة الناظرين : أنها لم تزل موجودة إلى أول القرن الثاني عشر الهجري ( الثامن عشر الميلادي ) ويرى قصة لاحد وزراء الدولة العثمانية وأنه نفي إلى مدينة الطينة .

مما تقدم نستطيع أن نقول ان مدينة بورسعيد ليست من المدن الحديثة الناشئة بل هي قديمة وموغلة في القدم ، وإنما الحديث هو اسمها فقط . لأنها حلت محل ثغر يبلوز في العصر القديم وثر الطينة في العصور الوسطى والتي امتدت حتى القرن الثامن عشر ، ثم انضمت في القرن التاسع عشر وأصبحت قرية صغيرة للصيادين عرفت باسم اشتوم الجميل ، وكانت قرية اشتوم الجميل هذه تقع إلى الغرب من بورسعيد عند نشأتها ، أما الآن فهي منطقة عزيزة في بورسعيد يشغلها المطار المعروف باسم مطار الجميل .

ويصف على مبارك في خططه عن بورسعيد فيقول : وكانت أرضها التي هي عليها الآن قطعة من بحيرة المنزلة فيما عدا أجزاء قليلة منها ، وهو الجزء القريب من البحر ( البحر

( ١ ) ابن اياس ج ١ ص ٢٢٣ ، ج ٢ ص ٩٨ ، ج ٣ ص ٦٢

الايض المتوسط ) وقد أقام عليه مساكن للشغالة المتوطنين بزاولة الأعمال هناك ، ثم أخذت رقعة المدينة تزداد شيئاً فشيئاً وذلك نتيجة لرسم الأجزاء المنخفضة منها بالطين الناتج من حفر القناة ، وكلما ظهرت أرض جديدة ظهرت عليها المساكن حتى كان بها سنة ١٨٦٣ م مائة وخمسون بيتاً غير مائة وخمسون عشة وجامع قديم يعرف باسم جامع قرية العرب ( لعلهم يعنون بقرية العرب الطينة ) .

وجاء في الخطط التوفيقية ان ميناء بورسعيد يعد من أوائل المائز في مصر التي بنيت بالأحجار الصناعية . ويقول في ذلك : ولما كانت الجبال التي تستخرج منها الصخور اللازمة للعمل بعيدة عن بورسعيد بعدا يئس للثقل منها اليه صرف أموال جسيمة جدا اخترع لذلك عمل صخور صناعية من رمال البحر والجير المائي المعروف بجير ( نوى ) وماء البحر ، وكانت الأحجار الناتجة تقرب من الصوان في المتانة ، وكان قدر الصخرة عشرة أمتار مكعبة ووزنها عشرون طناً . ويضيف : ولما قرب انتهاء أشغال القتال وأوا ضرورة تنوير ساحل البحر فيما بين الاسكندرية وبورسعيد ببناء فنارات في تقط معينة من الساحل ليهتدى بنورها السفن التي ترد على القتال ، فعمل أربعة فنارات واحد في ساحل رشيد وآخر في البرلس على الرأس الخارج في البحر والثالث بقرب برج العزبة عند مصب فرع دمياط والرابع في مدينة بورسعيد وقد جعل ارتفاع الفنارات الأربعة ٥٥ متراً . ونور كل واحد منها يرى من مسافة عشرين ميلاً ( أى ٣٦ كيلو متراً تقريباً ) . وأنوارها متواصلة بمعنى أنه متى غاب من المراكب نور أحدها ترى نور الآخر فلا ينقطع عنها الاهتداء بأنوارها في سيرها من الاسكندرية إلى بورسعيد . ولأجل التمييز بينها وعلم التباس أحدها بالآخر لرائها ، جعل لكل واحد منها وضع يخصه ( من حيث الاضاءة ) فنار رشيد الآتية متحركة بدوران بطيء وأنواره متنوعة إلى أبيض وأحمر تتغير الحمرة إلى أبيض وعكسه بعد كل عشر ثوان . وفار البرلس ثابت الآلات بنور واحد ويضيء في خمسة أثمان الأتقى ، أما آلات فار دمياط فمتحركة ونوره أبيض غير ثابت بل يظهر ويختفي بعد كل دقيقة ، وفار بورسعيد مضطرب مرتش كهربأى له بعد كل ثلاث ثوان غصنة وانتفاخ ( أى أن تياره متقطع ) .



## محافظة الاسماعيلية

كانت مدينة الاسماعيلية في أول أمرها ( كما جاء في الخطط التوفيقية ) عبارة عن اختصاص كان يقيم بها عيال ترعة البرزخ من مهندسين وغيرهم ولما اتسع ميدان الأعمال وكثر العمال قامت بقربها قرية ريفية تعرف بقرية العرب .

وجاء في دائرة المعارف <sup>(١)</sup> ، أن مدينة الاسماعيلية قامت على أنقاض قرية كانت تسمى التمساح ويؤيد هذا القول كل المؤرخين المحدثين <sup>(٢)</sup> ، فيقول محمد رمزي ، وفؤاد فرج أن موقع مدينة الاسماعيلية الحالي كان عبارة عن تلال مرتفعة تعرف باسم تلال الجسر وتقع إلى شمال بحيرة التمساح ، ولما ابتدأ العمل في مشروع قناة السويس نشأت قرية عرفت في أول الأمر باسم قرية التمساح وفي عهد الخديو اسماعيل سميت الاسماعيلية .

وبحيرة التمساح هذه عبارة عن حوض هائل منخفض وسط البرزخ تسرب إليه مياه النيل في الفيضانات العالية من ترعة الوادي عن طريق وادي الطميلات . ولكنها بعد فتح القناة صارت ميناء لمدينة الاسماعيلية وأقيمت بها أحواض واسعة وأرصعة وورش وغيرها مما يلزم لشئون الملاحة ، وكان افتتاح الميناء يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م وهو خاص بالسفن إذ كان يرسو به أكثر من خمسين باخرة من جميع الجنسيات وعليها الملوك وكبار الشخصيات العالمية .

أما مدينة الاسماعيلية فكان لها ولا يزال مركز ممتاز ففي أثناء تنفيذ مشروع قناة السويس كانت — وهي لا تزال ناشئة — المركز الرئيسي لجميع الأعمال وبها مقر المهندس المقيم ، كما كان بها بعد ذلك مركز إدارة الشركة بمصر وما يتبعه من مكاتبها الرئيسية ومخازنها . وكان من المنظور وقد تأسست سنة ١٨٦٣ أن تأخذ في النمو بخطوات واسعة ولكن كثرة المستقعات في ضواحيها وتوالد ناموس الماريا فيها حد من نموها بضع سنين . وما وافق سنة ١٨٧٠ حتى أصبحت مدينة الاسماعيلية مدينة الحدائق والمباني الفخمة زخر بعمورها وبأشجارها وفاكهتها .

وكانت مدن هذه المنطقة الواقعة على مدى قناة السويس في حاجة تصوى إلى مياه النيل العذبة الصالحة للشرب ، فإن من هذه البلاد ما حرم من مياه النيل كالسويس منذ دم خليج

(١) دائرة المعارف لفريد وجلي .

(٢) القاموس الجغرافي ج ١ ص ٦

أمير المؤمنين في عهد أبي جعفر المنصور<sup>(١)</sup> (٧٧٥ م) . لذلك كان في شق ترعة الاسماعيلية لتغذية هذه البلاد بجياه النيل تحقيق أمنية غالية لسكانها الذين حرموا منها أبدا طويلا . وقد كان إنشاء هذه التربة من المشروعات الرئيسية التي فُص عليها مشروع قناة السويس .

وقد استعملت ترعة الاسماعيلية أولا في تغذية المدن الواقعة دلى قناة السويس ثم استعملت لرى الأراضى الواقعة بين ترعة الشرفاوية والصحراء وتبلغ نحو ١٨٠ ألف فدان وهى الى جانب ذلك طريق ملاحى هام .

ويبلغ طول هذه التربة من القاهرة الى مدينة الاسماعيلية ١٥١ كيلومترا ، وطول الفرع الجنوبى من الاسماعيلية إلى السويس ٨٧ كيلومترا ، وطول ترعة العباسية التى تغذى مدينة بورسعيد بالمياه الحلوة تبلغ ٩٠ كيلومترا . وتشق ترعة الاسماعيلية طريقها على الحد الفاصل بين الوادى والصحراء فتمر بمدينة بليس ثم الى بلدة العباسية ثم تخترق وادى الطبيلات الى مدينة الاسماعيلية حيث تصب في بحيرة التمساح . ويخرج منها قبيل وصولها المدينة فرعان أحدهما يتجه شمالا ويعرف باسم ترعة العباسية التى تغذى بورسعيد والقنطرة ومحطات القتال الأخرى بالمياه الحلوة . والآخر يتجه جنوبا ويسمى ترعة السويس .

ومتحف القناة بالاسماعيلية زاهر بالآثار التى عثر عليها أثناء حفر القناة وأهمها تمائيل تل المسخوطة وتمائيل الملك دارا ( ملك الفرس ) . وشواهد الترع التى أقيمت لتوصيل مياه النيل الى تلك المنطقة والتى كانت تقوم مقام ترعة الاسماعيلية الحالية منذ العهد الفرعونى ، وغير ذلك من الآثار التى كانت في تلك المنطقة منذ أقدم العصور التاريخية . هذا بالإضافة الى آثار حفلات افتتاح القناة وما تركته الامبراطورة أوجينى من أدوات الزينة ومخلفات فرديناندى لسبس .

وعلى بعد بضعة كيلومترات الى جنوب المدينة يوجد نصب تذكارى أقيم تخليدا لذكرى الدفاع عن قناة السويس التى حاول الأتراك الاغارة عليها سنة ١٩١٥ ولكنهم فشلوا . وقد وقع الهجوم التركى في المنطقة المعروفة الآن بمحطة طوسون ومزار سيدى التديك وهو مزار له شهرته بين سكان المنطقة .

ويتصل بالاسماعيلية طريق مصر فلسطين ، ذلك الطريق الحربى الذى نصت عليه المعاهدة الانجليزية المصرية سنة ١٩٣٦ . وقد أقيمت هذه المعاهدة أثناء العدوان

---

(١) القرزى ج ١ ص ٣٤٣

سنة ١٩٥٦ . ويبدأ هذا الخط من الشاطئ الشرقى للقناة مقابل مدينة الاسماعيلية إلى ناحية عوجه الحفير بالقرب من حدود فلسطين بطول ٢٢٣ كيلو متراً . وتصل من الاسماعيلية إلى بوابة هذا الطريق بواسطة معدية تحتاز عليها القناة من القرب إلى الشرق . وهذا الطريق صالح لسير السيارات ذات الاطارات المفتوحة منها يكن قهلاً . ويتبى الطريق على بعد ٧ كيلو مترات من عوجه الحفير بالقرب من الحدود المصرية الشرقية ، وعلى بعد ٢٠٠ كيلو متر من الاسماعيلية توجد نقطة بوليس الحدود المعروفة باسم ( أبو عجيلة ) .

وكانت الاسماعيلية تابعة إدارياً لمحافظة ائقال ، وكانت تمثل قسماً من أقسامها ، وهى تشتمل على عدة شياخات كالنساح وفردان ونفشة . كما تحتوى على تقطى بوليس وهما نقطة أبو صبور ويتبعها السبع آبار الشرقية والغربية والمحسة الجديدة والقديمة ونقطة فايد ويتبعها سرايوم وفايد ، وظلت الاسماعيلية تابعة لمحافظة ائقال إلى سنة ١٩٦٠ وفى سنة ١٩٦١ جعلت محافظة مستقلة وسيكون موضعها الجديد أثره الطيب فى المستقبل القريب .

\*\*\*

## محافظة السويس

السويس بصيغة التصغير كما وردت فى الخطط التوفيقية<sup>(١)</sup> مدينة على الجانب الغربى لخليج السويس المسى بالبحر الأحمر ، وتفر من ثغور مصر ، وفرضة لتجارات جزيرة العرب والهند والسودان . واقعة فى شرق القاهرة وقد خلفت مدينة القلزم . وجاء فى الخطط المقرزية<sup>(٢)</sup> : ان مدينة القلزم قد خربت ويعرف الآن ( القرن الخامس عشر ) موضعها بالسويس ، وان اسم القلزم كان باقيا لها من زمن الفاطميين .

وقد كان لمصر فى عصورها التاريخية ميناء عند النهاية الشمالية لخليج السويس ، نفى العصر الرومانى لما استمر انسحاب البحر الأحمر إلى الجنوب ، وانفصلت عنه البحيرات المرة ، كانت ميناء مصر الجنوبية هى مدينة « كليستا » التى سماها العرب مدينة القلزم وسماها بجرها بحر القلزم . ومدينة القلزم كما وصفها المقدسى<sup>(٣)</sup> : بلد يابس لا ماء ولا كلاً ولا زرع له . وكان الماء يحمل إلى أهله فى المراكب من موضع على بعد يريدى يسمى السويس .

(١) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٦٩

(٢) المقرزى ج ١ ص ٣٤٣

(٣) المقدسى ص ٥٨

وكانت القلزم نقطة عسكرية هامة على البحر الأحمر ، وإن التل المرتفع القائم بجوار السويس لا يزال يعرف باسم قلعة القلزم . وفي القرن العاشر الميلادي نشأت قرية صغيرة جنوبي مدينة القلزم اسمها السويس ، وما لبثت أن طغت على القلزم وأصبحت هي ميناء مصر على البحر الأحمر . ويقول ياقوت (١) : أن السويس بلدة على ساحل بحر القلزم ، ( البحر الأحمر ) وهو ميناء أهل مصر إلى مكة والمدينة . بينها وبين الإسقاط سبعة أيام في برية معطشة ، ويحمل إليها الميرة من مصر على ظهور الجمال ثم طرح في السفن ويوجه بها إلى الحرمين .

وفي القرن السادس عشر ، كان الأتراك بعد احتلالهم مصر سنة ١٥١٧ م يشعرون بأنهم مهددون من جهة البحر الأحمر فكانوا يرسلون من القسطنطينية سفناً حربية كانت تصل إلى دمياط ورشيد ثم تفك قطعاً قطعاً وترسل براً على ظهور الجمال إلى السويس حيث يعاد تركيبها . ولم تكن السويس في هذا العصر صالحة للإقامة بها لعدم توافر مقومات الحياة وقلة المياه العذبة بها . ولذلك اعتبرت موقعاً حريباً يقيم فيه حامية من الجنود ، وقد بنى بها على أحد المرتفعات قلعة حصينة ، وأقيمت بها دار لصناعة السفن ( ترسانة ) . وتشير الخطة التوفيقية (٢) إلى ذلك فتقول : كان لها أهمية في جميع العصور وفيها دائماً من طرف حاكم مصر رابط من العسكر المحافظين . ولها حاكم يقيم بها ومحل للجحرك يؤخذ فيه عوايد البضائع الواردة لمصر . وكان ينقل إليها من مصر على ظهور الابل المراكب التي يقتضى الحال انشائها في مينائها .

وكان يسكن السويس قليل من أهل الحجاز والطور ومصر وكانت بيوتهم مبنية من الدش قليلة الارتفاع أكثرها من طبقة واحدة وفي بعض منها غرف قليلة يتخذونها من تقفيات الخشب مملوء وسطها بالونة والأحجار الصغيرة وهي المعروفة ( بالسويسية ) نسبة إلى السويس . وفي موسم الحج يرد إليها كثير من العرب لبيع أشياءهم ثم يعودون إلى أوطانهم لعدم وجود الماء العذب بها ، وكانوا يشربون من عيون ممتلحة ، بعيدة عنها كهين غردة وعين بهوق وعين موسى وقيل إنها خمس عشرة عيناً .

وكانت مدينة السويس وغيرها من البلاد الواقعة على منطقة قناة السويس الحالية تغذى

( ١ ) معجم البلدان ج ٥ ص ١٨١

( ٢ ) الخطة التوفيقية ج ١٢ ص ٩٥



بالمياه العذبة بعد الفتح العربي لمر ، من قناة تعرف باسم خليج أمير المؤمنين ، ذلك أن عمرو بن العاص بعد أن استتب له الأمر فيها استأذن الخليفة عمرو بن الخطاب في حفر قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط مباشرة ولكن الخليفة رفض خشية أن يستخدم الروم هذه القناة في أغراض عسكرية ضد العرب ، إلا أنه حين عم الجلبد جزيرة العرب أمر عمرو بن العاص بإعادة حفر القناة القديمة التي كانت تصل القلزم بالنيل مرة بالبحيرات المرة وبوأنى الطبيلات لإرسال الطعام والغلال إلى الحجاز .

وكانت هذه القناة قد أهمل أمرها وخفيت معالمها ، وقيل أن عمرو بن العاص استعان بمن يدلّه على موضعها من القبط وأجازه برفع الجزية عنه . وسرعان ما تم حفرها واستخدمت في فيضان سنة ٦٤٤ م . وهكذا نعت مدينة السويس وغيرها من بلاد المنطقة بالمياه العذبة . وظل خليج أمير المؤمنين ينتفع به حتى أمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بسده سنة ٧٥٣ م حين خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ليقطع عنه الطعام . وقيل أن هذا الأمر نفذ في الجزء الأخير من الخليج بمنطقة برزخ السويس فقط ، قبلى بحيرة التمساح ، وبذلك حرمت بلاد هذه المنطقة من مياه النيل .

وفي سنة ١٨٦٣ عادت إلها المياه العذبة من ترعة الإسماعيلية فعاد إلى مدينة السويس نشاطها وحيويتها وزاد عمرانها وعدد سكانها . وفي سنة ١٨٦٩ م اقتضت قناة السويس وأضحت مدينة السويس نقطة هامة في الاتصال بين الشرق والغرب ومحطة عالمية لتغذية البواخر والمصانع بالمازوت . كما أن الحركة التجارية في مينائها زادت زيادة كبيرة بسبب الصلات التجارية مع الهند ، وإسترااليا واليابان ، وما نشأ من علاقات تجارية مع موانئ أفريقيا الشرقية وهى من الناحية الادارية صارت محافظة مستقلة .

ويقول بعض الباحثين أن السويس كانت قبل فتح قناة السويس ذات قيمة تجارية كبيرة ، فكانت تجارة الهند والصين واليابان الذاهبة إلى أوروبا تنصب إلها ثم تحمل منها على الخطوط الحديدية إلى الاسكتلندية ومنها توجه إلى أوروبا فكانت حركتها في ذلك العهد نشيطة . أما بعد فتح القناة فصارت السفن تخترق القناة دون أن تمر على السويس ولا ينزل إلها من البضائع إلا ما هو خاص بمصر ، لذلك اعترى هذه المدينة قور تجارى بقيت معه بطيئة الحركة . وتنهصر قيمة السويس اليوم في كونها المدينة المتوسطة بين مصر والحجاز فيجتمع بها حجاج بيت الله الحرام في مواعيد مقررّة من كل عام ، فنروج تجارة

المدينة وتنشط حركتها وتكون أشبه بعرض لكثير من الأمم . ولكن النظام الذى وضعته الحكومة مراعاة للصحة العامة أفضى إلى أنه لا يشخص الحاج إلى السويس إلا قبيل سفره يوم واحد ، وقد كان الحاج قبل ذلك يمكث في السويس عدة أيام ، فعاد هذا كله بالكساد على التجارة .

قناة السويس : وفي سنة ١٨٥٤ حصل المهندس الفرنسى فرديناند دى لابس من الخديو محمد سعيد باشا على امتياز بحفر قناة السويس واستغلالها لمدة ٩٩ سنة تبدأ من يوم افتتاح القناة ثم استبدل سنة ١٨٥٦ بعقد آخر أتم وأكثر وضوحا ، وكانت شروطه الامتيازية بحفنة بمصر كل الاجحاف . ويكفى أن تضع الشركة يدها على مساحة واسعة من الاراضى المصرية تكاد تكون شبه مستعمرة فرنسية شرق الدلتا بلا مقابل وبدون ضرائب وأن يستغل المناجم والحاجر بلا ثمن ولا ضريبة ولا تعويض . وفي سنة ١٨٥٨ م تم تأليف شركة القناة الدولية وطرح أسهمها للاكتتاب فاكتسبت مصر في ١٧٧٦٤٢ سهما قيمتها ٩٠ مليون فرنك أى حوالى نصف رأس المال . وفي عهد اسماعيل وقع نزاع بينه وبين الشركة بإيعاز من السلطان الموعز اليه من الحكومة الانجليزية لتخفيف بعض شروط الامتياز واتبى النزاع بتحكيم نابليون الثالث أمبراطور فرنسا فأقر الحكومة المصرية على معظم مطالبها ولكن مقابل تعويض مالى فادح بلغ ٨٤ مليون فرنك ، وعلى ذلك صدرت موافقة السلطان على عقد الامتياز في سنة ١٨٦٦

وافتححت القناة رسميا في سنة ١٨٦٩ م في حفل عظيم دعا اليه اسماعيل كثيرا من ملوك أوروبا ومن الأمراء والوزراء وقد أنفق على حفلات الافتتاح مبالغ باهظة قيل أنها تقرب من ١٦ مليون جنيه .

ولما حدثت الثورة العرابية ، احتل الانجليز قناة السويس ومنعوا إستعمالها للتجارة فحمل ذلك الدول على عمل اتفاق دولي يحتفظ فيه القناة بحريتها التامة زمن الحرب والسلم ، وكان ذلك في معاهدة القسطنطينية سنة ١٨٨٨ ، كما أنها أعطت مصر الحق الاول في الدفاع عن القناة وتنفيذ أحكام الاتفاقية .

وقد كان لمصر ما يقرب من نصف رأس مال الشركة إذ كانت تملك ١٧٧٦٤٢ سهما وكان في هذا الضمان الكافي لسيطرة الحكومة المصرية على الشركة وعلى أعمالها وضمان الحصول على نصف أرباح المشروع . ولكن عما يؤسف له أن الخديو اسماعيل باع هذه الأسهم

إلى الحكومة الإنجليزية في سنة ١٨٧٥ م بشن بخص وهو أربعة ملايين من الجنيهات وهو ما يعادل نحو ربح ما أُنقذ على حفلات الافتتاح . ونحمد الله ان استردت مصر قناتها في عهد الثورة المجيدة إذ أُنمت سنة ١٩٥٦ ودفعت للمساهمين في الشركة تعويضات مجزية .

والسويس بلدة جميلة المنظر بها حدائق كثيرة غرست حديثاً بعد اتصال ترعة الاسماعيليه بها ، وقد بذل السويسيون في غرسها نفقات كثيرة وجهداً شاقاً لأن أرضهم قاحلة بطبيعتها . والسويس من المناطق الساحلية المعروفة باعتدال جوها وجفافه صيفاً وشتاءً ، فهو الثغر الوحيد في مصر الذي تجبعت له من البحر والصحراء والجبال ما يصح أن تفاخر به أشهر أماكن الاصطياف في العالم .

ومن مصايفه : مصيف جبل عتاقة ومصيف السخنة وهي مصيف ومشق في آن واحد إذ توجد في هذه المنطقة عين ساخنة ولذلك سميت السخنة تدفق منها مياه ساخنة فيها كثير من الكبريت ، وقيل ان هذه العين تشبه عيون المياه في يريه باليونان .

وقد تكونت قرية الجنائين من الوجبة الادارية سنة ١٩٢٢ وفي سنة ١٩٢٦ انفصلت من زمام مدينة السويس من الناحية المالية ومن تلك السنة أصبحت ناحية قائمة بذاتها تابعة لمحافظة السويس .



## محافظة الوادى الجديد

تشمل هذه المحافظة على عدد كبير من واحات الصحراء الممتدة غربى وادى النيل بالجمهورية العربية المتحدة . وكان بعض هذه الواحات يتبع من الناحية الادارية محافظة الصحراء الغربية التي تكونت سنة ١٩٤٦ ، وكانت قاعدتها مدينة مرسى مطروح . وفي سنة ١٩٦٠ فصلت الواحات البحرية والفرافرة عن محافظة الصحراء الغربية ، التي تغير اسمها وأصبحت تعرف باسم محافظة مطروح وضمت إلى الواحات الداخلة والخارجة وأصبحت تكون محافظة الوادى الجديد .

ويقال أن لفظة ( واحة ) كلمة مصرية قديمة معناها مكان للراحة والواحد مفرد جمعها واحات وهي عبارة عن قطع متفرقة من الأراضي الزراعية وسط الصحراء ، وتروى

أراضيها من ماء يخرج طافيا من عيون تنفجر من باطن الأرض. وجاء في معجم البلدان<sup>(١)</sup>:  
أن الواحات ثلاث كور غربي مصر، ثم غربي الصعيد، ألواح الأول أوله مقابل الفيوم  
ممتد إلى أسوان وهي كورة عامرة ذات نخيل وضياء حسنة وفيها تر جيد أغزر تمر مصر،  
وهي أكبر الواحات. ووراءها كورة أخرى يقال لها واح الثاني وهي دون تلك في العماره  
وكورة أخرى يقال لها واح الثالثة وهي دون الأولين في العماره ومدينة الواح الثالثة يقال  
لها سترية (مبوة).

ويقول المقرئ<sup>(٢)</sup> في خطه «الواحات منقطعة وراء الوجه القبلي في مغاربة ولا تعد  
في الولايات ولا في الأعمال ولا يحكم عليها من قبل السلطان وال إنما يحكم من قبل  
مقطعها. وبلاد الواحات بين مصر والاسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة، بعضها  
داخل ببعض وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره، ولا يفتقر إلى سواه، وأرضها شبة  
وزاجية وعيون حامضة الطعم تستعمل كاستعمال الحبل، وعيون مختلفة الطعوم من الحامض  
والقابس والمالح ولكل نوع منها خاصية ومنفعة، وهي على قسمين واحات داخلية  
وواحات خارجه.

ويقول المسعودي في كتابه<sup>(٣)</sup> مروج الذهب: «وصاحب الواحات في وقتنا هذا  
وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة عبد الملك بن مروان، وهو رجل من إواته (اسم قبيلة)  
إذ أنه مرواني المنصب (أو أنه يميل إلى الدولة الأموية القائمة في ذلك الوقت في بلاد  
الاندلس) ويركب في آلاف من الناس خيلا ونجيا ثم يضيف «إن بالواحات شجرة  
نارج يقطف منها في سنة واحدة أربعة عشرة ألف حبة نارج صفراء سوى ما يتأثر وسوى  
ماهر أخضر. ويقول أنه في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة صار ملك النوبة في جيش  
عظيم إلى الواحات فأوقع بأهلها وقتل منها وأسر كثيرا» ويقول المقرئ «وبالواحات  
الشب الأبيض بواد تجاه مدينة ادق».

ومن أهم الظواهر الطبيعية في الواحات غرود الرمال أو تلال الرمال السبالة المتحركة،  
وهي تلال رملية هلالية الشكل لها خاصية الحركة البطيئة نحو الجنوب لذلك كان

(١) معجم البلدان ج ٨ ص ٣٧١

(٢) المقرئ ج ١ ص ٣٧٧

(٣) المسعودي ج ٢ ص ٢٢٢

خطرها عظيماً على المزارع والباني ، وكم من بلدة زالت ونخيل طمس وطريق ردم تحت رمال هذه الغرود ، التي تعد أخطر أسلحة ضد الإنسان في الواحات . وتجمع هذه الغرود في شكل مجاميع ، كالبحر المتماوج وتختلف في الارتفاع وقد تصل أحياناً إلى ( ٥٠ ) متراً وفي الاتساع نحو ( ١٠ ) كيلو مترات .

وقد ردمت الغرود كثيراً من العيون والآبار بجهة ( باريس ) بالواحة الخارجية واكتسحت النخيل بناحية ( عين القضاء ) بالواحة الداخلة وهي الآن هدد بلدة جناح بالواحة الخارجية . كما ردمت طريقاً للقوافل بين الواحة الداخلة والكفرة ، ويقال أن جيش قديم ملك الفرس الذي أتى لغزو مصر سنة ٥٢٥ م ، وكان عدده ٥٠ ألف محارب اختفى تحت هذه الرمال ولم يثر له على أثر ، عندما كان متجهاً لغزو واحة سيوه فادماً من جهة طيبة .

ويسكن أرض الواحات الممتدة غرب النيل فريقان من البدو <sup>(١)</sup> السعادي والمرايطين . السعادي وهم أولاد ( سعدى ) وقد اتفق المؤرخون على أنهم انحدروا جميعاً من ( أبو ديب ) الذي ينتسب إلى قريش ، وإن والدهم سعدى بنت غازية الهلالية ( من نسل قبيلة بني هلال المنتسب إليها أبو زيد الهلالي ) . ويظهر أن هذه القبائل سميت نفسها بالسعادي تمييزاً لها عن القبائل الأخرى من سلالة ( أبو ديب ) من زوجاته الأخريات فقد ذكر ابن خلدون في تاريخه ، إنه كان بمدينة مسراطة زعيم عربي كبير يسمى أبو ديب وكان له نفوذ عظيم ، في إقليم برقة وطرابلس . وقد أنجبت سعدى ثلاثة أولاد وهم جبريل وبرغوث وعقار ، ومن ذرية جبريل : العواقر والعرقيات والمغاربة والحواقي وفروعهم ومن ذرية برغوث : عبيد والعرقة والفوائد وفروعهم ومن ذرية عقار : علي وخديجة وبني عون والهنادي والحواقي وفروعهم . أما « المرايطين » فقد اختلف الرواة في أصلهم فبعضهم يقول أنهم أنتم من السعادي ، وإنهم متفرون وهذا سبب ضعفهم وأن كل قبيلة منهم في حمى قبيلة من السعادي . ويقول بعض الرواة أن السعادي كانوا أقوى وأجساماً البلاد فالتحقن فدخلت بعض القبائل الأخرى في حمايتها لضعفها فسوا ( بالصدقان ) أو الأصدفاء ، ولما كانت قبائل السعادي تقوم بالغزو فكانت تكلف قبائل الصدقان بالحفاظة على الحدود في نقط معينة ترابط فيها فمن ذلك مسوا بالمرايطين . ويقول حسن محمود في كتابه « دولة المرايطين »

في تفسير كلمة الرباط: الرباط معناه ملازمة نهر العدو ومعناه أيضاً المحافظة على أوقات الصلاة ، فقد ذهب الامام الطرطوشي أمام هذا المذهب حين فسر الآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» بقوله « وربطوا فيه قولان قيل رابطوا على الجهاد وقيل رابطوا على انتظام الصلوات . والجهاد في سبيل الله من أخص صفات المراقبة ، الجهاد في الثغور حيث ترابط خيل المقاتلة تحمي حياض المسلمين وترد عادية المعتدين » .

وكان « المرابطون » موزعين على الآبار والزوايا فتفرغوا فيما بعد للمعيشة الزراعية والدينية وقعدوا الروح البدوية العسكرية ، في حين أن السعالي احتفظوا ببادتهم من رعى النظم والانتقال في الفياض والجبال . وكان على كل قبيلة من قبائل المرابطون أن تدفع لقبيلة السعالي التي تحميها جملاً سنوياً يعرف ( بالصدقة ) ، على أن المرابط ملازم في الوقت نفسه أن يحارب مع السعالي في حالات الغزو والحرب .

وأهم قبائل المرابطون<sup>(١)</sup> هي المنفة والموالك والشواعر والقطعان والجوايض والجرارة والحوتة والحبايل والتراكي والشيبات والقواصر وترهونة والعوامة والقداذفة والسالموس والهرجحات والقريصات وحبون والشريصات وخريتهم .

ولقد بلغت قبائل السعادي والمرابطون من الثروة وقوة النفوذ أن استطاعت أن تضع قانوناً بدوياً ، هو التشريع المعمول به الآن في منطقة الصحراء الغربية ، فقد اجتمع شيوخ قبائل السعادي والمرابطون ومعهم بعض القضاة وكان ذلك بجهة ( الحجة ) التي تقع جنوبى مدينه درنة بإقليم بنى غازى حيث تم وضع أسس القضاء البدوى الذى ظل معمولاً به بينهم حتى أنشئت مصلحة الحدود سنة ١٩١٧ م فأقرتهم عليه لما لاحظته من أنه مناسب لآحوالهم . أما الآن فقد أصبحت محافظة الوادى الجديد تتبع القانون والقضاء المعمول به في باقى أنحاء الجمهورية العربية المتحدة .

الواحات البحرية : تعرف الواحات البحرية باسم واح الهنسا<sup>(٢)</sup> ، وهى تقع غربى محافظة النيا والمسافة بينها وبين بلدة الهنسا على بحر يوسف بمحافظة النيا تبلغ ٣٠٠ كيلومتر وكانت هذه الواحات تتبع محافظة الصحراء الغربية وفي سنة ١٩٦٠ فصلت منها وأصبحت

( ١ ) المرابطون - حسن محمود ص ٩٦

( ٢ ) المخطط التوفيقية ج ١٧ ص ٣٠

تكون قسماً من محافظة الوادى الجديد ومركزها قرية البايوطى . كما تتبع الواحات البحرية واحة صغيرة تسمى واحة الفرافرة تقع إلى الجنوب منها ومقرها قصر الفرافرة .

ويوجد بالواحات البحرية ( أو الصغيرة كما وردت فى المخطط التوفيقية ) خمس قرى وهى منديشة والذبو ومنديشة العجوز والبايوط والقصر . يزرع فيها الشعير والأرز والبرسيم الحجازى ، وقليل من القمح ، كما يزرع بها بعض الحضر مثل البامية والملوخية والقرع والمقائى والبصل . وبساتينها عامرة بمختلف الفواكه .

وبالقرب من الواحات البحرية يوجد عدة أودية متسعة بها ماء ومراع وربما زرع بها الأرز ، ومن أهم هذه الوديان ، وادى الحارة وهو يتبع قرية منديشة وادى عيون يبحوم ، ويتبع قرية الذبو وادى الحيوز ويتبع قرية القصر .

الواحات الداخلة : تقع إلى الغرب من الواحات الخارجة والمسافة بينهما تبلغ ١٨٠ كيلو متراً والمسافة بينها وبين وادى النيل ٢٨٠ كيلو متراً ، وعرفت بالداخلة لأنها متوغلة فى الصحراء . وهى أكبر الواحات وأكثرها محصولاً ، وكانت تتبع محافظة الصحراء الغربية الجنوبية أما الآن فهى تتبع محافظة الوادى الجديد . وتشتمل الواحات الداخلة على عشر قرى ، وهى : بلاط وبندخلو وأسمت والقصر والمعصرة وقلون والهنداوى والجديدة والمنديشة وموط وهى القاعدة .

ويوجد بمعظم تلك القرى حدائق غنية بها كهنبا مثل المشمش والبرقال والرمال والعنب والعناب والتين والزيتون والموز والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق وغير ذلك . ويوجد فى الواحات الداخلة نحو من ٤٦٤ عينا تسيح مياهها على الأرض . وربما اشترك جماعة فى عين فيقتسبون الماء لسق زرعهم ونخيلهم وجاء فى المخطط التوفيقية ان الضرائب التى كانت تدفعها الواحات الداخلة فى أوائل القرن العشرين كانت تبلغ ٨٤٦١١ قرشاً وكانت الضريبة تفرض على العيون وليست على الأرض . وكان عدد النخيل فى الواحات الداخلة يبلغ ٢١٣٩٥٣ نخلة ، تحصل عليها الدولة ضريبة مقدارها ١٦٨ جنياً . أما أشجار الفاكهة فكانت تدفع عليها ضريبة أخرى هذا بالإضافة إلى ما كانت تدفعه الواحات للصيارفة ورجال الحملة الذين يأتون لحماية الصيارفة ، ويبلغ مجموع ما كانت تدفعه الواحات الداخلة من الضرائب ٥٤٥ جنياً وهو مبلغ لا يستهان به فى ذلك الوقت .

وبقرية بدخلو طائفة تعرف باسم (الشريجية) تزعم أنها من سلالة المالك الشراكسة،  
وهي تتمتع بمركز ممتاز في هذه القرية وكانوا يلبسون الملابس الفاخرة . وتتصل الواحات  
البحرية بمحافظة أسبوط عن الطريق المسبي بالدرج الطويل الذي يتبدى من ناحية  
بنى عدى وبمر بقرية بلاط .

الواحات الخارجة : تقع غربى قنا وتتصل بوادى النيل عن طريق خط مسكة حديدية  
طوله ١٩٨ كيلو متراً يخرج من (محطة مواصلة الواحات) الواقعة شالى محطة فرشوط بمركز  
نجع حمادى بمحافظة قنا وتشمل الواحات الخارجة على أربع قرى هى الخارجة وهى القاعدة  
وجناح وبولاق وباريس .

ويوجد بالواحات الخارجة ٦٦٩٣٠ نخلة ( كما يقول على مبارك فى أوائل  
القرن العشرين ) عليها من الخراج مبلغ ٥٢٧ جنبا كما يوجد بها ٦٥ عين ماء تدفع كل عين  
خراجاً سنوياً مقداره ٣٥٩ قرشاً ، وبذلك يكون مقدار خراج العين هو ٢٣٣ جنبا .

وإلى الجنوب من الواحات الخارجة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من عين الماء المرة التى  
توجد جنوب بلدة باريس يوجد المكان الذى يستخرج منه معدن الشب من أقدم العصور .  
فقد ورد فى خطط القرزى (١) : « أنه كان على مقطعى الواحات فى أيام الملك الكامل  
محمد بن العادل وأيام ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب حمل ألف قطار من الشب كل  
سنة إلى القاهرة » وجاء فى قوانين ابن ممتا (٢) « الشب حجر يحتاج إليه فى أشياء كثيرة  
أهمها الصبغ ، ومعادنه بصحراء صعيد مصر ، وعادة الديوان (ديوان الخراج) أن ينفق  
فى تحصيل كل قطار منه ثلاثين درهما وربما كان دون ذلك . وتهبط به العرب من معدنه  
( موطنه ) إلى ساحل قوص وإلى ساحل أخميم وسيوط . وإلى البهسا ويحمل من أى ساحل  
كان إلى الاسكندرية أيام جرى الماء فى خليجها » .

وكان طريق القوافل الآتية من دارفور بالسودان ، والذى كان يعرف باسم درب  
الأربعين ، ينتهى عند باريس ، فكان الحاكم الموفد من قبل حاكم جرجا يرسل عند ورود القافلة  
بشيرا الى مدينة أسبوط ، فترسل جماعة من العسكر لثقلها لتجرى حصر البضائع الواردة  
معها ثم يؤخذ الجمرك عنها . وكانت الواردات السودانية تتكون من الإبل والرقيق ومن  
القليل وريش النعام ومن الحرثيت والتمر هندي والنطرون والصبغ وجلود التماسيح والأفاعى .

(١) للقرزى ج ١ ص ٣٨٠

(٢) ابن ممتا ص ٢١٧



## محافظة البحر الأحمر

كان ولا يزال يسكن في بادية الصحراء الشرقية الجنوبية بين النيل والبحر الأحمر قبائل البجة أو البجاء التي ترجع معظم الروايات أنهم من سلالة أولاد كوش بن حام الذين هاجروا إلى السودان بعد الطوفان . ومن المقطوع به أنهم من سلالة غير السلالة الزنجية وأنهم من أقدم شعوب أفريقيا وإن لم ينشأوا فيها بل هاجروا إليها من آسيا عن طريق البحر الأحمر من عهد بعيد . وكلمة البجا محرفة من كلمة ( الججا ) المشتقة من كلمة ( الماجوى ) ومعناها في الفرعونية الحارس أو المحارب ، وقد استخدمهم المصريون القدماء في أعمال الحرب وحراسة حدود الصحراء ، وكان المصريون القدماء يطلقون على هذه القبائل اسم ( المازوى ) أو ( الماجوى ) بمعطيش الجيم ويقول الأستاذان ( بترى ) و ( سلاجان ) بأن الفراغة والبجا شعب واحد . وقد عاش هذا الشعب طوال تلك العصور منعزلا عن العالم القريب منهم حتى في أشد أوقات العسر ، عند انقطاع الأمطار وجفاف الوديان ، وظلوا ملتصقين بأرضهم في عزم وصلابة وهذه إحدى مميزاتهم . والمنطقة التي يعيشون فيها على ساحل البحر الأحمر ( أو الصحراء الشرقية ) يكاد يحدها شمالا الطريق بين قنا والقصر وجنوبا إلى حدود الهضبة الحبشية ، ويقدر عددهم الآن بنحو مائون ونصف يقطن ثلثهم تقريبا داخل حدود الجمهورية العربية المتحدة . ويمل تاريخ شعب البجة <sup>(١)</sup> على أنهم محاربون، دائبو المعارك في كل العصور ، كما يستدل على ذلك مما عثر عليه في أوراق الهدي التي ترجع إلى الدولة المتوسطة ، فقد عثر على خطاب أرسله الملك ( خاني ) إلى ولي عهده وسماهم الأعراب ( بأن لا تعادهم ولا تحاربهم لأنهم يضربون ويهربون في الجبل وحربهم غير مجدية لأنهم لا يملكون غير أرواحهم ) . وكان ولا يزال سلاحهم السيف والدرع وهي ترس يردون بها عن أنفسهم ضربات الأعداء .

ومضى القرنان الأخيران من حكم الرومان في مصر ، ولم يسمع عن قبائل البجة صوف في التاريخ ولعل ذلك راجع إلى انشغال الرومان في حروبهم مع الفرس ، فعادت قبائل البجة إلى حياتها القديمة حول الجبال .

(١) المقرئى ج ١ ص ٣١٣

وبعد فتح العرب <sup>(١)</sup> لمصر سنة ٦٤١ م تدفق العرب على مصر وبلغ عدد القبائل التي نزلت مصر وشمال افريقية نحو ٢٢ قبيلة ما بين مدنانية وقطانية . وبعد الفتح بأربعة أعوام استأذن عبد الله بن أبي السرح عمرو بن العاص ، في غزو الجنوب فصار في عشرين ألف مقاتل من مختلف القبائل العربية ، وانحدر الجيش نحو بلاد النوبة وكان بينهم ثلاثة من أبناء الصحابة يسمون باسم عبد الله وهم : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، وغزوا مملكة النوبة وتغلبوا عليها واستوطن بعضهم جنوب مصر واندجوا مع قبائل البجة وسار بعضهم إلى السودان . وقد أدى هذا الاندماج إلى إسلام قبائل البجة ، بل إن القبائل في مصر والسودان أصبحت تفخر بأنها تنسب إلى قريش وقد اختارت البجة الزبير بن العوام للاتساق اليه ، وقد قوى هذا النسب بمجيء عبد الله بن الزبير بن العوام على رأس الجيش الذي غزا النوبة ، وبذلك تجاهلت البجة أصلها العريق واصطنعت النسبة إلى الزبير بن العوام .

وتقيم قبائل البجة المقيمة بمصر إلى قسمين كبيرين هما العبابدة والبشاريين وينسب العبابدة أنفسهم إلى الزبير بن العوام ، وأن جدهم (عباد) المدفون في وادي عباد بالقرب من مدينة ادفو ويقال أنه من نسل الزبير بن العوام ، ومن أجداد العبابدة عزاز الذي ينحدر من (كهيل) وهو جد قبيلة الكواهلة إحدى القبائل العربية المستوطنة كردفان بالسودان . ويقول ابن بطوطة <sup>(٢)</sup> في رحلته (سنة ١٣٥٣ م) أنه شاهد بعض قبائل أولاد كهيل (الكواهلة) تقيم على ساحل البحر الأحمر بالقرب من عيذاب .

ويسكن العبابدة في الصحراء الجنوبية الشرقية ويفصلهم عن قبائل المعازة شلالا خط يمتد تقريبا من قنا على النيل إلى بلدة الغردقة على البحر الأحمر . وجنوباً إلى حدود السودان كما يقيم بعضهم بالقرب من شواطئ النيل . وهناك جماعة من قبائل العبابدة تمكن الدلتا في محافظات الشرقية والدقهلية والغربية . ويقال أنهم انفصلوا من قبائلهم الأصلية سنة ١٥١٩ م عقب فتح الاتراك لمصر . وتنقسم العبابدة إلى أربعة فروع (أوبطون) تعرف بالمائر أو اليدنيات ، وهى المشاباب والمليكاب والفقرا والبوديين ويلاحظ أنها تنتهى دائماً بكلمة آب وكلمة (آب) بالبحارية معناها أبناء أو أولاد .

(١) البيان والاعراب ص ٢٥

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١١٧

والقسم الثانى من البجة وهم البشاريين أو البشارية ، فهم مثل العباددة ويرجعون نسبهم إلى الزير بن العوام كذلك ، وإن جدهم كاهل ، ويقال أن « كاهل » أعقب ثلاثة عشر ولداً وأن أحدهم اسمه ( بشار ) وهو جد البشاريين ( ويقال ) أنه من نسل الزير . وصلة البشارية بمصر قوية وهم يعتبرون بلدان أسوان ودرأو أسواقا لهم . وهم ثلاث فرق ، واحدة تسكن على البحر الأحمر من القصير شمالا إلى سواكن جنوبا والثانية على نهر عطبرة بالسودان والثالثة فى جزيرة عذباى وكل فرقة تنقسم إلى عدة بلديات . ( أو بطون ) ، وأهم هذه البطون الحميد وراب ، التى تسكن منطقة المراعى عند جبل علبة وعلى السهل الساحلى من بشر الشلاتين إلى حدود السودان . والعائلة الحاكمة فى قبائل البشارية تدعى ( بطراناب ) نسبة إلى العمدة بطران على توييف .

ومن الواضح أن قبائل البجة قسميا ( العباددة والبشارية ) قد تأثروا بالاسلام تأثراً شديداً ولكنهم احتفظوا بلغتهم الحامية رغم معرفتهم العربية ، كما أنهم تأثروا أيضاً بالثقافة العربية إلى حد كبير ظهر واضحاً فى حياتهم الاجتماعية مع الاحتفاظ ببعض عاداتهم الأصلية التى نشأت معهم أو التى اقتبسوها من المصريين القدماء . ولغة البجة تسمى ( البدداوى ) أو ( بداويت ) وهى للمخاطبة فقط ولا تكتب ولذلك فليس لهم تاريخ قوى مسجل ، إلا ما يرويه جيل عن جيل .

البحر الأحمر : كان البحر الأحمر أحد الطرق الثلاثة المتبعة فى التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، وكان البيزنطيون يشجعون هذا الطريق لمقاومة احتكار أعدائهم الفرس لتجارة الهند ، فكانت المتاجر الهندية تفرغ فى موانئ يزنطة ، وفى الشمال كانت تفرغ فى القلزم ، ثم تنقل المتاجر بواسطة القناة التى تصل القلزم بالنيل ، والتى وجدت منذ عهد الفراعنة . وأعاد حضرها البطالمة والرومان وقد ظلت موجودة إلى أوائل القرن السادس الميلادى على الأقل . وفى الأوقات التى كانت ترحم فيها أجزاء من هذه القناة ، كانت تنقل المتاجر على ظهور الابل وعند وصولها إلى النيل ، تحمل حتى البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك كان يفرغ بعض متاجر الشرق فى ميناء Berenice القديمة والتى ظلت محظوظة بأهميتها التجارية إلى القرن الرابع الميلادى على الأقل .

ولما فتح العرب مصر فى القرن السابع الميلادى أصبح البحر الأحمر ، أو بحر القلزم

أو بحر جده ( كما كان يسميه العرب<sup>(١)</sup> ) أشبه ما يكون ببحيرة تفصل بين مركز الدولة الإسلامية في المدينة المنورة وبين أهم الأقاليم الخاضعة لها ألا وهي مصر . لذلك فقد ظهرت موان وتفرع على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر ونالت شهرة واسعة طوال العصر الإسلامي . ومن أهم هذه التفرع عيذاب<sup>(٢)</sup> .

**عيذاب :** ورد في رحلتى ابن جبير وابن بطوطة<sup>(٣)</sup> وفي الحطط المقرزية ، أن عيذاب كان فرضة ( ميناء ) على بحر القلزم ، وأنه لا علامة فيها ، ولكنها كانت من أشهر المراسى في البحر ، تأنى إليها سفن اليمن والحبشة والهند . وكانت طريق الحج المصرى يسير إليها الحجاج عن طريق قوص ثم يركبون البحر منها إلى جدة . وقد أفام حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتى سنة يتوجهون إلى الحجاز عن طريق عيذاب ، ثم بطل استعمال هذا الطريق في سنة ٧٦٦ هـ ( القرن الرابع عشر الميلادى ) . وجاء في الحطط التوفيقية<sup>(٤)</sup> : ان عيذاب كانت في محل مدينة بيرنيس القديمة ( برنيقة ) ( التى أنشئت في العصر البطلمى ) الواقعة على البحر الأحمر تجاه مدينة أسوان . ولكن محمد رمزى يعقب على ذلك فيقول : ان عيذاب لم تكن محل مدينة ( بيرنيس ) كما ذكر على مبارك ، لان هذه تقع على البحر الأحمر عند رأس بناس على خط عرض ٢٣ درجة ، يقابها من الغرب على النيل أسوان ، وأما عيذاب فكانت واقعة على البحر الأحمر جنوبى رأس أبو فاطمة على خط عرض ٢٢ درجة ، يقابها من الغرب على النيل قرية أبو سنبل التى بمركز الدر . وقد اندثرت عيذاب من القرن العاشر الهجرى ( السادس عشر الميلادى ) وتلاشى طريقها وتحول عنها طريق الحجاج والقوافل التى كانت تسير بين عيذاب وقوص ، إلى طريق السويس فالقبة فالساحل الشرقى للبحر الأحمر إلى جدة .

وقد جاء وصف عيذاب في ( درر الفوائد المنظمة في أخبار الحجاج وطريق مكة المعظمة ) انها مدينة على ساحل بحر جنة غير مسورة أكثر بيوتها الأخصاص ، وفيها بعض البيوت من الجبس وهى من أجل مراعى الدنيا ، وهى في صحراء لا نبات ولا يؤكل بها شيء إلا الجلوب ، ولاهلهما ضريبة على التجار والحجاج ، وما من أهلها من ذوى اليسار إلا من له

(١) معجم البلدان ج ٩ ص ١٥٤

(٢) المقرزى ج ١ ص ٣٤٣ ، رحلة ابن جبير ص ٢٨ ، المسالك والممالك ص ٨١

(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١٩ ، المقرزى ج ١ ص ٣٢٧ ، معجم البلدان ج ٦ ص ٢٤٦

(٤) الحطط التوفيقية ج ١٤ ص ٥٤

الجلبة ( السفينة ) . وفي بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر قريبة منها يستخرج منه جوهر اللؤلؤ النفيس . وجاء في رحلة ابن جبیر<sup>(١)</sup> وفي غيره أنه يوجد بصحراء عيذاب ( الصحراء الشرقية ) معدن الزمرد ومعدن النحاس . ثم يصف الطرق الموصلة بين قوص وعيذاب فيقول : المقصد من قوص إلى عيذاب على طريقين أحدهما يعرف بطريق العبدین وهو أقصر ، أما الطريق الآخر فيعرف بالجبينزي وهو طريق وع . وذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان ، أن الشاعر أبو الفتح نصر الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلائس اللخمي الأزهری الاسكندري القاضي ، المشهور بابن قاقس توفي ودفن بعيذاب سنة ٥٦٧ هـ = ( ١١٧١ م ) . وكذلك ذكر ابن بطوطة ، أن في طريق عيذاب بمنزلة حميرى قبر الولي الشيخ أبي الحسن الشاذلي العلوي الفاطمي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

\*\*\*

### محافظة سيناء

سيناء لغة الحجر ، قيل أنها سميت بهذا الاسم لكثرة جبالها ، وقيل أن اسم سيناء مأخوذ من سمين بمعنى القمر في العبرانية ، وسميت كذلك لأن أهلها كانوا قديما يعبدون القمر . ومن أسمائها شبه جزيرة طور سيناء أو جزيرة سيناء<sup>(٢)</sup> .

وكانت سيناء في أكثر عصورها التاريخية ، بل وبعد الفتح العربي تابعة لمصر . وفي الآثار الباقية بها عما أقامه المصريون من القلاع والأبراج ما يشهد بذلك ، وأنتم هذه القلاع الفرما من عهد الفراعنة وقلعة جبل المغارة وقلعة خربة الرطل من آثار الرومان وقلعة الباشا وقلعة مبعوق من أعمال صلاح الدين الأيوبي وقلعة نخل أقامها السلطان الفوري في درب الحاج لمحاتهم وقلعة الطور المنسوبة إلى السلطان سليم ، وقلعة العريش التي بناها السلطان سليمان لحماية طريق العريش بين مصر والشام ، وأكثر هذه القلاع قد تهتم ولم يبق منها غير ثلاث وهي قلعة الطور وقلعة نخل وقلعة العريش .

ولسيناء شهرة قديمة حفظها لها التاريخ وذكرت في الكتب المقدسة ففي القرآن الكريم جاء ذكرها في أكثر من سورة . ففي سورة التين قوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سين

( ١ ) رحلة ابن جبیر ص ٢٩

( ٢ ) نوم شقير ص ١٧

وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ، وفي سورة الطور « والطور  
وكتاب مسطور في رق منشور . . الخ » ، وفي سورة مريم « واذكر في الكتاب موسى  
انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا » ، وفي سورة  
المؤمنين : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ الأكابن » ، وذكرت في  
التوراه باسم « حوريب » ونزلت بها الوصايا العشر .

ومن سيناء عبر بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر مع سيدنا موسى عليه السلام .  
وفيها جبل طور سيناء ، وإليه تنسب البازرة كلها ، حيث كلم الله موسى ونجاه فعد  
من الأراضي المقدسة وغدا الجبل محجاً لأهل الشرق والغرب من اليهود والنصارى  
والمسلمين . وما زال هناك دير مشهور يزار إلى اليوم .

وفي سيناء منذ أمد بعيد طريقان تجاريان وحريان يصلان بينها وبين الشام وجزيرة  
العرب وهما « طريق القرم » على شاطئ البحر الأبيض إلى الشام والعراق وطريق  
« الفيرا » يخترق بلاد الطور إلى الحجاز . وبعد الفتح الإسلامي قام منها « طريق الحج »  
يخترق بلاد التيه إلى الحجاز ، و « طريق العرش » مارا بقطيف والعرش إلى الشام  
فالعراق ، وهى ما زالت الطريق البرى الوحيد الذى يصل مصر بالبلاد الشرقية عامة  
وبالبلاد العربية خاصة .

وسيناء غنية بثروتها المعدنية ، إذ يكثر في تلالها الحديد والمنجنيز ومادة الكاولين  
التي تصنع منها الأدوات الخزفية وفيها الفحلس ومناجم الفيروز وكان الفراعنة يعرفونه  
في بلاد الطور وأقاموا في بعض مناجمها هيكلا من أنفس هياكلهم وما زال من أهل الطور  
من يتجرون في الفيروز إلى اليوم وإن لم يعد دخلهم منه كما كان من قبل .

وفي باطن سيناء من البترول أو الذهب الأسود ما يكفل لسكان هذه المنطقة الحياة  
الكريمة في المستقبل القريب فقد اكتشفت بعض آبار البترول في واحة فيران في منطقة  
بئر عسل وغيرها . وما زال اكتشاف الآبار يتوالى مما يؤيد أهمية سيناء الاقتصادية فضلا  
عن أهميتها العسكرية .

ولسيناء ثروتها المائية من بحيراتها المتصلة بالبحر الأبيض ومنها بحيرة « البردويل »  
وبحيرة « الزرائيق » ويبلغ طول الأولى نحو ٧٠ كيلومتراً وعرضها نحو ٤٠ كيلومتراً  
وعرض الفتحة التي تصلها بالبحر ٨٠ متراً وعمق الماء فيها نحو ثلاثة أمتار وتصدر الأسماك

إلى بورسعيد والعريش لبيعها وتعد البطارخ في صناديق خاصة في بلدة الزرانيق القريبة من البحيرة . ويقدر الدخل السنوي لأسمالك هذه البحيرة بحوالى عشرة آلاف جنيه .

ولاهل سيناء تجارتهم وأهمها الإبل والحلبل والغنم يهتمون بتربيتها ويستولونوها ويصحبون بمواليدها الذكر ، ثم الفيروز وحجارة الرشى والعجوة والسهار ، ولهم موارد أخرى من تأجير الإبل للسياح والحجاج وغيرهم من قاصدى زيارة دير سانت كثرين وغيره من الآثار الجمية في سيناء ، وإن كان في استعمال السيارات اليوم قد أضعف هذا المورد إلى حد كبير ، ومن يبيع ما يفيض عن حاجتهم من الأنسجة الصوفية ، فمن صناعتهم غزل الصوف وصبغه وحيما كته ويقوم بهذا كله النساء .

وزراعة سيناء تعتمد على المطر ويقع أكثره في بلاد العريش في جهاتها الشرقية وأهم ما يزرع الشعير وهو المحصول الرئيس . وفي سيناء أرض خصبة تمتد لمسافة عشرين ميلا من شاطئ البحر الأبيض . ولو أمكن تعمير ظلمبات الرى في سيناء لنشأت بها مستعمرات زراعية تفوق المستعمرات الصهيونية في فلسطين .

والبدو تعيش على النظام القبلى ، فشيخ القبيلة هو رئيسهم يأترون بأمره ويعملون بمشورته وهو من جانبه يعمل لسالح القبيلة ويساعدهم في شئونهم ويشاورهم .

وليس لهم شريعة مكتوبة بل يحكمهم قضائهم بمقتضى العرف والعادة . والقضاء عندهم موكل إلى قضاة من خواص رجالهم فتم « القصاص » وهو قاضى العقوبات أو قاضى الجروح و « الزيدى » وهو قاضى الإبل يقضى في كل ما يتعلق بها كسرقتها ووثاقها وغيره ، و « العقبى » وهو قاضى النساء يقضى في مسائل المهر والطلاق والتعدي على العرض ويسى بالعقبى لأن أكثر قضاة هذا النوع من بنى عقبه .

و « المبعش » وهو قاضى الجرائم المنكورة والتي لا بينة عليها . ودرجات القضاء عندهم ثلاث لكل درجة قاض ، فيرفع المتنازعان دعوتهما إلى كقول فاذا لم يقبل حكمه رفا الدعوى إلى الثانى وهو بمثابة محكمة الاستئناف وإذا لم يرضيا بحكم الثانى رفا الدعوى إلى الثالث وهو بمثابة محكمة النقض والإبرام حكمه نهائى .

وهناك « كبار العرب » وهم بمثابة رجال الصلح لتسوية المسائل الهامة التى لا يمكن صرفها إلا بالصلح كقضايا القتل والسلم والحرب .

ومادة الأحكام عند جميع قضائهم الغرم بالمال فليس عندهم حبس ولا ضرب ولا تمل  
لا في القضايا الجنائية ولا المالية . ولعل في قصر العقوبات كلها على المال ما لا يساعده  
على استنباط الأمن والسلام في البلاد .

وقد ظل القضاء في سيناء في أيدي قضاة البدو ما عدا بلاد العريش ومدينة الطور  
فكانتا تابعتين للقضاء المصري . وأما سائر بلاد سيناء فقد وضع لها نظام قضائي خاص  
في سنة ١٩١١ بنى على العرف والعادة مع مراعاة حالة البدو وتحقيق العدالة وعهد بالقضاء  
فيها إلى مأمورين قضائيين . أما الآن فيطبق عليها من الناحية الجنائية قانون الأحكام  
العسكرية وتعليمات الصحراء .

وكانت سيناء تمل في الأصل البلاد الواقعة بين خليج العقبة وخليج السويس  
وهي المعروفة ببلاد الطور ثم امتدت إدارياً فشملت حتى العريش من الشمال .

وكانت بلاد الطور تابعة في الإدارة لمحافظة السويس ولما تهدمت قلعتها سنة ١٨٢٦ م  
أُلحقت إدارياً ببلاد التيه وولى عليها ضابط من الضباط العظام للجيش المصري ولقب  
« قومندان جزيرة سيناء » ومركزه نخل . أما العريش فقد جردت حاميتها من العساكر  
بعد انسحاب مصر من سوريا في سنة ١٨٤٣ وأُلحقت العريش بنظارة الداخلية وجعل عليها  
محافظ مدني ومعه نفر من البوليس .

وظل الحكم في سيناء على هذه الصورة إلى أن كانت حادثة الحدود سنة ١٩٠٦  
وخلاصتها أنه وقع خلاف بين مصر والدولة العثمانية على حدود سيناء الشرقية وتدخلت  
الدولة البريطانية في الأمر فتمتخيم الخلاف حتى كاد يؤدي إلى حرب وانتهى الأمر بتعيين  
الحدود بعدد على طول الخط بين العقبة ورفح . وبعد تعيين الحدود ضمت بلاد العريش  
إلى قومندانة نخل والطور وجعل عليها ناظر فأصبحت بلاد سيناء كلها قومندانة واحدة  
بثلاث نظارات تحت إدارة نظارة الحرية . وفي سنة ١٩٠٧ سميت القومندانة مديرية  
ولقب حاكمها مديراً وفي سنة ١٩١١ أبدل بلقب مدير سيناء لقب محافظ وسميت البلاد  
محافظة إلى اليوم .

وتنقسم سيناء إدارياً كما يلي :

( ١ ) قسم القنطرة : ويبدأ من القنطرة شرق وينتهي عند نقطة بر العبد على ساحل  
البحر الأبيض المتوسط . ( ٢ ) قسم سيناء الشمالي ومركزه العريش وهي عاصمة محافظة  
سيناء . ( ٣ ) قسم سيناء المتوسط ومركزه نخل . ( ٤ ) قسم الطور ومركزه بلدة الطور .



العرش : مدينة قديمة تعد أشهر بلاد سيناء قامت على اطلال مدينة مصرية قديمة تدعى «رينوكلودا» أى مجدوع الأنف ، قيل سميت كذلك لأنها كانت منقح لمن حكم عليهم بالاعدام واستبدل بالحكم جدد الأنف ، أما اسم العرش فقد أطلقه عليها العرب<sup>(١)</sup> . قال المقرئى<sup>(٢)</sup> « فى خططه » إن العرش مدينة فيما بين أرض فلسطين وإقليم مصر وهى مدينة قديمة من جملة المدن التى اختطت بعد الطوفان .

وقد ذكر مؤرخوا العرب روايات طريفة عن سبب تسميتها بالعرش نذكر منها الرواية الآتية وقد تكون أطرف الروايات قال البيهقى فى كتابه المحاسن والمساوىء : كان دخول أخوة يوسف وأبويه — عليهم السلام — على يوسف بمدينة العرش . وهى أول أرض مصر وكان يوسف قد خرج للقيام حتى نزل المدينة بطرف سلطانه وكان له هناك عرش وهو سرير السلطنة فأجلس أبويه عليه . وكانت تلك المدينة تسمى مدينة «العرش» فخرقتها العامة إلى العرش فغلب ذلك عليها .

والعرش بلدة تجارية تبعد نحو ١٥ كيلومتر عن شاطئ البحر ومبانيها باللبن الجبرى وشوارعها رملية متسعة نظيفة — ولكل بيت فناء مسور يباب كبير لإيواء الابل والحيل والغنم وأسوارها مرتفعة جداً . ومن أهل العرش من يتجرون مع البدو فى البادية ومنهم من يتجرون فى سوق المدينة وأكثرهم يقتنون الابل ويشغلون بها .

ولمدينة العرش ضواح أهمها : نخل أبو صقل ، وحلة المساعيد وقبة النهى يأمر ، وقيل عن هذه القبة إنها بمكان يدعى «البلدك» وقال عبد الفتى التابلسى (١١٤٣ هـ) (القرن الثامن عشر الميلادى) فى رحلته عند ذكر مدينة العرش « فى تلك البلاد مكان مبارك يقال له آلبيزك . . ويقال أنه متصل بالغار الذى فى بلاد الخليل .

وفى العرش قلعة مشهورة قرية من البلدة وفوق باب القلعة لوحة تذكورية باللغة العربية والتركية تبين اسم منشئها وسنة الانشاء .

رفح : جاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى<sup>(٣)</sup> : « رفح منزل فى طريق مصر بينه وبين عسقلان يومان لقاصد مصر . وهو أول الرمل .

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ١٧١ ، المقدسى ص ١٩٤ ، المسالك ص ٢٣٧ ، تقوم البلدان ص ١٠٩

(٢) المقرئى ج ١ ص ٣٤٠

(٣) لياقوت ج ٤ ص ٢٦٦

وهي تلي مدينة العريش في الأهمية على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من الشاطئ وموقعها الحربي سيجعل منها مركزاً هاماً . وقد كانت في معظم عصورها التاريخية الحد بين مصر والشام وكانت ميداناً لمواقع حربية ( انتصرت فيها مصر في عهد البطالمة على ملوك سوريا ) . وفي تاريخها الحديث انتصر فيها الجيش المصري على قوات إسرائيل وبها أطلال رومانية قديمة وقد عثر في تربتها على كثير من قطع من النقود الفضية والنحاسية والزجاجية من عهد الرومان والبيزنطيين والدول الإسلامية الأولى .

ومن آثارها : « عامود الجنود » وهما على بعد نحو ٣٦٠ متراً إلى الجنوب الغربي من بئر رفح وهما من الجرانيت الأسمر وعرفا بعصودى الحدود وطول كل منهما سبعة أقدام ومحيطه نحو ثلاثة أقدام أحدهما يتجه إلى الشمال والآخر إلى جهة مصر فلما وقعت حادثة الجنود سنة ١٩٠٦ أزال الجنود التركية العمودين من مكائهما ، وطمروهما في الرمال ولما سويت الحادثة أبقى الحد ونصب في مكانه العمودين المذكورين عمودان آخران من الجرانيت من عهد رفح القديمة .

وقد أطلق مؤرخوا<sup>(١)</sup> العرب على معظم بلاد العريش الجفار لكثرة الجفار بأرضها وهي الآبار الواسعة القريبة اعصر .

وجاء في كتاب أحسن التقاويم<sup>(٢)</sup> : « فأما الجفار فقصبها الفرما ومنهها البقارة والورده والعريش » .

وقال ياقوت الحموي<sup>(٣)</sup> « الجفار مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من الشام » .

قطية : من بلاد العريش الشهيرة على بعد نحو ٢٦ ميلاً من القنطرة في طريق العريش وكانت قبل فتح قناة السويس تابعة لمديرية الشرقية ، ولما فتحت الترععة الحقت بالعريش ولا تزال ، وبها حدائق متسعة من النخيل . وجاء في رحلة النابلسي : « قطية ( بفتح القاف بدها طاء مهمل ساكنة ) هي مكان أخذ المكوس من كل من يمر من ذلك الطريق ، فيأخذ الكاشف من جهة الأقباء المصرية خفارة الأموال والحيل والدواب التي للتجار وغيرهم ممن يمر في تلك البرية .

(١) تقويم البلدان ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، المقرئى ج ١ ص ٣٠٥

(٢) المقامى ص ١٩٣

(٣) ياقوت ج ٣ ص ١١٣

الفرما : كانت قديماً من أشهر مدن مصر البحرية وأكثرها عمارة . وكانت بحكم موقعها على شاطئ البحر الأبيض في أقصى فروع النيل الشرقية — عرضة لغارات الأمم المهاجمة براً وبحراً . ولملوك مصر فيها مواقف مشهورة لرد هجمات الغزاة من الآشوريين والفرس وفي العصور الوسطى أيام الحروب الصليبية . ويدل تاريخها على أنها عريقة جداً في القدم وإن أهلها الأصليين كانوا من البحارة الفينيقيين .

وقد عرفت عند اليونان باسم بلوسيوم وإليها نسب فرع النيل القائمة عليه ( الفرع البليوسي ) وقد جف هذا الفرع من عهد بعيد ، وعرفت عند القبط باسم فرومي ومنه أخذ العرب اسم الفرما وهو الاسم المعروف إلى اليوم . وذكر المقرئ<sup>(١)</sup> فقال :

« وكانت الفرما على شط بحيرة تديس وكانت مدينة حصينة وقد بنى بها المتوكل على الله حصناً على البحر تولى بناءه عنبسة بن اسحق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين (٨٥٣م) عندما بنى حصن دمياط وحصن تديس . ولما فتح عمرو بن العاص عين شمس انتقل إلى الفرما أبرهة بن الصباح فصالحه أهلها على خمسمائة دينار هرقل وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم فرحل عنهم إلى البقارة .

وفي سنة ٥٤٥ هـ ١١٥٠ م نزل الفرنج على الفرما في جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها . كأن الوزير شاور خربها كما خرج منها متولها عليهم أخو الضرغام حوالي سنة ١١٦٥ م فاستمرت خراباً ولم تعمر بعد ذلك<sup>(٢)</sup> .

وطريق الفرما أقدم طرق مصر إلى سوريا وكان قديماً عامراً بالمدن والحصون<sup>(٣)</sup> والأبراج ولما جف الفرع البليوسي خربت المدن والحصون . وفتح طريق البر المعروف بطريق العريش وقل استعمال طريق الفرما كما نل استعمال طريق العريش<sup>(٤)</sup> بتقدم الملاحة .

نخل : وهي مركز بلاد التيه وتعرف أيضاً بيرة التيه وقبل سميت بالتيه لأنها كما قيل أن بني إسرائيل تاهوا فيها أربعين سنة ، وهي سهل عظيم مقفر جامد التربة يشغل وسط شبه الجزيرة ويخترقه من الجنوب إلى الشمال وادي العريش وفروعه وفي وسطه بلدة نخل .

(١) المقرئ ج ١ ص ٣٤١

(٢) تقويم البلدان ص ١٠٦ ، الكتني ص ٢٨

(٣) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٦٨ ، القنسي ص ١٩٥

(٤) الخليل التوفيقية ج ١٤ ص ٧٣

وقد كانت مقر محافظة سيناء إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى وهى بلدة صغيرة مبنية بالطوب اللبنى وبها شارع واحد وقد جددت بها عدة منازل سنة ١٩٠٦ ، وبنت بالمجر على الطراز الحديث .

وقد اختلف بعض الباحثين فى أصل تسميتها بنخل فقال بعضهم أنها متخلفة عن « نخل مصر ايم » الاسم الذى أطلقه العبرانيون على وادى العريش ، وقبل كانت تدعى قديما نخر ولكن هذا الاسم اندثر ولم تعد تعرف به الآن . وهى قرية ليس بها نخل ولا شجر يسكنها نفر من الناس ، وبها خان أنشأه السلطان قانصوه الغورى فى سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) وكان الخان ضيقاً فأمر السلطان العثمانى بتوسيعه فى سنة ٩٥٩ هـ ١٥٥٢ م .

وفى نخل قلعة وهى إحدى القلاع الجميلة التى بناها السلطان قانصوه (١) الغورى سنة ١٥١٦ م فى درب الحج المصرى وكانت تعرف قديما بالخان .

وكان درب الحج المصرى الذى أنشأه السلطان الغورى يبدأ من القاهرة ويخترق صحراء العريش إلى سيناء ماراً بالنواطير الثلاثة إلى وادى الحيطان إلى سهل التيه فوادى السحيمى فالنهدان فقلعة نخل إلى ثقب العقبة إلى العقبة فمكة .

وكان ركب الحج المصرى يقطع هذا الدرب فى ستة أيام وقد أصبح الآن طريق نجار الإبل والاعتنام من الحجاز إلى مصر .

أما أول طريق اتخذ الحاج المصرى إلى مكة فهو طريق عيذاب فكان الحاج يركبون النبل من ساحل القسطنطين إلى قوص بمصر العليا ثم يركبون الإبل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب إلى البحر الأحمر حيث ينزلون إلى جده . وهكذا طريقهم فى العودة . وهو أيضا طريق قوافل التجار من اليمن والحشة والهند . وظل الحاج المصرى يتبع هذا الطريق حتى عهد السلطان الملك الظاهر فإنه بعد أن استرجع إبله من الصليبيين سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٧ م زار مكة عن طريق السويس وإيلة ، فصارت إيلة طريق الحج من ذلك الحين إلى سنة ١٨٨٥ م إذ اتخذ طريق آخر وهو طريق البحر من السويس إلى جده وما زال هذا الطريق متبعا إلى الآن .

وقد اعتاد سلاطين مصر من أمد بعيد أن يرسلوا مع ركب الحج للكعبة كسوة كل سنة وكان أول من نظم الحمل مع الحج المصرى وأرسل الكسوة للكعبة وحماها بالعساكر

(١) ابن اياس ص ٢٧٣

شجرة العر زوجة الصالح نجم الدين الأيوبي (أى من أكثر من ٧٠٠ سنة) التى حكمت مصر سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م وقد عفى ملوك مصر باصلاح طريق الحج وتمهيدها فأنشأوا فيها الخانات والقلاع وحصنها بالمساكن تأميناً للطريق وحفروا الآبار وبنوا البرك لسقى الحاج وركائهم وعملوا على عيانتها بمن يرسلون من العمال والتجار بن لترميم الموانى وملاء البرك قبل وصول الركب .

الطور : بلدة قديمة وهى مركز بلاد الطور التى تقع بين خليج العقبة وخليج السويس وهى بلاد جبلية وعرة وقيل أنها قد تكون أوعر بلاد جبلية على سطح الكرة الأرضية ، وجبالها الشرقية تتصمخ خليج العقبة ولا تترك وراها إلا طريقاً ضيقاً على شاطئه . أما جبالها الغربية فتتخسر عن طريق خليج السويس فى أكثر جهاته فتترك وراها ثلاثة سهول وملية عظيمة منها سهل « المرخاء » والمشهور أنه السهل المعروف فى التوراة بـ « سين » حيث تدمر بنو اسرائيل من الجوع فأرسل إليهم المن والسلوى لأول مرة .

وأشهر جبالها جبل طور سيناء وإليه تنسب شبه الجزيرة كلها ويؤمن رهبان سيناء أنه الجبل المعروف فى التوراة بجبل حوريب أى الجبل الذى نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه بالاسرائيليين من مصر وتجلى له الرب فأرسل عليه الشريعة .

ولهذا الجبل قم كثيرة عالية نذكر منها جبل موسى وهو أعلى هذه القمم ويبلغ ارتفاعه نحو ٧٣٦٠ قدماً فوق سطح البحر وقد بنيت على رأسه كنيسة صغيرة وجامع أصغر منها وجبل المتاجاة ويؤمن البدو أنه الجبل الذى عليه كلم الله موسى واتجاه وهذا الجبل تصدع ظاهر ولهذا زعم البدو أنه تصدع من خشية الله وجبل الصفصافة : وسعى كذلك لأن فى سفحه الشرق صفصافة ويطل على سهل فسيح يدعى « سهل الراحة » به تل صغير عليه كوخ من الحجارة يدعى ( مقام النبى هارون ) .

وجاء فى كتاب تاريخ سيناء « والذى عليه أكثر المحققين الآن أن جبل الصفصافة هو الجبل الذى وقف عليه موسى عند إلقائه الوصايا العشر على الاسرائيليين . وأن سهل الراحة هو السهل الذى وقف فيه الاسرائيليون عند تلقيهم تلك الوصايا وأن التل الذى

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ٦٧ ، الكتفى ص ٣٤

(٢) تفريع البلدان ص ١٠٧ ، المسالك ص ٢٣٧

(٣) ابن اياس ج ٣ ص ٧٧

عليه مقام النبي هارون الآن هو التل الذي عليه عبد الامراتايون العجل الذهب في غياب موسى .

وجبل سريال : وهو أشهر جبال سيناء بعد جبل موسى يطل على مدينة الطور وله خمس قمم تمثل تاجاً عظيماً في شكل نصف دائرة ارتفاع أعلاه نحو ٦٧٣٠ قدماً من سطح البحر وفي سفحه الشمالى وادى فيران الشير . وقيل إن اسم سريال مختزل من سرب بعل أو نخيل الاله بعل إشارة إلى نخيل فيران في سفحه .

وجبل حمام موسى : وهو جبل صغير على خليج السويس على بعد أربعة أميال من مدينة الطور فيه سبعة ينابيع كبريتية حارة وقد بنى فوق إحداها في القرن (١٩ م) حماماً لا تزال آثاره باقية إلى الآن . ويقرب هذا الجبل ميناء « أبو صورة » .

ومن أودية بلاد الطور « وادى فيران » أو فاران وهو أشهر أودية شبه الجزيرة كلها قديماً وحديثاً وأعزرها ماء ونخيلاً حتى سمي « واحة الجزيرة » .

ومن الضواحي العامرة لمدينة الطور محجر الطور يقع على شاطئ البحر وعلى بعد نحو ٦٤٠ متراً جنوبي المدينة ومساحته نحو ٤ كيلو مترات . أسس سنة ١٨٥٨ وهو يتسع لآلاف من الحجاج في وقت واحد وهو محجر للحجاج المصريين .

\*\*\*

## أهم الآثار الباقية بشبه الجزيرة

دير طور سيناء : يعد هذا الدير أشهر ما في شبه الجزيرة من بناء أو أثر ، بناء الإمبراطور يوستينيانوس في نحو سنة ٥٤٥ م ليكون معقلاً لربان سيناء على سفح قمة من قمم جبل طور سيناء ويعدى أيضاً « دير القديسة كاترينا » وقد غدا محجاً لزوار المسلمين والنصارى وبخاصة نصارى الروس .

وفوق الباب الحالى للدير حجران تاريخيان من الرخام نقش عليهما اسم بانيه وتاريخ بناءه أحدهما بالعربية والثانى باليونانية .

وللدير سور عظيم داخله أبنية كثيرة أهمها الكنيسة الكبرى وتعرف بكنيسة الاستحالة وعلى جانبها من اليمين والشمال عدة كنائس صغيرة للرسل والأنبياء والقديسين

وبالقرب من الكنيسة جامع صغير بمتارة أقل ارتفاعاً من قبة الكنيسة . وفي الجامع أثران تاريخيان يرجعان إلى عهد الدولة الفاطمية وهما كرسى ومنبر من الحشب الساج وقد نقش على جوانب الكرسى الأربعة سطران وعلى واجهة المنبر ستة أسطر وجميعها بالخط الكوفي وجاء في نص الكتابة التى على الكرسى أن باني الجامع هو الأمير أنوشكين الآمرى أحد أمراء الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى ( ٤٩٥ - ٥٢٤ ١١٠١ هـ - ١١٣٠ م ) وإن صاحب المنبر هو الأضل أبو القاسم شاهنشاه وزير الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله وتاريخ إنشائه ١١٠٦ هـ ٥٠٠ .

ويقوم بخدمة الجامع جماعة من قبيلة أولاد سعيد يتناوبون العمل فيه لكل منهم أسبوع يكنسون الجامع وينظفونه ويقومون بإضاءته طوال شهر رمضان . ويقاب خدام الجامع ( بالحوجة ) وله جراية من الدير يومية وأسبوعية .

وللدير مكتبة بها مجموعة نفيسة من الكتب الدينية والتاريخية والأدبية تبلغ نحو ٣٠٠٠ كتاب بين مخطوط ومطبوع وبلغات متعددة وأكثرها بالعربية واليونانية ومنها « العهدة النبوية » أو كتاب العهد الذى كتبه النبي محمد للربان وقالوا أن الأصل كان محفوظاً في الدير إلى أن فتح السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ م وأعطاهم نسخة منه مع ترجمتها التركية . وفي المكتبة عدة نسخ منها بعضها على ورق غزال وبعضها في دفتر خاص وسفكهم عليها فيما بعد .

وللدير أملاك واسعة موقوفة عليه في سيناء وفي خارجها منها في سيناء الدير وضواحيه من البساتين ونخيل . وفي القاهرة مركز للربان نجاه جامع الظاهر يقيم فيه مطران سيناء معظم أيام السنة ومعه بعض الربان لتدبير المؤن ومطالب الدير وتسييل وسائل السفر للسياح والزوار .

العهدة النبوية : يوجد بدير طور سيناء صورة عهد قديم منسوب إلى نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم يعرف « بالعهدة النبوية » ويزعم رهبان الدير أن النبي محمداً كتب لهم هذا العهد أماناً لهم وللنصارى كافة على أرواحهم وأموالهم ويعيهم وأن السلطان سليم العثمانى أخذهم منهم عند فتحه مصر سنة ١٥١٧ م وحملهم إلى الاستانة وترك لهم صورة منه مع ترجمتها التركية .

ويقول نعم شقيق في كتابه « تاريخ سيناء » ان العهدة التي رآها استعملت بعد البسلة بما يأتي : ( هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين بشيراً ونذيراً ومؤتمناً على ودعة الله في خلقه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً كتبه لاهل مكة ولجميع من يتحلل دين النصرانية من مشارق الارض ومغاربها كتاباً يجعله لهم عهد الخ... ) .

ثم اختتم العهد بالجملة الآتية ( وكتب على بن أبي طالب هذا العهد بخطه في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بتاريخ الثالث من المحرم ثانی سنی الهجرة ) .

وقد أنكر بعض الباحثين صدور هذا العهد عن النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا ان رهبان سيناء اختلقوه للاستعانة به على ما قد ينالهم من ظلم أو اجحاف واستنلوا في اختلاعه إلى أنه مؤرخ في السنة الثانية للهجرة مع أن الهجرة لم يؤرخ لها إلا في السنة الثامنة عشرة أي بعد وفاة النبي بسبع سنوات وإلى أن بعض الشهود المذكورين في ذيل العهد كأبي هريرة وأبي الدرداء لم يكونوا قد أصلوا في السنة الثانية للهجرة وإلى أن لغة العهد تختلف عن لغة عصر النبي فيها من التراكيب والالفاظ ما لم يكن مألوفاً في ذلك العهد .

على أن الرهبان لا يدعون أن هذه العهدة هي الأصل الذي صدر عن النبي ولا أنها صورة طبق الأصل وإنما هي الصورة التي أعطيت اليهم بعد أخذ الأصل منهم وإن ثانی سنی الهجرة تحريف من النساخ والظاهر أنه ثامن لا ثانی سنی الهجرة وأنه منذ أخذ أصل العهد منهم كلن يشار اليه في كل فرمان أو منشور يعطى إلى الرهبان .

على أنه بغض النظر عن هذه العهدة فإن في كتاب الله الكريم والاحاديث النبوية الصحيحة وفي تعاليم الشريعة الاسلامية السطوة من الوصايا بأهل الذمة من النصارى وغيرهم في أنفسهم وفي أموالهم ومعاملتهم ما ينفي عن هذه العهدة المشكوك فيها .



## المراجع العربية

- ١ - إبراهيم نصحي ، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالة ( مطبعة الانجلو ١٩٥٩ م ) .
- ٢ - ابن فضل العمري ، مسالك الأبصار ( مطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٤ م ) .
- ٣ - ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ( مطبعة باريس سنة ١٨٩٣ ) .
- ٤ - ابن جبير ، رحلة ابن جبير .
- ٥ - ابن مهيبر ، أخبار مصر ( مطبعة المعهد العلمي سنة ١٩١٩ م ) .
- ٦ - ابن دقماق ، الانتصار بواسطة عقد الأمصار ( مطبعة القاهرة سنة ١٣٠٩ م ) .
- ٧ - ابن الجيمان ، التتحفة السنية ( مطبعة بولاق سنة ١٨٩٨ م ) .
- ٨ - ابن عبد الحكم ، فتوح مصر .
- ٩ - ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ( مطبعة لندن سنة ١٣٠٩ هـ ) .
- ١٠ - ابن شاعرشاه ، تقويم البلدان ( مطبعة باريس سنة ١٨٩٠ م ) .
- ١١ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ( مطبعة النهضة سنة ١٩٤٨ م ) .
- ١٢ - ابن حوقل ، المسالك والممالك ( لندن سنة ١٨٣٣ م ) .
- ١٣ - ابن ميثاق ، قوانين اللوامين .
- ١٤ - ابن أبياس ، بدائع الزهور .
- ١٥ - أبوالمحسن تفرى يردى ، التجوم الزاهرة ( طبعة دار الكتب سنة ١٩٥٦ م ) .
- ١٦ - الإدريسي ، نزهة المشتاق ( مطبعة روما سنة ١٥٩٢ م ) .
- ١٧ - الأذقوى ، الطالع السعيد ( مطبعة الجبالية سنة ١٩١٤ م ) .
- ١٨ - الجيقي ، الحاسن والمسلوى ( مطبعة السمادة سنة ١٩٠٦ م ) .
- ١٩ - الجبرقي ، عجائب الآثار ( طبعة سنة ١٢٩٧ هـ ) .
- ٢٠ - السخاوي ، الفوه الألامع ( مطبعة القلمى سنة ١٣٥٣ هـ ) .
- ٢١ - عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة - ( مطبعة النهضة ١٩٦٠ م ) .
- ٢٢ - عمر بن محمد الكنتى ، فضائل مصر المحروسة .
- ٢٣ - علي مبارك ، الخطط التوفيقية ( مطبعة بولاق سنة ١٣٠٥ هـ ) .
- ٢٤ - القلقشندي ، صبح الأعشى ( المطبعة الأميرية سنة ١٩١٨ م ) .
- ٢٥ - المقرئى ، الخطط والآثار ( مطبعة النيل سنة ١٣٢٤ هـ ) .
- ٢٦ - المقرئى ، البيان والإصراب ( مطبعة الفجالة سنة ١٩١٦ م ) .
- ٢٧ - محمد رمزي ، الشاموس الجفراني ( طبعة وزارة التربية سنة ١٩٥٨ م ) .
- ٢٨ - المسعودي ، مروج الذهب ( طبعة القاهرة سنة ١٨٨٢ م ) .

- ٢٩ - للفمى ، أحسن التقاسيم (طبعة لندن سنة ١٩٠٩ م) .  
 ٣٠ - نعم شقير ، تاريخ سيناء (طبعة القاهرة سنة ١٩١٦ م) .  
 ٣١ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان (طبعة السعادة سنة ١٩٠٦ م) .  
 ٣٢ - الكيعوبى ، البلدان (طبعة لندن سنة ١٨٩٢ م) .

### References

- (1) Abu Saleh, the Armenian : Churches & Monasteries of Egypt (Oxford 1895).
- (2) Ahmed Fakery : The Oasis of Siwa (Cairo).
- (3) Amelineau, F : Geographie de l'Egypte à l'Epoque Copte (Paris 1895).
- (4) Breceia, F. : Guide to ancient & Modern Alexandria (Bergamo 1922).
- (5) Cres well : The Muslim Architecture of Egypte : (Oxford).
- (6) Description de l'Egypt, Paris, 1809-1817.
- (7) Grouthier Henri : Les Nomes & d'Egypte depuis Herodote jusqu'a'la Conquête Arabe (Le Caire 1935).
- (8) Grohmann, A. Arabic Papyr'l'n the Egyptian Library Cairo 1932).
- (9) Quatremaire, E : Histoire des Suttans Mamelouks del'Egypte (Paris 1837).
- (10) Wiet, G. : L'Egypt Arabe. (Paris 1937).

## دراسة لبعض التحف الإسلامية

للككتور عبد الرحمن فهمي محمد

أمين متحف الفن الاسلامي

والدرس المتدرب بكلية الآداب بجامعة القاهرة

### مقدمة :

إن ما أقوم بنشره اليوم ليس وليد اللحظة التي يتم فيها طبع هذا البحث ، وإنما هو دراسة لبعض التحف الإسلامية بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، تكشف لي أثناء قيامي بفحص بعض مجموعات المتحف منذ مدة طويلة ، وظلت هذه المعلومات مخزنة في مودع الآمال حتى تهيأت الفرصة الآن لنشرها .

وهي في مجموعها حراسة جديدة لتحفة خشبية من العصر الفاطمي وأخرى معدنية من العصر المملوكي وأرجو أن يكون في بحثي هذا كل ما أرجوه من فائدة علمية .

### ١ - تحفة فاطمية من مدفن شجر الدر

لا شك أن الأخشاب الفاطمية المزخرفة التي وصلت إلينا على درجة كبيرة من الحفظ تمثل مجموعة رائعة من التحف الإسلامية في مصر ، ويزيد في روعتها ، إذا عرفنا أنها صنعت خاصة لتزين القصور أو المساجد أو الكنائس ، فضلا عن أن كثيراً منها يحمل كتابات تاريخية أو مثبت في عمار مؤكدة التاريخ ، لذلك أصبح في الإمكان تحديد المراحل الفنية التي مرت فيها زخرفة هذه الأخشاب ، كما أمكن نسبة المجموعة الأخرى غير المؤرخة إلى تاريخ معين على أساس من الدراسة التحليلية للعناصر الزخرفية أو الدراسات المقارنة .

ويحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بأجل التحف الخشبية الفاطمية التي تمثل في مجموعة من الألواح يزيد طولها مجتمعة على ٣٣ متراً ، عثر عليها في بيارستان قلاوون

وضريح ابنه السلطان الناصر محمد منذ سنة ١٩٠٩م<sup>(١)</sup>. وهذه المجموعة على حد تعبير الأستاذ ديمانند Dimand « كانت في الأصل جزءاً من زخرفة القصر الغربي الفاطمي الذي بدأه الخليفة العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦ م) وأتمه الخليفة المستنصر بين عامي ١٠٥٨ و ١٠٦٥ م »<sup>(٢)</sup>.

ويعتقد الأستاذ لام Lamm استناداً إلى الطراز الزخرفي لهذه الألواح أنها صنعت بأمر الخليفة المستنصر<sup>(٣)</sup>. وقد قام الأستاذ بوتي Pauty بنشر هذه المجموعة من الألواح سنة ١٩٣١ وأشار إلى أنها ترجع إلى القرن ١١ م<sup>(٤)</sup> بينما أرجعها المرحوم الدكتور زكي محمد حسن إلى القرن الرابع أو بداية الخامس الهجري (١٠/١١ م)<sup>(٥)</sup> ولكن أستاذنا الدكتور فريد شافعي اعتبرها من أهم أمثلة المرحلة الفاطمية الثانية التي حدد تاريخها بالنصف الثاني من القرن ١١ م والربع الأول من القرن ١٢ م<sup>(٦)</sup> وتمتاز هذه المرحلة الفاطمية

(١) هذه المجموعة مسجلة بمتحف الفن الإسلامي بالأرقام : ٣٤٦٧ و ٣٤٦٦ و ٣٤٦٥ و ٣١٩٦ و ٣٤٦٨ و ٣٤٦٩ و ٣٤٧٠ و ٣٤٧١ و ٣٤٧٢ و ٣٤٧٣ و ٤٠٦٣ وأطولها بالأمتار على التوالي و ٢٥٠ و ٢٣٠ و ٢٤٥ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣٤٨ و ٣٥٧ و ٣٥٠ و ٣١٩ و ٣٧٠ و ٢٥٥ و مجموعها كلها ٣٣١٥ متراً ويوجد من هذه الألواح مجموعة في متحف فنكتوريا والبرت ، أنظر Lamm-Poole : The art of the Saracens (London 1886) pp. 123 ff.

وقد تناول كثير من علماء الآثار الإسلامية هذه الألواح بالدراسة والتحليل ولعل أهمهم : M. Hertz : Boiseries [fatimites aux sculptures figurales] (Orientalisches archiv) t. III (1912/1913) pp. 169-73.

E. Pauty : Bois Sculptés jusqu'à l'époque Ayyubides. pp. 48 ff.

C. Lamm : Fatimid woodwork B. I. E. T., XVIII (1935/6) pp. 59-91

G. Marcais : Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fatimites conservés au Musée Arabes du Caire (Melanges Maspero) T. I, pp. 242. ff. ١

زكي محمد حسن (المرحوم) : كنوز الفاطميين القاهرة ١٩٣٧ ص ٢٠٩ وما بعدها .

الدكتور فريد شافعي :ميزات الأخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي في مصر ، مجلة آداب القاهرة ١٩٥٤م ١٦ - ١ ص ٦٧ وما بعدها .

ومن قيام ماورستان قلاوون مكان القصر الفاطمي الغربي أنظر زكي حسن : كنوز ص ٢٠٧ والمقرئ شريط ج ٢ ص ٤٠٦ ، قلقشتلي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٦٩

(٢) Dimand : A Handbook of Muhammedan Art (N. Y. 1947). p. 113.

ويذكر الأستاذ Creswell كذلك أن القصر الغربي الذي لا شك أن هذه الأخشاب قد وردت منه والقصر الذي يده العزيز وأتمه المستنصر في ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) Creswell : The M. A. of Egypt I pp. 128/9

Lamm : op. cit. p. 73 (٣)

Pauty : op. cit. pp. 48 ff., Pls 46-59 (٤)

(٥) زكي حسن : فنون الإسلام ص ٤٥٧ وكنوز الفاطميين اللوحات من ٤٥ - ٤٧

(٦) دكتور فريد شافعي : مميزات الأخشاب المزخرفة ص ٧١ - ٧٤ والأشكال من ١٥-١٨

الثانية ، كما حللها الدكتور شافعي ، بامتداد العروق في أمواج وحلزونات صريحة مع كثرة ظهور ورقة العنب الثلاثية الفصوص ، وظهور العناصر النباتية المركبة كالورقة التي يتوسطها عنصر برعبي ، فضلا عن عودة ظاهرة خروج العروق النباتية من الأواني ، وقد اتضحت في هذه المرحلة أيضاً أراضيات العناصر الزخرفية وانتشرت الكائنات الحية من آدمية وحيوانية وطيور ، وازداد نضوج الدروع مع تأتق محيطها وزخارفها ، كما ازداد اتساع الثقب الأوسط في العناصر الكأسية .

والحق أن كل هذه الخصائص تتوفر في مجموعة الاخشاب الفاطمية من بيجارستان قلاوون رغم احتفاظها ببعض البقايا الطولونية من حيث تلاصق بعض العناصر والإبقاء على الحفر المشطوف ، ولا يهنا هنا من هذه الألواح مناظر الصيد والرقص ومجالس الطرب والموسيقى والتجار ، والحجوانات ، والطيور التي تغطي معظم المساحة الوسطى في هذه الألواح الخشبية ، وإنما الذي يعيننا حقاً هو تلك الاشكال الهندسية التي تفصل الزخارف بعضها عن بعض ، وهي عبارة عن مناطق هندسية سداسية أشبه بمسطيلات أقيية مدية الطرفين بالتبادل مع نجوم ذات ثمانية رؤوس<sup>(١)</sup> أربعة منها مثلثة ، وأربعة أنصاف دوائر في وضع متبادل ، وقد مثلت أرضية تلك العناصر بزخارف نباتية دقيقة في مستوى منخفض عن مستوى المناطق الهندسية ، وتغطي هذه العناصر الزخرفية الشرط الأوسط العريض بينما يحصره من أعلا ومن أسفل شريطان ريعان مزينان بعروق على هيئة أمواج مطردة أو متعاقبة ، تخرج منها أوراق نخيلية وأنصاف نخيلية ( لوحة رقم ١٩ ) .

وقد أوحى إلى زخرفة الإفريزين العلوى والسفلى والمناطق الهندسية في أخشاب بيجارستان قلاوون ، التسك بخفة خشبية مماثلة تقدم أحد التجار في صيف ١٩٦٢ لتصديرها إلى الخارج (اللوحة رقم ١ و ٥ و ٩) ، وقد نجح متحف الفن الاسلامي بالقاهرة في الإبقاء عليها واقتنائها من بين مجموعاته برقم سجل ٢٢٦٦١ ، ومنذ ذلك الحين سبحت الفرصة لدراستها<sup>(٢)</sup> .

(١) يصف الدكتور زكي حسن هذه النجوم « بمجامات رباعية للشكل » ويشير إلى أن الأستاذ G. Marcais يعتقد أن هذه المربعات القائمة على إحدى زواياها ، والتي يقطع كل ضلع من أضلاعها قوس صغير إلى الخارج تظهر في الزخارف الجصية التي كشفت في سامرا ، ويظن أنها انتقلت منها إلى زخارف العصر الفاطمي ومن مصر إلى صقلية . أنظر زكي حسن : كنوز الفاطميين ص ٢١١ .  
G. Marcais : Les figures d'hommes, p. 242 .  
(٢) لا يفوتني أن أشكر الزميل الأستاذ أحمد ممدوح حمدي أمين أول المتحف والذي بهنته هذه المتحف على مساحه لي بنشرها .

والصفحة عبارة عن لوح من خشب الكتلة الصماء طوله ٢ر٥٥ متر وعرضه ٣٤ر٥ سم والتكوين الزخرفي في هذا اللوح هو نفسه الموجود في ألواح قلاوون فهو مقسم إلى ثلاثة أشرطة ، الأوسط عريض (١٩ سم) ويحده من أعلا ومن أسفل شريطان رفيعان عرض كل منهما (٥ سم) مزخرفان بعروق على هيئة أمواج مطردة أو متعاقبة وتخرج من أعلاها أوراق نخيلية وأنصاف نخيلية ينبتا تخرج من أسفلها فروع في هيئة أقواس تحصر بينها أوراق عنب ثلاثية ، وتشبه هذه الزخارف تلك التي سبق أن ذكرناها في ألواح قلاوون ، وقد قسم الشريط الأوسط العريض إلى نفس المناطق الهندسية التي سبقت الإشارة إليها كذلك في ألواح قلاوون إلا أن المناطق الهندسية في هذا اللوح وكذلك التجمعات ذات الثمانية رؤوس قد ملئت كلها بكتابات كوفية عبارة عن معظم الآية الرابعة من سورة الفتح ونصها :

( هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم )  
أما الأرضيات حول الكتابه فقد ازدهجت بالعروق النباتية على هيئة توجعات وحلزونات بداخلها أوراق العنب الثلاثية ( لوحة رقم ٦ و ٧ و ٨ ) ، وبني نفس زخارف الأرضيات في الأشرطة الوسطى بالزخارف قلاوون ، غير أننا نجد هنا اختلافاً في المستويات فعددتها في مجموعة بيارستان قلاوون ثلاثة مستويات أما في هذا اللوح فعددتها اثنتان فقط ولكن السؤال الآن :

ما هو تاريخ هذا اللوح ؟ وهل يمكن التعرف على مصدره ؟

لقد سبق أن نشر الأستاذ الدكتور فريد شافعي مجموعة من الألواح المشابهة لهذا اللوح تماماً نشرها لأول مرة سنة ١٩٥٤ في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة بعد أن اكتشف وجودها في ملغز شجر الدر<sup>(١)</sup> ٦٤٨ هـ ( ١٢٥٠ م ) وذكر أنه « ليس هناك شك في أن

( ١ ) شجر الدر هي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك بعد مقتل ترشاه آخر الأيوبيين في ( ٣ مايو ١٢٥٠ م ) ٢٩ محرم ٦٤٨ هـ وتلقبت رسمياً على سكتها بلقب « المستعصية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين » وظلت تتولى أمر مصر حتى تولية زوجها عز الدين أيلك في ( ٣١ يونيو ١٢٥٠ م ) ٢٩ ربيع الثاني ٦٤٨ هـ وقد دبرت مقتل زوجها بنفسها ثم لقيت هي نفس المصير من مملوكه في ( ١٤ أبريل ١٢٥٧ م ) ٢٧ ربيع الأول ٦٥٥ هـ ودفنت بقايا جثتها في ضريحها الذي كانت قد شيدته سنة ٦٤٨ هـ ( ١٢٥٠ م ) بجوار المشهد النفيسي أنظر : المقرئ : السلوك ( نشر زياد ) ج ١ قسم ٢ ص ٣٦١ وما بعدها أنظر :

Creswell : The Musl. Arch. of Egypt vol. II, p. 135.

وانظر في تفسير تلقبها بشجر الدر حسن عبد الوهاب : أثر المرأة في الحضارة الإسلامية ( ٤ ) مجلة الخمسة عدد ٢ فبراير ١٩٣٧ ص ٥٥

هذه الألواح قد صنعت في العصر الفاطمي وانتزعت من مكانها الأصلي لاستعمالها في هذا المدفن «<sup>(١)</sup> وحدد في تخطيط خاص لمسقط المدفن مواضع هذه الألواح المثبتة في جدران مدفن شجر الدر من الداخل في مستوى أعقاب الأبواب وتحت قبة المحراب . ولم يعد لدينا شك بعد استعراض هذه الألواح في مكانها من المدفن ومقارنتها بالصور التي نشرها الدكتور فريد شافعي في اللوحات من ١-٥ في بحثه أن اللوح الذي نحن بصدده هو واحد من هذا الإزار الخشبي المثبت في مدفن شجر الدر ، بل هو أول هذه الألواح وبداية قصصها ، ويحدد مكانه بالضبط في الجهة الجنوبية من المحراب بالمدفن وطول هذا المكان هو نفس طول اللوح ٢.٥٥ متر ، وقد ظهرت أول صورة لجزء من هذا اللوح وهو مثبت في مكانه فيما كتبه ديونشير Devonshire عن بعض مساجد القاهرة سنة ١٩٢١<sup>(٢)</sup> كما أن الأستاذ كريسول يحتفظ بملية لجزء كبير من هذا اللوح وهو مثبت في واجهة المحراب منذ سنة ١٩٢٥<sup>(٣)</sup> كما نشر هوتيكور وفيت لوحات لمدفن شجر الدر سنة ١٩٣٢ توضح وجود هذا اللوح في مكانه بجوار المحراب<sup>(٤)</sup> ثم نشر الأستاذ كريسول مدفن شجر الدر بعد ذلك في كتابه عن العمارة الإسلامية في مصر سنة ١٩٥٩ فظهر مكان هذا اللوح بالمدفن خالياً منه<sup>(٥)</sup> ، كما نشر الدكتور فريد شافعي صورة جزء كبير من هذا اللوح في «حمود سليية الأستاذ كريسول التي اعتمد عليها وذكر أنه « لا وجود لهذا اللوح في الوقت الحاضر في مدفن شجر الدر ولا يعلم المصير الذي آل إليه منذ أن انتزع من مكانه في فترة الثلاثين عاماً الماضية<sup>(٦)</sup> » ولعلنا بنشر هذا اللوح ودراسته نلقى بعض الضوء على مصدر هذا اللوح

(١) دكتور فريد شافعي : مجلة آداب القاهرة م ١٦ ج ١ ص ٧٥ ، وهناك أمثلة متعددة أخرى حدث فيها مثل هذا الانتزاع لأخشاب من آثار قديمة وأعيد استعمالها في آثار أخرى أحدث منها تاريخياً مثل القطع الطولونية في مدفن الخلفاء العباسيين ومثل الأشرطة الفاطمية التي أعيد استعمالها في بيارستان فلادون .

(٢) R. L. Devonshire : Some Cairo Mosques and their Founders (London 1921) (٢)

p. 32 الوحة المواجهة

(٣) دكتور فريد شافعي : البحث السابق ص ٧٧ والوحة ٢ ا وهو رقم ١٢ في التخطيط المين

في شكل ١٩ ص ٧٦

(٤) Hauteccœur et Wiet : Les Mosquées du Caire (Paris 1932) Pls. 39, 62.

(٥) Creswell : Mus. arch. of Egypt (Oxford 1959) Vol. II, Pl. 41, b.

(٦) دكتور فريد شافعي : البحث السابق ص ٧٧

ومكانه الذى أصبح حالياً متحف الفن الاسلامى بالقاهرة . وسنحاول الآن مناقشة تاريخ هذا اللوح ، إذ أنه بالرغم من ارتباط زخارفه بأخشاب بيارستان فلاوون الفاطمية التى اعتبر أقصى تاريخ لها ١٠٦٥ م أى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، ورغم اعتبار الأستاذ الدكتور شافعى زخرفة الألواح الفاطمية بدفن شجر الدر والمكلمة لهذا اللوح من مميزات المرحلة الفاطمية الثانية فى النصف الثانى من القرن ١١ م والرابع الأول من القرن ١٢ م ، فإننا نلاحظ تاريخه لهذه الاشرطة الفاطمية يقع فى الربع الثالث من القرن ١١ م <sup>(١)</sup> ، وعلى هذا الأساس يكون طراز الزخرفة والكتابة فى هذه المجموعة التى منها اللوح الذى نشره لا يتعدى القرن الحادى عشر الميلادى فى رأيه ، غير أن هناك اعتبارات رئيسية لا يمكن إغفالها حين تأريخ هذا اللوح وهى :

١ - ارتباط زخرفة وكتابة هذا اللوح بلوح آخر من العصر الفاطمى مثبت فى قاعة الدردير التى ترجع إلى النصف الأول من القرن ١٢ م وقد اكتشف إزارها الحشبي الفاطمى الأستاذ حسن عبد الوهاب فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤١ وكان يغطيه إزار خشبي آخر من العصر التركي <sup>(٢)</sup> .

٢ - اختلاف الطراز الفنى للخط الكوفي فى هذا اللوح عن طراز الكتابة فى ألواح أخرى واردة من مجموعة بيارستان فلاوون <sup>(٣)</sup> التى اتفق على تأريخها بحيث لا يتعدى القرن ١١ م وكذلك اختلاف هذا الطراز من الكتابة على اللوح الذى نشره عن كتابة نفس الآية المنقوشة فى جامع الحاكم بأمر الله على الجص (٥٣٩٣ / ١٠٠٣ م) أو الكتابة التاريخية على باب الأزهر باسم الحاكم (٤٠٠ / ١٠١٠ م) <sup>(٤)</sup> .

٣ - ارتباط طراز الكتابة فى هذا اللوح بطراز الكتابة فى الألواح الحشبية التى ترجع إلى القرن ١٢ م كتابت السيدة رقية المؤرخ ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) وجامع اصالح طلائع ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م)

(١) دكتور فريد شافعى : البحث السابق اللوحات من ١ - ٥

(٢) Creswell: Mus. arch. of Egypt vol. I (Oxford 1952) pp. 261, 263 Pl. 94 C

وكان المعتقد قبل اكتشاف الأستاذ حسن عبد الوهاب لإزار هذه القاعة الخشب أنها ترجع إلى القرن

٨ - ١٤ م أنظر تقرير اللجنة الدائمة للآثار رقم ٨٠٣ (٦ / ٧ / ١٩٤٢)

R. Pauty : Dipsositif de Plofond Fatimite. B. I. E. vol. XV pp. 99-107 Pls. I, II. (٣)

Flury : Die Ornamente der Hakim und Ashar-Moschée (Heidelberg 1912) (٤)

Tafel II n° 3, David Weill : op. cit. pl. XI.



وفي ضوء هذه الإعتبارات كلها يمكن مراجعة الجداول التحليلية الواردة في هذا البحث (ال لوحات ١٠ و ١١ و ١٢) عن تحليل الحروف الكتابية في هذا اللوح ومقارنتها بذلك التي وردت في أخشاب الحاكم وأخشاب بيارستان فلاون وارب قاعة الدردير وأخشاب تابوت السيدة رقية وجامع الصالح طلائع. وسنخرج من هذه المقارنة بأن الحروف الكتابية على اللوح الخشبي الذي نشره اليوم لأول مرة تختلف في تنفيذها عن حروف الكتابة في جامع الحاكم وأخشاب بيارستان فلاون ذات الكتابات ، بقدر ما تقترب من طراز الكتابة بلوح قلعة الدردير<sup>(١)</sup> والألواح الخشبية في تابوت السيدة رقية وجامع الصالح طلائع . فبينما نجد الكتابات من النوع الأول تظهر فيها بقايا الحروف الطولونية الصلبة<sup>(٢)</sup> أو التوريقات التي لم يكتمل نضوجها واستدارتها في حلزونات حول الحروف، نجد كتابات النصف الأول من القرن الثاني عشر<sup>(٣)</sup> تبدو فيها الرشاقة واللبونة رغم سبك الحروف المحفورة ، هذا إلى جانب امتزاج الحروف الكتابية أحيانا بالحلزونات والتوريقات العربية الملتفة حولها على الأرضيات بحيث تتشابه معها فيصعب تخلص الحروف من مهادها الزخرفي الذي يتألف من العروق البانية وأوراق العنب الثلاثية كما هو واضح خاصة في لوح قاعة الدردير وتابوت السيدة رقية والأواح الصالح طلائع واللوح الخشبي الذي نشره هنا .

لذلك يمكن القول بأن هذا اللوح الخشبي الذي اقتناه متحف الفن الاسلامي بالقاهرة في صيف سنة ١٩٦٢ يرجع إلى منتصف القرن ١٢ م هو وبقية المجموعة الفاطمية المكتملة له والمنجبة في مدفن شجر الدر .

(١) لا يزال هذا اللوح مثبتا في حائط القاعة من الناحية الشرقية على ارتفاع ٣,٥ متر من الأرض وعرض هذا اللوح ٣٥ سم وطوله في دخلة الدرقاعة ٢,٤٨ مترا بينما يستمر إلى اليمين واليسار بزاوية إلى امتداد ٣٥ سم ثم ينقطع فجأة ويبدو من لحامات الزوايا لهذا اللوح أنه صنع خاصة ليناسب المكان المصمت به من القاعة حاليا .

(٢) زكي حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ( القاهرة ١٩٣٥ ) اللوحات رقم ١٣,١٢ ورقم ٢٠ وانظر Creswell : Early Muslim Architecture vol. II, Pl. 123 .

(٣) انظر كذلك أخشاب عهد الخلفاء إلى عهد الفاطميين في David Weil : Les Bois à Epigraphies jusqu'à l'époque Mamelouke (Caire 1931) Pls. XV, XIX.

## ٢ - شمعدان لاجين تحفة دمشقية

لفت الأستاذ جاستون فيت G. Wiet الأنظار إلى أهمية مجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة من المتحف المعدنية ، وذلك منذ أن نشر كتابه *Objets en Cuivre* سنة ١٩٣٢ من بين مطبوعات المتحف . والحق أنه رغم أهمية هذا السفر في الوقوف على كثير من كتابات وزخارف التحف المعدنية من أواني ومقالات وشاهد وثرثرات وغيرها ، إلا أن كثيراً منها أصبح في حاجة ماسة إلى دراسة جديدة فاحصة تهدف إلى أبعاد من نثر التحفة في كتالوج عام قد لا يتسع للدراسة التفصيلية ، كما أن كتاب الأستاذ فيت قد نشر قبل أن يقتنى المتحف مجموعته العالمية التي اشتراها من المستر رالف هراي سنة ١٩٤٥ .

وقد تبين لي أثناء دراستي لبعض مجموعات المتحف من التحف المعدنية أن الشمعدان النحاس المسجل برقم ١٢٨ بالمتحف تحفة تستحق الدراسة بحق فهو مطعم بالفضة ويحمل كتابات باسم السلطان الملوك لاجين (٦٩٦-٦٩٨ هـ) (١٢٩٦-١٢٩٨ م) وقد ورد ذكر هذا الشمعدان فيما كتبه مكس هرتس ومحمود عكوش قبل إشارة الأستاذ فيت إليه محاولاً تاريخه بسنة ٥٦٦٦ م<sup>(١)</sup> غير أنني لاحظت وجود نص رئيسي من الكتابة النسخية المملوكية لم يسبق لأحد من الباحثين دراسته من قبل مع أهميته البالغة في التعرف على تاريخ هذه التحفة ومكان صنعها بل واسم الصانع أيضاً ، لذلك رأيت من المفيد أن أشر هذا الشمعدان محققاً كي يساعد في التعرف على مكانته الرائعة بين التحف المملوكية بعامة والدمشقية بخاصة سيما إذا لاحظنا أن التحف المعدنية المملوكية المصنوعة في دمشق نادرة جداً<sup>(٢)</sup> .

والشمعدان الذي نحن بصدد نشره (لوحة رقم ١٣) مصنوع من النحاس الأصفر وهو خليط من النحاس الأحمر والزنك ، وزخارفه وكتابات مكفنة بالفضة وقطره

(١) مكس هرتس : فهرس دليل دار الآثار العربية (ترجمة على هيجت) القاهرة ١٣٢٧ هـ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، محمود عكوش : الجامع الطولوني (القاهرة ١٩٢٧) ص ٩٨ ،

G. Wiet : *Objets en cuivre* pp. 7, 8, 9 Pl., XXX.

(٢) نلاحظ أن الثبوت الذي أورده الأستاذ Wiet في كتابه سالف الذكر ص ٤٨ لم ترد فيه أية تحفة معدنية مسجل عليها اسم «دمشق» في العصر المملوكي بل أن «دمشق المحروسة» لم ترد في غير تحفة أيوبية باسم الملك الناصر يوسف وهي التحفة التي صنعها حسين بن محمد الموصل سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) بمتحف اللوفر .

من أسفل ٣٥ سم وارتفاع الشمعدان كله ٤٢ سم وهو وارد للمنحف من القلعة بالقاهرة وربما كان قد تنقل إلى القلعة من جامع ابن طولون حيث كان مكانه الأصلي الذي وقف عليه ويتألف شكله العام من أجزاء رئيسية ثلاثة :

١ - البدن : وهو الجزء الذي اصطلاح على تسميته بالقاعدة .

٢ - العود : وهو رقبة الشمعدان فقط دون الجزء العلوى .

٣ - الثبابة : وهى الجزء العلوى الذى يتوج العود ويخصص لثبيت الشمعة فيه .

وستتناول بالبحث هذه الأجزاء كل على حدة

**البدن** : أسطوانة على شكل مخروط ناقص قطره من أسفل ٣٥ سم ومن أعلا ٢٦ سم وارتفاعه ٢٥ سم وبزبن البدن شريط محدد عرضه ١٤ سم يدور حول الوسط ويحتوى على كتابة نسخية مملوكة بقلم كبير وهى كتابة بارزة بالحفر على أرضية من زخارف نباتية من فروع وأوراق دقيقة ( لوحة ٢٣ شكل ب ) يبدو على بعضها أثر التكفيت بالفضة بينما تحفظ الكتابة بكثير من نضتها ونص الكتابة (١) :

١ - ( عما عمل برسم الجامع المعمور بيقا [ سيد ملوك المسلمين مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبى عبد الله لاجين الذى تقرب إلى الله تعالى بعبادته ) .

ويحيط بشريط الكتابة من أعلا البدن وأسفله شريطان عرض كل منهما ١ سم وبزبن كل شريط فرع نباتى متموج تخرج منه أوراق جناحية متبادلة ( لوحة ٢٣ شكل د ) وبالشريطان أثر تكفيت بالفضة ، وبسطح البدن قرص من النحاس الأصفر مثبت فى وسطه عود الشمعدان ، ويحيط بالقرص قرب محيطه الخارجى شريط بعرض ٢ سم محدد بخطين من النقط المخفورة ، ومزين بزخارف مخفورة توأما بطيور البط الطائر وتحتصر كل اثنتين منها طائر صغير يمشى على رجله أشبه بالكتكوت ( لوحة ٢٣ شكل هـ ) ، ويقطع زخرفة هذا الشريط ثمان مناطق مستديرة بها أثر زخارف هندسية من خطوط تشع من مركز واحد ، وبلى هذا الشريط إلى الداخل شريط آخر محدد بعرض ٣ر٥ سم يدور حول العود وعليه كتابة نسخية دقيقة على أرضية من زخارف نباتية مخفورة البارز ، ويفصل بين الكتابة وبعضها أرجح جامات مستديرة يخرج محيط كل منها عن حدود الشريط من أعلا ومن أسفل ،

( ١ ) أشار إلى هذه الكتابة محمود مكوش : الجامع الطولونى ص ٩٨ وكذلك Wiot : op. cit. p. 7

وتزينها زخارف نباتية من بينها زهرات اللوتس المنفتحة (لوحة ٢٣ شكل >) ،  
وبهذا الشريط أثر تكفيت بالفضة ونص الكتابة .

٢ - ( المعروف بابن طولون - تقبل الله ذلك منه وأحسن <sup>(١)</sup> ) - إليه  
في الدنيا والآخرة - وجعله في صحائف حسنائه - ) .

العمود : اسطوانة من نفس المعدن النحاس الأصفر ارتفاعها ١٠ سم يدور حول  
أسفلها شريط غير محدد من كتابة نسخة مملوكية دقيقة محفورة حفرأ غير عميق ولعل ذلك  
هو السبب في أنه لم يثبت إلى قوامتها الاستاذ فثيت ، ونص الكتابة ( انظر لوحة ١٩ و ٢٠ ) :  
٣ - ( عمل على ابن كسيرات الموصل سنة سبعة وتسعين وستمائة بدمشق  
المحرورة خلد الله ملك مالكمها ) .

وسنناقش هذا النص فيما بعد .

ويدور حول وسط العمود شريط محدد بعرض ٦ سم عليه كتابة بقلم النسخ المملوكي الدقيق  
محفورة بالبارز على أرضية تزينها فروع وأوراق نباتية بارزة ونص الكتابة (لوحة رقم ١٧ و ١٨) .

٤ - ( العبد الفقير إلى الله تعالى شاذى <sup>(٢)</sup> بن شيركوه أثابه الله الكثير ) <sup>(٣)</sup>

الشعاع . ( لوحة رقم ١٥ و ١٦ ) اسطوانة على شكل مخروط ناقص ارتفاعها ٧ سم وبها  
فحة من أعلا لوضع الشعلة قطرها ٦٢ مم ويدور حول الشعاع من الخارج شريط زخرفي  
عرضه ٢٧ مم محدد من أعلا ومن أسفل بشرطين رقيقين خالين من الزخرفة ، وبزین  
الشريط الأوسط كتابة بالخط النسخي المملوكي الدقيق يفصلها عن بعضها أربع جامات مستديرة  
في هيئة ميّات مزينة بزخارف نباتية قوامها فروع وأوراق نباتية ( لوحة رقم ٢٢  
شكل ١ ) وبهذا الشريط أثر تكفيت بالفضة ونص الكتابة .

٥ - ( تقرب بوقفيته على - جامع ابن - طولون في - المحراب - ) .

( ١ ) يذكر محمود عكوش : المرجع السابق هذه العبارة على الوجه التالى ( تقبل الله منه ذلك  
وأحسن ) وكذلك قرأها Wiet في ص ٧ مع أن كلمة ( منه ) لا تيسر في نفس مستوى السطر النسخي  
المكتوب بل هي في مستوى أهل بين كلمة ( الله ) و ( ذلك ) فأريت الأجدد قراءة النص هكذا  
بإجمال الكتابة التي في مستوى واحد ثم أكالمها بما فوقها والمعنى يستقيم في كلا القراءتين .

( ٢ ) قرأها Wiet ص ٧ ( شاذى ) ولكن قرأتها هكذا ( شاذى ) بعد تحقيق اسمه .

( ٣ ) قرأها عكوش ( الكبير ) على أساس أنها اسم من أسماء الله الحسنى وأضاف قبلها كلمة ( تعالى )  
مع أنها غير موجودة في النص المنقوش وكذلك قرأها Wiet ( الكبير ) غير أننى أميل إلى قراتها  
( الكبير ) إشارة إلى الثواب وتكلمة للصلوة الذى بدأ به النص للعبد الفقير شاذى .

ومن الملاحظ على زخارف هذا الشمعدان أن الفروع والأوراق النباتية تشكل في مجموعها عنصرًا ثانويًا يصبح الموضوع الزخرفي الرئيسي الذي يسود الشمعدان كله وهو الكتابة النسخية التي تفاوتت أحجامها حسب الفراغ المحدد لها فوق سطح الشمعدان ولكنها لا تخرج عن طراز الكتابة المملوكية النسخية في مختلف حروفها المطلقة ﴿ أو المركبة ﴾ أو المجموعة ﴿ أو المقطوفة ﴾ أو المحققة ﴿ أو المدغمة ﴾ أو المبسوطة ﴿ أو الملوزة ﴾ أو المربعة ﴿ أو المعلقة ﴾ (س) كما تبدو في الجدول التحليلي للنصوص الواردة على الشمعدان<sup>(١)</sup> (لوحة رقم ٢٤) ويظهر أن السبب في شيوع هذا النوع من الزخارف الكتابية والنباتية وحسب هو أن الشمعدان عمل خاصة ليوضع في محراب مسجد ابن طولون<sup>(٢)</sup> كما يبدو من النص (رقم ٥) وبهذه دلالة على أن هناك شمعدانًا آخر يطابق الشمعدان الذي نشره هنا كي يوضع كل منهما في جانب من المحراب نفسه ، ولكن لم يصلنا غير شمعدان واحد ، وظاهرة وضع الشعايد على جانبي المحراب قد سجلتها كثير من التحف الإسلامية منذ العصر المملوكي وما بعده سواء في التحف الرخامية ، أو الخرفية أو السجاجيد<sup>(٣)</sup> (لوحة رقم ٢١ و لوحة رقم ٢٢) .

ويبدو من استعراض النقوش الكتابية أنها تشكل خمسة أسطر وليس أربعة كما ذكر الأستاذ فريت وعكوس (لوحة رقم ١٤) ، اثنان منها على البن ، واثنان على عمود الشمعدان ومن بينهما النص الهام الذي نشره هنا لأول مرة محققًا ، وسطر واحد على الشاعة ، وكل هذه

(١) اللقشني : صبح الأعشى ج ٣ ص ٦٣

(٢) روعي في زخرفة المساجد وأثاثها استبعاد الرسوم الحيوانية والأكمية حتى أضحت خلوا من الصور والتمائم التي يسمتان بها على شرح العقائد الدينية وتوضيح تاريخ الدين وحياة أبطاله كما في المسيحية . أنظر زكي حسن : في الفنون الإسلامية ص ٢٧

(٣) ورد للتحف شعايد كل اثنين منها مئالتين ويظهر أنهما لهذا الغرض نفسه أي لوضعهما على جانبي المحراب ومنها الشمعدانان رقم سجل ٢٣٣١ و ٢٣٣٢ ، وأنظر توزيع الشمعدانين على المحراب الرخامي المملوكي رقم سجل ١٩ وعلى بلاطات الخزف رقم سجل ٢٠٩٥ ورقم ٦٩١٤ وعلى السجادة الإسلامية بالمتحف رقم ١٥٧٧٤ وقد أشارت وثائق وقف كثيرة منها وثيقة لاجين بمسكة القاهرة للأحوال الشخصية رقم ١٧ مخفلة ٣ إلى تعيين أمين عدل لحفظ آلات الإضاءة بالجامع وخصصت مبالغ معينة لفراء ما تحتاجه الشعايد من الشمع الأبيض المسبوك على القطن المقنول برسم الوقود أنظر عن حجج وقف أخرى وردت في بحث الدكتور عبد اللطيف إبراهيم : المكتبة المملوكية ص ٤٤ وحاشية رقم (١) .

النصوص تسير مترابطة المعنى، ومتكاملة بترتيبها من أسفل إلى أعلا في النصوص من (١-٣) ثم من أعلا إلى أسفل في النصين (٥ و ٤) وتبدأ النصوص الأولى الرئيسية من (١-٣) بالإشارة إلى اسم السلطان المملوك لاجين كما تشير إلى ارتباط الشمعدان بعمارة الجامع الطولوني التي أجراها هذا السلطان في ١٢٩٦هـ (١٢٩٦م) « وكان إذ ذاك مهجورا لا يؤتد به سوى مرابح واحد في الليل ، ولا يؤذن أحد بمنارته وإنما يقف شخص على بابه ويؤذن<sup>(١)</sup> كما يشير النص الثالث إلى اسم الصانع وتاريخ ومكان صناعة الشمعدان . أما النص الخامس والرابع فيشيران على التوالي إلى وقف « شادى بن شيركوه » لهذا الشمعدان على محراب الجامع الطولوني .

أما شادى هذا فقد ذكر المرحوم على بهجت أنه « لم يستدل مع كثرة البحث في كتب الوفيات على شادى بن شيركوه الذى أوقف هذا الشمعدان على الجامع »<sup>(٢)</sup> كما ذكره الأستاذ فيت Wiet باسم « شادى » وأكد أنه غير معروف تماماً في كتب التراجم<sup>(٣)</sup> .  
والحق أنني جهلت في البحث عن هذه الشخصية التي أمرت بصنع الشمعدان في دمشق المحروسة تقرباً إلى الله وطبعاً في ثوابه ، وذلك لوقفه « على جامع بن طولون في المحراب » ويغلب على الظن أن هذا الشخص هو الملك الأوحى شادى أحد أمراء دمشق تقبها الذى عاصر كتبنا ولاجين ، وقد تولى هذه الإمرة بدمشق منذ ١٦ رمضان سنة ٥٦٩٤هـ (١٢٩٤م) فيذكر المقرئ في كتابه السلوك أنه « في سادس عشر رمضان [ ٥٦٩٤هـ ] ... أنعم (كتبنا) على الملك الأوحى شادى بن الزاهر مجير الدين داوود بن المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الأيوبي يامرة في دمشق ، فاستقر من جملة أمراء الطبلخاناه بها وهو أول من أمر طبلخاناه من بنى أيوب في الدولة التركية (المملوكية) »<sup>(٤)</sup> .

(١) المقرئى : السلوك (زيادة) ج ١ قسم ٣ ص ٢٢٧

(٢) « فهرس مقتنيات دار الآثار بالبرية » لمكس هرتس وترجمة على بهجت (القاهرة ١٣٢٧هـ) ص ٢٠٣

(٣) G. Wiet : *op. cit.*, pp. 7, 8. حيث يذكر :

« ... un certain, Shādihī, fils de Shirkuh, complètement inconnu des chroniques ».

(٤) المقرئى : السلوك (زيادة) ج ١ قسم ٣ ص ٨٠٩ وأنظر عن تسمية الدولة المملوكية بالدولة التركية مقال الدكتور زيادة عن « ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك » مجلة آداب القاهرة مايو ١٩٣٦ ص ٧٤ ، ابن حجر العسقلاني: الدور للكامنة ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨٤ (طبعة حيدر آباد ١٣٤٩هـ) .

وقد ذكر القلقشندي تعريفاً للطلبخاناة وأميرها عند الحديث عن رسوم الملك وآلاته أنها « بيت الطبل ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمر علم ، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة ويؤلى أمرها في السفر »<sup>(١)</sup> ويعتبر أمير الطلبخاناة من جملة أرباب السيوف في الدولة المملوكية كما يعتبر من أمراء الطبقة الثانية الذين « عدة كل منهم في الغالب أربعون فارساً ... وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارساً ... ومن أمراء الطلبخاناة تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال وأكابر الولاة »<sup>(٢)</sup> وهذه هي رتبة شادى بن شيركوه الذى أرجح أنه أوقف الشمعدان الذى نشره هنا وقد ذكر ابن حجر الصقلاني أن شادى هذا توفي عن تسع وخمسين سنة<sup>(٣)</sup>.

ومن الملاحظ في النص (رقم ٤) أن اسم شادى ورد مسبقاً بعبارة « العبد الفقير إلى الله تعالى » وقد استعمل لفظ « العبد » هنا كلقب قصد إظهار الصلة بين شادى كأمر وبين لاجين كسلطان وكثيراً ما ورد هذا اللقب ليترجم به السلاطين عن أنفسهم في مكاتبتهم إلى الخلفاء<sup>(٤)</sup> وقد أضيف إلى اللقب هنا في النص عبارة « الفقير إلى الله تعالى » إمعاناً في التواضع والتذلل ، وهناك نص مشابه من عصر المماليك ورد فيه اللقب هكذا من بين ألقاب نائب السلطنة سيف الدين سلاار في نقش على مشكاة موهبة بالينا بمصنف الفن الاسلامي<sup>(٥)</sup>.

أما لاجين الذى سجل الشمعدان اسمه فهو أحد أبناء البلاد الواقعة على البحر البطلي بالشمال الغربى من أوروبا وكان قد انخرط في سلك فرقة الفرسان التيوتون المسيحية *Ordre des Chevaliers Teutoniques* وحارب في صفوفها ضد الوثنيين على البحر البطلي وجاء إلى الشام صليبياً يتنقى مع الصليبيين تخليص بيت المقدس من المسلمين ثم اعتنق

(١) (٢ ، ١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣ ، ص ١٥ ، وأنظر مادة « طلبخاناة » في Dozy : Suppl.

(٢) ابن حجر : المرجع السابق ص ١٨٤

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٧٢ ، والدكتور حسن الباشا : الألقاب ص ٣٩٢

(٤) (٥) (١٩٢٩) *G. Wiet : Lampes et Bouteilles en verre Émaillé (Le Caire 1929)* ورقم سجل هذه

المشكاة (٢٨١) وأرخها فيت ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) 25 p.

ويعتقد الدكتور حسن الباشا أن غالب ورود اللقب بهذا النص في النصوص الجنائزية وكان لا يأتي

في النقوش المملوكية ضمن ألقاب سلطان قائم أنظر حسن الباشا : الألقاب ص ٣٩٣

الإسلام بعد ذلك وصار من زمرة ممالك قلاوون بمصر وقلب في الخلع المملوكية حتى عينه قلاوون نائباً بدمشق حيث عرف بلجين الصغير<sup>(١)</sup>. وما لث أن اشترك مع بعض الممالك في قتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في ١٢ محرم سنة ٦٩٢ هـ ، ولجأ مختفياً إلى منارة الجامع الطولوني كمكان مهجور يلوذ به ، فأقام مدة لم يظهر خبره حتى عفى عنه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وفي عهد سلطنة كتبغا (٦٩٤-٦٩٦ هـ) بقي لاجين نائباً للسلطنة بل قسم المملكة مع كتبغا<sup>(٢)</sup> غير أن لاجين دبر مؤامرة لقتل كتبغا فقتله ففر الأخير إلى دمشق وتولى لاجين سلطنة الديار المصرية والشامية في صفر ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) «فأراد أن يكون من شكر نعمة الله عليه عمارة هذا الجامع (الطولوني) فصرع<sup>(٣)</sup> على عمارته ٢٠.٠٠٠ عشرين ألف دينار ووقف عليه قرية منية أندون من أرض البليدة»<sup>(٤)</sup> للصرف منها على المدرسين والمشتغلين والموظفين في الجامع، ورتب فيه دروساً للحديث والتفسير والفقه على المذاهب الأربعة ، ومدرساً للطب وأنشأ مكتباً وسيلاً كما أمر بعمل إصلاحات أخرى في الشبايك والمئذنة<sup>(٥)</sup> ووضع منبراً للجامع أمر بعمله في ١٠ صفر سنة ٦٩٦ هـ وسجل لاجين تاريخ عمارته التي أجراها بالجامع الطولوني على لوح خشبي فوق القبة بالصحن مؤرخ سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وعلى باب منبره بالجامع .

- 
- (١) دكتور زيادة : ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ص ٧٤ ، المقرئى : السلوك (زيادة) ج ١ قسم ٣ ص ٨٢٠-٨٢١  
 (٢) عزل «كتبغا» السلطان الناصر محمد بحجة أنه لم يبلغ سن الرشد وبقي كتبغا في السلطنة سنة إلا ثلاثة أيام (النجوم الزاهرة) ج ٨ ص ٨٦ ، دكتور جمال سرور : دولة بني قلاوون ص ٣٨  
 (٣) السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٨٢٧ ويذكر ابن تفرى بردى النجوم ج ٨ ص ١٠٧ تعليقا على هذا التعبير «ولاء لكان دثوغرب» .  
 (٤) أنظر وثيقة السلطان لاجين بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة رقم ١٧-محفظه ٣ ورقم ١٨ عطفه ٣

(٥) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٦٩ ، Creswell : E. M. A. II, pp. 354/5 ، دكتور فريد شافى : مثناة مسجد ابن طولون (مجلة آداب القاهرة م ١٤ ج ١ مايو ١٩٥٢) ص ١٦٧ وما بعدها حيث يذكر سيادته أن «الرأى قد انتهى إلى أن المثناة كلها من ضمن أعمال الإصلاح والتعمير التي قام بها لاجين في جامع ابن طولون في ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م)» ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ٤٥



ومن بين أعمال لاجين التي تمنا في عبارة هذا الجامع ذلك الخراب الأسير بجامع ابن طولون بالرواق الأول ناحية الصحن وهو الخراب الذي أمر به لاجين ليكون مطابقاً للخراب الأيمن المستصرى الفاطمي، فبينما يشير الحان الأول والثاني من نصوص الشمعدان إلى عبارة لاجين بالجامع الطولوني بصفة عامة ترى أن النص الرابع والخامس يشير إلى خراب لاجين بصفة خاصة، إذ أن شادي بن شيركوه وقف الشمعدان على هذا الخراب الذي نهب عن عبارة لاجين بالجامع الطولوني ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م). وقد سجل لاجين اسمه وألقابه على هذا الخراب في كتابة كوفية زخرفية في المامش الخارجي للخراب الجصّي تخلف منها «... هذا الخراب المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدين والدين لاجين سلطان الإسلام...»<sup>(١)</sup>، ونحن نخص هذا الخراب — بالشمعدان الذي أوقفه شادي ابن شيركوه — من بين الخرائب الخمسة بالجامع الطولوني سواء الطولونية منها أو الفاطمية أو المملوكية، لأنه لا يعقل أن يوقف شادي شمعداناً باسم لاجين على غير الخراب الكبير الجصّي الذي أنشأه لاجين نفسه بالجامع الطولوني، سيما وأن شادي وهو أمير دمشق يرغب في استرضاء السلطان لاجين بهذه التحفة التي أمر بصنعها بدمشق نفسها في مناسبة خاصة.

ومن الملاحظ أن كتابات النصين (١ و ٢) تضمنت كثيراً من ألقاب لاجين والثناء له بالإحسان إليه في الدنيا والآخرة بسبب عمارته للجامع الطولوني «المعور»<sup>(٢)</sup>، ففي النص رقم (١) مثلاً ورد «سيد ملوك المسلمين مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدين والدين أبي عبد الله لاجين» ويقترب هذا النص بما أضفى على لاجين من ألقاب من نص مماثل ورد في وثيقة لاجين بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة برقم مسلسل ١٧ و ١٨ محظلة ٣، ففي الوثيقة رقم ١٧ وردت ألقابه هكذا «السلطان لاجين بن عبد الله النصوري قسم أمير المؤمنين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والقراية والحلبية

(١) محمود عكوش: الجامع الطولوني ص ٦٨، Creswell: E. M. A. vol. II, pp. 348-9  
(٢) ورد هذا اللفظ في شمعدان لاجين هنا في النص رقم (١) والواقع أن هذه الكلمة من الألقاب التي كانت تجري مجرى التفاضل... فتفاضلوا ببنوهم عمارها وبنوهم عز صاحبها وبقائه «أنظر حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص ٤٧٨، والقلشندى: صبح الأعشى ج ٦ ص ١٨٥ وكذلك أنظر وثيقة لاجين رقم ١٨ محظلة ٣ محكمة القاهرة حيث نجد وصف بيت المال بنفس اللفظ في عدة مواضع «بيت المال المعور». كما ورد اللفظ على مشكاة زجاجية بمتحف الفن الإسلامي رقم سجل ٣١٥٤ باسم الماس الحالب حيث ذكر «ما عمل برسم الجامع المعور» أنظر:

Wiet: Lampes et Bouteilles en Verre Émaillé (Le Caire 1929) p. 123.

والساحلية وما مع ذلك من المدائن والقلاع والأمصار والثغور» (١) بينما وردت ألقاب لاجين على السكة التي ضربت باسمه من الدنانير والدرهم بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة والمكتبة الاهلية ياريس (السلطان الملك المنصور ناصر الملة المحمدية حسام الدنيا والدين لاجين (٢) ، و (السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبو الفتح لاجين المنصورى ، خلد الله سلطانه (٣) .

ولن نمنع في تحليل ألقاب كل هذه النصوص التي وردت على سكة لاجين أو نشأته أو وثائق وقفه ، وإنما قد أوردتها هنا فقط لمعرفة مدى التقارب بين مختلف النصوص الوثائقية للاجين ، وكذلك لمعرفة مدى ارتباطها بالنص الذى ورد محفوراً بارزاً على شمعان لاجين ، وهو الذى يهنا هنا ، وبمقارنة هذا النص بغيره من نصوص لاجين نرى أنه أكثر قرباً من النص الوارد على محراب لاجين بالجوامع الطولونى وهو ذلك المحراب الذى عمل الشمعدان من أجله ، وخاصة فى الجزء الذى ينص على «مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين» فيما عدا أن نص الشمعدان قد أضفى على لاجين لقب (أبى عبد الله) الذى لم يرد إلا فى وثيقتى لاجين بمحكمة القاهرة التى أشرت إليهما وقد ورد اللقب فى الوثيقتين مصححاً «لاجين بن عبد الله» بينما ورد على الشمعدان مصحفاً «أبى عبد الله» (٤) ونقشت كلمة (أبى) بشكل لا يدع مجالاً للشك فى قراءتها بغير ذلك . إذ تظهر الياء الرابعة واضحة بحيث لا يمكن افتراض قراءتها (نونا) كما لا يمكن افتراض

(١) وثيقة رقم ١٧ محفظة ٣ بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة مؤرخة ٢١ ربيع الآخر سنة ٦٩٧ هـ على رق غزال وكذلك وردت القابه حل الحجة رقم ١٨ بنفس المحفظة والمحكمة وهى على رق كذلك وتعتبر نسخة أخرى من رقم ١٧ مسلسل وتاريخها أيضاً ربيع آخر سنة ٦٩٧ هـ وفى وجه هذه الوثيقة ذكر «حسام الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين» وفى أسفل هنا شكرى للزميل الدكتور عبد الحليف ابراهيم الذى أعاننى سلبية هاتين الوثيقتين .

(٢) دينار بالمكتبة الاهلية ياريس ضرب دمشق المخروسة ٦٩٦ هـ وزن ٨٥،٤ جرام برقم (٨٥٣) وآخر بدون تاريخ وزن ٣٧،٥ جرام برقم (٨٥٤) أنظر

Lavoix : Catalogue des monnaies Musulmanes vol III. pp. 345, 346. Pl. VII (Paris 1896).

(٣) دينار رقم سجل ٢٠ / ١٤٧١٣ بمتحف الفن الاسلامي ضرب سنة ٦٩٦ هـ ودرهم رقم سجل ١٠٨٢١ بمتحف الفن الاسلامي . وعلى الدينار وردت القابة (السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبو الفتح لاجين المنصورى خلد الله سلطانه) وعلى بعض الدراهم وردت (السلطان الملك المنصور ناصر الله المحمدية حسام الدنيا والدين لاجين) وعلى بعضها مثل ما وردت على الدينار تماماً .

(٤) يذكر الأستاذ فيت أن هذا اللقب لم يرد فى أى كتابه باسم لاجين أنظر : Wiet : Objets p. 8

قراءتها (واوا) إلا في حالة عدم وجود (عبد الله) بعدها فيقال «أبو الفتح» مثلا كما في سكة لاجين التي سبقت الإشارة إليها أو يقال «أبو المظفر» كما ورد في نص مؤرخ ٨٦٩٦ هـ باسم لاجين<sup>(١)</sup> وعلى ذلك فلا مناص من اعتبار (الياء) هنا في (أبي) خطأ وقع فيه النقش ما دام يقصد إضافة (عبد الله) إليها، وذلك ليستقيم معناها ومبناها مع ما ورد من ألقاب لاجين في وثيقته بمحكمة القاهرة وقد شاع في العصر المملوكي ورود لفظ (عبد الله) مسبوqa بكلمة (ابن) للإشارة إلى بعض الممالك أو العتق المذكور مجهول الأصل، وقد سمي السلطان الظاهر يبرس في مطلع العصر المملوكي باسم «يبرس بن عبد الله» في نص إنشاء بتاريخ ٨٦٦٦ هـ في المسجد الأبيض بالرملة<sup>(٢)</sup>.

وفيما يتعلق بقية ألقاب لاجين في النص الوارد على الشعدان فهي «سيد مملوك المسلمين مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين» أما لفظ «سيد» فقد ورد معرfa كلقب عام على أصحاب السلطان الحقيقي في مصر منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر المماليك، وقد دخل لقب الـ «سيد» في تكوين كثير من الألقاب المركبة الأخرى ولكنه دائما يفيد علو شأن الملقب به على أبناء جنسه المبتدئين في المضاف إليه مثل تلقيب لاجين هنا بأنه «سيد ملوك المسلمين»<sup>(٣)</sup> أي أعظمهم قاطبة. وقد صار لقب «مولانا» من أهم ألقاب السلاطين والملوك منذ عهد صلاح الدين الأيوبي حين أوصى الكتاب في دساتيرهم باستعماله كعلم على السلطان<sup>(٤)</sup> ونراه هنا في نص الشعدان قد أطلق على لاجين في ٦٩٧ هـ كما أطلق عليه كذلك في نص محرابه الجصى بالجامع الطولوني<sup>(٥)</sup>.

(١) أنظر Wiet : *op. cit.* p. 8, Brunnow et Domeszewski : *Die Provincia Arabia*, vol., II, (Strasbourg) p. 195

(٢) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص ٣٩٦ حاشية رقم ٣، Combe, Sovaget et Wiet : *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arab.* (Le Caire 1943) vol., 12, n° 4588 pp. 123, 124.

(٣) أنظر في تفسير لقب الـ «سيد» وما أضيف إليه من ألقاب مركبة. حسن الباشا: المرجع السابق الصفحات من ٣٤٥ - ٣٥٠ ولكن لم يرد فيها أوضحه من ألقاب مركبة مضافة إلى «السيد» لقب لاجين «سيد ملوك المسلمين» التي أوردناه هنا في المتن كما ورد على الشعدان المؤرخ ٩١٧ هـ.

(٤) الفلقشنلى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٥٥ ، ج ٧ ص ١٧

(٥) أنظر أيضا نقوش لاجين المؤرخة سنة ٦٩٦ هـ في Van Berchem : *C. I. A., Egypte*, vol. I, nos 14-16 وكذلك النص الوارد على اللوح النحاسي بمتحف الفن الإسلامي - الذي سجل عمارة لاجين بالجامع الطولوني برقم سجل ٢٠٢ بالمتحف.

أما لقب (سلطان) فكان لقباً عاماً على الحكام في عصر المماليك وقد اتفقت كافة المصادر على ذلك رغم إطلاقة أحياناً على ولى العهد<sup>(١)</sup> وفي عهد المماليك كذلك استمر إطلاق لقب (الملك) على الرئيس اذ على السلطة الزمنية إلى جانب لقب السلطان فأصبح يقال (السلطان الملك) كما هو وارد في نص شعبدان لاجين<sup>(٢)</sup> وقد استعمل لقب (النصور) في مصطلح العصر المملوكي كإحدى الصفات التي تجرى مجرى التناول بالنصر وهو لقب يشير إلى أن لاجين مؤيد من الله لأن النصر من عند الله<sup>(٣)</sup>. وفيما يتعلق بلقب (حسام الدنيا والدين) فهو لقب غفري أطلق على لاجين في نص الشعبدان كما أطلق عليه في معظم السكة التي ضربت باسمه من الدنانير والبراهم بدمشق والقاهرة، وكذلك ورد اللقب على محرابه بالجامع الطولوني كما ورد على الشريط النحاسي في متحف الفن الاسلامي باسم لاجين الذي تختلف عن عبارة لاجين بجامع ابن طولون. وورود اللقب بهذه الصيغة كناية عن أن لاجين هو (سيف الدنيا والدين) ويقرر القلقشندي أن هذا اللقب كان يطلق في عصر المماليك على رجال الجيش من تلك ومن المولدين وكان في الحالة الأولى يختص غالباً بالاسم « لاجين »<sup>(٤)</sup>.

لم يبق بعد ذلك من نصوص الشعبدان ما تناقشه غير النص رقم (٣) وهو النص الهام الذي اكتشفت وجوده بين نصوص الشعبدان : « عمل على ابن كيرات الموصلى سنة سبعة وتسعين وستماية بدمشق الحروسة خلد الله ملك مالكمها ».

والواقع أنه لم يعد هناك شك في أن صحة تاريخ هذا الشعبدان كما ورد بالنص هو سنة ٦٩٧ هـ وليس قبل ذلك كما قرر الأستاذ فيث Wiet. إذ أنه أرجع تاريخه إلى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م)<sup>(٥)</sup> ويظهر أنه في تاريخه لهذا الشعبدان ربط بين وقف شاذى للشعبدان على محراب لاجين بالجامع الطولوني وبين عبارة لاجين في هذا الجامع

(١) مثل الملك المسيد بركة كان في العهد اليه سنة ٦٦٧ هـ والملك الصالح سنة ٦٧٩ هـ والملك الأشرف خليل سنة ٦٨٧ هـ أنظر حسن الباشا : المرجع السابق ص ٣٢٨ ، Van Berchem : *op. cit.*, p. 299

(٢) المقرئى : خط ج ٢ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٨٧ - ٤٨٨  
(٣) إشارة إلى الآية رقم ١٢٦ من سورة آل عمران (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم)  
والآية رقم ١٠ من سورة الأنفال (وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم).

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٨٨ ، حسن الباشا : المرجع السابق ص ٢٥٩

(٥) Wiet : *obets en cuivre* p. 9, Pl. XXXX

وهي العبارة التي تمت سنة ٦٩٦ هـ وأشارت إليها نصوص كثيرة مؤرخة سواء بقبة الصحن أو بالنبر<sup>(١)</sup> ظناً منه أن الشمعدان لا بد أن يكون قد صنع في هذه السنة بالذات وفي تلك المناسبة ، ولكن الصحيح هو ما ورد مؤكداً بالنص رقم (٣) على الشمعدان مما يقوم دليلاً على أن هذا الشمعدان قد قلم عديداً إلى لاحقين ، بعد الانتهاء من عمارة الجامع الطولوني تماماً وإقامة الخراب الجصى الذى أوقف عليه شادى هذا الشمعدان سنة ٦٩٧ هـ .

أما « على بن كسيرات الموصلى » فهو الفنان الذى صنع الشمعدان وسجل اسمه ونسبته على قاعدة عمود الشمعدان ، ولكننا نتساءل الآن : هل كان ابن كسيرات هذا « السنكرى » الذى طرق الخامة النحاسية وشكلها في هيئة الشمعدان ؟ أم هل كان « المطعم » الذى نزل النحاس الأصفر بالفضة التي تظهر بقاياها على كثير من العناصر الزخرفية بالشمعدان ؟ أم كان « النقاش » الذى نقش كتابات الشمعدان وزخارفه الهندسية ، والنباتية ؟ إننا لا نستطيع أن نجيب على هذه الأسئلة إجابة قاطعة لأن النص لم يشر إلى مهنة « على ابن كسيرات » ، مع أننا نعرف من نصوص بعض النخف المدنية الملوكية ما يميز بين كل فنان وآخر بحسب مهنته وهو أمر لم يفعله النص الذى ورد به اسم ابن كسيرات . ففى متحف الفن الإسلامى شمعدان برقم سجل ١٥١٢١ من مجموعة هراى مسجل عليه نص باسم « عمل الحاج اسماعيل » ولعل ذلك إشارة ضمنية إلى أنه السنكرى الذى طرق الخامة وشكلها لأن نفس النص مسجل عبارة « نقش محمد بن فتوح الموصلى المطعم » وهى إشارة صريحة إلى أن ابن فتوح هو النقاش ، المطعم كما أشار النص أيضاً إلى نقاش آخر في عبارة « أجبر الشجاع الموصلى النقاش<sup>(٢)</sup> » وكذلك يوجد بمتحف الفن الإسلامى مائدة ( كرسى عشاء ) من النحاس المطعم بالفضة من العصر المملوكى باسم الناصر محمد بن قلاوون برقم سجل ( ١٣٩ ) ومؤرخه ٧٢٨ هـ ( ١٣٢٨ م ) وعليها نص يشير

( ١ ) Van Berchem : C. I. A. Egypte, nos. 14-16

( ٢ ) وفى المتحف البريطاني ابريق من عمل شجاع الموصلى مؤرخ في شهر رجب سنة ٦٩٦ هـ ( ١٢٣٢ م ) في الموصلى ويبدو أن شجاع هذا كان فناناً مشهوراً حتى أن محمد بن فتوح نقاش الشمعدان الذى يقتنيه متحف الفن الإسلامى لم يجد حرجاً في الانتساب إليه كإجير له . وربما كان محمد بن فتوح قد قام بالعمل في ورشة شجاع الموصلى بالشام أو مصر بعد فرار الأخير من الموصلى الى استولى عليها المغول سنة ١٢٥٦ م . أنظر دليل موجز متحف الفن الإسلامى ( ١٩٥٨ ) ص ٥٠

إلى « المعلم الأستاذ محمد بن منقر البغدادى السنكرى »<sup>(١)</sup> « وفي متحف برلين صندوق مصحف من النحاس المطعم بالذهب والفضة عليه نص اكتشفه الزميل عبد الرؤوف على يوسف أثناء إقامته بإسسن بألمانيا الغربية وقراءه « عمل محمد ابن منقر البغدادى » و « تطعيم الحاج يوسف بن الفوايى »<sup>(٢)</sup> .

ولكن رغم كل هذه النصوص التى تميز بين « المطعم » و « النقاش » و « السنكرى » إلا أن نص المائدة المملوكية بمصحف الفن الإسلامى الذى سبقت الإشارة اليه يشير إلى « المعلم الأستاذ محمد بن منقر » دون أن يسجل على التحفة اسم لغيره رغم تحديد مهنته بالسنكرى لذلك لا يبعد أن تكون أعمال السنكرة هى أشمل الأعمال الفنية وأعمها ، ولا يستطيع أن يمارسها إلا « معلم أستاذ » كمحمد بن منقر ليقوم بطرق الخامة وتشكيلها ونقشها وتطعيمها بمعرفته وفى ضوء مهارته الفنية ، وهو أمر يحملنا على الظن أن « على بن كسيرات » كان فنانا قديرا لم يكن فى حاجة إلى من يشاركه العمل فى إنتاج شعبان لاجين سنة ٦٩٧ هـ بل قام هو بكافة الأعمال الفنية اللازمة لإنتاج هذه التحفة الفريدة وانفرد بتسجيل اسمه ولقبه صراحة دون الإشارة إلى تخصص بعينه . ولعل لفظ: « الموصلى » الذى ورد بعد اسم « على بن كسيرات » يدل على موطنه الموصلى الذى ربما يكون قد تركها أمام غارات المغول واستيلائهم عليها سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥م)<sup>(٣)</sup> قبل تحطيمهم بغداد ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) وهاجر مع من هاجر من زملائه الفنانين إلى حيث الأمن والسلامة ورغد العيش ، ولكنه آثر أن يختصر الرحلة إلى مصر المملوكية التى وصلها كثير من المواصله أمثال محمد بن فتوح

(١) إن لفظ « السنكرى » قرأه الأستاذ الدكتور زكى حسن « السنافى » فنون الإسلام ص ٥٥٥ وقرأه Wiet « السنافى » 18 p. *Objets en curie* ولكن الزميل الأستاذ عبد الرؤوف على يوسف هو الذى قرأه صحيحا « السنكرى » ولا شك فى صحة هذه القراءة أنظر عبد الرؤوف على يوسف : تحف فنية من عصر المماليك (مجلة المجلة مارس ١٩٦٢) ص ٩٨

(٢) عبد الرؤوف على يوسف : تحف فنية من عصر المماليك (مجلة المجلة العدد ٦٢ مارس ١٩٦٢)

(٣) يشير الأستاذ كريستول إلى تاريخ استيلاء المغول على الموصل ١٢٥٥ م ويشير كذلك إلى أن فن تكيفت المادان النفيسة قد توقف فى الجزيرة منذ ذلك التاريخ وظهر فى القاهرة بعد ذلك مباشرة أنظر : Creswell : The works of Sultan Bibars. Bull. de L'Institut Francais d'Archéologie (Orientale). t., XVI., p. 182.

والبغداديين أمثال محمد بن سقتر ، وفضل علي بن كسيرات أن يتخذ دمشق مستقرا ومقاما حيث مارس فيها فنونه قبل أن يستولى عليها المغول وينهبونها تماما سنة ٦٩٩ هـ (١) أي بعد تاريخ الشعلان بعامين .

ولا نعرف لعلي بن كسيرات إنتاجا آخر غير هذا الشعلان الذي نشره مؤرخا سنة ٦٩٧ هـ ، كما أنه لا يوجد في متاحف العالم ما نشر من المعادن التي تحمل اسمه على الأقل حتى سنة ١٩٥٩ حين قلم المرحوم الأستاذ Mayer في كتابه عن الفنانين المسلمين من صناع المعادن ثبنا بكافة الفنانين المواصلين من صناع النحف المعدنية (٢) غير أن أسرة كسيرات أمرة موصلية معروفة بدمشق في العصر المملوكي ، وقد تولى أحدها وهو « مجد الدين اسماعيل بن كسيرات الموصل » الوزارة للأمير سقتر الأشقر نائب الشام في نفي الحجة سنة ٦٧٨ هـ وكان سقتر هذا قد نادى بنفسه سلطانا في تلك السنة وقبض على الأمير حسام الدين لاجين وهو نائب قلعة دمشق وركب هو بشعار السلطنة (٣) وبهنا من ذلك أن أسرة كسيرات أمرة موصلية استقرت في دمشق وكان من بينها من مارس الصناعات الفنية كما كان منها من تولى الوظائف المدنية ومن خلال ذلك تبدو حقيقة هامة هي انتقال أثر مدرسة الموصل الفنية إلى دمشق .

والحق أن الموصل قد اشتهرت منذ القرن ١٢ م بحكفيت المعادن النحاسية والبرونزية (٤)

(١) زامبور : الأسرات الحاكمة ( الترجمة العربية ) ج ١ ص ٤٧

(٢) Mayer : Islamic Metalworkers and their works (Geneva 1959) p. 62

وقد ذكر في ص ٦٢ كثيرا من المواصلين هم : عبد الكريم بن الترابي ، أحمد بن بارة ، أحمد بن حسين ، أحمد بن عمر ، علي بن عبد الله ، علي بن محمود ، علي بن حسين ، علي بن عمر بن إبراهيم ، داوود بن سلامة ، حسين بن محمد ، إبراهيم بن موالية ، اسماعيل بن ورد ، محمد بن فتوح ، محمد بن حسن ، شجاع بن منعم ، يونس بن يوسف .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٦٧٠ - ٦٧١ ويظهر أن أسرة كسيرات لم تكن رغم ذلك ذات مركز رفيع في المجتمع إذ يعد أن استوزر سقتر الأشقر مجد الدين بن اسماعيل بن كسيرات ، وانتقل من دار السعادة حيث كان يقيم نواب دمشق ، وأمر بفتح باب النصر أحد أبواب قلعة دمشق تمك عليه عامة الشعب بقولهم « أغلق باب النصر ، وانتقل من دار السعادة » واستوزر ابن كسيرات فهنا أمر لا يتم « ويلحق المقرئى علي ذلك بقوله « وكان كلك » ص ٦٧١

(٤) E. Combe : Cinq Cuivres Musulmans daté de XIIIe, XIVe et XVe siècles de la (٤)

Collection Benaki. B. I. F. A. O. t XXX pp. 49-58 حيث أشار الأستاذ كورمب إلى أقدم النحف المعدنية المكتفة بالموصل وهي صنوق ( حاليا بمتحف بناكي ) صنم اسماعيل بن ورد الموصل ٦١٧ هـ ( ١٢٢٠ م ) .

حتى أصبحت غاصة بالصناع الذين اشتهروا بمنتجاتهم الفنية على اختلاف أنواعها ولا سيما  
الذوائى النحاسية وقد انتقل فن تكفيت المعادن بالذهب والفضة من الموصل أمام غارات  
المغول وتخريبهم لمدين الجزيرة ، وحدثت في هذا الفن تطورات جديدة « أصبحت من  
ميزات مدرسة أخرى مركزها القاهرة في القرن ١٤ م فالجوامات التى كانت تتكرر  
في الأشرطة الزخرفية أصبحت لها جوامات (كتنارات) من الرسوم النباتية الدقيقة ، وبعد  
أن كانت الكتابات شيئا ثانويا أصبحت أهم الزخارف في هذه المدرسة «<sup>(١)</sup> كما يذكر  
الأستاذ Christie ولكن إذا لاحظنا شمعان لاجين المؤرخ ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م)  
وما به من زخارف كتابية في القرن ١٣ م نقشا فنان موصل واقف على دمشق يمكننا  
أن نقرر أن الخصائص الفنية التى تطورت إليها مدرسة الموصل قد حدثت في مدرسة دمشق  
قبل القاهرة إذ تبدو الكتابات في شمعان لاجين هي العناصر الزخرفية السائدة في أشرطة  
تحف بها رسوم نباتية دقيقة في حافها وأرضيتها .

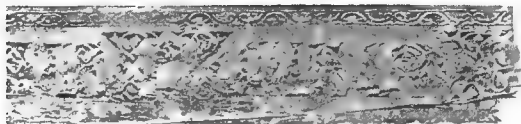
ومن كل هذا يضح لنا مدى ما تسهم به هذه التحفة المملوكية في التعرف على صناعة  
التحف المعدنية المكشوفة في عصر المماليك ، وقيام مدرسة فنية دمشقية على يدى الفنانين  
المواصلين في تاريخ معين يقرر ما توقعنا على اسم فنان جديد من هؤلاء الفنانين الذين هاجروا  
من الموصل إلى أنحاء الدولة المملوكية وخاصة مصر والشام .

---

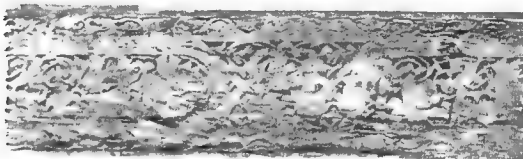
(١) تراث الاسلام : ترجمة المرحوم زكى محمد حسن ص ٣٠ وقد أشار الأستاذ كريستول إلى  
هجرة فنان الموصل إلى مصر في بحثه . ( B. I. F. A. O. ) : The works of Sultan Bibars : Creswell  
t. XVI p. 182 )



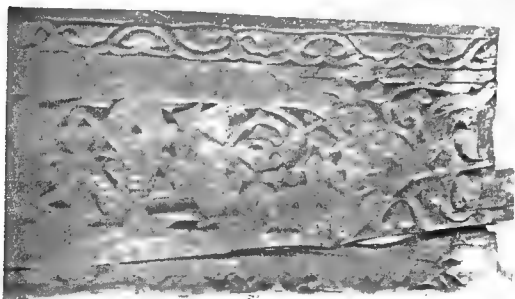
( لوحة رقم ١١ )



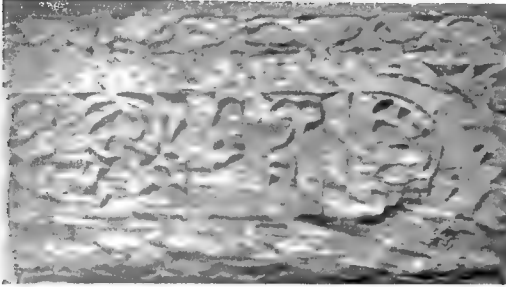
النصف الأيمن من اللوح الخشب الفاطمي من مدفن شجر الدر  
( متحف الفن الاسلامي رقم سجل ٢٢٦٦١ )



النصف الأيسر من اللوح الخشب من مدفن شجر الدر ( متحف الفن الاسلامي )



تفاصيل من النصف الأيمن من لوح مدفن شجر الدر



تفاصيل من النصف الثاني من لوح مدفن شجر الدر

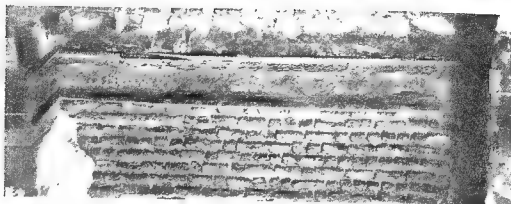


أحد الألواح الفاطمية من بيمارستان قلاوون



جزء من اللوح الخشب الفاطمي بقاعة الدردير

( لوحة رقم ٣ )



اللوحة الخشبية المثبتة بقاعة التدريس



كتابات وزخارف جصية من جامع الحاكم ( عن Flury )



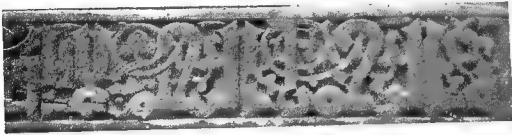
تفاصيل من الزخارف الكتابية بتأبوت السيدة رقية  
( كلثية حسن عبد الوهاب )



لوحة خشبية من جامع الصالح طلائع  
( متحف الفن الاسلامي رقم سجل ٢٤١٠ )



لوح خشبي من جامع الصالح طلائع  
( متحف الفن الاسلامي رقم سجل ٢٤٠٩ )



لوح خشبي من جامع الصالح طلائع  
( كلثيه حسن عبد الوهاب )

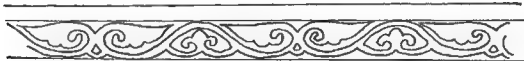


لوح خشبي من جامع الصالح طلائع  
( متحف الفن الاسلامي رقم سجل ٢٤١١ )

( لوحة رقم ٥ )



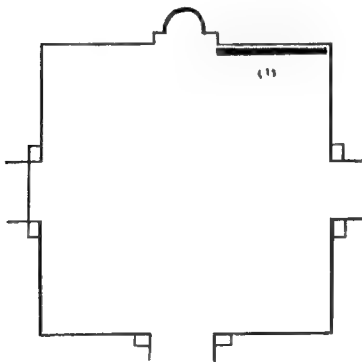
زخرفة الأفريزين العلوى والسفلى فى الواح ييمارستان قلاوون



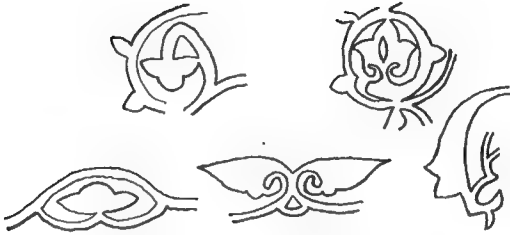
زخرفة الأفريزين العلوى والسفلى فى لوح قاعة الدردير



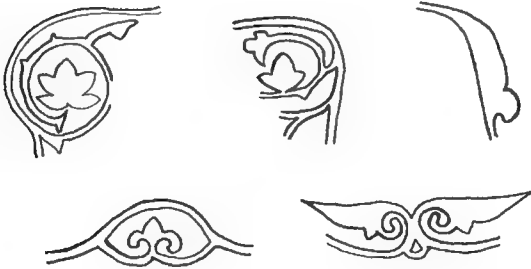
زخرفة الأفريزين العلوى والسفلى فى لوح مدفن شجر الدر



تخطيط إسقط مدفن شجر الدر يوضح موضع اللوح الخشب الفاطمى



عناصر زخرفية من لوح مدفن شجر الدر



عناصر زخرفية من الواح بیمارستان قلاوون

( لوحة رقم ٧ )



عناصر زخرفية من لوح قاعة المردير



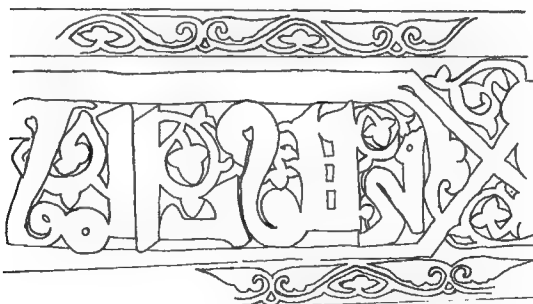
عناصر زخرفية من تابوت السيدة رقية



أحد العناصر الزخرفية في أخشاب جامع الصالح طلائع



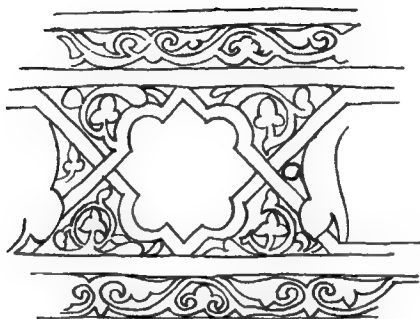
توضيح للعناصر الزخرفية والكتابات على جزء من لوح مدفن شجر الدر



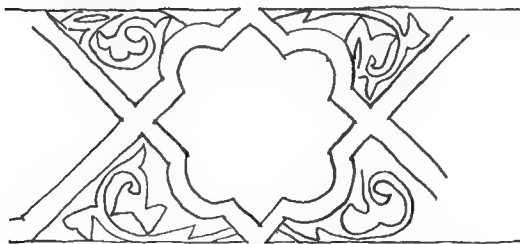
توضيح للعناصر الزخرفية والكتابات على جزء آخر من لوح مدفن شجر الدر



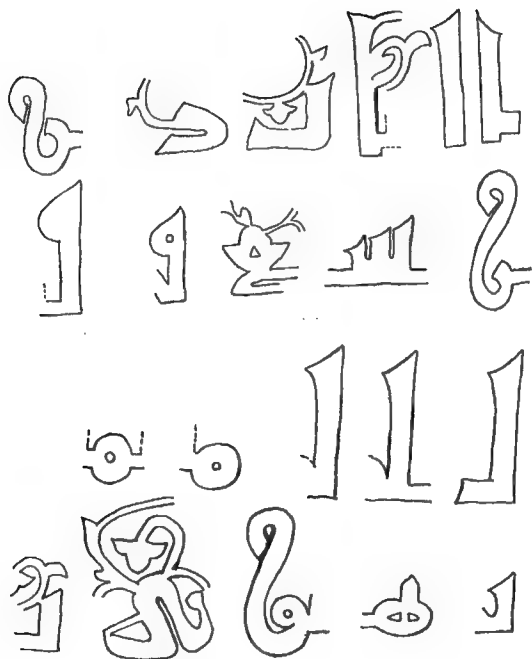
( لوحة رقم ٩ )



١ - المناطق الهندسية في زخرفة الواح بيمارستان قلاوون



ب - المناطق الهندسية في زخرفة لوح مدفن شجر الدرد



تحليل وللحروف الكتابية على لوح مدفن شجر الدر

هو الكتاب الذي كان عليه

عليه السلام في الصلاة

كتابات من جامع الحاكم محفورة في الجص  
( نفس الآية القرآنية على لوح مدفن شجر الدر )

أ ب ج د هـ و ز ح ط

ث د هـ و ز ح ط

ك ل م ن هـ و ز ح ط

ك ل م ن هـ و ز ح ط

ك ل م ن هـ و ز ح ط

تحليل الحروف الكتابية على الواح بيمارستان قلاوون

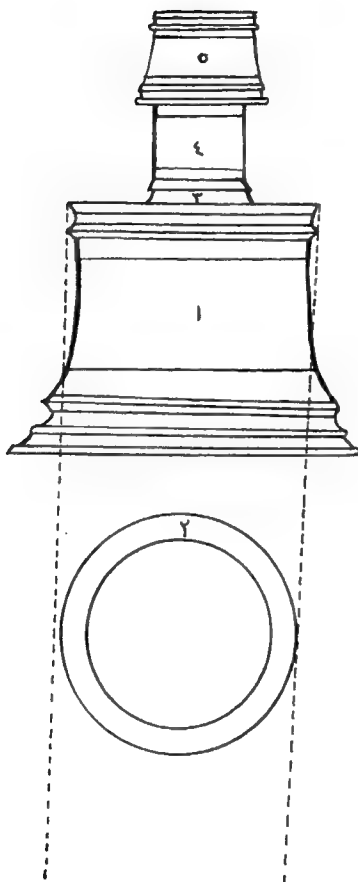


تحليل للحروف الكتابية على أخشاب تابوت السيدة رقية  
وأخشاب جامع الصالح طلائع

( لوحة رقم ١٣ )



١ شمعدان لاجين صناعة دمشق مؤرخ سنة ٦٩٧ هـ ( ١٢٩٧ م )  
متحف الفن الاسلامي ( رقم سجل ١٢٨ )

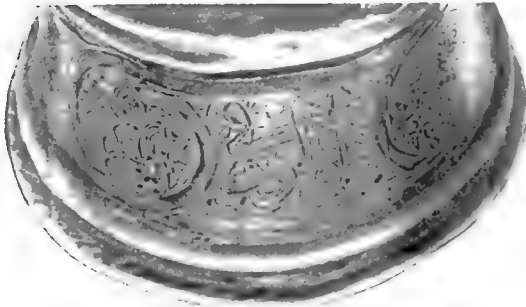


المسقط الرأسى والأفقى لشمعندان لاجين لتوضيح مواقع النصوص

( لوحة رقم ١٥ )

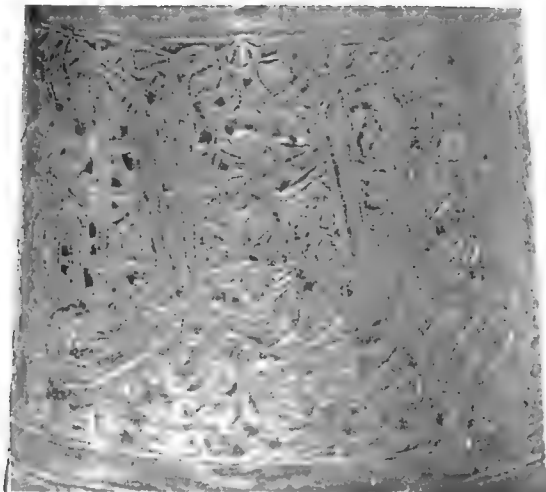


اجزاء من نصوص الشماعة في شمعدان لاجين

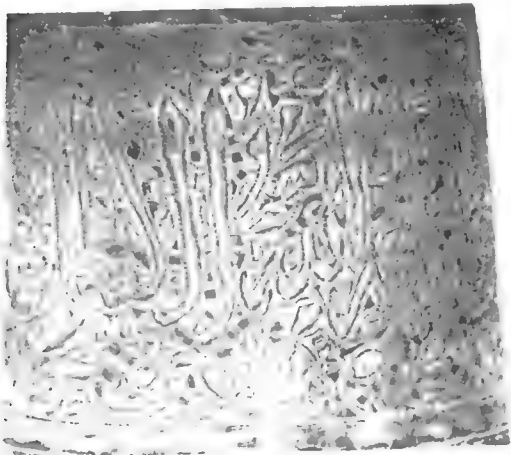


اجزاء من نصوص الشماعة في شمعدان لاجين





أجزاء من نصوص الممود في شمعدان لاجين



اجزاء من نصوص العمود في شمعان لاجين

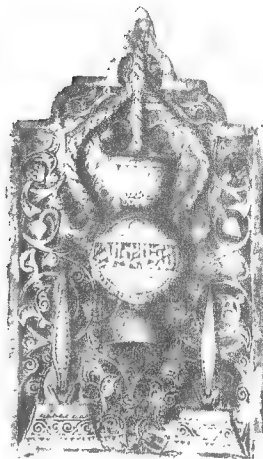
( لوحة رقم ١٩ )



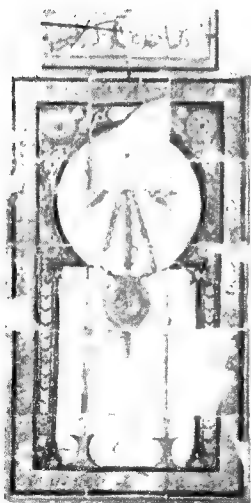
النص التاريخي في أسفل عمود الشمعدان

بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله الذي جعل في كل شيء  
دلالة على قدرته وقوته  
ويعلم ما لا يعلم ولا يرى  
ولا يحيط به العقل ولا تدركه  
الحواس ولا يبلغه العلم ولا  
تفهمه العقول ولا يحيط به  
القدر ولا تدركه القوى  
ولا يحيط به العلم ولا  
تفهمه العقول ولا يحيط به  
القدر ولا تدركه القوى

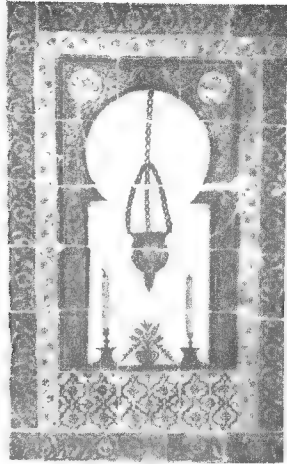
النص التاريخي نقلا عن الشمعدان نفسه



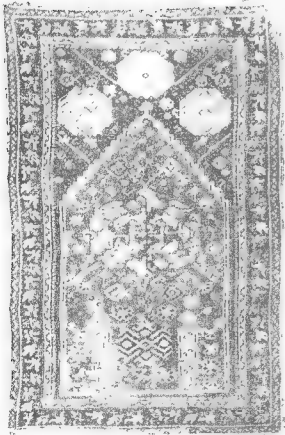
لوحة من الرخام المحفور على هيئة  
محراب تتدلى بوسطه مشكاة وعلى  
جانبيه المحراب شمعدانان متعائلان  
مصر القرن ٨ هـ ( ١٤ م )  
متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٩)



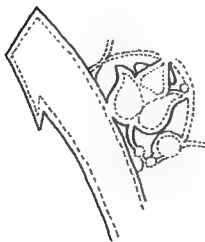
محراب من بلاطات خزفية ويندو  
على جانبيه شمعدانان متعائلان -  
القرن ١٨ م  
متحف الفن الاسلامى (سجل ٢٠٩٥)



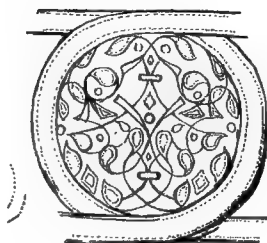
بلاطات من الخزف تشكل هيئة:  
محراب يبدو على جانبيه شمعدانان  
متماثلان القرن ١٨ م  
متحف الفن الاسلامي (سجل ٦٦١٤)



سجادة صلاة تركية من نوع عشاق  
ويبدو الشمعدانان على جانبي  
محرابها القرن ١٩  
متحف الفن الاسلامي ( رقم سجل  
١٥٧٧٤ )



(ب)



(ا)



(د)



(ج)



(هـ)

تفاصيل للعناصر الزخرفية في شمعدان لاجين





# « جهادية » الجيش المصرى

## والخدمة تحت علم آخر

للككتور محمد رفعت رمضان

استاذ التاريخ الحديث المساعد بجامعة القاهرة  
( فرع الخرطوم )

مقدمة :

الفترة التى شهدت سقوط الخرطوم فى يد المهديـة ( ١٨٨٥ ) وصـدور قرارات مؤتمـر برلين ١٨٨٤ | ١٨٨٥ الخاصة بتنظيم غرب افريقية وتحديد مناطق النفوذ الأوروبى فى أعالي النيل ، لها أهمية خاصة فى تاريخ المنطقة الاستوائية من القارة الافريقية . نـفى إبان تلك الفترة كانت المنطقة مسرحاً لنوعين من المحاولات : محاولات استعمارية وأخرى تحررية ؛ ومن أمثلة النوع الأول محاولات بعض الدول الأوربية من أجل تثبيت أقدامها فى مستعمرات جديدة ، ومن أمثلة النوع الثانى حركة محمد أحمد فى السودان .

فإذا اتجهنا فى هذه المنطقة من الشرق والغرب وجدنا الألمان فى شرق افريقية ، والإنجليز فى زنجبار وكينيا ، كما نجدهم فى أوغندة ، بينما نجد البلجيكين فى الكونغو الحرة . والألمان والإنجليز والبلجيكون كلهم دخلاء على القارة الافريقية .

وإذا اتجهنا من الجنوب إلى الشمال على امتداد حوض النيل من منابه فى الجنوب إلى مصبه فى الشمال نجد دولاً أو قوى افريقية صميمة تتصارع فى سبيل السيادة أو التحرر : شعب البانيرو فى الشمال الغربى من أوغندة يحارب شعب الباغندة الذى يدعى حق السيادة عليه ، كما نجد مديرية عموم خط الاستواء المصرية صامدة لغزوات المهديـة ، بينما نجد الحركة المهديـة فى حوض النيل الاوسط تحاول إجلاء المصريين عن السودان ، بل وتهدد شمال الوادى بالغزو ، كما تهدد المنطقة الاستوائية حيث صمد مدير عموم خط الاستواء وجنوده من أورطى الجهادية .

وكان واضحاً منذ البداية أن وصول هذه القوى المتصارعة والدول المستعمرة إلى أهدافها إنما يتوقف على مدى ما تعده كل منها من قوة حرية مكتملة العدد والعدة . غير أن التجنيد من داخل المنطقة بالنسبة للدول الأوروبية المستعمرة كان في حكم المستحيل ، والتجنيد من خارج المنطقة كان متعزلاً بالنسبة لتلك الدول أيضاً . حقاً كان في وسع كل من ألمانيا وإنجلترا وبلجيكا أن تستقدم جنوداً من غير الأفريقيين ، ولكن تجنيد هؤلاء اعتبر في ذلك الحين عملية خاسرة لاعتبارات كثيرة ، نظراً لما تتطلبه من تكاليف باهظة ، فضلاً عن عدم تعدد الجيوش الآتية من خارج القارة على العمل في ظروف مناخية وطبيعية وصحية قاسية كظروف تلك المناطق الاستوائية . كما كانت الدول المستعمرة جد حريصة على عدم إثارة شكوك الوطنيين في تلك المناطق ، عندما يروا الرجل الأبيض على رأس جيش من البيض أو عندما يروا حشوداً من الملونين من خارج القارة الأفريقية ، والأفريقي في ذلك الحين كان لا يطمئن إلى الرجل الأبيض ولا إلى نوابه ، كما أن الخبرات السابقة للزنجي الأفريقي مع الأفريقيين من الاجناس الأخرى ، كانت خبرات مريرة قاسية ، كثيراً ما كلفته حياته أو أهدته حريته وهدمت كيانه قبيخته . كيف تسنى إذن لتلك الدول أن تحصل على جيوش مدربة من داخل المنطقة ؟

في العمليات الأولى للألمان في أفريقية الشرقية الألمانية ، وللانجليز في أعالي النيل كانوا يعتمدون على تجنيد الزنباريين والسواحيليين ، ولكن هؤلاء كانوا أصلاً كحاليين منهم كجنود ، ورغم أنهم تكلفوا كثيراً فإنهم لم يظهروا الجلد الكافي .

وبينا كان الألمان والانجليز والبلجيكيون يشقون طريقهم نحو أهدافهم في صعوبة ومشقة بجنود تنقصها الخبرة ويعوزها التدريب إذا بحدث خطر هز كيانه وادى النيل ، أعنى ظهور محمد أحمد المهدي وقيامه بحركة يستهدف بها أهدافاً دينية وأخرى سياسية قوم على تحرير السودان من حكم « التركية » ودعوة المسلمين وغير المسلمين للدخول في سلك الهدية .

واضطرت الحكومة المصرية تحت ضغط الحوادث وتحت ضغط دولة الاحتلال ، بريطانيا ، إلى الموافقة على تنفيذ خطة تقوم على انسحاب قواتها من شمال السودان ، والاحتفاظ ببعض مراكز امتدادية في الشرق قرباً للفرص . وحاصر الانصار الحارطوم وسقطت في يناير ١٨٨٥ وسيطروا على شمال السودان . ولكن السودان الجنوبي في مدبريق

« بحر النزل وعموم خط الاستواء » بقي بعيداً عن يد الأنصار عدة سنوات بعد ذلك . وكان سقوط الخرطوم مغزى معين بالنسبة لمصر فقد قطع عليها طريق الوصول إلى المناطق التي كانت تجتهد منها الجهادية وهم قوام « أوط » الجيش المصري في السودان ، فمن بين أفراد قبائل الشلوك والدنكاو النوير كانت مصر تتخير الصالحين للجنديّة ، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الزانسي . وكان الجنحون من أبناء هذه القبائل يدربون تدريباً عسكرياً ممتازاً وينظمون في « أوط سودانية » بقيادات مصرية بعد تطعيمها بكفايات من ضباط الصف القدامى في نفس المنطقة .

غير أن مغزى سقوط الخرطوم بالنسبة لمصر لم يكن قاصراً على استحالة تجنيد السودانيين الجنوبيين في الجيش المصري ، وإنما كان له وجه آخر أخطر وأعمق ، فإن سقوط الخرطوم في يد المهديّة ، وضع أسفينا بين مصر وحامياتها من الجهادية في المديرية الاستوائية . ورغم أن محمد أمين مدير عموم خط الاستواء كان قد وطد العزم على عدم التسليم للمهديّة ، وعلى اتباع سياسة الاكتفاء الذاتي والاعتماد على موارد المديرية في البقاء وفي الدفاع عنها ، إلا أن مسألة بقاء تلك المديرية كانت مسألة وقت ليس إلا ، إذا كان المنتظر بعد أن يفرغ المهديون من مشكلاتهم التي لا حصر لها في الشرق والغرب والشمال ، وبعد أن يأمن الخليفة عبد الله على مركزه في الداخل ، أن يتطلع إلى الجنوب بغية الاستيلاء على ما بقي من المراكز المصرية في أعالي النيل .

والموقف على هذا النحو كان مفهماً جيداً لدى محمد أمين وجنوده وموظفيه ، وكان يتردد صدهاء في تقاريره التي كتبها إلى الحكومة المصرية ، لا سيما بعد أن أصبح الاتصال بمصر لا يتم إلا بصعوبة ، وأصبح بجهل ماجريات الأمور في مصر بل وفي السودان الشامي أيضاً ، كما أصبح وصول النجدة المصرية في حكم المستحيل <sup>(١)</sup> . ومن هنا تهم السر في اتجاه أمين إلى مناشدة أوروبا وخاصة إنجلترا أن تهب لمساعدته .

\*\*\*

ومصر في ظل الاحتلال البريطاني ما كانت تستطيع إلا أن تتصرف على النحو الذي فعله ، وبعبارة أخرى ما كانت تستطيع في مسألة إخلاء السودان إلا أن تأتمر بأمر إنجلترا . والمسؤولون البريطانيون في مصر كانوا يظهرون غير ما يظنون ، فهم يدعون أن انسحاب

مصر من السودان ضرورة حرية يستلزمها فن القتال ، ولكنهم كانوا يظنون غير ذلك . كانوا يرمون الخطوة للاشتراك مستقبلا مع مصر في شمال السودان ؛ أما عن الجنوب فكانوا يرون أن الحماية المصرية في خط الاستواء وهي في ذلك الحين مكونة من أورطين من خيرة الجنود المدربين من السودانيين والمصريين بكامل عدتهم وعقائهم بما فهم من ضباط وضباط صف وجنود وعمل فنيين وبحارة وميكانيكيين وبواخر نهريّة مسلحة يمكن أن تصبح كلها لقمة سائغة لانجلترا تحقق بها مصالح انجليزية ، وأداة تسخرها للوصول إلى أهدافها في إفريقية الاستوائية ؛ سواء في احتلال أوغندة أو غيرها من بلاد أعالي النيل ، بل ويمكن أن تخذلها أوراق رابحة في مساومة دولية ، وبذلك تفوز بقصب السبق في السباق الدولي نحو النيل . وتستطيع بعد أن دخلت مصر تحتلة على أشلاء ثورة عرابي أن تدخل السودان منتصرة على أشلاء ثورة المهدي .

وعلى هذا النحو أصبحت أورط الجهادية السودانية صيدا ثميناً يطلع الكثيرون إلى الحصول عليه . ولم تكن انجلترا وحدها هي التي قطع في الحصول على جنود تلك الأورط وإنما شاركتها في ذلك ألمانيا وبلجيكا وإثيوبيا وحكومة المهديّة في السودان فضلا عن مصر ذاتها ، فمصر حاولت استرداد قوات هذه الأورط ، وأسهمت في حملة بقيادة ستانلي لاقادها ، والأخصار حاولوا قطع السبيل على هذه الأورط والحيلولة دون عودتها إلى مصر ، والألمان حاولوا كسب مدير المديرية ليحصل لحسابهم في مشروعاتهم الاستعمارية في إفريقية الشرقية الألمانية ، والانجليز حاولوا الاحتفاظ هؤلاء الجنود للعمل في احتلال أوغندة وتنظيم حملة لاستعادة السودان . كما أن البلجيكيين حاولوا نفس الأمر رغبة في التوسع في الكونغو وأعالي النيل .

\*\*\*

والفرض من هذا البحث أن تبرز ثلاثة أمور : الأول ، أن أورط الجهادية السودانية بال جيش المصري في مديرية عوم خط الاستواء أصبحت في تلك الفترة بالذات العمود الفقري لجيوش مست دول أو وحدات سياسية إفريقية .

والثاني أن تنافس الدول في الوصول إلى النيل تضمن فيها تضمن محاولة تلك الدول الاستحواذ على حماية خط الاستواء المصرية واتخاذها نواة لقواتها الحربية .

والامر الثالث ، أن الخطوة التي وضعها الانجليز في افريقية الشرقية البريطانية لاغصاف هذه القوات العسكرية النظامية المبرية ، لانفسهم دون غيرهم من الدول الأخرى ، كانت تقوم على استغلال حملة الاتقاذ التي قادها ستانلى ، والاحتفاظ بهؤلاء الجنود في المنطقة فتكون انجلترا أول وريثة لمصر في أعالي النيل . فلما فشلت الخطوة نتيجة يقظة الجند ونشككهم في نوايا الانجليز ، عدل هؤلاء خطتهم وراحوا يحاولون تجنيد من عادوا إلى مصر ، ومن فاتهم قافلة ستانلى ، ومن تمرد من الحامية ظناً منهم بأن أوامر الجلاء التي أرسلتها الحكومة المصرية غير صحيحة وإنما زيفها ستانلى ومن معه .

وفد استخدمت في هذا البحث وثائق أصلية ، ينشر بعضها لأول مرة ، أصولها موجودة في محفوظات الخرطوم وكلها متعلقة بافريقية الشرقية الألمانية وأوغندا والكونغو الحرة وفترة المهدي ومصر . إلا أنها موجودة بصورة مشتتة لا توحى بأى شئ ، ولكنها بعد التجميع والترتيب التاريخي تبرز الصورة الجديدة وتهدى إلى الحقائق التاريخية التي وصلنا اليها في هذا البحث .

## ( ١ )

### المهدي والجهادية

وكان أمراء جيوش المهدي حريصين على أن تضم جيوشهم فرقاً من الجهادية ، ولذلك كانوا يجمعون أسرى الجهادية ويشكلونهم في مجموعات من « مائة » على كل مجموعة منها جهادى قديم باسم « رأس مائة » .

ويرجع هذا الحرص إلى أن استخدام الجهادية في صفوف المهدي كان يحقق للحركة فوائد شتى : فالجهادى محارب صلب المراس ، جيد التدريب ، يقدر النظام ويدبر بالطاعة ويقسم بالشجاعة . فضلاً عن ذلك كان يجيد استخدام الأسلحة النارية . فبينما كان معظم الأنصار « حراية » يخشون الحرية سلاحاً ، وليس فيهم من « البنداقه » إلا القليل ، كان الجهادية جميعاً مسلحين بالأسلحة النارية . وقية هذه الأسلحة لا تنكر في معارك الميدان حيث تقلل المسافات الطويلة من قيمة الحراب . وبالإضافة إلى ما سبق فإن أولئك الجهادية كانوا أصح من غيرهم للقتال في المناطق الوعرة في الشرق ضد الانجليز والمصريين ، وضد الأحباش والطلين . بل أنهم كانوا الجنود المتألمين لحوض المعارك في جنوب السودان حيث مسقط رأسهم ، فهناك بينهم الطبعية ، يألون جوها ولديهم المناعة ضد أمراضها ،

وقد خبروا صهولها ووهادها ووقفوا على مسالك غاباتها . وكما كان الميدان الشرق محتاجا إلى خدماتهم فإن الميدان الجنوبي كان يحتم استخدام الانصار لهم نظراً لكفائتهم الخاصة وتوافق تلك الكفائات مع ما تتطلبه ظروف القتال في تلك الجهات . وفي هذين الميدانين بوع خاص كانت كل سرية من سرايا المهديّة تحرص على أن يكون ثلث عددها على الأقل من الجهادية .

فسرية « خط الاستوى » مثلاً التي كان عاملها وأميرها « عمر صالح » وكان موكولا إليها مهمة تطهير المديرية الاستوائية « بحر الغزال وعموم خط الاستواء » من الأجانب وصد أية قوات تحاول اقتحام المنطقة ، كان عددها ١٥٠٧ محارب ، منهم ٩٨١ من أولاد العرب ، ٥٢٦ من الجهادية (١) . وكانت هذه النسبة العددية تكاد تكون محفوظة دائماً في جيوش المهديّة التي تعمل في الجنوب .

وعندما أخذت الجيوش المصرية في تنفيذ خطة الانسحاب من السودان حتى حلقا وسقطت الخرطوم في يناير ١٨٨٥ وأصبح شمال السودان خلوًا من الجيش المصري إلا في سواكن وكسلا بدأ مورد الجهادية ينضب وشعر الأنصار بحاجتهم إلى ذلك النوع من الجنود ، وأخذوا يفكرون في تشارك حاجتهم إلى الجهادية بأى ثمن .

كان أمامهم طريقتان : الأولى تجنيد جهادية جدد وتدريبهم وتسليحهم وتزويدهم ليدخلوا في سلك المهديّة ويحاربوا في صفوفها وينصروا قضيتها . والثانية محاولة الحصول على أورطى الجهادية أى حامية مديرية عموم خط الاستواء المصرية ، حيث كان مديرها محمد أمين قد وطد العزم على البقاء معها كلفه الأمر .

وتحقيق أحد الأمرين كان يحتم على الأنصار غزو الجنوب . ومن هنا ينضح لنا عامل هام من العوامل التي دعت المهديّة إلى إرسال « سرية خط الاستوى » ومحاولة إخضاع تلك الجهات لسلطة المهديّة . بدأت تلك المحاولة في عام ١٨٨٤ بغزو مديرية بحر الغزال حيث انتصر المهديون وحصلت المديرية في ٢٨ أبريل ١٨٨٤ وانضم معظم الجهادية إلى الأنصار . ومنذ ذلك الحين وهم يحاولون جاهدين إسقاط مديرية عموم خط الاستواء وأسر المدير ورجال أورطى الجهادية ، وعدم تمكين ستانلى الذى جاء على رأس حملة لاقتادهم من إنجاح مهمته .

(١) صندوق سجلهم مهديّة - ملف ١ وثيقة رقم ٢ من عمر صالح إلى الخليفة . غرة شوال ١٣٠٥ (١٨٨٨) .

ولم تكن مهمة الانتصار في الجنوب سهلة هينة ، وإنما استمرت جهودهم في إنجازها من ١٨٨٤ حتى نهاية عهدهم ، واستغرقت ما بقي من حكم المهدي وعهد الخليفة عبد الله التعايشي ، كما تطلبت جهود ثلاثة من عمال المهدي وقوادها المختكين وهم كرم الله ١٨٨٤ وعمر صالح ١٨٨٨ وعربي دفع الله ١٨٩٣

\*\*\*

وقد حاول الخليفة عبد الله أن يواجه ذلك النقص الخطير في قوته الحربية بتوفير الصالحين لصنوف الجندية وخاصة عندما « حصل بقفرة — أي معسكر — سواكن ضعف شديد نظراً لقطع تواتر الرقيق المذكور . . . » فأصدر إلى كرم الله كرقصاوى أمراً « بجمع ربيع الرقيق المذكور مع السلاح ببيع الإناث لإزالة ضرورات الانتصار » (١) .

كما كتب عمر صالح عامل سرية خط الاستوى إلى الخليفة عبد الله بوضع أهمية غزو الأناليم الاستوائية لسد النقص في القوة الحربية فكتب يقول « إن جهات مديرية خط الاستوى متسعة ومشحونة من الجهادية وعبيد الخطرية السابقين والمألفين من عبيد الدار ، ولا يمكن الحصول على ذلك إلا بواسطة وجود القوة الكفائية من الانتصار ، وأن الجيش الذى معنا الآن بالنسبة لاتساع البلد قليل جدا ولا يمكن تفرقه في وسط العبيد (٢) » .

وحاول الانتصار القيام بمثل التجربة التي وفق فيها المصريون من قبل ، أعفى تجنيد زوج الجنوب وتنظيمهم في فرق حربية جيدة التدريب باسم « أوط الجهادية » فأخذوا يهزون القبائل وخاصة في إقليم مكركة — غرب وجنوب بحر الغزال — حيث المورد الحطب من الرجال الذى كانت تستمد منه أوط الجهادية في الجيش المصرى خيرة رجالها من الزاندى ، وراحوا يجمعون « العبيد » ويؤلفون قلوبهم ، لا للائظام في سلك المهديّة فذلك كان بعيد المثال لأنهم كما قال عنهم عمر صالح « عبيد مجوس ولا تنفع فيهم المذاكرة ولا التأليف » ولكن بقصد مسألة المهديّة والقتال في صفوفها لنشر لوائها وراياتها (٣) . فكانوا يألّفون شيخ القبيلة فيكرمونه ويرسلونه إلى البقعة — أم درمان — حيث يبق مدة

(١) مملوق مهادية — ملف ١٦ وثيقة رقم ١٧ من الخليفة إلى كرقصاوى ١٣٠٤ — ١٨٨٧

(٢) مهادية ملف ٢ وثيقة ٢٤ من عمر صالح إلى الخليفة . ١٣ ربيع آخر ١٣٠٦ (١٨٨٨)

(٣) مهادية ملف وثيقة ٩٤ من عمر صالح إلى الخليفة . ١٢ خاد أول ١٣٠٩ (١٨٩١) .

في رعاية الخليفة ، يسبغ عليه من عطفه ويتولى مذاكرته وتربيته حتى إذا عاد إلى قومه قام بدوره بتأليف رجال قبيلته (١) .

وبهذه الطرق استطاع الانتصار الحصول على مئات من الجنويين الأشداء ، يؤكد هذا ما ورد في معظم الخطابات المتبادلة بين عملاء سرايا المهديّة في جنوب السودان وبين الخليفة من الإشارة إلى أعداد « الرقيق والعبيد » الذين تولى إرسالهم إلى أم درمان ، بل أن عمال سرايا المهديّة كانوا يطالبون الخليفة بإرسال إمدادات ضخمة تمكنهم من الحصول على أعداد كبيرة من الجنويين لتجنيدهم في جيش المهديّة .

ولم تكن وجهة نظر عربي دفع الله أوبر سرايا المهديّة في الجنوب تختلف عن وجهة نظر من سبقه في هذا المركز ، كان يرى أن الأقاليم الاستوائية يمكن أن تصبح مورداً طيباً للمهديّة تحصل منه على من القليل والجهادية بشرط توفير العدد الكافي من الجيش وكان يعتقد بضرورة توفير ستة آلاف مجاهد حتى يمكنه أن يرسل كل عام إلى أم درمان ستة آلاف قطعة من قبل وستة آلاف عبد أمرد . ولا زال عربي يغري الخليفة بإرسال الامدادات ويحميه بقوله « فإن شاء الله في أيام قلائل نزل المردان أفواجا أفواجا حتى تتلا كره البقعة منهم ويحتاج الحال لتفريقهم للجبهات لحمل السلاح لا سيما وأن هؤلاء العبيد مأمورين بالعاقبة بعد دخولهم في سلك المهديّة . . . » (٢) .

ونتيجة لهذه الجهود كلها استطاع الانتصار أن يظفروا بأعداد ضخمة من الرقيق والعبيد أدخلوهم في سلك الجهادية وإن لم يدخلوا في سلك المهديّة ، وأصبح لدى الانتصار سرايا من الجهادية القدامى وآخرون من الجهادية الجدد . غير أن هذه الجهود كانت تصد على يد الجهادية أنفسهم ؛ « فالملوفون من العبيد مكروا وعصوا ، ولم تنفع فيهم المذاكرة ولا التأليف ونادوا على العصيان ومحاربة أنصار دين الله الملك العلام وقتلوه في أياها واقعة قتلة عظيمة وشقتوا شملهم وفرقوا جموعهم لأنهم حزب الشيطان . . . » (٣) . بل أنهم كانوا يتبنون فرصة تكليفهم بالغزو فيهربوا ويختفوا « بداخل العبيد العصاة » (٤) .

(١) ملف مهديّة ٩ وثيقة ٣٢ من المختار بكر إلى الخليفة ٢٥ القعدة ١٣١٠ (١٨٩٢) .

(٢) ملف مهديّة ١٠ وثيقة ١٩٨ من عربي دفع الله إلى الخليفة ١٢ جمادى الثاني ١٣١١ (١٨٩٣) .

(٣) ملف مهديّة ٣ وثيقة ٩٤ من عمر صالح إلى الخليفة ١٢ جماد أول ١٣٠٩ .

(٤) ملف مهديّة ٣ وثيقة ٧٢ من عمر صالح إلى الخليفة غاية الحجة ١٣٠٧ (١٨٨٩) .



وهكذا كان الانصار يفتقدون الرجال والسلاح بدون حرب . وترتب على ذلك أن امتنع  
عمال سرايا المهديّة عن تكليف هؤلاء الجهادية بأية عمليات حربية في مواطنهم الأصلية  
مها كانت العملية مهمة (١) .

وإذا كان الانصار لم يوقفوا في تأليف العبيد إلى الدرجة التي يطشون فيها إلى إخلاصهم  
فانهم بالمثل لم يوقفوا في إعدادهم للجندية ولا في تدريبهم . والتقرير الذي رفعه عمر صالح عامل  
سرية خط الاستوى إلى الخليفة عبد الله رسم يونأ شامعا بين الجهادية القدامى الذين تمسوا  
في أوطان الجيش المصري وبين الجهادية الجدد الذين جندهم الانصار من أبناء قبائل الجنوب  
في بحر الجبل وبحر الغزال .

وكان عمر صالح صريحا إلى حد كبير عندما كتب إلى الخليفة يقول « إن الجهادية  
الذين معنا هنا من جماعة أبوروف (من الجدد) ولا يفقهون كيفية الجهادية ، وطبيعتهم  
مايلة إلى طبائع أولاد العرب ، وإذا ضرب البورى في أمر الجهاد أو لأجل ينهزم في أمر  
أو للتورية أو الخروج خفر فجميع ذلك لا يعرفون منه شيء ، ومنهمم بخلاف منهج  
الجهادية . . . فالأمل إذا تكررمتوا علينا بإرسال الجيش أمكننا أن نرسلوا لنا قدر مايتان  
جهادى من الجهادية الصادقين المترين القدام وتكون أسلحتهم من صنف رامتنون ومعهم  
إثنين بروجية تكون لهم معرفة ضرب البورى . . . والجهادية الأصلين لهم نفع لأجل  
يألفوا إخوانهم الذين يوجدوا هنا لأن كل جنس يآلف جنسه ويربوا إخوانهم . . . » (٢) .

\*\*\*

وراح الانصار يجتمعون من عساه يقع في أيديهم من أمري الجهادية ، إلا أن أعدادهم  
لم تكن بحيث تكفى حاجتهم الملحة للجهادية . كان عليهم حيثئذ أن يبذلوا كل مجهود  
في سبيل الحصول على أورطى الجهادية من حامية مديرية عموم خط الاستواء المصرية .  
ومن هنا قرر الخليفة استئناف العمليات الحربية في الجنوب .

وكانت أخبار التردد الذى حصل في صفوف الأورطين يصل إلى أسماع الانصار ويشد  
هزائمهم ، ولم تلبث أن وصلت أخبار حملة ستانلى لانجاد أمين باشا إلى أسماع الانصار  
وماصحب مجيء تلك الحملة من أحداث جسام نتيجة لموقف جنود الأورطين من ستانلى

(١) ملف مهديّة ملف ٩ وثيقة ٢٢ من المختار بكر إلى الخليفة ٢٢ القعدة ١٣١٠ (١٨٩٢) .

(٢) ملف مهديّة ملف ٢ وثيقة ٢٧ من عمر صالح إلى الخليفة ١٣ ربيع آخر ١٣٠٦ (١٨٨٨) .

وحملته . وأصبح هؤلاء الجهادية طلبة الانتصار وبغيتهم وأرسل عمر صالح يغرى الخليفة بإرسال مدد سريع حتى يحصل على الجهادية ، ويشير إلى تخوفه من أن ينساق هؤلاء خلف سنائلي وقبلوا الرحيل إلى مصر بعد أن رفضوا الاستجابة لأمين<sup>(١)</sup> .

ولم يكن الجهادية طلبة الانتصار لجرد الحصول على « الجهادية القدامى الصادقين المترين العاملين للجهاد » وإنما رغبا فيهم أيضا للحصول على نسايم . ذلك لأن سرية « خط الاستوى » كانت خلوا من نساء الانتصار ، فلم يسمح الخليفة لرجالها باصطحاب النساء معهم نظرا لبعده الطريق وقسوة الحياة في تلك الأقاليم وسط قبائل معادية من « العبيد الجحوس » ولذلك كتب عربي دفع الله إلى الخليفة بمجرد وصوله لتسلم مقاليد القيادة يشرح ما آكل إليه أمر الانتصار وخاصة لأن « رقيق هذه الجهة ليس فيه قابلية ولياقة للتسرى والنساء هنالا وجود لمن » . حتى لقد اضطروهم الأمر إلى تقريق نساء أمرى الجهادية على الأمراء والمقاديم والايخوان « بعد استخراج الجنس لتسوية أمور معاشهم وتسريحهم وإن كانوا كبقية رقيق الجهة في عدم الأهلية للتسرى<sup>(٢)</sup> » .

ومن هنا نقم جانبا من السر في الكفاح المرير الذي فلم به الانتصار في الجنوب وإمراهم في الحصول على أورطى الجهادية بأسلحتهم وذخائرهم ونسايم ورقيقهم ، قبل أن يرحلوا عائدبن إلى مصر مع سنائلي أو يظفر (النصارى) من البلجيكين والانجليز بتجنيدهم لحسابهم . والمعارك التي دارت بين هذه الأطراف ليست سوى معالم الطريق إلى تحقيق الأغراض التي كانوا ينشئونها .

( ٢ )

### مصر وإعادة تنظيم « أورط الجهادية » بالجيش المصرى

كان لمصر مديرتان في المنطقة الاستوائية : مديرية بحر الغزال وتكنى بأرض الأنهار إذ كانت تغطى حوض بحر الغزال ويديرها لبتون بك الانجليزى Lupton ، ومديرية عموم خط الاستواء على امتداد النيل الأبيض من. فاشودة شمالا إلى حدود أوغندة جنوبا وكان مديرها محمد أمين وهو ألماني كان يسمى من قبل باسم الدكتور ادوار شيندر

E. Schnitzer .

(١) ملف مهدي ملف ٢ وثيقة ٢٤ من عمر صالح إلى الخليفة ١٣ ربيع آخر ١٣٠٦ (١٨٨٨) .  
(٢) الوثيقة السابقة .

ونتيجة لتقدم المهديّة عزلت هاتان المدرستان عن الخرطوم وبالتالي عن القاهرة وسواكن ، وكان عزلهما تمهيداً لعمليات الأنصار الحربية في الجنوب . واستطاع دعاة الأنصار أن يوقنوا نار الثورة بين الجنوبيين وخاصة قبائل الدنكا والباري ، وهكذا انحصرت الحاميات المصرية في جنوب السودان بين خطر غزو الأنصار وهجمات الثوار من قبائل الدنكا والباري والشلوك . وشهدت السنوات من ١٨٨٤ إلى ١٨٩٥ تقدماً مضطرباً نحو الجنوب انتهى بتسليم ليتون بك الانجليزى مدير بحر الغزال . أما الحامية فقد فر بعض رجالها وثقت بين القبائل ، بينما انحاز بعضهم إلى المهديّة وحارب في صفوفها<sup>(١)</sup> . ولم تلبث مديرية عموم خط الاستواء أن تعرضت لخطر المهديّة وزاد الخطر بعد سقوط الخرطوم في يناير ١٨٨٥

كانت حامية المديرية تتكون من أوروبيين من الجند النظامي المسلحين يتنشقون رماحهم يبلغ عددهم ١٥٠٠ جندياً كلهم من الزوج ماعدا ٤٠ مصرياً للمدفعية ، يقودهم عشر ضباط مصريين ، ١٥ ضابطاً سودانياً ، بالإضافة إلى بعض البحارة . وكانت كل أوطئة مقسمة إلى فصائل يتراوح عدد كل فصيلة منها بين ١٠٠ ، ٢٠٠ رجل بحرسون عشر مراكز ، بكل مركز عدة محطات<sup>(٢)</sup> .

وقد وقعت معارك حامية بين الأنصار وحامية المديرية تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة . وتبدلت بعض المحطات أكثر من مرة ، بل لقد اضطر المدير إلى نقل عاصمة المديرية من لادو إلى دوفيله ومنها إلى وادلاي . وتقارير محمد أمين إلى الحكومة المصرية ورسائل أمراء سرايا المهديّة إلى الخليفة عبد الله تفيض بتفاصيل هذه المعارك .

وكان الآمل براود أميناً في أول الأمر ، ونخل يفطر مدداً من الخرطوم أو نجدة من القاهرة ، فلما انهار صرح آماله نتيجة لسقوط الخرطوم بدأ يتجه بأنظاره نحو زازبار ونحو أوغنده ، عليه يستطيع عن طريق التفاهم أن يفتح طريقاً ينسحب منها إلى الساحل ثم إلى مصر . ومن أجل ذلك أنشأ علاقات دبلوماسية مع ملكي أوغنده وأنيورو .

وعندما استبد به القلق بدأ ينفذ المساعدة من أوروبا وخاصة من إنجلترا ، ومن ثم

(١) Wauters : Stanley's Emin Pasha Expedition, P. 86

(٢) كان عدد المحطات غير ثابت ولكن عدد المراكز كان أكثر استقراراً وهي مراكز دول ، بور ، لادو ، كبرى ، دوفيله ، فوفيرا ، فاديبك ، لاتوكا ، مكره ، مينيوتو .

بدأت حركة قوية في أوروبا بقصد اقتاذ أمين وجنوده . وتمخضت تلك الحركة عن إرسال حملة لاقتاده بقيادة الرحلة ستانلى ، أسهمت فيها الحكومة المصرية بالمال والرجال (١) .

وعند هذا الحد انتهى عهد التفاهم بين أمين وفريق كبير من الحماية ، فقد تدرت الأورطة الأولى وقلة من الأورطة الثانية نتيجة لانتشار الإشاعات . فقد أشيع بين الجنود أن قوة مسلحة من الأوربيين « المسيحيين » قادمة من الجنوب وأن هدفها حمل أمين باشا ورجاله عن طريق غير معروفة حيث اتفق معهم أمين على « بيع » هؤلاء الرجال لأولئك « المسيحيين » .

وبصرف النظر عن التعقيدات التي سببها تمرد معظم رجال الحماية ، مما أضعف مركزهم في العمليات الحربية ضد الانتصار فإن الأمر انتهى بتشتت الجمع وانفراط عقد الحماية وانقسمت إلى ثلاثة مجموعات رئيسية : مجموعة كبيرة من المتبردين تجمعوا تحت قيادة فضل المولى الأمين وعسكروا في التلال المجاورة لوادلاى انتظاراً لوضوح الموقف ، ومجموعة ثانية من الموالين لأمين سحبا ستانلى في عودته إلى القاهرة ، ومجموعة ثالثة من الموالين الذين فاتهم قافلة الانحداد وكانوا بقيادة سليم مطر . وقد بقى هؤلاء في كافاللى على بحيرة البرت انتظاراً لوصول نجدة أخرى (٢) .

\*\*\*

وكانت مصر في إبان ذلك تعمل على إعادة بناء قواتها الحربية وتنظيم فرق الجهادية وفق ما خطط لها الإنجليز . وكان يهتما عودة رجال أورطى الجهادية من خط الاستواء . فلما تأخرت عودة ستانلى فكرت في تجنيد الصالحين من السودانيين الموجودين في مصر . وقد خصصت في التنظيم الجديد أربع أورط للجهادية وهى الأورط التاسعة والعاشر والثالثة عشرة والرابعة عشرة . وأصدر سردار الجيش المصرى بالقاهرة « إعلاناً » للسودانيين يغيرهم بالتطوع في الجيش المصرى أو العودة إلى التطوع إن كانوا قد سرحوا من قبل ،

---

( ١ ) Wnuters : Stanley's Emin Pasha Expedition, pp. 135-137 .

وقد تحركت حملة ستانلى من لندن في يناير ١٨٨٧ ومر على القاهرة ثم ززبار حيث أبحر إلى الكونغو في غرب أفريقية ولكنه لم يند إلى القاهرة مع شرازم الجهادية إلا في أوائل سنة ١٨٩٠

Sudan Intelligence Report No. 3 P. 5 ( ٢ )

ووعدهم بأنهم سوف « يستقبلون باعزاز في حلقه وكوروسكو وأصوان وحرأوى ومصر وسواكن » (١) .

والوثائق تمدنا بمعلومات طيبة عن عملية تجنيد مصر للسودانيين في الأورط الأربع . كان التطوع لمدة أربع سنوات للعمل في مصر أو خارجها . وقد نص عقد التطوع على التعيينات اليومية والرتبات الشهرية والملابس السنوية ، كما نص على التعويض عند الإصابة بشكل يتدرج مع بساطة الجرح أو شدته . كما نص أيضاً على التعويض للورثة عند الوفاة (٢) .

وقد حرص السردار في تقريره الذى رفعه إلى مجلس الوزراء المصرى على تحديد نوع الجندى الجهادى المطلوب وحفر من الخلط بين السودانيين المولدين وبين الزنوج من أبناء القبائل السودانية ، مشيراً إلى أن حاجة الجيش الحقيقية هى للسودانيين من سكان المناطق الاستوائية (٣) .

وأخذت أورط الجهادية بالجيش المصرى تستكمل عدداً وعدة وأرسلت فضاءل منها إلى حلقا وبعضها منها إلى سواكن . وعندما عاد ستانلى بشرازم الجهادية من خط الاستواء ألقى الصالحون منهم بالأورط سالفة الذكر .

### (٣)

#### التنافس بين الالمان والانجليز بشأن تجنيد السودانيين بالقاهرة

بدأت علاقة الانجليز بأوغنده عندما كشفها الرحالة سبيك في عام ١٨٥٨ ، ضمن المحاولات التى شجعتها الحكومة المصرية فى ذلك الحين للكشف عن أعالي النيل ومنابعه . ثم توالى رحلات الكشف حتى تام ستانلى فى ١٨٧٥ برحلة كانت لها نتائج خطيرة لا بالنسبة لكشف أوغنده فحسب ولكن بالنسبة لنشر المسيحية وتمهيد تلك البلاد للسيطرة البريطانية ، مما ترتب عليه تغيير الأوضاع والتهديد للأحداث التى شكلت تاريخ أوغنده

---

(١) اعلان للسودانيين 127  $\frac{1}{25}$  Cairint : Cairo Intelligence Reports .

(٢) المصدر السابق « كوتراتو لاجل عساكر أورط السودانية المطبوعة » .

(٣) المصدر السابق - خطاب من سردار الجيش المصرى إلى مصطفى باشا فهمى رئيس مجلس

الوزراء . بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٨٩١

كبحوجة من الممالك المستقلة ، ثم كبلاد تحت حماية شركة أفريقية الشرقية الامبراطورية البريطانية ، حتى انتهى بها الأمر إلى أن تصبح إحدى مستعمرات التاج البريطانى .

ولعب ستانلى بدهااته دور المستكشف والمبشر واستطاع أن يفسد إسلام أميتسا ملك أوغنده فاعتنق البروتستانتية ، ولا عجب فى ذلك لأن الفترة التى تحكم عنها كانت فترة عصية فى تاريخ ذلك الجزء من افريقية ، وفترة رجراجة غير مستقرة فى تاريخ الأديان . تستل على ذلك من تصرفات أميتسا ومن بعده ابنه موانجا ، إذ كانالا يستقران على عقيدة واحدة (١) . وأصبحت البلاد ميدانا لنشاط الجمعيات المسيحية التبشيرية من بروتستانتية وكاثوليكية فضلا عن نشاط الأحزاب الوثنية والاسلامية . وأصبح للعقيدة الدينية أكبر الأثر فى تشكيل أحداث أوغنده وكاد التنافس بين هذه الجماعات يؤدى بأوغنده إلى حرب أهلية .

ولم تكن أحداث أوغنده لتمر دون أن تستلفت أنظار الألمان فى تنجانيقا حيث افريقية الشرقية الامبراطورية الألمانية ، أو أنظار البريطانيين فى زنجبار وكينيا ، بل أن أوغنده بموقعها على الهضبة التى تضم البحيرات الاستوائية ومنايع النيل الرئيسية كانت قد اكتسبت أهمية استراتيجية نتيجة للأحداث الخارجية التى كانت تدور فى الجزء الشمالى الشرقى من افريقية أعنى مصر ، وفى الجزء الجنوبى من وادى النيل حيث حركة المهديّة ، فضلا عن النشاط الفرنسى والبلجيكي فى أعالي وادى النيل .

على ذلك لم يعد اهتمام الألمان والبريطانيين بأوغنده مجرد اهتمام تجارى بمناطق خامات وثروات طبيعية ، ولم يعد اهتمامهم قاصراً على نشر المسيحية وحمايتها وإنما أخذوا يهتمون بالعمل على تثبيت أقدامهم فى ذلك الموقع الاستراتيجى حتى يتمكنوا من وقف تقدم المهديّة إذا حدثت وهددت أوغنده ، حتى يتخذوا من أوغنده قاعدة للتقدم والهجوم لطرد المهديّة وتدميرها والقضاء عليها متى ساءت أحوالها وعجزت عن التقدم . وهذا يتطلب احتلال أوغنده وضما للتاج البريطانى باعتبارها أقاليم جديدة غنية بالثروات الطبيعية من جهة ، ومن جهة أخرى تصبح بحكم موقعها حلقة اتصال تربط الأملاك البريطانية فى جنوب افريقية بالاحتلال البريطانى فى الشمال ، فى مصر .

وعمل كل من الانجليز والالمان على تحقيق أغراضهم ، فباشرت شركة شرق افريقية الامبراطورية البريطانية إلى إرسال قافلة للصدقة على رأسها الضابط البريطاني جاكسون ففاهم مع ملك أوغندة على قبول العلم البريطاني كعربون للصدقة . واعتبر جاكسون أن قبول الملك للعلم البريطاني بمثابة اعتراف من جانبه بدخوله تحت حماية الشركة .

وفي نفس الوقت كانت هناك حملة ألمانية قوية بقيادة الدكتور بيتر تسرع إلى أوغندة . واستطاع بيتر أن يعقد مع الملك معاهدة صداقة ، وفي ظنه أن مثل تلك المعاهدة تعبد الطريق أمام ألمانيا لاحتلال أوغندة (١) .

\*\*\*

وكانت الحملة الألمانية نذيراً من النذر التي جعلت الشركة البريطانية تفكر تفكيراً جدياً في تعديل موقفها من أوغندة وذلك بقطع الطريق على المنافسة الألمانية وإحكام قبضتها أكثر من قبل على تلك البلاد .

ولم تكن الرغبة في قطع السبيل على الالمان حتى لا ينافسوا الانجليز في أوغندة هي السبب الوحيد الذي حدا بالشركة إلى تقرير التدخل المسلح في شئون أوغندة بإرسال حملة بقيادة لوجارد ، ولم يكن الهدف التجاري الذي يفتش في الحصول على العاج والملح من بحيرة كيبورو هو الذي أسال لعاب لوجارد وألمب خياله ودفعه إلى إغراء الشركة بالموافقة على إرسال الحملة هو الهدف الوحيد من الحملة ، ولم تكن حماية المسيحيين من بروتستنت وكاثوليك السبب الرئيسي لملك الحملة ، وإنما كانت هناك عوامل أهم من ذلك وأعق ، عوامل تتعلق بمستقبل الامبراطورية البريطانية في ذلك الجزء من افريقية .

وكانت الخطوط العريضة للسياسة البريطانية الجديدة ترسم في وزارة الخارجية ووزارة الحرب البريطانية وفي سردارية الجيش المصري بالقاهرة حيث يجتمع فوقها الاحتلال البريطاني وتلاعب بمصرها أيدي البريطانيين ، كما كانت تجمع لها المعلومات عن طريق المخابرات في مصر : برأسها في ذلك الوقت ونجت wingate وهذه الخطوط العريضة كانت تقوم على محورين : الأول ، سرعة احتلال أوغندة واتخاذها قاعدة لدفع خطر المهدية ثم الهجوم على السودان وإعادة احتلاله . والمحور الثاني ، إخلاء المنطقة الاستوائية

---

(١) المصدر السابق ص ٦

من الادارة المصرية والاورط المصرية حتى تستطيع بريطانيا أن تنصرف وفق السياسة التي رسمتها في اغتصاب هذا الجزء أو المساومة مع الدول الأخرى بشأنه .

وقد كتب تفصيل بريطانيا في زتبار تقريراً لمس فيه بعض جوانب الموضوع فقال « عندما كنت في زتبار موظفاً تابعاً لوزارة الخارجية في عامي ١٨٨٥ / ١٨٨٦ ، قتلعت بمشروع أقترح فيه إرسال مدد من السلاح والذخيرة مع عدد من الضباط الانجليز الأكفاء إلى أمين باشا الذي كان يحكم المديرية الاستوائية في ذلك الحين بقصد تجنيد قوة مسلحة من الأهالي الزنوج بتلك الأقاليم ، لصد الغزو المهدوي المحتمل ودفع الأنصار إلى الخرطوم . . . ولا زلت اعتقد في جدوى تنفيذ المشروع نظراً للصفات الحربية الممتازة التي يتصف بها الزنوج في أعلى النيل والتي يصلح بها جنود الاورط السودانية بالجيش المصري . . . ونحن لا بطرق البنا أي شك في أن أية دولة تحتل أوغندة يجب أن نجعل نصب عينها التحكم في أنيورو . . . وبذلك نمتلك موقفاً هاماً تشرف منه على جميع البحيرات ( الاستوائية ) ونتحكم منه في منابع النيل » (١) . كما نلن نفس الفكرة في تقرير كتبه ونجت مدير مخبرات الجيش المصري جاء فيه « أن أية قوة حربية نرسلها إلى أوغندة بعد تجهيزها تجهيزاً كاملاً بالسلاح والذخيرة تستطيع أن تقمق مثالا عبر المديرية الاستوائية المصرية وتعاون معاونة عسكرية فعالة إذا حدث وعاد المهديون إلى محاولة تنفيذ مشروع غزو مصر أو إذا قرر وضع نهاية للقوضى والعبودية التي تسود الآن في السودان » (٢) .

### الكابتن وليمز وتجنيد المجاهدة للخدمة في أوغندة :

وفي ضوء الظروف السابقة واستجابة للعوامل التي أشرنا إليها ، كان لا بد من حملة بريطانية إلى أوغندة ، تمكن الشركة من إحكام قبضتها على البلاد . لذلك عينت الشركة الكابتن لوجارد على رأس حملة في أغسطس ١٨٩٠ . ثم عينت الكابتن وليمز مساعداً له . وكانت أوغندة في ذلك الحين على شفا حرب أهلية ، وتبين لوجارد أن مشكلته الأولى توفير الجنود الصالحين المدربين ، ذلك لأن جنوده من الزنباريين والسواحيليين لم يكونوا أندادا للعمليات الحربية التي رسم خطته من أجل تنفيذها . ولذلك قرر أن يعمل على توفير

( ١ ) Cairint 5/5/49 No. 58 .

( ٢ ) المصدر السابق .



الجندى الصالح قبل أن يقدم على التدخل الحربي ، واتجه بخاطره نحو القاهرة حيث الجهادية  
المصرية . ولذلك أرسل مساعده الكابتن وليمز إلى القاهرة ليجند أكبر عدد ممكن  
من الجنود السودانيين للخدمة في أوغنده .

وقد تم وليمز إلى القاهرة في يونية ١٨٩٠ وبدأ مهمته على الفور ، واتصل بالمسؤولين  
البريطانيين وخاصة سردار الجيش المصري ومدير المخابرات وتدل المكاتبات الرسمية  
على أن وليمز كان موضع ترحيب الجميع ، وليس في هذا ما يدعو إلى العجب أو يثير الدهشة  
فمن الطبيعي أن يرحب البريطاني المحتل في مصر ببريطاني آخر يعمل لاستعمار أوغنده ،  
ولكن ما يدعو إلى العجب حقاً ويثير الدهشة أن يستمر الانخراط في مصر مصلحة من مصالح  
الحكومة المصرية ، جعلت أسانة في عنقهم ، لخدمة أغراضهم الاستعمارية في أوغنده ، وبلون  
تكليف من الحكومة المصرية ، وبذلك خانوا الأمانة . يكشف هذا السر خطاب مرسل  
من « مدير مصلحة الرقيق » إلى مدير مخابرات الجيش المصري جاء فيه « أن الضباط  
والعساكر الذين تعينوا إلى جهة الرنجبار مع جناب اليوزباشي وليس كان صار جمعهم بمعرفة  
رجال المصلحة وغيرهم بصفة غير رسمية من نوع المساعدة ليس إلا » (١) . كما أن الرسائل  
التبادلية بين وليمز وونجت ، وبين وونجت ومدير مصلحة الرقيق تكشف عن « نوع المساعدة »  
التي بذلت لهذا الغرض . فقد أوفدت مصلحة الرقيق جنودها وصف الضباط بها يجوبون  
مديريات الغربية والقليوبية والشرقية بحثاً عن السودانيين الصالحين للخدمة . وأخذ هؤلاء  
يترصدون السودانيين في الأسواق المحلية الأسبوعية يفرونهم بالتطوع للخدمة في أوغنده .  
وكان وليمز دائم النشاط والتجول في تلك المناطق يشرف على العملية ويسم فيها (٢) .

ولا ندرى بالضبط هل كانت عملية التطوع تتم بطريقة ملبية ، أى بإفادة المتطوعين  
عن الغرض الأساسي من تطوعهم وهو خدمة الشركة في مشروعاتها الحربية في أوغنده  
وعبرها ، أم أن هذا الغرض بقي سرا في نفس يعقوب بينما كانوا يصرحون له بغرض آخر .  
أكبر الظن أنهم كانوا يموهون عليهم ويصرحون بأن القصد من التطوع هو إيجاد بقية  
الجهادية التي فاتتها قافلة ستانلي مع سليم مطر . يرجح هذا الظن ما ذكره أحد المتطوعين  
العائدين من أوغنده وهو الاونيانشي مرور خليل في تقرير رفعه إلى مدير المخابرات

(١) 198 34 Cairint رسالة من مدير مصلحة الرقيق إلى مدير المخابرات ٢ يونية ١٨٩٤

(٢) المصدر السابق - رسالة من وليمز إلى وونجت بتاريخ ١٠ يونية ١٨٩٠

وقد أدلى بأقواله أمام نعيم شقير فقال « كنت توجهت من مصر أونياشي مع شكرى أفندي يوزباشى من طرف دولة إنجلترا على ذمة فتح طريق خط الاستوى وحضور الصاكر المحبوسة هناك . . . » (١) . إن مثل هذا التقرير يؤكد ما كان يحدث من تقرير بالمتطوعين أو على الأقل فإنه يدل على مدى فهم المتطوعين للمهمة التي تطوعوا من أجلها .

وبعد هذه الجهود الجبارة التي بذلها وليز بالقاهرة واستغرقت النصف الثانى من عام ١٨٩٠ ، وجد لها الإنجليز في مصر جهود جنود وضباط خابرات الجيش المصرى ومصلحة الرقيق ، غادر وليز القاهرة إلى أوغندة ومعه فصيلتان من السودانيين برياسة اليوزباشى شكرى أفندي من مهاجرى الاستوائية والملازم ثاى رزق الله أفندي سيدهم من ضباط الأورطة التاسعة ، على رأس مائتى جهادى من ضباط الصف والجنود (٢) .

### لوجارد وتجنيد سليم مطر وجهاديته :

وكان لوجارد قد سار على رأس حملة من مباصا في أغسطس ١٨٩٠ ، وهو يأمل أن يلحقه وليز بالجنود السودانيين من مصر ، فوصل أوغندة في ديسمبر من نفس العام ليجد البلاد على شفا حرب أهلية نتيجة التنافس المرير بين جماعات الكاثوليك والبروتستنت والمسلمين والوثنيين ، وزاد الأمر سوءاً عدم استقرار الملك في سياسته تجاه هذه الجماعات فضلا عن العداء العميق للجنود بين شعبى الباغندة والباينورو . ورغم أن ملك أوغندة كان يدعى حق السيادة على ابورو ، فإن ملك أبينورو لم يكن لقمة سهلة فقد كان لديه جيش كبير يضم بين رجاله عددا لا بأس به من جهادية الجيش المصرى الذين كانوا يفرون منه بين الحين والحين (٣) .

وقد لعب لوجارد دور السياسى الدبلوماسى قبل أن يلعب دور المحارب المستعمر ، وبذل جهودا جبارة في سبيل تحقيق السلام في أوغندة ولكن على أساس سيادة البروتستانت

(١) Cairint D. 80/73  $\frac{1}{33}$  تقرير أونياشي سرور خليل .

(٢) كانت الفصيلتان تضمان ضابطين ، ٣ باشاوشية ، ١٤ من الشاوشية ، ٢٨ أونياشي بخلاف الأنفار الجهادية كما جاء بالكشوف التي حررت بمعرفة « اليوزباشى » سيدهم السودانى بعد عودته من

أوغندة إلى مصر . Cairint  $\frac{1}{34}$  بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٨٩٣

(٣) Casati : Ten years in Equatoria ... pp. 60—62

والتضاء على نفوذ المسلمين . وعندما وصل الكابتن ولينز في يناير ١٨٩١ على رأس مدد من الجهادية السودانيين والذخيرة ، بدأ لوجارد أعماله الحربية فأقام عددا من الحصون لتأمين الحدود بين أوغندا وأيتورو ، حيث لجأ المسلمون ، ولما اطمأن إلى سلامة مركزه وتجهيزاته أراد أن يتخذ من موانجا ملك أوغندا مقلب قط فحرض على إعلان الحرب ضد كبار موانجا ملك أيتورو حامى المسلمين . وجيز الملك موانجا جيشا بقيادة وزيره الأول . واشترك لوجارد في الحملة بتجريدة بلغت عدتها ٣٠٠ محارب من السودانيين والصوماليين على رأسهم ٤ ضباط من الانجليز . وبعد مفاوضات فاشلة ، دارت رحى معركة حاسمة على الحدود تمت فيها هزيمة المسلمين وبذلك رسخت أقدام لوجارد والشركة التي يمثلها في أوغندا (١) .

وبعد أن نجح لوجارد في الخطوة الأولى من المشروع الكبير بتثبيت أقدام الشركة في أوغندا ، أخذ يفكر في الخطوة الثانية وهي خطوة أساسية بالنسبة للمشروع البريطاني الكبير في احتلال أوغندا والوصول عن طريقها إلى وادي النيل : إما لصد المهدي أو لتطوع المديرات الاستوائية . وكان تنفيذ هذه الخطوة يتطلب إنشاء عدة حصون تكون بمثابة محطات عسكرية حول أيتورو من الجنوب والغرب ، بعد أن أقام حصونا في الشرق وذلك لحماية أوغندا من جهة وتيسير عملية احتلال أيتورو من جهة أخرى فضلا عن تمهيد طريق المرور من أوغندا إلى وادي النيل .

ولكن كيف السبيل إلى توفير القوات اللازمة لهذه العمليات الحربية كلها ؟ وكيف يمكن تدير الحاميات اللازمة للحصون ؟ وكيف يمكن إعداد الجيش الضخم الذي يصلح للتقدم نحو النيل لطرد المهدي واستعادة السودان ؟ بل كيف يجهز القوات التي تمكن الشركة البريطانية من مواجهة أطماع الألمان والبلجيكيين في ذلك الجزء من افريقية ؟

حقاً لقد وفق ولينز في تجنيد فضيلتين من السودانيين بالقاهرة ، ولكن الأعداد التي بقيت منهم كانت أقل مما تتطلبه حاجة الانجليز ، فضلا عن المشقة وبعد الشقة والتكاليف الباهظة . فهل يمكن تدير عدد آخر من الجهادية ، بنفس الكفاية ولكن في وقت أصغر وتكاليف أقل ؟

. Cairint 5.5.49. P. 7 (١)

لقد كانت الظروف في خدمة لوجارد وعلم بما كان من شأن الجهادية الذين فاتهم قافلة ستانلي في عودته إلى مصر ، وما كان من تجمعهم تحت قيادة سليم مطر في كافاللي حيث بقوا على ولاهم للحكومة المصرية ينتظرون إرسال نخبة أخرى .

وداعبت الآمال خيال لوجارد ؛ إن تجنيد هؤلاء الجهادية لحساب الشركة يقضى نهائياً على سائر المطاعب الناجمة من قلة الجند ، كما يضمن الفوز للشركة في أى مشروع حربي تقدم عليه .

ولم يضع لوجارد Lugard وقتاً طويلاً ، فما أن أبلغته إحدى طلائعه بأمر سليم مطر وجهادته حتى أسرع ميماً شطر كافاللي حيث عسكر سليم مطر فوصلها في ٦ سبتمبر ١٨٩٠ وهناك أحسنت الجهادية استقباله « وعملوا له التشريفة اللازمة » (١) . وجرت بين الطرفين محادثات عرض فيها لوجارد على سليم أن ينضم رجاله لخدمة شركة افريقية الشرقية البريطانية ، فاعتذر سليم عن علم القبول بأنه لازال في خدمة الحكومة المصرية ولا يمكن التخلي عن ولائه لها أو العمل تحت راية أخرى ما لم تأذن له الحكومة . وأخيراً وصل الطرفان إلى حل وسط : أن يرسل لوجارد من جانبه يستأذن الحكومة المصرية في الحصول على خدمة سليم مطر وجنوده من الجهادية ، ويتعهد في نفس الوقت أن يساعدهم في الوصول إلى الساحل في طريقهم إلى مصر إذا رفضت الحكومة إجابة ملتمسه ؛ بينما وافق سليم على أن يدخل هو وجنوده في خدمة الشركة بصفة مؤقتة حتى ترسل الحكومة المصرية رداً قاطعاً يحدد موقفهم ، واستطاع لوجارد بهذه الحركة البارة أن يضمن للشركة خدمات حوالى ١٠٠٠ جهادى بسلاخهم وذخيرتهم . وقد علق الاميرالاي ونجت مدير المخابرات في الجيش المصري على هذا الاتفاق بقوله « لقد أفادت هذه الاتفاقية كلا من الطرفين المتعاندین ، فقد وفق الكابتن لوجارد على ما يبدو بمساعدة الجنود المصريين في تدعيم سلطة الشركة في أوغندا ، بينما اعتقد سليم بطبيعة الحال أنه قد أدى واجبه في الاحتفاظ ببقايا الحامية الاستوائية وضمن عودتهم إلى مصر ، ثم هو قد أمهم في نفس الوقت في تنفيذ ما كان يصوره مشروعات مصرية انجليزية » (٢) .

(١) D. 80/73 1/35 . Cairint .

(٢) Sndan Intelligence Reports, No. 3—PP. 5, 14 .

تماماً ، والأرقام المذكورة تقريبية .

وبفضل جهود القوة الجديدة أقام لوجارد ستة حصون جديدة لحماية الحدود ضد أيورو والمهيدة وكانت حاميات الحصون من الجمادية . وبذلك هدأ باله من جهة الحدود وقرغ لحل المشكلات الداخلية لأوغندا .

ولما كان لوجارد حريصاً على الاحتفاظ بهذه القوة الحربية المتقازة ، فقد كتب إلى الخديوى فى شأن المواظفة على تجنيدهم لخدمة الشركة ، كما كتب سليم بك فى هذا الشأن . غير أن الوثائق لا تسعنا إلا بخطاب من وليز إلى ونجت وردت فيه إشارة إلى الخطابات مسالفة الذكر جاء فيه :

« عزيزى ونجت

يسلك خطابى هذا فى نفس البريد الذى يحمل اليك خطاباً رسمياً من لوجارد إلى الخديوى وخطابات من سليم بك الذى أحضره لوجارد من كفاللى . . إن الأمور فى أوغندا تبجح نحو الاستقرار ولكن فى بطء ، فإذا تخيلنا بالصبر فلسوف نقر جهودنا فى ذلك الجزء من جنوبى السودان . إن فى قبضتنا الآن جنوبى أيورو والأقاليم الممتدة حتى جبل روزورى ، فضلاً عن بحيرة ألبرت والبرت ادوارد حيث أننا محطة للحكم فى (كييرو) وهى البحيرة الملحة التى قال عنها ستانلى فى كتابه أنها تدر الخير للأقاليم كما لو كانت منجم ذهب . وبالإضافة إلى هذا فلدينا السودانين من رجال سليم ، وهم بقايا الأورطين ، ويبلغ عددهم ٨٠٠٠ من الأنفس وفيهم حوالى ٦٠٠ من الجنود من سائر الرتب . وقد وزعناهم فى الوآت الحاضر على خمس قرى محصنة فى أيورو حتى يصيحوا فى النهاية حاجزاً منيعاً يحمى تورو والبحيرة الملحة (١) . وقد حضر معك البك العجوز جنوده بالإضافة إلى بعض العمال الفتيين وبجارة الباخرة . . . . . ابذل ما فى وسعك لتحصل على إذن لهؤلاء الرجال كي يدخلوا فى خدمة الشركة ؛ إن ثقل هذا العدد الضخم إلى مصر سوف يكلف كثيراً ، وإن تكون لهم فائدة إذا عادوا إلى مصر .

وعلى العكس من ذلك إذا حصل هؤلاء على إذن الخديوى بالعمل فى خدمة الشركة فلسوف يقتنعون بذلك ، ويصبحون عوناً كبيراً لنا فى أى تقدم نحو خط الاستواء . وإنى لأشعر شعوراً قوياً بأن هذه المنطقة تقع فى دائرة المصالح البريطانية . . . » .

(١) يقع إقليم تورو إلى الجنوب الغربى من أوغندا من أهم ثرواتها الطبيعية الملح المستخرج من بحيرة كييرو وهو الثروة التى ألهمت خيال لوجارد . انظر Furler : The Sudanese Troops In Uganda p. 313

ومما يدعو إلى العجب حقاً أن أطماع الإنجليز في أوغندا لم تقتصر على هذه المئات من الجهادية المدربة فقط وإنما طمعوا أيضاً في أن تتولى الحكومة المصرية صرف رواتبهم وتأميناتهم ، بل أنهم طلبوا استبدال أسلحة جديدة بما عندهم يكون نالفاً مما في أيديهم من السلاح . ومن أجل ذلك استطرد وليز يقول في رسالته . « وإذا وافق الخديوي على أن يعطينا هؤلاء الرجال فلعله يقدم لنا مرتباتهم وتأميناتهم كلها أو بعضها ، وإلا ففى وسعك أن تؤدى لنا حونا كبيراً إذا أرسلت لنا نسخة من اللوائح التى تنص على تحديد المرتبات ومرتب العائلة والملابس . . . ، ولعلك تستطيع أن ترسل إلينا أيضاً كمية من البنادق من طراز رمنجتن بدلاً مما بأيدي بعضهم من بنادق نالفة » (١) .

وهكذا حاول الإنجليز في أوغندا تسخير نفوذهم ومد رقة مستعمراتهم بسواعد الجهادية والأسلحة المصرية .

\* \* \*

### محاولات الألمان :

والظروف التى واجهت الألمان في شرق أفريقية كانت شبيهة بالظروف التى واجهت الإنجليز هناك : كلاهما كان يعمل لإنشاء مستعمرات ، وكلاهما كان يعمل للتوسع نحو الغرب ، ونحو الشمال في سباق نحو النيل . وكلاهما كانت تعوزه القوة الحربية المنظمة المبرمة المسلحة . وفى سبيل توفير تلك القوة الحربية سلك كل منهما نفس الطريق التى سلكها الطرف الآخر وذلك بالحصول على الجهادية من القاهرة أو من الأورط السودانية بالجيش المصرى من حامية خط الاستواء .

وكانت القيادة الألمانية في شرق أفريقية أسبق من لوجارد والشركة البريطانية في محاولة الحصول على سلم مطر ومن معه من الجهادية . وذلك عندما أرسلت محمد أمين مدير عموم خط الاستواء لهذا الغرض . وكان أميناً قد دخل في خدمة الحكومة الألمانية بعد الفاجعة التى ألمت به وعوقفه عن المضى مع ستانلى والجهادية إلى مصر (٢) ، وكلف بالسعى لتجديد

(١) Cairint بتاريخ ١٦ يناير ١٨٩٢ 198  $\frac{1}{34}$

(٢) عندما وصلت قافلة ستانلى برفقة أمين والجهادية إلى محطة أمبابوا Umpapua الألمانية في طريقهم إلى الساحل أقام لهم الميجور ويسمان المنتخب الامبراطورى في أفريقية الألمانية الشرقية مأدبة حافلة ويبدو انتهاء المأدبة كان أمين يتطلع من شرفة المنزل الذى كان يقضى فيه الليل . وفى حوالى منتصف الليل سقط من الشرفة وحل إلى المستشفى ليقتضى شهرين ومن ثم دفنت الحملة في طريقها وتختلف أمين عن الحقائق بها .

السردانيين من فصيلة سليم بك . فسار مع فينا حسان صيدلى المديرية السابق وبعض الزنباريين تحت العلم الألماني قاصدين كافالى . وفي يولييه ١٨٩١ وصل إلى مشارف المعسكر حيث وجد سليم بك مع الجهادية وبعض الكتبة المصريين .

وخرج سليم بك وزملاؤه لمقدم أمين وقابلوه بالترحاب ظناً منهم أنه جاء لتجنسهم ، ولم يلبث أمين أن صرح لهم بفرضه الحقيقى فرفض سليم قائلاً « إنه هو وجنوده من رعايا الحكومة المصرية وأنهم يعتبرون أنفسهم دائماً في خدمتها وعلى ذلك لا يستطيعون إجابة طلبه » وطاقف بالمعسكر لإشاعة مؤداها أن الحكومة المصرية غضبت على أمين بسبب تركه لبقية الحماية فطردته من خدمتها (١) .

لهذا لم يوفق أمين في مهمته ، ولم يستطع إلا أن يغرى قراً من الجنود يعدون على أصابع اليد . وقد عثرنا على عدد من الوثائق تحكى قصة أمين مع من غرر بهم من الجهادية ، وهى تقارير كتبها الضباط والجنود الذين صحبوه ثم انفصلوا عنه وقد جاء بعضها على لسان سليم مطر بعد أن بلغا اليه هؤلاء يشكون من سوء معاملة أمين لهم .

وخلاصة هذه التقارير أن أميناً تحايل على « بعض الخدمة وأخذهم معه بوجه الغشوشية حالة كونه يوصلهم إلى الحكومة الخديوية » . ولكن بدلاً من ذلك أخذ يعد العدة للتوجه إلى الكونغفو حتى لقد أصبح « مشبوه لنا أنه متوجه إلى جهة الكسبجوا » . وبعد عدة أشهر من المشقة والجهد وتقضى مرض الجدري ، تردد أمين بين السماح لهم بالذهاب إلى أوغنده أو إرسال الأصحاء منهم إلى « الطوابى تعلق الجرمل » أى الجرمان ، أو المضى في طريقه غرباً نحو الكونغفو (٢) .

ورغم أن أميناً كان على علاقات طيبة مع رؤساء القبائل يمدونه بكل ما يازمه من الثروة والجمالين ويسعون له بالمرور في أناليم ، إلا أن علاقته برجال الحملة من الجهادية كانت سيئة للغاية حتى لقد نعى إلى علمه « بأن هناك مؤامرة بين الضباط والجنود ضده وأن الثأمرين قرروا مهاجمة منزله ومصادرة البضائع والخيرة . . . ثم اللحاق بأخوانهم » . فما كان منه إلا أن توقف عن السير وجمع الضباط والجنود وأخبرهم بوقوفه على المؤامرة

(١) Cairnt 3/239 Report on Equatoria 24

(٢) Cairnt 206-D-8/55 بتاريخ ١٨ أبريل ١٨٩٢ 35

وأبنهم . وقد جاء تفصيل تلك الأحداث في رسالة بعث بها اليوزباشى ريجان أغا راشد والملازم أول أبو بكر أغا محمد إلى سليم مطر في أوغندة .

والعبارات الواردة بالرسالة تلتى بعض الضوء على الموقف بحيث يتضح موقف كل من أمين والجهادية . أما أمين فكان يعتقد « أن الدنيا صارت حرية » فلا يربطه أو يربط الجهادية أى التزام نحو الحكومة المصرية . غير أنه حاول استغلال هؤلاء الجهادية فلم يعطهم روائب ولا تعيينات ، فما كان من ضباط الجهادية إلا أن ردوا عليه حججه بقولهم « فما دامت الدنيا صارت حرية فهذا لم فيه مجبورية على السفر بدون ماهية » . ولم يلبث أن طردهم من حضرته وقال لهم « خنوا أولادكم والعساكر ولا تفعلوا عندي أبداً ولا لى . شئ عفى ... » (١) .

إن الخلد الذى كانت تفيض به نفس أمين على الجهادية ، ومعاملته السيئة لهم ، جعلهم يشعرون أنهم في حالة ضياع فأرسلوا يلتمسون من سليم أن يرسل من يقودهم إليه في أوغندة وهكذا أخفق أمين في مهمته . ولم تلبث حياته أن انتهت نهاية غامضة ، فقد قتل في قلب القابة وتشت حملته وابتهى ذكره .

### ويسمان وتجنيد السودانين من القاهرة :

إن الفشل الذى صادفه محمد أمين حتم على القيادة الألمانية في افريقية الشرقية الامبراطورية أن تدبر أمر الحصول على مزيد من الجهادية بطريقة أخرى وتطلعت إلى القاهرة . من أجل ذلك اتصلت الحكومة الألمانية من برلين بقتصلها العام في مصر وهو المستر هلفيج Helwig بقصد استئذان الحكومة المصرية في تجنيد ٣٠٠ من السودانين للعمل في خدمة القيادة الألمانية في شرق افريقية . واتصل القنصل بدوره بوزارة الخارجية المصرية وحصل منها على الاذن المطلوب . وقد اشترطت الحكومة المصرية أن يقتصر تجنيد هؤلاء السودانين على الموجودين منهم في القاهرة والاسكندرية دون الأقاليم ، وأن لا يكونوا من رجال الجيش العامل ولا تضمهم كشوف التجنيد في وزارة الحرية .

وزمانا لسلامة الاجراءات والتحقق من شخصية المتطوعين ، فقد احتفظت الحكومة المصرية لنفسها بحق التفتيش عليهم قبل السفر (٢) .

( ١ ) المصدر السابق - رسالة بتاريخ ٧ مارس ١٨٩٢

( ٢ ) 185 1/33 Cairint خطاب من وزير الخارجية إلى السردار بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٨٩١



وثمة ملاحظتان هامتان على هذه الشروط ؛ الأولى أن السودانيين الموجودين بالقاهرة والإسكندرية يكونون عادة من أولئك الذين استغنى عنهم الجيش على اعتبار أنهم غير لائقين بعكس السودانيين الموجودين في مدن الأقاليم<sup>(١)</sup>. وبينما كان وليز يمثل الشركة البريطانية بمحمد السودانيين من مدن الأقاليم كطعنا وبها والرفازيق ، حيث يحتمل وجود خدمات صالحة للجندية ، إذا بالحكومة تحرم ذلك على الألمان ، لغرض في نفس الانجليز . وهذه التفرقة في المعاملة تدل على محاباة الانجليز على حساب الألمان .

والملاحظة الثانية تتعلق بالموقف السلبي الذي وقفته المخابرات في مصر من بعثة ويسمان الألمانية بعكس موقفها من بعثة وليز الانجليزي<sup>(٢)</sup>. فعندما جاء ويسمان إلى القاهرة لتنفيذ العملية ، قابل وزير الخارجية المصرية صباح ١٦ أكتوبر ١٨٩١ للصحبة والاستفسار عن البعثة التي ينبغي أن يتصل بها لتزويده بالمعلومات التي تساعد على إنجاز مهمته<sup>(٣)</sup>. غير أن الترحيب الذي لاقاه وليز الانجليزي من المخابرات ومصلحة الرقيق . والمعونة القليلة التي قدمته له الجهات الرسمية لم يبدل شيئا من لوميسمان الألمانية . وعلى العكس من ذلك وقف السردار ومدير المخابرات وهما برطانيان موقفا سلبيا من ويسمان كما يبدو من رسالة أرسلها ونجحت إلى السردار بهذا الشأن جاء فيها « . . . ليس هناك الآن مورد معين لتجنيد السودانيين في مصر . إن المورد الذي يحصل منه الجيش المصري على المجتدين السود هو السودانيون ، ولما كانت السودان في الوقت الحاضر مغلقة في وجه مصر ، فعليا أن نتظر حتى يشرب بعض هؤلاء عبر الحدود ، وهذا الأمر يحدث عادة عند ما ترحف قوة الدراويش إلى الشمال فنحصل على السودانيين اللاتيين للتجنيد »<sup>(٤)</sup>.

والوثائق التي تحت أيدينا تخلو من المعلومات التي تمكننا من معرفة ما تم في هذا الموضوع ، ومدى توفيق ويسمان في تجنيد العدد المتفق عليه من السودانيين . ويغلب على الظن أنه لم يوفق إلى الحد الذي كان يرجوه نظرا للراويل التي أقامها الانجليز في طريقه . وما يرجح هذا الظن وجود وثائق أخرى تتحدث عن محاولات تالية لوميسمان من أجل التجنيد ، لم يظفر فيها إلا بأعداد قليلة .

( ١ ) Cairint 185  $\frac{1}{33}$  رسالة من ونجحت إلى السردار بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٨٩١

( ٢ ) Cairint 185  $\frac{1}{33}$  خطاب من وزير الخارجية إلى السردار بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٨٩١

( ٣ ) Cairint 185  $\frac{1}{33}$  رسالة من ونجحت إلى السردار بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٨٩١

## قرار مصر بتحريم تجنيد السودانيين لخدمة دولة أجنبية

ونخشى الإنجليز في مصر أن يوفق الألمان في تجنيد مزيد من الجهادية السودانية لأن من شأن هذه الزيادة أن تيسر لهم تحقيق اطاعتهم التوسعية في شرق أفريقيا وتمكنهم من التقدم نحو النيل فيعرفلون مشروعات التوسع البريطانية في المنطقة الاستوائية ولذلك حاولوا من جانبهم قطع كل أمل للألمان في تجنيد السودانيين من مصر . وتبيننا لتلك المحاولة تقلم سردار الجيش المصرى بقرار العرض على مجلس الوزراء جاء فيه « ونظرا لتكررتجنيد السودانيين للخدمة في أقاليم افريقية مختلفة . . . فإني أقترح على حكومة صاحب السمو أن تتخذ من الاجراءات ما تراه كفيلا يمنع تجنيد السودانيين للخدمة خارج الحدود المصرية في المستقبل » (١) . وقد برر السردار اقتراحه السابق بقلة السودانيين الذين يتعمون إلى القبائل السودانية رغم حاجة مصر إلى الجهادية وهم عصب الأورط السودانية في الجيش المصرى .

ولم تفض أيام ثلاثة حتى انعقد مجلس الوزراء المصرى لبحث هذا الموضوع . وبعد أن ناقض الاعتبارات التي أبدوها السردار في تقريره المعروض على المجلس ، قرر بجلسته المتعقبة في يوم الخميس ٢٦ من نوفمبر ١٨٩١ « أن يمنع في المستقبل تجنيد السودانيين من أجل الخدمة لحساب الدول الأجنبية » (٢) .

وقد يبدو السردار مخلصاً في توفير السودانيين للجيش المصرى ، وقد يبدو اقتراحه بريئاً لا يقصد به الألمان بالذات . عادلا يسوى بين الدول في التحريم ولا يؤثر إحداها بيزة على الأخرى . وهذا حق إنما أخذنا الأمور بظواهرها . ولكن الآية تنعكس إذا علمنا أن لوجارد ممثل الشركة البريطانية كان قد استطاع في يولية ١٨٩١ — أى قبل تقديم اقتراح السردار بأربعة أشهر — أن يضم لخدمة الشركة ما لا يقل عن ثمانمائة جهادى وعلى رأسهم سليم مطر وزملائه من الضباط والكتبة . فلم يعد الحصول على مزيد من

( ١ ) 127 Cairint  $\frac{1}{23}$  تقرير مرفوع من السردار إلى رئيس مجلس الوزراء في ٢٣ نوفمبر ١٨٩١

( ٢ ) 127 Cairint  $\frac{1}{23}$  رسالة من مصطفى فهمى رئيس مجلس النظار إلى وزير الحربية بتاريخ

المجاهدية أمراً بهم الإنجليز بقدر ما أصبح حرمان الألمان من تجنيد السودانيين من القاهرة يشغل بالهم ويقض مضجعهم . ومن هنا تظهر حقيقة هدف الردار من اقتراحه .

(٥)

### الألمان بالقاهرة وتجنيد السودانيين بصفة سرية

عندما أصدرت الحكومة المصرية قرارها بتحريم تجنيد السودانيين للعمل في خدمة الدول الأجنبية ، كانت القيادة الألمانية في شرق إفريقية لا تزال في حاجة إلى مزيد من المجاهدية . ولذلك فكرت في أن تزاوّل عملية التجنيد بالقاهرة بصفة سرية ، بعيداً عن عيون الحكومة المصرية ورفاقها . والوثائق التي نحت أيدينا تثبت تواطؤ القنصلية الألمانية بالقاهرة مع بعض العملاء من الوطنيين في انجاز هذه العملية لحساب إفريقية الشرقية الألمانية .

وبدأت القنصلية بأن تخيرت عميلاً لها من سكان حى بولاق وهو « مهران زكى » (١) . واستطاع مهران أن يجند بعض السودانيين للخدمة في إفريقية الشرقية الألمانية ، تذكر منهم الوثائق نجيب أفندى البقارى الضابط بالملعاش وسالم أفندى وعبد الله شتا من ضباط الصف وقد رحلهم إلى السويس ومنها أبحروا إلى زنجبار (٢) .

ورغم أن هذه العملية أفلتت من رقابة الحكومة ، إلا أنها سارت يبطء فلم تكف لمواجهة حاجة الألمان الملحة إلى السودانيين ولم ترض عنها سلطاتهم هناك . لذلك عهدت القيادة إلى الميجور ويسمان كي يتوجه مرة أخرى إلى القاهرة ويعمل على تجنيد العدد الكافى من السودانيين بصفة سرية . وبالفعل توجه ويسمان إلى القاهرة في شتاء ١٨٩٢ وصحب معه أحد الضباط السودانيين ممن جندهم في المرة السابقة وهو الملازم سيد رخا (٣) .

وفي القاهرة اتصل الميجور ويسمان بقنصل ألمانيا العام ورتبت العملية هذه المرة أيضاً بحيث تم في الحفاء ودون أن تستلفت نظر المسؤولين . واستمرت عملية التجنيد فعلاً

(١) لم تسعفنا الوثائق بمعلومات كافية عن مهران زكى ، ويفهم من بعضها أنه مغاول لتقديم الباطل .

(٢) Cairint 204  $\frac{1}{34}$  وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٨ - ٦ - ٩٢

(٣) Cairint 204  $\frac{1}{34}$  وثيقة رقم ٨ بتاريخ ٩ - ٥ - ٩٢

أربعة أشهر . ولم تنبه السلطات المصرية المسؤولة إلا بعد مدة ففارت نائرة السردار ومدير المخابرات ونجت Wingate .

وقد انفضح أمر العملية في الأيام الأولى من شهر أبريل ١٨٩٢ عندما قدم أحد رجال المخابرات المصرية تقريره الأسبوعي إلى نعيم شقير . ولم يكن التقرير مفصلاً وإنما تضمن خبراً يتلخص في أن أحد الأجانب يقوم بتجنيد السودانيين من حى العباسية للخدمة في زنبار، يساعده في ذلك أحد مقاوولى العمال من المصريين (١) .

وتعجب نعيم شقير وثارت نائرة الانجليز في الجيش والمخابرات ، لأن هذا العمل يخالف لقرار مجلس الوزراء من جهة ومن أخرى فإنه يتيح للألمان فرصة الحصول على السودانيين فزيد قوتهم الحربية في افريقية الشرقية وقد ترجح كفتهم في تلك المناطق ويصبحو أقدر على منافسة انجلترا في سباقها نحو النيل .

وأرسل نعيم شقير المخبّر السريين فعاذوا يؤكّدون المسألة مع تفاصيل يفهم منها أن الضابط الألماني الميجور ويهان هو الذى يجند السودانيين للخدمة في زنبار . وأنه يزاول هذه العملية في حى العباسية يغاونه في ذلك سيد رخا أو وكيلى أودب وخادم له يدعى محمد البربرى كان في خدمته بزنبار مدة ثلاث سنوات .

وتوخّت إدارة المخابرات الحيلة والخفر في كشف الموضوع وكثر تردد المخبّر السريين على مقر التجنيد بحجة أنهم ضباط سابقين بالجيش المصرى ويرغبون في التطوع لجهة زنجبار ، فقاموا بمزيد من التفصيلات عن نشاط سيد رخا ، والأسلوب الذى يتبعه في إغراء السوداقين ، إذ كان يدعوهم إلى منزله ويقدم لهم الخمر ويغريهم بالسفر إلى زنجبار حيث « المكاسب الطيبة » فمن تطوع منهم أعطى جثمان ، أحدهما كقتلهم والثانى ممن تذكره سفر وتشبهيلات إلى السويس فضلاً عن جراية يومية قيمتها ثلاثة قروش . وقد فهم المخبّرون أن أعداداً من السودانيين يجرى تسفيرها بالتدريج (٢) .

ولم يعد ثمة بد من استلقاء سيد رخا لاستجوابه فاستدعاه رئيس إدارة البوليس السرى إلى ديوان المخابرات حيث حقق معه نعيم شقير . ولم يحاول سيد رخا أن يخفى شيئاً ،

( ١ ) Cairint 204  $\frac{1}{34}$  وثيقة رقم ١ بتاريخ ١٢ - ٤ - ٩٢

( ٢ ) المصدر السابق - وثيقة رقم ٢ بتاريخ ١٩ - ٤ - ٩٢ ، رقم ٤ بتاريخ ٢٨ - ٤ - ٩٢

ورقم ٥ بتاريخ ٢ - ٥ - ٩٢

فرد تاريخ حياته وتفاصيل العملية التي يقوم بها لحساب الألمان . ورفع الأمر إلى السردار  
فهد سعيد رخا وأنفذه بتقديمه إلى المحاكمة أمام مجلس عسكري على إذا عاد إلى تجنيد  
السودانيين بعد ذلك (١) .

غير أن قصة تجنيد الألمان للسودانيين بالقاهرة ماكانت لتنتهى بتهديد سيد رخا  
أو بالتهديد الذي قطعه على نفسه ، فقد كان هناك ويسمان ومساعداه فضلا عن محمد البربرى .  
ولذلك عهد ونجت إلى نعوم شقير بقصى الأمر وعمل التحريات بنفسه . وصدع نعوم  
بالأمر وزار سيد رخا بمنزله في العباسية الشرقية فتأكدت لديه المعلومات التي وصلت إلى  
المخابرات من قبل ، كما علم أن « ناهية النفر » تبلغ جنينز شهرىاً يدفع أحدهما إلى أسرة  
المتطوع بالقاهرة عن طريق القنصلية الألمانية ، أما الثانى فيتسلله المتطوع في محل وجوده .  
وكان المتفق عليه أن يتسلم سيد اخدى رخا استحقاقات الأسر كلها ثم يوزعها عليهم أو على  
وكلائهم بمقتضى كشف يوضح أسماءهم وذلك في مقابل عمولة خاصة تخصم من المرب .

ولم يكثف نعوم شقير بزيارة سيد رخا بمنزله ، وإنما زار أيضا أسر المتطوعين في  
منطقى حلة العرب بالوايلة الصغرى قرب محطة العباسية ، وحلة رقم ١ بالعباسية . وقد  
ذكر شقير أسماء ١٦ سيدة ممن قابلهن ، وكانت رواياتهن مطابقة لما ذكره سيد رخا ، كما قابل  
هناك أحمد البربرى ، فأكد نفس القصة ، ظناً من هؤلاء جميعاً أن نعوم شقير موفد من  
القنصلية الألمانية ، كما أكد البربرى أن المتطوعين قد رحلوا إلى السويس وأنهم جميعاً  
وصلوا سالمين (٢) .

كان على المخابرات بعد ذلك أن تعمل ، وأن تعمل في حزم وسرعة لتحقيق ثلاثة  
أمور : الأول ، حفظ حقوق الأسر التي سافر من يمولها . والثانى سرعة اتخاذ الاجراءات  
التي تمنع سفر هؤلاء المجندين إن لم يكونوا قد سافروا بعد . والثالث ، القضاء على هذه  
العملية وتخفيف القائمين بها .

أما الاجراء الأول فيهم من الاخطار الذي أرسلته المخابرات « إلى جناب الخواجات  
برتشبايدر وشركاه » بالقاهرة ، لالقاء التوكيل المعطى لسيد رخا بقبض « مرتبات زوجات

(١) Cairint 204  $\frac{1}{34}$  وثيقة رقم ١١ بتاريخ ٢٣ / ٥ / ٩٢

(٢) المصدر السابق - وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٨ / ٦ / ٩٢ - وقد ذكر سيد رخا وأحمد  
البربرى أسماء عشرات من تطوعوا وسافروا .

المجندين السودانيين الذين صار تشييلهم إلى زنبار ، على أن تحمل المخابرات محله في هذه المهمة (١) .

ولما كان الأمر الثاني ، وهو منع سفر المجندين ، بالغ الأهمية فقد أبرق السردار إلى محافظ السويس بالبحث عن المجندين والتبض عليهم ، والمحاظ بدوره كلف « معلون بوليس السويس وناظر قلم البساوورنات » بالتنفيذ . وقام الرجلان بالبحث والصحى والمراقبة فكلوا يفتشون القطارات القادمة من القاهرة و « وابورات البوستة الخديوية » المعافرة من السويس ، ورغم الدقة البالغة فلم تصل السلطات في السويس إلى نتيجة تذكر (٢) . وكتب محافظ السويس يرد على السردار بقوله إن رجاله جميعاً ملتفتين وعلى قدم التيقظ للسودانيين وعدم تمكنهم من السفيرة خارج القطر ما لم يكن ذلك بتصريحات من الحرية . . . » (٣) .

ومن الطريف أن نعوم شقير كتب تعليقاً ساخراً على خطاب المحافظ وأرسله إلى مدير المخابرات مؤداه « إن سيد رخا الذى جند هؤلاء الرجال وأرسلهم من هنا يؤكد أن السودانيين الذين نحن بصدد الكلام عنهم قد غادروا القاهرة ضللاً إلى السويس . وأن خبرنا السريين على استعداد لتقديم المزيد من التفاصيل » (٤) . وهكذا انتهت مهمة ويسان بالتجسس إلى حد ما ، وإن كان الباب قد أغلق نهائياً أمام الألمان وغيرهم ولم يسمح لدولة أجنبية بتجنيد السودانيين من مصر .

## (٦)

### البليجيكون في الكونغو وتجنيد الجهادية المتمردة

وفي الجانب الغربى من المنطقة الاستوائية ، في حوض الكونغو ، كان ثمة نشاط آخر يقوم به الكونغوليون لحساب الملك ليوبولد الثانى ملك البليجيكين . وكان ليوبولد في ذلك الحين يمثل دور الشخصية الطموحة ، ويطلع عن طريق التوسع الإقليمى في إفريقية أن تصبح

(١) المصدر السابق - وثيقة رقم ١٢ بتاريخ ٢٨ / ٥ / ٩٢ . وواضح أن برتشنايدر كان موكلاً بتسليم الرواتب لسيد رخا من طرف القنصلية الألمانية .

(٢) المصدر السابق - الوثيقتان رقم ٩ ، ٨ بتاريخ ٩ ، ١٠ مايو ١٨٩٢ على التوالى .

(٣) نفس المصدر - وثيقة رقم ١٠ بتاريخ ١٤ مايو ١٨٩٢

(٤) نفس المصدر - وثيقة رقم ١١ بتاريخ ١٦ يونية ١٨٩٢ .

دولته في المرتبة الأولى بأفريقية رغم كونها بين دول المرتبة الثانية في أوروبا . ومهد ليوبلد لنشاطه الاستعماري بإعلان تأسيس دولة الكونغو الحرة ، ولم تلبث هذه أن أصبحت حقيقة دولية بفضل مؤتمر برلين ١٨٨٤ (١) .

وبدأ ليوبلد في نشاطه الأفريقي نبيلاً يعمل لتشجيع الكشف الجغرافي وتزقية العلوم وتمييد مجاهل أفريقية لنرس بنور الحضارة الأوروبية ، فضلاً عن الجانب الإنساني ، وهو « منع تجارة الرقيق وتحريره » . وسار في ذلك خطوات ثابته استغرقت منه عدة سنوات منذ كشف ستانلي حوض الكونغو الأدنى ١٨٧٤ حتى أعلن تكوين دولة الكونغو الحرة ١٨٨٤ (٢) . وخطط ليوبلد لنشاطه البري المظهر ، الاستعماري الجوهر بحيث يتقدم نحو هدفين : حوض الكونغو بما في ذلك كشفه واستعماره ، وحوض النيل بما في ذلك احتلال بحر الغزال والحصول على جهادية فضل المولى .

وفي حوض الكونغو بدأ التوسع على النحو الاستعماري التقليدي وتضافرت جهود المستكشفين من أمثال ستانلي وشونيفرث ويونكر وكازاني .. مع جهود التجار والرأسماليين والقواد العسكريين من أمثال الضابط البلجيكي Thys الذي أسس شركة الكونغو للبحارة والصناعة في ديسمبر ١٨٨٦ وشملت مهمتها الكشف الجغرافي إلى جانب الأهداف التجارية والصناعية .

وفيما بين عامي ١٨٨٧ - ١٨٩٠ استطاع الضابط البلجيكي كابتن فان جيل Van Gèle وزملائه الكشف عن حوض نهر أوبانجي - ويلى من روافد الكونغو الرئيسية ، حتى وصلوا إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو (٣) .

### مشروعات ليوبلد التالية :

ولا ندرى على وجه الدقة متى بدأت أطماع ليوبلد في وادي النيل ، كان قد زار مصر في عام ١٨٥٥ ، ثم تكررت زيارته لها في عامي ١٨٦٢ ، ١٨٦٤ . ويقال أن هذه

(١) قبل المؤتمر كانت ثلاث من الدول المطعى قد اعترفت « بحكومة الكونغو » وإن لم تعترف « بقوله الكونغو » . وهذه الدول هي الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وألمانيا .

(٢) أفاضت كثير من الكتب في تفصيل هذا النشاط ومن غيرها

Wauters : État Indépendant de Congo.

Sanderson : Leopold II and the Nile Valley. p. 17. (٣)

الزيارات قد أثارت اهتمامه بوادى النيل . وزاد هذا الاهتمام وأصبح عاملا موجها في سياسته الافريقية وخاصة منذ أن أدخل ضمن أهدافه مكافحة تجارة الرقيق ، وكان غردون ممن استعان بهم ليوبلد لهذا الغرض ، فعينه في حكومة الكونغو ، وكلفه بتنظيم إدارتها والعمل على مكافحة الرقيق . وكان رأى غردون واضحا صريحا ، فمن الضروري لحكومة الكونغو أن تحتل مراكز في بحر الغزال إذا أرادت أن « تتلع تجارة الرقيق من جنورها »<sup>(١)</sup> . وارتاح ليوبلد إلى هذه النصيحة لأنها كانت تمثل رأى رجل مجرب خبير المسألة عندما كان حاكما عاما للسودان ، كما كانت تتماشى مع الجماعة في حوض النيل .

غير أن نشاطه الحربى في حوض النيل كان يطلب نشاطا سياسيا يؤمن في ظاه عملياته الحربية ويحدد بفضله موقف الكونغو من جيرانها من الدول الاستعمارية فتعد اتفاقيات مع كل من ألمانيا وفرنسا رمت الحدود ومناطق النفوذ .

### محاولة الإتفاق مع أمين باشا :

وكان ليوبلد يدرك أن توسعه نحو النيل يعرضه لخطر الاصطدام مع المهديّة ، والحاجز الوحيد الذى كان يفصل بينهما في ذلك الحين هو مديرية عيوم خط الاستواء المصرية ومديرها محمد أمين ، وكانت الحكومة المصرية قد طلبت من محمد أمين إخلاء المديرية كجزء من الخطة العامة الانسحاب من السودان بهفة مؤقتة ، وعول ليوبلد على الصيد في الماء العكر ، وهذاه تفكيره وأطماعه إلى أن يقترح على محمد أمين التخلي عن مديرية خط الاستواء لدولة الكونغو مقابل تعيينه محافظا عليها من قبل ملك البلجيكيين ، وكان يأمل من وراء اقتراحه هذا تحقيق فرائد كثيرة : فالإقليم الذى كانت تشغله المديرية المصرية إنليم فسيح وفيه من الخيرات والإمكانات ما جعلهم يعتبرونه « جنة إفريقية » كما اشتهر حاكم المديرية بحسن علاقته بالوطنيين وخبرته بالإقليم على نطاق واسع . وكان من شأن هذا الاقتراح لو قبله محمد أمين أن يتيح لليوبلد خدمات أورطتين من الجهادية من نخيرة الجنود الافريقيين المدربين بسلاحهم وذخيرتهم فيستطيع أن يدفع آماله دفعة قوية ، وهذا فضلا عن أن المديرية

(١) كان غردون قد شغل منصب حاكم عام السودان حتى عام ١٨٧٩ ، ثم استقال وعاد إلى إنجلترا . ولم يلبث ليوبلد أن عينه في حكومة الكونغو في يناير ١٨٨٤ وذلك قبل أن يعود نهائيا إلى الخرطوم قبل مقتله في يناير ١٨٨٥



سوف تصبح إقليبا حاجزاً يدفع به عدوان المهديين عن الكونغو إذا حدثت وسولت لهم أنفسهم التقدم في ذلك الإقليم بعد الاستيلاء على المديرية المصرية .

وحمل ستانلي هذا الاقتراح ضمن الاقتراحات التي عرضها على محمد أمين في مايو ١٨٨٨ غير أن أميناً رفض هذا العرض<sup>(١)</sup> . وليس مما يهم بحثنا هذا مناقشة العروض المختلفة التي عرضها ستانلي ، ولا العوامل التي دفعت أميناً إلى تحديد موقفه من حملة ستانلي بصفة عامة ، ومن هذه العروض بصفة خاصة ، وإنما تهنا الإشارة إلى أن هذا الرضى جعل ليوبلد يشعر بوجود نفرة تعرضه لخطر المهديّة في المستقبل . فكان عليه إذن أن يعمل لتحقيق غرضين أساسيين : إقنطاع أكبر جزء من المديرية الاستوائية وإلحاق جهادية فضل المولى بخدمة دولة الكونغو وذلك لكي يحرم المهديّة من خدماتهم فيضعف من قوتهم ويزيد من قوته .

وعند ليوبلد إلى تأمين نشاطه الحربى بالتמיד له من الناحية السياسية ، كعادته ، ومن ثم تم عقد معاهدة بين دولة الكونغو الحرة وبين الشركة الامبراطورية البريطانية لشرق إفريقية وهى التى عرفت فيما بعد باسم معاهدة ماكينون في ١٤ مايو ١٨٩٠ . وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر اعتبار النيل من بحيرة البرت إلى مدينة لادو حداً بين أملاك دولة الكونغو الحرة وأملاك الشركة . وقد تعهدت الشركة بالألا تقوم بأى نشاط سياسى غرب النيل حتى مدينة لادو شمالاً وذلك إعرافاً منها « بالحقوق الملكية » في الأقاليم المحددة على النحو مالف الذكر .

#### اتصال الكونغوليين بجهادية فضل المولى :

وبعد أن اطمان ليوبلد إلى موقف الفرنسيين والألمان والبريطانيين من مشروعاته نتيجة الاتفاقيات التي عقدت معهم ، بدأ نشاطه الحربى واستأنف تقدمه نحو النيل . ففي ٢ أكتوبر ١٨٩٠ أرسل الكاتب فان كيركوفن Van Kirkhoven إلى الكونغو ليقود حملة تستهدف النيل عند وادلاى . ورسم فان كيركوفن خطة على أساس التقدم في حريتين : الحربة الأولى تمثلها حملة فرعية تبدأ من ستانلي بول والثانية حملة رئيسية بقيادته تبدأ من ليوبلد فيل واستغرقت الحملتان عاما ونصف عام حتى وصلتا إلى النيل قرب وادلاى (٤ فبراير ١٨٩١ — ١٠ أغسطس ١٨٩٢) قتل في أثناءها قائد الحملة وتولى نائبه الملازم

Stanley : In Darkest Africa. V. I. p. 387 (١)

ميلز Milz . وما أن اقترب ميلز من مشارف وادلاى حتى أخذ يبحث عن فضل المولى ومن معه من الجهادية . وما أن علم بوجوده حتى بادر بصحير رسالة اليه وصحبها بهدية ، وعرض عليه صداقه وأخبره عن الهدايا التي أرسلها اليه الملك وملأت ٨٠٠ صندوقاً . ثم أخذ يقريه بالمواقة على الدخول في خدمة الكونغو الحرة . ويذكرنا الدور الذي لعبه ميلز مع فضل المولى بالدور الذي سبق أن لعبه ستانلي مع أمين .

وقد لون ميلز في خطابه أحداث أوروبا باللون الذي يتفق مع غرضه بصرف النظر عن تعارض ذلك مع الحقائق التاريخية . فأخبره أن « مؤتمر أوروبا الذي كان منعقداً في برلين بحضور المولى » صرح لليوبلد أن يملك كافة بلاد « كونجو » وضواحيها وأن الحكومة المصرية تنازلت بالكلية عن السودان وتخلت عن جنودها ولن ترسل أية نجدة أو حملة لإنقاذهم ، وبذلك فهم ليسوا تابعين لأية دولة من الدول ومن حقهم الانضمام إلى من يشاءوا ثم طلب منه في نهاية الخطاب أن يرسل اليه وفداً للباحثة قبل أن يحضر لمقابلته في وادلاى (١) .

ولكن يقن ميلز الدور الذي يقوم به كلف « ترجمانه » يعقوب افندى سليمان وهو مصرى التحق بخدمة حكومة الكونغو بأن يكتب له في نفس المعنى (٢) .

وفي ضوء الظروف التي كانت تحيط بفضل المولى ورجاله ، استجاب للدعوة ميلز ، وأرسل وفداً من الضباط والكتبة على رأسه البكباشى أحمد أغا على والبكباشى محمود افندى العجمى وكيل المديرية ومحمود صبرى كاتبها (٣) .

وفي الاجتماع الذي تم بين ميلز وفند الجهادية ، وضعت الخطوط الأساسية للاتفاق بين الطرفين ، وذهب الجميع إلى بوره حيث معسكر فضل المولى وهناك تم عقد معاهدة اعترف فيها فضل المولى وزملائه السبعة من الضباط والكتبة بالاصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن كافة المستخدمين من ملكية وجهادية بقبول خدمة « حكومة كونجو المستقلة »

---

(١) هلم مهدية وثيقة رقم ٩١ من نايب حكومة كونجو الحرة إلى قومندان خط الاستوى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٩٢

(٢) هلم مهدية وثيقة رقم ١١٦ من يعقوب سليمان إلى قومندان خط الاستوى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٩٢

(٣) هلم مهدية وثيقة رقم ٦٤ من فضل المولى إلى ميلز رداً على الرسالة سالفة الذكر - بدون تاريخ .

مع الخضوع لقوانينها وأوامرها والعمل لمصلحتها ، كما تعهّدوا برفع علم « يرق » تلك الحكومة (١) .

ثم أبرم الطرفان عقداً « قوترا تو » وقعه ميلز وفضل المولى وزملاؤه ، تضمن ثمانية بنود تحدد طبيعة التعاقد والمهمة المطلوبة من الجهادية ، كما تحدد مدة التعاقد بسنة واحدة قابلة للتجديد . وقد حرص ميلز في العقد على أن ينص في البند الأول منه على تعهد الجهادية « برفع بنديرة » حكومة الكونغو المستقلة ، وأن يقيموا في المخطات التي تعيها لهم الحكومة . كما نص في البند السابع على أن تقدم حكومة الكونغو لفضل المولى وجنوده المئون والأسلحة والذخيرة (٢) .

وبفضل هذا الاتفاق ، استطاع ميلز أن يضم إلى جيش الكونغوليين مئات من الجهادية المدربة الجيدة التسليح ومن ثم بدأ في تنظيم قوته الجديدة ، فأرسل فضل المولى ومعظم رجاله إلى دوفيله لصد أي زحف مهدى في أهالي بحر الجليل ، وأمر الملازم جستن البلجيكي مع الجنود الكونغوليين بالبقاء في محطة جافند ، ثم أمر بقية الجهادية وعددهم ١٥٠ جهادى وعلى رأسهم محمود أغا بأن يعسكروا شمالي جافند .

وبعد أن حوى ميلز ظهره بإقامة خط دفاع قوى ضد المهدية بفضل مواعد الجهادية أخذ يتابع توسعه وينشئ المخطات العسكرية وقيم فيها الحاميات ، ثم عهد إلى الملازم ديلانج Delange بقيادة المخطات بين النيل والكونغو فدخل تحت إشرافه فضل المولى ومحمود أغا وجستن Gustin (٣) .

### الاتفاق الثانى وتكوين بلوك رابع من الجهادية :

كان من شأن الخطوة التي رسمها ميلز وعهد بتنفيذها إلى ديلانج الحاجة إلى مزيد من الجند ، في وقت عاد فيه المهديون إلى الاستعداد للزحف جنوباً ، واقترب العقد من نهايته ، بالإضافة إلى عدم رضا فضل المولى والجهادية عن قيادة ديلانج البلجيكي وعدم رغبة الجهادية في تجديد العقد .

(١) ملف مهديّة ملف ٣ وثيقة ٧٦ معاهدة بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٨٩٢ .

(٢) ملف مهديّة ملف ٣ وثيقة ٨٠ قوترا تو بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٨٩٢ .

(٣) Collins : The Southern Sudan, pp. 100—105 (٢) .

وما زاد الطين بلة أن المرتزقة غير النظاميين من الزاندي ، الذين جندهم الكونغوليون ، راحوا ينهبون متى ساحت لهم الفرس وأفلت زمامهم فلم يعد البلجيكيون أو الكونغوليون قادرين على السيطرة عليهم ، كما أن الانتصار بدأوا يمهون لغزو الجنوب فأرسلوا الجواسيس والعلاء لإثارة القبائل ضد طوايد الكونغوليين ، بل أنهم حاولوا الاتصال بالجهادية حتى يتخلوا عن البلجيكيين وينحازوا إلى صفوف المهديّة .

وفي مثل هذه الظروف احتاجت الكونغو الحرة إلى خدمات فضل المولى ورجاله أكثر من أى وقت مضى . إلا أن العلاقة بين الجهادية والبلجيكيين كانت تمر في مرحلة عدم ثقة فقد حدث بين الطرفين خلاف خطير في تفسير بنود العقد ، وكان أساس الخلاف أن النص الفرنسي للعقد لم يشر إلى أمرين مهمين : الأول ، التزام حكومة الكونغو بتزويد الجهادية بالمؤن والسلاح والذخيرة ، بينما نص على ذلك في الأصل العربي . والأمر الثاني أن الترجمة الفرنسية نصت على عدم سرّبان العقد إلا بعد موافقة حكومة دولة الكونغو ، بينما لم يرد ذلك النص في الأصل العربي .

ورغم أن النص العربي هو الأصل والنص الفرنسي ترجمة له ، فإن ميلز تسمك بما جاء في الترجمة الفرنسية رغم مخالفته للأصل العربي .

ولكن تقضى الدولة على هذه المشكلات وتفوز بخدمات الجهادية ، امتدعى الأمر تعيين بارت البلجيكي في القيادة بدلا من ديلايج . مع التمسيد لتجديد العقد وفق شروط أسخى وأوفى .

وموقف فضل المولى كان سلبا لا غبار عليه ، لأن العقد الذى بيده كان يفرض على الدولة أن تمدّه بالسلاح والذخيرة والمؤنة ، وقد رفضت الدولة هذا كله . فمل يلام عندما تخلى عن خدمة الدولة عند انتهاء العقد وأعلن نفسه «حر التصرف» ولم يعد يرفع علم الدولة الحرة ، واتخذ من جاندة مركزا لتجميع بلوكات الاورطة ؟ ونتيجة لهذه التحركات ، خلت محطّات الكونغوليين في بحر الجبل وأصبح الميدان مفتوحا لتقديم الانتصار الذين وصلوا في زحفهم إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو وعملوا على كسب الجهادية إلى صفهم .

قرر بارت أن يحصل مرة أخرى على خدمات الجهادية وأن يعدهم عن معسكر الانتصار بأى ثمن ومن ثم أصبح الجهادية في موقف يستطيعون فيه إملاء الشروط التي تتفق مع مصالحهم ، أو بعبارة أدق نصحيح الأوضاع والأخطاء الماضية .

وقد بدأ ذلك بوضوح في « التوتراتو » الجديد الذي وضعه بارت بالنيابة عن دولة الكونغو الحرة ، وفضل المولى بك نيابة عن الجهادية بتاريخ أول يناير ١٨٩٤ . والعقد الجديد فيه وضوح وفيه حمص وفيه تحديد دقيق لمهمة كل من الطرفين وحقوقه وواجباته .

والعقد في مجموعة يتكون من اثني عشر بنداً : نص فيه على السلطة المطلقة لفضل المولى على الجهادية دون تدخل اليلجيكين أو الكونغوليين في أعماله ( بند ١ ، ٢ ، ٨ ) كما نص على إنشاء بلوك جديد رابع ، وفي مقابل ذلك تدفع الدولة لفضل المولى ألفين من الجنهات باسم البلوكات الثلاث القديمة وأربعمائة جنيه انجليزى للبلوك الرابع على أن يصرف نصفه نقدية ونصفه بضاعة مرة كل ستة أشهر ( بند ١٠ ، ١١ ) وفضلاً عن المبالغ سالفة الذكر ، نهبت حكومة الكونغو بأن تقوم بصرف تعيينات شهرية لرؤساء البلوكات وكتايبهم ( بند ٩ ) . أما بخصوص السلاح ، فقد نص في البند السابع على أن تتولى دولة الكونغو تزويد الجهادية بالسلاح والذخيرة . وأخيراً جاء البند الثاني عشر وله مغزى عميق عندما تقرر فيه سرعان العقد مهما كانت الظروف لمدة سنة تبدأ من أول يناير ١٨٩٤ سواء اعتمدت الحكومة نص العقد أم لم تعتمد (١) .

### خاتمة فضل المولى وتشئت الجهادية :

وبعد إبرام العقد عاد فضل المولى وجهاديه أدراجهم إلى جاندة ، بينما أخذ بارت يدرس الموقف جيداً . كان يعلم أن البريطانيين يهركون شلاً من أوغندة إلى بحر الجبل ، كما كان يعلم أن قيادة الأنصار قد انتقلت إلى يد عربي دفع الله ، وأن الأمير الجديد استطاع أن يقضى على المتاعب التي أضعفت فيما مضى من شأن الأنصار وعوقت تقدمهم وقلات من خطرهم ، وأنه استطاع أن يوفق بين القوى الساخطة والقوى المتردة ويحولها جميعاً إلى وحدة مقاتلة ثم نقل قاعدته إلى الرجاف وحسبها لتكون قاعدة بهجم منها على الجهادية .

ولذلك أصدر بارت أمراً إلى فضل المولى بالتقدم إلى دوفيله وأن يرفع علم الدولة الحرة قبل أن يسميه اليها البريطانيون وشجعه بقوله « أنا متكل عليك وعلى جهاديتك العظيمة » ، على أن يتقدم بعد ذلك فيحل وادلاى بالسرعة الفائقة (٢) .

(١) مخطوطة مهيبة وثيقة رقم ٦١ بتاريخ أول يناير ١٨٩٤

(٢) مخطوطة الوثيقتان ٧٥ ، ١٢١

وأُسرع فضل المولى إلى تنفيذ الأوامر ، فقاد مفره الحصين في جانده . وبينما هو في طريقه إلى وادلاى فاجأه الانصار وأجبروه على خوض معركة لم يكن مستعداً لها . وبذلك دارت عليه الدائرة واستشهد فضل المولى ومعظم الجهادية في المعركة . ولم ينج منهم سوى ٢٠٠ جهادى شقوا طريقهم إلى وادلاى ومنا إلى كافاللى<sup>(١)</sup> . وبذلك انتهت علاقة الجهادية بالكونغو الحرة . وكثير من الأوراق التى تلقى الضوء على هذه الفترة من تاريخ الجهادية سقطت في يد الانصار في تلك الموقعة .

## (٧)

### الانجليز يرثون مصر في قواتها العسكرية بنظر الاستواء

وبينما كان فضل المولى وجهاديه في محنة قبل المعركة التى استشهد فيها ، كانت إنجلترا بصدد التفكير في تحديد موقفها من أوغنده . وبالفعل عينت السير جيرالد بورثال لفحص أحوالها وتقديم المقترحات الخاصة بالسياسة التى ينصح بها في المستقبل . ومنحته الحكومة البريطانية سلطات واسعة سمحت له باعلان الحماية البريطانية ومن ثم ارتفع العلم البريطانى شيئاً على إمداد استقلال تلك البلاد .

وكان أول ما فكر فيه بورثال تنظيم القوة الحزبية وقوامها بلوكات الجهادية التى يرأسها سليم مطر . وبادر فطلب من الحكومة البريطانية أن تتخير أربعة من الضباط البريطانيين ممن عملوا في الخدمة بمصر في أوط الجهادية ويلعبون باللغة العربية ، لقيادة بلوكات الجهادية التى سبق أن جندوها لوجارد ووليمز ؛ واتمس بورثال أن تكون رتبة أحد هؤلاء الضباط كبيرة حتى يمكن أن يعهد اليه بحكم أوغنده في المستقبل . وقد اختارت الحكومة البريطانية أربعة من الضباط الانجليز من سبق لهم العمل في مصر . وكان على رأسهم الكولونيل كولفيل Colville والكابتن ثرستن Thruston .

وبدا كولفيل عمله في نوفمبر ١٨٩٣ ، فأرسل تجريدات صغيرة لمد النفوذ البريطانى نحو النيل ومنا به إلى الشمال والغرب . وفي يناير ١٨٩٤ استطاعت إحدى هذه الحملات أن ترفع العلم البريطانى على المحطة المصرية القديمة في وادلاى . ولم تلبث أن تواترت الاخبار

(١) مهادية الوثيقتان ٦٣ ، ٧٠ بتاريخ ٢٩ شبان ١٣١١ - أنظر أيضاً Sudan Intelligence

وجود « عدد كبير من الزوج المسلحين ومعهم رجل من البيض » فظن الانجليز أحد أمرين ؛ فهم إما من الكونفوليين وعلى رأسهم ضابط بلجيكي ، وإما بقايا جنود فضل المولى من أوروطة الجهادية بعد هزيمتها (١) .

وكان على كولفيل أن يعمل بسرعة حفظاً لحقوق بريطانيا في تلك المنطقة وفقاً للمعاهدة التي عقدها مع الكونفوليين في عام ١٨٩٠ . فأرسل بعض الطلائع بقيادة الكابتن ترستن . وتأكد هذا من أمرهم عندما رأى العلم المصري يرفرف على المعسكر وسمع الموسيقى تعزف السلام الخديوي .

وقص علينا ترستن قصة مقابله مع ضباط الجهادية فقال « وقد حضر لمقابلي أربعة ضباط من السودانيين متوسطى السن متشعنين بثياب بيضاء نظيفة وأوصلوني إلى حديقة رائعة حيث قدمت لي القهوة ، ثم عرفوني بزملاتهم » . ثم قصوا عليه قصتهم منذ أن تركهم ستانلي حتى استشهاد فضل المولى وحلولهم بتلك المنطقة حيث اتخذ قائدهم البكباشي أحمد أفندي على معسكره على التلال . ووجد ترستن فرصته وقال لهم أن الكابتن بايرث قد أخطأ عندما رسم تحركاتهم في هذه الجهة ، لأننا تدخل في أملاك إنجلترا ، وهو والحالة هذه لا يسمح لقوة مسلحة يظلمها علم أجنبي أن يقيم في هذه الأرض ، اللهم إلا إذا انتظوا في سلك الجندية في خدمة بريطانيا . واتفق الطرفان على أن يرجع كل منهما إلى رئيسه : فذهب ترستن لاستشارة كولفيل ، كما رجع الضباط إلى البكباشي أحمد على وكان في ذلك الوقت على رأس البلوك المعسكر في الجبال (٢) .

ولو نزلت على كولفيل مائدة من الماء ، لما شعر بالسعادة التي شعر بها عندما أنهى إليه ترستن بالحبر ؛ فإن من شأن الحصول على بقايا رجال فضل المولى أن يضم قوة جديدة إلى قوة الجهادية الموجودة بقيادة سليم مطر وبذلك يتقدم نفوذ إنجلترا في محبتها الجديدة ويسهل تحقيق الآمال العريضة التي ينشدها الانجليز في وادي النيل . وتسلم ترستن في عودته إلى الجهادية بكل ما يمهده له طريق التجاح في مهمته . فصحب معه اليوزباشي السوداني ربحان أفندي راشد وهو ممن جندهم لوجارد في المرة السابقة . وذلك لتيسير مهمة التفاهم مع الجهادية

نظراً لكونه من الشخصيات المحبوبة المحترمة لديهم . كما أخذ معه طربوشاً وعلامات الرتبة التي كان قد حازها في الجيش المصري وبراعة تلك الرتبة وذلك بالإضافة إلى علم مصرى وآخر بريطانى .

وعندما وصل الرجلان إلى معسكر الجهادية استقبلا بالتشريفات المعتادة واجتمعوا بالبكباشى أحمد على بحث الشروط . وكان ثرستن قد درس شخصية أحمد على عن طريق المعلومات التي زوده بها ربحان فلم أنه مستبد صلب الرأى يسيطر على جنوده ويتصرف فهم كالأولاد . فضلاً عن ولائه العميق لمصر والحكومة المصرية ، شأنه في ذلك شأن بقية الجهادية . كما لاحظ ثرستن أن الجنود شديداً التعلق برأيانهم المصرية ، فقد كانت الرايات المصرية تفوق في عددها عدد الرايات البلجيكية .

من أجل ذلك عول ثرستن على فراسته ولباقته وقوة حجته أكثر مما عول على أى شيء آخر . وبأدب إلى رفع علم مصرى بجانب العلم البريطانى أمام خيمته ، ثم خلع قبعته ووضع طربوشاً فوق رأسه وأخرج من حقائبه برائة تعيينه ضابطاً في الجيش المصرى ووضعها في جيبه لاستخدامها في الوقت المناسب .

وقد ذكر ثرستن في مذكراته الخاصة نص الحوار الذى دار بينه وبين أحمد على ، واستخدم فيه الطريقة الأفلاطونية المعروفة في إقناعه بأن المنطقة التي يمسكون فيها ليست ملكاً للبلجيكيين ، وأن الحدوى لم يتنازل عن مديرية عموم خط الاستواء بل كلف الانجليز باحتلالها إلى أن يروق له استرجاعها . وهكذا زيف ثرستن الحقائق في سبيل الوصول إلى خداع الجهادية .

ثم راح في حوار الأفلاطونى يستدرج البكباشى أحمد على فوصل إلى أن كل « مسلم » في الدولة العثمانية يعتبر السلطان بمنزلة خليفة الرسول وإمام المسلمين ، فمن واجب « المسلم » أن يمثل لأوامر السلطان أو نائبه ، ولا يستجيب لأوامر ملك « نصرانى » ، وبذلك تصبح طاعة الأمراء فرضاً من فروض الاسلام . ولما كان « أفندينا » أحد هؤلاء فقد وجبت طاعته .

ولم يلبث ثرستن أن أخرج برائة تعيينه ضابطاً في الجيش المصرى وعليها بصمة الحدوى ووضعها على جيبه . ثم أعطاهما لأحمد على وقال له « اقرأ أوامر أفندينا واعمل بها » .



وأخذ أحمد على البراءة قفراًها وقيل الختم ثم وضعها على رأسه احتراماً لها ثم ناولها للكتاب  
فقرر أنها براءة حقيقية وقفل بها مثل ما فعل أحمد على (١) .

ولم تمض أيام قلائل حتى كان هؤلاء الجهادية في أوغندة يعملون إلى جانب جهادية  
سلم مطر في خلية العلم البريطاني .

وهكذا استطاعت إنجلترا أن تثرث مصر في قوتها الحربية في خط الاستواء بعد أن  
جددت لحسابها أورطى الجهادية من حامية مديرية عموم خط الاستواء المصرية .

\*\*\*

أن الجديد في الوثائق المستخدمة في هذا البحث هو توضيح التنافس المبرر بين كل من  
إنجلترا وألمانيا وبلجيكا وحكومة المهديّة في سبيل الحصول على أورطى الجهادية من حامية  
تلك المديرية وتفصيل الخدمات الهامة التي أداها رجالها في ظل العلم البريطاني والألماني  
والكونغولي ، فضلاً عن العلم المصري ورايات المهديّة ؛ حتى لقد أصبحت هذه الأورط  
العنود الفقري لجيوش تلك الدول في إفريقية .

كما كشفت الوثائق عن الوجه الحقيقي لحملة الاقتاذ التي جاء ستانلي على رأسها ؛  
لأن أحداث الفترة تدل على أن ستانلي كان يخفي تحت قناعه الأمريكي وجهاً إنجليزياً وآخر  
بلجيكي . وبين مصالح هؤلاء وهؤلاء ضاعت مصالح البقية الباقية من رجال الجهادية وضاعت  
مصالح مصر وحقوقها في خط الاستواء .

أن هذه الحقيقة تختم إعادة النظر فيما كتبه المؤرخون عن حملة الاقتاذ من حيث  
أهدافها ونتائجها .



( مطبعة جامعة القاهرة ٧٩٦/١٩٦٢/٤٥٠ )



JEAN PSICHARI : *Le Poète Solomos*. Paris 1908

JEAN PSICHARI : *Ernest Renan. Jugements et souvenirs* Paris 1925.

JEAN PSICHARI : *Grande grammaire scientifique du rométique*, 3 vols. Paris 1928-1931 (en grec).

EMMANUELROIDIS : *Oeuvres Complètes*. 6 vols, Athènes 1913 (en grec. La Correspondance avec Psichari seule est en français).

GEORGES THÉOTOKAS : *Remarques sur la Grèce moderne*. Dans *Permanence de la Grèce*. Les Cahiers du Sud. Paris 1948.

ALBERT THUMB : *La question du néo-grec* (Traduit de l'allemand par Leka ARVANITI (pseudonyme de Alexandre PALLIS) dans *Les Noix creuses*. Liverpool 1915 (en grec).

Cette révolution littéraire, avec ses violences inattendues, revêt un aspect unique dans les annales du XX<sup>ème</sup> siècle.

En Grèce, en France, rares sont ceux qui savent que le Psichari professeur d'université à Paris, le philologue français, le révolutionnaire grec, le gendre d'Ernest Renan, le père d'Ernest Psichari, sont une seule et même personne.

Synthèse étonnante et féconde d'où la littérature néo-grecque est sortie.

### Bibliographie

- LOUIS BRÉHIER : *La Civilisation byzantine*. Coll. « l'Evolution de l'Humanité » Paris 1950.
- KARL BRUGMAN : *Langue écrite et langue démotique ; la question linguistique en Grèce* (Traduit de l'allemand par Leka ARVANITI (pseudonyme de Alexandre PALLIS) dans *Les Noix creuses* ; Liverpool 1915. (en grec).
- Correspondance entre Emmanuel ROIDIS et Jean PSICHARI* dans Emmanuel ROIDIS : *Oeuvres Complètes*. Tome V. Athènes 1913-(en français).
- COSTA FLORIS : *Psichari et son oeuvre*. Le Caire 1916 (en grec).
- GROUPEMENT DÉMOTICISTE DU CAIRE : *Pour notre langue*. Le Caire 1916 (en grec)
- D. HESSELING : *Littérature grecque moderne* (traduit du hollandais). Paris 1924.
- HOMMAGE A JEAN PSICHARI : opuscule publié à l'occasion du 20<sup>ème</sup> anniversaire de sa mort, par l'Ecole des langues orientales vivantes. Paris 1950.
- A. KAMBANIS : *Histoire de la littérature grecque moderne*. Athènes 1948 (en grec).
- E. KRIARAS : *Psichari*. Salonique 1959 (en grec).
- HELLÉ LAMBRIDIS : *La Poésie grecque des cinquante dernières années*. Belgrade 1931.
- P. LASCARIS : *Rizos Neroulos. Les Korakistiques*. Paris 1923
- EMILE LEGRAND : *Grammaire grecque moderne*. Paris 1878
- ROBERT LEVESQUE : *Domaine grec* (1930-1946). Paris—Genève 1945.
- A. MEILLET : *Les langues de l'Europe nouvelle*. Paris 1928
- ANDRÉ MIRAMBEL : *La littérature grecque moderne*. Coll. « Que sais-je » Paris 1953.
- ANDRÉ MIRAMBEL : *Anthologie de la prose néo-hellénique*. Paris 1950 (en grec. Seuls l'avant-propos et l'introduction sont en français).
- CH. PILARINOS : *Notre diglossie*. Le Caire 1954. (en grec).
- JEAN PSICHARI : *Autour de la Grèce*. Paris 1887.
- JEAN PSICHARI : *Fleurs et Fruits* (Etudes et Polémiques) 6 vols. Athènes 1903-1909 (en grec).

Il vint et aussitôt ce fut la bagarre. Les grammairiens traditionalistes se hérissèrent, le camp tout entier des conservateurs rugit. Ce fut une levée générale de plumes et d'inchiostres, en attendant les pavés qui n'allaient pas tarder à pleuvoir de tous côtés. Psichari, lui, ne se tenait pas d'aise. Son rêve se réalisait. Il adorait provoquer le tumulte, foncer dans le tas, recevoir des injures et rendre les coups. « Est-ce que le combat aussi n'est pas ma destinée ? » écrira-t-il un jour au poète Eftaliotis. « Ma vie, mon ami, c'est la poésie et la guerre ». Et il donnait en plaisantant comme étymologie à son nom : Ψυχή καὶ Ἄρης = Ψυχάρης Ame et Mars. — « Poésie et Guerre, voilà ce qu'est Psichari », ajoute Stamatis Caratzas, qui nous rapporte le fait.

En cet an de grâce 1888, n'avait-il pas décrit, dans une page du livre explosif qui soulevait du coup tant de tempêtes, n'avait-il pas décrit, sur ce ton de plaisante ironie qui lui était coutumier, la bizarre nostalgie qui s'était soudainement emparée de son âme : « Il faut que j'aie vu les miens, voir Constantinople, Cio et Athènes ... Il est temps que je me dispute un peu avec mes compatriotes. Ici, en France où je vis, personne, jamais, ne s'est fâché ni brouillé avec moi, ni ne m'a gardé rancune, ni ne m'a, de ma vie, donné un coup de poing ... Pareille monotonie est-elle possible ? Je suis las de mon sort. J'embrasserai le premier qui m'insultera. Mon âme a soif de bagarres. Mon esprit ambitionne de grandes choses. Je veux de la gloire et des coups de poing ».

Il fut servi. Les coups lui furent prodigués sans avarice et la gloire l'attendait au bord du chemin.

\*

Enfant de la Méditerranée, berceau de l'Intelligence, Jean Psichari a ceci de particulier qu'il appartient à deux pays : la France et la Grèce.

A la France, sa patrie d'adoption, qu'il a chantée dans tous ses livres avec une émotion et une reconnaissance enchantées, il a donné ses fils, morts tous deux sur le champ de bataille, au cours du premier conflit mondial.

A la Grèce, sa patrie d'origine, il a consacré son oeuvre, son génie et sa vie.

En dehors du monde des spécialistes, peu de gens connaissent ce double aspect de la personnalité de Psichari, à la fois érudit français et écrivain grec.

En France, Jean Psichari est surtout connu par ses romans et ses souvenirs sur Renan. En Grèce, sa légende plane sur toute la littérature. Il fut l'auteur d'une révolution intellectuelle, la révolution démoticiste, qui ébranla jusqu'en ses fondements l'esprit de la nation grecque. Son mouvement, comme aux temps héroïques de Byzance, provoqua de graves émeutes et renversa un gouvernement.

Né en 1835, Emmanuel Roidis avait étudié à Gênes avant de se rendre en Allemagne, où il fréquenta l'Université. De retour à Athènes, il surprit ses compatriotes par son existence fastueuse de grand seigneur. De goûts très raffinés, doté de fortune et de loisirs, amateur d'ouvrages rares, il aimait l'escrime et les chevaux, collectionnait les livres précieux et les jolies femmes. Polyglotte remarquable, (il avait traduit, entre autres, *l'Histoire d'Angleterre* de Macaulay et *l'Itinéraire* de Chateaubriand), critique averti et pénétrant, c'était aussi un travailleur infatigable de la pensée et son savoir était encyclopédique. La parution du *Voyage* de Psichari le trouvera bien préparé pour entrer dans la lice aux côtés de son remuant cadet.

En 1867, il publia un ouvrage qui fit sensation et scandalisa les esprits austères et les âmes pieuses : *La Papesse Jeanne*. C'était une étude mettant en scène un personnage de légende qui avait exercé la sagacité des historiens pendant près de trois siècles. Nous nous étonnons aujourd'hui que ce faux problème ait fait couler tant de flots d'encre et gaspillé le temps et les forces de quatre générations d'intellectuels. Mais à l'époque où écrivait Roidis, le sujet était encore à la mode, ce qui explique que, dès sa parution, l'ouvrage ait été traduit en plusieurs langues, alors que le nom de l'auteur devenait célèbre aux quatre coins de l'Occident. (En 1907, quarante ans après l'anathème lancé par Barbey d'Aurevilly, ce sera le succès parisien avec l'adaptation d'Alfred Jarry et Jean Saltas).

Quoi qu'il en soit, la *Papesse Jeanne* est bien oubliée aujourd'hui—les nouvelles générations n'en connaissent plus guère que le titre—et la légende elle-même nous en paraît singulièrement démodée. Mais si ce livre a contribué à faire connaître un peu partout le nom d'Emmanuel Roidis, il est cependant complètement éclipsé par l'œuvre critique de ce dernier. C'est, en effet, grâce à ses autres travaux que l'auteur occupe la place qui lui revient dans le mouvement néo-hellénique contemporain. Après la célébrité du « roman historique », ce sera celle de la participation linguistique avec *Les Idoles*. Car bientôt va paraître au firmament des lettres grecques le fameux *Voyage* de Psichari, dont la publication sera saluée par les Vulgaristes comme l'apparition d'une météore. Et Roidis lui-même, pourtant si pondéré, s'enthousiasmera.

— « Salut à toi, Messie inconnu dont je suis le Précurseur, s'exclamait le nouveau venu dans une explosion de sarcasmes. Salut à toi. Tu viendras nous délivrer de la tyrannie des cuistres et enseigner sa vraie langue à notre peuple. Alors la Grèce vivra heureuse sous le règne de l'Esprit ».

Précurseur ? Que non pas. C'était le Messie lui-même qui arrivait pour donner la victoire à ceux qui l'attendaient. L'heure a sonné. Les temps sont révolus. Les disciples, extasiés, vont entonner un cantique d'espérance. Paix sur la terre aux hommes de bonne volonté. Enfin Psichari vint.



Pilarinos compte parmi les premiers et les plus savants adversaires de Psichari et l'un des derniers soutiens du purisme.

Korais mourut à Paris en avril 1833 (1). Sur sa tombe on grava cette épitaphe toute simple, dans la langue de sa patrie :

### ADAMANTIOS KORAIIS DE CIO

En la terre de Paris, étrangère mais aimée  
à l'égal de la terre de Grèce,  
Tu reposes

Deux noms domineront tout le XIX<sup>e</sup> siècle littéraire en Grèce : Emmanuel Roidis et Jean Psichari. Mentionnons cependant, à titre de curiosité, le poète Mavilis (né en 1860) qui, élu député, eut le courage—ou l'audace—de prononcer, en 1910, à la Chambre, le seul discours en faveur de la langue populaire qui ait jamais retenti dans son enceinte.

Emmanuel Roidis fut un écrivain puriste dont la renommée s'étendit rapidement hors des frontières de Grèce. A part un petit conte, d'ailleurs ravissant (Η Μηλιά), son oeuvre entière est en *Katharevoussa*, mais une *katharevoussa* admirable, car Roidis était à la fois un grammairien très érudit et un styliste dont l'éclat domine toute la production en langue savante de son siècle. Si nous lui faisons une place à part dans cette étude consacrée surtout à la réforme démoticiste, c'est à cause du très grand rôle qu'il joua dans le problème du bilinguisme aux temps héroïques de combats qu'entreprendra Jean Psichari. Roidis présente, en effet, cet étonnant paradoxe d'avoir été le premier puriste à prendre la défense des doctrines psicharistiques. Au milieu des passions qui se donneront libre cours tout au long de la mémorable querelle, il représentera le bon-sens, la fermeté, le sang-froid, l'équilibre. A l'heure où se déchaînera l'orage contre le révolutionnaire tonitruant qui, du haut de sa chaire à Paris (1), orchestrait le tumulte et jetait le désarroi dans les rangs des héritiers de la tradition phanariote, on le verra prendre courageusement parti pour le « rebelle » et brandir l'étendard de la nouvelle Ecole, tout en prêchant la sagesse et la modération.

---

(1) On doit à Korais des traductions de Théophraste, Hippocrate, Héliodore, Strabon, Xénophon, Plutarque, ainsi que de quelques écrits de Platon. Il publia, en outre, des livres de médecine : *La Clinique*, *Vade-Mecum du Praticien*, etc.

(1) Psichari était professeur à l'Ecole des langues orientales et à l'Ecole des Hautes-Etudes. Il avait épousé en premières noces la fille d'Ernest Renan.

aussi, parfois, les incertitudes d'une langue que des règles grammaticales définies n'étaient pas encore parvenues à fixer. Naturellement, sa doctrine ne pouvait plaire ni aux puristes ni aux démoticistes. Les uns et les autres l'accusaient de vouloir figer la langue, de lui ôter son âme et d'être, par son attitude hésitante et timorée qui ne se décidait pas à pencher carrément en faveur de l'un ou de l'autre système, l'artisan de l'existence, ou tout au moins du maintien de la diglossie que tous s'entendaient à condamner. Un érudit phanariote, Rizos Nézoulou, le prit même à partie dans une pièce qui était une mordante satire : Les Korakistiques (κορακιστικά) Le mot est passé dans la langue et signifie galimatias (1) Mais le doux et bon korais ne semble pas avoir été ému outre mesure par cette levée collective de boucliers. La sérénité de son âme et son humeur toujours égale lui permettaient de faire face à la bourrasque et d'attendre tranquillement que l'orage soit passé.

L'attitude extrémiste de ses détracteurs a été, une fois de plus, combattue récemment par Ch. Pilarinos. Dans un grand ouvrage posthume consacré au problème de la diglossie (Η Διγλωσσία μας, Le Caire 1954), cet auteur essaye de diminuer la responsabilité de Korais, tout en faisant ressortir ses erreurs dans la discussion d'un sujet où les susceptibilités exaspérées sont toujours prêtes à s'enflammer dès que quelqu'un s'y intéresse.

Il n'est pas équitable, écrit-il en substance, de blâmer et de maudire Korais en l'accusant d'être l'auteur de la diglossie, pas plus que d'exalter Psichari à l'égal d'un héros pour nous avoir délivrés de cette insupportable servitude. Certes, Korais s'est trompé. Il s'est trompé en ne s'étant pas attaqué à l'enseignement du grec ancien à l'école et à son usage dans l'Eglise ; il s'est trompé en refusant l'enrichissement de la langue par la transfusion d'un sang nouveau, soit l'introduction de mots turcs, arabes, italiens, etc. plus adaptés que les termes archaïques à la forme de son génie ; il s'est trompé enfin en favorisant, par son pédantisme inconséquent, l'éclosion d'une langue surnuméraire—la démotique—instrument inadéquat de la pensée scientifique et philosophique. Mais son péché capital demeure sa tolérance du grec ancien. « Qui donc a jamais osé redresser cette erreur de Korais que j'ai été le premier à dénoncer » ? s'écrie Pilarinos. « Ni Psichari, ni Pallis, ni aucun autre démoticiste n'ont, que je sache, en l'audace de proposer la suppression de cette cause fondamentale de la diglossie. Aucun puriste, non plus, n'a eu le courage de reconnaître le bien-fondé de mes assertions ou d'en démontrer la fausseté ».

---

(1) Il s'agit, en fait, d'un jeu de mots assez difficile à traduire. *Korakistika* serait quelque chose comme *Voltaireiana*, *Lamariniana*. *Korakistika*, avec la différence d'une seule lettre dans le corps du mot, la lettre *k*, signifie littéralement *Langage des Corbeaux*, c'est à dire *pathos*, *galimatias*.

prépare un essai personnel : *De la Peinture* ; Vincent Damodos s'attelle au grand Aristote ; enfin, Nicéphore Théotokis, avec des études d'apologétique chrétienne fait paraître des *Eléments de Géographie* et des *Eléments de Mathématiques*. Quand il mourut en 1800 avec le siècle, le branle était donné. Avec lui, peut-on dire, s'achèvent les premiers balbutiements de la démotique dans un domaine qui n'est plus celui de la pure littérature, et où la langue elle-même n'est déjà plus la première démotique. A ce tournant de son histoire, le problème de la diglossie évolue vers une nouvelle phase avec l'apparition de Korais.

\*

Honni par les uns, encensé par les autres, Adamantios Korais marque une date dans l'histoire des lettres grecques. Sa doctrine ? Se tenir sagement « à mi-ohemin entre l'archaïsme et le néo-hellénisme ». Il est bon, ajoutait-il encore, d'éviter les mots tirés du grec ancien, si la langue actuelle en possède des synonymes *sans racine étrangère*. Il fallait donc épurer le vocabulaire de tous les *Xénismes* qui le déparaient.

Contrairement à tant de ses compatriotes éduqués en Italie, Korais était, lui, de formation essentiellement française. Originaire de l'île de Cio, il avait étudié la médecine à Montpellier avant de venir s'établir à Paris où le surprit la Révolution de 1789.

« Coray (sic), écrit l'helléniste français Emile Egger, Coray, ce médecin philologue qui fit de la France sa seconde patrie et que sa modestie seule empêcha de mourir membre de l'Institut (1), fut vraiment un grand homme par la noblesse du caractère et par l'infatigable activité du talent. Il mériterait une biographie à la manière des biographies de Plutarque dont il a été l'habile éditeur. On a publié des lettres de lui, on va en publier d'autres encore, qui montrent combien la jeune école des savants littérateurs grecs le vénère avec raison comme un modèle de la science unie à la vertu ».

Très savant, en effet, éditeur d'oeuvres classiques qui lui donnent rang parmi les plus grands maîtres de la philologie de son temps, korais fut aussi le premier épistolier de la Grèce au XIX<sup>e</sup> siècle. Ce sont ses lettres qui ont donné sa valeur à la réforme qu'il préconisait. Son style dans ce genre atteint aisément l'élégante simplicité et la beauté des épîtres antiques. Mais il trahit

---

(1) C'est par modestie aussi qu'il déclina, à deux reprises, l'honneur d'une chaire de philologie au Collège de France. (Lettres à M. Lefèvre Gimau, administrateur du Collège de France, en date du 5 Décembre 1814 et à M. Boissonade, en date du 28 Mars 1816).

Citons enfin, pour clore ce chapitre des origines, le lexicographe français Du Cange, l'auteur du fameux dictionnaire de la moyenne et de la basse latinité (*Glossarium Mediae et infimae latinitatis*) qui, comme tant d'autres parmi ses contemporains, étudia la langue populaire codifiée notamment par Sophianos et Portius et composa aussi un *Glossarium Mediae et infimae graecitatis*. Il convient de souligner, toutefois, que le mouvement démoticiste en Grèce ne vise, pendant près d'un siècle, qu'à la création et à la propagation d'oeuvres édifiantes où le sentiment religieux occupe le premier rang.

Néanmoins, le clergé grec, très conservateur et hostile aux innovations, se tiendra toujours dédaigneusement à l'écart. L'Eglise orthodoxe, gardienne fidèle des traditions, l'était aussi de celle de la langue. C'est pourquoi, dès le début du XVII<sup>e</sup> siècle, quand certaines velléités modernistes commencèrent à se faire jour et que le Patriarche Kyrillos Loucaris (le Cyrille Lucar des historiens ecclésiastiques) préconisa la traduction des Evangiles en langue vulgaire, ne put-elle que condamner ces idées et mettre un frein à l'enthousiasme dangereux du novateur : hostilité comparable, en quelque sorte, à celle que connut la *Bible en français*, d'odeur calviniste, pendant tout le XVI<sup>e</sup> siècle, au pays de Marot et qui fit censurer par la Sorbonne les *Psaumes* traduits par l'aimable poète. Ce n'est que bien plus tard, aux environs de 1900, qu'un lettré grec osera braver l'ostracisme et entreprendre cette besogne périlleuse : Alexandre Pallis, un des premiers et des plus fougueux disciples de Psichari, partisan acharné de la démotique à outrance. Mais alors d'autres forces se déchaînèrent, provoquant de sanglantes émeutes et plongeant le pays dans l'anarchie.



Le XVIII<sup>e</sup> siècle se signale, de la part des écrivains, par un sérieux effort pour assouplir la langue afin de la plier à toutes les exigences de la littérature et, phénomène nouveau, de la pensée scientifique et philosophique. Petit à petit, l'esprit de l'Occident pénètre en Grèce par le canal de traductions dues à la plume de hardis réformateurs, tels Rigas Veleshtinis qui donne successivement *Les Amants délicats* de Restif de la Bretonne, *la Bergère des Alpes*, de Marmontel ainsi que plusieurs contes de Boccace. Notons, toutefois, que ces tendances ne constituent pas à proprement parler une nouveauté dans les annales littéraires à cette date. Déjà, au moyen-âge, certaines oeuvres étrangères comme le célèbre roman d'amour courtois *Floire et Blancheflor*, avaient eu les honneurs de l'adaptation dans la démotique archaisante de la période byzantine. Mais le véritable renouveau réside ici dans la composition ou la traduction d'oeuvres artistiques, philosophiques, au moyen d'un vocabulaire qui n'existe que dans la plus pure *katharevoussa*, à laquelle on emprunte certains de ses éléments, créant ainsi une langue « mixte » pour répondre aux besoins nouveaux de l'érudition. Ainsi, le peintre Panayotis Doxaras traduit Léonard de Vinci, en même temps qu'il

dès sa parution et en dépit d'une certaine absence d'homogénéité <sup>(1)</sup> et de tendances inspirées nettement de la tradition phanariote, attiré l'attention sur lui et le désignait comme un précurseur. Palamas, qui l'avait apprécié, à jugé l'oeuvre en ces termes :

« Je fus, écrit-il, fortement impressionné par le livre de Papadiamantopoulos, robe bariolée cousue de morceaux divers ... Quelques strophes françaises présageaient, quoique enfantines encore, la gloire future de Moréas. On y trouvait aussi des poèmes élégiaques décasyllabes du purisme le plus sévère, des chansons qui frémissaient d'un splendide élan charnel et qui embaumaient comme les sapins de la montagne. Mais de tout cet ensemble émergeaient des strophes dont le son pur et argentin était quelque chose de nouveau parmi les sérénades discordantes des poètes athéniens. On peut dire que dans le *Décembre* sensuel et impudique de Papadiamantopoulos et dans sa *Néride*, d'une si puissante intensité dramatique, se trouve le germe dont est issue la Muse néo-hellénique... cette muse qui vécut dix ans jusqu'au *Voyage* de Psichari ».

\*

Après la poésie la prose, dont la réforme date aussi du XVI<sup>e</sup> siècle et fut entreprise pour la première fois, systématiquement, par Nicolas Sophianos. Corfiote de culture italienne, ce dernier rêvait de doter son pays d'oeuvres accessibles à la majorité des Grecs. Il composa donc une grammaire (1534) et un dictionnaire du langage simplifié qu'il préconisait et traduisit en grec moderne certaines pages de Plutarque. Certes, sa langue est loin de ressembler à celle d'aujourd'hui et contient encore forcément bien des archaïsmes. Néanmoins, c'est à Sophianos que la Grèce est redevable de sa prise de conscience du problème de la langue et de son importance pour les futures générations.

Au XVII<sup>e</sup> siècle, on n'enregistre dans l'évolution linguistique aucun progrès notable. Relevons cependant un détail curieux et digne de remarque : à cette époque, la démotique trouve en France un partisan inattendu en la personne de ... Richelieu ! C'est, en effet, sur l'ordre du cardinal que le philosophe italien Simone Porzio, plus connu sous son nom latinisé de Portius, entreprend la rédaction d'une grammaire de la langue nouvelle (1638) et d'un dictionnaire latin-grec démotique.

---

(1) Par exemple, des poèmes en *Katharevousa* voisinaient avec d'autres écrits en démotique.

Trébizondios en 1428, Théodore de Gaza en 1430, Bessarion en 1437, Jean Lascaris et Dimitrios Chalcocondylis, qui furent les protégés de Laurent de Médicis et enfin, à la fin du XVe siècle, le Crétois Marcos Mouzourous (Marc Musurus), surnommé « l'Abeille de l'Hymette », célèbre à Padoue, à Venise, à Rome, l'ami d'Erasmus et d'Aldo Manuccio, qui devint cardinal et qui fut l'ancêtre de la comtesse de Noailles.

C'est vers cette même époque que le mouvement démotiste entreprit sa réforme de la poésie grecque. La période poétique de la démotique <sup>(1)</sup> part, en effet, vraisemblablement du XVIe siècle, pour atteindre son plein éclat au temps de la guerre d'indépendance (avant et après 1821). Elle fleurit dans l'Heptanèse <sup>(2)</sup> qui, ayant échappé au joug turc, demeurait ouvert aux courants venus de l'Occident. Soumises à Venise pendant plus de trois siècles, les Sept Îles en avaient profondément subi l'influence. Nombreux étaient les lettrés désireux de parfaire leur culture qui se rendaient à cette fin en Italie.

Le grand poète Dionisios Solomos, d'origine crétoise (1798-1857), l'auteur de l'hymne national grec que le compositeur grec Mantzaris allait mettre en musique, fut « le chef incontesté d'une pléiade de jeunes penseurs qui se groupaient autour de lui comme amis, imitateurs ou adeptes ». Il avait, comme tant d'autres, commencé par écrire en italien. A sa suite, des poètes, Heptanisiotes ou non, menèrent le bon combat pour le triomphe de la démotique ; mais il est vrai qu'à cette époque le problème de la langue, tout épineux qu'il fût, n'avait pas encore atteint l'acuité au'il devait connaître plus tard et l'on pouvait voir des écrivains démotistes, tel Valaoritis, par exemple, employer volontiers et sans répugnance, quand les circonstances l'exigeaient, le langage puriste, la *katharevoussa*. Ainsi fera un jour le grand Palamas lui-même, ce qui attirera sur lui les foudres de Psichari.

Néanmoins, l'un après l'autre, les poètes abandonnèrent définitivement l'usage de la *katharevoussa*. Ses derniers adeptes furent notamment Cléon Rangavis et Achille et Georges Paraskhos dont un romantisme, qui se prétendait héritier de Byron et de Musset, ne parvenait pas à réchauffer la glaciale poésie et explique mal la célébrité. Enfin, Jean Moréas. Il est vrai que ce dernier s'appelait alors Jean Papadiamantopoulos. Complètement inconnu en France, le futur auteur des *Syrtis* et des *Stances* s'exerçait encore, à cette époque, à rimer assez maladroitement en français. Par contre, ses premières armes dans les lettres grecques s'annonçaient brillantes. Un recueil de poèmes qu'il venait de publier sous le titre Τρυγόνες και Ψιπίνες (*Tourterelles et Vipères*) avait,

---

(1) Pour éviter toute confusion de termes avec le démotique égyptien, nous emploierons partout ce mot, ici, au féminin.

(2) On appelle ainsi les sept îles ioniennes : Corfou, Céphalonie, Ithaque, Paxi, Leucas, Zante, Cerigo.

A l'église, il avait déjà entendu le prêtre et le chantre parler un grec incompréhensible. A l'école, il apprit la prière du Seigneur. Il disait « psomi » pour demander du pain à sa mère, mais il apprit que le pain quotidien qu'on demande à Dieu, il faut l'appeler « artos ». Comme il obtenait parfois de sa mère un supplément de vrai pain et qu'il ne vit jamais le pain du Seigneur, il en conclut qu'il s'agissait peut-être d'un pain idéal, suprasubstantiel, symbolique. Il ne fut pas long à comprendre, et en ceci tous ses compatriotes ont le même sentiment, que le mot usuel est le seul qui obtient quelque chose d'utile, mais que seul le mot noble vous élève jusqu'aux régions de la pensée pure. Il en résulte un divorce définitif entre le monde des idées et le monde des besoins. S'exprimant par des mots différents, ces deux mondes ne se touchent jamais, chacun reste prisonnier de son propre moule. Les besoins et leur expression vivent, évoluent, s'adaptent aux nécessités ambiantes ; les idées, esclaves de leur expression immuable, restent en dehors de la vie courante. Aussi les besoins sont peut-être vulgaires, mais ils sont sobres et clairs. Les idées sont toujours sublimes, mais raides et froides. Pour les exprimer, le Grec s'embarrassera de formules créées au temps de Périclès. Il aura pour elles une admiration superstitieuse, mais il n'aura jamais avec elles cette affectueuse intimité qui est seule féconde. Ses besoins seront ardents. Tout ce qui s'exprime en langue usuelle : la bonne olive, l'huile un peu rance, la friture aux âpres relents, il ne les oubliera jamais. Son dévouement à sa mère et à sa soeur, il les poussera jusqu'au martyre, car les sentiments sont aussi du domaine de la langue usuelle. La liberté, l'égalité, la fraternité dont il discourt en langue classique, il les vantera avec grandiloquence, quitte à les trahir à la première occasion. Or le jeu de la politique se jouant en grec pur, il ne se sacrifiera jamais pour une idée sociale. Il en discourra pour le plaisir de façonner de pompeuses périodes, propices à la plus subtile dialectique, mais le jeu s'arrêtera là. Tant que les Grecs auront deux langues, tous se feront tuer pour un besoin et un sentiment, personne pour une idée ».

Nous laisserons à l'auteur l'entière responsabilité de ses opinions et du sel dont il les assaisonne ; mais ces lignes définissent très exactement le conflit qui a déchiré la Grèce pendant de longues années et qui en régit encore toute la littérature.

■

On appelle littérature grecque moderne la période de production qui couvre cinq siècles et qui va de la prise de Constantinople par les Turcs, en 1453, jusqu'à nos jours.

Peu avant cette date, des érudits hellènes s'étaient, on le sait, rendus en France, en Allemagne et surtout en Italie, où ils dispensaient un enseignement qui devait donner son caractère à l'humanisme de la Renaissance : Georges

dans tout l'Orient et remplaça l'araméen comme langue internationale. Syriens, Egyptiens, Arabes, Juifs l'adoptèrent. Un des vestiges les plus importants de cette langue qui fut celle de Lucien, de Plutarque et, plus tard, celle des Pères de l'Eglise, est la traduction de l'Ancien Testament connue sous le nom de *Bible des Septante*.

Mais la Κοινή elle-même, par suite de l'altération de la prononciation, de « la confusion des cas, de la négligence des conjugaisons » et de l'introduction de mots latins, italiens, turcs dans le vocabulaire, subit de profondes modifications et on la vit bientôt donner naissance à une langue qui, s'éloignant du grec ancien, du grec classique aussi bien que de la Κοινή même, eut tendance à les supplanter : c'était le parler populaire. Cet idiome particulier apparaît déjà sur certains papyrus du II<sup>e</sup> siècle. Nous avons aussi des preuves de ce mouvement linguistique dans un manuscrit daté de l'an 1081 et contenant des louanges du peuple de Constantinople à l'adresse de l'empereur Alexis Comnène. On comprend, toutefois, que cela n'alla pas sans entraîner une vigoureuse réaction de la part des lettrés respectueux de la tradition et partisans d'un purisme grammatical intransigeant. La Grèce se trouva, de ce fait, amenée à posséder deux langues ; l'une archaïsante, dite *katharevoussa* (καθαρεύουσα) ou langue puriste ; l'autre populaire, le néo-grec, baptisé *démotique* (δημοτική) ou encore *roméique* (ρωμαϊκή). Il y eut donc, dès cette lointaine époque, deux écoles opposées qui devaient devenir plus tard farouchement ennemies : celle des *Puristes* et celle des *Démoticiens* ou *Vulgaristes*. Le seul idéal que ces écoles eurent en commun fut leur extermination réciproque.

Dans une page amusante d'un roman paru en France et qui a connu, ces dernières années, un gros succès de librairie, l'écrivain grec C. P. Rodocanachi a effleuré le problème qu'il a résolu dans le sens ci selon les vœux des démoticistes <sup>(1)</sup>. Cette citation savoureuse aura l'avantage de nous introduire au cœur même du sujet.

« Pendant deux ans qu'il fréquenta l'école, il [ Ulysse fils d'Ulysse ] n'apprit qu'une vérité claire et indiscutable : c'est que tout objet a au moins deux noms : le nom romain ou vulgaire et le nom classique ou noble. Il savait déjà que l'oeuf s'appelle « avgo ». Il apprit qu'on devait l'appeler « oon ». Quand il répéta ce mot à sa grand-mère, elle le prit pour une injure et lui dit qu'il était un petit impertinent.

---

(1) C. P. RODOCANACHI : *Ulysse fils d'Ulysse*. Paris, Corrèa, 1954. p. 9.



« La *progonoplexie*, poursuit le même auteur, s'était fixé pour but de forcer le peuple à parler coûte que coûte la langue des grands ancêtres, tout au moins, disait-on, la langue de Xénophon ». C'était là l'unique moyen de rétablir la continuité, « que l'on croyait accidentellement interrompue », entre les anciens et les modernes.

Cette tendance prit toute son ampleur surtout après la guerre d'Indépendance (vers 1830), grâce à l'influence prépondérante des *Phanariotes*, aristocrates lettrés de Constantinople, si injustement traités par Pierre Loti (1). Ceux-ci, imbus de culture classique et de traditions ecclésiastiques, occupaient la plupart des fonctions officielles et leur autorité ne se trouvait jamais en défaut ; ils rêvaient d'un retour glorieux à l'atticisme, lequel consistait « à éviter dans le langage écrit les formes et le vocabulaire de l'usage parlé, et à imiter les auteurs anciens, surtout les Attiques ».

Tel est, on le verra, l'origine d'un conflit qui dure encore et qui a bouleversé la vie du peuple grec tout entier.

Dérivé de la *progonoplexie*, il existe, en effet, de nos jours, en Grèce, un problème dit de la *diglossie* (Διγλωσσία) ou du parler en deux langues. D'une complexité extrême, ce problème se trouve à la base de toute l'histoire de la littérature néo-grecque ; aussi allons-nous tenter d'en donner ici, pour la première fois, un aperçu sommaire.



Les conquêtes d'Alexandre-le-Grand avaient eu pour résultat l'établissement et l'expansion d'une langue dite Κοινή (la *koïnè* des hellénistes) ou langue commune qui, absorbant l'un après l'autre les dialectes dorien, éolien, ionien, ainsi que les divers parlars locaux de la Grèce, devint un facteur de civilisation

---

(1) A partir du XIII<sup>e</sup> siècle, le gouvernement du Sultan, soucieux d'utiliser les capacités des lettrés grecs qui n'avaient pas émigré, les désigna à des fonctions importantes dans l'Administration. Certains d'entre eux furent même nommés gouverneurs des provinces danubiennes de l'Empire. Il se créa, sous cette impulsion, une nouvelle aristocratie intellectuelle, celle des Phanariotes, ainsi baptisés du nom du quartier du Patriarcat (le Phanar), où se trouvaient leurs résidences. Ayant été pendant longtemps à peu près les seuls à demeurer en contact avec la Grèce continentale coupée de l'Occident, leur influence y fut immense. Ce n'est que plus tard, après le traité de Kainardji (1774) quand les relations avec la France et l'Italie furent rétablies, que des ouvrages sortis des presses viennoises, françaises, italiennes, pourront pénétrer à Athènes où ils seront traduits dans la langue érudite et châtiée des Phanariotes.

## BILINGUISME ET LITTÉRATURE NEO-GRECS<sup>(1)</sup>

### ORIGINE ET ÉVOLUTION

(De la Septante à Jean Psichari)

par

RENÉ K HOURY

---

Cet article traite du difficile problème de la diglossie en Grèce. Il l'étudie depuis les origines de la *koine* et en suit l'évolution jusqu'à la réforme révolutionnaire de Jean Psichari, à la fin du XIX<sup>ème</sup> siècle. L'auteur procède en même temps à une vue d'ensemble de la littérature néo-grecque, siècle par siècle, à travers les oeuvres et les écrivains les plus importants. Sujet nouveau et qui, à ma connaissance, n'a jamais été traité de cette manière auparavant, les études existantes s'étant occupées jusqu'ici soit d'histoire de la langue exclusivement, soit d'histoire littéraire. Dans le présent article, l'auteur s'est attaqué à une difficile synthèse et son travail constitue une intéressante contribution à l'ensemble des études grecques. Dr. Abdellatif Ahmed Aly.

Vers la fin du siècle dernier, la Grèce se trouva frappée d'un mal étrange, au nom barbare, que l'on ne trouve dans aucun dictionnaire médical, la *progonoplexie* ou *mal des ancêtres*. Cette maladie, explique plaisamment Georges Théotokas, consistait en cette obsession que « les Grecs modernes sont les descendants directs et purs des Grecs anciens et les continuateurs prédestinés de la grande tradition hellénique classique. « Point n'était donc besoin pour eux de s'occuper d'autre chose. Tous leurs efforts devaient tendre vers cette unique fin : revendiquer « en tant que Grecs, des droits à la reconnaissance et au respect des autres peuples du continent ».

---

(1) Cette étude est extraite d'un ouvrage consacré à Jean Psichari, en cours de préparation. Je tiens à remercier ici le grand écrivain grec Georges Théotokas, qui lut ces pages, m'encouragea à les publier et me fit l'amitié de corriger quelques erreurs de détail. Mes remerciements s'adressent aussi à mon érudit ami Th. Nicolopoulos qui, avec une complaisance inépuisable, me laissa piller sa bibliothèque et m'aida dans la révision du texte.

TRANSLATION : <sup>(179)</sup>(Now) look at me (*lit.* behold me) <sup>(180)</sup>after I reached land and after <sup>(181)</sup>I saw what I had experienced ! Listen <sup>(182)</sup>to [my speech] (?), for, behold, it is good for men to listen ! <sup>(183)</sup>Then he said to me : Do not (try to) be clever, <sup>(184)</sup>my friend (*i.e.* do not try to persuade me) ; for who is (going) to give water <sup>(185)</sup>to a bird at dawn to kill <sup>(186)</sup>it in the morning !

<sup>(186)</sup>ʔw-f pw h;ʔ-f <sup>(187)</sup>r phwy-fy mʔ gmyt m sh(w) <sup>(188)</sup>[n ʔswt] [m] (?) sh sh ʔkr n dbʔw-f <sup>(189)</sup>lmn-ʔ; s; Imny ʔnh wd; snb

TRANSLATION : <sup>(186)</sup>This (manuscript) agrees (= ʔw...mʔ) from its beginning <sup>(187)</sup>to its end with what has been found in the writings <sup>(188)</sup>of olden times in the manuscript of the scribe, excellent with (*lit.* because of) his fingers, <sup>(189)</sup>Ameno son of Ameny l.p.h.

TRANSLATION: <sup>(161)</sup> Then I placed myself on my belly, my arms having been bent in front of him. <sup>(162)</sup> Then he gave me a parcel of myrrh, spice, *iudēb*, <sup>(163)</sup> *khesayit*, *tisheps*, *shasch*, eye-paint, tails <sup>(164)</sup> of giraffes, a big heap of incense, tusks <sup>(165)</sup> of elephants, greyhounds, apes and all beautiful things. <sup>(166)</sup> Then I loaded them on this ship.

<sup>(166)</sup> hpr.n rdī.t-(ī) wī hr ht-ī <sup>(167)</sup> r dw; n-f ntr 'h'.n dd.n-f n-ī mk tw r spr r hnw <sup>(168)</sup> m lbd 2 mh-k knl-k m hrdw-k rpy-k <sup>(169)</sup> m hnw (r) krs.t-k 'h'.n h;l.kwī r mryt <sup>(170)</sup> m h;w dpt tn 'h'.n-ī hr i;š n mš' <sup>(171)</sup> nty m dpt tn rdī.n-ī hknw hr mryt n nb n lw pn <sup>(172)</sup> ntyw l'm-s (s written by mistake for f) r mitt lry n't pw lr(w).n-n m h'd <sup>(173)</sup> r hnw n lty spr.n-n hnw <sup>(174)</sup> hr lbd 2 mī ddt.n-f nbt 'h'.n 'k.kwī hr lty <sup>(175)</sup> ms n-ī n-f l'w pn ln(w).n-ī m hnw n lw pn <sup>(176)</sup> 'h'.n dw; n-f n-ī ntr hft-hr knbt t; r dr-f <sup>(177)</sup> rdī.kwī r šmsw (the words 'h'.n at the beginning of the line should be omitted) <sup>(178)</sup> s;h.kwī m <sup>(179)</sup> tpw-f

TRANSLATION: <sup>(166)</sup> It happened that I placed myself on my belly <sup>(167)</sup> to thank him. Then he said to me: Behold, thou shalt reach home <sup>(168)</sup> in two months and thou shalt fill thy bosom with thy children and thou shalt grow young again <sup>(169)</sup> at home until thou be buried. Then I, having gone down to the shore <sup>(170)</sup> in the neighbourhood of this ship, stood calling the people <sup>(171)</sup> that were in this ship. I gave praise on shore to the lord of this island <sup>(172)</sup> and its inhabitants as well. We sailed northwards to the residence of the Sovereign and arrived home <sup>(174)</sup> in two months (time) (Col. Arabic *حل شهرين*) according to all that he had said. Then I, having entered before the Sovereign, <sup>(175)</sup> brought him this tribute (or gift) which I brought from this island. <sup>(176)</sup> Then he thanked me before the magistrates of the entire land <sup>(177)</sup>, I having been appointed follower <sup>(178)</sup> and presented with serfs of his

<sup>(179)</sup> m; wī r <sup>(180)</sup> s; s'h-ī t; r s; <sup>(181)</sup> m;-ī dpt.n-ī s'dm rk <sup>(182)</sup> [n] (?) -ī mk nfr s'dm n rmtt <sup>(183)</sup> 'h'.n dd.n-f n-ī lr lkr <sup>(184)</sup> hams-ī l'n-m r dīt mw <sup>(185)</sup> [n ' ]pd h'd-t; n sft-f <sup>(186)</sup> dw;(w)

(149) 'h'.n sbt.-f 'im.-i m nn dd(w).n.-i m nf m 'ib.-f (150) dd.-f n.-i n wr  
n-k 'ntyw hprt' <m> nb sntr (151) 'nk 'is h'k' Pwnt 'ntyw n.-i 'im sw  
(152) hknw pf dd(w).n.-k 'n.t(w)-f bw pw wr n 'iw pn (153) hpr 'is 'wd-k  
tw r st tn nn sp (154) m'-'k 'w pn hpr m nwy

TRANSLATION : (149) Then he laughed at me and at that which I had  
said as being foolish as he thought (m 'ib.-f). (150) He said unto me :  
Thou dost not possess much myrrh although thou art already rich in  
incense ; (151) but I am the ruler of Puni and the myrrh I possess  
(much of) it. (152) That (famous) spice (hknw) which thou didst speak  
of bringing (lit. which thou said it would be brought), it is the main  
thing (bw pw wr) of this island. (153) It shall happen, when thou hast  
left this place (lit. when thou sunderest thyself from this place),  
that never (154) shalt thou see (lit. that it shall not pass that thou see)  
this island (again), it having already transformed into sea.

(154) 'h'.n dpt tf (155) 'i.ti m' srt.-n-f hnt 'h'.n.-i 'šm.kw' (the words  
'h'.n.-i 'šm.kw' were inserted by mistake) (156) rd'.'n(-i) w' hr ht k' š'  
n.-i ntyw m hnw-s (157) 'h'.n šm.kw' r sm't st gm.n.-i sw rh st (158) 'h'.n  
dd.-n-f n.-i snb.ti sp-2 nds r pr-k m'-'k (159) hrdw-k 'im' rn.-i (r) nfr m  
niwt-k mk hrt.-i (160) pw 'im-k

TRANSLATION : (154) Then, that ship (155) having come according to  
that which he foretold beforehand, (156) I placed myself on a high tree  
and could recognise those who were in it. (157) Then I, having gone to  
report it, found him having already known it. (158) Then he said to me :  
Fare thee well, fare thee well, little fellow, to thy home that thou  
may see (159) thy children. Place my name well in thy city. Behold,  
that is my due (160) from thee !

(161) 'h'.n rd'.'n(-i) w' hr ht.-i 'wy.-i 'h'm m b'h.-f (162) 'h'.n rd'.'n-f n.-i  
sbt m 'ntyw hknw 'wdnb (163) hš'yt t'šps š'-'sh mšdmt sdw (164) nw mmy  
mrryt 't nt sntr ndh'yt (165) nt 'bw tsmw gwfw kyw špas nb nfr  
(166) 'h'.n 'tp.n.-i st r dpt tn

(living) among them. Then I, already griefshot (*lit.* dead) on account of them, discovered <sup>(132)</sup> them in the form of one heap of corpses.

<sup>(132)</sup>ir kñn-k d;r ðb-k <sup>(133)</sup>mñ-k kñi-k m hrdw-k an-k <sup>(134)</sup>hmt-k  
mñ-k pr-k nfr et r ðt nbt <sup>(135)</sup>ph-k hnw wn(w).n-k im-f <sup>(136)</sup>m kjb n  
anw-k

TRANSLATION: <sup>(132)</sup>If thou art brave subdue thy heart (*i.e.* be patient) <sup>(133)</sup>and thou shalt (be able to) fill thy bosom with thy children and kiss <sup>(134)</sup>thy wife and see thy home. It is more beautiful than anything <sup>(135)</sup>that thou arrive the home wherein thou wast <sup>(136)</sup>amidst (*lit.* in the folds of) thy brethren.

<sup>(136)</sup>wn.k(w) rf <sup>(137)</sup>dm.kw (inserted by mistake) hr ðt-i dmi.n-i  
<sup>(138)</sup>s;tw m-b;h-f dd-i rf n-k (*sic, for* n-f) <sup>(139)</sup>sdd-i b;w-k n ðty di-i  
s;f <sup>(140)</sup>m ;k di-i in-tw n-k ðbi hknw <sup>(141)</sup>iwðnb h;yt snr n gsw-prw  
<sup>(142)</sup>shtpw ntr nb im-f sdd(-i) rf hprt <sup>(143)</sup>hr-i m m;t.n-i mb ;w-f  
(*sic, for* k) dw;-tw n-k ntr <sup>(144)</sup>m n'wt hft-hr knbt t; r dr-f sft-i <sup>(145)</sup>n-k  
k;w m sbi n sdt wñn.n-i n-k <sup>(146)</sup>pdw di-i in-t(w) n-k h'w ;tpw <sup>(147)</sup>hr  
šps nb n Kmt m' lrrt n ntr mrr <sup>(148)</sup>rm;t m t; w; n rñ sw rm;t

TRANSLATION: <sup>(136)</sup>Having been <sup>(137)</sup>on my belly I touched <sup>(138)</sup>the ground in his presence then said to him: <sup>(139)</sup>I will tell of thy might to the Sovereign and let him be acquainted <sup>(140)</sup>with thy greatness. I shall cause be brought to thee *ibi*, spice, <sup>(141)</sup>*iudenob*, *khesayit* and incense of the temples, <sup>(142)</sup>wherewith every god is made content. I will relate what happened <sup>(143)</sup>on account of me as part of what I have seen of thy might. God will be glorified on thy behalf <sup>(144)</sup>in the city in presence of the magistrates of the whole land. I will slay <sup>(145)</sup>for thee oxen for burnt-offering after I would have sacrificed for thee <sup>(146)</sup>geese. I will cause be sent for thee ships laden <sup>(147)</sup>with all the excellent things of Egypt, as is usually done to a god who loves <sup>(148)</sup>men (= the Egyptians), in a land far off which men knew not.

TRANSLATION: <sup>(113)</sup> Thereupon he said unto me: Fear not, fear not, <sup>(112)</sup> young fellow; let not thy face be anxious (?) (? i.e. do not worry) <sup>(113)</sup> now that thou hast come to me (*lit.* reached me). Behold, God hath caused <sup>(114)</sup> that thou live and brought thee to this island of the Ka, <sup>(115)</sup> wherein there is nothing missing, <sup>(116)</sup> it being full of all good things. <sup>(117)</sup> Behold, thou art to spend month after (*lit.* upon = plus), <sup>(118)</sup> month until thou completest 4 months <sup>(119)</sup> in the interior of this island <sup>(120)</sup> A ship will come from Home <sup>(121)</sup> wherein are sailors whom thou already knowest, <sup>(122)</sup> and thou shalt go with them home <sup>(123)</sup> and die in thy town.

<sup>(124)</sup> rāwy sdd dpt.n-f sn' lht mr <sup>(125)</sup> sdd-i rf n-k ml'tt ury hprw  
m iw pn <sup>(126)</sup> wn(w).n-i lm-f hn' snw-i hrdw <sup>(127)</sup> m kjb-sn

TRANSLATION: <sup>(124)</sup> How joyful is he who relates what he has experienced (*lit.* tasted) when something painful has passed I <sup>(125)</sup> On this account let me relate to thee something similar that took place in this island, <sup>(126)</sup> wherein I existed with my brethren with children <sup>(127)</sup> in their midst (*lit.* in their folds).

<sup>(127)</sup> km.n-n hf;w 75 m <sup>(128)</sup> maw-i hn' snw-i nn sb;-i n-k <sup>(129)</sup> stj  
ktt int n-i m sš;

TRANSLATION: <sup>(127)</sup> We numbered in all (*lit.* completed) 75 serpents, comprising <sup>(128)</sup> my children and (those of) my brethren—not to mention (*lit.* I shall not mention to thee) <sup>(129)</sup> a little daughter, who was brought to me by accident (*i.e.* unexpectedly).

<sup>(129)</sup> h'.n sb; <sup>(130)</sup> h;w pr.n n; m ht m'-f hpr.n rs nn w' hn'  
<sup>(131)</sup> ;m.n-f (*head of suffix f only written*) nn w' m hr-ib-sn 'h'.n-i  
mwtkw' n-sn gm-n-i <sup>(132)</sup> st m h;yt w't

TRANSLATION: <sup>(129)</sup> Then, a star <sup>(130)</sup> having fallen, these went out in fire by means of it. It happened, in respect of this, that I was not with <sup>(131)</sup> those whom it (*sc.* the star) had burnt as I had not been

pw h;'. kw' <sup>(90)</sup> r bi'w m wpwt <sup>(91)</sup> lty m dpt nt <sup>(92)</sup> mh 120 m ;w-s mh  
 40 m shw-s <sup>(93)</sup> skd 120 im-s <sup>(94)</sup> m stp n Kmt <sup>(95)</sup> m'-sn pt m'-sn t; <sup>(96)</sup> mk;  
 ;b-sn r m'w <sup>(97)</sup> sr-sn d' <sup>(98)</sup> n ;t-t-f nān; n hpr-t-f <sup>(99)</sup> w' im nb mk; ;b-f  
<sup>(100)</sup> nht 'f r snw-f nn <sup>(101)</sup> wh; m hr-'b-sn d' <sup>(102)</sup> pr iw-n m W;d-wr  
<sup>(103)</sup> tp-<sup>c</sup> s;h-n t; f;-(w) <sup>(104)</sup> (ht)-t;w ir-f whmyt nwyw <sup>(105)</sup> im-f nt mh 8  
 in ht-(t;w) h; <sup>(106)</sup> n-i s(y) 'h'.n dpt mwt <sup>(107)</sup> ntyw im-s n sp w'e  
 im <sup>(108)</sup> hr h-w-i mk w; r ga-k <sup>(109)</sup> in-kw; r iw pn <sup>(110)</sup> in w;w n W;d-wr  
 (the words 'h'.n at the beginning of the line are put there by mistake).

TRANSLATION: <sup>(91)</sup> He opened his mouth at me while I was <sup>(92)</sup> on  
 my belly in front of him. <sup>(93)</sup> And he said to me: Who is it that  
 brought thee, <sup>(94)</sup> young fellow? Who is it that brought thee to this  
 island <sup>(95)</sup> of the Deep Green Sea, whose two sides are in the water?  
<sup>(96)</sup> And I answered <sup>(97)</sup> (it) to him, my arms being bent <sup>(98)</sup> in front of  
 him, and said unto him: <sup>(99)</sup> Here I am, having gone down <sup>(100)</sup> to the  
 mine on an errand <sup>(101)</sup> of the Sovereign in a ship <sup>(102)</sup> 120 cubits in its  
 length and 40 cubits in its breadth, <sup>(103)</sup> there being in it 120 sailors  
<sup>(104)</sup> who were the choicest of Egypt. <sup>(105)</sup> Looked they at sky or looked  
 they at earth <sup>(106)</sup> their hearts were stronger than (those of) lions.  
<sup>(107)</sup> They could foretell a storm <sup>(108)</sup> before it came and a tempest before  
 it happened. <sup>(109)</sup> Each one of them, his heart was stouter <sup>(110)</sup> and his  
 arm was stronger than (that of) his fellow, and there was not <sup>(111)</sup> a fool  
 among them. A storm <sup>(112)</sup> broke out, as we were on the Deep Green  
 Sea, <sup>(113)</sup> before we had reached land. The mast was carried off. <sup>(114)</sup> [It  
 (sc. the storm) continued with waves <sup>(115)</sup> eight cubits (high) (surging)  
 in it. It was the mast that floated <sup>(116)</sup> itself on to me. Then, the ship,  
 those who were in it perished. <sup>(117)</sup> Not one of them remained <sup>(118)</sup> except  
 me (h-w-i = Arabic سواي). Behold me at thy side, <sup>(119)</sup> having been  
 brought to this island <sup>(120)</sup> by a wave of the Deep Green Sea!

<sup>(111)</sup> dd.in-f n-i m and m sp-2 <sup>(112)</sup> nds m ;tw hr-k <sup>(113)</sup> ph.n-k w;  
 mk ntr rdi.n-f <sup>(114)</sup> 'nh-k in.n-f tw r iw pn n k; <sup>(115)</sup> nn ntt nn st m  
 hnw-f <sup>(116)</sup> iw-f mh hr nftr nbt <sup>(117)</sup> mk tw r irt ibd hr <sup>(118)</sup> ibd r kmt-k  
 ibd 4 <sup>(119)</sup> m hnw n iw pn iw <sup>(120)</sup> dpt r iit m hnw <sup>(121)</sup> skdw im-s  
 rh.n-k <sup>(122)</sup> sm-k hn'-sn r hnw <sup>(123)</sup> mw-k m niwt-k



cubits. His body was overlaid<sup>(65)</sup> with gold, his eyebrows were<sup>(66)</sup> of real lapis lazuli. He coiled himself forward.

<sup>(67)</sup>lw wp.n-f r-f r-i lw-i <sup>(68)</sup>hr ht-i m-b;h-f <sup>(69)</sup>dd-f n-i nm in tw sp-2 nds<sup>(70)</sup> nm in tw ir wdf-k<sup>(71)</sup> m dd n-i in tw r lw pn <sup>(72)</sup>rdi-i rh-k tw iw-k m as <sup>(73)</sup>hpr.t(i) m nty m m;t(w)-f.

TRANSLATION: <sup>(67)</sup>He opened his mouth at me, I being <sup>(68)</sup>on my belly in front of him, <sup>(69)</sup>and he said to me: Who is it that brought thee, who is it that brought thee, young fellow? <sup>(70)</sup>Who is it that brought thee? If thou delayst<sup>(71)</sup> in telling me who hath brought thee to this island<sup>(72)</sup>, I will cause that thou discover thyself (i.e. realise thy true worth), thou being as ashes<sup>(73)</sup>, having changed into one unseen.

<sup>(73)</sup>lw mdw-k<sup>(74)</sup> n-i nn wi hr sdm-i<sup>(75)</sup> st iw-i m-b;h-k <sup>(76)</sup>hm.n-(i) wi

TRANSLATION: <sup>(73)</sup>(I answered): Thou<sup>(74)</sup> speakest unto me, and I do not understand (*lit.* hear)<sup>(75)</sup> it. I am in thy presence<sup>(76)</sup>; and I have forgotten (*lit.* ignored) myself.

<sup>(76)</sup>h'.n rdi-f wi <sup>(77)</sup>m r-f it;t-f wi r st-f <sup>(78)</sup>nt sdm w;h-f<sup>(79)</sup> wi nn dmlt-i <sup>(80)</sup>w;d;kw;i nn it;t im-i

TRANSLATION: <sup>(76)</sup>Then he placed me <sup>(77)</sup>in his mouth, and took me to his <sup>(78)</sup>den (*lit.* lying-place or place of comfort)<sup>(79)</sup>, and he placed me down without touching me, <sup>(80)</sup>I having been safe without anything being taken away from me.

<sup>(81)</sup>lw wp.n-f r-f r-i lw-i <sup>(82)</sup>hr ht-i m b;h-f <sup>(83)</sup>h'.n dd.n-f n-i nm in tw sp-2 <sup>(84)</sup>nds nm in tw r lw pn <sup>(85)</sup>n w;d-wr nty gs(wy)-fy m nwy <sup>(86)</sup>h'.n w;b.n-i <sup>(87)</sup>n-f st 'wy-i h;m <sup>(88)</sup>m b;h-f dd-i n-f <sup>(89)</sup>ink

TRANSLATION: <sup>(37)</sup> Then, the ship, <sup>(38)</sup> those who were in it perished. No <sup>(39)</sup> one among them remained. Then I, having been cast on to <sup>(40)</sup> an island by a wave of the Deep Green Sea <sup>(41)</sup>, spent days lonely, <sup>(42)</sup> my heart being my companion. <sup>(43)</sup> Having spent nights in a hiding-place <sup>(44)</sup> of a wood, I enjoyed (*lit.* embraced) the shelter (*i.e.* I felt myself secure).

<sup>(45)</sup> 'h'.n dwn.n-i rdwy-i <sup>(46)</sup> r rh dīt-i m r-i <sup>(47)</sup> gm.n-i d;b l'rrt <sup>(48)</sup> 'm l'kt nbt špst <sup>(49)</sup> k;w m hn' nkwt <sup>(50)</sup> šspt m' lrt(w)-s rmw <sup>(51)</sup> 'm hn' 'pdw nn ntt <sup>(52)</sup> nn st m hnw-f 'h'.n <sup>(53)</sup> ss;n-(i) w' rdī.n-i r t; <sup>(54)</sup> n wr hr 'wy-i šd.t-i d; <sup>(55)</sup> šhpr.n-i ht l'r.n-i <sup>(56)</sup> sbi-n-šdt n ntrw

TRANSLATION: <sup>(45)</sup> Then I stretched forth my feet <sup>(46)</sup> in order to know what I should put into my mouth. <sup>(47)</sup> I found figs and grapes <sup>(48)</sup> there and all kinds of fine fruit (?). <sup>(49)</sup> There were *kaw*-fruit together with *nekut*-fruit and <sup>(50)</sup> cucumbers as if it were cultivated. Fishes <sup>(51)</sup> were in it as well as birds. There was nothing <sup>(52)</sup> which was not within it. Then <sup>(53)</sup> I satisfied myself, and left (*lit.* placed) upon the ground <sup>(54)</sup> because (it) was (too) much upon my arms (*i.e.* because I had too much to carry). When I took out a firestick, <sup>(55)</sup> I created fire, and made <sup>(56)</sup> a burnt-offering (= *όλοκαυτώματα* and Achmimic Coptic CBNCEIE) for the gods.

<sup>(56)</sup> 'h'.n sđm.n-i <sup>(57)</sup> hrw kri' lb.kwi <sup>(58)</sup> w;w pw <sup>(59)</sup> n W;d-wr htw hr gmgm <sup>(60)</sup> t; hr mnmn kf.n-i <sup>(61)</sup> hr-i gm.n-i hf;w <sup>(62)</sup> pw lw-f m 'lt nls<sup>w</sup> <sup>(63)</sup> mh 30 hbswt-f wr-s(y) <sup>(64)</sup> r mh 2 h'w-f šhrw <sup>(65)</sup> m nbw lnhwy-fy m hšbd <sup>(66)</sup> m; 'rk-(f) sw r hnt

TRANSLATION: <sup>(56)</sup> Then I heard <sup>(57)</sup> the sound of thunder, I having <sup>(58)</sup> before thought it was a wave <sup>(59)</sup> of the Deep Green Sea. Trees having broken <sup>(60)</sup> and the earth having quaked, I uncovered <sup>(61)</sup> my face and I found it was a serpent <sup>(62)</sup> on the point of coming. He was <sup>(63)</sup> 30 cubits (long) and his beard was longer <sup>(64)</sup> than two

to <sup>(16)</sup>the King, having thy wits (*lit.* heart) with thee, and (can) answer <sup>(17)</sup>without faltering. It is the mouth of man <sup>(18)</sup>that saveth him. It is his speech <sup>(19)</sup>that covereth the face for him (*i.e.* conceals his defects). <sup>(20)</sup>Act according to thy desire! <sup>(21)</sup>What thou hast related is painful!

<sup>(21)</sup> sḏd-i rf <sup>(22)</sup> n-k matt iri ḥpr m-'.i <sup>(23)</sup> ḏs- i šm.kwi r bl'w <sup>(24)</sup> n ity ḥi.kwi <sup>(25)</sup> r wḏ-wr m dpt <sup>(26)</sup> nt mh 120 m 'w-s mh 40 na šhw-s <sup>(27)</sup> sḏd 120 im-s <sup>(28)</sup> m stp n Kmt m'-sn <sup>(29)</sup> pt m'-sn tḏ mk' <sup>(30)</sup> ḥb-sn r m'w sr-sn <sup>(31)</sup> ḏ' n llt (-f) nḡni <sup>(32)</sup> n ḥpr.t-f

TRANSLATION: <sup>(21)</sup> I shall narrate <sup>(22)</sup> to thee the like thereof, that happened to me <sup>(23)</sup> myself, having gone to the mine <sup>(24)</sup> of the Sovereign and gone down <sup>(25)</sup> to the Deep Green Sea in a ship <sup>(26)</sup> 120 cubits in its length and 40 cubits in its breadth <sup>(27)</sup>, there being in it 120 sailors <sup>(28)</sup> who were the choicest of Egypt. Looked they <sup>(29)</sup> at sky or looked they at earth their hearts <sup>(30)</sup> were stouter than (those of) lions. They could foretell <sup>(31)</sup> a storm before it came and a tempest <sup>(32)</sup> before it happened.

<sup>(32)</sup> ḏ' pr <sup>(33)</sup> iw-n m wḏ-wr tp- ' <sup>(34)</sup> sḥ-n tḏ fi-t(w) (ḥt)-ḥw <sup>(35)</sup> ir-f whmyt nwyw <sup>(36)</sup> im-f nt mh 8 in ḥt- (ḥw) ḥḥ <sup>(37)</sup> n-i s(y)

TRANSLATION: <sup>(32)</sup> A storm having broken out, <sup>(33)</sup> while we were on the Deep Green Sea before <sup>(34)</sup> we reached land, the mast was carried off (= removed). <sup>(35)</sup> It (*sc.* the storm) continued with waves <sup>(36)</sup> eight cubits (high) (surging) in it. The mast floated (*ḥḥ*) itself on to me.

<sup>(37)</sup> ḥ'.n dpt <sup>(38)</sup> mwt ntyw im-s n sp <sup>(39)</sup> w' im 'h'.n-i rdi.kwi <sup>(40)</sup> r iw in w'w n Wḏ-wr <sup>(41)</sup> ir.n-i hrw.w w'.kwi <sup>(42)</sup> ḥb-i m anw-i sḏr.kwi <sup>(43)</sup> m ḥnw n k'p <sup>(44)</sup> n ḥt kn'.n-i šwyw <sup>(45)</sup>

# THE STORY OF THE SHIPWRECKED SAILOR\*

## TEXT AND TRANSLATION

BY

GIRGIS MATTHA

<sup>(1)</sup>dd in šmsw lkr wd; <sup>(2)</sup>ib-k h;ty-<sup>c</sup> mk ph.n-n <sup>(3)</sup>hnw šsp hrpw  
<sup>(4)</sup>h<sup>i</sup> mult h;tt rdi.ti<sup>\*\*\*</sup> <sup>(5)</sup>hr t; rdi hknw dw; nkr <sup>(6)</sup>s nb hr hpt suw-f  
<sup>(7)</sup>šwt-t-n i.ti <sup>(8)</sup>d.ti nn <sup>(9)</sup>nhw n mš-n ph.n-n <sup>(10)</sup>phwy W;w;t sni.n-n  
<sup>(11)</sup>Šnmwt mk rf n i-n <sup>(12)</sup>m htp t; n ph-n sw

TRANSLATION: <sup>(1)</sup>Thereupon\*\* the experienced follower said: May thy heart <sup>(2)</sup>prosper, Prince! Behold, we have reached <sup>(3)</sup>home! The mallet has been taken <sup>(4)</sup>and the mooring-post driven in, the prow-rope having already been placed<sup>\*\*\*</sup> <sup>(5)</sup>on land. Praise has been given and God glorified <sup>(6)</sup>while everyone embraced his comrade, <sup>(7)</sup>our crew having come (back) safe and sound without <sup>(8)</sup>loss in our company. We reached <sup>(9)</sup>the end of Wawat and passed by <sup>(10)</sup>Senmut. Behold us now that we have come <sup>(11)</sup>in peace! Our land, we have reached it!

<sup>(12)</sup>šdm rk n-l h;ty-<sup>c</sup> lmk šw <sup>(13)</sup>h;w i<sup>c</sup> tw lmi <sup>(14)</sup>mw hr db<sup>c</sup>w-k i;h  
wšb-k <sup>(15)</sup>wšd-t-k mdw-k n <sup>(16)</sup>nsw ib-k m-<sup>c</sup>-k wšb- <sup>(17)</sup>k nn nitit iw  
r n s <sup>(18)</sup>nhm-f sw lw mdw <sup>(19)</sup>-f dl-f šm n-f hr <sup>(20)</sup>ir rk m hrt lb-k  
swrd <sup>(21)</sup>pw dd.n-k

TRANSLATION: <sup>(12)</sup>Listen to me, Prince. I am one that is free from <sup>(13)</sup>exaggeration. Wash thyself and pour <sup>(14)</sup>water on thy fingers that thou (can) answer <sup>(15)</sup>when thou art addressed and (can) speak

\* Contained in *Papyrus Petersburg 1115*. For introduction, bibliography translation and notes cf. G. Lefebvre, *Romans et Contes Égyptiens*, Paris 1949, pp. 29-40.

The papyrus writes *t* for *tw*, *ti* and *g*; confuses *s'* with *s* and often omits the writing of the 1st person sing. suffix *i*.

\*\* This possibly shows that the papyrus did not originally begin here.

\*\*\* It would be more appropriate to call this 'qualitative absolute' instead of 'old perfective' or 'pseudoparticipe'.



# CONTENTS

## OF THE EUROPEAN SECTION

	PAGE
<b>GIRGIS MATTHEA</b>	
The Story of the Shipwrecked Sailor Text and Translation ... ..	1
<b>RENÉ KHOURY</b>	
Bilinguisme et Littérature Néo-Grecs. Origine et Évolution (de la Septante à Jean Psichari) ... ..	11

**The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin, Prof. M. H. El-Bakry, Faculty of Arts, Giza, Egypt.**

---

**Back numbers of this Bulletin are available  
at 30 P.T. for each Part.**

**BULLETIN**  
**OF**  
**THE FACULTY OF ARTS**



**VOL. XXI—PART I**

**MAY 1959**

**CAIRO UNIVERSITY PRESS**  
**1963**





**BULLETIN**  
**OF**  
**THE FACULTY OF ARTS**



**VOL. XXI—PART I**

**MAY 1959**

**CAIRO UNIVERSITY PRESS**  
**1963**

# مجلة كلية الآداب

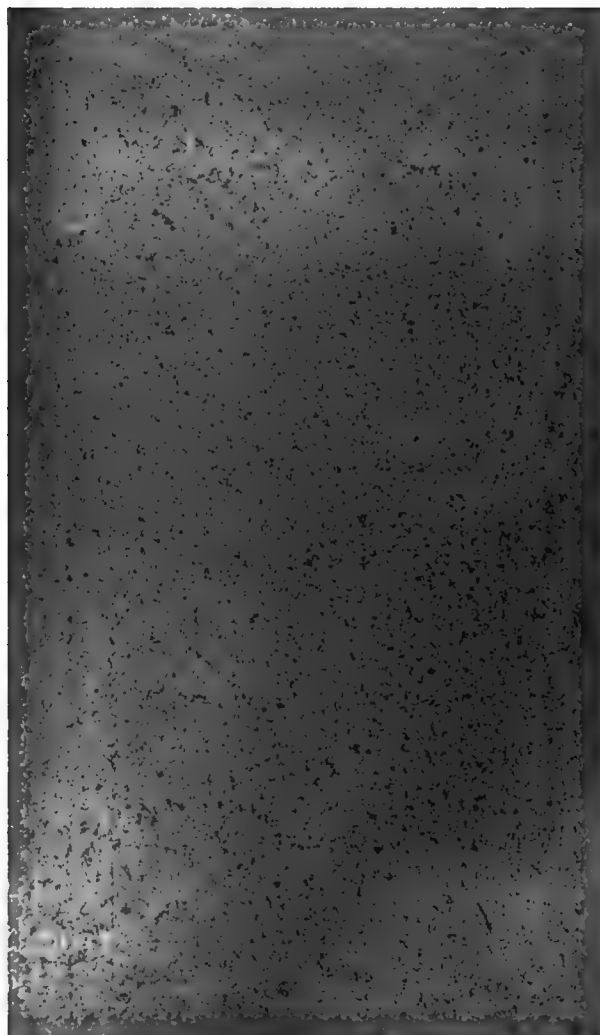


المجلد الحادي والعشرون — الجزء الثاني

ديسمبر سنة ١٩٥٩

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦١



# مَحَلَّة

# كُلِّيَّةُ الْأَدَابِ



المجلد الحادى والعشرون — الجزء الثانى

ديسمبر سنة ١٩٥٩

مطبعة جامعة القاهرة  
١٩٦٤

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، في مايو وديسمبر ، وتطلب من  
مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية  
العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور محمد حدى البكرى  
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وثمان الجزء الواحد من أى  
مجلد ثلاثون قرشا مصرية .

## فهرس القسم العربي

---

صفحة	
١	البجه والعرب في العصور الوسطى للدكتور مصطفى محمد مسعد
	الطباعة في مصر خلال الحملة الفرنسية ( ١٧٩٨ - ١٨٠١ ) للدكتور
٦١	خليل صابات . . . . .
١٠١	الهيئة في القانون الاثيوبي للدكتور عبد السميع محمد احمد . .
	وثيقة وقف سرور بن عبد الله الشبلي الجمدار ( دراسة ونشر وتحقيق
١٣٣	للدكتور عبد اللطيف ابراهيم . . . . .
	ضبط النيل والتوسع الزراعي في الجمهورية العربية المتحدة
١٧٥	للدكتور صلاح الدين علي الشامى . . . . .
٢١٥	الراى العام والحياة السياسية للدكتور حسنين عبد القادر .





## البُجَّة والعرب في العصور الوسطى

للككتور مصطفى محمد مسعر

كلية الآداب — جامعة القاهرة — فرع الخرطوم

عرف العرب في العصور الوسطى ، القبائل الحامية التي تسكن الصحراء الشرقية جنوبى مصر ، باسم البُجَّة<sup>(١)</sup> ، أو البُجَّاه . وتعد الأوطان الحالية لقبائل البجَّة من محافظة أسوان في الشمال إلى الأطراف الشمالية لمحافظة الحبشة في الجنوب ، ومن البحر الأحمر في الشرق إلى النيل الأعظم ونهر أتبرا في الغرب . وتمثل هذه الأراضى الوطن الأصلى لقبائل البجَّة من أقدم العصور . غير أن بعض هذه القبائل ، كانت تنقل خلال تاريخها الطويل ناحية الغرب ، أو ناحية الشمال مؤقتاً ، ثم لم تلبث بعدها أن تعود إلى أوطانها الأصلية<sup>(٢)</sup> . وحدد المؤلفون العرب أوطان البجَّة تحديداً واضحاً ، ومن ذلك قول الإدريسي<sup>(٣)</sup> : « وتجاور أرض الحبشة من جهة الشمال أرض البجَّة ، وهى بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد »<sup>(٤)</sup>

تبلغ مساحة أوطان البجَّة في الوقت الحاضر حوالى ١١٠.٠٠٠ ميل مربع ، موزعة بين مصر والسودان وإرتريا . وتصف هذه الأوطان بصفات جغرافية خاصة ، منشؤها اختلاف ظروف البيئة الطبيعية فيها ، وإن غلبت على معظمها الصفة الصحراوية . ولعل أبرز ظاهرة تضاريسية فيها ، امتداد سلاسل جبال البحر الأحمر في حلقات متصلة من الجنوب إلى الشمال ، فيما عدا مكان واحد يشقه خور بركة<sup>(٥)</sup> . ثم إن هذه السلاسل الجبلية تمتد في محاذة البحر الأحمر ، وقد تقرب منه أحيانا ، بحيث تكاد تشرف على مياهه ، وقد تبعد عنه

(١) يعرفون في الوقت الحاضر باسم البجَّة بكسر الباء .

(٢) سوف نعرض لهذا الموضوع في شيء من التفصيل بعد . أنظر ما يلى ، ص ١٤ — ١٨

(٣) الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، نشر دى خويه ، ص ٢٦

(٤) المقصود بأرض الصعيد هنا : أرض صعيد مصر .

(٥) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص ٢٣

أحياناً أخرى ، بحيث لا تترك إلا سهلاً ساحلياً ضيقاً يتحدر نحو البحر . وتنتهي المنحدرات الغربية لجبال البحر الأحمر إلى مناطق مهلة نسبياً ، وهذه تتحدر إنحداراً تدريجياً نحو نهر النيل .

ومع أن أوطان البجة يغلب عليها الجفاف بصفة عامة ، ولا سيما في الشمال ، حيث توجد صحراء العنبر وصحراء العتباى ، فإنها لا تخلو من بعض الأقاليم التى يفرز فيها النبات ، في بعض فصول السنة . مرجع ذلك ، اختلاف مواسم سقوط المطر ، فضلاً عن اختلاف كميته كثرة وقلة وعدمه ، من منطقة إلى أخرى . فالمرتفعات المنحدرة شرقاً ، وكذلك الجهات الساحلية مطرها شتوى ، أما المرتفعات التى تتحدر ناحية الغرب وما يليها في هذا الاتجاه فمطرها صيفي . وأعز هذه الأقاليم مطراً ، سهل البطانة ، بين النيل الأزرق والأتبرا<sup>(١)</sup> . فالبيئة البجاوية إذن ، بيئة تدعو إلى العزلة لقسوتها ، ولا سيما في الأقاليم الشمالية ، حيث يشتد الجذب ، وإن كانت الآبار والمراعى الفقيرة المتناثرة في بعض جهاتها ، تخفف قليلاً من وطأة هذه القسوة .

في هذه البيئة القاسية ، عاش البجة منذ أقدم العصور . ولا بد أن هذه البيئة صارت البجة وصارعوها ، حتى سلس لهم قيادها ، وطبعتهم هي كذلك بطابعها ، حتى أصبحوا عنصراً هاماً من عناصرها .

والبجة في الوقت الحاضر ، ينقسمون إلى أربع قبائل كبيرة هي : البشاريون في الشمال ، يليهم جنوباً الأمرار ، ثم المذننوه ، ثم بنى عامر ، ويمتد هؤلاء من طوكر في الشمال ، إلى داخل حدود إرتريا في الجنوب . فضلاً عن هذه القبائل الأربع الكبيرة ، توجد بعض القبائل الصغيرة ، مثل الأشراف والأرتيقا والكيبلااب والحانقا وغيرهم<sup>(٢)</sup> .

\*\*\*

مما لا شك فيه أن البجة من أقدم العناصر التى سكنت وادى النيل . وتفق آراء الباحثين ، على أن أسلاف أولئك البجة من الحاميين الذين عبروا البحر الأحمر من جزيرة العرب ، في زمن معرق في القدم ، واستقروا حيث تعيش سلالتهم في الوقت الحاضر ، وذلك منذ عثر المصريون القدماء وادى النيل في بلاد النوبة ومصر . ويرى سلجمان

( ١ ) المصدر السابق ، ص ٢٥

Hamilton, J. A. de C., ed : The Anglo Egyptian Sudan from Within. p, 140, ( ٢ )

أن أسلاف البجة والمصريين القدماء في عصر ما قبل الامرات من سلالة واحدة<sup>(١)</sup>. أن اختلاف طبيعة البيئة في كل من أوطان البجة ومصر، سلكت بكل منهما أسلوباً في الحياة غير مختلفاً عن الآخر. ويبدو الشبه أوضح ما يكون بين البجة، وبين المصريين القدماء، في شعبة بنى عامر، الذين يتحدثون لغة بحرى السامية، وهى اللغة التى أخذها أسلافهم عن الغزاة والفاحين من جنوب الجزيرة العربية. ولم يختلط أولئك الغزاة الساميون بالبجة المفتوحين مدة طويلة، فحافظ هؤلاء على صفاء جوهرهم، على حين أن بقية البجة من المهندنة وبنى عامر والأمراء والبشارين، تسربت إليهم دماء عربية، نتيجة التزاوج والاختلاط بالعناصر العربية، التى دخلت بلادهم من الشمال، عن طريق مصر، مما كان له أثره الواضح في تعديل صفاتهم الجثمانية، مع تمسكهم بعاداتهم وتقاليدهم الحامية ولغتهم البدائية<sup>(٢)</sup>. وعلى هذا فالبجة — فى رأى پول — شعب حامى سامى، ينقسم إلى مجموعتين رئيسيتين: إحداهما جنوبية حافظت على صفاء جوهرها الحامى، لفلة اختلاطها بالعناصر السامية، ولكنها أخذت عن الساميين لغتهم. وبمثل هؤلاء معظم بنى عامر. وثانيتهما شمالية، وهى أقل صفاء، لاختلاطها بالعرب، غير أنها تبدو في مظهرها أكثر تمسكاً بالعادات والتقاليد واللغة الحامية، وإن كان أفرادها يعرفون اللغة العربية، وبمثل هؤلاء بقية البجة<sup>(٣)</sup>.



من الضروري أن نشير هنا إلى أن المؤلفين العرب في العصور الوسطى، لم يكونوا أول من أطلق اسم البجة أو البجاه على سكان الصحراء الشرقية وما يليها جنوباً إلى أطراف الحبشة. فإن لهذه التسمية أصولاً تاريخية قديمة، وإن لم تكن ناجية ولا مطردة على مدى العصور. من ذلك مثلاً، أنه ورد في النصوص المصرية القديمة أن القائد المصرى أوفى، جند عسكرياً من رجال القبائل الجنوبية، من بينا قبيلة «مازوى» تقع ثورة في فلسطين، زمن الملك بينى الأول، وأن رجال هذه القبيلة أيضاً ساعدوا هذا القائد في حفر قناة وسط ضحور الجنند الأول، في عهد الملك مررع<sup>(٤)</sup>.

Seligman : « Some Aspects of the Hametic Problem in the Anglo Egyptian Sudan ( ١ )

J. R. A. S. No. 43, 1913, pp. 606-607.

Paul, A. : A History of the Beja Tribes of the Sudan, pp. 23-25. ( ٢ )

Ibid : op. cit. ( ٣ )

Weigall, A. E. P. : A Report on the Antiquities of Lower Nubia, p. 5. ( ٤ )

وجاء في النصوص المصرية القديمة ، التي ترجع إلى عهد الملك تحتمس الثالث ، أن قبيلة « بوكا » أو « بوكاك » ، من بين القبائل الجنوبية التي أخضعها المصريون لسلطانهم . ولعل هؤلاء هم الذين ورد ذكرهم في نقش أكسوم يرجع إلى القرن الرابع الميلادي باسم بوجايتاي "Bugaitae" (١) .

غير أن اسم البجة ورد صريحاً من غير تحريف على النقوش الأكسومية التي خلفها ملوك أكسوم ، منذ القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد . وبعض هذه النقوش تسجل انتصار أولئك الملوك على قبائل البجة وقمع حركاتهم . والبعض الآخر يتضمن ذكر ألقاب ملوك أكسوم ، والشعوب الخاضعة لهم ، ومن بينها قبائل البجة . ولعل أقدم هذه النقوش الأكسومية ، نقش عدول الذي يشير إلى انتصار أحد ملوك أكسوم على البجة (٢) .

وفي نقش خلفه عزيزانا ملك أكسوم تخليداً لانتصاره ، على مملكة مروى سنة ٣٥٦ م ورد اسم البجة ضمن الشعوب التي أحرز عليها هذا الملك نصراً ، وقبض على ملوكهم الستة (٣) . ويتضمن نقش آخر لهذا الملك ذكر الألقاب التي يحملها وهي « ملك أكسوم ، وحير ، وسبايو والبجة ، وكاسو (٤) ، ملك الملوك » (٥) .

وتمة أهمية خاصة لهذه النقوش ، ذلك بأنها تشير في كثير من المواضع إلى أوطان أولئك البجة ، وهي في مجملها تنطبق على الأوطان الحالية للبجة ، سواء في شمال الحبشة ، أو في جبال البحر الأحمر ، أو قرب نهر أثيرا ، أو في الصحراء الشرقية إلى حدود مصر الجنوبية . على أن ادعاء ملوك أكسوم السيطرة على البجة ، لا ينصرف إلى كل البجة ، بل إلى الجنوبيين منهم حتى قرب موضع سواكن الحالية ، وهي أقصى منطقة امتد إليها نفوذ دولة أكسوم شمالاً ، على حين أن بقية البجة ، كانوا خاضعين لنفوذ دولة مروى (٦) .

وفي الوقت الذي كان يطلق فيه على القبائل البدوية التي تسكن الأقاليم الواقعة بين النيل والبحر الأحمر جنوبي مصر — كلها أو بعضها — اسم « بجة » ، نرى الكتاب

( ١ ) Beckett, H. W. : The Archaeological Survey of Nubia, vol. II, 1907-8. pp. 360-367.

( ٢ ) Paul, A. : op. cit. pp. 44-45.

( ٣ ) Woolley—Maciver : Karanog, p. 88 ; Paul, A. : op. cit. p. 44.

( ٤ ) لعل المقصود بلفظ كاسو هنا كاش أو كوش ، وهي — وقتذاك — دولة مروى .

( ٥ ) Arkell, A. J. : A History of the Sudan, p. 172.

( ٦ ) Woolley—Maciver : op. cit. p. 88.

القدماء من اليونانيين والرومان يطلقون على هؤلاء اسم « بليمين » ( Blenny ) .  
وأول إشارة إلى أولئك البليمين وردت في مؤلفات الشاعر اليوناني ثيوقريت ، وقال إنهم  
يسكنون في أقصى الجنوب قرب منبع النيل ، بيد أن إراتوستيني الجغرافي اليوناني  
( ٢٧٦ — ١٩٦ ق م ) ذكر أن البليمين والميجاباريين يسكنون المنطقة السفلى من اثيوبيا ،  
وعلى طول النيل حول مروي ، وتمتد أوطانهم من النيل شرقاً إلى الصحراء الشرقية .

وتشير الوثائق الديموقراطية في العصر البطلمي ( القرن الثاني قبل الميلاد ) إلى وجود  
جماعات من البليمين في صعيد مصر . ويدعو أن أولئك البليمين من سلالة البليمين الذين  
انخرطوا في صفوف الجيش البطلمي . كما عثر على رسالة ، تشير إلى وجود مستعمرات بليمية ،  
قرب جزيرة فيلة <sup>(١)</sup> .

ويذكر سترابون ، أن النوبيين والبليمين يعيشون على الجانب الغربي للنيل ، وأن  
البليمين والميجاباريين يسكنون الناحية الشرقية من النيل جنوبى الشلال الأول ، وحول  
مدينة مروي ، ويمتدون شرقاً إلى البحر الأحمر <sup>(٢)</sup> .

وتزخر الوثائق ومؤلفات الكتاب القدماء من اليونان والرومان ، بأخبار الصراع  
المزمن بين الرومان في مصر وبين البليمين ، وقد استند هذا الصراع منذ القرن الثاني للميلاد ،  
حيث اتخذوا مابنة كلايشة بالنوبة السفلى عاصمة لهم <sup>(٣)</sup> غير أن هذه المنطقة لم  
تصبح الوطن الوحيد للبليمين وقتذاك ، بدليل أن المؤرخ اليوناني ألبينيودوروس  
( Olympiodorus ) زار جماعات البليمين في أرض النوبة السفلى ، دوديكاشينوس  
( Dodekaschoinos ) ، ثم زار بقية البليمين الذين يعيشون في الصحراء الشرقية ، حيث  
توجد مناجم الزمرد <sup>(٤)</sup> .

وأمم مصدر يشير إلى طرد البليمين من منطقة دوديكاشينوس في حوالي منتصف القرن  
السادس الميلادي قس الملك سلكو على جدران معبد كلايشة ، إذ حاربهم هذا الملك وطردهم  
إلى مواطنهم الأصلية في الصحراء الشرقية . يؤيد هذا قول المؤرخ الروماني بروكوبيوس ونفسه :

Kirwan, L. P. : The Oxford University Excavations at Firk, pp. 46-47. ( ١ )

Strabo : The Geography, vol. VIII, P. 7. ( ٢ )

Kirwan, L. P. : Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, XXIV, 1937, p. 76. ( ٣ )

Ibid : *op. cit.* ( ٤ )

« إن شذوياً كثيرة من بينا الباطيون والبليبين تعيش في المنطقة الممتدة من أكسوم إلى الحدود المصرية عند الفتتين ، بيد أن البليبين يسكنون الجهات الوسطى ، ويحل الباطيون ضفتي النيل <sup>(١)</sup> .

غير أننا لم نعد نسمع عن أولئك البليبين شيئاً بعد القرن السادس الميلادي . ومنذ الفتح العربي لمصر في القرن السابع الميلادي ، عاد إلى تلك القبائل البدوية اسمها القديم « البجاه » مما يدعونا إلى التساؤل ، ما مصدر تسميتهم بالبليبين في العصر البطلي الروماني في مصر ؟

إن ثم رأياً يقول ، إن البليبين في وادي النيل ، والبلا ( Bilma ) — الذين تعيش سلاطهم حالياً جنوبي فزان وإلى الشرق من جماعات التبو — شب واحد ، ومن سلاطة واحدة <sup>(٢)</sup> . بيد أن هذا الرأي لا يمكن قبوله لعدم وجود ما يدل على قيام علاقة بين هذين العنصرين . وعلى العكس من هذا فإن لدينا ما يثبت أن اسم « البجه » — وهو الاسم القديم لسكان الصحراء الشرقية — ظل يطلق على أولئك السكان أنفسهم ، في الوقت الذي كانوا يعرفون فيه لدى الكتاب الكلاسيكيين ، في العصرين البطلي والروماني في مصر باسم « بليبين » . من ذلك ما ورد في تاريخ حياة الأنبا شنودة رئيس رهبان دير بانوبوليس ( أخميم ) ، في منتصف القرن الخامس الميلادي وعلاجه بالبليبين ، إذ يشير النص المكتوب باللغة القبطية أواخر القرن السادس الميلادي إلى هؤلاء باسم ( Balnemowi ) ، ولما ترجم الأصل القبطي القديم ، الذي كتبه أحد تلاميذ الأنبا شنودة ، في القرن الخامس الميلادي إلى اللغة العربية ، في القرن الثالث عشر الميلادي ، حل لفظ « البجا » محل لفظ « بالنموى » وهم البليبين بطبيعة الحال <sup>(٣)</sup> .

فضلاً عن هذا ، فإن التاجر المصري كوزمس ( Cosmas ) ، تعرض لذكر سكان الصحراء الشرقية في كتابه الذي ألفه بين سنتي ٥٣٥ — ٥٤٧ م فذكر في موضع من كتابه أن « البجه » من سكان الصحراء الشرقية الذين أخضعهم بطليموس بن أرمينوى لسلطانه <sup>(٤)</sup> .

Procopius, History of the Wars, p. 185.

Beckett, H. w. : Arch. Sur. Nubia, II, 1907-1908, p. 367.

Kirwan, L. P. : op. cit. pp. 69-73.

MacCrindle, ed. : The Christian Topography of Cosmas, p. 62.

( ١ )

( ٢ )

( ٣ )

( ٤ )

وفي موضع آخر يقول : « إن الأحباش يحصلون على معدن الزمرد من البليبين ، ويبيعونه لتجار الهند مقابل الحصول منهم على المنسوجات الهندية الفاخرة » (١) .

يبدو أن اسم « البليبين » لم يكن عاماً شاملاً لجميع سكان الأقاليم التي يسكنها البجة في الوقت الحاضر ، وإنما انصرف فقط إلى شعبة أو أكثر من أولئك البجة ، ولا سيما القريين من الحدود الجنوبية لمصر ، وهم الذين سيطروا على مناجم الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية ، واحتلوا إقليم حوديكا شينوس في النوبة السفلى زمن الرومان في مصر . ومع هذا فإن هؤلاء كانوا ما يزالون يعرفون ، وتذكرك أيضاً ، باسم « البجة » ، كما سبق أن أوضحنا . أما بقية البجة ولا سيما الجنوبيون منهم ، فانهم احتفظوا باسمهم القديم الذي عرفوا به في النقوش الأكسومية .

والراجح أن البليبين هؤلاء طبقة أروستقراطية ، استطاعت بما لديها من خبرات آلية جديدة ، وصفات حربية ممتازة ، أن تسيطر على مجموعة كبيرة من البجة الشماليين ، مدة ثمانية قرون على الأقل ، وأن تستعين بهم على تحقيق مصالحها الاقتصادية والحربية التوسعية ، زمن البطالة والرومان . ولما تدخل سلطان هذه الطبقة الحاكمة في القرن السادس الميلادي عاد الاسم القديم « البجة » إلى هذه القبائل ، وبه عرفوا فيما بعد .

يبد أناسع في القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد ، عن وجود جماعة من « البليين » في الصحراء الشرقية ، ويصفون بصفات تشبه الصفات التي اشتهر بها البليبيون زمن الرومان ، فيقول الإدريسي « . . . وبين أرض النوبة وأرض البجة ، قوم رحالة يقال لهم البليون ، ولهم صرامة وعزم ، وكل من حولهم من الأمم يهادنونهم ، ويخافون ضرهم ، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية ، وكذلك جميع أهل بلاد النوبة والحبشة . . . » (٢) . ويقول الإدريسي في موضع آخر : « . . . وربما أغار على أطرافها (أي مدينة أسوان) ، خيل السودان المسمين بالبليين ، ويزعمون أنهم روم ، وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط ، وقبل ظهور الإسلام ، غير أنهم خوارج في النصارى يعاقبه ، وهم منتقلون فيما بين أرض البجة وأرض الحبشة ، ويتصلون ببلاد النوبة . وهم رحالة يتقلون ولا يقيمون بمكان ، مثل ما تفعله لمتونة الصحراء الذين هم بالمغرب الاتقي » (٣) .

Kirwan, L. P. : *op. cit.*, pp. 69-70.

( ١ )

( ٢ ) الإدريسي : نفس المصدر ، ص ٢٧

( ٣ ) المصدر السابق ، ص ٢١

ويصفهم ابن الوردي في القرن الرابع عشر الميلادي ، بصفات لا تخرج كثيراً عما ذكره عنهم الإدريسي ، ومنها قوله : « . . . وبين البجة والنوبة ، قوم يقال لهم البليون ، أهل عزم وشجاعة يهاجم كل من حولهم من الأمم ، ويهادوهم ، وهم نصارى خوارج على مذهب يعقوبية . . » (١) .

من هذه النصوص يمكننا أن نخرج بعدة حقائق منها :  
(أولاً) أن أولئك البليين من السودان ، وأن مواطنهم تقع بين بلاد النوبة ، وأوطان البجة ، وبلاد الحبشة .

(ثانياً) أنهم من البدو غير المستقرين .

(ثالثاً) أن فهم نزعة حربية ، وميلا للإغارة على جيرانهم .

(رابعا) أنهم على النصرانية التي اعتنقوها قبل ظهور الإسلام . ويبدو من تحديد أوطان أولئك البليين على هذه الصورة أنهم كانوا يعيشون في الصحراء الشرقية ، لكن وصفهم بأنهم من السودان ، يجعلنا نتساءل : من أي السودان هم ؟ هل هم من النوبة أو من البجة ؟ المعروف أن النوبيين شعب مستقر ، يمارسون الزراعة على ضفتي النيل ، على حين أن البجة بدو ، يمارسون حرفة الرعي (٢) . والراجع أن البليين هؤلاء من البجة ، لا من النوبة بدليل قول الإدريسي : « وهم رحالة يتقلون ولا يقيمون بمكان » . ولو صح هذا ، فإنهم ينسبون إلى البلييين الذين عرفهم البطالمة والرومان من قبل . وبمعنى آخر يمثلون الطبقة الأرستقراطية الحاكمة ، التي عرف بها البجة ، خلال هذين العصرين . يؤيد ذلك ، وصف البليين بأن فهم نزعة حربية ، وميلا إلى الحرب والإغارة على جيرانهم ، مثلما عرف عن أسلافهم البلييين زمن الرومان . يضاف إلى هذا أنهم ليسوا حديثي عهد بالهجرة إلى تلك الأوطان ، بل إن عهدهم بها قديم ، بدليل اعتناقهم المسيحية في أوطانهم هذه قبل ظهور الإسلام .

والراجع أن البليين الذين أشار إليهم كل من الإدريسي وابن الوردي في القرنين الثاني عشر والرابع عشر لليلاد ، هم بقايا البلييين (٣) ، الذين بسطوا سلطانهم على مجموعة

(١) ابن الوردي : كتاب خريدة السعائب ، نشر قورنبرج ، ص ١٧٠

Kirwan, L. P. : Firka, op. cit. p. 39.

(٢)

Kirwan, L. P. Liver. Ann. Arch. Anth. op. cit., pp. 69-75.

(٣)



من البجة الشماليين في العصر البطلمي ثم الروماني في مصر ، وكونوا طبقة حاكمة عرفوا بها أحيانا كثيرة . وإذا سلمنا بأن البليين من بقايا البليبيين القدماء ، وأن البليبيين هؤلاء كونوا طبقة حاكمة ، بسطت نفوذها على مجموعة كبيرة من البجة ، فهل يعنى هذا أن البليبيين وخلفاءهم البليين هم والبجة المحكومين من أصل واحد ومن سلالة واحدة ؟

ليس من الضروري أن يكون ذلك كذلك . ومن الجائز أن يكون لكل من هذين العنصرين نشأة مستقلة وأصل مختلف . غير أن هذا لا يعنى أن الحاكمين والمحكومين ظلوا طبقتين منفصلتين تماما ، بل لابد أن يكون هذان العنصران اختلطا ببعضهما عن طريق الزواج ، لا سيما إذا عرفنا أن الزواج كان وسيلة للتمسك بجماعة في بسط سلطاتها ونفوذها على جماعة أخرى ، عن طريق وراثة الأم ، وهو النظام السائد عند الجماعات الحامية ، ومن بينهم البجة بطبيعة الحال . ولابد أن هذا الاختلاط ، أدى إلى صبغ الطبقة الحاكمة وهم البليبيون بصبغة الجماعات المحكومة من البجة ، بدليل قول الإدريسي ، إن البليين « من السودان » . يبد أن هذه الصبغة السودانية ، وإن تناولت بعض الخصائص الجثمانية والعادات والتقاليد ، التي اكتسبوها عن البيئة البجاوية ، إلا أنها — فيما يبدو — لم تمس في كثير بعض الخصائص الثقافية ومظاهرها التي عرف بها البليبيون زمن الرومان ، ولا تلك التي ورثها سلالاتهم البليون زمن الإدريسي . ولعل أبرز ظاهرة ثقافية اخص بها أولئك البليون هي استخدامهم الخيول في الحرب ، بدليل قول الإدريسي في حديثه عن مدينة أسوان ونصه : « . . . وربما أغار على أطرافها خيل البليين . . » . والمعروف عن البجة أنهم ينفرون من الخيل <sup>(١)</sup> ، ولا يقبلون على تربيتها أو استخدامها . وليس لدينا — فيما أعلم — دليل على استخدام البجة للخيول وسيلة من وسائل الحرب أو النقل . فلم نثر على إشارة واحدة في كتب المؤلفين العرب أو غيرهم في العصور الوسطى ، على استخدام البجة للخيول ، إنما جل اعتمادهم على الإبل ، التي أبدوا براعة فائقة في تربيتها ، ومن ثم أنبلوا على اقتنائها حتى أضحت جزءا من حياتهم . وإذا كان من غير المعروف تماما ، متى بدأ البجة يربون الإبل ، فإن براعتهم فيها اليوم ، تدل على قدم عهدهم بها <sup>(٢)</sup> ، وأما دخول الخيل — إلى أوطان البجة — فيما يبدو — فكان أحدث نسبيا ،

Paul, A : op. cit. p. 67.

(١)

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشكلى ، ص ٣٠ - ٣١

واقصر اقتادوها على البليين سلالة البلييين ؛ مما يدعو إلى الاعتقاد أن دخول الحيول إلى أوطان البجة ، اقترن بظهور الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من البلييين ، ويعزز رأينا في أن الطبقة الحاكمة ، وهم البلييون ، والطبقة المحكومة ، وهم البجة ، من شعبين مختلفين . وإذ وضع لنا أن البجة من الحاميين ، فإلى أى السلالات إذن ينتسب البليون وأسلانهم البلييون ؟

الراجح أن هؤلاء وأولئك ، أى البليين والبلييين يرجعون إلى أصل عربى . ذلك أن عهد العرب بترية الحيول واستخدامها في الحرب وغيرها قديم جداً ، وإن كانت صلهم بالإبل وشهرتهم بها ، لا تقل عن شهرتهم باقتناء الخيل وقدم عهدهم بها كذلك . ونجد تأييداً للقول بأن البليين من العرب في مدلول لفظ بلييين أو بليين في اللغة التبادوية ، أى لغة البجة . ذلك أن البجة يطلقون على العرب في لغتهم التبادوية هذه اسم بلاوى Belawye . يقول الشيخ محمد إبراهيم مؤرخ الأمور : « إذا سألت بجاويًا : هل تعرف اللغة العربية ؟ فإنه يجيبك بقوله : بلاويت كاكان Balawit Kakan ، أى : إننى لا أعرف العربية » (١) .

وثمة ملحوظة هامة هنا هى أننا نسع ، في القرن السادس عشر الميلادى ، بوجود جماعة تدعى البلو Balloos تسكن شمالى الحبشة . وأول من أشار إلى أولئك البلو القسيس البرتغالى انشاز ، الذى زار الحبشة في السنة من ١٥٢٠ إلى ١٥٢٧ م ، وقال : « إن جماعة من العرب تدعى البلو ، يسكنون على حدود الحبشة ، ويجاورهم من الشمال النوبيون Nubii ، وهم على علاقة طيبة بملك الحبشة ويقدمون إليه إتاوة من الحيول . ويبدو أن أولئك البلو من بقايا البليين الذين أشار اليهم الإدريسي وابن الوردي ، وأن أولئك البليين انتقلوا في القرن الخامس عشر إلى الجنوب بعد أن اضطر نفوذهم في الشمال وأقاموا ، فيما هو معروف اليوم بأوطان بنى عامر ، مملكة عرفت وتلك باسم « مملكة البلو » واشتهر أولئك البلو دون سواهم من جاورهم من البجة والحبشة باستخدام الخيل وبراعتهم في تربيتها » (٢) .

والراجح أن اسم البليين أو البلييين ، ارتبط ثقافيا وفيلولوجيا بالأصل العربى . ومعنى هذا أن ثم علاقة كانت قائمة فعلا بين وادى النيل من ناحية وبين الجزيرة العربية من ناحية

Crawford, O. G. S. : The Fung Kingdom of Sennar p. 110.

( ١ )

Ibid. op. cit. pp. 111-112.

( ٢ )

أخرى على مدى العصور . وهذه ظاهرة تؤيدها الحقائق الجغرافية والروايات التاريخية . ذلك أن البحر الأحمر لم يكن حاجزاً يمنع الاتصال بين شواطئه الآسيوية العربية وشواطئه الأفريقية ، إذ لا يزيد اتساع هذا البحر على المائة والعشرين من الأميال عند السودان ، وليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة .

أما في الجنوب فيضيق البحر الأحمر ضيقاً واضحاً عند بورغاز باب المندب ، وهو الطريق الذي سلكته السلالات والاجناس إلى القارة الأفريقية منذ عشرات الآلاف من السنين <sup>(١)</sup> .

ولعل التجارة كانت أهم وسيلة لهذا الاتصال . إذ نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبان والذهب ، بين الجزيرة العربية من ناحية ، وبين موانئ مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى . واتخذ التجار العرب من بعض نقط على الساحل الأفريقي ، مراكز لهم يوغلون منها يسلمهم وبضائعهم في قلب القارة الأفريقية حتى وادي النيل على الأقل . وفي الألفية سنة قبل الميلاد ، هاجرت جماعات عربية من جنوب غرب الجزيرة العربية إلى الحبشة . وبلغت هذه الهجرات أقصاها ما بين ١٥٠٠ — ٣٠٠ ق م ، في عهد دولتي معين وسبأ . وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة في البحر الأحمر ، ووصلوا في توغاهم غرباً إلى وادي النيل ، ونشطت حركة التجار العرب خاصة زمن البطلمة والرومان . ولا شك أن عدداً غير قليل من هؤلاء استقروا في أجزاء مختلفة من حوض النيل ، وخلق بهم عدد من أقاربهم وأهلهم . وفي القرنين السابقين للميلاد ، عبر عدد غير قليل من الحميريين ( أهل اليمن ) ، مضيق باب المندب ، فاستقر بعضهم في الحبشة ، وتحرك بعضهم الآخر متبعين النيل الأزرق ونهر أنبرا ، ليصلوا عن هذا الطريق إلى بلاد النوبة .

وورد في القصص العربي القديم ، أنباء حملات عسكرية <sup>(٢)</sup> قام بها الحميريون في وادي النيل الأوسط وشمال أفريقية ، وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت في بلاد النوبة وأوطان البجة وشمال أفريقية . ومن الروايات العربية القديمة ، رواية أوردها ابن خلدون عن حملة قادها أبرهة ذي المنار بن ذي القرنين الحميري على السودان ، وبلاد النوبة ، وبلاد المغرب ، حوالي أوائل القرن الأول الميلادي . ويشهد برسفال

( ١ ) محمد عوض محمد : السودان ووادي النيل ، ص ٢٨

( ٢ ) MacMichael, H. A. : A History of the Arabs in the Sudan, vol. I, pp. 3-4.

إلى حملة قادها أبو مالك بن شهر يرضى الحميري إلى معادن الزمرد في أوطان البجة<sup>(١)</sup> . ويرى Reid أن هؤلاء الحميريين اختلطوا بالحامين سكان شرق السودان — وهم البجة — وورثوا ملك أجدادهم من ناحية الأم حسبما يقتضيه نظام التوريث المعروف عن الشعوب الحامية ، وهو توريث ابن الأخت أو ابن البنت . وعمن انتفع بهذا النظام الوراثي من العرب — جماعة من الحضارة ، سكان حضرموت — الذين عبروا البحر الأحمر إلى ساحله الأفريقي في القرن السادس الميلادي ، ثم اختلطوا بالبجة ، وكونوا طبقة حاكمة خضع لها هؤلاء البجة المعروفون بالزنافج ، وتعلموا لغتهم ، واعتنقوا المسيحية حتى يسهل عليهم قيادتهم والسيطرة عليهم . وعلى الرغم من أن عدد هذه الجماعات العربية المهاجرة إلى السودان لم يكن كبيراً ، فمما لا شك فيه أنها تركت بعض آثارها الثقافية فبين اختلطت بهم من الشعوب الحامية التي تسكن وادي النيل وفتناك .

أما الطريق الثمالي ، وهو طريق برزخ السويس ، فذو دور خطير في تاريخ العلاقات بين سكان الجزيرة العربية وسكان وادي النيل الأدنى ، منذ فجر التاريخ . ولم تخل الآثار المصرية القديمة من الإشارة إلى بنو سيناء وفلسطين وسوريا وغيرهم من العرب الشماليين الذين عرفهم مصر منذ عهد الأسرات الأولى ، إما تجاراً يخلطون إلى الأسواق المصرية أو غزاة كالهكسوس أو مهديين لمصالح الإمبراطورية المصرية في سوريا ، أو لاجئين يرغبون العيش في كنف الفراعنة . ومما يمكن من أمر هذه العلاقات ، فإنها طبعت اللغة المصرية القديمة بالطابع السامي . ولم تنقطع صلة هذه العناصر العربية بمصر زمن البطالمة والرومان كذلك . من ذلك ما يشير إليه سترابون ( ٦٦ — ٢٤ ق م ) ، وپليني ( حوالي ٧٠ م ) من تكثر العرب على أيامهما في أعالي صعيد مصر ، واشتغال هؤلاء بنقل المتاجر عبر الصحراء الشرقية ، فيما بين النيل والبحر الأحمر<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان من غير المعروف ، من أي قبائل العرب هؤلاء ، فالراجح أنهم أو معظمهم على الأقل من قبيلة بلي القحطانية . إذ المعروف أن قبائل بلي كانت تنزل سيناء ، وأن مواطنهم امتدت إلى برزخ السويس<sup>(٣)</sup> . وليس يبعد أن تكون جماعات منهم ،

(١) ابن خلدون : البر ، ج ١ ، ص ١٧٦

(٢) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ، ص ١٩٤

(٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ج ٤ ، ص ١٣٠

قد تجاوزوا إلى الصحراء الشرقية كما فعل الأنباط<sup>(١)</sup> . وقد تكون هجرتهم هذه سابقة للقرن الأول الميلادي أو القرن السابق له . إذ قد ترجع مطالع هذه الهجرة إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، حين بدأ اهتمام البطالمة بصجارة البحر الأحمر ، وإنشاء الموانئ على طول ساحله الأفريقي ، مثل برنيس ويطليومس ثيرون (موضع عقيق الحالية) ، وغيرها للحصول على السلع الأفريقية الضرورية كالبحور ومن الفيل وأصداف السلاحف والفيلة والعييد . على أنه ما كان ليم للبطالمة تحقيق مشروعاتهم التجارية في البحر الأحمر ، دون الاستعانة بالعناصر الوطنية في منطقة الظهير ، واستخدامها في صيد الفيلة ، ونقل المتاجر فيما بين النيل وموانئهم على البحر الأحمر . ولما كان من طبيعة الوطنيين من سكان منطقة الظهير — وهم البجة — النفور من كل غريب يهبط الساحل ، وعدم الاستجابة للبحر وما يجري فيه من نشاط ، كان من الضروري ، أن يلجأ البطالمة إلى استخدام عناصر أجنبية من مرتزقة اليونان ، وبعض الجماعات العربية ، ولا سيما من قبائل بلي ، للقيام بهذا العمل . ولا بد أنه أنيط بالجماعات العربية من بلي — وهم ذوو خبرة يشئون الصحراء — القيام بعمليات النقل البري ، والمحافظة على خطوط المواصلات بين النيل والبحر الأحمر<sup>(٢)</sup> ، ضد أى هجوم محتمل من جانب قبائل البجة ، وهى القبائل التى وصفت آنذاك بالتوحش والمهجنة<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن الجماعات العربية من بلي كانت من القوة والكثرة العديدة بحيث غدا اسمها في اللغة التبدلوية مرادفاً للفظ عرب أو عربى .

وعلى الرغم مما عرف عن أولئك البجة من النفور من كل غريب يطلأ بلادهم ، فقد أتبع للعناصر العربية من بلي أن تختلط بقبائل البجة ، ولا سيما الثباليين منهم ، وأن تبسط سلطانها على معظم هذه القبائل عن طريق الزواج ، وما يترتب عليه من حقوق حسبما يقضى بنظام وراثة الأم ، وبذا سلس ل قبيلة بلي قيادهم واستخدامهم في تحقيق أغراضهم السياسية التوسعية والاقتصادية كما سبق أن ذكرنا . وغدت هذه القبائل البجوية التى سيطرت عليها بلي تعرف عند اليونان والرومان باسم الطبقة الارستقراطية الحاكمة محرفاً إلى Blemmyes أى بليميين .

\*\*\*

(١) عبد الحميد مابدين : البيان والاعراب ، للمقرئى ، ص ٨٩

Cf. Pliny : Natural History, II, p. 463.

Paul, A. op. cit. PP. 34-35.

(٢)

(٣)

وإذا كان البطالة استطاعوا أن يستعينوا بأولئك البليبين كجنود في بعض فرق الجيش البطلي وسلاح الحدود وأدلاء وحرس للطرق التجارية عبر الصحراء الشرقية (١) ، فإن أولئك البليبين ، وتصد بهم هنا الطبقة الحاكمة ، لم يلبثوا أن أخذوا يعملون لمصلحتهم الخاصة بعد زوال الحكم البطلي في مصر . فالرومان الذين خلفوا البطالة في حكم مصر منذ سنة ٣٢ ق م ، لم يهتموا كثيراً باستغلال مناجم الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية كما كان يفعل البطالة من قبل . ثم إن الرومان انصرفوا عن تجارة البحر الأحمر ، ولم يهتموا بتأسيس مراكز تجارية على طول ساحله ، ولا رعاية المراكز التجارية التي أسسها البطالة من قبل ، إنما اتجه الرومان في سياستهم التجارية الجديدة ، إلى الحصول على منتجات الهند وشرق أفريقية ، واتزاع سيادة عرب جنوب الجزيرة العربية على البحار الجنوبية ، ولا سيما بعد أن وقفوا على مر استعمال دورة الرياح الموسمية في موسمي الشتاء والصيف ، والتعرف على قيمتها في الوصول إلى الهند والعودة منها . ثم أدى اهتمام الرومان بتجارة الهند وشرق أفريقيا ، وسهولة الحصول عليها ، وكفايتها لسد حاجة الرومان ، إلى تدهور المراكز البطلمية على ساحل البحر الأحمر الأفريقي ، وأدى بالتالي إلى تأثر الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من البليبين بهذا التحول . فقد حرم البليبيون من السيطرة على طرق التجارة البرية ، وخدمة المراكز التجارية على ساحل البحر الأحمر ، وهي أعمال يبدو أنها كانت شبه احتكار لهم . وبهذا فقد البليبيون مورداً هاماً من موارد ثروتهم وقوتهم .

على أن انصراف الرومان عن تجارة البحر الأحمر وموانئه البطلمية ، لا يعني — بحال من الأحوال — عدم اهتمامهم بتجارة حوض النيل الأوسط والأعلى وقلب أفريقيا ، بل حاولوا الحصول على هذه المنتجات عن طريق النيل والطرق البرية التي تصل مصر بالسودان . ولذا بدأ الرومان يسيطرون على إقليم دوديكاكينوس من أسوان إلى الخرقة « Hierosykaminos » ، وذلك لأهمية موقعه الاستراتيجي من ناحية ، وتحكمه في الطرق المؤدية إلى الأقاليم الجنوبية من ناحية أخرى . واعتمد الرومان في بسط نفوذهم على هذا الإقليم ، على حقهم الشرعي فيه باعتبارهم ورثة البطالة في حكم مصر (٢) . غير أن دولة

Griffith, FLL. Meroitic Studies, J. E. A. XV, 1929, p. 74.

(١)

Woolley—Maciver : Karanog, p. 85.

(٢)

مروى لم تعترف للرومان بهذا الحق ، كما لم تعترف بالحدود القديمة التي امتد إليها نفوذ البطالة من قبل . لكن الرومان استطاعوا أن يتغلبوا على محاولات دولة مروى لاسترداد هذا الإقليم أواخر القرن الأول قبل الميلاد ، وأوائل القرن الأول الميلادي ، كما استطاعوا أن يقبوا به حاميات عسكرية .

وفي منتصف القرن الأول الميلادي فكر الرومان في غزو بلاد كوش كلها ، ولذا أرسل الإمبراطور نيرون ( ٥٤ — ٦٨ م ) بعثة إلى بلاد كوش ، لاستطلاع أحوالها ، ووصلت البعثة جنوباً إلى إقليم السدود . ولما جاء تقرير هذه البعثة الرومانية تخيلاً لآمال الإمبراطور ، فإنه عدل عن مشروعه ، واكتفى الرومان بعد محاولة إيجاد علاقات تجارية بينهم وبين سكان حوض النيل الأوسط والأعلى . ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في تمسك الرومان بإقليم دوديكاثينوس ، وتعزيز حامياتهم العسكرية فيه ، فضلاً عن القيام بسلسلة من مشاريع التعبير التي يتطلبها هذا الإقليم . فاقاموا المعابد في جزيرة فيلة وفي كلا بشتة ، وكشفوا طريق القوافل القديم الذي يؤدي إلى إقليم كردفان ودارفور الغنيين بمواردهما الطبيعية ، كما أنشأوا معبداً في الواحة الخارجة . وبما لا شك فيه أن الرومان كانوا يهدفون ، من وراء هذا كله ، إلى قيام علاقات صداقة بينهم وبين القبائل التي تعيش في الغرب وفي الجنوب ، لتحقيق أغراضهم التجارية (١) .

غير أن هذه السياسة الرومانية الجديدة لم يقدّر لها النجاح تماماً بسبب موقف البليبيين العدائي من مشروعات الرومان في هذه الأقاليم ، وهي المشروعات التي أقدمت البليبيين ما كانوا يتعمون به في ظل الإدارة البطلمية ، ولذا أخذ أولئك البليبيون - الذين استقرت بعض شعبيهم في جهات التوبة السفلى جنوبى الخرقة منذ عهد البطالة - يشنون على الرومان حرباً لا هوادة فيها . ويظهر أن الحركات البليبية ضد الرومان ، اضططبت بصيغة قومية ، بدليل اشتراكهم في بعض الحركات القومية المصرية ضد الرومان سنة ٢٥٠ م . واتسعت دائرة هذه الحركات البليبية ، فشملت جهات طيبة وأسيوان . ومع أن الرومان استطاعوا التغلب على هذه الحركات المعادية لهم سنة ٢٨٠ م ، إلا أنه بدا لهم صعوبة الاحتفاظ بمنطقة دوديكاثينوس ، لاستمرار إغارات البليبيين (٢) .

( ١ ) مصطفى مسعد : الإسلام والتوبة في العصور الوسطى ، ص ٢٨

Woolley—Maciver : op. cit. P. 91.

( ٢ )

اتجهت سياسة الامبراطور دقلديانوس ، إلى التخلي عن إقليم دوديكاشينوس ، على أن يحل النباطيون الذين كانوا يزلون الواحة الخارجة ، محل الرومان في المنطقة التي انسحبوا منها ، ليقوموا بدور المنطقة الحاجزة " Buffer State " بين البليبيين في الجنوب وبين الرومان في الشمال . وقرر الامبراطور دقلديانوس للنباطين والبليبيين إتاحة سنوية ، على ألا يقوموا بعمل عدائي ضد الرومان . فضلاً عن ذلك ، فإن الامبراطور دقلديانوس ، رأى أن يستغل عاطفة البليبيين الدينية ، فأقام معبداً في جزيرة فيلة ، جمع فيه رموز عقائد البليبيين والنباطين والرومان ، ليدل على أن رابطة دينية تجمع بين الرومان وهذه القبائل ؛ وتذكرها باحترام موثقها (١) .

لا يعنى انسحاب الرومان من منطقة دوديكاشينوس ، أنهم تخلوا عن مشروعاتهم التجارية في قلب أفريقية ، بل حاولوا البحث عن حليف قوى ، والاعتماد عليه في الحصول على تجارة الشرق ( الهند والصين وشرق أفريقيا ) ، وفتح طريق التجارة إلى قلب أفريقيا . فاتجه الرومان إلى دولة أكسوم ، لتوثيق علاقاتهم بها ، واستغلالها في قمع حركات البليبيين والنوبا كذلك . وبدأت بوادر هذه السياسة على عهد الامبراطور أورليان ، واستمر اتصال التجار الرومان بدولة أكسوم ، حتى إذا كان عهد الامبراطور قنسططين الأكبر ( ٣١٣ - ٣٣٧ م ) ، ثم عقد معاهدة تجارية بين الرومان وملك أكسوم ، على يد التاجر الصوري فرومنتيوس (٢) . ثم اعتنق الملك عيزانا ملك أكسوم الديانة المسيحية سنة ٣٤٠ م ، على يد فرومنتيوس ، الذي عمده البطريرك أنطاسيوس أسقفاً لا أكسوم (٣) . ويبدو الفرض التجاري لمهمة فرومنتيوس واضحاً ، حين قام الملك عيزانا بحملته المشهورة على مملكة مروي في حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي ، وذلك لتأديب النوبا والبعج ( البليبيين ) ، الذين يغيرون على جيرائهم . وليس من المستبعد أن يكون هذا تم إيعاز من فرومنتيوس ، لفتح الطريق للتجارة إلى قلب حوض النيل من جديد (٤) .

غير أن هذه السياسة لم تفضح حداً لحركات البليبيين المعادية للرومان ، بل على العكس من هذا ، زادت حدتها . ذلك أن البليبيين الوثنيين — وقتذاك — بدأوا يحسون بالخطر

Ibid : op. cit. p. 92.

Trimingham, J. S. : Islam in the Sudan, P. 49.

Ibid : op. cit.

Bury, J. B. : History of the Later Roman Empire, II, p. 318.

( ١ )

( ٢ )

( ٣ )

( ٤ )



الزواج عن طريق أكسوم ، بعد اعتناق الملك عيزانا المسيحية ، وعن طريق مرسوم تاوداسيوس سنة ٣٨٥ م ، وهو المرسوم الذى قضى بإبطال جميع مظاهر الوثنية ، وجعل المسيحية الدين الرسمى فى الامبراطورية الرومانية . لذا بدأ البليميون سلسلة إغاراتهم على الأطراف الرومانية ، فاحتلوا معظم إقليم دوديكاثينوس ، وأغاروا على إقليم طيبة والواحة الخارجة سنة ٤٢٩ م <sup>(١)</sup> . وبدل اشترك النباطين مع البليميون فى الاعتداء على كنائس فيلة سنة ٤٤٥ م — وقد كانوا من قبل حماة هذه المنطقة — على أن هذين الشعبين أجمعا رأبهما على الوقوف فى وجه المسيحية أول الأمر <sup>(٢)</sup> . وإذا كان الرومان استطاعوا أن يرغموا النباطين والبليميون على الخلود إلى السكنية مدة مائة عام ، بعد هزيمتهم على يد القائد الرومانى مكسيمينوس ثم فلورس ، فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، إلا أن البهاج لهاتين القبيلتين بالهج إلى فيلة ، وحمل ثمال معبودتهم إيزيس إلى أوطانهم ، يحمل على الفتن أن الرومان لم يرغبوا حتى هذا الحين ( منتصف القرن الخامس الميلادى ) فى فرض المسيحية بالقوة على هؤلاء القوم .

وكيفما كان الأمر ، فإن البليميون والنباطين حافظوا من جانبهم على تنفيذ معاهدة الصلح التى عقبوها مع مكسيمينوس وفلورس ، وظلوا على ولائهم لمعبوداتهم بربايوس ومنوليس وخاصة إيزيس التى كانوا يحجون إلى معبدها فى فيلة كل عام <sup>(٣)</sup> .

ولعل ضخامة هذه المواكب ، وتجمعها كل عام فى قلب أسقفية فيلة وأسوان — حيث توجد الكنائس والأديرة المسيحية — أثار القلاقل من جديد مع قرب انتهاء أجل الهدنة ، لاسيما وأن النزاع بدأ يذب بين البليميون والنباطين <sup>(٤)</sup> .

رأى الامبراطور جستنيان (٥١٧—٥٦٥ م) ضرورة القضاء على العبادات الوثنية فى فيلة ، على أن يسبق هذه الحركة طرد البليميون من منطقة دوديكاثينوس ، لتحكمهم فى المسالك المؤدية إلى فيلة . وانبرى لهذه المهمة سلكو ملك النباطين الذى كان — فيما يبدو — على علاقة بالبزنطيين بفضل ثيودور أسقف فيلة وأسوان . وشن الملك سلكو على

Woolley—Maciver : *op. cit.*, p. 95

( ١ )

Emery, W. B. The Royal Tombs of Ballona and Qustul, vol I, p. 11

( ٢ )

Kirwan, L. P. *Liver. Ann. Arch. Anths.* XXIV, p. 88

( ٣ )

Beckett, H. W. : *Arch. Sur. Nubia, Report for 1907-8, II*, p. 365

( ٤ )

البليبيين حرباً شعواء سنة ٥٣٥ م<sup>(١)</sup> ، استطاع بعدها أن يطردهم إلى أوطانهم بالصحراء الشرقية ، كما يشهد بذلك المؤرخ المعاصر بروكويوس<sup>(٢)</sup> . وأدت هزيمة البليبيين على يد الملك سلكو ، إلى كسر شوكة الطبقة الحاكمة من البليبيين ، فذهب الانقسام في صفوفها ، وبذا زال خطرها .

\* \* \*

أما عن موقف البليبيين من الديانة المسيحية ، ولا سيما بعد أن غدت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية ، فالمعروف أنهم وقفوا منها أول الأمر موقفاً عدائياً ، وتمسكوا بعبادتهم الوثنية . ومن الدلائل على ذلك ، بردية معاصرة لأواخر عهد الإمبراطور تاودامسيوس الثاني ( ٤٠٨ — ٤٥٠ م ) إذ تخبر هذه البردية عن إغارة البليبيين على كنائس فيلة ، ولهذا القس أيون Appion أسقف أسوان والفتن من هذا الإمبراطور ، أن يكلف القائد الروماني الذي ترابط قواته في تلك المنطقة ، أن يحصى هذه الكنائس من إغاراتهم<sup>(٣)</sup> .

ومن تاريخ حياة الأنبا شنودة ، رئيس رهبان دير أخميم ، وأتواله ما يدل على مدى ما تعرض له المسيحيون في إقليم طيبة من شتائد وأهوال على أيدي البليبيين أوائل القرن الخامس الميلادي . فيذكر الأنبا شنودة : أن البليبيين كثيراً ما أغاروا على المسيحيين في إقليم طيبة وحرقوا كنائسهم ، واضطر أولئك المسيحيون إلى الالتجاء إلى دير بانوبوليس ، حيث ظلوا مدة ثلاثة شهور ، يقدم لهم الرهبان خلالها الطعام والشراب ، وكثيراً ما شرب الأنبا شنودة السيف في وجه البليبيين ، الذين كانوا يغيرون على دير أخميم . ونجح الأنبا شنودة في حماية الدير من هجماتهم ، بعد أن عجز الرومان عن صدهم . على أن الأنبا شنودة ، لم ينفد الأمل ، أحياناً في تنصير بعض أولئك البليبيين . فكثيراً ما تمنى أن يهلبهم الله سواء السبيل ، وأن يتبعوا الحق . ولقد أضاف الأنبا شنودة جماعة من البليبيين في دير أخميم في منتصف القرن الخامس الميلادي ، وقدم لهم ما تيسر أملاً في اجتذابهم إلى صفوف المسيحيين<sup>(٤)</sup> . ثم انتهت حياة هذا الراهب الكبير في إحدى المعارك التي نشبت بينه وبين بعض قبايلهم .

De Villard, Ugo, Monneret De : Storia della Nubria Cristiana, pp. 56-57. ( ١ )

Procopius : op. cit., p. 85. ( ٢ )

Emery : op. cit., p. 11. ( ٣ )

Kirwan L. P. : op. cit., p. 92. ( ٤ )

والواضح أن البيزنطيين ، زمن الامبراطور جستنيان ، كانوا يهدفون من إثارة الخلاف بين البليبيين الوثنيين ، وبين الباطنيين - الذين أخذت بعض فئاتهم تميل إلى المسيحية - إلى طرد البليبيين من إقليم دوديكانيسينوس ؛ لأنهم كانوا عقبة في سبيل تقدم المسيحية إلى بلاد النوبة ، على أن يجلو ذلك ، القضاء على مظاهر العبادة الوثنية في قيلة ، ومحاولة اجتذاب بعض فئات البليبيين إلى الديانة المسيحية . وبذا يتسنى للبيزنطيين السيطرة على أوطان البليبيين في الصحراء الشرقية ، وكسب ولائهم عن طريق الوحدة الدينية المسيحية الجديدة .

ينبؤ هذا الاتجاه البيزنطي الجديد واضحاً مما تشير إليه بعض الوثائق الخاصة بمنح البليبيين إقطاعاً في إقليم طيبة بمصر البيزنطية . فقد عثر على ثلاث وثائق مكتوبة باللغة اليونانية على رق غزال ، وربما ترجع هذه الوثائق إلى القرن السادس الميلادي . ففي الوثيقة الأولى : أن الملك البليبي شاراشن منح أولاده الثلاثة حكم جزيرة تنارى ، كما منحهم حق جباية الضرائب بها . ويلاحظ أن اسمي الشاهدين البليبيين على هذه الوثيقة ، يحملان علامة الصليب . وفي الوثيقة الثانية ، أصدر ملك بليبي آخر ، اسمه باكينس ، قراراً بحسين بواى « Poae » القسيس « Lepius » ، حكم جزيرة تنارى . وهذا القبط من الألقاب المعتادة في الوثائق المسيحية . وقد اقترن اسم الملك في هذه الوثيقة الثانية بعلامة الصليب ، مما يرجح اعتناق أولئك البليبيين في هذا الإقليم للديانة المسيحية . أما الوثيقة الثالثة ، فهي إيصال باستلام عشرة صلاحي (١) .

ينبؤ أن منح البليبيين إقطاعاً في الأرض المصرية كان جزءاً من سياسة البيزنطيين في البحر الأحمر للقضاء على نفوذ الحميريين التجاري في هذا البحر بالتعاون مع مملكة أكسوم المسيحية ، فضلاً عن إغراء البليبيين بالدخول في المسيحية والسيطرة على أوطانهم الممتدة جنوب شرق مصر إلى حدود أكسوم . ولهذا أرسل الامبراطور جوستن الثاني ، وبطريك الكنيسة المصرية تيموثاوس رسلاً إلى ملك أكسوم لهذا الغرض ، وهو حرب الحميريين . وفي رواية أخرى أن الامبراطور هدد بإرسال جيش من البليبيين والنوبيين لحرب الحميريين ، إذا تخاذلت مملكة أكسوم عن هذا الواجب المسيحي (٢) . ولا يبعد أن تكون جزيرة تنارى التي أقطعها الرومان لفريق من البليبيين ، تحملاً لحمايتهم للدولة البيزنطية ، وقبولهم الدعوة المسيحية .

Emery, W. B. : *op. cit.* p. 12; Kirwan, L.P. : *op. cit.* p. 87-91.

( ١ )

De Villard. U. M. De : *op. cit.* pp. 57-58.

( ٢ )

وما يدل على أن بعض البليبين اعتنق المسيحية ، ماجاء في بردية نشرها ماسبيرو ، وهي تشتمل على شكوى موجهة إلى حاكم طيبة البيزنطي فلافيوس ماريانوس « Flavius Marianus » ، ضد القيلارك في منطقة طيبة واسمه كلودوس « Kallothos » انهم فيها بتحريض البليبين على إعادة فتح معبد فيلة من جديد والارتداد عن الاعتقاد بوجود إله أنزلى والعودة إلى الوثنية « υπερεσφοντο » . والراجح من هذه الوثيقة أن فريقا من البليبين اعتنق الديانة المسيحية ، بعد إغلاق معبد فيلة الوثني سنة ٥٢٥ م ، وأن كلودوس أراد تحويلهم إلى الوثنية من جديد (١) .

ثم بدأت المرحلة الحاسمة من مراحل الدعوة للمسيحية في بلاد النوبة زمن الامبراطور جستينيان (٥١٧ - ٥٢٥ م) . ذلك أن هذا الامبراطور لم يقتنع بأن ينسب إليه القضاء على معانل الوثنية فحسب - كما فعل في فيلة ، عندما أغلق معبدها الوثني ، أو كما فعل في أثينا ، عندما أغلق المدرسة الفلسفية الوثنية بها - بل رغب كذلك في أن يدخل القبائل الوثنية على أطراف امبراطوريته في حظيرة الدولة البيزنطية . ولذا سعى هذا الامبراطور إلى اجتذاب البليبين والذريين إلى الديانة المسيحية ، ليتسنى له السيطرة على وادي النيل الأوسط . ووضح هذا الاتجاه السياسي عندما بدأت عملية التبشير الحقيقي ببلاد النوبة ، على يد رسل الكنيسة المصرية . وإذا كانت الكنيسة المصرية نجحت في تصير مملكتي نوباتيا وعلوة ، على أيدي رسولها يوليان ثم لونجينوس « Longenus » بمساعدة الامبراطورة ثيودورا (٢) ، فإن الملكانيين استطاعوا تحويل مملكة مقرة إلى المسيحية ، على المنهج الملكاني (٣) . ولذا اضطر القس لونجينوس - في رحلته من نوباتيا إلى علوة - أن يتجنب طريق مملكة مقرة ، لهداء ملكها الملك نوباتيا ، فملك طريق الصحراء الشرقية حيث يقطن البليبين . وفي ذلك يقول ملك النوبة ( نوباتيا ) في رسالة بعث بها إلى بطريرك ثيودور بطريرك الكنيسة المصرية : « ولكن بسبب المكيدة الخبيثة التي دبرها ذلك الذي يقيم بيننا ، فقد أرسلت أبي البار إلى ملك البليبين ليوصله إلى داخل البلاد » (٤) . وليس يعيد أن يكون القس لونجينوس عميد بعض زعماء البليبين أثناء مروره ببلادهم (٥) .

Kirwan, L. P. : *op. cit.* p. 89.

( ١ )

John of Ephesus : *Ecclesiastical History*. Book IV., part III, ed. by Payn Smith, pp. 254-258, 317-325.

( ٢ )

Kirwan, L. P. : *Firka*, p. 50.

( ٣ )

John of Ephesus : *op. cit.* p. 325.

( ٤ )

( ٥ ) مصطفى محمد : الاسلام والنوبة ، ص ٦٩

وكيفما كان الامر فإن الغالبية العظمى من سكان الصحراء الشرقية الأصليين ، وهم البجة ، ظلوا على وثنيهم ، باستثناء بعض جماعات من الطبقة الحاكمة في الأقاليم الشمالية المتاخمة لحدود مصر الجنوبية - وهم البليميون - الذين اعتنقوا المسيحية . وربما كان تعيين أسقف لبناء عيذاب في القرن السابع الميلادي ، كان المقصود به - فضلا عن رعاية المسيحيين الأجانب في هذه الميناء - الإشراف على الطقوس الدينية المسيحية عند البليميين كذلك<sup>(١)</sup>.

ومنذ القرن السابع الميلادي ، لم نعد نسمع شيئا عن أولئك البليميين الذين ظل اسمهم عاما على سكان الصحراء الشرقية ، ولا سيما في الشمال ، نحو عشرة قرون ، فعاد إلى سكانها الأصليين اسمهم القديم « البجة أو البجاه » ، وذلك باستثناء البقية الباقية من البليميين الذين أطلق عليهم زمن الإدريسي وابن الوردى اسم « البلمين » ، ووصفاهم بأنهم « نفسارى خوارج على مذهب اليعقوبية » . ويدل ظهور الاسم القديم لسكان الصحراء الشرقية من جديد، منذ القرن السابع الميلادي ، على ضعف الطبقة الحاكمة ، وتدهور نفوذها ، بعد طردهم من منطقة النوبة السفلى « حوديكا شينوس » على يد الملك سلكو حوالى سنة ٥٣٥ م .

\* \* \*

ولعل أول إشارة إلى البجاه في المراجع العربية ، بعد ظهور الإسلام ، وردت في كتاب فتوح مصر والإسكندرية للواقدي . فيذكر الواقدي أنه لما حاصر عمرو بن العاص مدينة بليس ، وكانت بها أرماتوسة ابنة المقوقس ، الحاكم البيزنطى في مصر ، أشار ذوو الرأى في مصر وقتذاك على المقوقس أن يرسل نجدة بيزنطية إلى مدينة بليس لا تقاذ ابنته ، ثم يطلب مساعدة ملك البجاه وملك النوبة وملك البرابر لحرب العرب وطردهم من مصر<sup>(٢)</sup>. ويذكر الواقدي في موضع آخر من كتابه : أن أرسطوليس حذر العرب من الطمع في مصر لأن البيزنطيين قوة يخشى بأسها ، وأنهم لا يحاربون وحدهم ، ولكن يحارب معهم عساكر النوبيين وعساكر البجاه ، الذين أرسل في طلبهم ، وهم في طريقهم إليه . ويضيف الواقدي أن أرسطوليس استنفرهم رجاله لقتال العرب ، وأخذ يطمئنه عن قرب وصول النجدة من النوبة وملك البجاه<sup>(٣)</sup> . غير أن الأخبار وردت من الجنوب بوقوع خلاف بين

Trimingham, J. S. : *op. cit.*

(١)

(٢) الواقدي : كتاب فتوح مصر والإسكندرية . نشر هنريك آرنه مقهر ، ص ٢٧

(٣) المصدر السابق ، ص ٦١

النوبيين والبيجاه « وأن أحدا منهم لا يبعث للملك أرسطوليس نجدة ، فصعب ذلك على الملك » (١) .

وإذا كانت المصادر العربية لم تشر إلى مساعدة النوبيين والبيجاه للبيزنطيين ضد العرب ، فإن ذكر اسم النوبة في عقد الصلح الذي عقد بين المقوقس ، وبين عمرو بن العاص ، وهو العقد المعروف بصلح عين شمس ، يدل على اشتراك النوبيين بصورة من الصور في القتال ضد العرب . فقد ورد في هذا الصلح : أن على النوبيين الذين يدخلون في صاوح مع المسلمين دفع كذا وكذا من الرؤوس ، وفتح بلادهم لتجارة الصادر والوارد » (٢) .

أما البيجاه فيبدو أنهم لم يستجيبوا لنداء البيزنطيين ، ولو أن جريفت يذكر : أن ملكهم اشترك مع ملك النوبة في تقديم ١٢٠٠ فيل محملة بالرجال المسلحين إلى حكام الصعيد الأعلى للدفاع عنه ضد العرب . غير أن عدم الإشارة إلى البيجاه في عقد الصلح يدل على عدم اشتراكهم في أى عمل حربي ضد العرب أثناء فتحهم لمصر (٣) .

إذا كانت أوطان البيجاه استقبلت بعض الجماعات العربية من جزيرة العرب ، قبل الإسلام ، عبر باب المندب ، أو عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق برزخ السويس ، وإذا كانت بعض هذه الجماعات العربية استطاعت — بفضل ما لديها من وسائل الغلبة العقلية والآلية الجليلة — أن تبسط سلطانها على فريق من البيجاه في العصر الروماني ، كما فعلت قبيلة بلي ، فإن أثر هذه الجماعات العربية فيمن اختلطت بهم من قبائل البيجاه ، كان ضئيلا بالقياس إلى أثر الهجرات العربية الكبرى ، التي شقت طريقها إلى وادي النيل ، من الشمال عن طريق مصر عقب ظهور الإسلام . وتعد حملة عمرو بن العاص على مصر سنة ٦٣٩ م . إحدى طلائع هذه الهجرات العربية الكبرى . فقد أخذت القبائل العربية المختلطة ، تهاجر مندثرة إلى مصر بانظام . وتعاقب الولاة على حكم مصر ، ولم يبرحوها إلى بلاد العرب ، كما أخذت قبائل بأكلها تنتشر في جهات القطر المصري المختلفة ، من الدلتا إلى أقصى جنوب الصعيد . وتشتمل هذه الهجرات على المجموعتين العربيتين : القحطانيين والمدنانيين . ومن القحطانيين : بنو جندام ، وطىء ، وبلي ، وجهينة ، ولخم .

(١) المصدر السابق ، ص ٦١

(٢) يتلر : فتح العرب لمصر . ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ص ٢٣٨

(٣) Griffith FLI : Pakhouras—Pakbaras—Faras, J. E. A. XI, 1925, p. 67.

ومن العدنانيين : كسنانة ، وقرش ، وقيس عيلان ، وقرارة ، وبنو هلال ، وبنو سليم ، وربيعة ، وبنو كثر . وإذا كان العرب ، في أول عهد الفتح ، لم يختلطوا بالمصريين ، فذلك لأنهم كانوا ما يزالون في شبه تجنيد عام ، ولهذا منعوا من امتلاك الأرض والاستغلال بالزراعة ، ثم لم يلبث هذا أن تغير ، بعد أن استتب لهم الأمر في مصر ؛ فاختلطوا بالسكان ، وتزوجوا منهم . غير أن عدداً كبيراً من القبائل العربية ، ظل محتفظاً بيداوته التي تعودها في البيئة الأصلية (١) .

اتجهت سياسة المسلمين ، منذ أن تم فتح مصر ، إلى بسط نفوذهم على ما يلي البلاد جنوباً ، وذلك جرياً على السياسة التقليدية التي حاول معظم ولاة مصر اتباعها ، للمحافظة على حدود مصر الجنوبية من ناحية ، وضمان سير التجارة بين مصر وبلاد السودان من ناحية أخرى . ولذا جرد العرب حملتين إلى بلاد النوبة ، الأولى سنة ٦٤١ م والثانية سنة ٦٥٢ م .

وعلى الرغم من أن العرب في محاولتهم غزو النوبة للمرة الثانية بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبي السرح ، دخلوا دققة العاصمة ، واستولوا عليها ، إلا أنهم لم يحتلوا بقواتهم ، كما فعلوا في مصر وغيرها من البلاد التي فضحوا ، ولم يطبقوا عليها القواعد الخاصة بمعاملة أهل البلاد التي تقتض عتوة . بل عقد القائد العربي مع النوبيين معاهدة عرفت في تاريخ العلاقات بين مصر والسودان في العصور الوسطى باسم « البقت » . وضمت هذه المعاهدة للمسلمين الإطمئنان على حدود مصر الجنوبية ، فضلاً عن الحصول على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الإسلامية ، وحفظ مصالح المسلمين وحرية الديانة في بلاد النوبة (٢) . ويدور أن العرب أدركوا ، منذ البداية ، أثر الاتصال البشري والثقافي الطبيعي بين مصر وهذه البلاد في تغذيتها بالدماء العربية ، ونشر الثقافة الإسلامية فيها ، فلم يهتموا باحتلالها . ولذا تمسك العرب من ناحيتهم بهذه المعاهدة ، فلم يسمحوا للنوبيين بمحاولة التخلص من تبعاتهم . إزاء الدولة الإسلامية . وعلى كل حال ، فإن هذه المعاهدة ، ظلت تمثل نوعاً من الاتصال الدائم بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية ما يقرب من ثمانية قرون .

\*\*\*

MacMichael, H.A. : *op. cit.* p. 160.

[ (١) ]

(٢) راجع عهد عبد الله بن سعد للنوبيين في المقرئى : المواضع والاعتبار ، طبع بولاق ،

أما عن تاريخ قبائل البجاء ، في العصر الإسلامي ، فيكتفه الغموض ، بسبب عدم اهتمام هذه القبائل البدوية بتدوين تاريخها من ناحية ، وعدم تعرض المؤلفين العرب لذكر تاريخها من ناحية أخرى . ومعظم ما وصل إلينا من معلومات عن هذه القبائل ، لا يعدو نقلاً قليلة وردت عرضاً في كتب المؤلفين العرب ، وبالقدر الذي يحتاجه شرح علاقة هذه القبائل بالدولة الإسلامية عامة ومصر بصفة خاصة . وقد يكون عدم اهتمام المؤلفين العرب بهذه القبائل - على قول ابن حوقل - راجع إلى أن « انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العبارات بالسياسة المستقبلية ، وهؤلاء (البجاء والزنج) مهملون في هذه المجال ، ولا حظ لهم في شيء من ذلك ، فيستحقوا أفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك (١) »

ويبدو عدم اهتمام العرب بهذه القبائل ، أول الأمر ، من عدم ورود نص عنها في عهد الصلاح الذي عقده عبد الله بن سعد للنوبيين سنة ٦٥٢ م . وربما كان مرجع ذلك - على قول ابن عبد الحكم - « عدم اكتراث عبد الله بن سعد بهم » (٢) . أو ربما كان مرجعه ما قرى في قوس العرب ، في المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإسلامي ، من أن ديار البجاء ليست بدار حرب (٣) ، شأنها في ذلك شأن بلاد الحبشة المتاخمة لبلادهم من ناحية الجنوب ، لأن الحبشة آوت الطليعة الأولى من المسلمين الذين هاجروا إليها زمن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكيفما كان الأمر ، فإن البجاء لم يلبثوا أن أغاروا على صعيد مصر حوالي سنة ٧٢٥ م ، فصالحهم عبيد الله بن الجحباب ، وكتب لهم عقداً ، يقضي بأن يدفع البجاء إلى ولاية مصر ثلاثمائة لمن الإبل الصغيرة ، على أن يجتازوا ريف مصر للتجارة دون الإقامة فيه ، وألا يقتلوا مسلماً أو ذمياً ، وألا يؤووا عبيد المسلمين ، وأن يردوا آبقهم إذا وقعوا في أيديهم ، ويظل وكيلهم في ريف مصر رهينة في أيدي المسلمين ، لضمان وفائهم بالتزاماتهم للدولة الإسلامية (٤) .

غير أنه لم يكد يمضي نحو قرن على هذه المعاهدة ، حتى عاد البجاء إلى شن الإغارات من جديد على جهة أسوان ، وكثر إنبائهم للمسلمين ، فرفع ولاية الأمور في أسوان ،

( ١ ) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، نشر كرامرز ، ص ٩

( ٢ ) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، نشر توري ، ص ١٨٩

( ٣ ) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٦

( ٤ ) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٩



خبرهم إلى الخليفة المأمون سنة ٢١٦ هـ (٨٤١ م) ، فجرد عليهم حملة بقيادة عبد الله ابن الجهم وكانت له معهم وقائع ، انتهت بمواعتهم وعقد صلح جديد بينه وبين ملكهم كئون بن عبد العزيز ، من شروطه (١) :

١ — أن يكون سهل بلاد البجة وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر ، إلى حد ما بين دهلك ( مصوع ) ، وباضع ( جزيرة الریح ) ملكاً للخليفة ، وأن كئون ابن عبد العزيز وأهل بلده من البجة عبيد لأمير المؤمنين ، على أن يبقى كئون ملكاً عليهم .  
٢ — أن يؤدي ملك البجة الخراج كل عام ، مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال .

٣ — أن يحترم البجة الإسلام ، ولا يذكره بسوء ، وألا يقتلوا مسلماً أو ذمياً ، حرّاً أو عبداً ، في أرض البجة ، أو في مصر ، أو في التوبة ، وألا يعبثوا أحداً على المسلمين .

٤ — إذا دخل أحد من المسلمين في بلاد البجة للتجارة أو الإقامة أو مجتازاً للبحر ، فهو آمن لآخر حدم .

٥ — إذا دخل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً ، لا يظهرهم صلاحاً ، ولا يدخلون المدن والقرى .

٦ — ألا يهجم البجة شيئاً من المساجد التي اقتناها المسلمون بصيحة وهجر .

٧ — على كئون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة ، لقبض صدقات من أسلم من البجة .

ومن الملاحظ هنا أن هذا العقد يختلف اختلافاً واضحاً عن العقد الذي كتبه عبد الله بن سعد اللويين : من ذلك أن عقد ابن الجهم ينص على أن بلاد البجة من حد أسوان إلى مصوع ، أضحت جزءاً من الدولة الإسلامية ، بدليل فرض الخراج . ثم إن النص يلزم البجة بعدم التعرض للمسلمين ، الذين يجتازون بلادهم للبحر أو التجارة أو الإقامة بأذى ، فضلاً عن حفظ المساجد القائمة فعلاً في بلاد البجة ، وجمع صدقات

( ١ ) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٥

من أسلم من البجة ، وفي ذلك دليل على أن الإسلام امتد إلى تلك الأقاليم ، وأن بعض المسلمين يقيمون بها كذلك . فكيف إذن شق الإسلام طريقه إلى هذه الأوطان ؟

يبدو أن جماعات عربية ، ولا سيما من بلي وجبنة نزحت إلى أوطان البجة للتجارة ، عقب الفتح العربي لمصر . وليس من المستبعد أن ينشر أفرادها الإسلام في نطاق ضيق ، بحيث شملت جماعات قليلة من البجة في منتصف القرن السابع الميلادي . ففي رواية لابن حوقل<sup>(١)</sup> ، أن أفراداً من البجة ، « أسلموا إسلام تكليف » ، وضبطوا بعض شرائط الإسلام ، وظاهروا بالشهادتين ، ودانوا ببعض الفرائض . ولذا صاحبهم عبد الله بن سعد ، ولم يحاربهم بعد عودته من حملته على دققة سنة ٣١ هـ ( ٦٥٢ م )<sup>(٢)</sup> .

وفي نهاية القرن السابع الميلادي ، عبرت جماعات من عرب هوازن البحر الأحمر ، واستقرت في أرض البجة ، حيث عرفوا باسم الخالقا ، ثم انتقلت إلى منطقة تاكة . ويرى بول Paul ، أن هؤلاء الخالقا ، كانوا أول من استقر من العرب المسلمين في الوطن البجاوي<sup>(٣)</sup> .

والمعروف أن هجرة الجماعات العربية المختلفة إلى أوطان البجة تأثرت ، إلى حد كبير ، بأحوال العالم الإسلامي السياسي والاجتماعي والحربية . من ذلك أن سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية ، أدى إلى هجرة جماعات من بني أمية ومواليهم ، إلى أوطان البجة . فيذكر المسعودي أنه بعد قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، تفرقت بنو أمية في البلاد هرباً من مذابح العباسيين . وكان من بين الهاربين ، « أبناء هبة الله وعبيد الله » ، وكانوا ولي عهد . فهربا فبين تبعهما من أهلها ومواليها وخواصها من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بني أمية . فساروا إلى أسوان ، ومنها ساروا على شاطئ النيل حتى بلاد النوبة ، ثم توسطوا أرض البجة ميميين باضع ، إحدى موالي السودان على البحر الأحمر . وكانت لهم مع من مروا بهم من النوبيين والبجة وقائع وحروب ، ونالهم جهد شديد ، وضر عظيم . فهلك عبيد الله بن مروان في عدة من كان معهم قتلاً وعطشاً وضراً . وشاهد من بقي منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب .

( ١ ) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٠ - ٥١

( ٢ ) راجع حلة عبد الله بن سعد على النوبة في : المقرئ : المواضع والاعتبار ، ج ١ ،

ص ١٩٩

Paul, A. : *op. cit.* p. 73.

( ٣ )

وقع عبد الله في علة من نجا معه إلى باضع من ساحل المعدن وأرض البجة<sup>(١)</sup> . وإذا كان قد أتى الله الهرب إلى مكة ، حيث قبض عليه ، فإنه من غير المستبعد أن يكون خلف وراءه بعض الأمويين ومواليهم ومن تبعهم من العرب والموالي ببلاد النوبة ، وأوطان البجاه ، وبلاد الحبشة كذلك<sup>(٢)</sup> . ويذكر بلوس Bloss<sup>(٣)</sup> . أنه عثر على مقابر أولئك الأمويين على طول الطريق الذى سلكوه من بلاد النوبة حتى ميناء باضع . فضلا عن هذا فإن الأبحاث الأركيولوجية أثبتت وجود جاليات إسلامية في منطقة خورنبت الواقعة على بعد ٧٠ ميلا غربى سواكن . إذ عثر على شواهد قبور عربية ، يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادى ( ٧٦٠ م ) ، وهو تاريخ يتفق وهجرة الأمويين إلى أوطان البجاه ، مما يدعونا إلى الاعتقاد أن هذه القبور تنسب إلى أولئك الأمويين المهاجرين إلى هذه الأوطان . ثم إن البحث الأثرى في منطقة سنكات ، أثبت وجود مسجد في هذه المنطقة ، يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٨٣١ م<sup>(٤)</sup> ،

وفى رواية لابن حوقل ما يدل على أن ثمة علاقة نشأت بين بعض قبائل البجة وبين سكان إقليم أسوان ، وهو الإقليم الذى احتشدت فيه كثير من القبائل العربية ، منذ الفتح العربى لمصر . فى هذا الإقليم — الذى كانت تتردد عليه بعض الجماعات البجارية ، لقضاء كثير من المصالح التى يتطلبها قرب بيئة حضرية راقية ، زاهرة بالحياة والحجوبة ، من بيئة أخرى بدوية فقيرة — أتى الله للبجة الوقوف على بعض نواحي الحياة العربية الإسلامية ، وذلك على الرغم مما تخلل هذا من عداوة واستعداد حينا ، أو ود وصفاء حينا آخر . فيذكر ابن حوقل عن أبي المنيع كثير بن أحمد الجعدى الأسوانى ، أن المسلمين فى إقليم أسوان كانوا مستظهِرين على من جاؤهم من النوبيين والبجة ، وأن البجة كانوا يترددون على مدينة فقط ليتاروا البُرَّ والتمر ، وإذا حضر رئيسهم سُحَا إلى فقط لهذا الغرض ، فإنه كان يكرم ويعظم . وكان لأهل فقط رئيس منهم يعرف بإبراهيم التفتى ، وفى سنة ٢٠٤ هـ عزم هذا الزعيم التفتى على أن يفتح إلى بيت الله الحرام فى جماعة من أهل فقط عن طريق وادى

( ١ ) المسعودى : كتاب التفتية والإشراف ، نشر دى خوية ، ص ٣٠

( ٢ ) ابن خلدون : البر ، ج ٣ ، ص ١٣٢ ، أنظر المقرئى : المواعظ والاعتبار ،

ج ١ ، ص ١٩١

( ٣ ) Bloss J. F. E.: « The Story of Suakin ». S.N.R. XIX, part II, 1936, p. 279.

( ٤ ) Crawford, O. G. S. « The Stone Tombs of the N. E. Sudan, Kush, No. 2, 1954, p. 86 .

العلاق وعيذاب . فوصلوا إلى بلدة عينونا ، قرب جزائر بني حدان ، وتطرقوا بمحا  
 البجلاوى وجماعته الذين صحبهم في الصحراء ليدلوهم على الطريق إلى عيذاب ، فحبرتهم  
 بطرقها ومسالكها . غير أن البجة اجتمعوا إلى رئيسهم محاً وقالوا له : « لا بد من قتل هذا  
 المسلم لمعرفة بديارنا ومقارنا ومظان مياهنا ، ولسنا نأمنه » . فلم يوافقهم محاً على ما طلبوا ،  
 ولكنهم غلبوه على رأيه ، واتفقوا على إتيانهم إبراهيم القفطى وجماعته ، فمات الجميع عطشاً ،  
 ما عدا طفلاً صغيراً لإبراهيم القفطى ، رقى له بعض البجة ، واحتال على إتيانها ، وأوصله  
 إلى ناحية ألقوا من الصعيد ، فأوصله أهلها إلى قفط . ثم أخبر هذا الطفل أهل مدينة قفط  
 بما حدث لأبيه وصحبه ، فكشوا غيظهم ، ولم يلبثوه ، وعزموا على الأخذ بالثار من البجة .  
 ثم جاء محاً على عادته إلى مدينة قفط ، وكان معه هذه المرة نحو ثلاثين رجلاً من  
 وجوه قومه ، فآزرهم أهل قفط في مصيد البجة ، ثم قتلهم جميعاً . ولما علم البجة بما حل  
 برئيسهم محاً وجماعته ، هاجموا مدينة قفط ، واحتلوها ، وأسروا من أهلها نحو  
 سبعمائة نسمة ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ومن نجا من أهل قفط فر ناحية الغرب . وكان  
 يعيش بمدينة قفط ، وتذاك ، أحد العلويين ، وكان يتمتع باحترام البجة وتقديرهم .  
 فاستطاع هذا العلوى ، بنفوذه الشخصى ، أن يسترجع بعض السبي . أما أهل قفط ،  
 فإنهم ذهبوا إلى التسطاط ، لرفع شكراهم من البجة إلى والى مصر وحمله على تأديبهم .  
 غير أن والى لم يستجب لتأديبهم ، لأنه كان يعض شأنه مشغولاً . فأنجبه أهل قفط  
 إلى الخوف للاستنجاد برجل من قبيلة قيس عيلان يدعى حكم النابغى ، وكان ذا يسار  
 وخير وجهاد . وشكا أهل قفط إلى حكم ما حل بهم ، وطلبوا إليه أن يكفهم شر أولئك  
 البجة . واستطاع أهل قفط أن يحصلوا على فتوى قاضى البلد وشيوخها ، وتقضى بشرعية  
 الحرب ضد أولئك البجة . وفى سنة ٢١٢ هـ سار حكم النابغى فى ألف رجل بين فارس  
 وراجل من قيس عيلان إلى حرب البجة ، وظل يحاربهم حتى استرجع السبي ، بعد أن  
 أقام فى بلادهم ثلاث سنين ، ثم قفل حكم معادواً إلى أسوان ومنها انحدر إلى بلدة طود  
 قرب قوص ، فملكها وأقام بها (١) .

ليس من المستبعد أن تكون جماعات من قيس عيلان استقروا فى العلاق حيث توجد  
 آثارهم . فيقول ابن حوقل إن السكان الذى اتخذهم حكم النابغى مركزاً لعملياته الحربية

ضد البجة ، كان لا يزال يعرف في زمنه باسم « ماء حكم » ، وهو على مرحلة من عذاب ، وعلى أربع مراحل من العلاق . ويضيف ابن حوقل إلى هذا أن بعض الذين اشتكروا في حملة ابن الجهم على البجة آثروا البقاء في العلاق ، ولم يعودوا حصة الجيوش العربية إلى أسوان ، « بعد أن عاينوا التبر وآثار العمل فيه للروم »<sup>(١)</sup> . ووافقت حملة ابن الجهم على أوطان البجة ، واستقرار كثير ممن اشتكروا فيها في هذه الأوطان ، هجوماً قامت به بعض الجماعات العربية بقيادة محمد بن يوسف الحسني على اليمامة ، وانتشاع أهلها من جوره وعسفه إلى مصر ، ثم « تكامل بالعلاقي قبائل ربيعة ومضر ، وهم جميع أهل اليمامة في سنة ثمان وثلاثين ومائتين »<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن الدافع ل هؤلاء على الهجرة إلى وادي العلاق ، ما تراهي إليهم من أبناء المعادن التي تحويها تربة هذا الوادي ، ولا سيما بعد أن بات العرب متمتعين بحماية الدولة الإسلامية لهم في أوطان البجة .

مما لا شك فيه أن هذه الجماعات العربية المختلفة تركت لونا من التأثير فبين اختلطت بهم من البجة ، بل إن بعضهم تعلم اللغة البداوية ليسهل عليه التعامل مع البجة ، والتأثير فيهم ، وفي الدليل على ذلك أن زكريا بن صالح الخزومي من سكان جدة ، وعبد الله بن إسماعيل القرشي ، قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة البداوية<sup>(٣)</sup> .

كانت الحملات الحربية التي وجهها ولاية مصر ضد قبائل البجة ، فرصة أتاحت لبعض الجماعات العربية المشتركة فيها ، التعرف على خصائص البيئة البجاوية ، فاستقرت فيها واختلطت بسكانها ، فضلا عن وضع هذه الأقاليم من الناحية الرسمية ضمن مناطق النفوذ الإسلامي . وتذكر الرواية العربية ، أن البجة عادوا إلى الفتنة . فيقول ابن حوقل<sup>(٤)</sup> إنه وقع بين رجل من العرب الذين استقروا بالعلاقي ، وبين رجل من البجة شحات ، فسب البجاوي النبي صلى الله عليه وسلم . ولكن البلاذري<sup>(٥)</sup> يضيف إلى هذا أن البجة أغاروا على صعيد مصر ، وامتنعوا عن دفع الخراج ، وقتلوا كثيرا من المسلمين بمناجم الذهب بالعلاقي . فكتب عامل البريد في مصر إلى الخليفة المتوكل العباسي ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ

(١) المصدر السابق ، ص ٥٣

(٢) المصدر السابق .

(٣) المقرئى : المواظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٦

(٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، نشر دى خوية ، ص ٢٣٩

(٨٤٧ — ٨٦١ م) بنجرهم . فأنفذ الخليفة في سنة ٢٤١ هـ (٨٥٤ م) رجلاً من ولد أبي موسى الأشعري يعرف بمحمد القمي ، وكان القمي هذا في الحبس مطالباً بدم لا ولى له<sup>(١)</sup> ، وكتب الخليفة إلى واليه على مصر عنبسة بن إسحاق القضي بأن يمدد بالرجال والعناد<sup>(٢)</sup> . فمال القمي أن يختار من الرجال من أحب ، ولم يرغب إلى الكثيرة لصعوبة المسالك<sup>(٣)</sup> . فجهزه بما طلب من الرجال والسلاح<sup>(٤)</sup> . فخرج القمي من مصر في عدة قوية ورجال منتخبة<sup>(٥)</sup> ، من عشرين ألفاً من الجند والمتطوعة<sup>(٦)</sup> . وسار القمي إلى أسوان ، وأتى العلاق ، فأخذ من ربيعة ومضر واليمن ثلاثة آلاف رجل ، من كل بطن ألف رجل<sup>(٧)</sup> . وبلغا ملك البجة إلى المطاولة لتجوع المسلمين ، غير أن وصول المراكب حاملة المؤن للمسلمين إلى ميناء عيذاب ، حفزت ملك البجة على ملاقة المسلمين ، فأقبل في مائتي ألف مقاتل من البجة . فلما عاين المسلمون هذا العدد الضخم من المقاتلة ، أدركوا خطورة موقعهم . وهنا نادى القمي ، « مالنا من محيص ، فقاتلوا عن دماءكم وأحسابكم ، فإنكم حاصلون » . ولما هم ملك البجة على بابا بكبس المسلمين ، حال بينه وبين ما أراد الليل . فرمى القمي حسك الحديد سورا على عسكره ، ثم بلغا إلى حيلة بارعة تضمن له النصر على البجة : ذلك أنه كتب عدة رفاع في طوامير ، ورفعها على أسنة الرماح ، وقلد خيل فرسانه بالأجراس ، ولما طلعت الشمس جاء القمي قريباً من البجة ، وهم صافون على إبلهم ، ونادى بهم ، « هذه كتب أمير المؤمنين إليكم معاشر البجة » . فلما رأى البجة هذه الكتب استظرفوها ، وخرجوا على صفوفهم ، واجتمعوا في غير نظام لقراحتها . ولما التف البجة بالطوامير ، أمر القمي بضرب الطبول الزنجية ، فنفرت الجمال بالبجة وشردت ، ولم تثبت لصلصلة الأجراس المعلقة في أعناق خيل فرسان المسلمين ، فوطئت الجمال البجة ، وركب المسلمون أقتبهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، فضلاً عما وقع منهم في أسر المسلمين<sup>(٨)</sup> . ولما حلت بالبجة الهزيمة ،

(١) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣

(٢) البلاذري : نفس المصدر ، ص ٢٣٩

(٣) المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٦

(٤) ابن حوقل ، نفس المصدر ، ص ٥٣

(٥) المقرئ : نفس المصدر ، ص ١٩٦

(٦) البلاذري : نفس المصدر ، ص ٢٣٩

(٧) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣

(٨) المصدر السابق .

طلب ملكهم على بابا الصلح ، على أن يدفع الحراج لما سلف ، ولما أتى ، وألا يمنعوا المسلمين من العمل في المعدن . فصلحهم القمى ، « على أن يعطى على بابا بساط الخليفة يسر من رأى » (١) . ثم عاد القمى إلى أسوان يصحبه ملك البجة وعدد كبير من السبي والغنائم . وقد باع القمى السبي والغنائم بما قيمته خمسون ألف أوقية ذهباً (٢) ، وترك في خزائن أسوان ما كان معه من السلاح ، ليستعين بها غيره من الولاة على هذا الإقليم في ضبط أطرافه (٣) .

غادر القمى وملك البجة أسوان إلى سامرا ، حيث أعلن على بابا الولاء والطاعة للخليفة المتوكل ، ثم عاد إلى أسوان ، بعد تأكيد ما سبق الاتفاق عليه بينه وبين القمى من شروط ، من بينها — فضلاً عما سبقته الإشارة إليه — تعيين وال عربي من قبل الخليفة العباسي على أوطان البجة . وكان أول وال هو القمى نفسه . واختار القمى نائباً عنه في حكم بلاد البجة ، رجلاً من بني حنيفة يعرف بأشبه ربيعة من بني عبيد بن ثعلبة . غير أن هذا النائب لم يحسن سياسة بعض الجماعات العربية التي استقرت بإقليم العلاق ، فعزله القمى بعد هودنه من سامرا إلى العلاق . ولذا قابل أشهب هذا العمل من جانب القمى بقتله سنة ٢٤٥ هـ (٤) .

يبدو أن قتل القمى على أيدي بعض العناصر العربية في العلاق ، كان الغرض منه ، رغبة هذه العناصر العربية في التخلص من سيادة الدولة الإسلامية على هذه الأقاليم ، ولا سيما بعد أن كشفت هذه العناصر العربية عما يحويه إقليم العلاق من مناجم للذهب والزمرد ، ومحاولتها الانفراد باستغلال هذه المناجم ، دون تدخل من جانب الدولة الإسلامية بعد أن زاد نفوذ الأتراك فيها على حساب العرب . فيذكر ابن حوقل ، أنه من ذلك الوقت ، أي من سنة ٢٤٥ هـ زال نفوذ الخليفة في إقليم العلاق ، على حين أن « الإسلام في بعضها مريض » (٥) . ويعنى هذا أن رقابة الدولة على شر الإسلام ، وتنظيم جباية الجزية والحراج والزكاة لم تعد قائمة من ذلك التاريخ .

(١) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٩

(٢) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٤

(٣) المقرئى : نفس المصدر ، ص ١٩٦

(٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٤

(٥) المصدر السابق .

الواضح أن انتشار الإسلام بين قبائل البجاء منذئذ ارتبط ، ارتباطاً وثيقاً ، بازدياد تيار الهجرات العربية إلى أوطانهم ، ولا سيما منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري ( التاسع الميلادي ) ، واختلاط العرب بالبجاء عن طريق المصاهرة . والمعروف أن وجود معدني الذهب والزمرد في أوطان البجاء ، ولا سيما في وادي العلاقي ، أدى إلى اجتذاب كثير من القبائل العربية المختلفة إلى هذه الأوطان للعمل فيها واستغلال مناجمها . ولقد وصف كثير من المؤلفين العرب هذه المعادن وأماكنها في الصحراء الشرقية ، وطرق استخراجها كذلك . فيذكر اليعقوبي<sup>(١)</sup> أن ثم طريقين يؤديان إلى مناجم الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية ، أحدهما يبدأ من قفط والآخر يبدأ من أسوان . أما مناجم طريق قفط فهي : خربة الملك ، وجبل العروس ، وجبل الحصوم ، وكوم الصابوني ، وكوم مهران ، ومكابر ، وسفسيد ، وجبل صاعد ، والكلي ، والشكري ، والعجلي ، والعلاقي الأدنى ، والرفعة ، ورحم .

أما المناجم التي يقضى إليها من أسوان فمنها : الضيقة ، البويب ، البيضة ، بيت ابن زياد ، عديفر ، جبل الأحمر ، جبل البياض ، قبر أبي مسعود ، عفار ، الحبل ، عست ( كذا ) ، كعار ( كذا ) ، بطن داح ، اعاد ، ماء الصخرة ، الأخشاب ، ميزاب ، عربة بطحا ، بركان دح ، سخيت . « فهذه المعادن التي يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر »<sup>(٢)</sup> .

والواضح أن معظم هذه المناجم يحمل أسماء بجالية ، غير أن بعضها يحمل أسماء عربية . ذلك أن هذه المناجم اجتذبت إليها جماعات عربية ، قامت على استخراج معادنها والانتجار فيها . واحتكر العرب هذه الصناعة ، لأن البجاء - فيما يبدو - لم يهتموا كثيراً باستغلالها<sup>(٣)</sup> . وربما كان الدافع لولاة مصر على التمكين للعرب من استغلال هذه المعادن ، مشاطرتهم أرباحها . ويظهر أن البجاء اطمأنوا إلى العرب الذين عاشوا إلى جوارهم ، واختلطوا بهم ، فقل اعتدائهم على المسلمين ، مما أدى إلى هجرة جماعات كثيرة منهم إلى أرض المعادن ، بعد أن كشف عن كثير من مناجمها<sup>(٤)</sup> . وأورد اليعقوبي أسماء كثير من الجماعات العربية

( ١ ) اليعقوبي : كتاب البلدان ، نشر دى خوية ، ص ١٢٠ - ١٢٢

( ٢ ) المصدر السابق ، ص ١٢٣ - ١٢٤

( ٣ ) المقرئى : المواظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٤

( ٤ ) المصدر السابق ، ص ١٩٦



التي وفدت إلى أرض المعادن لاستغلال ثرواتها ، ومنها قوله <sup>(١)</sup> : « وبرحم قوم من بلي وجبينة وغيرهم من أخلاط الناس ، الذين يقصدون للتجارات » ، « ووادى العلاق كالمدينة العظيمة ، به خلق من الناس ، وأخلاط من العرب والعجم ، وأصحاب المطالب ، وبها أسواق وتجارات ... » . « وأكثر من العلاق قوم من ربيعة من بني حنيفة من أهل البليمة ، انقلوا إليها بالعيالات والذرية » ، « ووادى العلاق وما حواله معادن للبر ، وكل ما قرب منه يعتل فيه الناس ... » . « كفار وبه قوم من أهل البليمة من ربيعة ... » ، « .. وميزاب تنزله بلي وجبينة ... » .

مما لا شك فيه أن الحملات الحربية التي وجهها ولاة مصر إلى أوطان البجاء ، أتاحت الفرصة لكثير من الجماعات العربية المشتركة فيها ، للتخلف هذه الأوطان والاستقرار فيها للمشاركة في خيراتها ، بعد أن واجت سوقها . ثم ازداد الإقبال على أرض المعادن ، بسبب ما طرأ على أحوال الدولة الإسلامية العامة من تحول من حياة البساطة إلى حياة الترف والرفاهية .

وتم عامل آخر أدى إلى ازدياد هجرات القبائل العربية إلى أوطان البجاء وغيرها من أقاليم السودان ، ازدياد نفوذ الأتراك في الدولة الإسلامية على حساب العرب ، منذ عهد الخليفة المعتمد ( ٨٢٣ - ٨٤٢ م ) . ذلك أن الخليفة المعتمد استكثر من الجند الأتراك وأنشئهم في الديوان ، ثم أمر واليه على مصر كيكر بن نصر الصفدي بإسقاط من في ديوان مصر من العرب ، وقطع العطاء عنهم <sup>(٢)</sup> . وأدى هذا القرار الخطير إلى ثورة عربية ضد والي ، وانتهت بأسر زعماء الثورة من العرب <sup>(٣)</sup> . ومنذ عزل عبسة بن إسحاق في عهد الخليفة المتوكل ، لم يعد حكام مصر يختارون من العرب ، بل من الأتراك الذين يكرهونهم ويحقدون عليهم . وبذا فقد العرب نفوذهم القديم ، وعانوا ضيقاً اقتصادياً شديداً ، بسبب ما فرض عليهم من إتاوات وضرائب مختلفة ابتدعها ابن المدر والي الخراج في مصر من سنة ٨٥٢ - ٨٦٧ م . وأثارت التدابير المالية الجديدة حفيظة العرب على الأتراك ، فقاموا بعدة ثورات في أنحاء مختلفة ، قمعها الأتراك بعنف وقسوة ، وزج بزعمائهم في السجون ، وفرضت عليهم غرامات باهظة <sup>(٤)</sup> .

(١) اليعقوبي : نفس المصدر ، ص ١٢١ - ١٢٤

(٢) المقرئى : المواقف والاعتبار ، ج ١ ، ص ٩٤

(٣) ابن تفرى برقى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٣

(٤) Lane-Poole, S. : History of Egypt in the Middle Ages. P. 43. (٤)

كان لهذا الضغط السياسي والاقتصادي أسوأ الأثر في نفوس العرب ، وبدأت جماعات كثيرة منهم تسعى للرحيل والهجرة ، ولم يكن أمامهم سوى الانسياب جنوباً وغرباً بعيداً عن ضغط الأتراك في مصر . وحانت لهم هذه الفرصة عقب تأسيس الدولة الطولونية في مصر ، على يد أحمد بن طولون سنة ٨٦٨ م ، حينما أعلن عن إعداد حملة حربية إلى بلاد البجة ، بقيادة أبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري . فاشترك فيها كثير من العرب ، معظمهم من ربيعة وجبنة .

بهذا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل انتشار الثقافة الإسلامية ، إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية ، وروادها من الساخطين على الحكم التركي في مصر ، والمغامرين الذين تسويهم الثروة حينئذ كانت . ويظهر من رواية المقرئ في كتابه الملقى الكبير <sup>(١)</sup> ، أن هدف هذه الحملة ، لم يكن مجرد تأديب البجة ، كما يزعم ابن خلدون <sup>(٢)</sup> ، والبلوى <sup>(٣)</sup> بل كان هدفها الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب في أوطان البجة ، والبحث عن مهاجر جديدة تنسج لأولئك العرب ، بعد أن ضاقت بهم مصر .

تقدم العمري جنوباً سنة ( ٨٦٨ م ) ، متجاوزاً العلاق إلى إقليم شنقير <sup>(٤)</sup> . وانتهز العمري فرصة النزاع الذي نشب داخل البيت الملكي النوبى ، بسبب وراثة العرش ، وحصل من الأمير نيوتى الثائر على خاله الملك جورج الأول ملك النوبة ، على حق إقامة قواعد على النهر للحصول على المياه الكافية لحياة مستقرة في هذا الإقليم ، بعد تغلبه على قوات الملك جورج الأول <sup>(٥)</sup> .

غير أن بعض القبائل العربية في بلاد الشام وهى القبائل التى اشتركت في حملة العمري على البجة ، ومن بينها قبيلة سعد العشيرة وقيس عيلان ، خرجت على العمري ، بعد أن حصلوا من النوبيين على حق الإقامة الدائمة في منطقة مريس <sup>(٦)</sup> ، ما بين أددندان وجبل عدة .

( ١ ) المقرئى : الملقى : مخطوطة ، المجلد الرابع ، ص ١٦٤ ب .

( ٢ ) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٠٢

( ٣ ) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، نشر كرد على ، ص ٦٥

( ٤ ) المقرئى : المواظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٩١

( ٥ ) المقرئى : الملقى ، مخطوطة ، المجلد الرابع ، ص ١٦٦ أ .

( ٦ ) المصدر السابق ، ص ١٦٦ ب .

فانهزم العمري ، وانسحب بقواته شمالا إلى منجم قريب من منطقة مريس<sup>(١)</sup> . واتسعت أعمال العمري ، وامتد نفوذه شرقاً حتى عيذاب ، وشمالا إلى أسوان ، « فكثرتهم العماراة في البجة ، حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة ، غير الجلاب التي تحمل من القلزم إلى عيذاب »<sup>(٢)</sup> .

ويظهر أن العمري كان يهدف إلى إقامة إمارة إسلامية مستقلة تحت زعامته في هذه الأقاليم ، بدليل أن ابن طولون ، شك في نوايا العمري نحوه ، وخشى ازدياد نفوذه في هذه البلاد ، فقطع في مصر . فأرسل ابن طولون جيشا لمحاربه بقيادة صباح بن حركام البابكي . غير أن العمري تغلب على قوات ابن طولون ، ولم يكتف العمري بهذا ، بل تقدم بجيوشه شمالا سنة ٨٦٩ م ، حتى بلغ مدينة أدفو ، ولكنه أثر العودة إلى المنالج<sup>(٣)</sup> . وليس من المعروف تماماً ، سبب تردد العمري في التقدم شمالا إلى النسطاط ، وذلك على الرغم من أن الطريق كان مفتوحاً أمامه . وربما أحس العمري بقرى وقوع خلاف بينه وبين رجاله ، فآثر العودة إلى مركز أعماله . وقد تحقق ظن العمري ، فخرجت عليه قبيلة ربيعة ، ونشبت الحرب بينها وبين القبائل التي ظلت على ولائها للعمري ، وقد تمكنت قوات العمري من هزيمتها . غير أن العمري لم يلبث أن قتل على يد أحد أفراد قبيلة مضر . وبهذا انتهت قصة هذا المغامر العربي الشجاع .

استقر كثير من عرب ربيعة وجبينة وغيرهم في أرض المعادن ، غير أن الشقاق لم يلبث أن دب في صفوفهم ، وبدأ صراع عنيف بينها جميعا بعد موت العمري ، على امتلاك المعادن بالعلاق . ومع أن العقوبي ( ت ٨٧١ م ) - وهو المؤرخ المعاصر لمعظم هذه الأحداث - أشار إلى وجود جاليات عربية إسلامية بالعلاق وأوطان البجة ، فإنه لم يشر إلى أثر هذه الجاليات العربية الإسلامية في نشر الثقافة الإسلامية في قبائل البجة ، ولكنه تحدث عما أسماه ممالك البجة وعددها خمس وهي :

الأولى : مملكة تقيس<sup>(٤)</sup> ، وتمتد من حد أسوان شمالا إلى حد بركت ( خور بركة ) جنوباً ، والعاصمة هجر . وينقسم سكان هذه المملكة البجاوية إلى قبائل وبطون

( ١ ) المصدر السابق .

( ٢ ) المصدر السابق ، ص ١٦٧ ب .

( ٣ ) المصدر السابق ، ص ١٦٨ أ .

( ٤ ) العقوبي : تاريخه ، نشر هوتما ، ج ١ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

منها : الحدرات ( الحدارب ) ، حجاب ( كذا ) ، وبجبات ، والهاعر ( الأمرار ) ، كوبر ( كادين ) ، ومناسة ، ورسفه ، وعبريعة ، والزناضج . وهؤلاء جميعاً علاقتهم حسنة بالمسلمين الذين يعملون في مناجم الذهب والزمرد في بلادهم .

الثانية : مملكة بقلين<sup>(١)</sup> : وتحتوى على مدن كبيرة واسعة ، وتسقط بها الأمطار ، وسكانها من البجة ، وهم وثنيون ، يعرفون الله ، ولكنهم يسمونه الربحير الأعلى ، ويسمون الشيطان صحى حراقة ، ومن عاداتهم الختان وقلع ثيابهم ونف لحامهم .

المملكة الثالثة : مملكة بازين<sup>(٢)</sup> ، يحدها شرقاً مملكة بقلين ، وغرباً مملكة عاوة المسيحية ، يزرع سكانها النرة ( الدخن ) وعليه يعتمدون في غذائهم ، فضلاً عن اللبن .

المملكة الرابعة : مملكة جارين<sup>(٣)</sup> ، وتقع ما بين ساحل البحر الأحمر عند ميناء باضع ، وبين خور بركة ، وسكانها يقطعون ثيابهم من فوق ومن أسفل ، ويقولون : لا تكون لنا أسنان كأَسنان الحمار ، وينفقون لحامهم .

المملكة الخامسة : مملكة قطعة<sup>(٤)</sup> ، وتمتد من ميناء باضع إلى مكان يقال له : فيكون . ويتصف أهلها بالشجاعة وقوة المراس ، ولهم دار مقاتلة تعرف بدار السوا ، يجتمع فيها شباب من المحاربين ، مستعدون للحرب والقتال .

أما ابن حوقل<sup>(٥)</sup> الذى وضع كتابه المشهور : « صورة الأرض » بين سنى ٩٧٦ — ٩٧٧ م ، فإنه أشار إلى أن البجة ينقسمون إلى قبائل ويطون كثيرة ، منها : بطون كديم المعروفة ببجبات ، وهؤلاء يسكنون وادى بركة ، يلهم شرقاً إلى ساحل البحر الأحمر ، قبائل الجاسة ( الحاسة ) . وبين وادى بركة ، ووادى دكن ( القاش ) قبائل بازين وبارية . ومن عادة بارية قلع ثيابها ، وبحر آذانها . وبين وادى بركة وحلود مصر الجنوبية ، يعيش قبائل بواتيكة من البجة ، وتقطع بطون قعصه ، بين وادى بركة وميناء باضع ، وهم أغنى بطون البجة الداخلة ، وأكثرها مالا . وبين وادى بركة

( ١ ) المصدر السابق .

( ٢ ) المصدر السابق .

( ٣ ) المصدر السابق .

( ٤ ) المصدر السابق C/f. Crawford, O. G. S. : *op. cit.* pp. 99-108

( ٥ ) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٥٥ — ٥٦

وجبل سمار ، تعيش قبائل الماتين ، وسيراب ، وغركلى ، ودحنت . وتعيش بالقرب من سواكن ، بطون تعرف برقابات ، وحنديا ، وهم خفراء على الحرية ( الحداربة ) .

أما هؤلاء الحداربة فهم من البدو غير المستقرين ، يتنقلون في طول البلاد وعرضها ، « وتكون بلادهم التي تخطر وتزدرع ، ويتجمعونها بمواشيم طولاً نحو شهرين مسيرة » ، وتتمد من النيل إلى البحر الأحمر ، يقضون شتاءهم قرب ساحل البحر ، والصيف في بطون الأودية ، والحريف فيما قارب النيل مغربين عن ديارهم . ويخضع الحدارب لرئيسين من شيوخهم ، رئيس لكل بيت زمام ، ورئيس يسومهم . وينقسم الحداربة إلى بطون منها : العربيةكة ، والسوتباروا ، والحوتمة ، والعكنبيرا ، والبحريوا والحيتيكة ، والواخيكة ، والجريب . وتنقسم كل بطن من هذه البطون إلى نحو مائة فخذ ، لكل فخذ منها رئيس أو رئيسان . وتقرب ألوانهم من ألوان العرب ، بين السواد والبياض ، وتصل بلادهم ببلاد النوبة والحبشة ، وهم مفترقون مجتمعون إلى أن يحاذوا عدن . وغذاء الحداربة من اللبن واللحم ، يأكل قراؤهم صيد الوحش كالغزال والنعام والحمار . أما أغنيائهم ، فلا يرون أكل الصيد ، ولا مخالطة آكله ، ولا استعمال آنية من استجاز ذلك واستحله ، ولا يحلبون فيها ، ولا يشربون . « ويحكم الحداربة لغة البجة ، وبعضهم لغة خاصة يفردون بها » . أما دينهم ، فيذكر ابن حوقل « أنهم مسلمون بالاسم » .

وفي وسط وادى دجن ( الجاش ) يقع إقليم بقلين ، الذى ينسجه البجة للرعى في فصل المطر ، وعليهم ملك مسلم يتكلم العربية ، وهو تابع للملك علوة . وفي إقليم بقلين مسلمون كثيرون يشتغلون بالتجارة ، ويسافرون إلى مكة وغيرها .

أما ابن سليم الأسوانى <sup>(١)</sup> ، فإنه يضيف إلى ما ذكره ابن حوقل عن البجة ، أنهم بادية يتبعون الكلا حينما كان الرعى ، ينأمون في أخية من جلود . ويتبع البجة نظام وراثته الأم ، فيورثون ابن البنت ، وابن الأخت دون ولد الصلب . والرجه أهل كرم وضيافة ، فإذا طرق أحدهم ضيف ، ذبح له من أقرب الانعام إليه ، سواء كانت له أو لغيره . وإن لم يكن عنده شيء نحر راحلة الضيف وعوضه ما هو خير منها . ويذكر ابن سليم الأسوانى ، أن بعض نساء البجة لا يكثرثن كثيراً بالمحافظة على عفافهن . فصانعات الحواب يقمن على صناعتها في مكان لا يختلط بهن فيه رجل سوى المشتري منهن . فإذا ولدت

(١) القريرى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٤

إحداهن من الطارقين لمن جارية استحبها ، وإن ولدت غلاماً قتلته . ويقتل : إن الرجال  
بلاء وحرب . وليس في البجة رجل إلا مزروع البيضة البيضى ، وأما النساء فقطوع أشفار  
فروجهن التى تلتحم ، ثم يشق عنها عند الزواج (١) .

وفى آخر بلاد البجة جنس يقال لهم البازة ، يتسمى فيهم الرجال والنساء باسم واحد .  
وحدث أن طرق بلادهم رجل مسلم ، فدعا بعضهم بعضاً وقالوا : هذا الله قد نزل إلينا من  
السماء . والبجة الداخلة ، الذين يقطنون صحراء علوة مما لى البحر الأحمر إلى حدود  
الحبشة ، كفار يعبدون الشيطان . ولكل بطن من أولئك البجة الداخلة كاهن يقتدون به .  
وقد بقى في الحدارب من هم على دين البجة الداخلة ، ومنهم من يتسكك بعاداتهم الوثنية  
رغم إسلامهم (٢) .

والواضح أن اختلاط عرب ربيعة بالبجة ، ولا سيما الحداربة ، أملت له عوامل سياسية  
واقتصادية كذلك . أما من الناحية السياسية ، فيبدو أن هؤلاء الحداربة ، كانوا عنصرأ  
بارزأ بين قبائل البجة ، وأنهم أقاموا طبقة حاكمة خضعت لها معظم البجة . ويظهر أن البجة  
كانوا في نزاع مستمر مع جيرانهم النوبيين في الغرب حول مواطن المياه والرعى . وكانت  
الغلبة في معظم الأحوال للنوبيين . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، ظهر التنافس بين  
القبائل العربية في مهاجرها الجديدة ، حول امتلاك معادن الذهب والزمرد . وعادت  
العصبيات القديمة على ما كان عليه الحال بينها قبل وبعد الإسلام في مواطنها الأصلية . ولذا  
جمعت بين ربيعة والحداربة مصالح مشتركة ، اقتضت تعاونها معاً للتغلب على منافسيهما .  
ومن ذلك قول المسعودى (٣) : « فأما البجة فأنها نزلت بين بحر القازم ونيل مصر ...  
وتصل سراياهم ومناسرهم على التجب إلى بلاد النوبة ، فيغزون ويسبون . وقد كانت  
النوبة قبل ذلك أشد من البجة ، إلى أن قوى الإسلام وظهر ، وسكن جماعة من  
المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاق والعيذاب ، وسكن في تلك الديار خلق من العرب  
من ربيعة بن زرار بن معد بن عدنان . فاشتدلت شوكتهم ، وتزوجوا من البجة ، فقتوت  
البجة ، ثم صاهرها قوم من ربيعة ، فقتوت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، نشره دار ودى كورتل ج ٣ ، ص ٣٢ - ٣٤

من قحطان وغيرهم ، بمن سكن تلك الديار . وصاحب المدن في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة ، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن ، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة ، في الححف البجائية ، وهم الحدارية ، وهم المسلمون من بين سائر البجة . والداخلة من البجة كفار يعبدون صنما لهم .

ويبدو من رواية لابن سليم الأسواني ، أن عرب ربيعة لجأوا إلى وسائل مختلفة للتقرب من الحدارية ، منها : أنهم نحايلاوا على كهانهم للدعوة بطاعة ربيعة والانضواء تحت لوائها ، لتتخذ منهم أعوانا ضد منافسها من العرب ، للانفراد بحكم هذه البلاد<sup>(١)</sup> . وبما دعم هذه الصلة وقواها ، مصاهرة زعماء عرب ربيعة لرؤساء البجة . ولا بد أن العرب أدركوا قيمة حق الوراثة عن طريق الأم ، أي نظام الامومة في وراثة الملك ، فتزوج رؤساء العرب من بنات رؤساء البجة ، لينال أبناء أولئك الرؤساء من العرب حقاً مشروعاً في السيطرة على قبائل البجة ، حسبما يقتضيه هذا النظام الأموي .<sup>١</sup>

ولعل فيما أورده ابن حوقل ، ما يوضح طبيعة هذه المصاهرة العربية البجائية . فيذكر أنه في زمنه ، أي في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، كان على الحدارية رئيسان ، هما : كوك وعبدك . أما كوك فهو خال أبي القاسم حسين بن علي بن بشر . وأما عبدك فهو خال ولد أبي بكر إسحاق بن بشر صاحب العلاق<sup>(٢)</sup> . والمعروف أن بني بشر هؤلاء من ربيعة التي قدمت إلى مصر حوالي أوائل القرن الثالث الهجري ( التاسع الميلادي ) ، وانتشرت في أرجاء مصر المختلفة . وكان من أبرز بطون هذه القبيلة ثلاث ، استقرت الأولى في بليس ، والثانية حول أسوان ، والثالثة في وادي العلاق وعيذاب . ثم سيطر أفراد العشرة الثالثة على مناجم الذهب والزمرد بالعلاق ، بعد أن اختلطوا بالبجة ، وطردوا من خالفهم من العرب ، مثل بني يونس الذين عادوا إلى الحجاز . واستطاع فريق العلاق أن يضع نواة أول إمارة عربية إسلامية في العلاق بزعامة أبي مروان بشر بن إسحاق . ويبدو أن فكرة إقامة إمارة عربية إسلامية لم تكن استقرت بعد تماماً في أذهان أولئك العرب الذين كانوا ما يزالون قريبين عهد بالبدواة . ولا بد أنهم اختلفوا على من يلي الزعامة فيهم ،

( ١ ) المقرئى : المواقظ والاختيار ، ج ١ ، ص ١٩٦ - ١٩٧

( ٢ ) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، ص ٥٥ - ٥٦

فنشأ نزاع بين بنى بشر من ربيعة ، على زعامة العرب في إقليم العلاق ، قتل فيه أبو مروان بشر بن إسحاق . ومع هذا فإن ثمة رابطة كانت تربط بين بطون قبيلة ربيعة الثلاث ، بحيث لما قتل أبو مروان بشر بن إسحاق ، خلفه على رئاسة بنى بشر بالعلاق ابن عمه أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بأبي يزيد بن إسحاق . ثم انتقل مقر هذه الإمارة العربية من العلاق إلى أسوان ، حيث يقيم الفرع الثالث لبنى ربيعة . وأتيح لبنى ربيعة في أسوان أن يختلطوا بالنوبيين ، وأن يزوجوا من بنات رؤسائهم . وبذا أضحت لهم مصالح مادية في بلادهم ، لانتفاعهم بنظام الوراثة عند النوبيين ، وهو نظام وراثة الأم . ونجح هذا الفرع من ربيعة كذلك في أن يقيم طبقة حاكمة خضع لها النوبيون من أهل مريس ( النوبة الشمالية ) ، ولا سيما بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام <sup>(١)</sup> .

ثم اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الإمارة العربية الإسلامية ، وخلع الخليفة الحاكم بأمر الله على أمير ربيعة في أسوان لقب : « كنز الدولة » . وتوارث أبنائه هذا اللقب ، « ولم تزل الإمارة فيهم ، وكلهم يعرفون بكنز الدولة » . وعرف بنو ربيعة في أسوان والنوبة ببني كنز . وقصد الكتاب الشعراء بني كنز ومدحهم ، ومن أولئك الشعراء : الشديد أبو الحسن بن عرام ، وأبو محمد الحسن ابن الزبير <sup>(٢)</sup> .

ليس من المعروف تماماً ، طبيعة العلاقات بين فروع ربيعة في أسوان والنوبة الذين عرفوا باسم بني كنز ، وبين بني عمومهم أصحاب العلاق ( بنى بشر ) ، بعد انتقال مركز الإمارة إلى أسوان وبلاد النوبة . أما بنو كنز ، فالمرحوم أن هزمهم على يد الملك العادل أعنى صلاح الدين ، أدت إلى رحيلهم عن أسوان ، فلم تعد مركز إمارتهم ، بل نقلوا مركز نشاطهم إلى الجنوب ، في بلاد النوبة ، حيث اندمجوا اندماجاً تاماً في سكانها . وأتيح لبنى كنز أن يشاركوا في حوادث مملكة النوبة المسيحية ، باشتراكهم في معظم الحملات التي جردتها السلطنة المملوكية على بلاد النوبة . ثم مكثوا لاقتسام فيها ، بمصاهرة البيت المالك النوبى في دققلة . وادعى أميرهم كنز الدولة بحقه في ملك النوبة عن طريق وراثة الأم ، واستعان بنو كنز بالعرب المهاجرين ، والنوبيين المتوطنين فيها ، فانزع أميرهم كنز الدولة ملك النوبة ، وأعلن استقلاله عن السلطنة المملوكية سنة ١٣٢٣ م <sup>(٣)</sup> .

( ١ ) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص ١٣٤

( ٢ ) المقرئى : المواظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٨

( ٣ ) المقرئى : السلوك ، نشر زيادة ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٦١



غير أن أحوال مملكة النوبة ، لم تستقر بعد سقوطها في أيدي بني كنز ، بل أخذت مسرحاً للاضطرابات التي كانت من عمل بني كنز أو غيرهم من القبائل العربية التي استقرت في بلاد النوبة ، مثل بني جعد ، وبني عكرمة ، والهوارة ، وبني هلال وغيرهم ، بسبب التنافس بينها جميعاً على السلطة في بلاد النوبة . وفي القرن الخامس عشر الميلادي تم اختلاط هؤلاء وأولئك جميعاً بالنوبيين ، من أسوان حتى دقلة . وانتشر الإسلام ، وتكونت المجموعات النوبية المستعربة ، التي لا تختلف في صفاتها الطبيعية وملاحيها عن النوبيين الحاليين ، وهم : الكنوز ، والفديجة ، والسكرت ، والحس ، والدناقلة .

أما بنو ربيعة في العلاق ( بنو بشر ) فلسنا نعرف عنهم شيئاً منذ انتقال مقر إمارة ربيعة إلى أسوان ، في حوالي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ( القرن العاشر الميلادي ) . والواضح أنه تم اختلاط هؤلاء كذلك بالبحر ، وأنهم اخذوا عنهم اللغة البدائية ، بعد أن طموها بكثير من الألفاظ العربية ، وأنهم أعطوهم الدين الإسلامي الذي يربطهم بالنسب العربي .

\* \* \*

أما دور الموانئ على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر ، وأثرها في اجتذاب العناصر العربية النشيطة للمساهمة في خدمة التجارة والاشتغال بها ، فالمعروف أن صلة عرب جنوب شبه الجزيرة العربية بالجانب الأفريقي المواجه لأوطانهم ، أقدم من ظهور الإسلام بقرون عديدة . ولقد دفعت حاجة هؤلاء للحصول على المنتجات السودانية التقليدية إلى الانتقال إلى الساحل الأفريقي للبحر الأحمر والاشتغال بالوساطة التجارية ، وهو نشاط لم يكن يهتم به كثيراً أو قليلاً سكان البلاد الأصليون من البجاء ، ولذا تولى هذا العمل غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية . ولما ظهر الإسلام ، وقامت الدولة العربية الإسلامية ، ازداد نشاط العناصر العربية في البحر الأحمر ، وازدادت بالتالي هجراتها إلى الساحل الأفريقي لهذا البحر ، لإحساس هذه العناصر العربية بقوة الدولة العربية الإسلامية وحمايتها لها ، ولو أنه كان من سياسة الدولة العربية في المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإسلامي ، اعتبار أوطان البجاء دار سلام ، لا دار حرب<sup>(١)</sup> . وإذا كانت الدولة العربية لم تقم

(١) ابن حوقل : نفس المصدر .

من جانبها بالإشراف على هذا النشاط التجارى وإخضاعه لتنظيماتها ، أول الامر ، فإنها لم تلبث أن تدخلت لحماية العناصر العربية الإسلامية العاملة في الميدان التجارى وغيره بأوطان البجة ، وذلك بعد أن غدت هذه الأوطان ، فيما بين أسوان شتلا ودهلك وباضع جنوبا ، خاضعة للدولة الإسلامية منذ زمن الخليفة المأمون العباسى ، كما سبق أن أوضحنا .

ولعل باضع أقدم مركز مارس العرب فيه نشاطهم التجارى . وليس من المعروف تماماً متى نشأت هذه الميناء . وأول إشارة إليها في المصادر العربية وردت في صدد الحديث عن البجاء فلول الامويين إليها حوالى منتصف القرن الثامن الميلادى . والراجح أن باضع أنشئت بأيد عربية ، وأنها كانت بمثابة نقطة ارتكاز مكنت الجماعات العربية من تثبيت أقدامها في الوطن البجاولى الجديد<sup>(١)</sup> . ولما تخربت ميناء باضع في القرن الحادى عشر الميلادى على الأرجح ، انتقل سكانها العرب إلى مواقع أخرى على ساحل البحر الأحمر ، وانخفوها مراكز جديدة لنشاطهم التجارى في هذا البحر وما يليه غرباً في وادى النيل . ومن هذه المراكز التجارية الجديدة : ميناء سواكن ، وميناء عيذاب .

أما عيذاب ، التى كانت تقع في منطقة حلايب الحالية ، فإن قيامها وشهرتها ، يرتبط ، إلى حد كبير ، بنشاط الجماعات العربية التى انتقلت إليها من مصر . . وأول إشارة إليها في المراجع العربية ، وردت في كتاب فتوح البلدان للبلاذرى ( ت : ٢٧٩ هـ ، ٨٩٢ م ) ، وذلك عند الحديث عن الحملة التى قادها محمد بن عبد الله القمى سنة ٢٤١ هـ ( ٨٥٤ م ) ضد قبائل البجاء . فيذكر البلاذرى أن القمى استعان بالميرة التى حملتها المراكب من القلوم إلى عيذاب ، في التغلب على ملك البجة : على بابا<sup>(٢)</sup> . ولم تلبث عيذاب أن أصبحت مركزاً هاماً لخدمة احتياجات القبائل العربية التى انتقلت إلى وادى العلاق في قلب صحراء العتباتى ، للعمل في مناجم الذهب التى تحويها تربة هذا الوادى . ثم أضحت عيذاب منفلاً رئيسياً لتجميع معدن الذهب المستخرج من وادى العلاق وتسويقه . وبذا صارت عيذاب بحق - على قول ابن حوقل .. ميناء للذهب . وظلت عيذاب هكذا طوال القرنين التاسع والعاشر وكذلك أوائل القرن الحادى عشر . ولما نضب معين مناجم الذهب

( ١ ) الشامى : المواقى السودانية .

( ٢ ) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٩

في العلاقي ، وانصرف العرب عن استخراجہ والانجار فيه ، لم تفقد عيذاب أهميتها ، بل تأتت نجحها ، وذاعت شهرتها منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، وذلك لتحول قوافل الحجاج من مصر وبلاد المغرب عن طريق سيناء إلى الصعيد الأعلى (قوص) فعيذاب ، بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين ، وتيام الإمارات الصليبية بها . وبلغت عيذاب ذروة مجدها وشهرتها حينما وصلت ككذلك سفن اليمن حاملة الأخشاب والتوابل . وغدت عيذاب ميناء مصر الرئيسي على البحر الأحمر ، منذ أواخر الدولة الفاطمية إلى أوائل دولة المماليك الثانية (١) .

لفت شهرة عيذاب أنظار الصليبيين ، فحاولوا توجيه الضربات إليها ، لقطع الطريق على الحجاج المسلمين من ناحية ، والقضاء على مركزها التجاري من ناحية أخرى . وعلى الرغم من فشل الحملة الصليبية بقيادة أرنط أمير حصن الكرك ، ضد الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز سنة ١١٨٢ م ، فإن سفن هذه الحملة حطت ست عشرة سفينة للمسلمين في عيذاب (٢) .

غير أن هذا الهجوم الصليبي لفت الأنظار مرة أخرى إلى أهمية عيذاب ، فازداد اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك بها كلما ازدادت التجارة المصرية في البحر الأحمر . ثم إن صحراء عيذاب أصبحت « عامرة أهلة بما يصدر أو يرد من قوافل الحجاج (٣) والتجار » . فأشار الرحالة المشهور ابن جبير (٤) (ت ١٢١٧ م) إلى ازدياد النشاط التجاري ، وقوافل الحجاج التي تزخر بها عيذاب والطرق الموصلة إليها بقوله : « ورمنا في هذه الطريق (طريق قوص — عيذاب) لإحصاء القوافل الواردة والصادرة ، فما تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذاوية المتحملة بسلع الهند الواصلة إلى اليمن ، ثم من اليمن إلى عيذاب . وأكثر ما شاهدناه من ذلك ، أحمال الفلفل . فلقد خيل إلينا ، لكثرتة ، أنه يوازي التراب قيمة . ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء ، أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة ، لا حارس لها ، ترك يهيم السبيل ، إما لإعياء الإبل الحاملة لها ،

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٠٢

(٢) Newbold, D. : The Crusaders in the Red Sea and the Sudan, S. N. R., XXVIII, part 1 PP. 220-226.

راجع . أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٣٥ - ٣٦

(٣) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٠٢

(٤) ابن جبير : رحلته ، نشر Wright ، ص ٦٥

أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها ، إلى أن ينقلها صاحبها مصنونة من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس .

أما عن القائمين على هذا النشاط التجارى الضخم ، فال معروف أن عيذاب كانت تحت حكم إدارة ثنائية : أى أنه كان يحكمها وال من قبل سلطان مصر ، ووال من قبل ملك البجة . وجرى الرسم بين الطرفين أن يقسم ما يجيى من ضرائب ومكوس على التجارة نصفين <sup>(١)</sup> . ويذكر ابن الوردي أنه كان على « عامل مصر القيام بطلب الارزاق ، وعلى عامل البجة حمايتها من الحبشة » . وجرت عادة ملك البجة الحضور إلى عيذاب من حين إلى آخر لمقابلة الوالى المصرى إظهاراً للطاعة لسلطان مصر ، ومقابلة نائبه فى عيذاب كذلك .

أما القوافل بين عيذاب والنيل ، فكانت تسلك إحدى طرق ثلاث : إلى أسوان أو قفط أو قوص . وموضع الاهمية هنا أن القائمين على أعمال النقل فى طريق عيذاب ، وأصحاب القوافل بها ، كانوا من عرب بلى ، وهم ضاهنا كذلك <sup>(٢)</sup> . وعلى الرغم من عودة قوافل الحجاج إلى طريق سيناء ، وتوقفها عن المرور بعيذاب ، فانها ظلت تقوم بدورها فى خدمة التجارة بين الشرق والغرب . وظلت عيذاب هكذا حتى خربها السلطان برسباى سنة ١٤٢١ م <sup>(٣)</sup> .

أما سواكن فإنها من أقدم موانى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر . غير أن المصادر العربية لم تشر إليها إلا فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، حين مر بها فلول الأمويين الهاريين من مذابح العباسيين . فيذكر المقرئى <sup>(٤)</sup> أنه كان يربط بين سواكن وباضع وجزر دهلك من ناحية ، وبين النيل من ناحية أخرى ، طريق . ولعله الطريق الحالى المعروف باسم طريق سواكن — بربر . وسكان سواكن من الخامسة ، وهؤلاء كانوا يكونون الطبقة الدنيا فى المجتمع البجاوى الإقطاعى الذى فرضه الحداربة على سكان هذا الإقليم . ويذكر الدمشقى <sup>(٥)</sup> أن الخامسة هؤلاء منهم طائفة تدعى الخامسة السفلى اكفار ، وخاصة العليا مسلمون ،

( ١ ) ابن الوردي : نفس المصدر ، ص ١٧٠

( ٢ ) ابن جبير : رحلته ، ص ٦٣

( ٣ ) Browne : The History and Description of Africa by Leo Africanus, done into English by John Pory 1600. Hakluyt Society, vol. III, p. 837

( ٤ ) المقرئى : الروايع والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٠٢

( ٥ ) الدمشقى : نخبه الدهر ، فى عجائب البر والبحر ، نشر M.F. Mehren ، ص ٢٦٩

وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء . وغالب هؤلاء لا يلبسون المحيط ، ولا يسكنون المدن . ويتضح اهتمام مصر بجارة البحر الأحمر وساحله الأفريقى ، من علاقات الدولة المملوكية بميناء سواكن المطل على ممالك النوبة المسيحية . ففى سنة ٦٦٢ هـ ( ١٢٦٤ م ) احتج السلطان بيبرس إلى كل من صاحب سواكن وصاحب جزر دهلك لتعريضها لأموال المتوفين من التجار المصريين . والراجع أن ممتلك سواكن لم يستجب للاحتجاج المملوكى ، ولم يكند يعضى عام وبعض عام ، حتى بعث والى قوص ، تنفيذاً لأمر السلطان بيبرس ، حملة حربية لتأديب صاحب سواكن سنة ٦٦٤ هـ ( ١٢٦٥ م ) . ومن نتائج هذه الحملة ، انهيار نفوذ صاحب سواكن وفراره ، واستقرار حامية مملوكية بسواكن نفسها ، فضلاً عن فرض أموال الزكاة على سكانها لحساب الدولة المملوكية<sup>(١)</sup> ، وهى الأموال التى أشرف على جبايتها ، والى عيذاب وقاضيا .

والواضح أن معظم قبائل البجاء ظل محتفظاً بطابعه القديم فى العهد العربى ، وهؤلاء هم الذين كانوا يعيشون فى الجبال الوعرة والجهات النائية التى لم يشتد فيها النفوذ العربى ، ومن ثم لم يتيسر لهم فيها الاختلاط بالعرب اختلاطاً واسعاً . ومع هذا فإن رؤساء هذه القبائل ، وكثيراً من عامتهم كذلك ، اتصلوا بالعرب ، وشاركهم فى النشاط التجارى ، ولا سيما فى الموانئ ، والأقاليم المتصلة بها مثل مناجم الذهب والزمرد فى العبابى وغيرها .



والمعروف أن الهجرات العربية التى انقالت على أوطان البجة بعد الفتح العربى لمصر ، تأثر بها بعض قبائل البجة ، وهى القبائل التى اتصلت بالعرب وصاهرهم . وتسنى لأولئك العرب أن ينشروا الإسلام والثقافة العربية بين أفرادها ، بنسب مختلفة ثقافات عمقاً وسطحية من إقليم إلى آخر حسباً تملبه ظروف هذا الاختلاط .

ينبذ ذلك واضحاً من وصف ابن جبير لبعض أولئك البجة حيث يقول : وهذه الفرقة من السودان المذكورين ( البجاء ) ، فرقة أضل من الانعام سيلا ، وأقل عقولا ؛ لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها ، إظهاراً للإسلام . ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم مالا يرضى ولا يحل . ورجلهم ونسأؤهم يصرفون عراة ، إلا خرقاً يسترون بها عورتهم ، وأكثرهم لا يستترون . . . .<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٥٥٨

( ٢ ) ابن جبير : رحلته ، ص ٦٩

إذا كان هذا حال بعض جماعات البجة التي اعتنق أفرادها الإسلام حتى عصر ابن جبر ( القرن الثاني عشر الميلادي ) فإن أحوال جميع قبائل البجة تغيرت تماماً في القرن الرابع عشر والخامس عشر للميلاد . فاعتنق الجميع الإسلام ، وتأثروا بالثقافة العربية ، وإن بقيت فيهم بعض العادات والتقاليد القديمة التي لم يتخلوها عنها حتى الوقت الحاضر ، وهي ظاهرة يشاركون فيها كثير من الشعوب التي تدين بالإسلام أو المسيحية في أقطار أخرى <sup>(١)</sup> .

أما عن انتشار الإسلام والثقافة العربية بين قبائل البجة في هذين القرنين ( ١٤ - ١٥ م ) ، فمرجه انثيال الهجرات العربية على نطاق واسع إلى السودان عبر أوطانهم ، منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، بسبب الأحداث التي طرأت على العالم الإسلامي في هذا القرن وما بعده . فالمعروف أن سقوط بنفاد في أيدي المغول ، وقتل الخليفة العباسي المستعصم وكثير من آل بيته ، أثار موجة من الرعب والفرع ، دفعت بكثير من القبائل العربية إلى الهجرة إلى السودان وغيره من الأقطار .

يضاف إلى هذا أن قيام السلطنة المملوكية في مصر في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، وسقوط مملكة التوبة المسيحية ( مقرة ) في أيدي العرب أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، أدى إلى زيادة جوع العرب المهاجرين من مصر إلى السودان . مرجع ذلك — على قول ما كما بكل — أن أولئك العرب لم يطب لهم المقام في مصر ، ولا سيما بعد أن قتلوا ميزاتهم القديمة ، وأصبح ينظر إليهم على أنهم عنصر غير مرغوب في بقائه ، فاستبدل بهم قوات حربية نظامية مدربة ، لأنهم لا يجيدون سوى شن الإغارات للحصول على الغنائم ، فضلاً عن ماطلتهم في دفع الضرائب ، وإثارة القلاقل . وفي القرن الرابع عشر أصبح ينظر إليهم على أنهم خارجون على القانون .

ثم إن رغبة العرب في العيش عيشة البداوة والحرية التي تعودوها في بيئتهم الأصلية ، والبحث عن مراعي واسعة تناسب حياة الإبل والأغنام ، والتي لا يتوفر وجودها في مصر ، دفعت بالعرب إلى الهجرة جنوباً ، حيث البيئة الرعوية التي تشبه بعض جهاتها البيئة الأصلية في الجزيرة العربية . هذا فضلاً عن رغبة أولئك العرب في الحصول على الرقيق <sup>(٢)</sup>

( ١ ) محمد عوض محمد : نفس المصدر ، ص ٣٥ - ٣٦

( ٢ ) Hamilton, ed. : *op. cit.* pp. 47-50.

Cf. Reid, J. A. : « Some Notes on the Tribes of the White and Blue Nile Provinces ». S. N. R. XIII, part II, 1930, p. 51.

ثم إن السلطنة المملوكية سمحت لأولئك العرب بالرحيل من مصر ، وأكثر من هذا أنها أمنت في مطاردتهم في أوطان البيجة ذاتها . من ذلك ما أورده النويري في كتابه « نهاية الأرب » ، يصد حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦١٧ هـ (١٣١٧ م) ضد العرب الذين يسكنون حول عيذاب ، لاعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلى السلطان المملوكي . وأوغلت هذه الحملة جنوباً حتى سواكن ، وانجبت غرباً إلى التاكه ، وإلى جهة الأبواب ، ثم عادت إلى مصر عن طريق دقلة <sup>(١)</sup> .

والواضح تماماً ، أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر ، أدى إلى ازدياد موجات الهجرات العربية ، ولا سيما بعد أن بات السابقون من العرب في شغل بمنازلهم الداخلية عن المهاجرين الجدد . وربما كان أشد هذه الهجرات العربية عنفاً ، هجرة جينة التي أشار إليها ابن خلدون .

لكن كيف شق أولئك العرب طريقهم نحو الجنوب عبر أوطان البيجة ؟ هل اضطروا إلى استخدام السيف والدخول في حرب ضد هذه القبائل ، وشن الإغارات عليها ؟ يقول ابن خلدون يصد هجرة جينة إلى السودان ما نصه : « وانتشروا ( أي جينة ) ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكثروا هنالك سائر الأمم . . . وحاربوا الحبشة فأرهبوهم إلى هذا العهد » <sup>(٢)</sup> . لكن أولئك العرب ، إذا كانوا اضطروا أحياناً إلى اتباع وسائل العنف ، فإن الطابع العام لهذه الهجرات ، كان طابعاً سلمياً ، ونجحوا في تحقيق مآربهم ، لا بعد السيف ، بل بالاختلاط بالبيجة وغيرهم .

أما عن اضطراب أحوال بلاد النوبة وأوطان البيجة حتى حدود الحبشة ، فكان بسبب النزاع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر . فتشير بعض الروايات التاريخية إلى وجود مثل هذا النزاع بين قبيلتي جينة ورفاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادي قرب عيذاب <sup>(٣)</sup> .

والعروف أن الجماعات العربية التي هاجرت إلى السودان عبر أوطان البيجة ، اشتملت على قبائل عدنانية وقحطانية . فمن العدنانيين : الكواهلة وبعض القبائل الصغيرة الأخرى ،

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٩٦ - ٩٧

(٢) ابن خلدون : المعبر ، ج ٢ ، ص ٢٤٧

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ، قسم ٣ ، ص ٧٠٠

انظر كذلك Bloss, J. F. H. : *op. cit.* p. 281

مغل الرشيدة . ومن القحطانيين : قبيلة جهينة وبطونها المختلفة . ولعل أول إشارة إلى بني كاهل ، وردت في رحلة ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن ، في منتصف القرن الرابع عشر ( ١٣٥٣ م ) ، فذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن ، وهم مختلطون بالبيجة ، عارفون بلسانهم <sup>(١)</sup> . وليس من العرف تماماً ، متى استقر أبناء كاهل بين البيجة . والراجح أن هجرتهم إلى هذه الأقاليم سابقة لهذا التاريخ ( منتصف القرن الرابع عشر ) ، بدليل أنهم كانوا يعرفون وتذاك لغة البيجة .

ويقال إن الكواهلة ينتسبون إلى كاهل بن أسد بن خزيمة ، وأنهم جاءوا إلى السودان من جزيرة العرب مباشرة ، عبر البحر الأحمر ، واستقروا في الأقاليم الساحلية ، بين سواكن وعيذاب <sup>(٢)</sup> . غير أنه لا يوجد من الدلائل ما يؤيد هذه الصلة المباشرة بالجزيرة العربية <sup>(٣)</sup> . والراجح أن هجرة أولاد كاهل كانت عن طريق مصر . إذ تقول روايات البياضة <sup>(٤)</sup> ، إنهم ينتسبون إلى عباد من نسل الزبير بن العوام . وإن جدهم عباداً قدم من جزيرة العرب إلى مصر في القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم مات ودفن في وادي عباد قرب أدفو ، وإن عباداً هذا جد كاهل ، ومن ذريته أولاد كاهل الذين أشار إليهم ابن بطوطة . واختلط أولاد كاهل بالبيجة عن طريق المصاهرة ، ونالوا مراكز الزعامة فيهم .

أما جهينة فأنها تزعم الانتساب إلى عبد الله الجهني <sup>(٥)</sup> . وإذا كان يشك في صحة هذه النسبة ، فإن جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية التي عاشت حول ينبع من حوالي ١٣٠٠ سنة . ومن هذا المركز توالى هجراتها إلى مصر <sup>(٦)</sup> . ثم توالى هجراتها إلى السودان عن طريق بلاد النوبة وأوطان البيجة ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادي . وانتشرت جماعات من جهينة في أوطان البيجة ، حتى وصلت إلى سواكن في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، بدليل ما أشار إليه المقرئ من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة سنة ٦٨١ هـ ( ١٢٨١ م ) قرب سواكن <sup>(٧)</sup> . ثم انتشروا جنوباً إلى بلاد الحبشة

( ١ ) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ١ ، ص ١٥٤

( ٢ ) عوض : نفس المصدر ، ص ١٤٣

( ٣ ) MacMichael, H. A. : *op. cit.* p. 324.

( ٤ ) Murray, G. W. : *Sons of Ismail*, p. 30.

( ٥ ) عوض : نفس المصدر ، ص ١٤٤ ، MacMichael, H. A. : *op. cit.* p. 237.

( ٦ ) Ibid : *op. cit.* pp. 237-238.

( ٧ ) المقرئ : السلوك ، ج ١ ، قسم ٣ ، ص ٧٠٠



ولا بد أن جبهة كانت من القوة بحيث يقول عنها ابن خلدون : « إنها حاربت الحشة وأرهقتها حتى هذا الحين » ، وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادي . وأدى توالى وصول هجرات من جبهة إلى السودان إلى كثرة عدد بطونها كثرة واضحة . فتقول إحدى الروايات الوطنية في السودان : « إنه كان لجبهة ٥٢ وحدة قبلية قرب سوبا على النيل الأزرق ، وأكثر منها في الأقاليم الغربية ، في أوائل القرن السادس عشر الميلادي » (١) .

ويبدو أن كثيراً من القبائل العربية من غير جبهة شاركت جبهة في مواطنها الجديدة بأوطان البجة ، فنشأت في هذه الأوطان عدة إمارات عربية مستقلة . ويذكر القلقشندي أن من بين الإمارات التي نشأت في أوطان البجة حتى الحدود الحبشية وبلاد النوبة كذلك ثمانى إمارات ، كان بين أمرائها وبين السلطنة المملوكية في مصر مراسلات في القرنين الثامن والتاسع للهجرة ( الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ) ، وهؤلاء الأمراء هم : سمرة بن كامل العامري ، وعبد بن قاسم ، وكامل بن سوار ، وجنيد شيخ الجواربة من الهكارية بأبواب النوبة أيضاً ، وعلى شيخ دغيم ، وزامل الثاني ، وأبو منها العيراني (٢) . وإذا كان من غير الميسور تحقيق مواطن هذه الإمارات العربية والتعرف على أصولها ، فالواضح أن بعضها يقع في بلاد النوبة ، والبعض الآخر في أوطان البجة ، حتى حدود الحبشة . وربما كان الأمير سمرة بن كامل العامري ، هو سمرة بن ملك شيخ الجواربة أو من سلالة ، وهو الأمير الذي أشار المعري في كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف » إلى علاقته بالسلطنة المملوكية (٣) .

ومن الجماعات العربية التي هاجرت إلى أوطان البجة واختلطت بهم عن طريق المصاهرة ، قبيلة الأشراف ، وهؤلاء ظهروا لأول مرة في سواكن حوالي سنة ١٣٥٠م (٤) . ويبدو أن أولئك الأشراف خضعوا للسلطنة المملوكية . فيقول المعري : « أما سواكن ، ففيها الشريف زيد بن أبي نعي الجدرمى الحسنى [ وهو ] في طاعة صاحب مصر » (٥) .

( ١ ) MacMichael, H. A. : *op. cit.* II, p. 28.

( ٢ ) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٥ - ٦

( ٣ ) المعري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٧٧

( ٤ ) Paul, A. : *op. cit.* p. 75

( ٥ ) المعري : مسالك الأبصار ، مخطوطة ، ج ٢ ، ص ٣١٢

وثمة ملحوظة هامة هنا ، هي أنه على الرغم من اشتداد تيار الهجرات العربية إلى أوطان البجة منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، فإن أثر هذه الهجرات العربية في هذه الأوطان ، كان محدوداً بالقياس إلى أثرها في بعض أقاليم السودان الأخرى . مرجع ذلك ، في الغالب ، أن كثيراً من الجماعات العربية لم يعاب لها المقام طويلاً في أوطان البجة ، بل آثرت هذه الجماعات — ولا سيما تلك التي حافظت على بداوتها — الانتقال غرباً إلى أرض الجزيرة وكردفان ودارفور . ويمكن تشبيه تلك الحركة بحركات عرب جبهة الذين هاجروا من مصر إلى السودان بطريق النيل في القرن الرابع عشر الميلادي . فقد استقرت جماعات منهم مدة في بلاد النوبة الشبالية ، وهناك أتبع لهذه الجماعات العربية أن تختلط بالتوبيين مدة حتى تم لها تحويل الأقلية المسيحية إلى الإسلام ، والقضاء على مآثر من مظاهر الملكية المسيحية فيها . ثم لم تلبث هذه الجماعات الجنبية ، التي لم تفصل عن بداوتها ، أن انتقلت غرباً إلى كردفان ودارفور ، وشرقاً إلى جزيرة النيل الأزرق حتى حدود الحبشة ، وذلك لفقر بلاد النوبة وندرة مراعيها بالقياس إلى الأقاليم الجديدة التي هاجروا إليها . ولذا لم يصح للتوبيين ، من أسوان إلى دنقلة ، أن يعربوا تعريباً تاماً ، ولكن تعربوا تعريباً جزئياً ؛ بمعنى أنهم اعتنقوا الإسلام ، وتعلموا اللغة العربية ، مع احتفاظهم بلغتهم النوبية ، التي لم يضلوا عنها حتى اليوم .

وعليه يمكن القول إن أوطان البجة كانت أحد الأبواب الرئيسية التي دخل منها الإسلام والثقافة العربية إلى السودان . وإذا كانت بعض القبائل العربية التي هاجرت إلى أوطان البجة في أعقاب الفتح العربي لمصر قد استقرت في هذه الأوطان ، ولا سيما بعد كشف مناجم الذهب والزمرد في إقليم الملاق ، فإن القبائل العربية التي هاجرت إلى هذه الأوطان منذ القرن الثالث عشر الميلادي لم تستوطنها طويلاً ، بل انتقلت غرباً إلى وسط السودان وغريبه ، وجنوباً إلى الحبشة ، لأسباب منها : قلة الماء والمرعى ، ونفاذ موارد الذهب والزمرد بالعبأى ، وتوقف العمل في مناجمها منذ القرن الرابع عشر الميلادي على الأقل . ثم إن كثرة الاضطرابات التي كانت تثيرها قبائل البجة ، وهى القبائل التي لم تختلط تماماً بالعرب ، جعلت كثيراً من القبائل العربية تسعى للبحث عن مهاجر جديدة أكثر أمناً وهولاً <sup>(١)</sup> . ولعل تخريب ميناء عيذاب على يد السلطان برسباى سنة ١٤٢٦ م

Newbold, D. : «The Beja Tribes ... », Anglo Egyptian Sudan from within, ed. ( ١ )

Hamilton, p. 153.

كان بسبب شغب بعض جماعات البجة واعتدائهم على قوافل الحجاج المسافرة إلى مكة بطريق عيذاب (١) .

ومن أبرز الأمثلة الدالة على أن بعض القبائل العربية التي استقرت مدة في الوطن البجاوى ، هاجرت منه إلى وسط السودان وغريه ، هجرة بنى كاهل ، وهؤلاء هم الذين رآهم ابن بطوطة في منتصف القرن الرابع عشر الميلادى مختلطين بالبجة عارفين بلسانهم ؟ فقد انتقلت بطون منهم إلى جهات أنيرا والنيل الأزرق في القرن الخامس عشر واحتشدت فيه ، ثم انتقلت جماعات منهم آتية من الشرق ، ونزحت إلى جهات النيل الأبيض وكردفان في أزمنة متعاقبة (٢) . وبذا أضفى لبنى كاهل — الذين عرفوا فيما بعد باسم الكواهلة — أوطان ثلاثة ، ولوانه لم يبق لهم في أوطان البجة في الوقت الحاضر أهمية تذكر ، وذلك على الرغم من انتشارهم الواسع في هذه الأوطان في القرن الرابع عشر .

\*\*\*

وإذا كانت الجماعات العربية التي هاجرت إلى أوطان البجة بعد الفتح العربى لمصر ، نجحت في تعريب بعض قبائل البجة تعريباً جزئياً ، باعتناق بعضها الإسلام اعتناقاً ضعيفاً ، فإن أثر المهجرات العربية المتأخرة نسبياً ( أى منذ القرن الثالث عشر الميلادى ) نجحت في نشر الإسلام والثقافة العربية بين عامة البجة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، بحيث غدت جميع قبائل البجة تعتنق الإسلام ، ويعرف كثير منهم اللغة العربية ، مع تمسكهم بلغتهم التبادوية ، وهى اللغة التى تصرب إليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما تأثرت بعض الصيغ النحوية في اللغة التبادوية باللغة العربية (٣) .

ويرتبط بهذا الأثر الثقافى أثر آخر لا يقل عنه خطراً ، وهو الأثر السلالى . فقد كان لهذه المرحلة من مراحل المهجرات العربية إلى السودان عبر أوطان البجة أثر واضح في تكوين المجموعات البجاوية كما نعرفها اليوم وهى : البشاريون ، والأمرا ، والهدندوة ، وبنى عامر . والمعروف أن البشارين والأمرا وبنى عامر ، ينسبون إلى بنى كاهل .

( ١ ) Paul, A. : *op. cit.* p. 76.

Paul, A. : « Aidhab : A Medieval Sea port » S. N. R., XXXII, part 1, p. 67.

( ٢ ) عوض : نفس المصدر ، ص ١٤٨

Cff. : Newbold, D. : *op. cit.* p. 153. ( ٣ )

ومما لا شك فيه أن الإسلام رفع من شأن هذه النسبة ودعما . وبذا طغى الإسلام والنسب العربي الجديد على النسب الحامى القديم . وإذا كان يشك في صحة هذه النسبة العربية ، فليس ثمة شك في تسرب نسبة كبيرة من الدماء العربية — شالية وجنوية سواء — إلى هذه الجماعات البجاوية ، طوال العصر العربي (١) .

ومن الملحوظ هنا أن ظهور المجموعات البجاوية الرئيسية — البشارين ، والمهندوة ، والأمرار ، وبنى عامر — ارتبط ارتباطاً كبيراً بظاهرة مألوفة في الشعوب البدوية ، فقد تبرز إحدى وحداتها الصغيرة في شكل أسرة يصنف بعض أفرادها بالشجاعة وقوة المراس ، ثم لم تلبث هذه الأسرة أو الوحدة الصغيرة أن تغلب على بعض الوحدات الصغيرة الأخرى وتقرض سلطانها عليها ويندمج المغلوب في الغالب ويعقد اللواء للوحدة التي استطاعت أن تقرض سلطانها وتوسع نفوذها على حساب غيرها (٢) .

وتكاد تجمع روايات البشارين وتقصصهم على أن أجدادهم كانوا يعيشون في جبل عليّة بالقرب من عيذاب ، وأنهم ينتسبون إلى كاهل . وليس بمستبعد أن يكون لهذه الدعوى في الانتساب إلى كاهل أساس تاريخي ، فإن بطوطة أشار إلى اختلاط بنى كاهل بالبجة من عيذاب إلى سواكن . ومن اليسير أن تصور أن بعض الأمراء من بنى كاهل أصبر إلى البجة ، ثم ورت الإمارة والرياسة فيهم . وقد يكون أولئك البجة ممن اختلطوا بينى بشر بن مروان من ربيعة في القرن العاشر الميلادى ، وربما كان هؤلاء من سكان مملكة تقيس ، إحدى الممالك البجاوية التي أشار إليها اليعقوبى . ومن هذا الاسم الأخير ظهر اسم بشارى أم ناجى ، وهو اسم مزدوج ذو أصلين : أصل بجارى هو تقيس وأصل عربي هو بنو بشر من ربيعة (٣) . وليس من المستبعد أن يكون أولئك البجة نسوا أصول هذه النسبة البجاوية العربية القديمة بمرور الزمن ، ولم يحتفظوا إلا بصلة بنى كاهل . وربما كانت الوحدة البجاوية التي تولت إخضاع الوحدات البجاوية الأخرى من بشارى تقيس ، غير أنها لم تحتفظ بأصول النسبة البجاوية العربية القديمة لعدم تدوين تاريخها . ولما كانت صلتهم بنى كاهل أقرب نسبياً ، فإن صداها انتقل من جبل إلى جبل ، وحفظها الخلف

Paul, A. : *op. cit.* pp. 79 ( ١ )

( ٢ ) عوض : نفس المصدر ،

( ٣ ) أنظر ما سبق :

Trimingham, J. S. : *Islam in Ethiopia*, p. 80. c/f. Crawford, O.G.S. : *op. cit.* p. 114 ,

عن السلف ، فاصطنعوا الأنساب لتأييد هذه الصلة وتدعيمها ، وربط الوحدات الجبالية التي خضعت لهم بهذه النسبة ، وذلك لإدماجها جميعاً في قبيلة واحدة .

وعلى الرغم من اختلاف روايات البجة في تفاصيل نسبهم ، فإن هذه الروايات جميعاً تكاد تلتقي حول ثلاث شخصيات بارزة كان لها الفضل في تأسيس قبيلة البشارين ، وهؤلاء هم : بشار ، وكوكا ، وعنتو . ويعد عنتو المؤسس الحقيقي لقبيلة البشارين كما نعرفها اليوم . ومن هذا الجذ أيضاً تفرعت فروع البشارين الثلاثة المعروفة : أم علي ، وأم ناجي وهنار (١) .

وفي حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ، استطاع البشاريون في إقليم جبل علبة على البحر الأحمر أن يملئوا نفوذهم على إقليم العتاي . وفي أواخر القرن الثامن عشر ، انتزح زعيم البشارين فرصة النزاع بين بعض قبائل البجة وبين عرب البطاحين ، وغزا الأراضي الواقعة غربي نهر أتيرا وضمها إلى أملاك البشارين (٢) .

ويرتبط بقصة ظهور البشارين وتوسعهم ، اختفاء جماعة أخرى من البجة المعروفين بالحداربة . وهؤلاء هم بقية الحدارب الذين تحدث عنهم المؤلفون العرب في العصور الوسطى . والراجح أن أولئك الحداربة من أصل عربي ، قلموا من حضرموت إلى السودان عبر البحر الأحمر قبل الإسلام ، واختلطوا بقبائل البجة التالين ، وورثوا الملك والزعامة فيهم . وقد ساعد اختلاطهم بعرب ربيعة في العلاق منذ القرن العاشر الميلادي ، على استمرار تسرب الدماء العربية إليهم . وحتى القرن الرابع عشر الميلادي كان أولئك الحداربة يعتبرون في سجلات الدولة المملوكية عرباً ، وكانوا وقتذاك أكبر قوة حربية في الأقاليم التي يحتلها البشاريون اليوم . فيقول العمري عن الحداربة . . . . . وشيخ الحداربة سبرة بن ملك ، وهو ذو عدد جم وشوكة مكنية ، يفزو الحبشة وأمم السودان ، ويأتي بالتهاب والسبابا ، وله أثر محمود وفعل مأثور . ووفد على السلطان وأكرم مثواه ، وعقد له لواء ، وشرف بالترتيف وقلد . وكتب [ السلطان ] إلى ولادة الوجه القبلي عن آخرهم ، وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب للغزو معه متى أراد . وكتب له منشور بما يفتح من البلاد ، وتقليد بامرة العربان القليلة مما إلى قوص إلى حيث تصل غايته وتركز رايته . أما رسم المكاتبه إليه فيشبه رسم المكاتبه إلى بقية أمراء العربان في مصر وغيرها (٣) .

(١) عوض : نفس المصدر ، ص ٧١ .

(٢) Paul, A. : *op. cit.* p. 96 .

(٣) العمري : الترتيف ، ص ٧٧ .

ولقد أدى نفوذ مناجم الذهب والزمرد بالعراق ، وتغريب ميناء عيذاب ، في حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي إلى ضعف شوكة أولئك الحدادية واضمحلال نفوذهم <sup>(١)</sup> ، فهاجر كثير منهم جنوباً إلى إقليم سواكن ، ولم يبق منهم في إقليم العتبات سوى جماعات قليلة . وصادفت هذه التطورات ، قيام البشارين واشتداد شوكتهم ، بأن تولى زعامتهم سلسلة متتالية من الحاربيين ذوى الكفاية والأطاع البعيدة ، فأقصى تنازع البقاء إلى نشوب نزاع طويل بين البشارين وبين بقايا الحدادية ، انتهى بطردهم أواخر القرن الخامس عشر الميلادي <sup>(٢)</sup> . ومن بقى منهم اندمج في البشارين اندماجاً تاماً .

ومن القبائل البجاوية الصميمة التي تحسنت للاقتساب إلى العرب - ولا سيما إلى بني كاهل - قبيلة الأمرار ، وذلك على الرغم من أنهم يمثلون عنصراً حامياً أصيلاً . ولعلمهم العمار الذين أشار إليهم البقبقي في القرن التاسع الميلادي . ويزعم الأمرار أنهم يتحدرون من « أم » أحد أبناء أو أحفاد كاهل . ويقال إنه كان لأمر ثلاثة إخوة : هم مرغم جد « المرغاب » ، وكمال جد « الكلاب » ، وكييل جد « الكيلاب » . ولستأ نعرف عن والد أولئك الرجال الثلاثة شيئاً . وليس من المستبعد أن يكون هؤلاء من إحدى القبائل العربية واستطاع بمصاهرته إحدى الأسر البجاوية أن يؤسس هذه القبيلة البجاوية الهامة بفروعها المختلفة . وفي حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي ، عقد لواء القبيلة كلها لشعبة عثمان التي نجحت في أن تتوسع ناحية الغرب خلال المائة سنة الأخيرة ، حتى تم لها احتلال جميع الأقاليم التي تسكنها قبيلة الأمرار اليوم <sup>(٣)</sup> .

وعلى الرغم من أن الهدندوة من صميم البجة ، فإنهم جاوروا جيرانهم من العناصر البجاوية الأخرى مثل الأمرار والبشارين في الانتماء إلى أصول عربية . ولا بد أن لهذه النسبة العربية أساساً تاريخياً . فالمعروف أن الإقليم الذي نشأت فيه هذه القبيلة كان يقع بالقرب من سواكن ، وظل هذا الإقليم مركزاً من مراكز النشاط التجاري الذي حمل لواءه العرب منذ القرن الثامن الميلادي على الأقل . غير أن أثر الجماعات العربية التي هاجرت إلى هذا الإقليم ، قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، فبين اختلطت بهم من البجة كان ضئيلاً ، بالقياس إلى أثر الجماعات العربية التي وفدت إلى هذا الإقليم

Paul, A. : *op. cit.* p. 76. ( ١ )

Ibid. *op. cit.* p. 78. ( ٢ )

( ٣ ) عرض : نفس المصدر ، ص ٩٨ - ١٠٠

منذ القرن الثالث عشر . ويبدو أثر الهجرات العربية المتأخرة نسبياً ، ( منذ القرن ١٣ م ) ، في نشر الإسلام والعروبة في هذا الإقليم ، مما يرويه المهندنة أنفسهم بصدد الوقوف بنسبهم عند جماعة الأشراف ، وهي الجماعة العربية التي ذكر العبري أنها كانت قطن جزيرة سواكن ، وكانت خاضعة لسلطان مصر <sup>(١)</sup> . وتذكر رواية المهندنة أن شريفاً عربياً يدعى محمد هذاب <sup>(٢)</sup> هاجر من الحجاز إلى أرض البجة . ثم تزوج هذا الأمير العربي أميرة من أحفاد أمير بجاوى يدعى شكابل . وأنجب الشريف العربي من الأميرة البجاوية فتي يدعى محمد مبارك ، وهو الذي عرف باسم محمد براكون ، أى : محمد الجرى . ثم تزوج محمد براكون هذا من فتاة عربية شريفة الأصل تدعى هدات . وقد أنجبت هذه السيدة سبعة أولاد تأصلت فيهم الدماء العربية عن طريق أمهم هدات وجدهم هذاب .

ويستدل من روايات المهندنة أن عهد محمد براكون ، لا يرجع إلى أبعد من أواخر القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر ، وهو الوقت الذي بدأ فيه اسم « هندنوة » في الظهور على مسرح الحوادث في الوطن البجاوى . ويقال إن اسم « هندنوة » هذا مشتق من « هاندنوه » ، أى قبيلة الأسد ، أو من « هاندنوه » أى قبيلة هدات <sup>(٣)</sup> . ولعله مشتق من اسم قبيلة بجاوية قديمة تدعى « حدان » ، وهي القبيلة التي ذكر ابن حوقل أنها كانت تسكن في الطريق الموصل بين فقط وميناء عيذاب <sup>(٤)</sup> .

وليس من شك أن القرن السادس عشر الميلادى ، شهد صراعاً عنيفاً بين قبائل البجة نفسها من ناحية ، أو بينها وبين مملكة الفونج لوقف امتداد نفوذها إلى أوطانهم من ناحية أخرى . وربما يرجع أول نشاط المهندنة في سبيل التوسع إلى هذا القرن كذلك . ولم تكن المصاهرة بينها وبين جماعات من البجة ، أو العرب من الجعليين والشكرية ، أو الفونج ، هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق مشاريعهم التوسعية ، بل لجأوا إلى وسائل أخرى منها : السلب والنهب ، وشن الإغارات على جيرانهم . ففى أوائل القرن السابع عشر ، استطاعت جماعة المهندنة أن تطرد بقايا البلو مما هو معروف في الوقت الحاضر باسم إقليم أركويت وسنكات <sup>(٥)</sup> ، وأن تدفعهم نحو الجنوب . واستطاعت شعبة أخرى أن تزيج

( ١ ) العبري : مسالك الأبصار ، ج ٢ ، ص ٣١٢

( ٢ ) Paul, A. : *op. cit.* p. 77.

( ٣ ) Ibid, *op. cit.* p. 77, n.

( ٤ ) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، ص ٥٥ - ٥٦

( ٥ ) Paul, A. : *op. cit.* pp. 77-78.

البشارين نحو الغرب . واتنز ويلالى محمد اضحلال مملكة الفونج في أواخر القرن الثامن عشر ، وأخذ في التوسع على حسابها ناحية الجنوب . ثم تغلب ابنه وحفيده على جماعات كثيرة من الحانقا وملهتكنا ، حتى تم له احتلال دلتا القاش<sup>(١)</sup> . ويعتبر الربع الأول من القرن التاسع عشر ، آخر مرحلة من مراحل توسع المهدندوة ، وإدماج وحدات صغيرة من البجة ، أو من غير البجة ، حتى أضحووا قبيلة من أعظم قبائل البجة ، وأكثرها عدداً .

أما بنو عامر ، فال معروف أن ديارهم تقع في أقصى الجنوب الشرق من أوطان البجة ، وهي موزعة بين السودان وأرتريا . وعلى الرغم من أن موقع هذه الديار يعرضها لمؤثرات مختلفة مصدرها الهضبة الحبشية وسواحل بلاد العرب المقابلة ، فإن هذه المؤثرات اقتصرت ، في الغالب ، على النواحي الثقافية والاجتماعية . ويعنى هذا أن بنى عامر من سلالة البجة القدماء الذين احتفظوا بكثير من الخصائص الحامية ، على حين أنهم — كغيرهم من قبائل البجة الأخرى — يقفون بنسبهم عند أصول عربية . فذكر روايات بنى عامر أنهم ينسبون إلى عامر من بنى كاهل . وليس في هذه النسبة ما يدعو إلى نفيها أو استبعادها . ذلك أن الإقليم الذى يحطه بنو عامر في الوقت الحاضر ، كان مجالاً لنشاط عربى واسع قبل الإسلام وبعده . فاللغة التى يتحدث بها معظم بنى عامر في الجنوب — وهى لغة تجرة — مشتقة من لغة الجزر القديمة ، وهى اللغة التى تشبه اللغة الحميرية اليمنية . أما بقية بنى عامر — ولا سيما فى الشمال — فإنهم يتكلمون اللغة التبتاوية<sup>(٢)</sup> . وفى الدليل على ازدياد نشاط العرب التجارى في أوطان بنى عامر بعد الإسلام ، قيام ميناء باضع ، وهو الميناء الذى ظل مركزاً من مراكز النشاط التجارى العربى مدة خمسة قرون على الأقل<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن أوطان بنى عامر كانت تقع في مملكة بقلين ، أو قريباً منها ، وهى إحدى الممالك البجاوية الخمس التى ذكرها اليعقوبى<sup>(٤)</sup> في القرن التاسع الميلادى . ولا بد أن سكان بقلين من سلف بنى عامر تأثروا ، إلى حد كبير ، بنشاط الجماعات العربية في مملكة بقلين ، التى كانت

Ibid. op. cit. p. 97. ( ١ )

( ٢ ) راجع ، عرض : نفس المصدر ، ص ١٢٧ - ١٢٨

( ٣ ) راجع ما سبق خاصاً بميناء باضع .

( ٤ ) راجع ما سبق ، C/I. Crawford, O. G. S. : The Fung Kingdom of Sennar

pp. 99-108.



— على قول ابن حوقل — تحت حكم ملك مسلم يتكلم العربية وبها مسلمون كثيرون يشتغلون بالتجارة ويسافرون إلى مكة وغيرها <sup>(١)</sup> .

غير أن اختلاط العناصر العربية انحصر ، فيما يبدو ، على الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في بني عامر ، ولم يتناول عاصمتهم ، ولذا حافظ هؤلاء على صفاء جوهرهم الحماسي ، وإن كانوا تأثروا بالآثار العربية ، ثقافية كانت أو اجتماعية . ذلك أن بني عامر ساد بينهم نظام طبقي صارم . فالعشائر والبطون المختلفة تتألف كل منها من طبقتين : الأولى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة ، والثانية طبقة الموالى أو العبيد « Serfs » . ويبدو أن ثم قيوداً كانت تحول دون اختلاط هاتين الطبقتين عن طريق الزواج <sup>(٢)</sup> ، ومن ثم ظلتا طبقتين منفصلتين تماماً . على أن أفراد بني عامر من دون سائر البجعة بالنظام الطبقي الإقطاعي يدعوننا إلى التساؤل . ما مصدر هذا النظام ؟

سبق أن ذكرنا أن الإقليم الذي يحتله بنو عامر في الوقت الحاضر قامت به دولة لم تكن تعرف بدولة بني عامر ، بل دولة البلو . ولعل هؤلاء البلو من بقايا البليين الذين أشار إليهم كل من الإدريسي وابن الوردي كما سبق أن ذكرنا . وغدا اسم أولئك البليين أو البلو علماً على العناصر العربية في الأقاليم الجنوبية من أوطان البجعة منذ القرن الخامس عشر الميلادي على الأقل <sup>(٣)</sup> . ويبدو أن أولئك البلو من بقايا البليين والحداربة ، كانوا لا يزالون يتصفون بصفات خاصة تميزهم عن سائر الجماعات التي خضعت بعد لسلطانهم . ولا بد أنهم أحسوا بضرورة المحافظة على كياناتهم ووحدةهم ، ومن ثم أخذوا يحتلون البلاد المجاورة ، حتى بسطوا نفوذهم على جميع الأقاليم التي تمتد على طول ساحل البحر الأحمر ، من جنوب مصوع إلى شمال سواكن ، وتمتد غرباً إلى البحر الأوسط لحوض الجاش . وموضع الأهمية هنا أن أولئك البلو ظلوا طبقة أرستقراطية حاكمة لم تختلط بعامة البجعة الذين غلوا تحت طبقة الموالى أو العبيد . ولعل أهم أثر لجماعات البلو هو نشر الإسلام بين موالهم من البجعة .

عاشت دولة البلو بنظامها الطبقي الإقطاعي وملكيها الوراثي ما يقرب من ثلاثة قرون ، أي من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر : غير أن بوادر الاضمحلال والتدهور

( ١ ) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٥ - ٥٦

( ٢ ) Paul, A. : *op. cit.* pp. 84-87.

( ٣ ) C/f. Crawford, O. G. S. : *op. cit.* pp. 111-112.

أخذت تدب في أوصالها منذ القرن السادس عشر الميلادي . فقد أدى احتلال الأتراك العثمانيين لسواكن سنة ١٥٢٠ م إلى الضغط على مملكة البلو الإسلامية من ناحية الشرق ، ومشاطرتها في جباية رسوم السفن المارة بسواكن ، فضلاً عن مشاركتها في الإتاوات المفروضة على القوافل الصاعدة إليها والمنحدرة منها إلى داخلية البلاد . أما في الغرب فقد ظهرت قوة الفونج وحلفائهم العبد اللاب ، وهؤلاء حاولوا مد نفوذهم شرقاً على قبائل البجه . لكن محاولاتهم في هذا الاتجاه لم يقدر لها النجاح تماماً ، بسبب المقاومة العنيدة من جانب البشارين والمهندوة وغيرهم من البجه . لكن استمرار ضعفهم على مملكة البلو أدى إلى اقتراع بعض أقاليمها ، وإن لم يؤد إلى زوالها<sup>(١)</sup> .

غير أن ثم تحولاً خطيراً حدث لهذه الدولة في أوائل القرن السابع عشر . فقد زال اسم البلو الذي عرفت به الدولة ، واختفت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من البلو ، وحل محلها طبقة أرستقراطية حاكمة جديدة تعرف باسم التنتاب . ويلاحظ أن تلك الطبقة الأرستقراطية الحاكمة الجديدة ورثت عن البلو نظامهم الطبقي المعروف . وليس من المعروف تماماً كيف حدث هذا الانقلاب الفجائي .

تذكر روايات بني عامر أن قنباً من شعبة الشعديناب من العرب الجعليين يدعى على إبر القاسم ، تزوج ابنة إدريس محمد ملك البلو . بيد أن هذه الزيجة لم يرض عنها فريق من البلو ، وأرغموا الملك إدريس على قتل القنبه الجعلى على أبي القاسم . ثم ولدت الأميرة البلوية طفلاً أسسته عامراً . ولم يلبث عامر هذا أن شب وعرف ما حل بأبيه ، فاستعد للأخذ بثأره . واستعان عامر بأقاربه من الجعليين على حرب البلو ، وما زال يحاربهم حتى أوقع بهم هزيمة ساحقة عند أسارامارد هيب قرب عقيق . ونجح عامر في تأسيس طبقة حاكمة جديدة عرفت باسم التنتاب نسبة إلى أبيه على أبي القاسم الذي كان يلقب بنات . وغدت الدولة كلها تعرف باسم دولة بني عامر نسبة إلى عامر بن على أبي القاسم<sup>(٢)</sup> .

وكيفما كانت الوسائل التي وصل بها التنتاب إلى الحكم ، فالعروف أن النظام الطبقي الإقطاعي القديم ظل قائماً ، وكل ما حدث هو تغير اسم الطبقة الحاكمة ، وهي الطبقة المعترف لها بالسيادة والحكم بين جميع قبائل بني عامر . أما الرئيس الأعلى المعترف له بالزعامة

Paul, A. *op. cit.* ( ١ )

Crawford. O. G. S. : *op. cit.* p. 112. ( ٢ )

على جميع هذه القبائل فقد عرف باسم الذلال . أما بقية الشعب وكلم من البجاء أهل البلاد الأصليين ، فإنهم ظلوا طبقة موالى أو عبيد ( Serfs ) خاضعين لسادتهم التتباب<sup>(١)</sup> .

ومما لاشك فيه أن نجاح الطبقة الأرستقراطية العربية من التتباب فى السيطرة على الجماعات البجاوية ، والقضاء على البلو ، تم بمساعدة التوتنج . ولذا اعترف التتباب للملك سنار بالسيادة على بنى عامر . وأصبح بيد ملك سنار تعيين دقلال بنى عامر من بين طبقة التتباب . وفى سنة ١٧٣٠ م منح دقلال بنى عامر لقب مانجل ( Mangal ) ، وألبسه ملك سنار الطاقية أم قرنين . وتشير توارىخ العبد اللاب وتقاويمهم إلى امتداد سلطانهم على عشرة مقاطعات فى الصحرا ( شرق السودان ) ، وتشمل أوطان التتباب والحالقا والمهران<sup>(٢)</sup> .

مما سبق نرى أن أوطان البجاء كانت دائماً مسرحاً لنشاط الجماعات العربية فى العصرين الجاهلى والإسلامى . وإذا كان العرب الذين وفدوا إلى هذه الأوطان ، اختلطوا بالبجاء وتزوجوا منهم وتعلموا لغتهم ، فإن هذا الاختلاط ، فيما يبدو ، اقتصر فى الغالب على الأسر الحاكمة ، وذلك لارتفاع العرب بنظام وراثته الأم السائد عند قبائل البجاء ، والسيطرة عليهم . ثم إن نفور البجاء من كل غريب يطلأ بلادهم ، وصعوبة البيئة البجاوية ، لم تساعد على اختلاط واسع بين العنصرين . ولذا ظلت كثير من القبائل البجاوية على وثبيتها فى العصر الإسلامى ، حتى إذا كان القرن الرابع عشر ثم الخامس عشر للهجرة ، تم تحويل هؤلاء جميعاً إلى الإسلام . والغالب أن بنى كاهل كانوا أصحاب الفضل فيما طرأ على المجتمع البجاوى من تحول إلى الإسلام خلال هذين القرنين . ولذا يفضل معظم قبائل البجاء — ولا سيما البشاريون والأمراء وبنو عامر — الانتساب إلى الكواهلة من دون سائر العرب الذين وفدوا إلى ديارهم بعد الفتح العربى لمصر . وكيفما كان الأمر فقد كانت أوطان البجاء بمثابة مستودع أمد السودان بعدد من القبائل العربية التى انتشرت منها إلى بقاع السودان شرقاً وغرباً وجنوباً . ومما لاشك فيه أن مصر كانت المصدر الرئيسى لهذه الهجرات العربية إلى السودان عبر أوطان البجاء .

Paul, A. : *op. cit.* p. 85. ( ١ )

Ibid. *op. cit.* p. 93. ( ٢ )



## الطباعة في مصر خلال الحملة الفرنسية

١٧٩٨ - ١٨٠١

للكرناتور خليل صابات

كانت مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، غارقة في بحر من الجهالة والفقر والمرض ، يحكمها المالك حكما استبداديا يسوده الاضطراب والفوضى ؛ فعم الظلم كل أرجائها وانتشر الخراب في أركانها . وكان الحكام يتفننون في فرض الضرائب على السكان ويوسلون بشق الطرق لجبايتها ؛ فمن تعذيب وتشريد إلى مصادرة وتقتيل ، فلا عجب أن قل عدد السكان ، وحلت الجاهالة محل العرفان ونخم البؤس على الأرض الطيبة <sup>(١)</sup> .

« وكان الدين هو الصلة الوحيدة التي تربط الفلاح — خنية تلك الفوضى — بالملوك الذي كان يستغلها أسوأ استغلال » <sup>(٢)</sup> . وكانت السلطة المحلية مرتبطة بالسلطة المركزية برابط واه يجعلها عمليا في حكم المستقلة ؛ ودلينا على ذلك أن الوالي أو الباشا الذي كان يعينه الباب العالي ، لم تكن له ، من حيث الواقع ، أية سلطة فعلية <sup>(٣)</sup> .

وعلى الرغم من هذه الفوضى التي كانت مضرب الأمثال ، فإنه كان على الحكومة ، إن صح أن نطلق عليها هذا الاسم ، أن تصل رعاياها أو بضحاياها ، إن شئنا الدقة في التعبير ، لنهى الهم أوامرها وقوانينها . ولما كانت أدوات الحكم ووسائله ترجع كلها إلى نظم وضعت في العصور الوسطى ، لم يكن بد من أن يوصل الحاكم بنفس طرق الأعلام التي كانت متبعة في عهدى الفاطميين والأيوبيين . وإن المراسم التي كانت تحفر أو تلصق على الحوائط والتي حدثنا عنها فإن بركم <sup>(٤)</sup> وجاستون فييت <sup>(٥)</sup> والتي عبر استخدامها

(١) Volney : Voyages en Syrie et en Egypte, Tome I, pp. 172 et 173

(٢) Volney : *op. cit.*

(٣) Gaulmier, L'Ideologue Volney, p. 52

(٤) Van Berchem, matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, p. 745

Documents 539 et 720. Document 525.

(٥) G. Wiet, Les Inscriptions Arabes d'Egypte, p. 5.

في أوائل عهد المماليك ، انخفضت تماماً في أواخر القرن الثامن عشر . ولجأ أولياء الأمر إلى الاعلام الشفهي ، ذلك أن الطباعة لم تكن قد عُرِفَت بعد في مصر .

ومن العجب أن تظل أرض الكنانة فترة طويلة من الوقت بعيدة عن الاستفادة من الطباعة ، ذلك الاختراع الذي ابتدعه العقل البشري ، لينشر به نور العلم والعرفان ؛ ويزداد الانسان عجباً عندما يلتقي نظرة إلى العصور القديمة ، فيرى في مصر حضارة فريدة ، كانت المشعل الذي استضاءت به أرجاء العالم المعروف آنذاك . ويرجع سبب هذا التأخير إلى الاضطلال الذي أصاب الشعب المصري خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ذلك الاضطلال الذي نتج عن تعسف المماليك وقتر السكان وإفلاس البلاد الكلي . ويصف الرحالة قولني تلك الحقبة من تاريخ مصر وصفاً دقيقاً رائعاً . فيقول « ... هنالك عقبة كئود تحول دون حدوث أي تطور في مصر ، وتلك العقبة هي جبل الشعب المطبق الذي أعمى البصائر ، بحيث أصبحت لا ترى الآفات التي تعانها البلاد ولا تبحث عن وسائل علاجها . . . . ويكفي أن نلاحظ أن هذا الجبل المنتشر بين طبقات الشعب جميعاً ، قد أثر على مختلف أنواع المعارف ، أدبية وعلمية وفنية . . . . ولا يجحد الانسان في القاهرة إلا شخصاً واحداً يستطيع إصلاح الساعات ، وهو أوروبى . . . . ونسج الحرير هو الصناعة الوحيدة التي قطع المصريون فيها شوطاً بعيداً من حيث دقة الصنع وبجماله ، غير أن سعر هذا المنسوج أغلغل عما هو عليه في أوروبا » (١) .

فلو أن حكم المماليك للبلاد كان صالحاً ، لعرف أحفاد القراينة المطبعة في أوائل القرن الثامن عشر على أكثر تقدير . وآية ذلك ، أن البلاد المجاورة لمصر أو عدداً كبيراً منها ، صرف الطباعة في حوالى ذلك التاريخ .

فما لا شك فيه ، أنه في أواخر العصر الحديث ، دخلت الطباعة جميع البلاد المتحضرة التي لها حكومة مركزية وقانون مكتوب ومصالح إدارية مختلفة ، إن لم تكن لطبع الكتب ، فلنشر الجريدة الرسمية وما إليها من أوامر ولوائح .

أما مصر ، فإن ضعف الولاة العثمانيين فيها ، والصراع الذي نشب بين المماليك على حكمها حكماً بعيداً عن العدل وأبسط قواعد الانسانية ، جعلها تتخلف عن موكب الحضارة الذي بدأ يمتد في قسطنطينية والامية بين سكانها الأمنين . فلم يكن

يعرف القراءة والكتابة إلا نفر قليل جداً<sup>(١)</sup> . وكان أغلب السكان يعيشون على الزراعة والبقالة وشراء الرقيق وبيعه وبعض الصناعات المحلية . أما عدد الأدباء والمفكرين ، فكان لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة . اشتهر منهم الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبري ، صاحب كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، والشيخ علي بن أحمد المالكي ، والشيخ حسن الحجازي الشاعر المصري المعروف ولستا في حاجة إلى القول ، والحالة هذه ، بأن الانبثاق على الانتاج الفكري كان ضعيفاً وأن اهتمام الناس بالأدب كان ضئيلاً ، إن لم يكن نادراً .

وكان الذين يستطيعون القراءة في القاهرة لا يتجاوزون ربع عدد سكانها الذكور ، أما النساء ، فكان في غالبيتهم لا يعرفن تهجى حرف واحد من حروف الأبجدية<sup>(٢)</sup> .

ويقول لنا جيمار<sup>(٣)</sup> ، إن التعليم العام لم يكن له وجود في مصر ، إلا بالقرى اليسير . فالتعليم الأولي الذي لم تكن تمتنع به إلا النخلة الضئيلة ، كان من اختصاص المشايخ<sup>(٤)</sup> ذوى الثقافة المحدودة<sup>(٥)</sup> الذين كانوا يقومون بتعليم الصبية في الكتاتيب ، مبادئ القراءة والكتابة والحساب ويحفظونهم بعض آيات الكتاب الكريم<sup>(٦)</sup> . ولما كان هذا المنهج التعليمي لا يوافق غير المسلمين ، فإن الأقباط ألحقوا بكتائبهم فصولاً لتعليم أطفالهم . وكان « العرف » يقوم بهذه المهمة مستخدماً كتاب المزامير أو الإنجيل في تعليم تلاميذه القراءة والكتابة<sup>(٧)</sup> . ويضيف « جالان » إلى ذلك ، الحساب ويقصره على أبناء الأقباط دون غيرهم . ويلاحظ أن التعليم كان امتيازاً يتمتع به أولاد الأغنياء من مسلمين وأقباط<sup>(٨)</sup> .

وقد أهمل المصريون العلوم إهمالاً لا مزيد عليه<sup>(٩)</sup> . أما التعليم العالي فكان إسماعيلياً على غير مسمى ؛ وكان مقصوراً على طلبة الأزهر ، أى على هؤلاء الذين كانوا يعدون أنفسهم

La Description de l'Egypte, Tome XVIII, p. 63 (١)

La Description de l'Egypte, Tome XVIII, p. 63 (٢)

Guemard, Les Réformes en Egypte, p. 290 (٣)

Guemard, op. cit., p. 290 (٤)

(٥) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ١٣

Guemard, op. cit., p. 290 (٦)

La Description de l'Egypte, Tome XVIII, p. 66 (٧)

A. Galland, Tableau de l'Egypte, Tome I, p. 151 (٨)

Arminjon, Les Universités musulmanes d'Egypte, Revue de Paris. Tome V, (٩)

1904, p. 302

الحياة الدينية أو القضاء . وكان شيوخ الأزهر يعلمون تلاميذهم الشبان القرآن والفقه والحديث والفلسفة الإسلامية (١) .

ولم يكن الأزهر في ذلك العهد جامعة بكل معنى الكلمة ، بل كان مدرسة كبيرة ، أو كلية لتعليم أصول الدين وعلومه المختلفة لا يأتي أساتذتها بأى تجديد بل لا تغالى إذا قلنا أنهم كانوا يعتبرون التجديد مروفا وزندقة وثورة على الأوضاع القديمة الراسخة في القلوب لا في العقول . وكان الشعب يقدر هيبة التدريس هذه كل التقدير ويضعها موضع الاحترام والتكريم ويعتقد أن الله تعالى قد وضع فيها سره واتمناها على مكنونات العقل ففدت المستودع الأمين الذى يعلق على الناس بين الحين والحين من فيض نعمائه وسليم منطقته (٢) .

صحح أن الأزهر ظل مركزاً للدراسات الإسلامية ؛ ولكن ، بعد أن كان مبعثاً لحياة ثقافية دافقة في العهد الفاطمى ، من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، وفي العهد الأيوبي . بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر ، أصبح يعيش على تراث صيته القديم . لقد أضاع الأزهر بشعاعه العالم الإسلامى كله خلال القرون الوسطى (٣) . ولكن هذا العصر الذهبى قد ولى وأدبر . فانخفض مستوى طلبة تلك الجامعة بانخفاض مستوى أساتذتها الثقافى (٤) .

ولما كانت الحكومة تهمل المطبعة تماماً ، ولما كان في غير إمكانها الاتصال بالشعب كتابة ، فقد ظلت محتفظة بأداة الاعلام ذاتها التى كانت مستعملة في العصور الوسطى ألا وهى « المنادى » ذلك لأنها ، أى الحكومة ، لم تكن تشعر بحاجة ملحة إلى صحيفة رسمية . وإلى جانب الأوامر التى كان يذيعها المنادى على الشعب ، فإن القوانين التى كان لها بعض الصلة بالحياة الدينية ، كانت تذايع من المسجد بعد صلاة الجمعة (٥) . ولا يخفى على أحد الأثر النفسى الذى كانت تحدثه هذه القوانين في أذهان المؤمنين ، لذا فإن الحكام كانوا كلما أرادوا نشر أمر أو قانون ، طلبوا إلى أئمة الماجد إذاعته ليثبت في الأذهان وليعمل الكل على تنفيذه كأنه أمر آت من السماء .

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ٩ ، ١٠

(٢) Carra de Vaux, Les penseurs de l'Islam, Tome V, p. 253

(٣) Arminjon, ibid., pp. 306 et 314

(٤) أحمد عزت عبد الكريم ، نفس المرجع ، ص ٨ و 71 La Description de l'Egypte p.

(٥) أحمد عزت عبد الكريم ، نفس المرجع ، ص ٦



وخلاصة القول ، فإن المنادى والامام كانا في مصر الوسيلة الوحيدة لإذاعة الأخبار ونقلها قبيل وصول الحملة الفرنسية . وهكذا كتب على المصريين أن ينظروا إلى عام ١٧٩٨ ليشتفيوا من الجبر المطبوع ، أحدث وسيلة للاعلام في ذلك العصر . ونستطيع أن نقول ، إنه بفضل مطابع بوناپرت ، عرفت مصر الصحافة الرسمية والجريدة النورية بمناها الحقيقي .

فقد أمر قائد عام الجيوش الفرنسية بأن تطبع منشوراته وبياناته جميعا . يضاف إلى ذلك أنه أسس صحيفة إخبارية أطلق عليها « كورييه دوليجت » ومجلة علمية أدبية أسماها « لاديكاد إيجيسين » .

بيد أن الشعب المصرى لم يستفد من مطابع الفرنسيين أية فائدة . فقد اقتصرت أعمالها على مطبوعات الجيش والمجمع العلمى والمنشورات التى كانت تعلق على أبواب الحارات ، وعلى طبع الصحيفتين . ولم يحاول الفرنسيون تعليم المصريين فن جوتنبرج ، كما فعل محمد على بعد ذلك بحوالى عشرين سنة . ويبدو لنا أن عدم الاستقرار الذى لازم الحملة طوال وجودها في مصر ، ونفور المصريين من المحتل الأجنبى وجلبهم المطبق ، وعدم اهتمام رجال الحملة بمحو الأمية المتفشية في مصر ، حالت بين أهل الوادى وتدريبهم على الطباعة أو العناية بها على الأقل . ودليلنا على ذلك أن الجبرى الذى وصف لنا كل صغيرة وكبيرة ، لم يذكر في كتابه شيئا عن عناية مواطنيه بالطبعة واحفائهم بها .

### إعداد مطابع الحملة :

لم يكن احتلال مصر في نظر بوناپرت إلا خطوة أولى ستلوها خطوات . فقد كان يهدف إلى التوسع شرقا للاستيلاء على الهند والتوجه من مصر شمالا ليرتد أقدام فرنسا في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، ثم يولى وجهه منظر آسيا الصغرى والآستانة فيحتلها ليعيد الامبراطورية الرومانية الشرقية إلى الوجود .

إن هذا المشروع الضخم لم يكن في حاجة إلى جنود يجيدون الطعن والنزال ولا إلى قواد يضعون الخطط الحربية وينفذون أوامر رئيسهم الأعلى بكل دقة ، ولا إلى مدافع وذخائر ، نعم لم يكن بحاجة إلى كل أولئك بقدر حاجته إلى علماء وأدباء وفنانين . إن الشرق لا يمكن إخضاعه بقوة السلاح . فهو إن سكنت على الضم يوما أو أباما ،

فان سكوته لا يعتبر تسليماً بالامر الواقع ، بل صبراً وتحيناً للفرص المواتية . لقد أدرك بونايرت منذ اللحظة التي قرر فيها احتلال مصر ، أن السلاح الماضى الذى قد يكسب به قلوب المصريين هو الدعاية . فكان عليه إذن أن يعد العدة لها ويوطد أركانها بمطبعة يحملها معه لتساعده فيما يرى اليه . ومما يؤيد إيمان بونايرت بقوة المطبعة أنه كتب إلى Arnault فى الثانى عشر من شهر ترميدور سنة ٥ يطلب اليه أن ينشئ مطبعة يونانية فى جزيرة كورفو « لتتوير عقول اليونانيين وإعدادهم لإحياء الحرية فى تلك البقعة المهمة من أوروبا » (١) .

ويحرص بونايرت على أن يزود المطبعة التى سيحملها معه إلى مصر بالحروف العربية (٢) واليونانية والفرنسية . وعلى الرغم من كثرة مشاغله فى تصريف الأمور التى ألقاها على عاتقه تبعات الحملة ، فقد عنى عناية خاصة برجال ومعدات المطبعة الجديدة . إن من أخص خصائص عبقرية بونايرت اهتمامه بكل صغيرة وكبيرة فى المشروعات التى يكلف بتنفيذها فلا غرابة إذن فى أن يبدل عنايته بمطبعته وصحيفته وبالجمع العلمى المصرى .

وليس التحجب إلى المصريين هو الغرض الوحيد من إحضار المطبعة ، بل هناك صحيفة « كورييه ديليجت » *Courier de l'Egypte* التى سوف تحمل إلى جنده وفراذه الأخبار من هنا وهناك فتقوى روحهم المعنوية بعد أن تبين لهم أن احتلال مصر ليس مجرد نزهة بحرية . . . ومجلة « لاديكاد اجبسين » ذلك السجل الحافل الذى سيحوى أبحاث وتقارير علماء الحملة ، وغيرها من المطبوعات التى سيأتى ذكرها فى حينه .

وفى السادس والعشرين من شهر فتوز عام ٦ ، الموافق السادس عشر من شهر مارس سنة ١٧٩٨ ، اتخذت حكومة الادارة قراراً بتعبئة كافة ما يحتاج إليه بونايرت ، بما فى ذلك الحروف العربية والفرنسية واليونانية الموجودة فى مطبعة الجمهورية (٣) . ولكن يبدو أن الأمور لم تسر وفق مشيئة بونايرت . فما كان منه إلا أن أرسل فى السادس

(١) Canivet (Raoul), L'Imprimerie de l'Expédition d'Egypte, Bulletin de

l'Institut Egyptien, Série V, Tome III, p. 2

(٢) عرف الفرنسيون المطبعة العربية فى أوائل القرن السابع عشر ، بفضل عناية سفارى دى

بريت Savary de Brèves راجع A.A. Paton, A History of the Egyptian Révolution, Vol. I, London 1863, p. 211

(٣) Canivet, L'Imprimerie de l'Expédition d'Egypte, Bulletin de l'Institut

Egyptien 5e série, Tome III, p. 2

من شهر جرمينال عام ٧ الموافق السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٨ ، خطاباً إلى وزير الداخلية يشكو له بطء القائمين على تنفيذ قرار حكومة الإدارة ، ويخص بالذكر مدير مطبعة الجمهورية والمواطن لانجليس . ويرجو من الوزير أن يصدر أمره بإرسال جميع الحروف العربية الموجودة في المطبعة المذكورة عدا قولها أو أمهاتها على أن يلقى بها المواطن لانجليس الذي يفهم من رسالة نائذ الحملة أنه عدل عن السفر حائثاً بالوعد الذي قطعه على نفسه . ويطلب بونابرت من الوزير نفسه أن يأمر بإرسال الحروف اليونانية . أما الحروف الفرنسية فيطلب كميات منها من البتظ المعتاد تكفي ثلاث مطابع (١) .

لقد رفض لانجليس أن يتبع بونابرت على الرغم من جميع المحاولات التي بذلها هذا الأخير لانتاعه بالسفر . إن سياسة بونابرت الإسلامية لا يمكن أن تستغنى عن مستشرق يعرف اللغة العربية مثل لانجليس . فكان لا بد إذن من التفكير في غيره حتى يكتب للملك السياسة النجاح التام . وتمكنت الحملة آخر الأمر من اصطحاب عدد كبير من المستشرقين نذكر منهم جوير Jaubert وحنا يوسف مارسيل .

ويظهر أن معدات مطبعة الجمهورية لم تكن كافية فكلف الجنرال كافارللي Caffarelli بشراء أدوات مطبعة مختلفة بلغ ثمنها ١٠١٦١ جنياً فرنسياً (٢) .

جاءت اعتماد بونابرت على المطبعة العربية اعتماداً على المطابع الأخرى ، نظراً لما كان يروجوه منها في سياسته المرسومة إزاء المصريين . وكان حرصه عليها من الناحية السياسية كحرصه على علمائه في نجاح الحملة من الناحية العلمية . فهو شديد الرغبة في أن يصحبه إلى مصر العالم مونج Monge ، رئيس الجمع العلمي المصري فيما بعد ، فإذا اعتنر هذا لكبر سنه (٣) ، كتب إليه بونابرت في ٢ أبريل سنة ١٧٩٨ موضحاً له مكانته في الحملة ، تلك المكانة التي تعادل في القدر والمسئولية المطبعة العربية ! (٤) .

ولم يكتب القائد الأعلى للحملة بمحرف مطبعة باريس ، بل فكر أيضاً في مطبعة نشر الإيمان الكائنة بالفانيسكان ، فأرسل إلى مونج - وكان ينتد في تلك المدينة - يقول له

(١) A. Keller, Correspondance, Bulletins et Ordres du Jour de Napoléon, Tome IV, p. 120, Paris sans date

(٢) Canivet, *op. cit.*, p. 3

(٣) Driault, Napoléon le Grand, Tome I, p. 175

(٤) Correspondance de Napoléon I, Tome IV, p. 89, Document No. 2471

« إنى أعتد على مطبعة نشر الإيمان وعليك حتى لو كلفنى ذلك صعود نهر النيل بالأسطول لاصطحابك » (١).

وفى الخامس والعشرين من شهر فنتوز ( ١٥ مارس ) ، أعلن مونج أنه سيأخذ من جمعية نشر الإيمان ثلاث طابعات مع كل لادوات اللازمة لادارتها . وأنه سيضم لها حرفا لاتينية وعربية وسريانية ، وأنه « يجلب بعض عمال الطباعة معه ، ولكن عددهم لن يكون بالقدر الذى يريده بونابرت » (٢) .

وفى السادس عشر من جرمينال الموافق ٥ إبريل ، يكتب بونابرت ملحا : « سيكون معنا من الجميع شخص ثالث . . . إنى أوصيك على الخصوص بمطبعة جمعية نشر الإيمان العربية » . وكتب ديزيه الذى كان بصحبة مونج فى روما ، رسالة فى الخامس عشر من الشهر نفسه ، لينهى إلى القائد العام « أن مونج لم يجد أية خريطة ولكن المطبعة وضعت فى الصناديق وسترسل عبر نهر النيل إلى سيفيتا فيكيا . وأن هناك أربعة مترجمين ليسوا من الدرجة الأولى ، لكنهم سيكونون خير عون لنا . . . » (٣) .

وفى الثامن والعشرين من جرمينال ، صدر أمر إلى مونج وفيدولت Faipoult ودونو Daumon وفلوران Florent بتأسيس المطبعة الشرقية وبعين مستخدميا وتحديد مرتباتهم . ويحتوى الأمر المذكور على اسمى الشرفين على سير العمل فى المطبعة ، وثلاثة منضدى حروف وثلاثة طابعين . أما المترجم فهو من مدينة ديار بكر السورية ، وأحد الملاحطين من دمشق (٤) .

ويتضح مما تقدم أن المطبعة الرسمية للحملة جمعت معداتها من مطبعة الجمهورية بباريس ، ومما أخذه مونج من مطبعة جمعية نشر الإيمان بروما (٥) .

وإلى جانب تلك المطبعة الرسمية ، حل بونابرت معه مطبعة خاصة هى مطبعة مارك أوريل .

( ١ ) المصدر السابق .

( ٢ ) Charles-Roux, Bonaparte Gouverneur d'Egypte, p. 12 et 13

( ٣ ) Canivet, *op. cit.*, p. 3

( ٤ ) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 13

( ٥ ) J. M. Carret, Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, Tome I, p. 149

كان مارك أوريل إينا لكتبي وصاحب مطبعة بمدينة فالنس سور رون Valence-sur-Rhône عرفه بونابرت عندما كان معسكرا في تلك المدينة ، فلما عزم القائد الأعلى على السفر إلى مصر اصطحب معه مارك أوريل بحروفه ومطابعه على أن يمارس فن جونبرج في وادى النيل على حساباه الخاص ، دون أن تكون له أية صفة رسمية (١) .

أما المطابع الرسمية للحملة ، فقد انقسمت إلى شعبة شرقية يرأسها إيليا فتح الله الديار بكري (٢) وإلى شعبة فرنسية يرأسها مدير يعمل تحت إمرته ملاحظ وثلاثة مصححين وتسعة عشر عاملا (٣) . وكانت هيئة المطبعة الشرقية مكونة من مترجم وملاحظين اثنين وثلاثة منضدى حروف وثلاثة طابعين (٤) .

وقد أطلق على المطبعة الرسمية بشعبتيها ثلاثة أسماء رسمية واسم شعبي . فعرفت أثناء اجتياز الحملة البحر الأبيض المتوسط ، بمطبعة الجيش البحرية (٥) . فلما أنزلت في ثغر الإسكندرية سميت « بالمطبعة الشرقية الفرنسية (٦) » . وحين استقر بها اللقار في القاهرة اتخذت اسم « المطبعة الأهلية (٧) » . أما من الناحية الشعبية فقد كان الفرنسيون يعرفونها باسم « المطبعة الجديدة (٨) » لأنها وصلت القاهرة بعد مطبعة مارك أوريل بأشهر .

### المطابع خلال عبورها البحر :

عين المستشرق حنا يوسف مارسيل على رأس المطابع العربية واليونانية والفرنسية الملحقة بالجيش (٩) . ولما أقلعت العماره الفرنسية ، كانت المطبعة الرسمية على ظهر سفينة الاميرالية « لوريان » L'Orient التي كانت تقل الجنرال بونابرت وأركان حربه .

---

Charles-Roux, *op. cit.*, p. 193 ( ١ )

Charles-Roux, *op. cit.*, p. 139 ( ٢ )

Canivet, *op. cit.*, pp. 4 et 5 ( ٣ )

Canivet, *op. cit.*, pp. 4 et 5 ( ٤ )

Canivet, *op. cit.*, p. 8 ( ٥ )

Charles-Roux, *op. cit.*, p. 139 ( ٦ )

Geiss, Histoire de l'Imprimerie en Egypte, Bulletin de l'Institut Egyptien ( ٧ )

Séme série, Tome I, p. 136

Desgenettes, Souvenir d'un Médecin de l'Expédition d'Egypte, p. 46 ( ٨ )

Amin Wassef, L'Information et la Presse Officielle en Egypte p. 66 ( ٩ )

يبد أن وجود المطبعة على نفس سفينة القائد العام لم يكن وليد الصدفة . فبونابرت يريدنا بالقرب منه ليستفيد منها في أية لحظة يشاء . وها هو ذا يأمر بأن تعمل وهي في البحر لطبع النداء الموجه لشعب مصر<sup>(١)</sup> ، والأمر الموجه للجيش والأورخ في ٤ مسيدور عام ٦ ، الموافق ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨ وفي ١٠ منه ، الموافق ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨ . وتحمل تلك المطبوعات العبارة التالية : « طبع على ظهر لوريان في مطبعة الجيش البحرية<sup>(٢)</sup> » . ويقول فرانسوا شارل رو إن بونابرت أمر بطبع البيان العربي إلى الشعب المصري قبيل احتلال الإسكندرية ، أي يوم ٢ يولييه . وهكذا نرى أن عمل تلك المطبعة بدأ قبل نزول الحملة إلى البر . ولم يقتصر نشاطها على اخراج بعض النشرات الفرنسية بل تجاوزها إلى طبع البيان العربي الذي أذاعه قائد الحملة على المصريين<sup>(٣)</sup> .

وقد يقاد إلى الذهن أن مطبعة مارك أوريل لم تبدأ عملها إلا عندما وطئت أقدام صاحبها أرض مصر ، إلا أن « جيس » يثبت لنا عكس ذلك حين يقول . « لقد رأيت بعيني البيان المطبوع في الثالث عشر من شهر مسيدور (أول يولييه) ، ويقول سيلفستر دى سامى Silvestre de Sacy إنه قام بطبعه على ظهر الفرقاطة « لاجوستيس » La Justice إحدى سفن الحملة<sup>(٤)</sup> . فإن فرض وكان مارسيل على ظهر سفينة الاميرالية « لوريان » بمطابعه ، فإن مارك أوريل لا بد وأن يكون على ظهر الفرقاطة « لاجوستيس » . ولا شك في أن الزميلين قد اشتغل كل منهما بمفرده أو كل بدوره ، حسب الظروف أو الحاجة ، في طبع البيانات المطلوبة<sup>(٥)</sup> . وإن سلمنا بما قاله جيس بالنسبة لمطبعة مارك أوريل ، فمن المؤكد أن هذا الأخير لم يطبع كلمة واحدة باللغة العربية ، لأنه لم يكن في حوزته حروف لهذا الغرض<sup>(٦)</sup> .

( ١ ) قام باعداد هذا النداء المستشرق الفرنسي فتور دى بارادى Venture de Paradis راجع Bourienne, Mémoires ... Tome II, pp. 158 et 159

( ٢ ) Canivet, op. cit., p. 8

( ٣ ) Charles-Roux, Bonaparte Gouverneur d'Egypte, pp. 139 et 140

( ٤ ) و ( ٥ ) Geiss, op. cit., p. 154

( ٦ ) Charles-Roux, op. cit., p. 140

## المطبعة في مصر :

وبعد أن تم لبونا بورت احتلال الإسكندرية ، وقبل أن يزحف منها على القاهرة ، أصدر في التاسع عشر من شهر مسيدور عام ٦ الموافق ٧ يولييه عام ١٧٩٨ ، الأمر التالي :

المادة الأولى : تعيين هيئة أركان الحرب مساعداً في مدينة الإسكندرية لازئال المطابع الفرنسية والعربية واليونانية إلى البر .

المادة الثانية : توضع هذه المطابع في منزل وكيل قصل البندنية بحيث يمكن الطبع بها ، في ظرف ثمان وأربعين ساعة ، كل ما يرسل من القيادة العامة .

المادة الثالثة : في اللحظة التي يتم فيها تركيب المطبعة العربية تطبع أربعة آلاف نسخة من البيان العربي .

المادة الرابعة : يصرف الطعام لرئيس المطبعة وعملها<sup>(١)</sup> .

ويعتبر اليوم الذي نفذ فيه هذا الأمر يوماً مشهوداً في تاريخ مصر لأنه اليوم الذي رأت فيه المطبعة لأول مرة . وأول مطبوع خرج من أرض الفراغة كان الطبعة الثانية لبيان ١٣ مسيدور المكتوب باللغة العربية والذي تحمل نسخته هذه العبارة : « طبعت بالإسكندرية في معسكر الفرنسيين » . وأشرف مارسيل بنفسه على المطبوعات العربية والفرنسية الأولى التي خرجت من مطبعة الإسكندرية<sup>(٢)</sup> .

والأرجح أن تكون مطبعة مارسيل قد أنزلت إلى البر قبل ٧ يولييه ، وهو التاريخ الذي أذيع فيه أمر بونا بورت سالف الذكر . ذلك لأن الأسطول بدأ يتحرك من الإسكندرية متجهاً نحو أبي قير ، في الليلة الواقعة بين الخامس والسادس من شهر يولييه . وقد أبحرت السفينة « لوريان » في صبيحة السابع من يولييه . يضاف إلى ذلك أن هناك ثثرة وزعت على الجيش عن « سعر العملة » « *Tarif des Monnaies* » تحمل هذه العبارة « الإسكندرية ، من المطبعة الشرقية الفرنسية » ومؤرخة في الثامن عشر من شهر مسيدور عام ٦ الموافق ٦ يولييه سنة ١٧٩٨ . ويمكن أن نخلص من ذلك كله إلى الجزم بأنه في فترة تقل عن الأسبوع ، منذ أن احتل الفرنسيون الإسكندرية بدأت مطبعة الحملة عملها في مكان ما ،

Correspondance de Napoléon I, Tome IV, p. 323, Document 2723 ( ١ )

Charles-Roux, *op. cit.*, pp. 35 et 36 ( ٢ )

غير المنزل الغنم — منزل وكيل قنصل البندقية — الذى أمر بونابرت بأن تنقل المطبعة اليه وهو راحل إلى القاهرة (١) .

ونستطيع أن نؤكد أيضا أن مارسيل هو الشخص الوحيد الذى طبع بالاسكندرية دون مارك أوريل ويؤيدنا في ذلك صاحب ترجمة هذا الطابع الأخير الذى يقول : « إن مطابعه ( أى مطابع مارك أوريل ) على الرغم من أن تركيبها قد تم بعد ثمان وأربعين ساعة من احتلال الفرنسيين للمدينة ، فانها لم تعمل في الأغلب ، بل اتجهت رأساً إلى القاهرة » (٢) .

لقد أديرت مطبعة مارسيل في الاسكندرية ، قبل أن يستقر مارك أوريل في القاهرة باثني وأربعين يوماً . إذ أن الأخير أخرج أول مطبوع له بالقاهرة في الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ .

ونشر مارسيل وهو بالاسكندرية أبجدية عربية وتركية وفارسية طبعها في المطبعة الشرقية الفرنسية وتمزيكات بالعربية الفصحى للبندريين ثم غادر الاسكندرية إلى القاهرة فوصلها في حوالى منتصف شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨

وظل مقر « المطبعة الشرقية الفرنسية » بمدينة الاسكندرية إلى نهاية عام ١٧٩٨ . وعلى الرغم من وجود مطبعة مارك أوريل بالقاهرة ، فقد ظلت — إلى أن تم نقلها إلى العاصمة — المطبعة الوحيدة التى تطبع بالعربية . وكان كبير يستخدمها في طبع مطبوعات قيادته بالاسكندرية (٣) .

وبعدئنا « جالان » أن مطبعة الحملة ظلت في منزل وكيل قنصل البندقية بعد إخلائه من مكانه ، إلى أن صدر أمر بونابرت بنقلها أو بنقل الجزء الأكبر منها إلى القاهرة (٤) .

ويؤكد « كانفي » أن المطبعة الرسمية قامت ، أثناء وجودها بالاسكندرية بطبع كل المطبوعات العربية للحملة . وثبت ذلك خطاب أرسله بونابرت إلى كبير في ٢٧ فروكتيلور عام ٧ ، الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، يقول له فيه : « أبعث اليك ، أيها القائد المواطن ،

---

Charles-Roux, *op. cit.*, p. 140 ( ١ )

Cité in Geiss, *op. cit.*, p. 145 ( ٢ )

Charles-Roux, *op. cit.*, p. 141 ( ٣ )

Cité in Canivet, *op. cit.*, p. 10 ( ٤ )



على هذا الخطاب ، صورة من الرسالة الموجهة إلى شريف مكة من مشايخ القاهرة ووجهائها ، أرجو أن تأمروا بطبعها وأن ترسلوا لى مناسمئة نسخة وأن تخصصوا الأرخيل أربعائة نسخة . وآمل أن يطبع بوضوح أسماء الموقعين عليها .

« سلاما »

« بونايرت » (١)

ولم يكف بونايرت عن مطالبة كبير حاكم الاسكندرية ومينو حاكم رشيد ، بأن يرسلوا إلى القاهرة معدات الطباعة وبعض الطابعين . فخذ آخر يوليه وقائد الحملة يستعجل إرسال المطبعة ، فيكتب إلى كبير في السادس والعشرين من شهر أغسطس ، خطابا يقول له فيه : « . . . هناك شيء نحن في حاجة ملحة اليه ؛ إننا نريد واحدة من المطبعتين العيتين » (٢) .

كان إذن لدى الحملة مطبعتان عريبتان لا مطبعة واحدة . وهذا دليل آخر على اهتمام بونايرت بها هذا الاهتمام الشديد . ولا شك أنه كان يرغب في أن يضع إحداها في الاسكندرية ، وينقل الأخرى إلى القاهرة ، بحيث تقوم الأولى بخدمة الاسكندرية ورشيد وتتم الثانية بالقاهرة وما حولها والصعيد .

ولما ملَّ بونايرت هذا الإلحاح ، كلف الجنرال برتييه بأن يقوم به مكانه ، فهو يطلب إلى أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين ما زالوا بالاسكندرية ورشيد أن يسرعوا بالحضور . ولكن قلة عدد الجمال تقف حائلا دون تنفيذ تلك الأوامر العاجلة . وهكذا لم تصل المطابع إلا في شهر أكتوبر بعد ثورته المعروفة (٣) ، لا على ظهر الجمال ولكن عن طريق النيل (٤) .

(١) و (٢) Cité in Canivet, *op. cit.*, p. 11

Canivet, *op. cit.*, p. 11 (٣)

(٤) يكتب جالان قائلا : « . . . لم يبق من قافلنا إلا مركب واحد غير مركبنا . وكان الاثنان محملين بمعدات اللغمية وبعض الصناديق الممتلئة بحروف المطبعة الأهلية . وكانت تلك الصناديق على الرغم من صغر حجمها غاية في الثقل . . . » راجع

Gaillard, *Tableau de l'Egypte ... Tome I*, p. 59

وغل جزء من المطبعة في الاسكندرية ، اعتبر فرعاً من المطبعة الأهلية ، وكان بدوره المواطن بوسون Besson وبعاونه أحد المصححين <sup>(١)</sup> . ولكن في تقويم عام ٩ الذي كانت تصدره الحملة الفرنسية سنوياً لا نجد أثراً لتلك المطبعة . فهل يفهم من ذلك أنها قُلت هي الأخرى إلى القاهرة ؟ إن كل ما نستطيع أن نجزم به هو أن نشاط ذلك الفرع كان محدوداً للغاية . وما يثبت ذلك أن كافة المطبوعات التي ظهرت في تلك الأثناء تحمل العبارة التالية : « القاهرة ، من المطبعة الأهلية » <sup>(٢)</sup> .

### مطبعة مارك أوريل :

أما مطبعة مارك أوريل <sup>(٣)</sup> ، الطابع الفرنسي الحر الذي سمح له بونايرت بالهجرة إلى مصر ، كما سمح لكثيرين غيره من الفرنسيين ، فقد تبعت جيش القائد العام الذي غادر الاسكندرية بعد احتلالها ليخف على القاهرة . ويقول « شارل رو » : « إن بونايرت ترك بالاسكندرية إلى حين ، أكمل المطبعتين معدات وأكثرهما دقة لصوبة نقلها واكتفى في أول الأمر بمطبعة مارك أوريل لتطبع له الأوامر التي يصدرها باللغة الفرنسية . أما مطبوعاته العربية ، فقد ترك أمرها للمارسل ومطبعته بالاسكندرية ، المجهزة ، دون مطبعة أوريل بالحروف العربية » <sup>(٤)</sup> .

( ١ ) Annuaire de la République Française pour l'an VII, Le Caire, an VIII

( ٢ ) Amin Wassef, *op. cit.*, p. 78

( ٣ ) كانت في فرنسا رغبة عامة في مصاحبة بونايرت إلى مصر . إذ كان الجميع يمتدنون أن في إمكانهم جمع ثروة طائلة من تلك البلاد المليئة بالغيرات ، والعودة بها إلى فرنسا . ولكن لم يكن ذلك ، هدف النخبة التي سارت إلى أرض القراصة مع قائد عام الحملة ، نذكر منها على سبيل المثل لا الحصر « دونون » Denon الحفار الفرنسي ، والمواطن مارك أوريل .

كان مارك أوريل قد طبع لبونايرت وهو في فرنسا « عشاء بوكير » . وليس بمستبعد أن يدعو القائد العام مارك أوريل لمصاحبته إلى مصر أو يطلب هذا الأخير ذلك إلى الشخص الذي كانت تربطه به أواصر صداقة متينة ، يوم كان في فالانس وحيث كان بونايرت يتردد كل صباح على مطبعة ومكتبة والد مارك أوريل ليصفح الجرائد . ويضيف Le Grand Dictionnaire Universel du XIX siècle, Pierre Larousse إلى ذلك ، أن جوزيف إيمانويل مارك أوريل ، ولد بفالانس سنة ١٧٧٥ وهو ابن بطرس مارك أوريل ، صاحب مطبعة في المدينة نفسها . وفي سنة ١٧٩٣ عين جوزيف إيمانويل طابعا لجيش أثناء حصار طولون ، ولم يكن عمره أكثر من ثمانية عشر عاماً . وفي سنة ١٧٩٤ ألحق بمطبعة الجيش البحرية وكان مركزه على ظهر البارجة « سان كولوت » Sans-Culotte . . . وتوفي مارك أوريل في فرنسا عام ١٨٣٤

( ٤ ) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 141

ولما تم للفرنسيين احتلال القاهرة ، ركب « أوريل » مطبعته ، وهى أول مطبعة عرفتها تلك المدينة منذ أن اخترعت الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر . ووضع ذلك الطابع مطبعته تحت تصرف القيادة العامة . ويرى وأول كاتيفى ، بعد اطلاعه على الأوامر اليومية الصادرة عن الحملة ، أن إدارة مارك أوريل للمطبعة كانت إدارة شرقية لا أكثر ولا أقل . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن أوريل كان أول انسان طبع فى القاهرة بالحروف الفرنسية . كما أن مارسيل كان أول انسان طبع بمدينة الاسكندرية بالحروف العربية والفرنسية (١) .

وكان أول ما طبعه مارك أوريل أمراً يومياً بتاريخ ١٥ أغسطس ، قام بتنفيذ حروفه بنفسه ، كما فعل مارسيل من قبله على ظهر السفينة « لوريان » ، عندما طلب إليه طبع أمر يونانرت إلى جنده . وأصبح لقب مارك أوريل بالقاهرة « طابع الجيش » . وقد ظل محتفظاً به إلى اليوم الذى رحل فيه عن مصر .

وقام صاحب أول مطبعة بالقاهرة بطبع الأوامر اليومية الصادرة عن القيادة العامة ، وصحيفة كورييه دياجبت ومجلة لاديكاد اجبسين (٢) . ففى الثامن عشر من شهر فروكتيدور عام ٦ ، الموافق التاسع والعشرين من شهر أغسطس عام ١٧٩٨ ظهرت فى القاهرة أول جريدة عرفها مصر ، وقامت بطبعها مطابع مارك أوريل . ويلاحظ على الأعداد التى خرجت من تلك المطبعة أنها رديئة الاخراج كثيرة الأخطاء المطبعية . مثال ذلك أن العدد الثالث يحمل ٢٠ فرمير بدلا من ٢٠ فروكتيدور التاريخ الحقيقى له .

وقد كف مارك أوريل عن طبع الكورييه فى شهر مسيدور عام ٧ . وكان آخر عدد أخرجه من مطبعته هو العدد الثلاثون الصادر فى ١٩ جرمينال عام ٧ . أما العدد الذى يليه والمؤرخ فى التاسع عشر من شهر مسيدور ، فقد طبع فى المطبعة الأهلية . وأعلن العدد الصادر فى ٢٧ فلوريل عام ٨ عن إعادة طبع بعض أعداد الكورييه التى قام بطبعها مارك أوريل نظراً لنفاذها ونزولا على رغبة الجمهور .

وكلف مارك أوريل بطبع مجلة الديكاد أيضاً ، لأن المطبعة الأهلية ، لم تكن قد وصلت بعد إلى القاهرة . وظهر أول عدد من تلك المجلة فى العاشر من شهر فاندميز

Charles-Roux, *op. cit.*, p. 142 (١)

Charles-Roux, *op. cit.*, pp. 142 et 143 (٢)

عام ٧ ، الموافق أول أكتوبر سنة ١٧٩٨ . وتقون الكورييه عن شقيقتها الديكاد ، إنها جريدة أدبية مستعصر من الآن فصاعدا كل عشرة أيام وسيكون كل عدد من فرخين ونصف من الورق أو ثلاثة أخرخ من قطع الثمن . وثمها عشرون صولديا .

غير أنه لم يلبث أن تبين لبونابرت أن ارسال الأصول العربية إلى الإسكندرية وطبعتها أمر يحتاج إلى مجهود شاق ووقت طويل . فما كان منه إلا أن أرسل في التاسع من شهر ترميدور عام ٦ الموافق ٢٧ يولييه سنة ١٧٩٨ ، خطابا إلى الجنرال كليبر بالإسكندرية ، يقول له فيه : « ارسلوا لنا مطابعتنا العربية والفرنسية . . . » (١) .

لماذا طلب القائد العام المطبعة الفرنسية أيضاً ؟ لا شك أنه رأى في مطبعة أوريل مالا يشجع على الاستمرار في الطباعة عنده . ولا شك أنه اطلع على نماذج من أعمال مطبعتهم لم يرنج اليها كثيراً . لا بأس إذن من أن يطبع أوريل أمر ١٥ أغسطس وغيره من المطبوعات إلى أن يتم احضار مطبعة مارسيل من الإسكندرية .

ويتهى دور مارك أوريل منذ أن اجدا نشاط المطبعة الأهلية بالقاهرة ، فقد سحب منه بونابرت أولاً طبع الديكاد . ويقول شارل رو : « لم يحتفظ مارك أوريل بحق طبع الديكاد مدة طويلة ذلك أن بونابرت كان يريد أن تكون تلك المجلة متقنة الطبع فأمر بتحويلها إلى « المطبعة الأهلية » ، التي يديرها مارسيل ، وذلك في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر أى ابتداء من عندها الرابع (٢) » . فقد كتب بونابرت إلى ديجيت يقول : « بما أن المواطن مارك أوريل لا يستطيع طبع الديكاد ، وبما أنه يطبعها طبعاً رديئاً ، فيمكنك أن تطبعها في المطبعة الأهلية عند المواطن مارسيل ، مع الحرص على إصدارها بانتظام كل عشرة أيام » . والواقع أن مارك أوريل لم يطبع من تلك المجلة إلا أعدادها الثلاثة الأولى ثم قامت المطبعة الأهلية بإعادة طبع تلك الأعداد الثلاثة واستأنفت طبع الأعداد التالية .

ولكن هل تم الطبع فعلا في مطبعة مارسيل ابتداءً من ذلك التاريخ ؟ إن الدكتور ابراهيم عبده يشك في ذلك كثيراً . فالمجلة الرسمية لم تصل القاهرة كاملة

Correspondance de Napoléon I, Tome IV, p. 370, Document 2853 (١)

Charles-Roux, *op. cit.*, p. 151 (٢)

إلا في يناير سنة ١٧٩٩ ، وكانت قبل ذلك بالاسكندرية ، « يعني ذلك أن أصول الصحيفة كانت ترسل إلى الاسكندرية حيث ظلت تجمع وتطبع هناك إلى أن نقلت إلى القاهرة »<sup>(١)</sup> .

ولم يكتف بونايرت بسحب الديكاد من مارك أوريل بل أمر أيضاً بسحب الكورييه . وهكذا لم يعد أمام ذلك الطابع أى أمل من بقائه في مصر بعد تلك الضربة القاسية ، فباع مطابعه ومعداته للحملة ورحل إلى فرنسا<sup>(٢)</sup> .

كلف بونايرت ، ديجيت وفونفور Venture وبورين بمفاوضة مارك أوريل في شراء مطابعه وأوصاهم خيراً به لما لوالدته من فضل على قائد الحملة<sup>(٣)</sup> .

وطلب أوريل خمسة آلاف فرنك نمنا لمطابعه ، وقبل آخر الأمر أربعة آلاف وخمسمائة . غير أن مفاوضات البيع لم تلبث أن قطعت بسبب زحف بونايرت على سوريا ثم رحيله إلى فرنسا سراً . وقام كليير بمقد الصفقة مقابل ثلاثة آلاف جنيه فرنسي وذلك في ٢١ من شهر فركتيدور عام ٧ الموافق ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٩<sup>(٤)</sup> .

فقد أرسل الجنرال كليير في ذلك التاريخ خطاباً إلى خازن دار عام الجيش يقول له فيه : « لقد حولت المواطن مارسيل مدير المطبعة الأهلية بأن يفاوض المواطن مارك أوريل في شراء مطبعته لحساب الحكومة بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه تدفع بموجب خطاب تحويل على الخزينة العامة . فأرجو أن تصرفوا للمواطن مارك أوريل خطابات تحويل بالمبلغ المذكور »<sup>(٥)</sup> .

تلك هي قصة أول مطبعة عرقها القاهرة . وهي مطبعة على الرغم من عيوبها الفنية المتعددة ، استطاعت أن تقدم للحملة الفرنسية خلال الأشهر الثلاثة عشر التي عاشتها تحت إدارة صاحبها ، أجل الخدمات .

#### المطبعة الرسمية :

أما المطبعة الرسمية للحملة فلها قصة أطول وأمتع ، لالانها عاشت حوالي ثلاث سنوات بينما لم تكن شقيقتها إلا شهوراً ، بل لانها تركت آثاراً تعلن عنها في كل حين ، ولأن الذين

(١) إبراهيم عبده ، تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية ، ص ٨٠ ، ٨١

(٢) Canivet, *op. cit.*, p. 12

(٣) Desgenettes, *Mémoires*, Tome III, p. 170

(٤) Canivet, *op. cit.*, p. 15

(٥) M. F. Rousseau, *Kléber et Mérou en Egypte* pp. 21 et 22

أشرفوا عليها كانوا من المبرزين ، ولأنها استرعت اهتمام قائد الحملة منذ أن فكر في احتلال مصر إلى أن عاد لفرنسا .

وبعد احتلال القاهرة رأى بونايرت أنه في حاجة ماسة لا إلى المطبعة العربية فحسب ، بل إلى مطابعه الفرنسية واليونانية فأرسل يطلبها حالا . فكانت تصل إليه تباعا ويطة ملحوظ . فما كان من بونايرت إلا أن كتب في الرابع من شهر فبراير عام ٧ الموافق الرابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ خطابا إلى مينو الذي كان وقتئذ في رشيد ، يقول له فيه : « لما كنت شديد الاهتمام ، أيها القائد المواطن بأن تبدأ المطابع الفرنسية والعربية عملها على وجه السرعة ، فأرجو أن تأمر بتسليم المواطن « جارو » Garreau عشرين جملا لنقل أربعين صندوقا ما زالت في مكانها » (١) .

وأصدر قائد الحملة أمرا في الخامس عشر من شهر ترميدور عام ٦ ، الموافق ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، إلى برتوليه ومونج وقائد فرقة المهندسين الجنرال كافارللي ليشتروا في اختيار دار تصلح لإيواء المطبعة الفرنسية والمطبعة العربية ومعمل للكيمياء وقاعة للطباعة ومرصد ، إن أمكن ، وقاعة للمجمع العلمي ، على أن تكون الدار مظلة على ميدان الأزيكية أو قرية منه . وطلب اليهم أخيرا أن يقدموا له مشروعا بتنظيم تلك الدار وكشفها بمصروفاتها (٢) . واختير للمطبعة دار عثمان بك الأشقر الكاتبة بميدان الأزيكية (٣) وهي الدار التي كان يشغلها المجمع العلمي (٤) ، وعرفت المطبعة منذ ذلك الحين « بالمطبعة الأهلية » (٥) .

(١) Correspondance de Napoléon I, Tome V, p. 160, Document 3669

(٢) Keller, *op. cit.*, T. IV, p. 192

ويقول نقولا التركي في ص ٣٢ من كتابه « ذكر تملك جمهور فرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية » : « . . . ثم أمر أمير الجيوش بأن تفرز محلات معينة لأجل المطابع التي أحضرها من رومية . وجعل لذلك محلات على شاطئ اليزبكية . . . »

(٣) Correspondance de Napoléon I, Tome IV, p. 424, Document 2938

(٤) وفي أثناء إعداد تلك الدار حدث خلاف بين بوسيلج خازن دار الجيش ومارسيل مدير المطبعة على مكان إقامة الأخير . فكتب بوسيلج يشكو المدير إلى القائد العام ، وذلك في الخامس والعشرين من شهر برومير عام ٧ ، الموافق ١٥ نوفمبر سنة ١٧٩٨ وأحال بونايرت الخطاب إلى الجنرال كافارللي مع لفت نظره إلى الاهتمام بالأشياء قبل الأشخاص .

Cité in Canivet, *op. cit.*, p. 11

(٥) عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ص ١٤٤

Canivet, *op. cit.*, p. 11

ويزعم « دهيران » Dehéran أن المطبعة الرسمية ، أى مطبعة مارسيل لم تنقل إلى القاهرة إلا في يناير سنة ١٧٩٩<sup>(١)</sup> . حقاً إن مطابع مارسيل لم تبدأ عملها بالقاهرة إلا في ذلك التاريخ ، إلا أنها كانت قد وصلت العاصمة أو قل وصل جزء كبير منها في أكتوبر سنة ١٧٩٨<sup>(٢)</sup> ولكن معداتها لم تكتمل وتصبح في حالة تسمح لها بطبع ما تكلف به إلا في يناير سنة ١٧٩٩<sup>(٣)</sup> .

ويبحث « كانيشي » في وثائق الحملة فتمر على قائمة بأسماء جميع الذين عملوا في القسم الفرنسي من المطبعة الرسمية وعدددهم إثنان وعشرون قياً عاداً المدير حنا يوسف مارسيل الذي كان يتقاضى مرتبه بوصفه عضواً في لجنة العلوم والفنون . ويتبعه في الأهمية الوكيل وثلاثة معصحين ويأتى أخيراً أعمال المطبعة وعدددهم ثمانية عشر . وقد بلغ مجموع المرتبات التي كان يتقاضاها هؤلاء ٣٨٥٠ جنياً فرنسياً<sup>(٤)</sup> .

وفي الثامن والعشرين من شهر جرمينال عام ٦ ، الموافق السابع عشر من شهر أبريل سنة ١٧٩٨ قام مندوبو حكومة الإدارة وهم مونج وفيولت Faipoult وداونو Daunou وفلوران Florent بتكوين هيئة القسم الشرق من المطبعة الرسمية . فبين الياش فصح الله الديار بكرى مترجماً وأنطون مسابكي الدمشقي وجيوفاني جيورجي ، الذي حل محله جيوفاني رينو ، ملاحظين . ولم يتجاوز عدد متضلى الحروف ، الثلاثة . وكان عدد الطابعين مساوياً لعدد متضلى الحروف<sup>(٥)</sup> .

وبعود فضل نجاح تلك المطبعة إلى جهود مديرها حنا يوسف مارسيل . فإنه لم يكن مستشرقاً فحسب ، بل كان صحفياً أيضاً . وقد مهلت عليه تلك المهنة الأخيرة الإلمام بالنقطة المطبعية الذي لم يكن يعرف عنه الشيء الكثير<sup>(٦)</sup> . وكان مارسيل إلى جانب ذلك مؤرخاً من الطراز الأول وموظفاً يؤدي عمله بأمانة وإخلاص . وقد أهلت تلك الصفات مجتمعة ، صاحبها لتولى إدارة المطبعة الأهلية في مصر ، ثم إدارة مطبعة الامبراطورية بباريس .

( ١ ) Hanotaux, *op. cit.*, Tome V, p. 397

( ٢ ) Canivet, *op. cit.*, p. 11

( ٣ ) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 144

( ٤ ) Canivet, *op. cit.*, p. 4, et Canivet, *L'Expédition d'Egypte, La Revue*

*Internationale d'Egypte*, p. 18, Tome III, N° 1, Janvier 1906

( ٥ ) Canivet, *op. cit.*, p. 5

( ٦ ) Belin, *Journal Asiatique*, 5e série 1854, Tome III, p. 555

ويذكر معجم لاروس عن حنا يوسف مارسيل أنه ولد بباريس سنة ١٧٧٦ وتوفي سنة ١٨٥٤ وألحق سنة ١٧٩٨ بـلجنة العلوم والفنون التابعة للحملة الفرنسية<sup>(١)</sup>. ويذكر الدكتور ابراهيم عبده أنه كان لمعرفة مارسيل « للغة العربية دخل كبير في اختياره مديرا لمطبعة الحملة ، غير أن نشاطه بعد انتخابه عضوا في لجنة العلوم والفنون ، كان مقصورا في أكثره على اللجنة دون المطبعة<sup>(٢)</sup> » ثم يستطرد : « إن مارسيل كانت وظيفته إدارية محضة لاصلة بينها وبين تقرير ما ينشر في المطابع ، وإن مسئولياته الرسمية تنحصر في الأشكال ، في إخراج الصحفين ونشر الأوامر والقرارات دون أن يكون له حق الإضافة أو المحو والتغيير ، بل على مطابقه أن تخرج مطبوعاتها صحيحة خالية من الأخطاء في ميعاد معلوم<sup>(٣)</sup> » .

ويخبرنا « دوپون » Dupont أن مارسيل كان أول من حاول الطبع بالذهب ، وقد عرض نماذج من مطبوعاته في معرض عام ١٨٠٦<sup>(٤)</sup> . ويستفاد من ذلك أن مارسيل كسب خبرة مطبعية عظيمة أثناء وجوده على رأس مطابع الحملة في مصر .

وبعد أن استقرت المطبعة الأهلية في الدار التي خصصت لها ، أصدر بوناپرت في الرابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ أمرا بتنظيمها ، يتألف من ست مواد :

المادة الأولى : على المواطن كوتيه Conté أن يوصى بأسرع ما يمكن على صنع خمسة صناديق لحروف المطبعة العربية .

المادة الثانية : على الجزال كافارلي أن يضع تحت تصرف مدير المطبعة الأهلية خمسة أولاد يعرفون القراءة ليتعلموا صنعة تنضيد الحروف .

المادة الثالثة : على المواطن فانفور أن يقدم للمطبعة العربية خمسة عمال أتراك<sup>(٥)</sup> ويحدد أجورهم .

المادة الرابعة : على رئيس المباشرين أن يدفع لمدير المطبعة الأهلية المصاريف التي قام بدفعها .

( ١ ) Cité in Geiss, op. cit., ص ١٤٠

( ٢ ) ابراهيم عبده ، تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية ، ص ٣٢

( ٣ ) ابراهيم عبده ، المصدر السابق ، ص ٤٤

( ٤ ) Dupont, Histoire de l'Imprimerie, Tome II, p. 612

( ٥ ) كان الفرنسيون في ذلك العهد يطلقون اسم تركي على كل مشرق ، تركيا كان أم هربيا .



المادة الخامسة : توضع المطبعة العربية تحت إشراف المواطن فانتور رأساً . ولا يمكن لأحد أن يطبع شيئاً دون الحصول على أمر منه . وعلى المدير أن يقدم له كشفاً يومياً بما طبع وأن يشكو العمال إليه ، إن هم أتوا بما يدعو إلى ذلك .

المادة السادسة : توضع المطبعة الفرنسية تحت إشراف المواطن فوفليه بورين رأساً . ولا يمكن لأحد أن يطبع شيئاً دون الحصول على أمر منه . وعلى المدير أن يقدم له كشفاً يومياً بما طبع وأن يشكو العمال إليه ، إن هم أتوا بما يدعو إلى ذلك <sup>(١)</sup> .

غير أن فانتور وبورين اضطرا إلى مصاحبة بونابرت في زحفه على سوريا ، فخل محلهما في الإشراف على المطبعة المواطن بوسيلج <sup>(٢)</sup> .

إن بونابرت لا يترك المطبعة دون مشرف يراقب مطبوعاتها . وهو يعين لها أشخاصاً يثق بهم كل الثقة . فبورين المشرف على القسم الفرنسي ، هو في نفس الوقت سكرتيره الخاص ، وفانتور دى بارادى ، الرقيب على القسم العربى ، هو ترجمانه الملازم له في روحانه وغدواته . إن المطبعة سلاح ذو حدين ، فلا بد إذن من تشديد الرقابة عليها لئلا تستخدم في عكس الغرض الذى من أجله أحضرت إلى مصر . أما بوسيلج ، فهو الخازن دار أى الرجل الذى ائتمنه بونابرت على مالية الحملة ، فلا عجب أن يعهد إليه بالإشراف على المطبوعات ، بعد سكرتيره وترجمانه .

ولما باع مارك أوريل مطابعه في السابع من شهر سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى الحكومة الفرنسية ، ضمت إلى المطبعة الأهلية تحت إدارة حنا يوسف مارسيل ، بميدان الأذربكية . غير أنه عندما اشتعلت ثورة القاهرة الثانية في السادس من جرمينال عام ٨ ، الموافق ٢٥ مارس سنة ١٨٠٠ ، نقلت المطبعة إلى الجيزة <sup>(٣)</sup> . ثم أعيدت إلى القاهرة في أوائل شهر فلوريمال عام ٨ أى في أواخر أبريل سنة ١٨٠٠ <sup>(٤)</sup> ، في مقرها القديم بميدان الأذربكية .

( ١ ) Keller, *op. cit.*, Tome IV, p. 206

( ٢ ) Correspondance de Napoléon I, Tome V. p. 400-401, Document 3951

( ٣ ) انظر صحيفة الكوربيه عدد رقم ٦٣

أصيب كل من ديجيت ومارسيل بجرح في رأسه خلال ثورة القاهرة الثانية . كما قتل بعض موظفي المطبعة ، نذكر منهم سكرتير مارسيل الذى كان يشرف على نقل معدات المطبعة إلى الجيزة . وقد احتل الثوار مقر المطبعة ، ولكن الجيش الفرنسى تمكن من إجلاءهم عنها بعد قتال عنيف . انظر : Histoire Scientifique et Militaire de l'Expedition Française en Egypte, Tome VII, p. 414

( ٤ ) انظر صحيفة الكوربيه عدد رقم ٦٧

ولما انكسر الجيش الفرنسي أمام الانجاز والعنانيين في موقعة كانوب وتخرج مركز الحملة في وادي النيل ، قتل المطبعة في أوائل شهر جرمينال عام ٩ ، أى في أواخر مارس سنة ١٨٠١ إلى القلعة (١) ؛ يؤيد ذلك الأوامر اليومية المختلفة الصادرة عن قواد الحملة المختلفين ومطبوعات تلك المطبعة نفسها .

ويزعم ديون Dupont في كتابه عن تاريخ المطبعة أنه في خلال الحملة الفرنسية ، كانت هناك مطابع بالقاهرة والاسكندرية والجايزة (٢) . والحقيقة التي لا يرق إليها الشك أنه بعد عودة مارك أوريل إلى فرنسا ، لم يبق في مصر إلا مطبعة واحدة « المطبعة الأهلية » وفروعها الصغير بالاسكندرية . وتلك « المطبعة الأهلية » هي التي انتقلت إلى الجيزة ثم عادت إلى القاهرة وانتهى أمرها في القلعة كما تقدم .

إلا أن جيس (٣) يذكر أنه إلى جانب المطبعة الأهلية كانت توجد بالقاهرة ورشة ميكانيكية تولى إدارتها المواطن كوتيه ، عضو المجمع العلمى المصرى وكانت تلك الورشة تشتمل على قسم للطباعة بالحجر يشرف عليه المواطن « هوشو » Hochu . ولا ندرى من أين جاء « جيس » بهذه المطبعة الحجرية التي لم تعرف إلا في سنة ١٧٩٦ حين اخترعها سنغلدر Senfelder بمقاطعة بافاريا . أما فرنسا فلم يدخلها هذا النوع من الطباعة إلا بعد سنة ١٨٠٦ ، مما يجعلنا نجزم بأن « هوشو » لم يكن يدير مطبعة حجرية .

وأخر عمل قامت به المطبعة الأهلية ، بالقاهرة هو طبع العدد الأخير من الكورييه الصادر في العشرين من بريلال عام ٩ واتفاقية الجلاء عن مصر التي وقعها الجنرال بيلار . وتعتبر هذه الاتفاقية ملحقاً للجريدة (٤) .

\*\*\*

أحضر يونابرث معه إلى مصر حروفاً عربية وفرنسية ويونانية . وادخل الحروف الأولى في طبع المنشورات والبيانات التي كانت تعلق على أبواب الحارات ، وفي نشر بعض النصوص العربية في مجلة الديكاد . ورأينا كيف استعملت الحروف الفرنسية في طبع

( ١ ) أنظر صحيفة الكورييه عدد رقم ١٠٩

( ٢ ) Dupont, op. cit., Tome II, p. 516

( ٣ ) هامش صفحة ١٣٧ Geiss, op. cit.,

( ٤ ) راجع العدد الأخير من صحيفة الكورييه .

أوامر القائد العام اليومية وصحيفته وغيرها من المطبوعات المختلفة . أما الحروف اليونانية ، فأننا لم نجد مؤرخا واحدا يتحدث عنها بوضوح . فتأيفير Tailfefer يذكر ، عندما يتحدث عن نشاط مارسيل بوصفه مديراً لمطابع الحملة ، أن خدمات المطبعة كانت منتظمة دائما ، على الرغم من العقبات التي كانت تعترضها ، وقد أخرجت تابعا مطبوعات عربية وزكية ويونانية . . . (١) . ويقول لنا « ميشو » إن مطابع مارسيل أخرجت « النشرات والبيانات باللغات العربية والتركية واليونانية » (٢) . إلا أننا لم نكتف بهذين المصدرين لأن ما جاء فيها عن المطبوعات اليونانية لا يروى غليلا . ولكن خلال تصفحنا مجموعة صحيفة الكوربيه عثرنا في العدد رقم ٩٢ ، المؤرخ في الأحد والعشرين من شهر فريمير عام ٩ نحت عنوان « القاهرة » ، ما يأتي : « يدعو القائد العام مينو جميع اليونانيين الذين كانوا يجتفون التجارة في مصر قبل مجيء الفرنسيين إلى استئناف أعمالهم التجارية . وأنهم سوف يعملون في أي مكان يحملون فيه الأمن والطمأنينة . لقد خفضنا الرسوم الجركية وخفضنا كل ظلم وعدوان . إن المبدأ الذي يسير عليه الفرنسيون مبدأ إنساني كريم » .

ونكتب تلك الصحيفة في الهامش العبارة التالية : « طبع هذا البيان باللغتين الفرنسية واليونانية » . وهكذا ، يمكننا ، استنادا إلى تلك العبارة أن تؤكد أن الحروف اليونانية التي أحضرتها الحملة معها استخدمت في مصر لطبع المنشورات باليونانية وتوزيعها على من يهم الأمر .

وثمة مسألة أخرى اعترضتنا أثناء هذا البحث ، وهي كيفية تمييز تلك المطابع بالورق والخبر ، إن جميع الذين أرخوا للطباعة في عهد الحملة الفرنسية لم ينفيدونا بكلمة واحدة عن هذا الموضوع . ويبدو أنهم فضلوا السكوت عنه ، إما لعدم أهميته في نظرهم أو لأنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى نتيجة مرضون عنها . غير أن أمين واصف ، في البحث الذي تقدم به سنة ١٩٥٢ إلى جامعة باريس عن « الإعلام والصحافة الرسمية في مصر حتى نهاية الاحتلال الفرنسي » يعنى بتلك الناحية عناية خاصة . إذ يذكر : « إن الفقرة التي يحكم فيها برهيه Brehier عن نشاط أعضاء لجنة العلوم والفنون ، سمحت له أن يمد ذلك النص . فهو يكتب قائلا : « إن العمل الذي قام به العلماء الفرنسيون في مصر بلغت النظر ،

Tailfefer : Notice historique et biographique sur Marcel ( ١ )

Michaud : Biographie Universelle , Tome XXVI, p. 461 ( ٢ )

وذلك بفضل التجارب المستمر الذى أوجده بين الناحيتين النظرية والعملية . فالكشف العلمى أستفيد منه عمليا فى إنشاء مصانع للجوخ والورق والبارود . . . » (١) . ويستطرد أمين واصف قائلا : « ثبتت لنا تلك الفقرة أن العلماء كانوا يستثمرون معارفهم . ودليلنا على ذلك أن الجوخ كان يستعمل فى صنع كساوى الجند ، والبارود ، فى صنع الذخائر . أما الورق ، فهو المادة الأولى اللازمة لمطابخ الجيش . يضاف إلى ذلك أن تايفير Taillefier فى معرض حديثه عن مارسيل يذكر : أنه — أى مارسيل — كان يستعد وقت الجلاء ، لصنع الورق بكميات كبيرة مستعينا بالقطن ولحاء النخيل » (٢) .

إن عبارة « بكميات كبيرة » نجعلنا نفرض أن قبل تلك الفترة كان هناك إنتاج للورق ولكن بكميات صغيرة ، وأن فى خلال الحملة لم يكن جميع الورق المستعمل — أو على الأقل جزء منه — يستورد من فرنسا ، بل كان يصنع محليا » (٣) .

ولا نذكر مجموعة الوثائق النابليونية شيئا عن الورق أو الجبر ، مع أنها لم تترك فرصة إلا وذكرت المطبعة والحروف على اختلاف أنواعها ، والمشرفين عليها من إداريين وفنيين وصبية يعملون مهنة تنفيد الحروف .

أما عن الجبر الذى كانت تستخدمه مطابخ الحملة ، فليس هناك أدنى شك فى أنه كان يصنع فى مصر ، يؤكد لنا ذلك تايفير Taillefier عندما يقول : « استبدل مارسيل المواد المستعملة عادة فى صنع جبر المطبعة وفى تنظيف الحروف ، بمواد أولية أستخرجت من البلاد وجهزت بمهارة . . . » (٤) .

نستطيع إذن أن تؤكد أن علماء لجنة العلوم والفنون ساعدوا فى إدارة المطابع ، التى استغنت بفضلهم عن المواد اللازمة لسيرها والتى كانت تصنع فى فرنسا .

وبهنا قبل أن نختم هذه الدراسة أن نبحت فى مصير تلك المطابع بعد جلاء الفرنسيين عن مصر . هل أعيدت إلى فرنسا أم ظلت حيث هى ؟ يقول الفيكونت فيليب دى طرازى (٥) ،

( ١ ) Cité in Amin Wassaf, *op. cit.*, pp. 86 et 87

( ٢ ) المصدر السابق ص ٨٧

( ٣ ) المصدر السابق ص ٨٧

( ٤ ) Taillefier, *op. cit.*, pp. 6 et 7

( ٥ ) الفيكونت فيليب دى طرازى ، تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الأول ص ١٤٩

إن الفرنسيين تركوا مطابعهم وحروفهم في مصر وأن محمداً علياً ، بعد توليه الحكم ، أفرد لها مكاناً في بولاق ، حيث أسس أول مطبعة مصرية رسمية . ولا نعلم من أين أتى صاحب تاريخ الصحافة العربية بذلك المعلومات التي تبدو لأول وهلة أنها قديمة جداً من الصواب ، إن لم تكن الصواب بعينه . إذ أن المنطق لا يستبعد أن يكون الفرنسيون قد قرروا ترك مطابعهم في القلعة لثقلها ولأن ثقلها إلى فرنسا سوف يكلفهم مجهوداً هم في أشد الحاجة إليه في هذا الوقت العصيب . إلا أن دهرمان Deherain يخالف زعم طرازي كل المخالفة ، إذ يقول : « بعد تسليم القاهرة ، أقتدحنا يوسف مارسيل مطابعه وأعادها إلى فرنسا » (١) .

ويقول جيس : « وعندما جلا الجنرال بليار عن القاهرة ، حمل مارسيل مطبعته إلى الاسكندرية حيث أعاد تركيبها » (٢) . ولا يذكر جيس المصدر الذي استقى منه تلك المعلومات . إذ ليس من المعقول أن يُعيد مارسيل تركيب المطبعة وهو يعلم علم اليقين أن أيام الحملة الفرنسية في مصر أصبحت معلومة . ولو سلمنا جدلاً بأن حسن تصريف الأمور كان يقتضى وجود مطبعة ، فإن فرع المطبعة الأهلية بإلاسكندرية لا شك قادر على أن يفي بالغرض إلى أن ينزل الفرنسيون إلى السفن التي أعدت لنقلهم إلى فرنسا .

ويقترض جيس أنه عند جلاء الفرنسيين عن مصر ، اعتبرت المطبعة ملكاً لمارسيل الذي أحسن استخدامها خلال وجوده في مصر (٣) . ولكننا لسنا في حاجة إلى القول إن ذلك الغرض لا يؤيده الواقع بحال من الأحوال كما سنرى فيما بعد .

ويقول الدكتور إبراهيم عبده « إن الوثائق التاريخية تقطع في وضوح بأن مطبعة الحملة سواء الشرقية منها أو الفرنسية ، عادت إلى باريس » (٤) .

ويؤكد پول دوبون في تاريخه للطباعة أن المطبعة اتى أنشائها بونابرت في مصر سنة ١٧٩٨ لم يبق فيها إلا أثناء وجود الحملة الفرنسية (٥) .

( ١ ) Deherain, *op. cit.*, Tome V, p. 367

( ٢ ) Geiss, *op. cit.*, p. 156

( ٣ ) Geiss, *op. cit.*, p. 157

( ٤ ) إبراهيم عبده ، المصدر السابق ، ص ٧

( ٥ ) Dupont, *op. cit.*, Tome II, p. 600

ويقول « كانيشي » : « لقد عرفنا بصفة أكيدة من مذكرات الجنرال بليار ومن مجموعة رسائل نابليون الأول ، أن معدات المطبعة قد أعيدت إلى فرنسا . وها هو ذا الخطاب الذى كتبه « برتنيه » Berthier وزير الحرية آنذاك إلى الجنرال بليار ، القائد العام للجيش العائد من مصر (١) .

« باريس فى الثانى والعشرين من فندمير عام ١٠

« من وزير الحرية إلى الجنرال بليار

« لقد تسلمت ، أيها القائد المواطن ، خطاباتك المختلفة المؤرخة فى السابع من هذا الشهر . وقد رفعتها إلى القنصل الأول . وهذه هى القرارات التى اتخذها :

« . . . نرسل جميع المعدات الميكانيكية والمخطوطات العربية والمكتبة وحروف المطبعة العربية إلى باريس حيث تسلم إلى وزير الداخلية الذى اطلب منه أن يتخذ الاجراءات اللازمة نحو نقلها .

« إمضاء : ا . برتنيه » (٢)

ولكن هذا الخطاب ، وإن كان يجب لنا عودة الحروف العربية إلى فرنسا ، فإنه لا يذكر لنا شيئا عن بقية الحروف ، ولا عن الطابعات نفسها ، إلا أن كان « كانيشي » قد فهم أن « المعدات الميكانيكية » التى يذكرها وزير الحرية فى خطابه إنما تعنى الطابعات لذا عمدنا إلى البحث عن وثائق أخرى توضح لنا تلك النقطة بالذات . فعثرنا فى محفوظات وزارة الحرية الفرنسية على خطاب من الجنرال « بليار » بمرسيليا إلى الجنرال « برتنيه » وزير الحرية ومؤرخ فى الثالث والعشرين من شهر برومير عام ١٠ الموافق الرابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٠١ ، نورد ترجمته العربية فيما يلى : « لقد تسلمت المكتبة أمس ، أيها الجنرال ، إلى المدير ومعه المطبعة ومختلف الأشياء الخاصة بالعلوم والفنون التى قننا باعادتها معنا . . . ويبدو لى ، أيها الجنرال ، أنكم ترغبون فى أن ترسل جميع تلك الأشياء إلى باريس . وأعتقد أن من واجبي لفت نظركم إلى أن هناك أشياء كثيرة لا تساوى تعب نقلها ؛ لقد أحضرتها إلى فرنسا لكن لا أترك شيئا منها فى مصر . ولكن نقلها إلى باريس

( ١ ) Canivet, op. cit., p. 14

( ٢ ) Cité in Canivet, op. cit., p. 15

سوف يكفينا مالا لا فائدة منه . . . إن في الإمكان فرز الأشياء الثمينة ونقلها إلى باريس وإيداع الباقي في متحف مقاطعة مصب نهر الرون لبيعها لحساب الحكومة .

« تحيات واحترامات »

« إمضاء : بليار » (١)

وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه أى في الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٠١ ، أرسل شيتال وزير الداخلية إلى الجنرال بليار الخطاب التالى :

« أعلني وزير الحرية أنك شحنت عند سفرك من مصر معدات ميكانيكية كثيرة ومخطوطات عربية وحروف المطبعة العربية .

« لقد قرر القنصل الأول أن توضع هذه الأشياء تحت تعرفي

« فأرجو إذن ، أيها الجنرال ، أن تأمر بحزم هذه الأشياء بكل عناية وإرسالها إلى باريس .

« وتفضل بقبول شكري مقدما

« أحييك

« إمضاء : شيتال » (٢)

وفي نفس اليوم ، أرسل شيتال إلى وزير الحرية الرد التالى ، على خطابه المرسل في ٢٢ فندمير : « لقد أخبرتنى أيها الزميل العزيز بكتابك المؤرخ في ٢٢ فندمير ، أن الجنرال بليار شحن عند سفره من مصر ، معدات ميكانيكية كثيرة ومخطوطات شرقية وحروف المطبعة العربية ، وتطلب إلى أن أصدر أمرى بنقلها إلى باريس حسب رغبة القنصل الأول . لقد كتبت إلى الجنرال بليار بهذا المعنى . . . » .

« إمضاء : شيتال » (٣)

وسواء نقلت المطبعة إلى باريس أم ظلت في مارسيليا لتباع لحساب الحكومة ، فإنها قد تقلت بجميع أجزائها إلى فرنسا ، كما يؤكد ذلك خطاب الجنرال بليار إلى الجنرال برتييه .

Ministère de la Guerre, Archives Historiques, Dépôt de la Guerre N° 220 ( ١ )

Ministère de la Guerre, Archives Historiques, Etat. Major de la Guerre ( ٢ )

Ministère de la Guerre, Archives Historiques, Dépôt de la Guerre ( ٣ )

أما عن السبب الذى من أجله نجشت الحملة أمر نقل المطبعة إلى فرنسا فعائد إلى خوف المسؤولين من أن يستخدما الإنجليز أو عملاؤهم في الدعاية ضد السياسة الفرنسية ، إن هم تركوها في مصر . فقد يدور الفلك دورته وتعود فرنسا إلى إحتلال البلاد ، بعد القضاء على الإنجليز وحلفائهم في عقد دارهم . ذلك ، في رأينا ، هو السبب الذى حدا بالفرنسيين إلى « عدم ترك أى شئ في مصر » .

وقد قال لنا المرحوم الدكتور جاك تاجر أنه علم وهو يباريس من أحد المعنيين بالتاريخ المعاصر أن مطبعة الحملة قد أرسلت بعد ذلك إلى الجزائر مع الجيوش الفرنسية التى اجتاحت أراضيها عام ١٨٣٠ وأنها كانت من أدوات الدعاية الفعالة . غير أننا لم نعثر حتى الآن على مرجع واحد يؤيد هذا الكلام أو يفيقه . وعلى أى حال فليس بمستبعد أن يلجأ الفرنسيون بعد حوالى ثلاثين سنة إلى نفس الوسائل التى عملوا إليها يوم كانوا في مصر .

تلك هى قصة أول مطبعة عرقتها مصر ، وهى قصة حافلة على الرغم من قصرها . لقد أدت تلك المطبعة للحملة الفرنسية في مصر أجل الخدمات وأبقاها على الرغم من عيوبها الفنية الكثيرة . فهى لم تستطع طبع صورة أو لوحة واحدة بوضوح . ويقول الدكتور ابراهيم عبده<sup>(١)</sup> تعليقا على ذلك « . . . يد أن هناك بعض الملاحظات على ورق الطبع وحروف المطابع ، تصدنا في الورق خشونته في المطبعتين الرسمية والتجارية<sup>(٢)</sup> ، كأنما اختير للحملة أقل الأصناف جودة . وقد رجعنا في المكتبة الأهلية يباريس إلى الصحف المعاصرة ، فإنا أكثرها يخرج في ورق مماثل من حيث المادة للأوراق التى شغلت بها المطابع المصرية نشاطها ، وكانت حروف تلك الصحف المعاصرة على غرار ما عرفناه من حروف مطابع مارسيل وأوريل إلا اختلافا طفيفا بين المؤسستين المصريتين ، ذلك أن المطبعة الأهلية كانت تعنون موضوعاتها وتشير إليها في لاديبكاد ولوكورييه خاصة بحروف كبيرة مفصلة بينما كانت تخرج الجريدتان في مطبعة أوريل في حروف صغيرة مزدجة ، أى أن حروف المطبعة الرسمية كانت أكثر جودة وملائمة لفن الطباعة منها في المطبعة التجارية ، على أن من الأمور الواضحة ، أن هناك ضعفا يينا في طبع الصور والرسوم التى أخرجتها المطبعتان الرسميتان ، وكذلك حرمت المطبعة العربية من الهزات التى قلما كنا نعثر على إحداها » .

(١) ابراهيم عبده ، المصدر السابق ، ص ٤٧

(٢) يقصد مطبعة مارك أوريل .



ويرى شارل رو إن المصريين الذين نالوا قسطاً من التعليم عرفوا قدر تلك المطبعة (١).

وتقرّد صحيفة الكوربيه في أحد أعدادها ، فصلا عن المطبعة الأهلية وأثرها في الوطنين ، رأياً أن نورد ترجمتها العربية لما لها من دلالة .

« إن المطبعة الأهلية بالقاهرة ، هي المؤسسة الفرنسية الوحيدة التي أثارت فضول بعض الوطنيين المثقفين واسترعت حسن التفاتهم .

« وقد زارها مراراً كبار أعضاء الديوان ، نذكر منهم الشيخ المهدي والشيخ الفيومي والشيخ الصاوي . وقد اهتموا خلال زياراتهم بالطرق المتبعة في طبع نصوص اللغة الفرنسية واللغات الشرقية . إن الشيخ محمد القاسم الذي شاهد مطبعة الآستانة والمطبعة الموجودة في أحد أديرة الموارنة ببلبنان (٢) وافق على أن مطبعة القاهرة خير من هاتين المؤسستين الوحيدين اللتين عرفها الشرق قبل تلك المطبعة .

« أما الشيخ البكري فقد انظر إلى سنة ١٨٠١ لبزور مطابع مارسيل . وقد وجه عدة أسئلة عن الأثر الذي تركه المطبعة في الحضارة . وقال إن هناك عدداً كبيراً من المؤلفات العربية الجيدة يرجو نشرها ... » (٣).

ولكن هل يكفي إعجاب المشايخ بالمطبعة لنشر فوائدها وتعميمها بين المصريين ؟ لقد كان في وسع الفرنسيين أن يخطوا خطوة أخرى في سبيل هدف أسمى ، كان في وسعهم أن يطبعوا كتباً لتعليم القراءة والكتابة يوزعونها مجاناً على المصريين ، ولكنهم لم يفعلوا . كان في مقدورهم أن يلحقوا بمطبعهم مدرسة لتعليم من يشاء الفن المطبعي ، ولكنهم فضلوا الاحتفاظ به لأنفسهم وللخمسبة الصبية الذين يشير إليهم أمر بونايرت الصادر في الرابع عشر من يناير سنة ١٧٩٩ لتنظيم المطبعة الأهلية والذين لم نغز لهم على أثر ، لافي الكتب التي بحثت في تاريخ المطابع ولا في وثائق الحملة نفسها . وأكبر الظن أن عمل هؤلاء لم يعد أصلاً الخدم .

(١) Charles-Roux, op. cit., p. 152

(٢) يقصد المحرر دير مار يوحنا الصانغ التابع لرهبان طائفة الروم الملكيين الكاثوليك لا للموارنة كما اعتقد خطأ .

(٣) Le Courrier de l'Egypte du 18 Pluviose, an IX الموافق ٧ فبراير سنة ١٨٠١

إن المطامح التي جلبها الفرنسيون إلى وادي النيل انصرفت فائدتها على أصحابها ولم تعداهم إلى الشعب الذي زعموا له في أول يان ثروته عليه ، أنهم جاموا مصر لرد اتطوق لأصحابها ولتأديب الممالك الذين عاثوا في الأرض فساداً وملاؤا القلوب رعباً . لقد طرد الفرنسيون الممالك ، لا إنصافاً للشعب الذي ظل يرزح تحت نير عبوديتهم القرون الطوال ، بل لكي يحلوا محلهم ويستغلوا أرض الكنانة لصالحهم ولخير وطنهم . شأنهم في ذلك شأن كل دولة مستعمرة . وهكذا نرى أن المصريين ظلوا ، خلال حكم الفرنسيين لبلادهم ، بمنأى عن الحركة العلمية وعن المطبعة ، الأداة التي لابد منها لنشر الثقافة في ربوع البلد الذي كان في يوم من الأيام مركز العالم المتتمدن .

## قائمة بمطبوعات الحملة الفرنسية في مصر

رجعنا في وضع هذه القائمة إلى البحث الذي تقدم به البير جيس إلى الجمع العلمي المصري والذي نشر في الجزئين الأول والثاني من مجلة الجمع عام ١٩٠٧ وعام ١٩٠٨، وإلى مجموعة الكوريه ديلجيت، إذ أن تلك الصحيفة كانت تعلن بين الحين والآخر عن ظهور كتاب أو نشرة عن مطبعة أوريل أو عن المطبعة الأهلية. واستعنا أيضا بكتاب الجبرتي « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » وكتاب المعلم نقولا التركي « ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية ». وإلى كتاب شارل رو « بونابرت حاكم مصر »<sup>(١)</sup>، وإلى قائمة كتب المطبعة الأهلية ياريس، وإلى رسالة الدكتور أمين واصف « الإعلام والصحافة الرسمية في مصر حتى نهاية الاحتلال الفرنسي » التي قدمها إلى جامعة باريس. وقد آثرنا أن نضع عناوين تلك المطبوعات باللغة التي كتبت فيها لمحمد بن حنبل وعدد صفحاتها كلها استطعنا إلى ذلك سبيلا.

١ — « المنشور الصادر من طرف تحرير عسكر اسكندرية الجمهور فرنساوية سنة ١٢١٣ هجرية المطبوع باللغة العربية في اسكندرية سنة ١٧٩٨ »<sup>(٢)</sup>.

٢ — Code pénal militaire pour toutes les troupes de la République en temps de guerre.

طبع بالاسكندرية في عام ٦. وهو مجلد واحد يقع في ٧٨ صفحة من حجم الربع.

٣ — Alphabet arabe, turk et persan, à l'usage de l'imprimerie orientale et française, par J. J. Marcel.

طبع بالاسكندرية في عام ٦. وهو مجلد واحد صغير يقع في ١٦ صفحة من حجم الربع.

٤ — Exercices de lecture d'Arabe littéral (Extrait du Koran) à l'usage de ceux qui se livrent à l'étude de cette langue, par. J. J. Marcel.

طبع بالاسكندرية في عام ٦. وهو مجلد واحد صغير يقع في ١٢ صفحة من حجم الربع.

---

(١) François Charles-Roux; Bonaparte Gouverneur de l'Egypte

(٢) نقولا التركي، ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية.

Précis d'une nouvelle méthode pour réduire à de simples procédés — ٥  
analytiques la démonstration des principaux théorèmes de géométrie par  
le citoyen Corancez <sup>(١)</sup>

مجلد واحد .

٦ — « من حفرة سارى عسكر أمير الجيوش الكبير بونابرتة خطابا إلى ديوان  
مصر المحروسة . . . تحريراً في وحمانية يوم الأحد في ١٧ صفر سنة ١٢١٤ وفي ذيله طبع  
في مطبعة الفرنسية العربية <sup>(٢)</sup> .

٧ — « صورة الفتوى حكم الشرع الشريف الذي صدر من محكمة رشيد دام جلالها  
على عثمان خواجا خطابا إلى حضرة الجنرال الحاكم في البلد المذكورة . . . ودرج بأربعة وعشرين  
من شهر ترميدور سنة السبعة من إقامة الجمهور الفرنسي يعنى في الثامن من ربيع الأول  
سنة ١٣١٤ وفي ذيل الفتوى : طبع بمطبعة الفرنسية العربية بمصر المحروسة <sup>(٣)</sup> .

٨ — Notice des événements qui ont eu lieu en Europe pendant les  
quatre premiers mois de l'an VII de la République.

طبع بالقاهرة في ١٢ ترميدور عام ٧ بالمطبعة الأهلية . ويقع في أربع ورقات  
من حجم الربع .

٩ — Vocabulaire usuel Français-Arabe contenant les mots principaux  
d'un usage journalier par J. J. Marcel.

طبع بالقاهرة عام ٧ . وهو مجلد واحد صغير في حجم الربع . وكتب العربي فيه  
بالحروف اللاتينية <sup>(٤)</sup> .

١٠ — Mélanges de littérature orientale par J. J. Marcel

طبع بالقاهرة عام ٧ . في مجلد واحد حجم الربع .

---

(١) يذكر البريجيس هذا الكتاب في قائمته ويضيف تعليقا عليه أنه لم يشر له على أثر في  
المكتبات الفرنسية المختلفة . لذا فإنه لم يستطع معرفة حجمه ولا سنة طبعه .

(٢) نقولا التركي ، المصدر السابق ، ص ١١٧

(٣) نقولا التركي ، المصدر السابق ، ص ١٢٥

(٤) ينتقد أنطوان جالان هذا الكتاب انتقادا مرا . راجع :

A. Galland, Tableau de l'Égypte, T. I, p. 177.

١١ — Description dell'oftalmia di Egitto col metodo curativo della  
medecina di Antonio Savaresi, medico delle'esercito francese in  
Orient.

طبع بالقاهرة بالمطبعة الانجليزية عام ٨ ، ويقع في مجلد واحد . وهو في علاج الرمد .

١٢ — « أمثال لقمان الحكيم وبعض أقوال العرب موسوماً بكتابات لقمان الحكيم  
أبو أنعم » . طبعه باللغة العربية ومعه ترجمة فرنسية ومقدمة من حياة لقمان بقلم حنا يوسف  
مارسيل . وذكر في آخره تاريخ الطبع كما يأتي : « بمصر المحروسة طبع بمطبعة الترسلوية  
العربية على يد يوحنا يوسف مارسيل ورئيس المطبعة سنة ١٢١٤ » . وهو مجلد واحد  
صغير يقع في ١٢٠ صفحة من حجم الربع .

١٣ — Avis sur la petite vérole régnante adressé en Français et en arabe  
au Divan du Kaire par le citoyen Desgenettes, premier médecin de  
l'armée d'Orient.

طبع بالقاهرة في المطبعة الأهلية في ٢٧ نيفوز عام ٨ . وتوجد طبعة منه باللغة العربية  
عنوانها : « تنبيه فيما يخص داء الجدري التساط الآن . . » .

١٤ — « الرسالة المنقذة من أصحاب ديوان مصر إلى حضرة الأمير الجنرال بونايرنه  
قصل أعظم الجمهور الفرنسي بباريس . طبع في دار الطباعة المعبورة الجمهورية سنة ٩  
لتاريخ الجمهور .

١٥ — قصة احتلال القسطنطينية لحنا يوسف مارسيل . مجلد واحد (١) .

١٦ — Constitution de la République française an VIII

طبع بالمطبعة الأهلية بالجيزة ، ويقع في مجلد واحد حجم الربع .

١٧ — Constitution de la République française an VIII

الطبعة الثانية ، طبع بالمطبعة الأهلية بالجيزة . مجلد واحد صغير في حجم الربع .

١٨ — Constitution de la République française an VIII

الطبعة الثالثة ، طبع بالمطبعة الأهلية بالجيزة . مجلد واحد صغير في حجم الربع .

( ١ ) وجدنا اسم هذا الكتاب في كورال باللغة الفرنسية في مؤلف جيجار Guemard Les Orientalistes  
Voyageurs et Ecrivains J. M. Carré de l'Armée d'Orient p. 137 وفي مؤلف جان ماري كاري Voyageurs et Ecrivains J. M. Carré  
Français en Egypte, p. 149.

Soleyman El Halaby, assassin du général Kléber, en langue française, arabe et turque .

طبع بالقاهرة عام ٨ . مجلد واحد في حجم الثمن <sup>(١)</sup> .

٢٠ — تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن تأليف البارون دوفريش ديجانث وتعريب دون رافائيل . طبع مع الأصل الفرنسي سنة ٨ للجمهورية ( ١٨٠٠ ) في ٤٣ صفحة . وطبع المثنى العربى بمصر القاهرة سنة ١٢١٥ هـ في ٢٥ صفحة . ( طعة ثانية ) .

٢١ — Extrait de l'ordonnance du 1er Mars 1768 pour régler le service dans les places et dans les quartiers.

طبع بالمطبعة الاهلية بالقاهرة عام ٩ . ويتبع في ١٠٨ صفحات من قطع ٣٢ .

٢٢ — Grammaire de l'arabe vulgaire à l'usage des français et des arabes <sup>(٢)</sup> .

طبع بالمطبعة الاهلية بالقاهرة في عام ٩ .

٢٣ — شروط الصلح المطبوعة في شهر محرم سنة ١٢١٦ هـ باللغة العربية والتي يذكرها الجبرتي في حوادث شهر محرم من كتابه ؛ فان الفرنسيين « ألقوا أوراقا بالطرق مكتوبة بالعربي والفرنساوى وفيها شرطان من شروط الصلح التى تتعلق بالعامه . . . » .

٢٤ — « شروط جلاء الجبوش الفرنسيه عن مصر . في ٢٧ حزيران سنة ١٨٠١ م الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦ . طبعت في مطبعة الفرنسيه بمصر » <sup>(٣)</sup> .

هذا بخلاف المنشورات اليونانية التي كانت توزع من حين إلى حين على الرعايا اليونانيين والتي يشير إلى واحد منها العدد رقم ٩٢ من صحيفة الكورييه ديليجيت .

(١) يذكر الجبرتي « . . . وانفضت الحكومة على ذلك وألقوا في شأن ذلك أوراقا ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيتها وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الثلاث الفرنسيه والتركية والعربية . » الجبرتي ، حجاب الآثار في التراجم والأخبار ، الجزء الثالث ، ص ١١٦ ، ويضيف الجبرتي في ص ١٣٣ أن « هذه الشريعة والفتوى لازم يطبعوا باللغة التركية والعربية والفرنساوية من كل لغة قدر خمسين نسخة لكي يرسلوا ويتعلقوا في المحلات اللازمة . . . » .

(٢) لم يطبع من هذا الكتاب سوى ١٦٨ صفحة ويبدو أن مؤلفه حنا يوسف مارسيل اضطر إلى وقف طبع باقي صفحاته بسبب الاضطرابات التي حدثت خلال سنة الطبع .

(٣) نقولا الأركى ، المصدر السابق ، ص ٢٢١

## قائمة بالدوريات التي طبعت في مطابع الحملة الفرنسية

- ١ — Le Courier de l'Egypte.  
١١٦ عدداً، صدرت من ١٢ فوكتيلور سنة ٦ إلى ٢٠ بلريال سنة ٩ (١).
- ٢ — La Décade Egyptienne ; journal littéraire et d'économie politique.  
Tome I.  
طبع بالمطبعة الأهلية بالقاهرة عام ٧، مجلد واحد في حجم الثمن يقع في ٣٠٠ صفحة (٢).
- ٣ — Annuaire de la République française an VII.  
طبع في المطبعة الأهلية بالقاهرة عام ٨، مجلد واحد في حجم الثمن.
- ٤ — Annuaire de la République française calculé pour le méridien  
du Kaire, l'an VIII de l'ère française.  
طبع في المطبعة الأهلية بالقاهرة عام ٨، مجلد واحد في حجم الثمن.
- ٥ — Annuaire pour l'an VIII suivi de la constitution française  
طبع في المطبعة الأهلية بالجيزة، مجلد واحد في حجم الربع.
- ٦ — La Décade Egyptienne, journal de littérature et d'économie  
politique. Tome second  
طبع في المطبعة الأهلية بالقاهرة سنة ٨، مجلد واحد في حجم الثمن ويقع في ٣٠٠ صفحة.
- ٧ — Annuaire de la République française calculé pour le méridien  
du Kaire, l'an IX de l'ère française.  
طبع في المطبعة الأهلية بالقاهرة عام ٩، مجلد واحد في حجم الثمن.

---

(١) قام المواطن مارك أوريل بطبع الاعداد الثلاثين الأولى من تلك الصحيفة بمطبعة الخاصة.

(٢) يلاحظ أن الاعداد الثلاثة من تلك المجلة قد طبعت في مطبعة مارك أوريل.

La Décade Egyptienne, journal de littérature et d'économie — ٨  
politique. Tome III

طبع في المطبعة الأنشائية عام ٩ ، مجلد واحد في حجم الثمن ، يقع في ٣١٦ صفحة .

La Décade Egyptienne, journal littéraire et d'économie politique. — ٩

الأعداد الثلاثة الأولى من الجزء الرابع . ملزمة واحدة . طبعت في المطبعة الأهلية  
عام ٩ في حجم الثمن <sup>(١)</sup> .

---

Champollion Figeac; Fourier et Napoléon, l'Egypte et les cent Jours, Cité in ( ١ )  
Canivet.



## مصادر البحث ومراجعته

### ١ - مجموعات المراجع

Bibliothèque Khédiviale. Catalogue ... Section Européenne II l'Orient.  
Caire 1899.

Combe (E) : Catalogue de la Bibliothèque Municipale (d'Alexandrie)  
Section Européenne 1892-1926, T.I. Egypte: L'Expédition de Bonaparte.  
Catalogue de la Bibliothèque de l'Institut d'Egypte (1859-1917).

Guémard (G.) : Supplément (addenda et Corrigenda) à la Bibliographie  
de Mr. René Maunier.

Maunier (René) : Bibliographie Economique, Juridique et Sociale de  
l'Egypte Moderne, Le Caire, Imprimerie de l'Institut Française d'Archéologie  
Orientale 1918.

Michaud : Biographie Universelle Ancienne et Moderne, Tomes XXVI  
et XLIII. Paris, chez Madame C. Desplaces, 1858, 2 volumes in 8.

### ٢ - وثائق غير مطبوعة

Ministère de la Guerre ; Archives historiques. Dépôt de la Guerre. Paris.  
Lettre du ministre de l'Intérieur au ministre de la Guerre. (Paris, le 24  
Brumaire an 10 de la République).

Lettre du ministre de l'Intérieur au Général Belliard (Paris, le 24 Brumaire  
an 10 de la République).

Lettre du Général Belliard au Général Berthier (Paris, le 23 Brumaire  
an 10 de la République).

### ٣ - وثائق مطبوعة

Annuaire de la République Française calculé pour le méridien du Kaire,  
l'an VIII de l'ère française. Au Kaire, Impr. Nationale, an VIII.

Annuaire de la République Française calculé pour le méridien du Kaire,  
l'an IX de l'ère française. Au Kaire, Impr. Nationale, an IX.

Annuaire de l'an VIII, suivi de la constitution Française. Guizeh, Impr.  
Nationale, an VIII.

Correspondances de Napoléon I, Toms IV, V et VI, Paris, Imprimerie Nationale, 1858-1869 ; 3 Volumes in 4.

Courrier de l'Egypte, du 12 fructidor an VI (29 Août 1798) an 8 messidor an IX (27 Juin 1801). Kaire VI-IX.

Décade Egyptienne (la), organe de l'Institut d'Egypte, 3 Volumes, Kaire, Années VII et VIII.

Keller (A): Correspondances, Bulletin et Ordres du jour de Napoléon T. IV.

#### ٤ — المذكرات والرسائل والتقارير

Bourrienne (Louis-Antoine Fauvelet de) : mémoires sur Napoléon, le directoire, le consulat, l'empire et la restauration. Toms II. Paris, Ladvocat, 1829, 1 Volume in 8°.

Desgenettes : Souvenirs d'un médecin de l'expédition d'Egypte. Paris 1893, 1 Volume in 16.

Galland (Antoine) : Tableau de l'Egypte.

#### ٥ — رحلات وأسفار

Carret (Jean-Marie) : Voyageurs et Ecrivains français en Egypte. Toms I. Le Caire, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1932, I Vol. in 4°.

Volney (C.P.): Voyage en Syrie en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785.

#### ٦ — كتابات وبحوث المعاصرين

La Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée Française, Toms XVI et XVIII, Paris, Imprimerie de C.L.F. 1826, 2, Vols. in 8°.

Reybaud et Vulabellé : Histoire de l'Expédition Française en Egypte (10 Vols.) Paris 1830-1836.

#### ٧ — تراجم

Belin (François-Alphonse) : Notice nécrologique et littéraire sur Marcel (1776-1854). Journal Asiatique, 5ième série, Tome III, 1854.

Taillefer (A.) : Notice historique et biographique sur J. J. Marcel (1776-1854). Tirage à part d'un article publié dans la Revue d'Orient, de l'Algérie et des Colonies. Bulletin des Actes de la Société Orientale Algérienne et Coloniale de France, Tome XVI, 1854, 1 Vol. in 8°.

## ٨ — مراجع عامة ودراسات خاصة

Amin Sami Wassef : L'Information et la Presse Officielle en Egypte, jusqu'à la fin de l'Occupation Française. (Thèse de doctorat présentée à l'Université de Paris en 1952.

Arminjon : Les Universités Musulmanes d'Egypte, Revue de Paris, Tome V, 1904.

Canivet (R.G.) : L'Expédition d'Egypte. La Commission des Sciences et des Arts. La Revue Internationale d'Egypte, Tome III, N° 1, Janvier 1906.

L'Expédition d'Egypte. La Bibliothèque de l'Expédition. La Revue Internationale d'Egypte, Tome IV, N° 4 et 5, Août-Septembre 1906.

Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, Tome V, Les sectes, libéralisme moderne. Paris, Paul Gauthner, 1936, 1 Volume in 16°.

Charles-Roux (François) : Bonaparte Gouverneur d'Egypte, Paris, Librairie Plon 1936.

Déhérain (Henri) : dans Hanotaux « Histoire de la Nation Egyptienne » Tome V. L'Egypte Turque, pachas et mameluks du XVI au XVIII S. L'Expédition d'Egypte du Général Bonaparte. Paris, Plon 1937, 1 Volume in 4°.

Dupont (Paul) : Histoire de l'Imprimerie. Imprimerie Paul Dupont, Paris 1854.

Gaulmier (Jean) : L'Ideologue Volney. Imprimerie Catholique, Beyrouth 1951, 1 Vol. in 8°.

Geiss (Albert) : Histoire de l'Imprimerie en Egypte, 1ère partie, « L'Imprimerie de l'Expédition Française en Egypte ». Bulletin de l'Institut Egyptien, 5ième série, Tome I, 1907.

Rigault (A) : Le Général Abdalla Méhrou et la Dernière Phase de l'Expédition d'Egypte. Paris 1911.

Rousseau (M.F.) : Kleber et Méhrou en Egypte. Août 1799-Septembre 1801. Paris 1900.

Van Berchem : Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum,  
Tome I, Extrait des mémoires de la mission Archéologique française du  
Caire. Paris, Leroux 1894, 1 Volume in 8°.

Wiet (Gaston) : Les Inscriptions Arabes d'Egypte (Extrait des Comptes—  
rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles—Lettres, 1913).  
Paris, A. Picard, 1913, 1 Vol. in 8°.

#### ٩ - المراجع العربية

ابراهيم عبده : تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية ، المطبعة النموذجية ،  
القاهرة ١٩٤٩

أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٣٨  
الجبرقي ( الشيخ عبد الرحمن ) : عجائب الآثار في التراجم والأخبار . الجزءان الأول والثاني ،  
بولااق ١٢٩٧

فيليب دي طرازي ( الفيكوث ) : تاريخ الصحافة العربية ( جزءان في مجلد واحد ) ، بيروت  
١٩١٣

« الهبة، في القانون الإتيوي

[illegible]

للدكتور عبد الحميد محمد أحمد

• حقوق

يتناول هذا البحث دراسة باب الهبة من القانون الإثيوبي ١٩٦٦: ١٠١ ، وهو القانون الذي ضم التنظيمات والطقوس الكنسية وترتيب الشرائع الدينية . كما شمل ترتيب الامور المدنية وأحوال الناس العامة في ما كلهم ومشريهم وملبسهم ، وفي معاملاتهم المدنية من بيع وشراء وإيجارات وشركات وسائر ما يحتاجونه ويمارسونه من شئون الحياة .  
وقع باب الهبة في صدر أبواب المعاملات التي عالجها هذا القانون ، وتخلو أبواب أخرى ربما كانت أكثر مساهمة بحياة الناس وأشد اتصالاً بمداولاتهم الرتيبة اليومية وأولى بأن تكون لها الصدارة عند الحديث ، بل هي كل ذلك بالفعل ، وذلك كمسائل البيع والشراء والإيجارات وغيرها ، مما يشتغل به الناس ويستغرق الكثير من جهودهم .

ودراسة هذا الباب تتطلب محاولة التعرف على مصادر مادته إن وجدت ، ومناقشة أحكامه ، والمقارنة بينا وبين ما ورد في مصادر أو غيرها مما يفيد في مجال الدراسة الموضوعية لأحكام الهبة .

على أن لهذه الدراسة جانباً لغوياً هاماً ؛ فقد امتنع القانون الإنشائي هذه المادة مترجمة عن أصلها عربي وضعه في القرن الثالث عشر الصفحي ابن العسال . ومن ثم كان من الأهمية بمكان عقد المقارنات بين الأصل العربي وترجمته الإنشائية لتبين مدى إصابة الترجمة ، والوقوف على ما قد يكون بها من أخطاء أو مخالفات أو إضافات رأى أن يزيلها المترجم الإنشائي لسبب أو لآخر .

ومن الممكن ، بل من الواجب ، بعدئذ أن يعاد نشر أى من النصوص العربى أو الإنجوى على ضوء ما تسفر عنه أمثال هذه الدراسة المقارنة بين النصوص .

من أجل ذلك تناولت الدراسة هنا هذه الجوانب التي أشرت إليها في صدر هذه الكلمة ؛ فقسمت إلى فصول ثلاثة :

الفصل الأول : وعن بالدراسة الموضوعية لأحكام الهبة .

والفصل الثاني : وقد تناول المظاهر اللغوية في النص الإتيوبي .

أما الفصل الثالث : فقد تولى إعادة نشر « باب الهبة » من الأصل العربي ، مستفيداً بما توصل إليه البحث من دراسة المظاهر اللغوية في جوانبها المختلفة .

## ١ - الدراسة الموضوعية

يضع القانون الإتيوبي <sup>١</sup> في « باب الهبة » في صدر أبواب المعاملات ، ويتبعه ياب « القرض والرهن والضمان والكفالة » ، فباب « العارية » ثم « المبيعات » . ولعل تقديم الهبة ، فالقرض ، فالعارية ، لما يقصد منها إجداء من الإسهام في تقديم الخير بوجه من الوجوه المشروعة ، وإن كانت الهبة تتحول أحياناً إلى عقد معاوضة إن شرط فيها القواب عند القصد ، غير أن هذا الأمر لم يلق كبير عناية عند معالجة مسائل الهبة في هذا القانون الإتيوبي .

وما يلاحظ أن بعض مصنفى كتب الفقه الحنفية المذهب قدمت الحديث عن « البيع » على « الهبة والعارية » كآبي الحسن القدوري ( ٥٢٨ هـ ) في مختصره ، وعلاء الدين الكاساني ( ٥٨٧ هـ ) في كتابه بدائع الصنائع ، أو قلم البيوع على « العارية ثم الهبة » كآبي جعفر الطحاوي ( ٣٢١ هـ ) في مختصره ، والمرغيناني ( ٥٩٣ هـ ) صاحب البداية والهداية . وينهج أبو بكر السرخسي ( ٤٣٨ هـ ) نهجاً آخر فيقدم « العارية » على « الهبة » « فالبيع » . . . يقدم كتب الفقه الشافعية المذهب « كتاب البيوع » على « العارية » ثم « الهبة » كما يرى في كتاب الأم للشافعي ( ٢٠٤ هـ ) ، والتفتية لأبي اسحق الشيرازي ( ٤٧٦ هـ ) والمهذب له أيضاً ، والوجيز للغزالي ( ٥٠٢ هـ ) . وكذلك يصح ابن رشد الحفيد ( ٥٩٥ هـ ) المالكي المذهب في كتابه بداية المجتهد .

وتعلل كتب الحنفية لتقديم باب العارية على باب الهبة بأن ذلك انتقال من الأضعف إلى الأقوى ؛ فالعارية تمليك المنافع بغير عوض ، والهبة تمليك العين <sup>(١)</sup> .

(١) قاضي زاده : نتائج الأفكار في كشف الرموز والأسرار ، وهو تكملة فتح القدير في شرح البداية ٧ : ١١٣ .

وربما لحظ من قدم الهبة على العارية الاهتمام بتقديم الأقوى على الأضعف ، عكس الاعتبار السابق . ويفرد القانون الإتيوبي ، متابعاً « المجموع الصغرى » لابن العسال ، بترتيبه لأبواب المعاملات السابق الإشارة إليه .

ويحدث القانون الإتيوبي في أول باب الهبة عن مصدره الذى استقى منه مسأله وأحكامه ، ويدعى أن أكثرها مأخوذ عن « التطلسات » (١) ، فيقول : መግቢያ፡አድራሻ፡ጠቅላይ፡ገጽ፡፩:: غير أن الناظر في هذا الباب وفي غيره من أبواب المعاملات ، لا يفتنع بهذا الادعاء ، ويرى نفسه متوجهاً إلى افتقاد مصادر أخرى عالجت أحكام هذه الأبواب ومسائلها بوفاء .

### مصادر « باب الهبة » في القانون الإتيوبي

መግቢያ፡አድራሻ፡ጠቅላይ፡ገጽ፡፩::

يعد القانون الإتيوبي መግቢያ፡አድራሻ፡ጠቅላይ፡ገጽ፡፩:: المصدر القانوني الوحيد الذى حظى باهتمام الإتيوبيين منذ ترجم عن أصله العربى « المجموع الصغرى » لابن العسال (٢) ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وظل كذلك موضع الرعاية إلى الوقت الحاضر . واعتمد جامعه ابن العسال على طائفة من المصادر مسيحية - غير مسيحية ، وأشار ومقدمة كتابه إلى مصادر المسيحية ، وأغفل الإشارة إلى المصادر الأخرى الهامة ذات الأثر البين فيه خاصة في أبواب المعاملات ، وهى المصادر الإسلامية ، وكتب الفقه الإسلامى . غير أن الحديث عن مصادر بعامة لا ينبغي أن يتوقف عندما ذكره ابن العسال ، فمن الواجب تتبع هذه المصادر ومعرفة المدى الذى وقف عنده ابن العسال ، وصدى تأثيرها ، أو علوها فيها ، وما يصح أن يكون قد أضافه أو لوّنه من آراء .

### (١) المصادر غير الإسلامية :

وطبيعى أن يرمي ابن العسال وجهه شطر المصادر المسيحية المقبولة لدى الكنيسة القبطية ، وإن كان قد سمح لنفسه بتناول غيرها أيضاً مما جعله موضع نقد بعض الباحثين في الوقت الحاضر .

- (١) هى قوانين التلاميذ التى اخبر بها اقليمنطس ، وعددها واحد وثمانون قانوناً .
- انظر الورقة ١٣ / ب من المخطوط ١٣١ قانون - المتحف القبطى .
- (٢) فتح نجشت ص ١٨٠ / ١ ن ٢٣ ص . ( = صفحة ١٨٠ ، نهر : مسطر ٢٢ ) .
- (٣) عالم لاهوتى قبطى ارتوذكسى من رجال القرن الثالث عشر الميلادى .

وإذا اتجه النظر إلى « العهد القديم » وجده يأتى بموضوع الصدقات والنذور والعشور والبكور وما إليها<sup>(١)</sup>، ويحدث عن الهدية<sup>(٢)</sup>، وهى فى معنى الهبة، ولكنه لا يذكر شيئاً من أحكامها

وكذلك يذكر « العهد الجديد » الهدية<sup>(٣)</sup>، ولا يذكر شيئاً عن الهبة. ومن ثم يتجه ابن العسال صرب المصادر المسيحية الأخرى القليلة لديه، ويغنى هنا فى باب الهبة: التطلعات، بالذكر.

ولكن النظر فى التطلعات لا يفيد كثيراً، إذ لم ترض موضوع الهبة بشيء، وإنما عرضت لها قوانين الملوك المسيحية نهبود قسطنطين وتيودسيوس وليون. ويحدث القانون الثامن منها عن الهبة من الأولاد وأولاد البنت ومن الغرباء، ويرى أنها جائزة، وكذلك يحدث عن كتابة الهبة واستردادها<sup>(٤)</sup>.

وتناول مدونة جستنيان، وهى مصدر توجه إليه الأنظار أحياناً فى مثل هذا الموقف، موضوع الهبة، وذكرت أنها نوعان: هبة بسبب الموت، وأُلحقت بالوصية، ولها صورتان يطلق عليهما علماء المسلمين لفظي: العرى، والرقبي. والنوع الثانى هبة بين الأحياء. ومن الممكن عقد شيء من الصلات بين ما ذكرته المدونة فى هذا الباب<sup>(٥)</sup>، وما ذكره المجموع الصفوى، وإن كان من المرجح أن اعتماد ابن العسال كان على مصادر الإسلامية، كما سيضح من النواصات الآتية بعد.

### (ب) المصادر الإسلامية :

يوضح القانون الإثيوبى، تبعاً لمصدره المجموع الصفوى، المنهج الذى سبىر عليه فى علاج موضوع الهبة، ويرى أن حديثه ينحصر فى عناصر خمسة هى: الهبة، والواهب،

(١) انظر أسفار: الخروج ١٣، ٢٤، ٢٩، ٣٠، ٣٤، اللاويين ١ - ١٠، ٢٣، ٢٧؛ العدد ٦، ٧، ١٥، ٢٨، ٣٠، ٣١؛ التثنية ١٢، ١٤، ٢٦ وغيرها.

(٢) تلك ٣٢: ١٨ - ٢١، ٤٣: ١١، ١٥، ٢٥، ٢٦.

(٣) مت ٦: ١ - ٣؛ لو ١١: ٤١، ١٢: ٣٣ - ٣٤؛ كو ٩: ١ - ١٥، ٨: ١٥.

(٤) قوانين الملوك. ورقة ١١٦/ب من المخطوط ١٣١ - قانون - التحف القبطي.

(٥) مدونة جستنيان. تعريب عبد العزيز فهمى، ص ٨٦ وما بعدها.





تم بهما الهبة ، ولا اشتراط لتسليم الموهوب ، وهو المعبر عنه في كتب الفقه الإسلامي بالتبض .

ويقف رجال الفقه الإسلامي من شرط « التبض » فريقين : فريقاً يراه شرطاً في صحة العقد ، فإذا لم يقبض الموهوب له الموهوب لم يلزم الواهب . ومن هذا الفريق الشافعي وأبو حنيفة والثوري . وفريقاً لا يراه شرطاً في صحة الهبة ، بل إن الموهوب له يجبر على القبض ، وهو رأى مالك . فالتبض عند مالك شرط تمام ، لا شرط صحة في الهبة . على أن فريقاً ثالثاً لا يعد القبض شرطاً أصلاً ، لا شرط صحة ، ولا شرط تمام ؛ وهو قول أهل الظاهر ، وقول أحمد بن حنبل فيما روى عنه في غير المكيل والموزون (١) .

ويترب على هذا الاختلاف أحكام منها : صحة أو عدم صحة تصرف المالك الواهب فيما وهبه قبل أن يقبضه الموهوب له . ونص عبارة ابن السال أنه لا يباح له التصرف ، فهو يقول : « وإذا أمضاها الواهب وقبل الموهوب له الشيء الموهوب تم له ملكه والتصرف فيه دون ملكه » . فإنه عقد تبرع بمليك العين فيفيد الملك قبل القبض . ولكنها من جانب آخر روى فيها القبض ، « فمن وهب أحداً شيئاً فمات قبل وصوله إليه فليس يصير لورثته (٢) » . فكأنه راعى مبدأ « سد الفرية » كما يقول الفقهاء (٣) . ولكنه لم يراع هذا المبدأ في الهبة للأولاد وأولاد الأولاد ، فإن لهم ما في كتاب الهبة ولو لم يسلمه إليهم (٤) .

ويسو أن الفقه الروماني القديم كان يرى انعقاد الهبة دون اشتراط القبض بل إنها تنعقد ، كما جاء في مدونة جستنيان ، « بمجرد ما يظهر الواهب رغبته فيها سواء بالكتابة أو بغير الكتابة (٥) » .

ويترب على رأى ابن السال عدم اشتراط القبض رأيه في « جهالة » الموهوب ، وكان ينبغي ألا يمتنع صحة هبة مجهول القدر ، قياساً على رأيه في البيع : « والأعوان لا تحتاج

(١) بداية المجتهد ٤٣٧ .

(٢) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

(٣) الكاسانى : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ٦ : ١٢٣ .

(٤) المجموع الصفوى ٢٢٣ .

(٥) مدونة جستنيان ٨٧ .

إلى معرفة مقاديرها ولا مقدار أثمانها في تمام البيع ، ومعرفة ذلك أولى <sup>(١)</sup> . فإن جواز هبة المجهول أولى في اعتبار التشريع من جواز بيعه ، والعلماء لم يجزوا بيع المجهول ، ولكنهم اختلفوا في جواز هبته . يقول الشيرازي : « ولا يجوز هبة المجهول <sup>(٢)</sup> » ، « وما لا يجوز بيعه من المجهول ، وما لا يقدر على تسليمه ، وما لم يتم ملكه عليه كالبيع قبل القبض لا تجوز هبته ، لأنه عقد يقصده تملك المال في حال الحياة فلم يجز فيما ذكرناه كالبيع <sup>(٣)</sup> » . وهذا رأى المذهب الحنفى . ويلاحظ أن الحنفية والشافعية يشترطون القبض في الهبة . أما الإمام مالك ، ورأى ابن العسال في علم اشتراطه القبض يوافق رأيه ، فيجوز هبة المجهول ، ويحكى ابن رشد هذا الرأى فيقول : « ولا خلاف في المذهب وجواز هبة المجهول <sup>(٤)</sup> » . ومع ذلك يخرج ابن العسال عن متابعة مذهبه بل إنه يخرج عن مقتضى الرأى عنده هو ، حين يميز بيع المجهول ولا يميز هبته .

وإذا أمكن أن يقال إن هذا رأى جديد ارتآه ابن العسال ، فقد استتبعت ذلك أن يرجعه إليه السؤال عن مقتضاه ودواعيه .

ومن آثار انتقاد الهبة بصدور ركنها ، الإيجاب والقبول ، وانتقال الملك إلى الموهوب له أن نداء الموهوب يصير ملكا للموهوب له بمجرد تمام العقد ، على الوجه الذى اختاره ابن العسال . ويقول في هذا : « وإن كان الموهوب قرية فالقلة التى تحصل منها هى للموهوب له منذ يوم كتب له الكتاب وسماه له ، إلا أن يشترط خلاف ذلك . فإنه إن اشترط أن القلة الحاضرة لا تكون له ، أو مهابا اشتراطه مما لا يناق مقتضى الهبة ، وقبل ذلك الموهوب له ، حمل الأمر عليه <sup>(٥)</sup> » . وهذا النص يتعرض للحكم آخر خاص ببناء الموهوب ونمرته ، وقد عرض لهذا الحكم مرة أخرى غير هذه ، وسترد مناقشته بعد قليل .

وواضح من نصوص ابن العسال أنه يعلق أهمية على « كتابة الهبة » ، ويرى أن الهبة التى تكتب لا تتم إلا بأن يتسلم الموهوب ، له كتاب الهبة . قبض الموهوب ليس شرطا ، ولكن تسليم كتاب الهبة شرط في الهبة ، يكاد يكون « ركنا » لا تفقد الهبة بدونه .

- 
- (١) المجموع الصفوى ٢٤٨ .
  - (٢) التنبيه ١٦٥ .
  - (٣) المهذب ١ : ٤٥٢ .
  - (٤) بداية المجتهد ٤٣٧ .
  - (٥) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

والكتابة ليست ضرورية إذا كانت الهبة لولد أو لولد ولد . . . وإن كانت لولد أو لولد ولد صحت بغير كتاب<sup>(١)</sup> . وليس سلباً أنها لا تصح بغير كتاب إن كانت لغريب ، وليس في كلامه نص يفيد ذلك . كما توهم العبارة السابقة .

وتشترط الكتابة عنده ، إن كان الشيء لا يميزه تحديد ولا تخلية كالدينارين والدرهم ، . . . فإن كان محتملاً لذلك فمكتوبة فيها خط شهود يذكر فيها تحديد الشيء الموهوب وصفاته وشروط الواهب فيه ، وأنه لا يرجع فيها وهبه . . . (٢) .

واهتم ابن العسال بكتابة العقود تحلياً في غير هذا الباب كذلك ، وينبغي أن تحمل على قصد تأكيد الوثيق دفعاً للنزاع ، بدليل أن أمثال هذه العقود تنعقد دون كتابة قرائه . وقد سبقت الإشارة إلى أن القانون الروماني يقرر أن الهبة تنعقد بمجرد ما يظهر الواهب رغبته فيها سواء بالكتابة أو بغير الكتابة<sup>(٣)</sup> .

ويلاحظ أن كتابة العقود لم تحتل مكاناً بارزاً في الفقه الإسلامي ، بل إن دورها فيه ثانوي ، كما يقول الباحثون<sup>(٤)</sup> .

## ٢ - الواهب :

والعنصر الثاني من عناصر هذا الباب هو الحديث عن الواهب . ويرى ابن العسال أنه « لا تصح منه الهبة إلا إذا كان بالغاً رشيداً حراً مختاراً ليس عليه خوف من جهة الموهوب له »<sup>(٥)</sup> .

أما اشتراط البلوغ فلأن الهبة عقد تبرع ، والصبي لا يملكه ، ولا يملكه له وليه . وقد عالج ابن العسال هذه المسألة في باب الحجر ، فقال : « . . . فلا يجوز تصرفه في عقد ولا إقرار لا لنفسه ولا لغيره »<sup>(٦)</sup> ، كما عالج مدى تصرف الولي في مال الصبي ، ففتح البيع بدون قيمة المثل في الوقت والموضع ، والتفريق بشيء من مال الصبي في سفر أو بيع مؤجل .

(١) نفسه ٢٢٣ .

(٢) نفسه ٢٢٤ .

(٣) مدونة جستنيان ٨٧ .

(٤) د . شفيق شحاتة : النظرية العامة للالتزامات في الشريعة الإسلامية ١٣٢

(٥) المجموع الصفوى ٢٢٢ .

(٦) المجموع الصفوى ٢٤٤ .



وليس في كلام ابن الصال نص ما يبرر هذا التعديل، بل قد مبرر له على الإطلاق، خاصة أن يشمل هذا الحكم المضطرب موضع واحد هو باب الهبة .

واشترط ابن الصال أن يكون الواهب رشيدا، وأطلق الوصف دون أن يجعل له حدودا من الزمن، ودون أن يقيد عمر الواهب بسن يجوز أو يستمر منع تعارفه في ماله إذا بلغها .

والعلماء في مسألة تصرف السفية في ماله بما أن يبلغ خمسا وعشرين سنة، على خلاف . فأبو حنيفة يرى أن يرضع الحجر عن السفية متى بلغ هذه السن، وأبو يوسف ومحمد صاحباه يريان أن يستمر الحجر عليه ما دام سفيا . ومع وجود خلاف بين العلماء في مسألة السفية لا يبدو من ابن الصال أى تردد في منعه من الهبة، بينما يبدو هذا التردد في الصغير الذي لم يبلغ، كما سبق البيان .

### ٣ - الموهوب له :

رتب ابن الصال الموهوب لهم فيعلم طبقات يتلو بعضها بعضا، كما تلو طبقات الوارثين بعضها بعضا . وإذا جاز، بل تختم في الميراث أن يجعل الورثة طبقات، دفعا لنزاع غير محبب بين أفراد الأسرة الواحدة فليس من الين أن تسلك التبرعات في مثل هذا الترتيب . ولم أجد من تقدم بمثله من العلماء . ويقول ابن الصال في ترتيب طبقات الموهوب لهم : « وأما الموهوب لهم فأولاهم الأولاد ثم الآباء ثم الأقارب ثم الأصهار ثم التراي ثم الأصدقاء ، ثم الخدام ثم المعارف الجيران والرفقة وغيرهم » (١) . فمن أين أتى بهذا الترتيب ؟ وأين مكان « الأزواج » بين من يوجب لهم ؟ أو أن الهبة منهم غير مشروعة ؟ ولم لم يجعل الموصى لهم طبقات كما جعل الموهوب لهم طبقات ، والبايان من واحد واحد ؟

ولم يتحدث عن أى شروط خاصة بالموهوب لهم ، وكتب الفقه تشترط فيهم أهلية القبض ، ولا تجيز قبض الجنون والصبي الذي لا يعقل . وتحدث أحداث في قبض ولى الصبي عنه، وقبض الأب عنه ، وعن ابنه الكبير الذي في عياله . وكل ما ذكره في هذا المجال أن يكون الموهوب له معروفا ، وهذا طبعى ، فالهبة تنعقد بإيجاب وقبول،

(١) المجموع الصفوى ٢٢٣ .

أو بكتابة وتسليم الكتابة إلى الموهوب له وقبوله إياها ، ولا يأتى ذلك إذا كان الموهوب له غير معروف .

ويرى ابن العسال التسوية في الهبة بين المتساوين في الدرجة كالآباء . ويقول : « ويستحب أن يساوى فيها بين المتساوين كالأولاد » (١) .

ويدو أن ابن العسال يقصد بالتسوية المعنى الذى راعاه في الموارث ، فليست هناك تفرقة بين الذكور والإناث المتساوين في الدرجة : « فأولاد الميت الذكور والإناث بالسواء » ، « والذكور والإناث بالسواء من أولاد الأولاد مهما نزلوا » ، « الأشقاء من إخوة الميت وأخواته وأمه بالسواء » (٢) .

وتحدث كتب الفقه الاسلامى عن استحباب التسوية بين الأولاد في الهبة تألياً لهم . غير أن بعض الأئمة يقصد التسوية على التبع الذى يجرى في الموارث . وهو الإمام محمد صاحب أبى حنيفة . ويرى أبو يوسف التسوية في المهر بين الذكور والإناث ، وارتضى هذا رأى أبو جعفر الطحاوى في مختصره (٣) . ويميل ابن العسال إلى تعميم الحكم في المتساوين في الدرجة من غير الأبناء والأبناء جميعاً .

#### ٤ - الموهوب :

لعل أبرز ما يبعد تأثر ابن العسال بالمذهب المالكى في هذا الباب مارضيه من علم جواز هبة المجهول ، على غير ما يسير عليه المالكيون الذين يجيزون هبته قولا واحدا . فقد قرر ابن رشد هذا الرأى في قوله : « ولا خلاف في المذهب في جواز هبة المجهول والمعلوم المتوقع الوجود ، وبالجمله كل ما لا يصح يمه في الشرع من جهة الغير » (٤) . على حين يرى الشافعية والحنفية اشتراط أن يكون الموهوب معلوماً ، وساروا في ذلك إلى مدى بعيد ، فقال الحنفية : « لا تجوز الهبة فيما يقسم إلا بحوزة مقسومة ، وهبة المشاع فيما لا يقسم جائزة » (٥) . واشتروطوا من أجل ذلك قبض الموهوب ، وهو أمر لم يشترطه ابن العسال ، كما سبق القول . ويدور كلام كثير حول المشاع الذى لا يقسم ، أو يقسم ،

(١) نفسه .

(٢) المجموع الصفوى ٢٠٣ .

(٣) مختصر الطحاوى ، طبع دار الكتاب العربى سنة ١٣٧٠ هـ ، ص ١٣٨ .

(٤) بداية المجتهد ٤٣٦ . وانظر ص ١٠٧ من هذا البحث .

(٥) الهداية ٧ : ١٢١ مطبوعة مع كتاب فتح القدير . وانظر كتاب الام للشافعى ٣ : ٢٨٤ .

وصور مسأله ، مما لا مجال له هنا ، فإن ابن العسال لم يتحدث عن مقصده من « المجهول » ولم يذكر لمسأله صورا .

وإذا قرنت عبارة ابن العسال في هذا الموقف وعبارات بعض رجال الفقه الإسلامي ، أمكن الاهتداء إلى ما يمكن أن يعد صدرا لابن العسال في هذا الحكم . يقول ابن العسال : « وأما الشيء الموهوب فلا يصح أن يكون مجهولا ، ولا ما لم يتم الواهب ملكه ، ولا أن يكون مما يغلب على ظنه أن الموهوب له ينصر به أو يضرب به في الوقت الحاضر . . . »<sup>(١)</sup> ويقول الشيرازي في كتابه : التنبيه : « ولا يجوز هبة المجهول ، ولا هبة مالا يقدر على تسليمه ، وما لا يتم ملكه عليه كالبيع قبل القبض »<sup>(٢)</sup> . ويقول في المذهب : « وما لا يجوز بيعه من المجهول ، وما لا يقدر على تسليمه ، وما لم يتم ملكه عليه كالبيع قبل القبض لا يجوز هبته »<sup>(٣)</sup> .

وعبارتا الشيرازي مقاربتا الصياغة ، وإن كانت الأولى قرية من عبارة ابن العسال بعد طرح الزيادات في كل منها . ومع ذلك فلا ينبغي أن يفهم أن ابن العسال تأثر أحكام المذهب الشافعي ، فإنه قد ظهر من قبل أنه أخذ عن غيره ، وسيظهر كذلك في مواقف أخر .

وفي عبارة ابن العسال المتقدمة قبل اشتراط ألا يكون الموهوب مما يغلب على الظن أن الموهوب له ينصر به أو يضرب به في الوقت الحاضر ، كمن يهب سيفا لمجنون فإنه ربما قتل به نفسه أو غيره . ورأى رجال الفقه في هذا ، قياسا على البيع ، أن ذلك مكروه ، وأنه لا يتدخل في إضاء الهبة . ورأى ابن العسال هنا ، كراهية في البيع ، أن ذلك من شروط الصحة<sup>(٤)</sup> .

والفترة السابقة التي تحدثت عن جهالة الموهوب أو عدم جهالته تحتاج إلى تكملة يبدو أن ابن العسال نخطى علاجها ولم يقف عند أحكامها وقفة حاسمة ، تلك هي مسألة تمكين الموهوب له من حيازة الموهوب ، بالتخليط بينه وبينه وتحديد به ، فإن كان

(١) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

(٢) التنبيه ١٦٥ .

(٣) المذهب ١ : ٤٥٢ .

(٤) انظر باب المبيعات ، من كتاب فتح نجشت ، لكاتب هذا البحث .



ما لا يجلد في التحديد لتشابه أجزائه وتمثلها كالدرهم والدنانير لم يحجج الأمر إلى مكانية ، وإلا احتاج إليها . يقول ابن الصال : « وإن كان الشيء الموهوب لا يميزه تحديد ولا تخلية كاللدنانير والدرهم فليس يحتاج إلى مكانية ، فإن كان محتملا لذلك فيمكانية فيها خط شبهو بذكر فيها تحديد الشيء الموهوب وصفاته وشروط الواهب فيه وأنه لا يرجع فيما وهبه . ويستحب أن يكون فيه خطه بذلك » (١) .

والمشكلة هنا ليست كتابة الهبة أو عدم كتابتها ، فقد ذكر ابن الصال أن الهبة بعمامة إما أن تكون بكتاب أو بغير كتاب . ورتب أحكاما على كل من الموقنين ، كما سبق الحديث . وإنما المشكلة الحققة ما ذكره رجال الفقه من تفصيلات استنبعت الحديث عن جهالة الموهوب ، وشيوعه ، وعلم إمكان قبضه ، والأحكام التي وردت في جميع ذلك وأدلتها ، مما كان ينبغي أن يعرض له هنا ابن الصال ، ولكنه لم يفعل . أما كتابة الهبة ، بل كتابة سائر عقود المعاملات والإشهاد عليها ، فأمر محبب يعني كثير الفناء في رفع الخلاف وإزالة أسبابه ، وما كان في حاجة إلى ترداد ذكره في أكثر من موضع في باب الهبة .

#### غلة الموهوب ونماؤه :

تتال مسألة نماء الموهوب وغلته مزيدا من اهتمام أئمة الفقه الإسلامي ، ولها عندهم صور عديدة ، وتوقفت هذه الصور بوجه خاص عند مناقشة موضوع الرغبة في الرجوع في الهبة .

غير أن ابن الصال لا يتناول من هذه الصور العديدة إلا موقنين ، أحدهما موقف حصول النماء بعد انعقاد الهبة بكتابة وتسليم كتابها إلى الموهوب له . والنماء في هذه الحالة من حق الموهوب له (٢) ، إذ أن تسليم كتاب الهبة إليه يعد قبضا ، بل إن ابن الصال لا يشترط القبض في الهبة ، كما سبق توضيح ذلك .

والموقف الثاني عند الرجوع في الهبة ، وكان من شأن هذا الرجوع أن يلحق إضرارا بالموهوب له ، كأن كان الموهوب جدارا بنى عليه الموهوب له دارا (٣) . وستأتي مناقشة هذه المسئلة الأخيرة في أثناء معالجة موضوع الرجوع في الهبة .

(١) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

(٢) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

(٣) نفسه ٢٢٣ .

## الرجوع في الهبة :

(١) مبدأ الرجوع في الهبة : الهبة عقد تبرع يقصد به تأليف القلوب وغرس الود وتقوية الرابطة وصلة الرحم . وقد تعرض أمور يجد الواهب إزاءها أن يعود في هبته ، ومع أن ذلك غير محبب في ذاته لأنه يؤدي إلى عكس المقصود من الهبة ، إلا أن المبدأ في ذاته مقرر مع ما يصحبه من الكرامة . وفي نصوص ابن العسال ما يقرر سريان المبدأ ، كما أن بها ما يشير إلى الحرج بل إلى امتناع الرجوع فيها . يقول ابن العسال : « وإن وهب جميع نعمته في حال لم يكن له فيها ولد ثم صار له بعد ذلك أولاد ، فله استرجاع ما أراحه . . . »<sup>(١)</sup> ، وقال : « . . . ومن لم يشكر منهم النى وهبه . . . فله أن يسترجع الهبات . . . »<sup>(٢)</sup> .

وتقرره الرجوع مستند إلى مصادر مسيحية وأخرى إسلامية . فالقانون الثامن من قوانين الملوك يتحدث عن الرجوع في الهبة ويقر مبدأه<sup>(٣)</sup> . وكذلك تقرر المبدأ قوانين جستنيان في المدونة<sup>(٤)</sup> .

وفي التشريع الإسلامي يقرر مبدأ الرجوع في الهبة مع ما صاحب تقرر المبدأ من أسف التشريع ، تمشيا مع روح النصوص من جهة ، ولأنه يؤدي إلى تفويت الأهداف النبيلة للهبة من جهة ثانية . جاء في كتاب الأم قولا عن الإمام الشافعي أن الهبة بقصد الثواب يرجع فيها الواهب إن لم يرض عنها<sup>(٥)</sup> . وكذلك جاء في مذهب الشيرازي : « وإن وهب للولد أو ولد الولد وإن سفل جاز له أن يرجع . . . »<sup>(٦)</sup> .

ويقول إمام العلماء الكاساني : « حق الرجوع في الهبة ثابت عندنا » ، ثم ساق الأدلة التي تؤيد هذا الحق<sup>(٧)</sup> . ويقول أبو الحسن القدوري : « وإذا وهب هبة لأجنبي فله الرجوع فيها . . . »<sup>(٨)</sup> .

(١) نفسه ٢٢٢ .

(٢) نفسه ٢٢٣ .

(٣) قوانين الملوك ، ورقة ١١٦/ب من المخطوط ١٣١ قانون — المتحف القبطي .

(٤) مدونة جستنيان ٩٩ .

(٥) كتاب الأم ٣ : ٢٨٣ .

(٦) المهلب ١ : ٤٥٣ .

(٧) البدائع ٦ : ١٢٨ .

(٨) مختصر القدوري ، كتاب الهبة .

وفذهب الإمام مالك وجمهور علماء المدينة إلى أن للآب أن يعتمر ( أى يسترد ) ما وهبه لابنه ما لم يتزوج الابن أو لم يستحدث دناء . . .<sup>(١)</sup> وهكذا يضح أن حق الرجوع في الهبة ثابت قانوناً في التشريعات المسيحية ، والرومانية ، والإسلامية جميعاً ، وأن ابن الصال ارتضاد قلاً عن هذه المعاصر جميعاً أو عن بعضها على الأقل .

إذا ثبت هذا نلتق ، فمن هؤلاء الذين يجوز الرجوع في الهبة إليهم ؟ أما في الفقه الإسلامي فقد أجمع رجاله على « أن الهبة التي يراد بها الصدقة أى وجه الله أنه لا يجوز لأحد الرجوع فيها »<sup>(٢)</sup> . وهذا اللوز من الهبة لم يشر إليه ابن الصال في باب الهبة ، بل لعله لم يردّه إطلاقاً ؛ فقد عقد موازنة سريعة بين مستحقى الصدقة ومستحقى الهبة ، مما يفيد أن الهبة لا تجري مجرى الصدقة عنده ، وأنها تلبها في المزلة . يقول ابن الصال : أما الهبة فنسبتها إلى غير مستحقى الصدقة نسبة الصدقة إلى مستحقها ، فهي فضيلة مستحبة بعد الصدقة<sup>(٣)</sup> . وبذلك يبدو أنه جعل إطار الهبة لا يتصل بإطار الصدقة ومجالها ، بينما يجد الفقه الإسلامي أن توجيه الهبة قصد ابتغاء ثواب الله ووجهه الكريم دون التفكير فيما عساه يتبع الإقدام عليها من النظر إلى أوضاعها وقبول نظر لها من الموهوب له ، أو ما بين أحيانا للواهب من استرجاعها والتكوص عنها — أن هذا التوجيه يستحق الرعاية والتقدير . فصور التبرع بلفظ الهبة والتحلة والعطية أنجل أثراً في نفس المتصلق عليه من ألفاظ الصدقة والزكاة وما مائلها ، بالإضافة إلى أن الهبة لا تعدّ بمخلود الزمن والحول ، والفترة المالية للواهب ، وأنها توجه للقادر وغير القادر ، ممن هم دون منزلة الواهب أو يماثلونه أو يسمون عن درجته الاجتماعية .

والهبة لغير هدية يتوقف جواز الرجوع فيها على صلة الواهب بالموهوب له ؛ فلهبة الولد ولولد الولد وإن سفل جاز الرجوع فيها عند الإمام مالك والإمام الشافعى ، غير جائز عند أبي حنيفة . وإن كانت لذى رحم محرمة غير الولد وولد الولد فلا رجوع عند الشافعية والحنفية . أما الهبة للأجنبي ، فإن كانت بقصد الثواب والعوض ففيها حق الرجوع ما لم يرض الواهب عنها ويقبض ثوابها وكذلك إن كانت لغير الثواب عند أبي حنيفة ،

(١) ابن رشد للحفيد : بداية المجتهد ٤٣٨ .

(٢) نفسه ٤٣٩ ، وغيره من كتب الفقه .

(٣) المجموع الصفوى ٢٢٢ .

وعند الشافعي . إن وهب وأقبض لم يملك الرجوع . وقال الإمام أحمد وأهل الظاهر : لا يجوز الاعتصار في الهبة لأحد كائن من كان<sup>(١)</sup> .

فأين يقف التشريع المسيحي من جميع ذلك ؟

يرى ابن العسال أن حق الرجوع ثابت للواهب من جميع من وهب لهم : أولاداً كانوا أو غرباء . فهو يقول : « وإن وهب جميع نعمته أو أكثرها في حال لم يكن له فيها ولد ثم صار له أولاد بعد ذلك فله استرجاع ما أراه . . . »<sup>(٢)</sup> « ومن لم يشكر منهم الذي وهبه . . . فله أن يسترجع الهبات »<sup>(٣)</sup> .

وأما كان الدافع للرجوع في الهبة عند ابن العسال ، فالحق ثابت لديه سواء أكان الموهوب له ولداً أو غرباء . غير أن الهبة للولد أو ولد الولد يجوز فيها الاسترداد سواء أكانت بكتاب أو بغير كتاب . أما الهبة للغريب ، وابن العسال يعنى أن تكون بكتاب ، فليس يسوغ فيها بعد تسليم كتابها أن يستردها . وفي هذه المسئلة يتفق ابن العسال والتشريع الإسلامي ، على النحو المبين قبل .

وكذلك يرى القانونان الثامن والتاسع من قوانين الملوك أن الهبة للولد وولد البنت يجوز الرجوع فيها ، أما الهبة للغريب فإن كان قد دفع إليه كتاب الهبة لم يقدر أن يسترد منه<sup>(٤)</sup> . وفي القانون الروماني : « الهبة بين الأحياء لازمة ، لا يجوز الرجوع فيها بلون سبب مئوغ »<sup>(٥)</sup> .

(ب) دوافع الرجوع في الهبة : تحدث ابن العسال عن الأسباب التي تبرر الرجوع في الهبة ، فذكر من بينها : تغير حال الواهب الاجتماعية ، كإنجاب الأولاد بعد إتمام الهبة ، وعدم شكر الموهوب لهم الواهب ، أو إساءتهم إليه وإيذائهم إياه ، والتدبير على

---

(١) انظر : الأم ٣ : ٢٨٣ ؛ الشيرازي : التنبيه ١٦٦ ، وللهذب ١ : ٤٥٣ ؛ الكاساني : البدائع ٦ : ١٢٨ ؛ المرغيناني : الفهيدية ٧ : ١٣٠ من مجلدات فتح القدير ؛ القدوري : مختصر القدوري ، كتاب الهبة ؛ أبو جعفر الطحاوي : مختصر الطحاوي ١٣٨ .

(٢) المجموع الصغرى ٢٢٢ .

(٣) نفسه ٢٢٣ .

(٤) قوانين الملوك ورقة ١١٦/ب من المخطوط ١٣١ قانون - المتحف القبطي .

(٥) مدونة جستنيان ٨٧ .

حياته . وكل هذه دوافع تحفظ الواهب وتثير نفسه وتجعله في حال من عدم الرضا عما أقدم عليه . وكذلك جاء في ملونة جستبان : « وجود الموهوب له فضل الواهب يجيز لهؤلاء في بعض الصور أن يرجعوا في تبرعاتهم » (١) . ولا بأس من تقدير هذه الدوافع ما دامت الهبة لم توث ثمرتها من تأكيد الصلة وتدعيم الرود .

(ح) موانع الرجوع في الهبة : ذكر ابن العسال من موانع الرجوع في الهبة .

موت أحد العاقدين ، وانعدام عين الموهوب وقيمته ، وقبض الواهب عوضاً عما وهب ، وزيادة الموهوب .

وفي المانع الثاني ، وهو انعدام عين الموهوب وقيمته ، بعض التوقف . فإن الخفية لا يقولون بالرجوع إلى قيمة الموهوب عند فقده ، لأنها لم تكن موهوبة ولم يرد عليها عقد الهبة (٢) ، وكذلك لا يمكن الرجوع في عين أخرى عند فقد العين الموهوبة (٣) . ويحدث الشافعية عن « قيمة » الموهوب في معرض اشتراط الواهب أن يعرض عن هبته . فقد جاء في أحد الأقوال أنه إذا تلفت العين الموهوبة في هذه المسئلة وجب الرجوع إلى قيمتها كما يحدث في البيع (٤) . ولم يعرض ابن العسال لمسئلة « اشتراط العوض » عند الهبة ، في كتابه .

وانعدام قيمة الموهوب يلحق الموهوب له بالفلس الذي لا يملك سداد ديونه ، وقد عولجت أحكامه في فصل « التدين » من باب المبيعات (٥) . على أن ابن العسال قرر أنه « إذا ادعى الموهوب له أنه معسر فليس تلزم طالبته إلا بينة تبطل دعواه » (٦) . ومن الممكن حينئذ أن يعد الإعسار من موانع الرجوع في الهبة .

والمانع الأخير برره ابن العسال بأنه يحدث ضرراً للموهوب له في ماله ، بل إنه جعل هذا الإضرار هو المانع من رد الهبة ، ومثل له بهبة جدار بنى عليه الموهوب له داراً ،

(١) نفسه ٩٩ .

(٢) الكاساني : بدائع الصنائع ٦ : ١٢٨ .

(٣) نفسه ١٢٩ .

(٤) الشيرازي : المهذب ١ : ٤٥٤ .

(٥) انظر : باب المبيعات من كتاب : **كتاب المبيعات** لكتاب هذا البحث .

(٦) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

فإن استرجاع دين الموهوب وحدها غير كافية بعد هذا البناء ، وكذلك لا تمكن إعادتها بما عليها من البناء لأنهما لم تكن من جودة وقت الهبة ؛ وعن ثم رأى ابن العسال أن يعود الواهب بقيمة الجدار .

ومسألة زيادة الموهوب حظيت بمنية رسالة الفقه الإسلامى ، وفصلوا الكلام فيها . فقالوا : إما أن تكون الزيادة متصلة أو منفصلة . والزيادة المنفصلة لا تمنع الرجوع في أصل الموهوب فقط . أما الزيادة المتصلة بهل الموهوب له أو بغيره فقد منع الحنفية معها الرجوع في الهبة ، ومنعوا كذلك العود في قيسيا . وقال الشافعية في مثال : الأرض الموهوبة يبنى عليها الموهوب له بناء : إنه لا عود في الهبة ، وإنما يقال للواهب : إن شئت فادفع قيمة البناء لتكون شريكا مع الموهوب له في النصف من الأرض والبناء (١) . ومعنى هذا أنه لا عود في قيمة الموهوب كذلك .

ولم يشر ابن العسال إلى شيء من هذه التفاصيل ، ولكنه جعل المنع بسبب الإضرار يلحق الموهوب له ، في مثل الجدار يبنى عليه دارا . وليس في الاستطاعة تقرير أن : « الإضرار » مانع عند ابن العسال من استرجاع الهبة ، أيا كانت صور الإضرار ، فإنه لم يعد أمثلة له ، فيذبح أن يقتصر على ما أشار إليه .

ويرى الإمام مالك أن على الموهوب له أن يعطى الواهب قيمة الموهوب يوم القبض إذا تغير بزيادة أو بنقصان (٢) . وهذا الرأي يصلح لأن يكون سندا لابن العسال فيما ارتضاه .

وهناك موانع أخرى ذكرتها كتب الفقه الإسلامى ، منها خروج الموهوب من ملك الموهوب له لسبب ما كالبيع والهبة ؛ ولا يعد هذا هلاكا للموهوب أو فقدنا له فإنه قد يعود إلى ملك الموهوب له مرة أخرى ، بالرجوع في البيع مثلا لشرط الخيار ، أو بالرجوع في الهبة لسبب ما بما ذكره ابن العسال نفسه . وكذلك وجود معنى العوض بوجه من الوجوه ، كالهبة اجفاء رضوان الله ، وكهبة أحد الزوجين للآخر ، وغير ذلك مما ذكرته كتب الفقه الإسلامى ولم يعرض له ابن العسال ؛ ومن ثم لا يوجد ما يعر التعرض لهذه الموانع بالمناقشة إذ لا يستدعيها هذا البحث .

(١) الأم ٣ : ٢٨٣ .

(٢) رواه الشافعى في كتاب الأم ٣ : ٢٨٣ .

(د) وإذا تقرر حق الرجوع في الهبة لزم لنفاذ ذلك أحد أمرين : رضا الموهوب له ، أو قضاء القاضي . ذلك ، أن الرجوع فسخ ، وهو لا يتم إلا بما ذكر . يقول أبو جعفر الطحاوي : « . ولا يرجع إليه إلا بحكم الحاكم له بها ، أو بتسليم الحاكم له بها ، أو بتسليم من الموهوب له إياها إليه » (١) . وقد ارتضى ابن الصال هذا الرأي ، فقال : « ... فله متى نالت نيئة في مجلس حكم ظاهر بأنه قد أجرى إحدى هذه الخصال ، ( يشير إلى دواعي الرجوع في الهبة ) ، أن يسترجع الهبات . . » (٢) وفي موضع آخر يقول : « ولا يصح الاسترجاع ... إلا بتراضيهما ... » (٣) .

#### هـ — شروط عامة :

مضى في أثناء الحديث عن العناصر الأربعة السابقة من موضوع الهبة ما اقتضى الأمر ذكره من الشروط المعالجة لها ، وبقي قدر عرض له ابن الصال يستحق بعض الحديث . ولعل في صدر هذه الشروط ما ذكره ابن الصال في قوله : « وأما باقي الشروط فإن لا يشترط ما ينافي مقتضى الهبة » (٤) . ومقتضى الهبة حسب روح التشريع عنده ، أن تنقل ملكية الموهوب إلى الموهوب له بمجرد تمام عقد الهبة ، وذلك بقبول الموهوب له الهبة بعد صدور الإيجاب عن الواهب ، أو بتسليم كتاب الهبة إذا تمت الهبة بمكاتبة ، كما اتضح من مناقشة ذلك آنفاً . ومعنى هذا أن الهبة عقد تملك في الحال كما يقول رجال الفقه الإسلامي ، وكما صار ذلك عند ابن الصال نفسه . فإذا رأى الواهب أن يضيف تملك الموهوب إلى زمن مستقبل ، فقد انبغى رفض ذلك ، وحق إجراء الهبة على مقتضاها من التملك في الحال . ومن أجل ذلك بطل شرط « الرقعي » في الفقه الإسلامي ، وملك الموهوب له الدين الموهوبة في الحال . وكذلك إذا صدرت الهبة بلفظ « العمري » كانت للمعمر له في حياته ثم لورثته بعد وفاته . وهاتان المسئلتان أثر لما قرره رجال الفقه ، استناداً إلى النصوص الواردة ، من أن الهبة عقد تملك في الحال ، وأنها لا تأثر بشرط

(١) مختصر الطحاوي ١٣٨ ؛ وانظر كذلك : الكاساني : البدائع ٦ : ١٢٨ ؛ والهداية ٧ : ١٣٥ ؛ القُدوري : مختصر القُدوري — كتاب الهبة ؛ دكتور شفيق سبحانه : النظرية العامة للالتزامات ١٥٧ .

(٢) للجموع الصفوى ٢٢٣ .

(٣) نفسه ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٤) للجموع الصفوى ٢٢٤ .

إضافتها إلى المستقبل . يقول الشيرازي : « ولا يجوز تعليقها على شرط مستقبل ، لأنه عقد يطل بالجملة ، فلم يجوز تعليقه على شرط مستقبل كالبيع » (١) .

ولكن ابن العسال يجوز إضافة الهبة إلى زمن مستقبل ، ويجوز إضافتها إلى ما بعد الموت ، وهو بهذا لا يميل إلى رأى رجال الفقه الاسلامى في هذه المسئلة ، إذ أن ابن العسال يميل كثيرا إلى تقدير شروط العاقدين ورعايتها . وتقول عبارة ابن العسال : « وللواهب أن يمضى الهبة في حياته إن شاء في الوقت الحاضر من دون شرط معوق ، فإن شاء بعده ، بشرط وقت مخصوص مستقبل . وله أن يجعل وقت إضافتها بعد وفاته » (٢) .

وينص ابن العسال في باب الهبة ، كما صنع في باب المبيعات (٣) على سبيل المثال ، على رعاية شروط العاقد وتبطلها ، فيقول مثلا : « وإن كان الشيء الموهوب لا يميزه تحديد ولا تخلية كالدينارين والدرهم فليس يحتاج إلى مكاتبة . فإن كان محتملا لذلك فبمكاتبة فيها خط مشهود يذكر فيها تحديد الشيء الموهوب وصفاته وشروط الواهب فيه . . . » (٤) ، ويقول كذلك : « وإن كان الموهوب قرية فالغلة التي تحصل منها هي للموهوب له منذ يوم كتب له الكتاب وسلمه له ، إلا أن يشترط خلاف ذلك ، فإنه إن اشترط أن الغلة الحاضرة لا تكون له أو مها اشترطه مما لا ينافي مقتضى الهبة . . . » (٤) . وواضح أن الشرط في المسئلة الأخيرة ينافي مقتضى الهبة ، كما قلتم بيان ذلك ، ولكنه عند ابن العسال شرط مقبول . ولم يظهر بجلاء ما يريد بقوله : « مما لا ينافي مقتضى الهبة » ، فقد أمضى شرطا ينافي مقتضاها في نظر رجال الفقه الاسلامى الذين تلقى عنهم ابن العسال ، على حين اعتبروا مثل هذا الشرط باطلا ، إذ أنه يجز تقاضا لأحد المتعاقدين ، فيطل الشرط ويمضى عقد الهبة . يقول صاحب الهداية : « . . . أو وهب داراً أو تصدق عليه بدار على أن يرد عليه شيئا منها ، أو يعوضه شيئا فالهبة جائزة والشرط باطل ، لأن هذه الشروط تخالف مقتضى

(١) المذهب ١ : ٤٥٢ ؛ التنبيه ١٦٥ . وانظر الكاسانى : بدائع الصنائع ١١٥ : ٦ .

(٢) المجموع للصفوى ٢٢٢ .

(٣) انظر : المبيعات ، كتاب هذا البحث .

(٤) المجموع للصفوى ٢٢٤ .



العقد فكانت فاسدة ، والمهبة لا تبطل بها . ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام أجاز  
العمرى وأبطل شرط المعمر « (١) » .

وإذا تقرر ذلك ظهر بجلاء تناقض ما ورد في كتاب ابن العسال في هذا المجال ، فهو  
يقبل شروطا تناقض مقتضى المهبة ، ويمنع في الوقت نفسه الشروط التي تنافيها ، دون أن يحدد  
للنهي الذي يمكن قبول أو رفض الشروط عند بلوغه .

### هبة الفضولي :

تقرر في صحة المهبة أن يكون الواهب مالكا للموهوب وقت العقد . وقد يحدث  
أن يتولى العقد شخص ينييه الواهب عنه إنابة صريحة بطريق الوكالة . وقد يتطوع إنسان  
بإجراء هذا العقد دون سابق وكالة تخول له أن ينوب عن الأصيل فيه . والحالة الأخيرة  
نفس عقد الفضول .

والمقرر أن نفاذ هذا العقد يتوقف على إذن الأصيل ، فإن أمضاه ظهر أن مباشرة  
الفضولي له صحيحة منذ العقد ، ومن ثم تعود الالتزامات المترتبة عليه إلى الأصيل ،  
ويطالب بإمضاها .

وقد أشار ابن العسال إشارة سريعة إلى حكم هبة الفضولي ، ورأى أن نفاذ عقده  
يستمد إمضاه من إذن صاحب المال ، ولا يشترط أن يكون الإذن صريحا ، بل يكفي  
أن يكون العقد بمحضره . ويقول في هذا : « ومن وهب شيء إنسان برأيه فصاحب الشيء  
هو واهبه » (٢) .

ويتفق رأي ابن العسال في هذه المسئلة ورأي رجال المذهب الحنفي ، ومذهب مالك  
في بعض ما حكى عنه . وفي قول آخر عنه أن ما يتولاه من عقود التبرعات يقع باطلا ،  
ويتعقد موقوفا على إجازة صاحب الشأن في عقود المعاوضات . وعند الخبابة أن العقد  
لا ينعقد أصلا فلا تلحقه إجازة ، وهو المشهور عند الشافعية (٣) .

---

(١) الهداية - شرح نتائج الأفكار ٧ : ١٤١ . وانظر دكتور محمد يوسف  
موسى : الأموال ونظرية العقد ٤٢٥ - ٤٢٦ .  
(٢) المجموع الصفوى ٢٢٤ .  
(٣) د . محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ٣٨٠ - ٣٨٦ .

نظرة عامة :

يتبين من المناقشات السابقة أن ابن الصلّال رجّع إلى مصادر إسلامية استمد منها أحكام هذا الباب ، ولم تكن المصاحف المسيحية إذ لم تعالج الجرائم التي قصد إليها ، فيما عدا الإشارة السريعة التي وردت في القانونين الثامن والتاسع من قوانين الملوك .

أما مصادره الإسلامية فقد تجلت تماما في سنن أحكام الباب . ولم يعيش ابن المسال على مائدة مذهب بعينه من مذاهب الفقه الإسلامي ، وأقصد من هذا الآراء المشهورة للمذهب بعينه ، وإنما استفاد منها جميعا .

وكذلك لم أتبن في هذا الباب ، على غير ما رأيت في غيره مما دونته في غير هذا  
الموضع <sup>(١)</sup> ، أنه اقتبس حرفيا نصوص كتاب بعينه .

على أن براعة ابن العسال في جمع هذه الأحكام ، وتنسيق كتابتها على الوجه الذي ارتضاه ، تشهد له بقدرة ومهارة رشحتا كتابه لأن يكون مرجع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر والحشنة على السواء .

٢ - مظاهر لغوية

سنت الفقرة والقسم الأول من هذا البحث لمناقشة أحكام الهبة من القانون النيبوي  
: ١٦٧٣ : ٢٠٢٤ مترجمة عن المجموع الصقوى لابن العسال . غير أن الترجمة الإنشائية،  
رغم وصولها إلى درجة عالية الاقتران ، لم تخل من بعض المحفوظات التي يجب الوقوف  
عندها إذا أريد مقابلة النصين من جهة ، وإذا ما حدثت الرغبة إلى نشر النص مع الاستفادة  
من هذه المقارنة من جهة أخرى (٢) . وسأعرض هنا لهذه الملاحظات ، وأضعها طوائف  
ثلاثة :

(١) طائفة الزيديات في أحد التصانيف .

(ب) وطائفة مخالفات الترجمة الاتيوية نتيجة علم كمال التوفيق فيها .

(٣) والطائفة الثالثة: مخالقات ربما كان سببها إبداء وجهة نظر خاصة المترجم الاتيوي .

(١) انظر : **٢٢٨٠: ٢٢٨١** لكاتب هذا البحث .

(٢) سأقوم في القريب أن شاء الله ، بإعادة نشر « المجموع الصفوى » لابن العسال نشرة علمية مقارنا بالترجمة الانشوية له .

# (١) مزيادات النصين<sup>(١)</sup>

النص العربي :	النص الآتيوبي :
ولا أن يكون (الشيء الموهوب) <sup>(٢)</sup>	ፍጥረት ሆኖ ለሌላ ሰው ለሆነ ማንኛውም ሰው
ما يقبل على ظنه أن الموهوب له	ፍጥረት ሆኖ ለሌላ ሰው ለሆነ ማንኛውም ሰው
يقضه به [أو يقض به] في الوقت	ፍጥረት ሆኖ ለሌላ ሰው ለሆነ ማንኛውም ሰው
الحاضر .	ፍጥረት ሆኖ ለሌላ ሰው ለሆነ ማንኛውም ሰው
(٣) (٤ / ٢٢٤)	(٣) (١٤ / ١ / ١٨٢)

ترجمة الفقرة الآتيوبية : وألا يكون مما يقبل على ظنه أن الموهوب له [يقبل على قلبه حب المال] ، ولا مما يقضه في هذا الوقت .

وما بين الحاصرتين ، وهو مزيّد في النص الآتيوبي ، لا أثر له بخلاف ما في صحة الهبة ، إذ لم يشترط هذا الشرط أحد من الشرعين . ومن ثم كانت إضافته عيما على النص ، وعبئا على التشريع .

وند أسقط النص الآتيوبي عبارة : [أو يقض به] الموجودة في الأصل العربي وهي على عكس ما سبق ، ذات أثر له حسابه ، وقد رتب النص العربي عليها حكما ، هو عدم صحة الهبة .

وإن وهب الذي تحت الحجر	ፍጥረት ሆኖ ለሌላ ሰው ለሆነ ማንኛውም ሰው
بأمر أبيه أو بوائه ، فالهبة للأب	ፍጥረት ሆኖ ለሌላ ሰው ለሆነ ማንኛውም ሰው
تقدرا .	ፍጥረት ሆኖ ለሌላ ሰው ለሆነ ማንኛውም ሰው
( ١٦ / ٢٢٤ )	( ١٩ / ٢ / ١٨٢ )

(١) سأضع النصوص المقابلة في نهريّن : النص العربي في النهر الأيمن ، والترجمة الآتيوبية له في النهر الأيسر ، وسأضع الزيادات من كلا النصين بين حاصرتين ، هكذا ( ) ، مشيرا الى النص العربي بالرمز « ج » . وإلى الآتيوبي بالرمز « ش » .

(٢) زيد ما بين القوسين للتوضيح .  
(٣) ما بين القوسين يشير الى رقم الصفحة ، فالنهر ، فالسطر من النص الآتيوبي ، ورقم الصفحة ، فالسطر من النص العربي .

تقول الترجمة الإنشائية : وإن وهب من تحت الحجر بأمر أبيه ، أو [ بأمر نفسه ] ،  
تقدر تلك الهبة يكون للأب .

ولا حاجة لأن يزداد هنا لفظ [ بأمر نفسه ] ، فقد ذكر في مبدأ باب الهبة أن من  
شروط الواهب أن يكون بالغاً رشيداً ، وغرض النص العربي هنا أن يذكر صورة ثانية  
لهبة المحجور عليه ، وهي أن يهب على مرأى أبيه ، وهذا هو القصد من لفظ [ برأيه ] الذي  
أسقطه النص الإنشائي .

هذا ، ولا توجد مزيادات أخرى في باب الهبة في كلا النصين غير ما سبق ذكره .  
وحق الانتقال بعدئذ إلى الفقرة التالية التي تعالج مخالفات النص الإنشائي .

### (ب) مخالفات النص الإنشائي

ሀብትሰ: ደደሉ: ከመ: የሀብዎ:	أما الهبة فنسبتها إلى غير
ለእለ: አከት: ድልዋነ: ለመጽውቶ:	مستحقى الصدقة نسبة الصدقة إلى
መጽጽዋትኒ: ትከውን: ለዘይደልዎ::	مستحقها .
( ٤ / ٢ / ١٨٠ )	( ٦ / ٢٢٢ )

تقول الترجمة الإنشائية : أما الهبة فيجب أن تعطى لغير مستحقى الصدقة ، والصدقة  
تكون لمن يستحقها .

وقصر تقديم الهبة على غير مستحقى الصدقة ليس من هدف النص العربي ، بل ليس  
من هدف التشريع إطلاقاً ، وكل ما يريد ابن العسال أن هناك صلة بين الهبة ومستحقها ،  
تساوى الصلة بين الصدقة ومستحقها . أما منع الهبة عن أن تصرف في وجوه الصدقات  
فليس بمراد .

ወእምከመ: ወሀብ: ወሃቢ: ከ: የሃ:	وإذا أمضاها الواهب ، وقبل
ወተወከረ: ዘይሀብዎ: ሎቱ: ንዋየ:	الموهوب له الشيء الموهوب
ዘትት: ወሀብ: ወእምከ: ደደሉ: ሎቱ:	[ نعم له <sup>(١)</sup> ] ملكه ، والتصرف فيه
ሥልጣን: ላሰሴሁ: ወይሥራቁ: በቱ:	دون وأهبه .
ከመ: ወሃቢሁ::	
( ٩ / ٢ / ١٨٠ )	( ٧ / ٢٢٢ )

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من مخطوط المتحف القبطي ١٣٨ قانون ،  
ورقة ٨٦/ب .

ترجمة النص الاتيوي : وإذا وهبا الواهب ، وقبل الموهوب له الشيء الموهوب ،  
ثم له السلطان عليه ، ويتصرف فيه كراهيه .

والجملة الأخيرة : « ويتصرف فيه كراهيه » لا تؤدي هدف العبارة العربية التي تعجز  
الواهب عن التصرف في الشيء الموهوب ؛ فقد خرج عن ملكه وصار لغيره . بينما لا تفيد  
الترجمة الاتيوية هذا المعنى .

ወእመስ: ዘያረርህ: እምዘ: መሀብ:	فإن كان عليه (أى ، إلى الواهب) <sup>(١)</sup>
እይትረእም: ሎቱ:: ወእመረ: ሞተ:	خوف من جهته (أى الموهوب له) <sup>(١)</sup>
መሀብሁ: እይገባእ: እምኔሃ: በእምዘ:	فلا تم له [ إلا ] <sup>(٢)</sup> إن مات
ወከፍ: እብገብእ: ወእብከሙት::	الواهب ولم يرجع عنها بشهادة مقبولة لا في السرولا في الجهر .

( ١٦ / ٢ / ١٨٠ ) ( ١٠ / ٢٢٢ )

ترجمة النص الاتيوي : فإن كان خوف من الواهب فلا تم له .  
وإن مات الواهب لا يرجع عنها بشهادة مقبولة لا في السرولا في الجهر .  
وبلاحظ أن النص الاتيوي جعل العبارة فقرتين منفصلتين لكل منهما حكم لا يتصل  
بالآخر . وتحدث الفقرة الأولى عن خوف الواهب ووقوع التأثير عليه من جهة  
الموهوب له . وحكم هبته حيث أخذ أنها لا تم له .

والضمير في ሎቱ - له ، يعود إلى « الواهب » الوارد ذكره في الجملة نفسها ، بينما  
يعود الضمير في عبارة ابن العسال إلى مرجع الضمير في لفظ « جهته » ، أى الموهوب له .  
وهذا أوفق ، من قبيل أن الموهوب له ، وهو المكره الذى أثر في صدور الملية من الواهب ،  
لا ينبغي أن يتفجع بنتيجة هذا الاكراه . وسبب هذه الملاحظة أن الترجمة الاتيوية لم يرد  
فيها إلا متحدث عنه واحد ، هو الواهب ، ولم تعرض لذكر الموهوب له .

ويرد في الفقرة الثانية من الترجمة الاتيوية حكم جديد غير متصل بالحكم الأول  
أو مرتبط به . وهو أن الواهب إذا مات لا يرجع عن هبته بشهادة مقبولة لا في السرو

(١) زيد ما بين القوسين للتوضيح .  
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من مخطوط المتحف القبطى ٨٦/ب .

ولا في الجبر . وواضح أن الواهب إذا مات لا يملك إصدار حكم ما ، إذ لا حياة له إطلاقا وإذا كان المراد أن الموت يمنع الرجوع في الهبة ، فلا جديد في هذا الحكم كذلك ، لأنه قد تقرر في موضع غير هذا الموضع ، حين تحدث النص العربي وترجمته الاتيوية عن موانع الرجوع في الهبة .

وقد أحدث هذا الارتباك حذف الرابط الهام بين الفقرتين المشار إليهما قبل ، وهو أداة الاستثناء : « إلا » ، مما جعل المترجم الحبشي يفصل بين شطري العبارة ، ويبدأ الشطر الثاني بحرف العطف « و » ، ويحذفه من بدء جملة : « يرجع عنها » ، فضيع بذلك الحكم الذي أرادته ابن العسال ، وهو أن الواهب إذا أكره على أن يهب أحدا شيئا فقد فات عنصر « الرضا » الذي يجب تحققه عند صدور العقود ، فإذا أمضى الهبة ولم يثبت أنه رجع عنها حتى فارق الحياة ، ظهر أن العقد الذي سبق أن أمضاه في حياته كان صحيحا .

ወለወገቢ፡ ይደልዎ፡ ከመ፡ የሀብት፡  
በአይወቱ፡ እመ፡ ፈቀደ፡ በጊዜህ፡ ዘከ  
ንበለ፡ ውሳኔ፡ ዕድሜ፡ ወለእመ፡ ፈቀደ፡  
እምድን፡ ራሴህ፡ በተለዛዝ፡ ወበጊዜ፡  
እመ፡ ዘይመጽክ፡ ወለቱ፡ ድልው፡  
ከመ፡ ይገባር፡ በጊዜ ሞቱ፡ ተቆጽ  
ሚታ፡ እምድን፡ ዕረፍቱ፡፡

( ٢٠ / ٢ / ١٨ )

وللواهب أن يمضي الهبة في حياته  
إن شاء في الوقت الحاضر من دون  
شرط معوق . فإن شاء بعده بشرط  
وقت مخصوص مستقبل . وله أن  
يجعل وقت إمضاها بعد وفاته .

( ١٣ / ٢٢٢ )

ترجمة النص الاتيوي : وللواهب أن يمضي الهبة في حياته إن شاء في الوقت الحاضر دون تعيين وقت . وإن شاء بعده بشرط وفي وقت معلوم مستقبل . وله أن يجعل عند موته تمامها بعد وفاته .

والكلام في هذه الفقرة من وجوه . فقد ختمت العبارة الأولى في نص ابن العسال بقوله : « من دون شرط معوق » ، ووضعت الترجمة الاتيوية موضع هذا تعبيراً آخر لا يفتي غناه ، وهو : « دون تعيين وقت » . ولعل المترجم الحبشي رأى في عبور الفقرة ضغظاً على « الوقت » وتحديد أو عدم تحديده ، فقال إلى ما ارتآه .

وفي الجملة الثانية رأى المترجم الحبشي أن يجعل كلا من المضاف والمضاف إليه في تعبير ابن العسال : « بشرط وقت مخصوص مستقبل » ، شرطاً مستقلاً ، فقال : « بشرط ، وفي

وقت معلوم مستقبل ، « فكرر حرف الجر : **በ** ، وسبقه بحرف العطف : **ወ** ، فنصار كل من المضاف والمضاف إليه أمرا مقصودا لذاته . وليس ذلك مرادا .

وفي الجملة الأخيرة أضاف المترجم الحبشي ظرف زمان بعد الفعل : يجعل ، فضلا على ظرف الزمان في ختام الجملة . وقد أدت زيادة هذا الظرف معنى جديدا لم يطرقه ابن العسال ، وجعل زمن صدور عقد الهبة في وقت موت الواهب ، أي في مرض موته ، لأنه لا نتيجة من زيادة تعبير : **በጊዜው** بعد الفعل **ይገባ** إلا أن يكون المراد : أن عقد الهبة حدث في مرض موته ليكون إمضاء الهبة ونفاذها معلقا إلى ما بعد وفاته . وهكذا تضع هذه العبارة حكما جديدا لم يرد عند ابن العسال .

**ወለአመኒ፡ ደቡ፡ ዘወሀብዎ፡ ሎቱ፡  
ከመ፡ ጽኑስ፡ ውለቱ፡ አልበ፡ ዘይከልኦ፡  
ኃሳሳሁ፡ ዘእንበለ፡ በስምዕ፡ ዘያዕርዕ፡  
ኃሳሳሁ፡።**

وإن ادعى الموهوب له أنه مصر ،  
فليس نلزم مطالبته إلا بيئته تبطل  
دعواه .

( ٤ / ١ / ١٨٢ )

( ١ / ٢٢٤ )

ترجمة النص الاتيوي : وإن قال الموهوب له إنه محتاج ، فلا تمتع مطالبته إلا بيئته تبطل مطالبته .

وبين الأصل العربي وترجمته شيء من الاختلاف ، فالأصل العربي يرى أن توقف المطالبة إذا ادعى الموهوب له الاعسار ، بينما ترى الترجمة الاتيوية ألا توقف المطالبة إلا عند ظهور بيئته على الاعسار .

**ወአይቀውዎ፡ ሀብት፡ ለዘይሀብ  
ዎ፡ ዘእንበለ፡ ለከበቱ፡ ጥሪት፡ ወአ  
ትትረጸም፡ ዘእንበለ፡ ለበ፡ ይትግከፍ፡።**

ولا تصح الهبة إلا لموهوب له  
معروف ، ولا تتم إلا إذا قبلها .

( ٧ / ١ / ١٨٢ )

( ٢ / ٢٢٤ )

ترجمة النص الاتيوي : ولا تصح الهبة للموهوب له إلا لمن يملك مالا ، ولا تتم إلا إذا قبلوا .

والنص العربي يتحدث في الفقرة السابقة عن شرطين من شروط الهبة ، أحدهما يتعلق بالموهوب له وهو ألا يكون مجعولا ، والثاني يتعلق بعقد الهبة ذاته وهو ركن « القبول » من الموهوب له .

غير أن الترجمة الاتيوية أهملت الشرط الأول ، ووضعت مكانه ملكية المال ، أي مال ، ولم تحدد : أهو المال الموهوب أو مطلق مال . فإن كان الأول فقد تكشف النص بعلاجه في موضع آخر ، وإن كان الثاني فهو لغو لا محل له .

أما الشرط الثاني ، أو بالأحرى ركن الهبة ، وهو قبول الموهوب له الهبة ، فقد عم المترجم الاتيوي من يقع منهم القبول ، فوضع ضمير الجمع « ٥ » ولم يخصه بالموهوب له فقط ، بينما يضع النص العربي ضمير الهبة وهو « ها » . وبذلك اجتهدت الترجمة الاتيوية عن نص ابن العسال .

ወእመ፡ ከን፡ ንዋይ፡ ዘተውበ፡  
ኢይት፡ፈለተ፡ ለተፈቅዶ፡ ወኢበውሂ  
ብ፡ ከመ፡ ፈፍረት፡ ወጠፋሐ፡ ብሩ  
ር፡ ኢይት፡ፈቀድ፡ ብ፡ ጽሑፍ፡፡

( ١٩ / ١ / ١٨٢ )

وإن كان الشيء الموهوب لا يميزه  
تعدد ولا تخلية كالدنانير والدرهم  
فليس يحتاج إلى مكانية .

( ٦ / ٢٢٤ )

ترجمة النص الاتيوي : وإن كان الشيء الموهوب لا يميز للارتفاع ، ولا بالهبة كالدنانير والدرهم ، فليس يحتاج إلى مكانية .

وبلاحظ تغير المترجم الاتيوي : وإن كان الشيء الموهوب لا يميز للارتفاع ولا بالهبة .. فإنه لا يؤدي المعنى الاصطلاحي الذي أشار إليه نص ابن العسال ، وهو : تحديد الشيء الموهوب إن كان مما يقبل القسمة ويمكن إحرازه ، أو التخلية بين الموهوب له وما وهب إن كان للوهوب عقارا مثلا . ويبدو أن هذا المعنى الاصطلاحي لم يتيسر أدائه لدى المترجم الحبشي .

ወእመ፡ ወበ፡ ፩እመኑሂ፡ ምጥተ  
ኔ፡ ንዋይ፡ ወዋተ፡ እምፋድመ፡ በጽሐ  
ቱ፡ ብሀሀ፡ ኢይደልም፡ ለፈረብያ፡  
ሀ፡ ከመ፡ ይባድ፡፡

( ١٦ / ٢ / ١٨٢ )

ومن وهب أحدا شيئا فمات  
قبل وصوله إليه ، فليس يصير  
لورثته .

( ١٥ / ٢٢٤ )

ترجمة النص الاتيوي : ومن وهب لأحد شيئا من المال فمات قبل وصوله إليه فلا يدفعه ورثته .

وبلاحظ الضميران في « ١٥ » ، وفي « ١٦ » وهما يعودان إلى أقرب مذكور إليهما وهو الموهوب له الذي مات قبل أن يتسلم الشيء الموهوب ، ولفظ « ورثته »



(ح) توجهات النص الإتيوبي

ማለሁ፤ ይህ-በሙ፡ ቀዳሚ፡ አሉሂ፡  
 እሙንቱ፡ ደቂቅ፤ ወድን፡ሪሆሙ፡ ወላ  
 ድያኒህ፡ ማምህ፡ አግላዲህ፡ ወእም  
 ገ፤ ሐማን፡ ወእምገ፤ ሐንዲህ፡ ወእም  
 ገ፤ ፍቁሬን፡ ወእምገ፤ ላለካን፡ ወእም  
 ገ፤ አማር፡ምእሙናን፡ ወአብያጽ፡ ወዘ  
 ይሙ ስለሙ፡።

وأما الموهوب لهم فأولاهم  
الأولاد ثم الآباء ثم الأقارب ثم  
الأصهار ثم الترابي ثم الأصدقاء ثم الخدام  
ثم المعارف الجيران والرفقة وغيرهم .

(7/2/181)

(12/222)

وضع المترجم الحبشي لفظ « الجبران المؤمنون » : ለገባሩ ሰላም፤ موضع :  
 « المعارف الجبران » في نص ابن العسال ، وأرجح أن لذلك هدفاً لدى المترجم الحبشي .  
 وفي ختام الفقرة الإثيوبية وضع المترجم لفظ : « ومن شابههم » ለሌሎች ሰላም፤  
 موضع لفظ : « وغيرهم » في كلام ابن العسال . ولعلنا نسال الآن : ماذا يقصد  
 المترجم بلفظه الذي استبدله بلفظ ابن العسال ؟ ويبدو أنه لا جواب .

هذا ما تجدر الإشارة إليه عند مقابلة الترجمة الاتيوية ونص ابن الصال ، وهي مقابلة مفيدة مثمرة يصحح منها أن يعاد نشر النص العربي مع الافادة من أمثال هذه الملحوظات ، فربما أرشدت إلى توجيهات وآراء جديدة في التوسيع الاتيوي بعد أن نقل عن مصدره العربي ، وربما أرشد إلى أصل عربي « غير الذي بأيدينا أفاد منه المترجم الحبشي عند ما ترجم . وقد أشرت إلى أهمية ذلك كله في موضع آخر <sup>(١)</sup> . ويحسب أن أعيد هنا نشر « باب الهبة » على الوجه الذي قصده حتى تتم الفائدة المرجوة من هذا البحث .

(١) انظر لكاتب هذا البحث :: ᐱᓄᕈᑦ

---

### ٣ - الباب السادس والعشرون<sup>(١)</sup>

#### في الهبة

#### وأكثره من التطلعات<sup>(٢)</sup>

(١٢، ١٣) النظر في الهبات من خمس جهات ، وهي : الهبة ، والواهب ، [الموهوب له]<sup>(٣)</sup> ، والموهوب ، وباقي الشروط .

أما الهبة فنسبها إلى غير مستحق الصدقة نسبة الصدقة إلى مستحقها<sup>(٤)</sup> . فهي فضيلة مستحبة بعد الصدقة . وإذا أمضاها الواهب وقبل الموهوب له الشيء الموهوب ثم له ملكه والتصرف فيه دون واهبه<sup>(٥)</sup> .

وأما الواهب فلا تصح منه الهبة إلا إذا كان بالغاً رشيداً حراً مختاراً ، ليس عليه خوف من جهة الموهوب له . فإذا كان عليه خوف من جهة فلا تتم له [ إلا<sup>(٦)</sup> ] إن مات الواهب ولم يرجع عنها بشهادة مقبولة لا في السر ولا في الجهر<sup>(٧)</sup> .

وللواهب أن يمضي الهبة في حياته إن شاء في الوقت الحاضر من دون شرط معوق<sup>(٨)</sup> ،

---

(١) اتخذت النص العربي الذي نشره مرقس جرجس سنة ١٩٢٧ ، إذ هو في مكتبي ، مصدراً أشير إلى صفحاته وسطوره وأرمز له بالحرف ج ، مقابلًا بمخطوطة معهد الدراسات القبطية بالقاهرة برقم ٣٢٦٧ لاهوت ، فهي أقدم مخطوطة أهديت إليها ، وكذلك مخطوطة المتحف القبطي بالقاهرة ١٣٨ قانون . والمخطوطة ٣٢ قانون - بمكتبة البطريكية بالقاهرة ، وهي أقدم مخطوطتين بها ، والطبوع الذي نشره جرجس فيلوناوس عوض سنة ١٩٠٨ . واعتمدت كذلك على النص الآتيوي المنشور باللغة الجعزية ، وكان قد نشره جويدي سنة ١٨٩٧ بمدينة روما ، وأشارت إليه بالرمز ش .

(٢) اتضح من الدراسات السابقة أن أكثر ما ورد في هذا الباب ، بل كله ، عدا ما استفاد فيه ابن العسال بالقانونين الثامن والتاسع من قوانين الملوك - مستمد من التشريع الإسلامي ، على النهج الذي أوضحته قبل .

(٣) ما بين الحاصرين سقط من ج ٥/٢٢٢ .

(٤) في ش : أما الهبة فيجب أن تعطى لغير مستحق الصدقة ، والصدقة تكون لمن يستحقها . ش ٤/٢/١٨٠ .

(٥) في ش : ... تم له السلطان عليه ويتصرف فيه كواهبه . ش ٩/٢/١٨٠ .  
(٦) ، (٧) ما بين الحاصرين ساقط من ش . وقد أدى ذلك إلى تفسير في تركيب الجملة أنتج بالتالي تغييراً في الحكم ، فصارت الفقرة في ش هكذا : فإن كان خوف من الواهب فلا تتم له . وإن مات الواهب لا يرجع عنها بشهادة مقبولة لا في السر ولا في الجهر . ش ١٦/٢/١٨٠ .

(٨) في ش : دون تعيين وقت .. ش ٢١/٢/١٨٠ .

فإن شاء بعده بشرط وقت مخصوص مستقبل<sup>(١)</sup> ، وله أن يجعل وقت إضاها  
بعد وفاته<sup>(٢)</sup> .

وإن وهب جميع نعمته أو أكثرها في حال لم يكن له فيها ولد ثم صار له بعد ذلك  
أولاد فله استرجاع ما أراحه ، وأن يعمل فيه ما بدا له ، إما عين ما وهب إن كان موجوداً  
وإلا قيمته .

ولا يصح الاسترجاع بعد موت أحدهما ، ولا مع علم الموهوب له عين ما وهب  
وقيته ، ولا إذا قبض الواهب عوضاً عما وهب إلا براضيهما ، ولا بأن يحصل بالاسترجاع  
إضرار الموهوب له في ماله ، كما إذا وهبه جداراً فبنى عليه داراً فليس له استرجاع عينه  
لكن له استرجاع قيمته .

وإذا وهب من هو دون البلوغ لأحد هبة فله أن يتكلم فيها من بعد بلوغه بأربع  
سنين ويعود يأخذ شيئه إذا أراد .

( مك ٨ ، ٩ )<sup>(٣)</sup> والمبة التي تكون بكتاب لا تتم إلا بأن يسلم الواهب كتابها  
للموهوب له إذا كانت لغريب ، وليس له بعد تسليمها له أن يستردها منه . وإن كانت لولد  
أو لولد ولد صحت بغير كتاب ، وجاز له أن يستردها في حياته وأن يغير ما كتب لهما  
كما أحب . فأما بعد موته فلهما ما في الكتاب ولو لم يسلمه لهما .

وأما الموهوب لهم فأولادهم الأولاد ثم الآباء ثم الأقارب ثم الإصحار ثم الترابي  
ثم الأصقاء ثم الخدام ثم المعارف الجيران<sup>(٤)</sup> والرقعة وغيرهم<sup>(٥)</sup> .  
ويستحب أن يساوى فيها بين المتساوين كالأولاد .

ومن لم يشكر منم الذي وهبه ، بل خرج إلى شيء من القبيح فعد يده إليه بظلم  
فأفحش أو خسر هبة عظيمة من سعاية أو عمل في هلاك حياته أو قطع عنه ما جرت  
الرواقعة عليه بشهادة في شيء يحمله عبا وهب له - فله ، متى قامت بينة في مجلس حكم ظاهر

(١) في ش : بشرط ، وفي وقت معلوم مستقبل . ش ٢٣/٢/١٨٠ .

(٢) في ش : وله أن يجعل عند موته تمامها بعد وفاته ش ٢٤/٢/١٨٠ .

(٣) في ش : ( ٩ ، ١٠ ) وما في ج هو الصحيح ش ٢٠/١/١٨١ .

(٤) في ش : ثم الجيران المؤمنون . ش ١٠/٢/١٨١ .

(٥) في ش : ومن شابههم . ش ١١/٢/١٨١ .

## نظرة عامة :

يتبين من المناقشات السابقة أن ابن العسال رجع إلى مصادر إسلامية استمد منها أحكام هذا الباب ، ولم تكن المصادر المسيحية إذ لم تعالج الجوانب التي قصد إليها ، فيما عدا الإشارة السريعة التي وردت في القانونين الثامن والتاسع من قوانين الملوك .

أما مصادره الإسلامية فقد تجلت تماما في سائر أحكام الباب . ولم يعش ابن العسال على مائدة مذهب بعينه من مذاهب الفقه الإسلامي ، وأقصد من هذا الآراء المشيرة لمذهب بعينه ، وإنما استفاد منها جميعا .

وكذلك لم أتبن في هذا الباب ، على غير ما رأيت في غيره مما دونته في غير هذا الموضع (١) ، أنه اقتبس حرفيا نصوص كتاب بعينه .

على أن براعة ابن العسال في جمع هذه الأحكام ، وتنسيق كتابتها على الوجه الذي ارتضاه ، تشهد له بقدرة ومهارة رشداً كتابه لأن يكون مرجع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر والحجبة على السواء .

## ٢ - مظاهر لغوية

سنتح الفرصة في القسم الأول من هذا البحث لمناقشة أحكام الهبة من القانون الاتيوي : ١٦٧٣-١٦٧٤ مترجمة عن المجموع الصفوي لابن العسال . غير أن الترجمة الإتيوية، رغم وصولها إلى درجة عالية الاتقان ، لم تخل من بعض الملاحظات التي يجب الوتوف عندها إذا أريد مقابلة النصين من جهة ، وإذا ما حدث الرغبة إلى نشر النص مع الافادة من هذه المقارنة من جهة أخرى (٢) . وسأعرض هنا لهذه الملاحظات ، وأضعها طوائف ثلاثة :

(أ) طائفة الزيدات في أحد النصين .

(ب) وطائفة مخالفات الترجمة الإتيوية نتيجة علم كمال التوفيق فيها .

(ج) والطائفة الثالثة : مخالفات ربما كان سببها إبداء وجهة نظر خاصة للمترجم الاتيوي .

(١) انظر : ١٦٧٣-١٦٧٤ : لكاتب هذا البحث .

(٢) سأقوم في القريب أن شاء الله ، بإعادة نشر « المجموع الصفوي » لابن العسال نشرة علمية مقارنا بالترجمة الإتيوية له .



تقول الترجمة الإتيوبية : وإن وهب من تحت الحجر بأمر أيه ، أو [ بأمر نفسه ] ،  
تقدر تلك الهبة يكون للأب .

ولا حاجة لأن يزداد هنا لفظ [ بأمر نفسه ] ، فقد ذكر في مبدأ باب الهبة أن من  
شروط الواهب أن يكون بالغاً رشيداً ، وغرض النص العربي هنا أن يذكر صورة ثانية  
لهبة المحجور عليه ، وهي أن يهب على مرأى أيه ، وهذا هو القصد من لفظ [ برأيه ] الذي  
أسقطه النص الاتيوبي .

هذا ، ولا توجد مزيادات أخرى في باب الهبة في كلا النسخين غير ما سبق ذكره .  
وحق الانتقال بعدئذ إلى الفقرة التالية التي تعالج مخالفات النص الاتيوبي .

### (ب) مخالفات النص الإتيوبي

ሀብትሰ፡ ይደሉ፡ ከመ፡ የሀብ፡	أما الهبة فنسبتها إلى غير
ለአለ፡ ሊኮኑ፡ ድልዋ፡ ለመጽውቶ፡	مستحقى الصدقة نسبة الصدقة إلى
ወጽዮትኒ፡ ትከውን፡ ለዘይደልዎ፡፡	مستحقها .
( ٤ / ٢ / ١٨٠ )	( ٦ / ٢٢٢ )

تقول الترجمة الإتيوبية : أما الهبة فيجب أن تعطى لغير مستحقى الصدقة ، والصدقة  
تكون لمن يستحقها .

وقصر تقديم الهبة على غير مستحقى الصدقة ليس من هدف النص العربي ، بل ليس  
من هدف التشريع إطلاقاً ، وكل ما يريد ابن العسال أن هناك صلة بين الهبة ومستحقها ،  
تساوى الصلة بين الصدقة ومستحقها . أما منع الهبة عن أن تصرف في وجوه الصدقات  
فليس بمراد .

ወእምከመ፡ ወሀብ፡ ወሃቢ፡ ከያሃ፡	وإذا أمضاه الواهب ، وقبل
ወተወከረ፡ ዘይሀብ፡ ለቱ፡ ንዋዮ፡	الموهوب له الشيء الموهوب
ዘትት፡ ሀብ፡ ወእምከ፡ ይደሉ፡ ለቱ፡	[ ثم له (١) ] ملكه ، والصرف فيه
ምልላን፡ ላዕሊሀ፡ ወይምረዕ፡ ቦቱ፡	دون واهبه .
ከመ፡ ወሃቢሀ፡፡	
( ٩ / ٢ / ١٨٠ )	( ٧ / ٢٢٢ )

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من مخطوط المتحف القبطى ١٣٨ قانون ،  
ورقة ٨٦/ب .

ترجمة النص الاتيوي : وإذا وهب الواهب ، وقبل الموهوب له الشيء الموهوب ،  
ثم له السلطان عليه ، ويتصرف فيه كواهبه .

والجملة الأخيرة : « ويتصرف فيه كواهبه » لا تؤدي هدف العبارة العربية التي نخرج  
الواهب عن التصرف في الشيء الموهوب ، فقد خرج عن ملكه وصار لغيره . بينما لا تقيد  
الترجمة الاتيوية هذا المعنى .

ወእመስ፡ ዘፍረረህ፡ እምዘ፡ መሀበ፡	فإن كان عليه (أى على الواهب) <sup>(١)</sup>
እይትረጸም፡ ሎቱ፡ ወእመኒ፡ ሞተ፡	خوف من جهته (أى الموهوب له) <sup>(١)</sup>
ወሃበሁ፡ እይገባእ፡ እሞኔሃ፡ በስም፡	فلا تم له [ إلا ] <sup>(٢)</sup> أن مات
ውኩፍ፡ ኢበገቡእ፡ ወኢበከውት፡	الواهب ولم يرجع عنها بشهادة مقبولة لا في السر ولا في الجهر .

( ١٦ / ٢ / ١٨٠ )

( ١٠ / ٢٢٢ )

ترجمة النص الاتيوي : فإن كان خوف من الواهب فلا تم له .  
وإن مات الواهب لا يرجع عنها بشهادة مقبولة لا في السر ولا في الجهر .  
ويلاحظ أن النص الاتيوي جعل العبارة فقرتين منفصلتين لكل منهما حكم لا يتصل  
بالآخر . وتحدث الفقرة الأولى عن خوف الواهب ووقع التأثير عليه من جهة  
الموهوب له . وحكم هبته حيثئذ أنها لا تم له .

والضمير في ሎቱ - له ، يعود إلى « الواهب » الوارد ذكره في الجملة نفسها ، بينما  
يعود الضير في عبارة ابن العسال إلى مرجع الضير في لفظ « جهته » ، أى الموهوب له .  
وهذا أوفق . من قبيل أن الموهوب له ، وهو المكره الذي أثر في صدور الهبة من الواهب ،  
لا ينبغي أن يتفجع بنتيجة هذا الاكراه . وسبب هذه الملاحظة أن الترجمة الاتيوية لم يرد  
فيها إلا متحدث عنه واحد ، هو الواهب ، ولم تعرض لذكر الموهوب له .

ويرد في الفقرة الثانية من الترجمة الاتيوية حكم جديد غير متصل بالحكم الأول  
أو مرتبط به . وهو أن الواهب إذا مات لا يرجع عن هبته بشهادة مقبولة لا في السر

(١) زيد ما بين القوسين للتوضيح .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من مخطوط المتحف القبطى ٨٦/ب .

ولا في الخبر . وواضح أن الواهب إذا مات لا يملك إصدار حكم ما ، إذ لا حياة له إطلاقا وإذا كان المراد أن الموت يمنع الرجوع في الهبة ، فلا جديد في هذا الحكم كذلك ، لأنه قد تقرر في موضع غير هذا الموضع ، حين تحدث النص العربي وترجمته اللاتينية عن موانع الرجوع في الهبة .

وقد أحدث هذا الارتباك حذف الرابط الهام بين الفقرتين المشار إليهما قبل ، وهو أداة الاستثناء : « إلا » ، مما جعل المترجم الحبشي يفصل بين شطري العبارة ، ويبدأ الشطر الثاني بحرف العطف « و » ، ويحذفه من بدء جملة : « يرجع عنها » ، فيضيع بذلك الحكم الذي أرادته ابن العسال ، وهو أن الواهب إذا أكره على أن يهب أحدا شيئا فقد فات عنصر « الرضا » الذي يجب تحققه عند صدور العقود ، فإذا أمضى الهبة ولم يثبت أنه رجع عنها حتى فارق الحياة ، ظهر أن العقد الذي سبق أن أمضاه في حياته كان صحيحا .

ወለወላቤ ለገብርያስ ለገብርያስ ለገብርያስ ለገብርያስ  
በሕይወቱ ለገብርያስ ለገብርያስ ለገብርያስ ለገብርያስ  
ንበለ፡ ውሳኔ፡ ዕድሜ፡ ወለገብርያስ ለገብርያስ  
አምድን፡ በትእዛዝ፡ ወበገብርያስ ለገብርያስ  
አምር፡ ዘይመደብ፡ ወለገብርያስ ለገብርያስ  
ከመ፡ ደግበር፡ በገብርያስ ሞተ፡ ተፈጻ  
ሚታ፡ አምድን፡ ዕድሜ፡

وللواهب أن يمضي الهبة في حياته  
إن شاء في الوقت الحاضر من دون  
شرط معوق . فإن شاء بعده بشرط  
وقت مخصوص مستقبل . وله أن  
يجعل وقت إمضاها بعد وفاته .

( ٢٠ / ٢ / ١٨ )

( ١٣ / ٢٢٢ )

ترجمة النص اللاتيني : وللواهب أن يمضي الهبة في حياته إن شاء في الوقت الحاضر دون تعيين وقت . وإن شاء بعده بشرط وفي وقت معلوم مستقبل . وله أن يجعل عند موته تمامها بعد وفاته .

والكلام في هذه الفقرة من وجوه . فقد ختمت العبارة الأولى في نص ابن العسال بقوله : « من دون شرط معوق » ، ووضعت الترجمة اللاتينية موضع هذا تعبيراً آخر لا يغني غناؤه ، وهو : « دون تعيين وقت » . ولعل المترجم الحبشي رأى في عموم الفقرة ضغظاً على « الوقت » وتحديد أو علم تحديده ، فقال إلى ما ارتأه .

وفي الجملة الثانية رأى المترجم الحبشي أن يجعل كلا من المضاف والمضاف إليه في تعبير ابن العسال : « بشرط وقت مخصوص مستقبل » ، شرطاً مستقلاً ، فقال : « بشرط ، وفي



وقت معلوم مستقبل ، « فكرر حرف الجر : n ، وسبقه بحرف العطف : w ، فنصار كل من المضاف والمضاف إليه أمرا مقصودا لذاته . وليس ذلك مرادا .

وفي الجملة الأخيرة أضاف المترجم الحبشي ظرف زمان بعد الفعل : يعمل ، فضلا على ظرف الزمان في ختام الجملة . وقد أدت زيادة هذا الظرف معنى جديدا لم يطرقة ابن الصال ، وجعل زمن صدور عقد الهبة في وقت موت الواهب ، أى في مرض موته ، لأنه لا نتيجة من زيادة تعبير : በጊዜውም بعد الفعل ገባር إلا أن يكون المراد : أن عقد الهبة حدث في مرض موته ليكون إمضاء الهبة وتفاذها معلقا إلى ما بعد وفاته . وهكذا تفسر هذه العبارة حكما جديدا لم يرد عند ابن الصال .

ወለክመኛ፡ ደቤ፡ ዘመሀብዎ፡ ሰቱ፡	وإن ادعى الموهوب له أنه معسر ،
ከመ፡ ጽኑስ፡ ውለቱ፡ አልበ፡ ዘይከለክ፡	فليس تلمر مطالبته إلا بيئته تبطل
ኃሳሳሁ፡ ዘአንበላ፡ በስምዕ፡ ዘያዕርብ፡	دعواه .
ኃሳሳሁ፡፡	
( ٤ / ١ / ١٨٢ )	( ١ / ٢٢٤ )

ترجمة النص الاتيوي : وإن قال الموهوب له إنه محتاج ، فلا تمتع مطالبته إلا بيئته تبطل مطالبته .

وبين الأصل العربي وترجمته شيء من الاختلاف ، فالأصل العربي يرى أن توقف المطالبة إذا ادعى الموهوب له الاعسار ، بينما ترى الترجمة الاتيوية ألا توقف المطالبة إلا عند ظهور بيئته على الاعسار .

ወኢይቀውም፡ ሀብት፡ ለዘይሀብ	ولا تصح الهبة إلا لموهوب له
ዎ፡ ዘአንበላ፡ ለዘበቱ፡ ጥሪት፡ ወኢ	معروف ، ولا تتم إلا إذا قبلها
ትትፈጸም፡ ዘአንበላ፡ ለበ፡ ይተዩከ፡፡	
( ٧ / ١ / ١٨٢ )	( ٢ / ٢٢٤ )

ترجمة النص الاتيوي : ولا تصح الهبة للموهوب له إلا لمن يملك مالا ، ولا تتم إلا إذا قبلوا .

والنص العربي يتحدث في الفقرة السابقة عن شرطين من شروط الهبة ، أحدهما يتعلق بالموهوب له وهو ألا يكون مجهولا ، والثاني يتعلق بعقد الهبة ذاته وهو ركن « القبول » من الموهوب له .

غير أن الترجمة الاتيوية أهملت الشرط الاول ، ووضعت مكانه ملكية المال ، أى مال ، ولم تحدد : أهو المال الموهوب أو مطلق مال . فإن كان الاول فقد تكفل النص بعلاجه فى موضع آخر ، وإن كان الثانى فهو لغو لا محل له .

أما الشرط الثانى ، أو بالأحرى ركن الهبة ، وهو قبول الموهوب له الهبة ، فقد عمم المترجم الاتيوي من يقع منهم القبول ، فوضع ضمير الجمع « ٢٢ » ولم يخصه بالموهوب له فقط ، بينما يضع النص العربى ضمير الهبة وهو « ها » . وبذلك اجتمعت الترجمة الاتيوية عن نص ابن العسال .

ዐለመ፡ ከን፡ ንዋይ፡ በተውህበ፡  
ኢይትረለተ፡ ለተረቅዶ፡ ወኢበውሂ  
ብ፡ ከመ፡ ጸናራት፡ ወጠፋሉከ፡ ብሩ  
ር፡ ኢይትረቀዶ፡ ንበ፡ ጽሑፍ፡፡

( ١٩ / ١ / ١٨٢ )

وإن كان الشيء الموهوب لا يميزه  
تحديد ولا تخلية كالدنانير والدرام  
فليس يحتاج إلى مكانة .

( ٦ / ٢٢٤ )

ترجمة النص الاتيوي : وإن كان الشيء الموهوب لا يميز للانتفاع ، ولا بالهبة كالدنانير والدرام ، فليس يحتاج إلى مكانة .

ويلاحظ تعبير المترجم الاتيوي : وإن كان الشيء الموهوب لا يميز للانتفاع ولا بالهبة .. فإنه لا يؤدى المعنى الاصطلاحي الذى أشار إليه نص ابن العسال ، وهو : تحديد الشيء الموهوب إن كان مما يقبل القسمة ويمكن إحرازه ، أو التخلية بين الموهوب له وما وهب إن كان للموهوب عقار مثلا . ويبدو أن هذا المعنى الاصطلاحي لم يتيسر أدائه لدى المترجم الحبشى .

ወአመ፡ ወህቡ፡ ጃለመኑሂ፡ ምኅተ  
ኒ፡ ንዋይ፡ ወዋተ፡ እምቲድመ፡ ብጽሐ  
ቱ፡ ብህህ፡ ኢይደልዎመ፡ ለፍራዕደኒ  
ሁ፡ ከመ፡ ይሰድዋ፡፡

( ١٦ / ٢ / ١٨٢ )

ومن وهب أحدا شيئا فمات  
قبل وصوله إليه ، فليس يصير  
لورثته .

( ١٥ / ٢٢٤ )

ترجمة النص الاتيوي : ومن وهب لأحد شيئا من المال فمات قبل وصوله إليه فلا يذمه ورثته .

ويلاحظ الضميران فى : ብህህ ، وفى : ወራዝደኒ وهما يعودان إلى أقرب مذكور إليهما وهو الموهوب له الذى مات قبل أن يتسلم الشيء الموهوب ، ولفظ « ورثته »

يقصد به كذلك ورثة الموهوب له ، وليس في يدهم الموهوب ، إذ لم يسبق وصوله إلى مورثهم ، فكيف يمكن أن يدفعوا ويرحوا شيئا ليس في يدهم ! هذا ، ونص ابن العسال يقول : إن الشيء الموهوب لا يصير إليهم ، قبض الموهوب له الموهوب شرط في تمام الهبة ، ومن حق الواهب أن يسير في هبته وأن يعود فيها .

### (ح) توجيهات النص الإتيوبي

ṣḥāḥ: ḥu-ḥu: ḥḥḥ: ḥḥḥ:  
ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ:  
ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ:  
ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ:  
ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ:  
ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ:  
ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ:

وأما الموهوب لهم فأولا هم  
الأولاد ثم الآباء ثم الأقارب ثم  
الأصهار ثم الترابي ثم الأصدقاء ثم الخدام  
ثم المعارف الجيران والرفقة وغيرهم .

(٦/٢/١٨١)

(١٢/٢٢٣)

وضع المترجم الحبشي لفظ « الجيران المؤمنون : ḥḥḥ: ḥḥḥ: » موضع :  
« المعارف الجيران » في نص ابن العسال ، وأرجح أن لذلك هدفا لدى المترجم الحبشي .  
وفي ختام الفقرة الإتيوبية وضع المترجم لفظ : « ومن شابههم ḥḥḥ: ḥḥḥ: »  
موضع لفظ : « وغيرهم » في كلام ابن العسال . ولسائل أن يسأل الآن : ماذا يقصد المترجم بلفظه الذي استبدله بلفظ ابن العسال ؟ ويبدو أنه لا جواب .

هذا ما تجلر الإشارة إليه عند مقابلة الترجمة الإتيوبية ونص ابن العسال ، وهي مقابلة مفيدة مثيرة يستحق منها أن يعاد نشر النص العربي مع الاستفادة من أمثال هذه الملاحظات ، فربما أوشدلت إلى توجيهات وآراء جديدة في التشريع الإتيوبي بعد أن تقل عن مصدره العربي ، وربما أرشد إلى أصل عربي « غير الذي بأيدينا أفاد منه المترجم الحبشي عند مترجم . وقد أشرت إلى أهمية ذلك كله في موضع آخر <sup>(١)</sup> . ويحسن أن أعيد هنا نشر « باب الهبة » على الوجه الذي قصده حتى تتم الفائدة المرجوة من هذا البحث .

(١) انظر لكاتب هذا البحث : ḥḥḥ: ḥḥḥ: ḥḥḥ:

### ٣ - الباب السادس والعشرون<sup>(١)</sup>

#### في الهبة

#### وأكثره من التطلعات<sup>(٢)</sup>

(١٢، ١٣) النظر في الهبات من خمس جهات ، وهي : الهبة ، والواهب ، [والموهوب له]<sup>(٣)</sup> ، والموهوب ، وبقاى الشروط .

أما الهبة فنسبها إلى غير مستحق الصدقة نسبة الصدقة إلى مستحقها<sup>(٤)</sup> . فهي فضيلة مستحبة بعد الصدقة . وإذا أمضاها الواهب وقبل الموهوب له الشيء الموهوب ثم له ملكه والتصرف فيه دون واهبه<sup>(٥)</sup> .

وأما الواهب فلا تصح منه الهبة إلا إذا كان بالناشدا حراً مختاراً ، ليس عليه خوف من جهة الموهوب له . فإذا كان عليه خوف من جهة فلا تتم له [إلا<sup>(٦)</sup>] إن مات الواهب ولم يرجع عنها بشهادة مقبولة لا في السر ولا في الجهر<sup>(٧)</sup> .

والواهب أن يمضى الهبة في حياته إن شاء في الوقت الحاضر من دون شرط معوق<sup>(٨)</sup> ،

---

(١) اتخذت النص العربي الذي نشره مرقس جرجس سنة ١٩٢٧ ، اذ هو في مكتبتى ، مصدرا أشير الى صفحاته وسطوره وأرسل له بالحرف ج ، مقابلا بمخطوطة معهد الدراسات القبطية بالقاهرة برقم ٣٢٦٧ لاهوت ، فهي أقدم مخطوطة أعتدت اليها ، وكذلك مخطوطة المتحف القبطى بالقاهرة ١٣٨ قانون . والمخطوطة ٢٢ قانون - بمكتبة البطريكية بالقاهرة ، وهي أقدم مخطوطتين بها ، والمطبوع الذي نشره جرجس فيلوناوس عوض سنة ١٩٠٨ . واعتمدت كذلك على النص الاتيوى المنشور باللغة الجعزية ، وكان قد نشره جويدي سنة ١٨٩٧ بمدينة روما ، وأشارت اليه بالرمز ش .

(٢) انضح من الدراسات السابقة ان اكثر ما ورد في هذا الباب ، بل كله ، عدا ما استفاد فيه ابن العسالى بالقانونين الثامن والتاسع من قوانين الملوك - مستمد من التشريع الاسلامى ، على النهج الذى اوضحته قبل .

(٣) ما بين الحاصرتين سقط من ج ٥/٢٢٢ .

(٤) في ش : أما الهبة فيجب ان تعطى لغير مستحقى الصدقة ، والصدقة تكون لمن يستحقها . ش ٤/٢/١٨٠ .

(٥) في ش : ... تم له السلطان عليه ويتصرف فيه كواهبه . ش ٩/٢/١٨٠ .  
(٦) ، (٧) ما بين الحاصرتين ساقط من ش . وقد أدى ذلك الى تفسير في تركيب الجملة انتج بالتالى تغييرا في الحكم ، فصارت الفقرة في ش هكذا : فان كان خوف من الواهب فلا تتم له . وان مات الواهب لا يرجع عنها بشهادة مقبولة لا في السر ولا في الجهر . ش ١٦/٢/١٨٠ .

(٨) في ش : دون تعيين وقت .. ش ٢١/٢/١٨٠ .

فإن شاء بعده بشرط وقت مخصوص مستقبل<sup>(١)</sup> ، وله أن يجعل وقت إضائها بعده وفاته<sup>(٢)</sup> .

وإن وهب جميع نعمته أو أكثرها في حال لم يكن له فيها ولد ثم صار له بعد ذلك أولاد فله استرجاع ما أراده ، وأن يعمل فيه ما بدا له ، إما عين ما وهب إن كان موجوداً وإلا بقيته .

ولا يصح الاسترجاع بعد موت أحدهما ، ولا مع علم الموهوب له عين ما وهب ونيفته ، ولا إذا قبض الواهب عوضاً عما وهب إلا براضتها ، ولا بأن يحصل بالاسترجاع إضرار الموهوب له في ماله ، كما إذا وهبه جدراً فبنى عليه داراً فليس له استرجاع عينه لكن له استرجاع قيمته .

وإذا وهب من هو دون البلوغ لأحد هبة فله أن يتكلم فيها من بعد بلوغه بأربع سنين ويعود يأخذ شيه إذا أراد .

(مك ٨ ، ٩) <sup>(٣)</sup> والهبة التي تكون بكتاب لا تتم إلا بأن يسلم الواهب كتابها للموهوب له إذا كانت لغريب ، وليس له بعد تسليمها له أن يستردها منه . وإن كانت لولد أو لولد ولد صحت بغير كتاب ، وجاز له أن يستردها في حياته وأن يغير ما كتب لها كما أحب . فأما بعد موته فلهما ما في الكتاب ولو لم يحمله لهما .

وأما الموهوب لهم فأولادهم الآباء ثم الأقارب ثم الأصهار ثم الترابي ثم الأصقاء ثم الخدام ثم المعارف الجيران<sup>(٤)</sup> والرفقة وغيرهم<sup>(٥)</sup> :  
ويستحب أن يساوى فيها بين المتساوين كالأولاد .

ومن لم يشكر منهم الذي وهبه ، بل خرج إلى شيء من التبعيح فقد يده إليه ظلم فاحش أو خسر خسارة عظيمة من معاية أو عمل في هلاك حياته أو قطع عنه ما جرت الموافقة عليه بشهادة في شيء يحمله عما وهب له - فله ، متى قامت بيته في مجلس حكم ظاهر

(١) في ش : بشرط ، وفي وقت معلوم مستقبل . ش ٢٣/٢/١٨٠ .

(٢) في ش : وله أن يجعل عند موته تمامها بعد وفاته ش ٢٤/٢/١٨٠ .

(٣) في ش : ( ٩ ، ١٠ ) وما في ج هو الصحيح ش ٢٠/١/١٨١ .

(٤) في ش : ثم الجيران المؤمنون . ش ١٠/٢/١٨١ .

(٥) في ش : ومن شابههم . ش ١١/٢/١٨١ .

بأنه قد أجرى إحدى هذه الحاصل ، أن يسترجع الهبات : أعيانها إن كانت موجودة أو قيمتها إذا لم توجد . وإن اختلفا في قيمة المثل فالقول قول الموهوب له ما لم يتم بيته بطل قوله . وإن ادعى الموهوب له أنه معسر فليس تلزم مطالبته إلا بيته تبطل دعواه<sup>(١)</sup> .

ولا تصح الهبة إلا للموهوب به معروف ، ولا تتم إلا إذا قبلها<sup>(٢)</sup> .

وأما الشيء الموهوب فلا يصح أن يكون مجهولا ، ولا ما لم يتم للواهب ملكه ، ولا أن يكون مما يغلب على ظنه أن الموهوب له ينصر به أو يضرب به في الوقت الحاضر<sup>(٣)</sup> ، كمن يهب سيفا لمجنون فإنه ربما قتل به نفسه أو غيره .

وإن كان الشيء الموهوب لا يميزه تحديد ولا تخلية<sup>(٤)</sup> كالدينارين والدرهم فليس يحتاج إلى مكتوبة . فإن كان محتملا لذلك فمكتوبة فيها خط مشود يذكر فيها تحديد الشيء الموهوب وصفاته وشروط الواهب فيه ، وأنه لا يرجع فيها وهبه . ويستحب أن يكتب فيه خطه بذلك .

وإن كان الموهوب قرية فالقلة التي تحصل منها هي للموهوب له منذ يوم كتب له الكتاب رساله له ، إلا أن يشترط خلاف ذلك . فانه إن اشترط أن القلة الحاضرة لا تكون له ، أو مهما اشترطه مما لا ينافي مقتضى الهبة ، وقبل ذلك الموهوب له ، حمل الأمر عليه . وأما باقي الشروط فإن لا يشترط ما ينافي مقتضى الهبة .

ومن وهب أحدا شيئا فمات قبل وصوله إليه فليس يصير لورثته<sup>(٥)</sup> .

وإن وهب الذي تحت الحجر بأمر أبيه أو برائه فالهبة للأب تقديرا<sup>(٦)</sup> .

ومن وهب شيء لإنسان برائه فصاحب الشيء هو واهبه<sup>(٧)</sup> .

---

(١) في ش : ... فلا تمتنع مطالبته إلا ببيته تبطل مطالبته ش ٢٤/١/١٨٢ .

(٢) في ش : ولا تصح الهبة إلا لمن يملك مالا ، ولا تتم إلا إذا قبلوا . ش ٧/١/١٨٢ .

(٣) في ش : .. والا يكون مما يغلب على ظنه أن الموهوب له يغلب على قلبه حب المال ، ولا مما يضربه في هذا الوقت . ش ١٤/١/١٨٢ .

(٤) في ش : وإن كان الشيء الموهوب لا يميز للانتفاع ، ولا بالهبة كالدينارين الخ . ش ١٩/١/١٨٢ .

(٥) في ش : ... فلا يدفعه ورثته . انظر شرح هذه الفقرة في ص ١٢٨ . من هذا البحث . وانظر ش ١٦/٢/١٨٢ .

(٦) في ش : وإن وهب من تحت الحجر بأمر أبيه أو برآى نفسه فقد ر تلك الهبة يكون للأب . ش ١٩/٢/١٨٢ .

(٧) في ش : ومن وهب انسانا شيئا بإرادته ... الخ : ش ٢٢/٢/١٨٢ .

## وثيقة وقف

مسرور بن عبد الله الشبلي الحمداد

دراسة ونشر وتحقيق

للدكتور عبد اللطيف ابراهيم

لم يحظ موضوع في الفترة الاخيرة بالرعاية والاهتمام من جانب الدولة والعلماء على السواء مثل موضوع الوثائق التاريخية لأهميتها الكبيرة - باعتبارها مصدر أصيل - في إعادة كتابة التاريخ القومي العربي في مصر ، وهذا أمر يبشر بالخير لمستقبل الدراسات الوثائقية والتاريخية المبكرة على السواء .

وبعد - فهذه رابع وثيقة من مجموعة الوثائق الملكية المحفوظة بأرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة ، تقوم بمراسمتها ونشرها وتحقيقها اليوم لأول مرة ، وهي إحدى الوثائق العربية في العصور الوسطى التي اتينا من دراساتها ونعمل على نشرها تباعا .

\* \* \*

أما علاقتي العلمية - كباحث - بأرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة ( المحكمة الشرعية سابقا ) فهي ترجع إلى أكثر من عشر سنوات ، أفدت فيها فائدة كبيرة من مجموعة الوثائق التاريخية التي يحتفظ بها في هذا الأرشيف التاريخي الكبير ، في بحوث مختلفة نشر أغلبها فيما بين سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٢ منها :

(١) أولا ) دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الفوري<sup>(١)</sup> .

(ثانيا ) الوثائق في خدمة الآثار<sup>(٢)</sup> .

(ثالثا ) وثيقة الأمير آخووركبير قراقبا الحسني<sup>(٣)</sup> .

---

(١) رسالة دكتوراه ( تحت الطبع ) ١٩٥٦ .

(٢) كتاب المؤتمر الثاني للآثار في البلاد العربية سنة ١٩٥٧ .

(٣) مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٨ ج ٢ ديسمبر ١٩٥٦ .

( رابعا ) الوثائق الشرعية والاشهادات (١) .

( خامسا ) وثيقة بيع (٢) .

( سادسا ) وثيقة السلطان قايتباى (٣) .

( سابعا ) فى تاريخ المكتبات - المكتبة المملوكية (٤)

( ثامنا ) مكتبة فى وثيقة (٥) .

( تاسعا ) وثيقة باستلام كتب (٦) .

\* \* \*

كما تمت بصور كثير من الوثائق العربية فى العصور الوسطى ، التى ترجع إلى عهد الفواطم وآل ايوب ، والمماليك البحرية والخراسنة - إلى جانب مجموعة من الوثائق العثمانية - تصويرا كاملا بغية دراستها ونشرها مصححة محققة ، هذا إلى جانب قيام بصور نماذج مختلفة من بقية الوثائق والسجلات التى يحتفظ بها فى هذا الارشيف التاريخى الهام .

ولا أدبى سرا إذا قلت إن كثيرا من هذه الوثائق ، قد انتهت تماما من دراستها وتقوم نصوصها وتحقيق أغلبها ، وسأدفع بها إلى المطبعة - بعون الله - فى أقرب وقت وهى وثائق كل من :

الناصرى محمد بن خليل الخطيرى (٧) .

ياقوت بن عبد الله الكمالى (٨) .

(١) مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٩ ج ١ مايو ١٩٥٧ .

(٢) مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٩ ج ٢ ديسمبر ١٩٥٧ .

(٣) كتاب المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية سنة ١٩٥٩ .

(٤) دراسة فى تاريخ المكتبات المملوكية معتمدة على الوثائق العربية فى العصور

الوسطى .

(٥) وثيقة سليمان بن على الابشادى المالكى محكمة رقم ٢٧٨ محفظة

رقم ٤٣ .

(٦) وثيقة عيسى الزواوى المغربى محكمة رقم ١٨٦ محفظة رقم ٢٨

وهذه البحوث الثلاثة الأخيرة نشرت فى كتابنا « دراسات فى الكتب والمكتبات

الاسلامية » ، القاهرة ١٩٦٢ .

(٧) وثيقة بيع بتاريخ ٢ ربيع اول سنة ٨٤٦ هـ رقم ١٠٢ محفظة ١٦ .

(٨) وثيقة تملك ( عقد ملكية ) بتاريخ ٢٧ شعبان سنة ٨٧٢ هـ رقم ١٥٧



- ابراهيم بن محمد بن نور الدين على<sup>(١)</sup> .  
 السيفي يشبك من مهدى الدوادار<sup>(٢)</sup> .  
 يحيى بن محي الدين عبد القادر<sup>(٣)</sup> .  
 الزيني عبد القادر<sup>(٤)</sup> .  
 محمد علي الدهان<sup>(٥)</sup> .  
 السيفي طومان باي أمير سلاح<sup>(٦)</sup> .  
 الست دلبار معنوقة : الملك المؤيد ابو الفتح احمد<sup>(٧)</sup> .  
 السيفي بكبردي بن عبد الله من عبد الكريم<sup>(٨)</sup> .  
 قرقاس من علي باي<sup>(٩)</sup> .  
 السيفي طراباي بن عبد الله<sup>(١٠)</sup> .  
 زين الدين رمضان بن السيفي طوغان<sup>(١١)</sup> .  
 محمد بن تغرى برمش<sup>(١٢)</sup> .  
 دولات باي بن عبد الله<sup>(١٣)</sup> .  
 شهاب الدين أحمد بن زين الدين بركات<sup>(١٤)</sup> .

- (١) وثيقة بيع بتاريخ ٢٧ ذى الحجة سنة ٨٦٤ هـ ووقف بتاريخ ١١ محرم سنة ٨٨٠ هـ رقم ١٧٦ محفظة ٢٧ .  
 (٢) وثيقة وقف بتاريخ ٩ ربيع أول سنة ٨٨٥ هـ رقم ١٨٨ محفظة ٢٨ .  
 (٣) وثيقة بيع بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ٨٩٣ هـ رقم ٢٠٦ محفظة ٣٣ .  
 (٤) وثيقة بيع بتاريخ ٧ ذى القعدة سنة ٨٩٥ هـ رقم ٢٠٩ محفظة ٣٣ .  
 (٥) وثيقة وقف بتاريخ ٢٠ جماد آخر سنة ٩٠٣ هـ رقم ٢٢٣ محفظة ٣٦ .  
 (٦) وثيقة بيع بتاريخ ١٤ جماد آخر سنة ٩٠٥ هـ رقم ٢٢٦ محفظة ٣٦ .  
 (٧) وثيقة وقف بتاريخ ٢٣ ربيع آخر سنة ٩٠٨ هـ رقم ٢٣٥ محفظة ٣٧ .  
 (٨) وثيقة وقف بتاريخ ١٧ رمضان سنة ٩٠٨ هـ رقم ٢٣٩ محفظة ٣٨ .  
 (٩) وثيقة بيع بتاريخ أول ذى الحجة سنة ٩٠٩ هـ رقم ٢٤٤ محفظة ٣٩ ،  
 ٢ محرم سنة ٩١٠ هـ رقم ٢٤٥ محفظة ٣٩ .  
 (١٠) وثيقة بيع بتاريخ ١٩ رمضان سنة ٩١٠ هـ رقم ٢٤٨ محفظة ٣٩ .  
 (١١) وثيقة استبدال بتاريخ ١٨ رجب سنة ٩١٢ هـ رقم ٢٥٩ محفظة ٤٠ .  
 (١٢) وثيقة استبدال بتاريخ ٢١ رمضان سنة ٩١٢ هـ رقم ٢٦١ محفظة ٤١ .  
 (١٣) وثيقة بيع ووقف بتاريخ ١٦ ذى الحجة سنة ٩١٢ هـ رقم ٢٦٣ محفظة ٤١ .  
 (١٤) وثيقة بيع بتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩١٥ هـ رقم ٢٦٧ محفظة ٤١ .

- سلوار بنت عبد الله<sup>(١)</sup> .  
 الأمير خاير بك والأمير جاثم الحزواي<sup>(٢)</sup> .  
 قاني باي المحمدي<sup>(٣)</sup> .  
 أحمد أغا نائب القلعة<sup>(٤)</sup> .  
 أحمد بن عبد الله دزدار اغاة طائفة مستحفظان<sup>(٥)</sup> .  
 عبد الجواد بن سعد الدين<sup>(٦)</sup> .

وهذه الوثائق وغيرها من وثائق العصور الوسطى والعصر العثماني ، وسجلات المحاكم المختلفة ستكون موضع دراسات تهم المشتغلين بعلوم الوثائق العربية بصفة خاصة ، وغيرهم من الباحثين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ القانون والآثار بصفة عامة .

\* \* \*

رقم الوثيقة : ٣٩

رقم المخططة : ٦

نوع الوثيقة : خاصة

موضوع التصرف : وقف

المتصرف : الواقف سرور بن عبد الله الشبل الجمدار

أبعاد الوثيقة : ٣٢١ × ٣٢٢ سم

أولا — الدراسة

في شكل الوثيقة :

هذه الوثيقة أصل وليست صورة ، وهي مكتوبة من كلا الوجهين ، على ستة أوصال من الرقوق المخططة على حد مصطلح كتاب الوثائق العربية في العصور الوسطى ، وهامشها الأيسر متأكل قليلا ، ولون الحبر باهت في نهاية بعض السطور<sup>(٧)</sup> ، وبالرغم من ذلك

- (١) وثيقة بيع بتاريخ أول ذي القعدة سنة ٩١٧ هـ رقم ٢٧٦ محفظة ٤٢ .
- (٢) وثيقة وقف بتاريخ ٨ محرم سنة ٩٢٧ هـ رقم ٢٩٢ محفظة ٤٤ .
- (٣) وثيقة استبدال بتاريخ ٢١ شعبان سنة ٩٢٧ هـ رقم ٢٩٣ محفظة ٤٤ .
- (٤) وثيقة بيع بتاريخ ١٤ شعبان سنة ٩٤٦ هـ رقم ٣٠٨ محفظة ٤٦ .
- (٥) وثيقة بيع بتاريخ ٢٤ ذي القعدة سنة ٩٤٨ هـ رقم ٣١٠ محفظة ٤٦ .
- (٦) وثيقة بيع بتاريخ أول ذي القعدة سنة ٩٦٦ هـ رقم ٣٢٩ محفظة ٤٩ .
- (٧) انظر وجه الوثيقة سطر ٦١ — ٦٧ ، لوحة رقم ٤ .

فالثيقة في حالة جيدة إذا ما قارنا حالتها بكثير من الوثائق المحفوظة في أرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة .

وفي وجه الملف نجد نص وثيقة الوقف بتاريخ ١٤ شوال سنة ١٧٦٠<sup>(١)</sup> وفي ظهريه ثلاثة توثيقات شرعية أو إشارات في تواريخ مختلفة هي ١٤ ، ١٧ ، ١٨ شوال سنة ١٧٦٠ هـ على التوالي (٢) .

وقد ورد على الهامش الأيمن لوجه الوثيقة نصان :  
الأول : يثبت جريان التصرف فيه ( الأراضى الموقوفة ) في ملك الواقف وحيازته حين صدور الوقف (٣) ، بشهادة شرعية مقبولة - لدى القاضى الموثق الحاكم بصحة التصرف من شاهدين عدلين بتاريخ ١٤ شوال سنة ١٧٦٠ هـ .

الثاني : يثبت أن الواقف لا مطمئن له فيما شهد به في هذه الوثيقة ( الوقف ) ، ولا فيمن شهد فيه ولا في شيء من ذلك ، بشهادة شرعية مقبولة أيضا لدى القاضى الموثق من شاهدين من الشهود العدول في نفس التاريخ (٤) .

\* \* \*

وطول الوثيقة كلها ٣٢١ر٥ سم ، ويتراوح طول الدرج من الرق بين ٣٨ر٥ - ٦٤ر٤ سم ، وعرضه بين ٣١ر٨ - ٣٣ر٣ سم ، وعدد السطور في وجه الوثيقة ١٠٦ سطرا ، والكتابة تغطي مساحة الوجه كله تقريبا فيما عدا الهامش الأيمن الذى تركه الكاتب يابضا .  
والوثيقة مكتوبة بحبر أسود بخط ديوانى ، مقروء بسهولة فيما عدا بعض الألفاظ التى أغفل الكاتب بعض حروفها أو ألحقها بغيرها تبعا لطريقته وسرعته في الكتابة (٥) ، أما النقط والإجمام فقد أهمله الكاتب كثيرا .

- 
- (١) وجه الوثيقة سطر ٩٧ ، لوحة رقم ٦ .
  - (٢) ظهر الوثيقة : الاسجـال الحكـمى سطر ٨ لوحة رقم ٧ : الاسجـال التنفيذى الأول سطر ١٨ لوحة رقم ٧ ، الاسجـال التنفيذى الثانى سطر ٨ لوحة رقم ١٠ .
  - (٣) هامش وجه الوثيقة فيما بين السطرين ٤٠ - ٤٩ ، لوحة رقم ٣ .
  - (٤) هامش الوثيقة فيما بين السطرين ٥٥ - ٦١ لوحة رقم ٤ .
  - (٥) انظر الأشكال الواردة في نهاية هذا البحث في اللوحات رقم ١٢ - ١٧ .

ومهما يكن من أمر فقد قمنا بتقويم النص ، ونشره نشرًا علميًا ، وإخراجه في صورة صحيحة مستقبلية دون الإخلال بأصله ، ودون ما تعديل أو تغيير في شكله .

جدول لبيان طول كل دوج من دروج الوثيقة  
وعرضه بالاستمتر وعدد سطوره

رقم الدرج	طول الدرج	متوسط عرض الدرج	متوسط عرض الهامش الأيمن	عدد سطور الدرج
١	٤٦ر٢	٣٢ر٤	٨	١٠
٢	٦٠ر٤	٣٣ر١	٨ر١	٢١
٣	٥٨	٣٣ر٢	٧ر٥	٢٠
٤	٥٤	٢٣ر١	٨ر٧	١٨
٥	٦٤ر٤	٣٢ر٥	٧ر٥	٢٢
٦	٣٨ر٥	٣٢	٦ر٩	١٥

في موضوع الوثيقة :

(١) الوجه :

نبدأ افتتاحية الوثيقة بالسلسلة والحمدلة والتصلية<sup>(١)</sup> أما الموضوع (الوقف) فقد جاء ذكره هكذا « هذا كتاب وقف صحيح شرعى . . . » ، وعلى الهامش الأيمن في بداية الوثيقة نجد عبارة « ليسجل بشيئته والحكم بصحته »<sup>(٢)</sup> وهى بخط القاضى الموثق الشيخ الماردى الحنفى .

أما المتصرف فهو الواقف مسرور بن عبد الله الشبل الجمدار<sup>(٣)</sup> ، وقد عرف في الوثيقة بذكر القابه ووظيفته ، والدعاء له . ثم نجد المتصرف فيه وهو ما حبسه الواقف ، مما هو له ويده ، وجارى في ملكه وحوزه وتصرفه ، بدلالة كتاب شرعى ( عقد بيع ) يشهد له باتباع ذلك ( الموقوف ) وهو مؤرخ بيوم الجمعة ١١ شوال سنة ٧٦٠ هـ أى قبل صدور الوقف بثلاثة أيام ، والموقوف هو « جميع القطع الأراضى المعروفة بالجور المعدة لضرب

(١) وجه الوثيقة سطر ١ ، لوحة رقم ١ ، شكل ١ .

(٢) وجه الوثيقة بين السطرين ١ - ٥ ، لوحة رقم ١ ، شكل ٢ .

(٣) وجه الوثيقة سطر ٤ ، لوحة رقم ١

الطوب وعدتها ثلاثة عشر جورة ، وهى فيما بين القاهرة ومصر المحروستين بوسط الخليج الحاكى ،<sup>(١)</sup> وتذكر الوثيقة لنا مساحة كل قطعة منها ، وحلوقها الأربعة ، والأماكن المجاورة لها .

وقد تصرف الواقف مسرور بن عبد الله الشبلى الجمدار فيما ذكر بالوقف - بجميع حقوق ذلك كله وما يعرف به جميعه وينسب إليه - وقفا صحيحا شرعيا لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولا يملك ولا يرهن<sup>(٢)</sup> .

### كما اشترط الواقف :

أولا : أن يكون التصرف فى الربيع على الوجه الآتى :

١ - أن يبدأ الناظر والمتولى عليه بعبارة ، ودفع أجرة من يولى استخراج ريعه وجباية أجوره<sup>(٣)</sup> .

٢ - ما فضل بعد ذلك يقرض منه فى كل سنة ألف درهم قرة تصرف على النحو التالى:

### ( ١ ) الحرم المدنى :

١ - ٣٠٠ درهم لقارئ مصحف بحرم المدينة المنورة<sup>(٤)</sup> .

٢ - ٣٥٠ درهم فى مصالح الحرم النبوى فيما يحتاجه من عمارة وترميم وفرش ووقود وآلة وغير ذلك<sup>(٥)</sup> .

٣ - ٣٥٠ درهم للقراء المجاورين بالمدينة الذكور والاناث السنين غير الزيدة والروافض على ما يراه الناظر<sup>(٦)</sup> .

### (ب) الحرم المكى :

فى حالة تعذر الصرف للحرم المدنى فإنها تصرف للحرم المكى على ما شرطه الواقف لحرم المدينة<sup>(٧)</sup> .

- (١) وجه الوثيقة سطر ٨ - ١٠ لوحة رقم ١ .
- (٢) وجه الوثيقة سطر ٦٢ - ٦٣ لوحة رقم ٤ .
- (٣) وجه الوثيقة سطر ٦٤ - ٦٥ لوحة رقم ٤ .
- (٤) وجه الوثيقة سطر ٦٦ - ٦٨ لوحة رقم ٤ .
- (٥) وجه الوثيقة سطر ٦٩ - ٧٠ لوحة رقم ٤ .
- (٦) وجه الوثيقة سطر ٧١ - ٧٣ لوحة رقم ٤ .
- (٧) وجه الوثيقة سطر ٧٤ - ٧٤ لوحة رقم ٤ .

(٢) تصرف الفقراء والمساكين المسلمين أينما كانوا وحينما وجدوا إذا ما تغلر  
الصرف للحرمين المدنى والمكى<sup>(١)</sup> .

٣ — باقى الربع يتنولوه الواقف نفسه مدة حياته دون مشارك ولا منازع ، وبعد  
وفاته يكون ذلك لمقاتته بالسوية بينهم مدة حياتهم ، ومن مات منهم صرف نصيبه فى مصالح  
الحرمين المكى والمدنى ، وللفقراء المجاورين بهما الذكور والاناث من أهل السنة<sup>(٢)</sup> .  
ثانياً : أن يكون النظر لنفسه أيام حياته<sup>(٣)</sup> ، وله أن يوصى بذلك ويسنده ويفوضه  
لمن يختار ، وله عزله كذلك ، فإن توفى عن غير وصية أو اسناد أو وصى وتغذر ، كان  
ذلك لكل من الأشخاص المذكورين على التوالى وهم :

- ١ — الجناب العالى الاميرى السعدى بشير الجمدار<sup>(٤)</sup> .
- ٢ — المجلس السامى الزينى مقبل الطويل الرومى<sup>(٥)</sup> .
- ٣ — الطوائى شجاع الدين عنبر الحبشى<sup>(٦)</sup> .
- ٤ — زمام الآدر الشريفة الكبير<sup>(٧)</sup> .
- ٥ — حاكم المسلمين الشافى المذهب<sup>(٨)</sup> .

\* \* \*

ثم نجد بعد ذلك القرارات الختامية للوثيقة التى تنص على تمام الوقف ولزومه ونفاذه  
وانبرامه<sup>(٩)</sup> ، والشروط الجزائية لمن يبطله أو يسى فى إبطاله<sup>(١٠)</sup> ، ثم قرارات لفتان  
الفعل القانونى تؤكد أن الواقف قد رفع يد ملكه عما وقفه ، ووضع عليه يد ولايته  
ونظرة ، واعترف بذلك المعرفة الشرعية النافية للجهالة<sup>(١١)</sup> على حد قول الفقهاء المسلمين .

- (١) وجه الوثيقة سطر ٧٥ لوحة رقم ٥
- (٢) وجه الوثيقة سطر ٧٦ — ٨١ لوحة رقم ٥
- (٣) وجه الوثيقة سطر ٨٤ — ٨٥ لوحة رقم ٥
- (٤) وجه الوثيقة سطر ٨٧ — ٨٨ لوحة رقم ٥
- (٥) وجه الوثيقة سطر ٨٨ لوحة رقم ٥
- (٦) وجه الوثيقة سطر ٨٩ لوحة رقم ٥
- (٧) وجه الوثيقة سطر ٩٠ لوحة رقم ٥
- (٨) وجه الوثيقة سطر ٩١ لوحة رقم ٥
- (٩) وجه الوثيقة سطر ٩٢ لوحة رقم ٦
- (١٠) وجه الوثيقة سطر ٩٤ — ٩٥ لوحة رقم ٦
- (١١) وجه الوثيقة سطر ٩٦ لوحة رقم ٦

ثم نجد تاريخ التصرف وهو يوم الاثنين ١٤ شوال سنة ٧٦٠ هـ ، والدعاء الختامى وهو الحسيلة ، ثم شهادات الشهود الأربعة وتوقعاتهم ، وتصديق القاضى الموثق على ذلك<sup>(١)</sup>.

### (ب) الظهر :

يوجد في ظهر الوثيقة ثلاثة إشهادات أو إسجلات يلى على الترتيب حسب تواريخها :

١ — لاسجالات الحكمى يبدأ بالسلسلة وعلامة القاضى الموثق « الحمد لله وبه استعين »<sup>(٢)</sup> وهو الشيخ جمال الدين أبو محمد عبد الله بن علاء الدين أبو الحسن على بن نجر الدين أبو عمر عثمان الماردىنى الحنفى الذى حكم بصفة الوقف ولزومه وتفوزه في يوم الاثنين ١٤ شوال سنة ٧٦٠ هـ<sup>(٣)</sup> ثم الحسيلة وشهادة الشهود المدلول .

٢ — الاسجالات التنفيذية الأولى : يبدأ بالسلسلة وعلامة القاضى الموثق « احمد الله وأسأله التوفيق »<sup>(٤)</sup> وهو الشيخ عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن بدر الدين أبو عبد الله محمد بن أبو اسحق ابراهيم بن زين الدين سعد الله بن جماعة الكنائى الشافعى في يوم الخميس ١٧ شوال سنة ٧٦٠ هـ<sup>(٥)</sup> ثم الحسيلة وشهادة الشهود المدلول .

٣ — الاسجالات التنفيذية الثانية : يبدأ بالسلسلة وعلامة القاضى الموثق « الحمد لله الكافى وحده »<sup>(٦)</sup> وهو الشيخ تاج الدين أبو عبد الله محمد بن علم الدين أبو عبد الله محمد أبو المناقب أبي بكر السعدنى المالكى في يوم الجمعة ١٨ شوال سنة ٧٦٠ هـ<sup>(٧)</sup> ثم الحسيلة وشهادة الشهود المدلول .

\* \* \*

وجدير بالملاحظة أن هذا التصرف (الوقف) قد حكم بصفحه ولزومه ، وتنفيذه ، وتنفيذ تنفيذه ، من كل القضاة الموثقين التابعين للمذاهب السنية الثلاثة الحنفى والشافعى والمالكى على التوالى دون قاضى المذهب الحنبلى ، لأن فقهاء الحنابلة بالديار المصرية قليل جداً<sup>(٨)</sup>.

- (١) وجه الوثيقة سطر ٩٧ - ١٠٦ لوحة رقم ٦
- (٢) ظهر الوثيقة سطر ١ لوحة رقم ٧ شكل رقم ٣٣
- (٣) ظهر الوثيقة سطر ٨ لوحة رقم ٧
- (٤) ظهر الوثيقة سطر ١ لوحة رقم ٧
- (٥) ظهر الوثيقة سطر ١٨ لوحة رقم ٧
- (٦) ظهر الوثيقة سطر ١ لوحة رقم ١٠
- (٧) ظهر الوثيقة سطر ٨ لوحة رقم ١٠
- (٨) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ ، القرىزى : السلوك ( نشر زيادة ) ص ٥٠٣ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٠٧ .

(١) الوجه :

بسم الله الرحمن الرحيم <sup>(١)</sup> الحمد لله وحده وصلوته + على \* سيدنا محمد واله وصحبه وسلامه <sup>(٢)</sup>

هذا كتاب وقف <sup>(٣)</sup> صحيح شرعى وحسب صريح دأيم مرعى لا يتسخ حكمه ولا يندرس رسمه ولا

يقطع ثوابه واجره . ولا يضيع عند الله الكريم جزاؤه وبره اكتبه المجلس العالى الاميرى الاجلى

الكبرى الاخصى الاعزى الاكمل الزينى زين الدين ثقة الملوك والسلطين مسرور بن عبد الله الشبل <sup>(٤)</sup> الجمدار <sup>(٥)</sup>

الملكى الناصر ادام الله نعمته وقبل معروفه وصدقته واشهد على نفسه وهو فى حال صحته وسلامته ورغبته فى \* الخير

وارادته <sup>(٧)</sup> انه وقف وحسب وسبل وابد وحرم وتصدق بما هو له ويده وملكه وحوزه وتصرفه واحضر بين يده

كتابا شرعيا <sup>(٨)</sup> يشهد له بائتياع ذلك وهو مورخ بيوم الجمعة الحادى عشر من شوال المبارك سنة ستين وسبعمائة

واصل له وخصم كل منها بفصل هذا الوقف موافق لتاريخه ولشهوده وهو جميع القطع الاراضى

المعروفة بالجور المدة لضرب الطوب وعدتها ثلثة \* \* عشر جورة وهى فيما بين القاهرة ومصر المحروستين بوسط الخليج

الحاكي <sup>(٩)</sup> واول هذه الاراضى المذكورة من زرية المنشر المعروف بالامير سيف الدين منجك <sup>(١٠)</sup> بالقرب من

+	انظر شكل رقم ٣
*	انظر شكل رقم ٤
x	انظر شكل رقم ٥
**	انظر شكل رقم ٦

سجل  
نقته  
والحكم  
بصحته <sup>(٦)</sup>



قنطرة السابع<sup>(١١)</sup> من الجهة البحرية واخرها مما يلي القنطرة المعروفة بقنطرة السعد<sup>(١٢)</sup> الاول مما يلي مصر المحروسة .

يقابل المكان المعروف بالعومح \* ( ؟ ) الذى به بحرة لطيفة باخر زربية بستان المناخ من بر مصر المحروسة

ومصلى × تعرف بالحاجة ست حلق الناصرية<sup>(١٣)</sup> مما يلي بر منشاء الامان باخر الحكر<sup>(١٤)</sup> المعروف بها وذرع كل

واحدة من القطع المذكورة طولا وعرضا فى التكسير خمسة وثلاثون + ذراعا بالعمل<sup>(١٥)</sup> يفصل ذلك من قبلها الى

١٥ بحريها مما يلي شرقها وغربها سبعة اذرع ومن شرقها الى غربها مما يلي قبلها وبحريها خمسة اذرع بالعمل

فاحدى القطع المذكورة فيه يحيط بها حدود اربعة<sup>(١٦)</sup> الحد القبلى ++ ينتهى الى بقية ارض الخليج الفاصلة

بين ذلك وبين الاحر المطل على الخليج والحد البحرى ينتهى الى بقية ارض الخليج الفاصل بين ذلك وبين اسطبل

السقاين وما يحاوره والحد الشرق ينتهى الى القطعة الارض الكشف الفاصل بين ذلك وبين الجورة

الثانية الاثى ذكرها فيه وسعة ما بينها ثلاثون ذراعا بالعمل والحد الغربى ينتهى الى بقية ارض الخليج

٢٠ الفاصلة بين ذلك وبين الاحر المطل على الخليج والقطعة الثانية يحيط بها حدود اربعة الحد القبلى

ينتهى الى \*\* بقية ارض الخليج مما يلي الحكر السفلى اقبعا<sup>(١٧)</sup> من جهة بر مصر المحروسة والحد البحرى ينتهى الى بقية ارض

\* كذا فى الاصل .

× انظر شكل رقم ٧ ، واللفظ مكتوب بطريقة تصعب قراءته .

+ انظر شكل رقم ٨

++ انظر شكل رقم ٩

\*\* انظر شكل رقم ١٠

الخليج الفاصلة بين هذه القطعة وبين القطعة الثالثة الاتى ذكرها فيه وسعة ما بينها  
اربعون ذراعا

والحد الغربى ينتهى الى بقية ارض الخليج الفاصلة بينها وبين القطعة الاولى المذكورة  
فيه والقطعة

٢٥ الثالثة يحيط بها حدود اربعة الحد القبلى ينتهى الى بقية ارض الخليج الفاصلة بين ذلك  
وبين الحكر السيفى

اقبعا والحد البحرى ينتهى الى بقية ارض الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حدق  
والحد الشرقى ينتهى

الى \* الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الرابعة الاتى ذكرها فيه وسعة ما بينها  
اربعون ذراعا والحد الغربى

ينتهى الى بقية ارض الخليج الفاصلة بينها وبين القطعة الثانية المذكورة فيه والقطعة  
الرابعة يحيط بها حدود

اربعة الحد القبلى ينتهى الى بقية الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبعا  
والبحرى ينتهى الى بقية

٣٠ الارض الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حدق والشرقى ينتهى الى بقية الارض الفاصلة  
بينها وبين القطعة الخامسة

الاتى ذكرها فيه وسعة ما بينها ثلثون ذراعا والحد الغربى ينتهى الى الارض الفاصلة  
بين ذلك

وبين القطعة الثالثة المذكورة والقطعة الخامسة يحيط بها حدود اربعة [ الحد ] + القبلى  
[ ينتهى ] + الى بقية الارض

الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبعا والبحرى الى بقية الارض الفاصلة بين ذلك  
وبين حكر ست حدق

---

\* انظر شكل رقم ١١  
+ ما بين الحاصرين اضافته الناشر .

والشرق الى الارض الفاصلة بينهما وبين القطعة السادسة الاقترها فيه والغرب الى الارض  
الفاصلة

٣٥ بين ذلك وبين القطعة الرابعة المذكورة فيه وسعة ما بين هذه الارض وبين السادسة  
الاقترها عشرون

ذراعا بالعمل والقطعة السادسة يحيط بها حدود اربعة الحد القبلي ينتهي الى بقية الارض  
الفاصلة

بين ذلك وبين الحكر السيفي اقبا والحد البحرى ينتهي الى الارض الفاصلة بين ذلك  
وبين حكر ست حدق

والشرق الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة السابعة الاقترها فيه وسعة  
ما بينها خمسة وعشرون

ذراعا والغرب الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الخامسة المذكورة والقطعة  
السابعة

٤٠ + حدها القبلي الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفي اقبا والبحرى  
الى الارض الفاصلة بين ذلك

+ ورد على الهامش الايمن بين السطرين ٤٠ - ٤١ النص التالى :  
« الحمد لله شهوده الواضعون خطوطهم اخره يشهدون ان المجلس  
العالى الزينى مسرور الجمدار الملكى الناصرى اعزه الله تعالى  
وهو الواقف المسمى فيه مالك حايى لما وقفه فيه حين الوقف  
المشروح فيه يعلمون ذلك ويشهدون به وكتب بتاريخ الرابع  
عشر من شوال سنة ستين وسبعمائة

اشهد بذلك

اشهد بذلك

كتبه محمد بن عيسى القبطورى

كتبه عل بن احمد المالكي

شهدا عندى بذلك

انظر الاشكال رقم ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ حيث تجد توقيع الشاهدين وتأشير  
القاضى الموثق

وبين حكر ست حلق والشرق الى الارض الثامنة الاتى ذكرها فيه وسعة ما بينها ثلثون  
ذراعا والغربى

الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة السابعة المذكورة والقطعة الثامنة حدها القبلى  
الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبا والبحرى الى الارض الفاصلة بين  
ذلك وبين حكر ست حلق \*

والشرق الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الارض التاسعة الاتى ذكرها فيه وسعة  
ما بينها عشرون

٤٥ ذراعا بالعمل والغربى الى الارض الفاصلة بينها وبين القطعة السابعة المذكورة فيه  
والقطعة

التاسعة حدها القبلى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبا  
وبالبحرى الى الارض

الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حلق والشرق × الى الارض الفاصلة بينها وبين القطعة  
العاشرة الاتى

ذكرها فيه وسعة ما بينها خمسون ذراعا والغربى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين  
القطعة الثامنة

المذكورة فيه والقطعة العاشرة حدها القبلى ينتهى الى الارض الفاصلة بين ذلك

٥٠ وبين الحكر السيفى اقبا والبحرى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حلق  
والشرق

الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الحادية عشر وسعة ما بينها ثلثون ذراعا والغربى  
الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الارض التاسعة المذكورة والقطعة الحادية عشر حدها

---

\* انظر شكل رقم ١٢

× انظر شكل رقم ١٣

القبلى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السفى اقبحا والبحرى الى الارض الفاصلة بين ذلك

وبين حكر ست حلق والشرق الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الثمانية عشر الاثني ذكرها فيه

٥٥ + والغربى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة العاشرة المذكورة والقطعة الثانية عشر

حدها القبلى (ينتهى) \* الى بقية الارض مما يلى حكر بن البابا (١٨) والبحرى الى (بقية) \* الارض الفاصلة بين ذلك

وبين حكر ست حلق والشرق الى الطرق المتوعل منها الى حكر ست حلق وسبعة ما بين هذه الارض

وبين القطعة الاثني ذكرها عشرون خراعا والغربى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الحادية عشر

والقطعة الثالثة عشر حدها القبلى الى بقية ارض مما يلى حكر بن البابا والبحرى الى الارض

٦٠ الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حلق والشرق الى بقية ارض الخليج التى مساحتها ثلثون خراعا والغربى

---

+ ورد على الهامش الايمن بين السطرين ٥٥ - ٦١ النص التالى :  
« اشهد عليه المجلس العالى الزينى مسرور الواقف المسمى فيه اعزه تعالى انه لا مطعن له

فيما شهد به فى هذا المکتوب ولا فيمن شهد فيه ولا فى شئ من ذلك بتاريخ الرابع عشر من شوال سنة ستين وسبعماية  
شهد بذلك شهد بذلك

كـب . . . . (٤) شهدا عندى بذلك ابراهيم بن . . الشافى  
انظر اشكال بعض اللفظ الواردة فى السطر الثانى من هذا النص  
شكل ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧

\* ما بين الحاصرتين الفاظ سقطت من الكاتب وأضافها بعد ذلك بين سطور المتن .

الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الارض الثانية عشر ( المذكورة فيه ) بجميع \* حقوق  
ذلك كله وما يعرف بذلك ( جميعه ) وينسب اليه

وقفا صحيحا شرعيا وجبسا صريحا مرعيا لا يباع اصل ذلك ولا يوهب ولا يورث  
ولا يملك

ولا يرهن ولا ينافل به ولا يحل عقد من عقوده قائما على اصوله محفوظا على شروطه مسبلا  
على سبلة التي تذكر فيه

الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين على ان \* الفاظ (١٩) في ذلك والمتولى  
عليه يبدأ من ربع ذلك بهارته (٢٠)

٦٥ وباجرة \* من يتولى استخراج ربعة وجباية اجوره (٢١) وما فضل بعد ذلك افز منه  
[ في كل سنة ]+ الف درهم واحد تقرة (٢٢) فيصرف من

ذلك لقارى بقرا في مصحف شريف بحرم مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في  
كل يوم جزوا ++ من القرآن العظيم

من تجزية ثلثين جزا + \* ثم بقرا سورة الاخلاص والمعوذتين ويصلى على سيدنا رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ويدعو

عقب ذلك للواقف المذكور ولجميع المسلمين ثلثاية درهم تقرة \* \* وباقي المبلغ المذكور  
وهو سبع مائة درهم تقرة يقسم

× هذا اللفظ مكتوب على كشط .

\* انظر شكل رقم ١٤

\*\* هذا اللفظ كتب بطريقة سريعة وتصعب قراءته - انظر شكل ١٥

+ ما بين الحاصرتين الفاظ سقطت من كاتب الوثيقة وأضافها بعد ذلك  
بين سطور النص .

+ + انظر شكل ١٦

+ × انظر شكل ١٧

× × انظر شكل ١٨

نصفين فالنصف منه وهو ثلثاية درهم وخمسون درهما قرّة يصرف في مصالح الحرم الشريف  
النبوي (٣٣) على الحال به

٧٠. افضل الصلاة والسلام\* على ما يراه الناظر من عمارة بالمسجد الشريف\*\* وترميم وفرش  
ووقوف والة وغير ذلك\*\*\*

من مصالح الحرم المشار اليه والنصف الثاني وهو ثلثاية درهم وخمسون درهما قرّة  
يصرف الى الفقراء المجاورين

بحرم مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذكور والافاث السنين غير الزيدية  
والروافض (٣٤) يصرف ذلك

اليهم على ما يراه من زيادة وتقصان واعطاء وحرمان ومتى تعذر صرف الالف درهم  
المذكورة اعلاه في

الحرم النبوي صرف ذلك في الحرم المكي على الوجه المذكور اعلاه فان امكن الصرف  
الى ذلك عاد الصرف اليه

٧٥. فان تعذر الصرف والعياذ بالله تعالى فيما صرف الى الفقراء والمساكين\* المسلمين ايما  
كانوا وحيثما وجئوا فان عاد

امكان الصرف الى ما تعذر عاد الصرف اليه وباقي الربح المذكور يتناوله الواقف (٣٥)  
المذكور اعزه الله تعالى لنفسه مدة حياته

ابدا ماعاش ودائما ما بقى لا يشاركه في ذلك مشارك ولا يتنازع فيه منازع ولا يتناول عليه

عليه\* \* فيه متناول ثم من بعد وفاته يصرف ما كان يتناوله من ذلك الى عتايه

الموجودين حين+ ذلك بالسوية بينهم مدة

\* انظر شكل ١٩

\*\* هذا اللفظ مكتوب على كسحط .

\*\*\* انظر شكل ٢٠

x انظر شكل ٢١

xx هذا اللفظ مكرر - انظر السطر رقم ٧٧

+ انظر شكل ٢٢

حياتهم ومن مات منهم صرف ما كان مختصا به من ذلك في مصالح الحرمين الشريفين  
حرم مكة وحرم المدينة شر[فهما]<sup>\*</sup>

٨٠. الله تعالى وإلى القرا المجاورين بهما المذكور والانات السنين غير الزيدية والروافض  
بالسوية على ما يراه الناظر في

ذلك ويودى<sup>+</sup> إليه اجتاده ومتى تعذر صرف شئ من الفاضل المذكور في احد  
الحرمين صرف في الحرم الاخر فان تعذر<sup>[ر]</sup><sup>\*</sup>

صرف ذلك جميعه في الحرمين المذكورين والعاذ بالله تعالى صرف الى القرا والمساكين  
المسلمين اينما كانوا وحيثما وجدوا<sup>[وا]</sup><sup>\*</sup>

فان عاد امكان الصرف الى شئ مما تعذر عاد الصرف اليه يجرى\* الحال في ذلك كذلك  
وجودا وتعذرا الى ان

يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وشرط الواقف المذكور النظر  
في هذا الوقف

٨٥ والولاية عليه لنفسه<sup>(٢٦)</sup> ايام حياته وله ان يوصى بذلك ويفوضه ويسنده ويوصى به  
لمن يختار وله عزل من يفوضه

ويسنده ويوصى به اليه فان توفى عن غير وصية ولا اسناد او وصى وتعذر نظر الموصى  
اليه او المسند

او المفوض اليه كان النظر في ذلك للجناب العالي الاميرى الكبيرى العضدى الذخرى  
السعدى بشير الجمدار<sup>(٢٧)</sup>

الملكى الناصرى اعزه الله تعالى فان تعذر كان النظر في ذلك للمجلس السامى الزينى  
مقبل الطويل الرومى<sup>(٢٨)</sup>

x ما بين الحاصرتين حروف متأكلة وغير واضحة في الاصل .

+ انظر شكل ٢٣

\* انظر شكل ٢٤



العلاي فان تعذر كان النظر في ذلك للطوائى شجاع الدين عنبر<sup>(٢٩)</sup> المعروف بالسسى\*  
الجبشى فان تعذر كان النظر<sup>[ر]</sup> x

٩٠ في ذلك لزمام<sup>(٣٠)</sup> الادر الشريفة الكبير منهم بولى ذلك وماما بعد زمام فان تعذر كان  
النظر في ذلك

لحاكم المسلمين<sup>(٣١)</sup> الشافى المذهب بالقاهرة المحروسة ومتى عاد امكان النظر الى من  
تعذر نظره

عاد النظر اليه يجرى الحال في ذلك كذلك الى ان يوث الله الارض ومن عليها وهو  
خير الوارئين

قد تم هذا الوقف ولزم نفذ حكمه وانبرم<sup>(٣٢)</sup> فلا يحل لاحد يؤمن بالله العظيم ويعلم  
انه صاير الى

ربه الكريم ان يطل هذا الوقف ولا شئ منه ولا يسعى في ابطاله ولا في ابطال شئ  
منه فمن فعل ذلك او اعان

٩٥ عليه فأنته تعالى طليبه وحسيه ومواخذة بفعله ومجازيه بعمله يوم لا ينفع الظالمين  
معتدتهم ولهم اللعنة

ولهم سو الدار<sup>(٣٣)</sup> ورفض الواقف المذكور عن ذلك يد ملكه ووضع عليه بد ولايته  
ونظره واعترف انه عارف بذلك

المعرفة الشرعية الثانية للجهالة<sup>(٣٤)</sup> وبه شهد في اليوم المبارك يوم الاثنين الرابع عشر من  
شوال سنة ستين وسبع مائة<sup>(٣٥)</sup>

فيه مصلح الشرق ومصلح الثانية في موضعين ومصلح بينها في ثلاث مواضع ومصلح بجميع  
حقوق ولحق يتبى وبقبه والمذكور فيه

وجميعه وفي كل سنة ومصلح ويدعوا عقب كل ذلك صحيح معتد به في مواضعه<sup>(٣٦)</sup>  
حسبنا الله ونعم الوكيل<sup>(٣٧)</sup>

\* كذا بالأصل .

x مابين الحاصرتين غير ظاهر في الاصل .

اشهد على المجلس العالي الزين سرور

اشهد على الجانب العالي الزين

اشهد على المجلس العالي الزين

١٠٠ اشهد (٢٧) على المجلس العالي الزين

الجمدار الملك الناصري الواقف

سرور الجمدار الملك الناصري

سرور الجمدار الملك الناصري

سرور الجمدار الملك الناصري

السي اعلاه قبل الله منه بجميع ما

الواقف قبل الله منه بجميع

الواقف السي اعلاه قبل الله منه

الواقف السي اعلاه قبل الله

نسب اليه اعلاه في تاريخه المدين اعلاه

بما نسب اليه اعلاه في تاريخه

بجميع ما نسب اليه اعلاه في تاريخه

منه بجميع ما نسب اليه اعلاه في

وكتب محمد بن احمد بن الفرات (٤٢)

المدين اعلاه وكتب

المذكور اعلاه وكتب

تاريخه المذكور اعلاه وكتب

شهد عهدي بذلك

(٤١) عيد اللطيف بن محمد بن عبد الباقي

(٤٠) محمد بن محمد بن الحسن السكري

(٣٩) محمد بن احمد بن الحسن السكري

١٠٥

شهد الثلاثة عهدي بذلك (٤٣)

بسم الله الرحمن الرحيم أَلْحَمْدُ لِلَّهِ وَبِهِ أَسْتَعِينُ<sup>(٤٤)</sup>

ليسجل بشيئته وتفضيله<sup>(٤٥)</sup>

هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى  
جمال الدين + قاضي المسلمين ابو محمد عبد الله ابن سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى  
علا الدين قاضي المسلمين ابى الحسن على ابن سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى  
افضى القضاة فخر الدين شرف العلماء اوجد الفضلاء مفتى المسلمين ابى عمرو عثمان  
المارديني الحنفى<sup>(٤٦)</sup> الناظر فى الحكم العزيز<sup>(٤٧)</sup> بالديار المصرية اعز الله احكامه واحسن اليه  
من حضر مجلس حكمه<sup>(٤٨)</sup> وقضايه وهو نافذ القضا والحكم ماضيها واذلك  
فى اليوم المبارك يوم الاثنين الرابع عشر من شوال<sup>(٤٩)</sup> سنة ستين وسبع مائة  
انه ثبت<sup>(٥٠)</sup> عنده وصح لديه احسن الله اليه بمحضر من متكلم حائز كلامه  
مبسوعة دعواه على الوضع × المعتبر الشرعى<sup>(٥١)</sup> بشهادة من اعلم<sup>(٥٢)</sup> تلو رسم شهادته  
آخر كتاب

٥

١٠

الوقف المسطر باطنه<sup>(٥٣)</sup> علامة الاداء والقبول على الرسم المعهود فى مثله  
اشهاد المجلس العالى الزينى سرور الجمدار الملكى الناصرى الواقف  
المسمى باطنه اعزه الله تعالى على نفسه بما نسب اليه فى كتاب الوقف المسطر  
باطنه على ما نص وشرح<sup>(٥٤)</sup> باطنه وباطنه مورخ بتاريخ هذا الاسجـال  
وثبت ايضا عنده اعز الله احكامه وادام\* ايامه بشهادة من اعلم تلو رسم  
شهادته اخر فصل الملك والحيازة<sup>(٥٥)</sup> المسطر بجاشية باطنه علامة الاداء والقبول  
ان المجلس العالى الزينى سرور الجمدار الملكى الناصرى الواقف المسمى باطنه  
مالك حائز لما وقفه فى باطنه حين الوقف المشروح باطنه وهو مورخ  
بتاريخ هذا الاسجـال ايضا وثبت ايضا عنده اسبغ الله نعمه

١٥

- + انظر شكل ٣٤  
× انظر شكل ٣٦  
\* انظر شكل ٣٧  
○ انظر شكل ٣٨

٢٠ عليه واحسن اليه بشهادة من اعلم تلو رسم شهادته اخر فصل الاعذار<sup>(٥٦)</sup>

المسطر بحاشية باطنه علامة الاداء والقبول اشهاد المجلس

العالى الزينى مرور الواقف المسمى باطنه اعزه الله تعالى على نفسه بعلم الداء [فع]

لذلك ثبوتا شرعيا<sup>(٥٧)</sup> معتبرا مرضيا وحكما<sup>(٥٨)</sup> اعز الله احكامه

واحسن اليه بصحة<sup>(٥٩)</sup> الوقف المذكور ولزومه<sup>(٦٠)</sup> ونفوذه حكما شرعيا معتبرا مرضيا

٢٥ اجازته وامضاه وقضى به والزم بمقتضاه مسيو لا فى ذلك مستوفى [يا]

شرايطه الشرعية<sup>(٦١)</sup> وذلك مع علمه اعز الله احكامه واحسن اليه باختلاف العلماء<sup>(٦٢)</sup>

رضى الله عنهم فى صحة وقف الانسان على نفسه واشترائطه النظر لنفسه

فى وقفه لجواز ذلك عنده على مقتضى رايه ومعتقده واشهد على نفسه

الكريمة حرمها الله تعالى بذلك فى التاريخ \* المقدم ذكره اعلاه المكتوب

٣٠ بخطه الكريم<sup>(٦٣)</sup> اعلاه شرفه الله تعالى واعلاءه وايق . . . . . (٩) ×

احكامه . . . . . (٩) × حجة معتبرة على حجة . . . . . (٩) ×

حسبنا الله ونعم الوكيل<sup>(٦٤)</sup> اشهدنى<sup>(٦٥)</sup> سيدنا

ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى جمال الدين قاضى المسلمين الحاكم المسمى اعلاه

اعز الله احكامه واحسن اليه على نفسه الكريمة بما نسب اليه فى اسجالة + المسطر

باعاليه فشهدت عليه بذلك فى تاريخه وكتب<sup>(٦٦)</sup>

٢٥ عهد بن احمد بن الحسن الكركى

شهد عنلى بذلك<sup>(٦٧)</sup>

وبذلك اشهدنى ادام الله ايامه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

عبد اللطيف بن عهد بن عبد الباقي

شهد عنلى بذلك

٤٠ وبذلك اشهدنى ادام الله ايامه فشهدت عليه فى تاريخه وكتب

| عهد بن يوسف القيراطى |

+ انظر شكل ٣٩

\* انظر شكل ٤٠

x هذه الفاظ صعبة القراءة تماما ، وقد آثرت ان اترك مكانها بياضا .

+ + انظر شكل ٤١

وبذلك اشهدنى ادام الله ايامه واشر احكامه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب  
عبد الحافظ بن علي بن الترات<sup>(٦٨)</sup>

وبذلك اشهدني ادام الله ايامه فشهدت عليه في تاريخه وكتب  
محمد بن احمد الحسني

وبذلك اشهدني ادام الله ايامه فشهدت عليه في تاريخه وكتب  
احمد بن عيسى بن احمد

٤٥

وبذلك اشهدني ادام الله ايامه فشهدت عليه به وكتب محمد بن محمد بن مسعود  
وبذلك اشهدني ادام الله احكامه فشهدت عليه به وكتب  
محمد بن احمد بن الفرات

## ٢ - الاسجـال التنفيذـي الاول :

\* الحمد لله واسأله التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم  
هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة  
سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى  
عز الدين قاضي المسلمين ابو عمر عبد العزيز ابن  
سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى  
بلد الدين قاضي المسلمين ابي عبد الله  
محمد بن سيدنا الشيخ الامام العالم  
العامل العلامة برهان الدين شيخ الاسلام  
والمسلمين ابي اسحق ابراهيم بن سيدنا الشيخ  
الامام العالم العامل القدوة زين الدين

ليسجل بشوئنه وتقييده (٢٩)

٥

١٠

\* انظر شكل ٤٣

- شيخ الاسلام بركة المسلمين قلوة العارفين  
 ابي الفضل سعد الدين بن جماعه  
 الكنتاني الشافعي (٧٠) الناظر في الحكم  
 العزيز بالديار المصرية اعز الله احكامه  
 واحسن اليه من حضر مجلس حكمه ١٥  
 وقضايه وهو ناقد القضا والحكم  
 ماخضا وذلك في اليوم المبلوك  
 يوم الخميس السابع عشر من شوال +  
 سنه ستين وسبع مائه انه ثبت  
 عنده وصح لديه احسن الله اليه بحضور ٢٠  
 من متكلم جاز كلامه مسبوغه دعواه  
 على الوضع المعبر الشرعي بشهادة  
 من اعلم تلورسم شهادته اخر الاسجال  
 المسطر يسنه (٧١) علامة الادا والقبول  
 على الرسم المعهود في مثله اشهاد الحاكم ٢٥  
 المسمى في الاسجال المذكور سيدنا ومولانا  
 العبد الفقير الى الله تعالى جمال الدين قاضي  
 المسلمين ابي محمد عبد الله بن سيدنا ومولانا  
 العبد الفقير الى الله تعالى علا الدين قاضي  
 المسلمين ابي الحسن علي بن سيدنا العبد ٣٠  
 الفقير الى الله تعالى اخي القضاة نضر الدين  
 شرف العلماء اوحد القضاة مفتي المسلمين  
 ابي عمرو عثمان الماردني الحنفى الناظر  
 في الحكم العزيز بالديار المصرية اعز الله احكامه  
 واحسن اليه على نفسه الكريمة بما نسب اليه في ٣٥

- اسجاله المشار اليه على ما نص وشرح فيه  
وهو مورخ يوم الاثنين الرابع عشر من شوال سنة ستين وسبع مئة  
ثبوته صحيحا شرعيا معتبرا مرضيا ونقذ (٧٣)
- سيدنا ومولانا عز الدين قاضي المسلمين الحاكم المشار  
اليه اعز الله احكامه واحسن اليه حكم سيدنا ٤٠  
ومولانا جمال الدين قاضي المسلمين الحاكم المشار اليه  
المنسوب اليه في اسجاله المذكور تفضيلا شرعيا  
معتبرا مرضيا اجازة وامضاء والزم بقتضاه واشهد على نفسه الكريمة حرمها الله تعالى  
بذلك بعد استيفاء الشرايط  
الشريعة بموال من جاز مواله شرعا في التاريخ المقدم ذكره اعلاه المكتوب بخطه  
الكريم شرفه الله تعالى
- حسبنا الله ونعم الوكيل<sup>+</sup> اشهدني سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى ٤٥  
عز الدين قاضي المسلمين الحاكم المسمى اعلاه اعز الله احكامه واحسن اليه على نفسه  
الكريمة بما نسب اليه في اسجاله المسطر  
باعاليه فشهدت عليه بذلك في تاريخه وكتب  
محمد بن احمد بن الحسن الكركي  
شهدني على بذلك  
وبذلك اشهدني اعز الله احكامه بما نسب اليه في اسجاله اعلاه فشهدت عليه به في ٥٠  
تاريخه وكتب
- محمد بن . . . . . (؟)  
وبذلك اشهدني اعز الله احكامه وادام ايامه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب  
احمد بن محمد . . . . . (؟)  
وبذلك اشهدني ادام الله ايامه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب  
عبد اللطيف بن محمد بن عبد الباقي ٥٥  
شهدني بذلك

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الكافي وحده<sup>٦</sup>  
 هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى تاج الدين  
 قاضى المسلمين ابو عبد الله محمد بن سيدنا ومولانا العبد الفقير الله تعالى علم الدين  
 قاضى المسلمين ابى عبد الله محمد ابن سيدنا العبد الفقير الى تعالى اقضى القضاة  
 شمس الدين شرف العلماء اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابى المناقب ابى بكر السعاى  
 المالكي (٧٣)

الناظر فى الحكم العزيز بالديار المصرية اعز الله احكامه واحسن اليه من حضر مجلس  
 حكمه وقضايه وهو ناقد القضا والحكم ماضيا وذلك فى اليوم المبارك  
 الثامن عشر من شوال سنة ستين وصبع مايه

انه ثبت عنده وصح لديه احسن الله اليه بحضور من متكلم جائز كلامه  
 مسبوقة دعواه على الوضع المعتبر الشرعى بشهادة من اعلم تلو رسم شهادته اخر الاسجال  
 المسطر اعلاه (٧٤) علامة الاداء والقبول على الرسم المعهود فى مثله اشهاد  
 الحاكم المسمى فى ++ الاسجال المذكور سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى  
 عز الدين\* قاضى

المسلمين ابى عمر عبد العزيز بن سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى بمر الدين  
 قاضى المسلمين

ابى عبد الله محمد بن سيدنا الشيخ الامام العالم العامل العلامة برهان الدين شيخ الاسلام  
 والمسلمين ابى اسحق ابراهيم\* ابن سيدنا الشيخ الامام العالم العامل القدوة زين الدين  
 شيخ الاسلام بركة المسلمين قهوة العارفين ابى الفضل سعد الله بن جماعة  
 الكنتانى الشافعى الناظر فى الحكم العزيز بالديار المصرية اعز الله احكامه وادام ايامه  
 على نفسه الكريمة بما نسب اليه فى اسجاله المشار اليه على ما نص وشرح فيه وهو

مورخ يوم

+ انظر شكل ٤٦  
 ++ انظر شكل ٤٧  
 \* انظر شكل ٤٨  
 x انظر شكل ٤٩



- الخمس السابع عشر من شوال سنة ستين وسبع مائة ثبوتا صحيحا شرعيا معتبرا مرضيا  
 ٢٠ ونقد اعز الله\* احكامه تنفيذ المشرح في اسجاله المذكور تنفيذاً  
 شرعياً اجازة وامضاء والزم بمقتضاه وذلك بعد الاعتذار الى المحرم  
 المدعى اليه واعترافه لديه اعز الله احكامه واحسن اليه بمجلس الحكم العزيز بعدم الدافع  
 لذلك واشهد على نفسه الكريمة حرصاً الله تعالى بذلك بعد استيفاء الشرايط  
 الشرعية بسؤال+ من جاز سؤاله شرعاً في التاريخ المقدم ذكره اعلاه المكتوب  
 ٢٥ بخطه الكريم شرفه الله تعالى حسبنا الله ونعم الوكيل اشهدني  
 سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى تاج الدين قاضي المسلمين الحاكم المسمى اعلاه  
 اعز الله تعالى× احكامه واحسن اليه على نفسه الكريمة بما نسب اليه في اسجاله  
 المسطر اعلاه  
 فشهدت عليه بذلك في تاريخه وكتب  
 محمد بن احمد بن الحسن الكركي  
 ٣٠ وبذلك اشهدني اعز الله احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب  
 محمد بن احمد بن القرات  
 وبذلك اشهدني اعز الله احكامه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب  
 عبد اللطيف بن محمد بن عبد الباقي

---

\* أنظر شكل ٥٠  
 + أنظر شكل ٥١  
 × أنظر شكل ٥٢

## ثالثاً - التحقيقات العلية

٢٠١ - عن البسلة والجملة في افتتاحية الوثائق العربية في العصور الوسطى . انظر  
التقشندى: صبح الأعشى > ٣ ص ١٣٦ - ١٣٧ ، > ٦ ص ٢١٩ - ٢٢٤ ، ٢٢٧ - ٢٢٩ ،  
> ١٤ ص ٣٤٩

دائرة المعارف الاسلامية مادة « البسلة » ، « الجملة »

عبد اللطيف ابراهيم : بسلة ( مجلة المكتبة العربية مجلد ١ عدد ١ يونيو ١٩٦٣ )  
ص ٨٥ - ٩٢ ، بحثنا هذا شكل ١

٣ - عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عهد الغوري  
( رسالة دكتوراه - نحت الطبع ) حيث تجد دراسة وافية للوقف الاسلامي وخاصة  
في عصر المماليك .

٤ - هو مسرور بن عبد الله الحبشى المعروف بالشبل شيخ الخدام بالمدينة النبوية ،  
مات معزولا لعجزه في سنة ٨٠٦ هـ . السخاوى : الضوء اللامع > ١٠ ص ١٥٦ رقم ٦٢٤  
المستقلانى : أبناء الغر بابناء العمر ( مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٦  
تاريخ ) > ١ ص ٦٥٦

٥ - الجمدار هو الموظف الذى يتولى لباس السلطان أو الأمير ثيابه .

التقشندى : صبح الأعشى > ٥ ص ٤٥٩ ، المقرئى : السلوك ( نشر زيادة ) > ١  
ص ١٣٣ ، ٣٧١ ، محمد مصطفى : الرنوك في عصر المماليك ( مجلة الرسالة مارس ١٩٤١ )  
زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣٢٦ ١٤-١٥ PP. Saracenic heraldry Mayer :

٦ - هذه العبارة بخط القاضي الموثق الماردىنى الحنفى - انظر شكل ٢ ، وهى تدل  
على الامر بتسجيل الوثيقة بعد أن حكم بثبوت التصرف وصحته ولزومه فى الاشهاد التوثيق  
الأول أو الاسجال الحكيمى .

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة بيع ( مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٩ > ٢  
ديسمبر سنة ١٩٥٧ ) ص ١٥٦ - ١٦١ تحقيق رقم ٢ وما به من مصادر .

٧ - صيغة قانونية اصطلاح عليها كتاب الوثائق فى العصور الوسطى للدلالة على  
صحة التصرف .

أبو زهرة : مشكلة الأوقاف ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٧ )

ص ٧٩٢ - ٧٩٧

زيد : مباحث الوقف ص ١٧ - ١٨

وقد وردت هذه الصيغة تقريباً في كثير من وثائق وقف المالك البحرية والبرجية .

٨ - يقصد بذلك أن الواقف يملك الشيء المتصرف فيه ( الموقوف ) ، وأنه جار يده وفي ملكه وله حق التصرف فيه بالوقف ، بدلالة كتاب شرعي ( مستند ) وهو عقد بيع مؤرخ في يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٧٦٠ هـ ، وقد ثبت ذلك كذلك بشهادة الشاهدين الواردة على الهامش الآمين لوجه الوثيقة بين السطر ٤٠ - ٤٩

وتصرف الواقف الشيخ مسرور بن عبد الله الشبل الحبشي صحيح شرعاً ، لأنه تصرف بالوقف فيما يملك . ومن المعروف أن العقد أحد أسباب الملك التام ، كما أن هذا المستند ( عقد البيع ) دليل خطي ثابت - أخذ به الموثق بعد أن تحقق من صحته . ويظهر أن الواقف كان عليه أن يقدم المستندات ( الوثائق ) التي تثبت ملكيته لما يصرف فيه . انظر : عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة بيع ص ١٧٧ - ١٧٨ وما بها من مصادر ، الوثائق الشرعية ( مجلة كلية الآداب م ١٩ عدد ١ مايو ١٩٥٧ ) ص ٣٨٦ - ٣٩١ وما بها من مصادر .

٩ - هو نفسه خليج مصر الذي ذكره المقرئ في كتابه الخطوط ص ١٣٩ - ١٤٤ ، وقال إن العامة تسميه بالخليج الحاكمي وتزعم أن الحاكم بأمر الله الفاطمي احتفزه وليس هنا بصحيح ، فقد كان هذا الخليج قبل الحاكم بمد متطاولة .

وقد ذكره ابن تقي بردي في كتابه النجوم الزاهرة ص ٤٣ باسم خليج القاهرة .

١٠ - هو الأمير الكبير سيف الدين منجك بن عبد الله اليوسفي الناصري ، أنابك العساكر المنصورة ونائب السلطنة الثريفة بالديار المصرية ، من أشهر أمراء عصر أسرة قلاوون ، وكان يتردد إلى الشام في المهمات الكبرى ، وقد تولى حجوية دمشق في رجب سنة ٧٤٨ هـ ، ثم صار وزيراً واستاداراً في شوال من نفس العام ، وكان ذا مهابة وسلطنة ، تمكن من الدولة وأصبح له الأمر والنهي في كثير من أمورها ووقائعها . سجن بالإسكندرية سنة ٧٥٢ هـ ثم أفرج عنه ، وسار إلى صفد بطلاً في ربيع الآخر سنة ٧٥٥ هـ ، ثم استقر في نيابة طرابلس ، كما ولي حلب في سنة ٧٥٩ هـ . وقد توفي بداره قرب مدرسة السلطان

حسن بالقاهرة عن بضع وستين سنة في ٢٩ ذى الحجة سنة ٧٧٦ هـ ، ودفن بترته المجاورة  
لجامعه تحت القلعة خارج باب الوزير .

الصقلاني : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٦٠ رقم ٩٨٥ ، إنباء الغمر (مخطوط بدارالكتب  
المصرية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) ج ١ ص ٧٠ ، المقرئ : الخط ج ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢٤ ،  
ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١٧ ، ٢٦٣ حاشية ٢ ، ج ١١ ص ١٣٣-١٣٤  
حاشية ٥٤ ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الواقى (مخطوط بدارالكتب رقم ١١١٣  
تاريخ) ج ٣ ص ٣٦٤ - ٣٦٦

١١ - قاطر السباع أنشأها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، ونصب عليها سباعا  
من الحجارة لأن رنكه كان على شكل سبع . المقرئ : الخط ج ٢ ص ١٤٦ - ١٤٧ ،  
السلوك ج ١ ص ٦٣٩ . ويقول المرحوم جدمزى إنه شاهدا ، وكانت تعرف باسم قنطرة  
السيدة زينب ، وفي سنة ١٨٩٨ م تم ردم الجزء الأوسط من الخليج ، وبردمه اختفت هذه  
القنطرة . ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩١ حاشية ٥

١٢ - هي القنطرة المعروفة بسد مصر ، كانت على الخليج المصرى فيما بين مصر  
والقاهرة ، أنشأها السلطان الصالح نجم الدين الأيوبي سنة ٦٤٣ هـ على الخليج بالقرب  
من فيه ، وقد عرفت القنطرة بذلك الاسم بسبب السد الذى كان يقام سنويا من التراب بجوار  
هذه القنطرة عندما يبدأ ماء النيل فى الزيادة وقت الفيضان لكي يصد الماء ، ومتى وصلت  
الزيادة إلى ست عشرة ذراعا يفتح السد حيثئذ باحتفال رسمى عظيم .

المقرئ : الخط ج ١ ص ٤٧٠ ، ٤٩٣ ، ج ٢ ص ١٤٦

وكان الماء يمر فى الخليج فعلا منه صهاريج مدينة القاهرة وبركها ، وتروى منه بساتينها  
كما تروى الأراضى الزراعية الواقعة على جانبيه الخليج حتى نهايته الشمالية . ويقول المرحوم  
جدمزى إن هذه القنطرة كانت موجودة ومعروفة كما شاهدها باسم قنطرة الماوردى  
إلى منتصف سنة ١٨٩٩ م التى تم فيها ردم الخليج واختفاء هذه القنطرة . ابن تغري بردى :  
النجوم ج ٦ ص ٣٨١ مبارك : الخط التوفيقية ج ١٨ ص ١١٤ - ١١٥

١٣ - هي ست حديق القهرمانية الفاصرية ، كان الناصر محمد بن قلاوون قد جعل لها  
أمور فساته ، فحكمت فى داره تحكما عظيما ، حتى صار لا يقال لها إلا الست حديق ، وحجت  
مرة فضرب الملل بما فعلته من الخيرات والمبرات ، وكان يقال لها ست مسكة . وقد أخطأ

المقريزى - وكذلك ابن تفرى بردى الذى أخذ عنه ونقل منه - إذ اعتبر ست حلق  
غير ست مسكة ، بينما الحقيقة أن اليمين لسيدة واحدة هى الست حلق التى اشتهرت  
بست مسكة .

وقد توفيت وهى بكر عنراء ، وكان موجودها شيئا كثيرا .

المقريزى : الخطط > ٢ ص ١١٦ ، ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة > ٩ ص  
١٩٦ حاشية ٣ ، > ١٠ ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، المستقلنى : الدرر الكامنة > ٢ ص ٧  
رقم ١٤٨٣

١٤ - هذا الحكر كان يعرف على أيام المقريزى باسم المريس ، وكان بساتين من  
بعضها بستان الخشاب ، وقد أنشأت الست حلق به جامعا كان موضعه منظره السكره ،  
وبنى الناس حوله ، وكان أكثرهم من السودان . المقريزى : الخطط > ٢ ص ١١٦  
ويقول التقي المقريزى إن هذا الجامع بخط المريس فى جانب الخليج الغربى بالقرب من  
قطرة السد ، أنشأته الست حلق سنة ٧٣٧ هـ ، وقد دثر هذا الجامع .

المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣١٣ ، ابن تفرى بردى : النجوم > ٩ ص ١٩٧  
حاشية ١

وهذا الحكر - والجامع ( المصل ) - هو الذى ورد ذكره فى الوثيقة ، وهو غير  
حكرها بسوقه السباعين التى أنشأت به جامعا فى سنة ٧٤٠ هـ بالقرب من قطرة آق  
سفر على الخليج الكبير خارج القاهرة ، وهذا الجامع لا يزال باقيا إلى الآن .

المقريزى : الخطط > ٢ ص ١١٦ ، ٢٢٦ ، ابن تفرى بردى : نفس المصدر السابق  
والجزء والصفحة .

١٥ - ذراع العمل طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل ، وكان يقاس به أرض  
البنيان من الدور وغيرها ، وله الذراع الذى كان يقاس به أرض السواد بالعراق ، فقد  
ذكر الزجاجى أنه ذراع وثلاث بندايع اليد ، وهو أقل من الذراع الهاشمى . ويقال للذراع  
العمل الذراع الزيايدى نسبة إلى زياد بن أبيه . القلقشنلى : صبح الأعشى > ٣ ص ٤٤٢ - ٤٤٣  
١٦ - لابد من ذكر الحدود الأربعة للعقار الموقوف ، وروى عن أبى يوسف  
أن التعريف يحصل بذكر حدين ، وفى آراء أخرى بثلاثة حدود ، إلا أن زفر قال إنه  
لا يحصل إلا بذكر الحدود الأربعة .

وفي هذه الوثيقة نلاحظ أنها كتبت على أحوط الوجوه ، ونعز في الكتاب عن مواضع الخلاف ، ولذلك ذكرت الحدود الأربعة لجميع القطع الأرضي الموقوفة وعندها ثلاثة عشرة قطعة ، حتى يكون التعريف حاصلًا على جميع الأقوال .

قراءة : مذكرة الوثائق الشرعية ص ١٧ - ١٩ ، ٢٤

١٧ - هو حكر الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد الناصري استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فقد حكر بستانا بجوار بركة قارون ظاهر القاهرة بجوار السبع سقايات وكان بعضه يعرف ببستان الحلي ، وقد بنى فيه عدة مساكن ، وكان يجبي حكره ويصرف في مصارف المدرسة الأقبغاوية التي أنشأها الأمير أقبغا سنة ٧٤٠ هـ بجوار الجامع الأزهر .  
المقريزي : الخطط ص ٢ ، ١١٦ ، ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ص ٩٠ ص ١٩٦  
حاشية ١ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد ص ٥٧ ، ١٥١

وكان أقبغا جداراً ثم ترقى وصار استاداراً وشاداً للمباني ومقماً للمالك السلطانية وغير ذلك ، وكان جباراً كثير الظلم ، صودرت أمواله ورد ما اغتصبه ، ثم ولي نيابة حمص أيام المظفر كجك ، كما ولي إمرة دمشق ، وقتل بالاسكندرية سنة ٧٤٤ هـ .  
العسقلاني : الدرر الكامنة ص ١٠ ص ٢٩١ رقم ١٠٠١ ، المقريزي : الخطط ص ٢٠ ص ٣٨٤ وما بعدها .

١٨ - هو حكر الأمير جنكل بن البابا استادار الأمير أقبغا عبد الواحد ، وهو أول من عمر في حكر أقبغا ، فبعض الناس وجوا فيه وخاصة الفتر والوافدية من أصحاب الأمير جنكل ، الذي عمر تجاه هذا الحكر حمامين . المقريزي : الخطط ص ٢٠ ص ١١٦

١٩ - عن وظيفة الناظر أو المتولى على الوقف انظر :

القاتشندي : صبح الأعشى ص ٥٠ ص ٤٦٥ ، السيوطي : حسن المحاضرة ( ط . الوطن ) ص ١٨٦ المقريزي : السلوك ( نشر زيادة ) ص ١٠ ص ١٠٤١ ، ١٠٤٨ - ١٠٤٩ عن نهاية الأرب للنويري ؛ المقصد الرفيع المنشأ الهادي لصناعة الانشا ( مخطوط - تصوير شمس بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٤٥ ) ص ١٣٢ - ١٣٣ .

هذا والولاية أو النظر لا يجوز لفاسق ولا فاسق أو عاجز ، ولا بد من أهلية الناظر وأمانته وعدله وكفايته . القرشي : العقد الفريد ص ١٨٢ - ١٨٤ ، السيوطي : فتح القدير ص ٥٠ ص ٦١ .

انظر كذلك الطرابلسي : الاسعاف ص ٤١ ، أبو زهرة : مشكلة الأوقاف ( مجلة القانون والاقتصاد سنة ٦ عدد ٣ ) ص ٢٥٠ - ٣٦١ ، احمد ابراهيم : أحكام الوقف ص ٩٨ ، السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص ٦٤ ، زيد : مباحث الوقف ص ٤٩ - ٥٠ .  
٢٠ - نص كثير من وثائق الوقف العربية في العصور الوسطى على وجوب البدء بمارة الأوقاف من ربعها ، وكانت هناك وظيفة لذلك تعرف باسم « شهادة المارة » .

انظر وثيقة الغوري أوقاف ٨٨٣ سطر ١٥٩٢ ( تحت الطبع ) ، وثيقة بدر الدين الوفاي محكمة ٢٢١ ، وثيقة المؤيد شيخ المحمدي أوقاف ٩٣٨ ، وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ سطر ٦٣ - ٦٤ ، وثيقة المقياس أوقاف ٨٨٢ ص ٥٠٢ ، وثيقة جوهر اللالا أوقاف ١٠٢١ ، وثيقة السلطان حسن أوقاف ٨٨١ ص ٤٧١ ، وثيقة صرغتمش أوقاف ٣١٩٥ ، وثيقة طومان باي أوقاف ٨٨٢ ص ٥٥٤ .

٢١ - كان الجباي يحول وظيفة الجباية لربع الأوقاف ( المباني والأراضي ) شهريا وسوريا ، وكان يشترط فيه أن يكون من أهل الخير والدين ، أمينا ذا قوة وقدرة على جباية الربع وقبضه وضبطه وكتابة حساباته باذن الناظر .

وثيقة الجمالي يوسف محكمة ١٠٥ ، وثيقة السيفي قططباي أوقاف ١٠٢٠ ، وثيقة فاني باي أوقاف ١٠١٩ ، وثيقة الزيني عبد اللطيف محكمة ٢٢٢ ، وثيقة ازدرم محكمة ٢٤١ ، وثيقة فايتباي أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٦ ص ١٤٥ ، وثيقة ازبك من ططخ محكمة ١٩٨ .

وقد يشغل وظيفة الجباي والصرف شخص واحد كما ورد في وثيقة المقياس أوقاف ٨٨٢ ص ٥٠٨ ، كما قد يكون الجباي هو المعمار . وثيقة تفرى بردى محكمة ٩٨ ، وثيقة جمال الدين الاستادار محكمة ١٠٦ .

٢٢ - الدرهم النقرة من أجود الدراهم عيارا ، ثلثاه - أو أكثر - من فضة وثلثه من نحاس ، وهذا هو الذي عليه قاعلة العيار الصحيح كما يقول ابن فضل الله العمري ، وكانت الدراهم النقرة تسك بدور الضرب بالسكة السلطانية ، ويكون منها دراهم صحاح ، وفراضات مكسرة .

القلقشندي : صبح الاعشى ٣ ص ٤٦٢ - ٤٦٣ ، الكرملی : التقود العربية وعلم النيات ص ٢٣ حاشية ٤ ، ١١٣ ، ١١٧ - ١١٨ ، ابن ممتي : قوانين النواوين ص ٣٣٣

٢٣ — لا غرابة في ذلك بتانا فقد اشترط كثير من الواقفين في وثائقهم صرف جزء من ريع الأوقاف على الأماكن المقدسة بالحجاز والمجاورين بها من الفقراء ، وكان الربع يرسل سنوياً لصحبة ركب الحجاج قدماً وهنا . السيوطي : حسن المحاضرة ( ط . الشرقية ) ص ٢٠٨ ، ١٦٥ انظر وثائق جعقو محكمة ١٠٨ ، قايقي أوقاف ٨٨٥ ص ٢٨ ، ١٥١ ، وثيقة خاير بك من مال باي ( الأستاذ صلاح الدين العظم ) ، وثيقة السلطان حسن محكمة ٤٢ ، ظهر وثيقة الغوري أوقاف ٨٨٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ص ٤ ، ١٠٣ ، ١٦٠ ، ص ٥٥ ، ٢٢٤ ، ٣٩٤ : Enc. of Islam art. Wakf.

وبالإضافة إلى ذلك فالواقف كان شيخاً للخدام بالمسجد الشريف بالمدينة النبوية .

السخاوي : الضوء اللامع ص ١٠٠ رقم ١٥٦ ٦٢٤

والراجع أنه كان من واجبه عارة المسجد النبوي وتروميمه ، وفرشه بالبسط والسجاديد ، ومده بالوقود ( الزيت والشع ) وما يحتاجه من آلات وأدوات للإضافة والنظافة .

٢٤ — هذه إشارة إلى وجود عدد من الشيعة الزيدية وغيرهم في مدن الحجاز ، وقد اشترط الواقف عدم الصرف لهم ، وأن يقتصر صرف الجزء الذي خصصه من ريع وقفه على الفقراء المجاورين من أهل السنة الذكور والاناث .

٢٥ — يدل هذا النص على أن باقي الربيع بعد ما عين الواقف صرفه في جهاته المختلفة ، يكون للواقف من غير مشارك له في ذلك ، ثم من بعد وفاته يصرف لعتقائه بالسوية بينهم ثم في مصالح الحرمين المكي والمدني والمجاورين بها من أهل السنة .

وإلى مثل هذا تشير كثير من وثائق الوقف الاسلامي في العصور الوسطى . انظر وثيقة الأمير أخور كبير قراقبا الحسني أوقاف ٩٢ سطر رقم ١٩٥ - ٢٠٩

٢٦ — لاحظنا في كثير من وثائق الوقف أن الواقف يشترط النظر لنفسه أيام حياته ، ثم لأولاده أو لمن يوصي له بذلك من الامراء والشيخوخ ( القضاء ) .

السيوطي : حسن المحاضرة ( ط . الوطن ) ص ٢٠٨ ١٨٦

هذا ومن حق الواقف أن يكون ناظراً على وقفه بمفرده ، ومن حقه أن يشرك معه ناظراً ثانياً لأن الموقوف يحتاج إلى من يقوم برعايته ويحوطه بعنايته ، وإصلاح ما يتهتم منه ، والعمل على نمائه واستغلاله ، وذلك لا يكون إلا بالنظر والولاية .



وهذه الولاية ثبتت أولا للواقف عند أبي يوسف ولو لم ينص عليها ، وفق مذهب محمد الولاية للواقف بالشرط . أما عند الشافعية فالولاية لا تثبت للواقف إلا بالشرط عند إنشاء الوقف أيضا ، ومذهب الامام أحمد بن حنبل يقارب مذهب الشافعي في ذلك ، أما مالك ابن أنس فيمنع أن يكون الوقف في يد الواقف .

الطرابلسي : الاسعاف ص ٤١ ، أبو زهرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد سنة ٦ عدد ٣) ص ٣٥٠ - ٣٦١ ، زيد : مباحث الوقف ص ٤٩ - ٥٠ ، احمد ابراهيم : أحكام الوقف ص ٩٨ ، قنري : قانون العدل والانصاف ص ٦٨ .

٢٧ — هو سعد بن عبد الله الحبشي عتيق الطواشي بشير الجمدار ، اعتنى به سيده وعلمه القرآن ورتبه في وظائف ، استمر بعد سيده على طريقة حسنة ، وتزيا بزى الفقهاء ، وكان محبا في السنة وأهلها ، جميل العشرة كثير المحب ويقال أنه حج ستين حجة ، توفي سنة ٨١٥ هـ .

السخاوي : الضوء اللامع ص ٣ ص ٢٤٨ رقم ٩٣٣ ، المستقلاني : أبناء الفهر ص ٦٨ وقد عمر الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجمدار في الجامع الأزهر سنة ٧٦١ هـ وأنشأ سبيلا وكتابا عند الباب القبلي للجامع ، وكذلك قام بتكملة الرخام في المدرسة السلطانية حسن بن فلارون بعد وفاته سنة ٧٦٢ هـ .

المقرئزي : الخطط ص ٢ ص ٣١٦ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ص ٥٤ ، ١٦٨ - ١٦٩

٢٨ — لعلمه الزيني مقبل الرومي الزمام بالدور السلطانية ، كان رأسا في الخدم ، وعنده حشمة ورياسة ، تولى الزمامية في الدولة الناصرية فوج بن برقوق ، عمر عدة أملاك ودور حبسها على مدرسته التي أنشأها بخط البندقيين بالقاهرة للجمعة والجماعات ، ورتب فيها وظائف وخزانة كتب . توفي في أول ذي الحجة سنة ٨١٠ هـ وخلف مالا كثيرا .

السخاوي : نفس المصدر ص ١٠ ص ١٦٨ رقم ٦٩٧ ، المستقلاني : أبناء الفهر ص ١٠ ص ٧٦٢ انظر وثيقتي الزيني مقبل الرومي محكمة رقم ٦١ ، ٧٥ ، ٢٩ — هو شجاع الدين عبر العزى الطواشي الحبشي ، أحد خدام الحرم الشريف النبوي توفي سنة ٨٠١ هـ .

السخاوي : نفس المصدر ص ٦ ص ١٤٨ رقم ٤٦٦

٣٠ — الزمام بمعنى القائد أو المشرف ، والزمام دار تحريف من الزمان دار ، وهو لقب الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام والحسيان الطواشية ، وهو مركب من لفظين فارسيين : زمان ومعناه النساء ، ودار ومعناه ممسك ؛ فيكون المعنى « ممسك النساء » أو الموكل بحفظ الحرم ، إلا أن العامة عبروا عنه بالزمام دار . هذا ويقصد بالآدر الشريعة الحرم السلطانى .

القلشنلى : صبح الأعشى ٥٠ ص ٤٥٩ - ٤٦٠

على مبارك : الخطط التوفيقية ٩ ص ٣٥

Van Berchem : C. I. A., Egypté, T. I, pp. 186-188, 201.

٣١ — يقصد بذلك قاضى قضاء المذهب الشافعى بالقاهرة .

٣٢ — هذه صيغة توثيقية تؤكد تمام التصرف القانونى (الوقف) ولزومه وانبرامه .

٣٣ — هذه صيغة جزائية توازن كتاب الوثائق العربية فى العصور الوسطى على اثباتها فى ختام كثير من وثائق الوقف ، وهى ذات أسلوب دينى مناسب لروح العصر المملوكى .  
انظر وثيقة الأمير أخور كبير قراقجا الحسنى أوقاف ٩٢ سطر ٢٤٦ - ٢٤٩

٣٤ — لا يعتبر الواقف راضيا عن تصرفه (وقفه) رضا صحيحا إلا إذا كان عالما به علما كافيا ، وعارفا بذلك المعرفة الشرعية النافية للجهالة بنفسه .

والعلم الكافى هو العلم النافى للجهالة .

الكاسانى : بدائع الصنائع ٥ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ، الزيلعى : تبين الحقائق ٤ ص ٢٨ ، احمد فتحى زغلول : شرح القانون المدنى ص ٢٢٧ ، احمد ابراهيم : كتاب المعاملات ص ١٢٠ ، محمد سلام مذكور : الفقه الاسلامى ص ٥٥٤

ولا شك أن الواقف مسرور بن عبد الله الشبلى الجمدار كان عالما بتصرفه علما كافيا ، ويعتبر العلم كافيا إذا اشتملت وثيقة الوقف على بيان الموقوف وموقعه وأوصافه و«لموده الأساسية بيانا يمكن من تعرفه ، مما يجعل الموقوف مميزا عن غيره ، واضحا فى ذهن الواقف ، كما أن إقرار الواقف واعترافه صراحة أنه عارف بذلك يجعل إقراره حجة عليه ، كما يسقط حقه فى إبطال الوقف بدعوى عدم علمه به .

ومهما يكن من أمر ، فقد تحقق في وثيقة الوقف : وصف الموقوف ، وإقرار الواقف واعترافه بما وقفه ، مما يجعل تصرفه لازماً نافذاً .

٣٥ — هذا هو تاريخ التصرف القانوني ( الوقف ) الوارد في ختام وجه الوثيقة ، وقد أثبتته كاتب الوثيقة باليوم والشهر والسنة بالتقويم الهجري ، وهو مدار التاريخ الاسلامي . انظر عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٨٢ تحقيق رقم ٥٠ وما به من مصادر ، وثيقة بيع ص ١٩٢ تحقيق رقم ٤٥ وما به مصادر .

٣٦ — هذه العبارة وأمثالها كثيراً ما نَجِدُها في نهاية بعض الوثائق التي قد يحدث فيها شطب أو كشط أو تصليح أو إضافة والحاق لبعض الألفاظ ، وهي ترد قبل المسئلة مباشرة في أغلب الأحوال . وقد اعترف كاتب الوثيقة بصحة ذلك كله في مواضعه .

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير آخور كبير قرائن الحسن ص ١٩٦ حاشية ٢ ، ص ٢٥١ تحقيق رقم ٩٤ - ٩٦

٣٧ — المسئلة هي الدعاء الختام في نهاية الوثيقة وقبل شهادة العدول مباشرة .

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٩٨ تحقيق رقم ٦٣ وما به من مصادر .

٣٨ — تبدأ صيغة الشهادة بلفظ « اشهد » وهي صيغة ذاتية ، واللفظ الأخير في كل شهادة « وكعب » يدل على أن الشاهد قد وقع بخط يده بعد أن قام بكتابة صيغة الشهادة . عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٩٩ تحقيق رقم ٦٤ وما به من مصادر .

ويتضح لنا من دراسة الشهادات الأربعة أنها متفقة في المعنى ، مع تطابق في الألفاظ لحديث كبير ، ومن المعروف أن العبرة في الشهادة للمعاني لا للألفاظ ، لأن اختلاف لفظ الشهادة الذي لا يوجب اختلاف المعنى لا يضر .

ابن قاضي سماوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٦ ، السبواسي : فتح القدير ج ٦ ص ٥٥ ، الفتاوى الهندية ج ٣ ص ٥٠٣ ، المرنسي : المبسوط ج ١٦ ص ١٧٢ وما بعدها ، الزبلي : تبين الحقائق شرح كنز الدقائق ج ٤ ص ٢٢٩ وما بعدها ، الفتاوى المهدية ج ٣ ص ٣١٣ ، قراعة : الأصول القضائية ص ١٨٢ - ١٨٣ ، أحمد ابراهيم : طرق الإثبات ص ١٩٠ - ١٩٣ ، ٢٠٣ حاشية ١ ، طرق القضاء ص ٣٦٤ - ٣٦٥

٣٩ ، ٤٠ — هذان الشاهدان من أسرة واحدة ، وقد بحثنا عن ترجمة لهما في كتب التراجم والتاريخ المتداولة بين أيدينا فلم نعث لهما على ترجمة ، هذا وهناك تراجم مختلفة لأفراد آخرين من أسرة الكركي في كل من الضوء اللامع للسخاوي وشنرات الذهب لابن العماد الحنبلي .

٤١ — هو عبد اللطيف بن محمد بن عبد الباقي سراج الدين ابن الشامية ، موقع الحكم بالديار المصرية مات في سنة ٧٦٨ هـ وقد ناهز السبعين .

المسقلاني : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٠٩ رقم ٢٥٠١ انظر توقيعه بخط يده شكل ٣١

٤٢ — هو تقي الدين محمد بن احمد بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد بن الفرات الحنفى ، اشتغل بالعلم ومهر في العربية ، وفي الشروط ، حتى كان عمه سراج الدين يفضل في ذلك على نفسه وعلى أبيه مع أنها كان قد انتهت إليها الرياسة في معرفة الشروط ويقال إنه لم يكتب مكتوباً فعثر أحد فيه على لجنة . مات في جمادى الآخرة سنة ٧٦٤ هـ هو وولده تاج الدين في ليلة واحدة بالطاعون الذي عم الديار المصرية والشامية .

المسقلاني : نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٣١٣ رقم ٨٣٨ ، ابن تقي بردى : الهجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٧

انظر توقيعه بخط يده شكل ٣٢

٤٣ — هذه هي تأشيرة القاضي الموثق جمال الدين أبو محمد عبد الله الماردني الشافعي ، الذي قام بوثيق الفعل القانوني والحكم بصحة الوقف ولزومه عقب توقيعات الشهود ، بعد أن ثبت لديه البينة الشرعية على صحة التصرف وسلامته بشهادتهم أمامه وقبل أن يصدر حكمه بصحة الوقف ، انظر شكل ٣١ .

وهذه التأشيرة تدل على أن الشهود منتصبون للشهادة انتصاباً عاماً متسدون بالعدالة . ولا يكتب القاضي الموثق ذلك أسفل التوقيعات إلا إذا كان قاصداً الاعلام بصحة التوقيعات وسلامتها من الرب من جميع النواحي .

جصيط : الطريقة المرضية ص ٢٣١ ، ابن قاضي سملوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٦

٤٤ — هذا هو نص المجلدة في بدايه الاسجال الحكمي في ظهر وثيقة الوقف وهي بخط القاضي الموثق الماردني الحنفى ، انظر شكل ٣٣

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة بيع ص ١٩٥ تحقيق رقم ٥٤ وما به من مصادر  
٤٥ — هذه العبارة تدل على الأمر بتسجيل الاشهاد أو الاسجل الحكيمى وهى بخط  
القاضى الموثق ابن جماعة الشافعى .

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية والاشهادات ص ٣٦٣ تحقيق رقم ٣  
٤٦ — هو قاضى القضاة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن علي بن غفر الدين عثمان  
ابن ابراهيم بن مصطفى بن سليمان الماردىنى الأصل المعروف بابن الترتكائى الحنفى ، ولد  
سنة ٧١٩ هـ وتفق على علماء عصره ، وسمع من الوائى والحنفى وغيرهما ، اشتغل ودرس  
وأفنى وحدث بالكاملية بعد أن نزل له عنها القاضى عز الدين بن جماعة ، كما درس  
فى التفسير بالجامع الطولونى . وقد مات بالطاعون فى شهر رمضان سنة ٧٦٩ هـ ودفن بتربة  
والده خارج باب النصر . وكان رحمه الله وافر الوقار ، لطيف الذات ، مقدما عند الملوك  
محسنا لطائفه ، عارفا بالأحكام ، لين الجانب ، شديدا على المفسدين متواضعا مع أهل  
الخير ، امتنع من استبدال الأوقاف وصمم على ذلك ، وكان من أشهر علماء الحنفية ، بارعا  
فى الفقه والأصول والعربية .

ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ص ٢ وما بعدها ، التجويم الزاهرة  
١١٨ ص ٩٩

٤٧ — الناظر فى الحكم هو القاضى . انظر بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٧١ تحقيق  
رقم ٤٤ ، شكل ٣٥

٤٨ — بحثنا وثيقة بيع ص ١٩٧ تحقيق رقم ٦٠ وما به من مصادر  
٤٩ — هذا هو تاريخ الاسجل الحكيمى وهو بخط القاضى الموثق ، ويلاحظ أنه  
موافق لتاريخ التصرف القانونى الوارد فى وجه الوثيقة .

نفس المرجع السابق والصفحة تحقيق رقم ٦١ وما به من مصادر .  
٥٠ — المرجع السابق ص ١٩٦ تحقيق رقم ٥٥  
٥١ — بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٥ تحقيق رقم ٥٣ وما به من مصادر .  
٥٢ — المرجع السابق ص ٤٠٧ تحقيق رقم ٧٣

٥٣ — يقصد بذلك وجه الوثيقة .

٥٤ — المراد بذلك نص وثيقة الوقف وما ورد فيها من وقف وشروط مختلفة

٥٥ — يقصد بذلك الشهادة الواردة على الهامش الأيمن لوجه وثيقة الوقف بين  
السطرين ٤٠ - ٤٩ والدالة على ملكية الواقف لما وقفه .

بجنتنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٦ وما بعدها - تحقيق رقم ٥٤ وما به من مصادر

٥٦ — المراد بفصل الأعذار ، النص الوارد في هامش وجه الوثيقة بين السطرين

٥٥ - ٦٢ بجنتنا وثيقة بيع ص ١٨٦ تحقيق رقم ٤٠

٥٧ — بجنتنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٠ تحقيق رقم ٤٨ وما به من مصادر

٥٨ — بجنتنا وثيقة بيع ص ١٩٨ تحقيق رقم ٦٦

٥٩ — بجنتنا التوثيقات الشرعية ص ٣٩٣ تحقيق رقم ٥٧ وما به من مصادر

٦٠ — المرجع السابق ص ٣٩٤ تحقيق رقم ٥٨ وما به من مصادر

٦١ — بجنتنا وثيقة بيع ص ١٩٩ تحقيق رقم ٦٨ وما به من مصادر

٦٢ — المرجع السابق ص ٢٠٠ تحقيق رقم ٦٩ وما به من مصادر

٦٣ — نفس المرجع السابق والصفحة تحقيق رقم ٧٠

٦٤ — المرجع السابق ص ٢٠١ تحقيق رقم ٧٢

٦٥ — نفس المرجع السابق والصفحة تحقيق رقم ٧٣ وما به من مصادر

٦٦ — بجنتنا التوثيقات الشرعية ص ٣٩٩ تحقيق رقم ٦٤ وما به من مصادر

٦٧ — المرجع السابق ص ٤٠١ تحقيق رقم ٦٧ وما به من مصادر

٦٨ — هو عبد الخالق بن علي بن الحسين بن الفرات المالكي موقع الحكم، كان بارعا

في الفقه وكتب الخط المنسوب ودرس ووقع على القضاة ، توفي في جماد الآخر سنة ٧٩٤ هـ

ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ج ٦ ص ٣٣٣ ، شكل ٤٢

٦٩ — هذه العبارة تدل على الأمر بتسجيل الاشهاد التنفيذية الاول وهي بخط القاضي

الموتقى أبي بكر السعدني المالكي ( الاغتاني )

بجنتنا التوثيقات الشرعية ص ٣٦٣ تحقيق رقم ٣

٧٠ — هو عز الدين عبد العزيز بن محمد بن سعد الدين بن جماعة بن صخر الكتافي الشافعي ، ولد في ١٩ محرم سنة ٦٩٤ هـ بدمشق ، وقد درس على والده وغيره من العلماء بالشام ، كما درس على علماء وقهاء عصره بمصر ، وكان كثير الحج والمجاورة ، وكان حسن الاخلاق كثير الفضائل ، ولى قضاء الشافعية بمصر سنة ٧٣٨ هـ ، وقد درس وأتى وألف كثيرا ، وكان حسن السيرة في القضاء محبا لأهل العلم ، وقد جعل له السلطان الناصر تعيين قضاة الشام . وكان عزوفا في القضاء غير راغب فيه ، ف عزل نفسه مرتين في سنة ٧٥٤ هـ ، سنة ٧٦٦ هـ : وقد درس الفقه والحديث بالجامع الطولوني وصح في سنة ٧٦٧ هـ ومات بمكة ودفن بها في جمادى الاول من نفس العام .

العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٧٨ رقم ٢٤٤٣

ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٠٨

٧١ — يقصد بذلك الاسجال الحكمي للقاضي الموثق المارديني الحنفي . انظر للوحة رقم ٨

٧٢ — بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٤٠٨ - ٤١١ تحقيق رقم ٧٤ وما به من مصادر

٧٣ — هو محمد بن محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران الانحطائي بن القاضي علم الدين السعدي ، سمع من الكردى ومث الوزراء والحجار ، ولى نظر الخزانة ثم قضاء المالكية بعد عمه تقي الدين ، وكان قويا مشكورا السيرة - توفي في صفر سنة ٧٦٣ هـ

العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٤٥ رقم ٦٥٨

٧٤ — يقصد بذلك الاسجال التنفيذي الأول للقاضي الموثق ابن جماعة الشافعي انظر لوحة رقم ١٠





لوحات وأشكال من خط الوثيقة

---







[illegible]

جزء من الوثيقة ورد فيه شرط الواقف في توزيع الربح

















بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

9

للسجل مرسوم والحام المحنة وطلوه

5

Y

عل ۲ ملک و مصلو

Y

6

6

2

ولم يبق لي

11

10

9

A

حزب حق والبر للز ولاحه

10

98

15

11

حرواً حراً حرمه والملم

۱۹

۱۸

۱۷

۱۶

والدعوه الحاي ح نوير

۲۲

۲۲

۲۱

۲۰

محس وما كان بهدا سمح رسعه

۲۷

۲۶

۲۵

۲۴

لسيد يدك  
الحسيني المظفر

۲۹

لسيد يدك  
علي العبد المذنب

۲۸

سوراعبد يدك

محمد عبد الحبيب المحسن الآتي  
محمد بن علي الآتي  
عبد اللطيف محمد علي الآتي

١٤

و محمد عبد الحبيب الآتي

١٤

أَلْجُلْدُ يَدَيْنِ رَأْسَتَيْنِ

٣٣

حَمَالِدِيسُ الْعَرِ عَلَالُوعِ الْأَمِ

٣٧

٣٦

٣٥

٣٤

لِ لِحَوَامِ سَلَكِ السَّامِعِ

٤٠

٣٩

٣٨

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى سَائِلِي الْحَاكِمِ عَدُوِّ الْوَلَدِ الْبَارِ

٤٢

٤١



أَوَلَيْسَ الْآلُفُفُ

١٢

وَمِنْ كَيْسِ السَّاحِجِ مَسْرُورٍ

١٣

وَاللَّهُ وَفَّالٌ كَرِيمٌ

١٤

# الحمد لله الہامی وحده

۴۶

المسیحی علی لے لہو لہو لہو

۴۹

۴۸

۴۷

لعلہ سوال اعلاہ

۵۲

۵۱

۵۰

# ضبط النيل والتوسع الزراعي

في الجمهورية العربية المتحدة

للدكتور صلاح الدين على الشامي

استاذ الجغرافيا المساعد بكلية الآداب

جامعة القاهرة - فرع الخرطوم

«حمداً لك أيها النيل . . . والويل للأرض ومن عليها حين يقل مأؤه ويحيى فيضانه  
شحيحاً قليلاً . . .» يعبر ذلك القول الذي تنفى به شاعر في ذكر النيل في القرن التاسع عشر  
قبل الميلاد ، عن الاشفاق والهمة الشديدة ، بقدر ما يعبر عن الادراك السليم للقيمة الحقيقية  
لماء النهر وجريانه المنتظم الرتيب . ونحن نعيش في القرن العشرين على ضفاف النيل ، وما زلنا  
نحس بالهفة ، كما يلاحظنا الاشفاق الشديد على ماء النهر وضبطه والعمل على التحكم في  
جريانه . ذلك أنه من الطبيعي أن نلتمس ذلك كله على اعتبار أن النيل وإيراد الماء فيه  
كان وما زال يعول الحياة ، ويحفظ استمرار الحضارة وتراثها الاصيل على الضفاف وفي الأرض  
القيضية الغنية . ويمكن للباحث في مجال الدراسات النيلية أن يتابع على امتداد النيل العظيم  
العمل المضني المستمر ونتائجه الايجابية في مجالات التهذيب والضبط للسيطرة على الجرى . كما  
يمكن أن يتابع في الوقت نفسه كل الأهمال الانشائية الضخمة البالغ بعضها حد الانحجار ،  
في مجالات السيطرة على الإيراد المائي الطبيعي وتصويره ، وتنظيم الاستفادة منه في خدمة  
الانتاج الزراعى .

ومهما يكن من أمر ، فإن ذلك كله كان وما زال سبباً دافعاً نحو المزيد من الدراسة  
والبحث ، من أجل المزيد من المعرفة بالجريان وإيراد النيل الطبيعي . ويمكن القول في  
أطشأن وثقة تامتين أن نهراً من أنهار العالم لم يلق مثل ذلك الاهتمام ، ولم يحظ بمثل  
هذا التعقيد في الدراسة والبحث . ويخلص البحث في التعرف على طبيعة الجريان  
النيلي والإسلام بصفة النظام المائي لكل رافد من روافده ، وحساب فائض الماء

(١) دكتور محمد عوض محمد . نهر النيل هامش صفحة ٤

Run Off الذى ينساب إلى البحر من كل حبس من الأحباس العليا ، وحساب الإيراد الطبيعي حين يفيض وحين يفيض . كل هذا من أجل استئناس النهر وترويض الجريان ترويضاً يفي باحتياجات الزراعة ، وتدير ماء الري خلال الفترة الحرجة ، التي تهبط المناسيب فيها هبوطاً يتناسب مع حجم الإيراد المائى الطبيعي الضئيل ، الذى ينساب من أحباس النيل العليا الإسنوائية . وسواء كانت هذه الدراسات ونموذج الحبرات من أجل توفير المياه وتقليل الفاقد وزيادة حجم الإيراد الطبيعي للنيل ، أو كانت من أجل تسوية الإيراد كله وتنظيم توزيعه حسب المناوبات المتبعة في ري الأرض المنزرعة ، فإن زيادة السكان الطبيعية والرغبة في متابعة التوسع الأفقي في الزراعة في مصر مازالت تلهب الظهور ، وتدعو إلى بذل المزيد من الجهد في مجال زيادة حجم الإيراد المائى وتسويته .

ونود بهذه المناسبة أن نتعرف في إيجاز شديد على ملامح التطور والزيادة في عدد السكان في مصر ، قبيل متابعة خطط السياسة المائية والأساليب التي اتبعت في مجال زيادة حجم الماء كوسيلة لممارسة الري الدائم ، وزيادة مساحة الأرض المنزرعة ، وبالتالي زيادة مساحة المحاصيل ويذكر الفنيون أن مشكلة مصر الأساسية تنبثق من زيادة أو نمو حجم السكان بالزيادة الطبيعية زيادة كبيرة تحمّل الأرض المنزرعة والإنتاج الزراعى عبئاً ثقيلاً<sup>(١)</sup> . ويمكن للباحث أن يتابع ملامح هذه الزيادة التي ظهرت بوضوح منذ وقت بعيد ، يعود إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ذلك أن عدد سكان مصر في بخر هذا القرن وحسب تقديرات علماء الحملة الفرنسية ، كانوا لا يزيدون عن حوالى ٢½ مليون نسمة تقريباً . وقد جاء هذا التقدير متفقاً اتفاقاً تاماً مع تقديرات عدد السكان في سنة ١٨٢١ . ثم ظهرت الزيادة الكبيرة لأول مرة ، عند ما قفز تقدير عدد السكان في سنة ١٨٤٦ إلى حوالى ٤½ مليون نسمة . ويعال بعض الباحثين سبب زيادة السكان باستقرار الحياة في ذلك الوقت الذى بدأ فيه الأخذ بسياسة الري الدائم : وقد تمبر هذه السياسة عن زيادة مساحة المحاصيل ، كما نبر من ناحية أخرى عن التوسع الأفقي في مساحة الأرض المنزرعة . وليس ثمة شك في أن ممارسة الأساليب التي تؤدي إلى التوسع الأفقي والتوسع الرأسى وزيادة حجم القلة الزراعية ، قد أدت بالضرورة إلى الزيادة في حجم الدخل القومى بصفة عامة ، وفي دخل الأفراد بصفة خاصة .

وهكذا يمكن القول إن زيادة عدد السكان وارتفاع الكثافات ، وإن كانت في رأى بعض الباحثين معبرة عن المغالاة وسوء التقدير بصفة عامة ، إلا إنها تتفق وتتناسق تناسقا تاما مع بحر الانقلاب الزراعى ، الذى أدى الى كل التغيرات الجذرية فى الأوضاع الزراعية من حيث الأساليب فى الرى ونظام توزيع الماء والمناوبات ، ومن حيث المواسم الزراعية ، ومن حيث نوع المحاصيل وقيمتها فى الأسواق العالمية والتجارة الدولية . وقد توالى الزيادة فى عدد السكان بشكل منتظم ورتيب ، حيث ارتفع الزخم التقديرى لعدد السكان فى سنة ١٨٧٧ إلى حوالى ٥ مليون نسمة ، ثم إلى حوالى ٦٧ مليون نسمة فى سنة ١٨٨٢ (١) . وقد أوجت هذه الزيادة المستمرة بالاستقرار فى سياسة التوسع الزراعى ، والبضى فى الانقلاب الزراعى أو الثورة الزراعية إلى نهاية الشوط . ويمكن القول أن سياسة التوسع الزراعى وعخطط الانقلاب الزراعى كانت تعتمد على ضبط التهرؤوسية الإبراد ، على اعتبار أنه حجر الزاوية فى هذا المجال . وقد رسمت - من أجل ذلك - سياسة ضبط التيل بدقة وإحكام بالتقنين ، لكى تلامم مع زيادة عدد السكان ، ولكى تحافظ على حجم الماء اللازم لمتابعة التوسع فى زراعة المحاصيل ورى كل المساحات التى تفى باحتياجات السكان المتزايدين . ويمكن للباحث على ضوء الأرقام الواردة فى الجدول التالى ، أن يتابع

السنة	عدد السكان (٢)	النسبة المئوية للزيادة السنوية	المساحة المزروعة	نصيب الفرد	مساحة المحاصيل	نصيب الفرد
	نسمة		فداناً		فداناً	
١٨٩٧	٩,٧٠٥,٣٥٩	% ٢,٩	٤,٩٠٠,٠٠٠	٥٠		
١٩٠٧	١١,٢٨٧,٢١٨	% ١,٦	٥,٤٠٠,٠٠٠	٤٨	٧,٦٦٢,٠٠٠	٦٨
١٩١٧	١٢,٢٨٧,٩١٨	% ١,٤	٥,٢١٩,٠٠٠	٤٦	٧,٦٨٦,٠٠٠	٦٠
١٩٢٧	١٤,٢١٧,٠٦٤	% ١,٧	٥,٥٤٤,٠٠٠	٣٩	٨,٦٦١,٠٠٠	٦٢
١٩٣٧	١٥,٩٣٢,٦٩٤	% ١,٢	٥,٥٨١,٠٠٠	٣٣	٨,٣٠٧,٠٠٠	٥٢
١٩٤٧	١٩,٠٢١,٨٤٠	% ١,٩	٥,٧٦١,٠٠٠	٣٠	٩,١١٦,٠٠٠	٤٨
١٩٦٠	٢٦,٠٦٩,٠٠٠	% ٢,٦	٦,٢٠٠,٠٠٠	٢٤	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٣٩

(١) هذه الأرقام تقديرية بحتة ومع ذلك فهي مفيدة فى مجال المقارنة ولأنها تلقى الضوء على نمو السكان .  
(٢) دكتور صبحى عبد الحكيم . سكان مصر دراسة ديموجرافية

صفحة ٥١٥

بعض الحقائق الهامة التي تعبر عن نتائج هذه السياسة والتخطيط المرسوم بشأن تنفيذها وتطويرها .

ويمكن للباحث من دراسة هذه الارتفاع التي تدل على عدد السكان ومساحة الأرض المزرعة ومساحة المحاصيل أن يلاحظ بعض الأمور الهامة التي تعبر عن العلاقة بين معدلات النمو السكاني ومعدلات النمو الزراعي ، مع ظهور انخفاض ملحوظ في نصيب الفرد من كل من المساحة المزرعة ومساحة المحاصيل . وأهم هذه الأمور من وجهة النظر الموضوعية هي :

(أولاً) يلاحظ الباحث أن عدد السكان في مصر يزداد زيادة مستمرة في انضمام رتيب منذ سجلت أول تقديرات في فجر القرن التاسع عشر ، بل لعلنا نذكر أن عدد السكان قد تضاعف في أثناء الخمسين سنة الماضية من سنة ١٨٩٧ الى سنة ١٩٤٧ ثم هو يقفز بعد ذلك في تعداد سنة ١٩٦٠ ، فترة كبيرة لكي يبلغ حوالي ثلاثة أمثال عدد السكان في فجر القرن العشرين . ولا تكاد تتكافأ هذه الزيادة الكبيرة المستمرة في السكان من حيث العدد والكثافات ، مع الزيادات التي طرأت على مساحة الأرض المزرعة بأي صورة من الصور . ذلك أن مساحة الأرض المزرعة فعلاً لم تزد إلا من حوالي ٤٩ مليون فدان الى حوالي ٦٢ مليون فدان ، منها ٣٦٧ مليون فدان في مصر السفلى ، و ٢٥٥ مليون فدان في مصر العليا . وكان المفروض حلوله بالنسبة لمساحة الأرض المزرعة ، أن يسير اتساعها على نفس المعدل الذي سار عليه تزايد السكان ، أي أن يصل الى حوالي ١٢ مليون فدان ، ولكن الذي حدث فعلاً هو اتساع رقعة الأرض المزرعة في أثناء نفس الفترة البالغ طولها حوالي ستين عاماً ، بمقدار ١٣ مليون فدان فقط ، أو ما يعادل حوالي ٢٥ ٪ من مساحة الأرض المزرعة كلها ، ويعني ذلك إنه في الوقت الذي تضاعف فيه السكان ثلاث مرات ، زادت مساحة الأرض المزرعة بمقدار مرة وربع مرة فقط ويمكن القول إن النتيجة الخفية في هذه الحالة يعبر عنها المهبوط الواضح والتدهور المستمر في نصيب الفرد ، حيث هبط من حوالي نصف فدان في سنة ١٩٠٧ الى أقل من ربع فدان فقط في الوقت الحاضر .

(ثانياً) يلاحظ الباحث أن الزيادة الفعلية في رقعة الأرض المزرعة لا تكاد تتفق أو تتماثل مع الزيادة الفعلية في مساحة المحاصيل بأي حال من الأحوال . ذلك إن مساحة

المحاصيل ارتفعت وزادت زيادة حقيقية ، من حوالي ٧ر٦ مليون فدان في سنة ١٩٠٧ الى حوالي ١٠ر٣ مليون فدان في الوقت الحاضر . وهذا معناه الاتجاه الى مضاعفة الإنتاج في المساحة المتزرعة والتوسع الرأسى عن طريق زراعة قطعة الأرض أكثر من مرة في السنة الواحدة ، للحصول على أكثر من محصول واحد . ويمكن القول إن ممارسة الرى الدائم وتنظيم الدورة الزراعية كانت الوسيلة المثلى لزيادة الإنتاج الزراعى ومساحة المحاصيل ، ولخلق نوع من التوازن والتكافؤ بالنسبة للزيادة الرتبية في عدد السكان ، ولجابهة النقص المستمر في نصيب الفرد من رضة الأرض المتزرعة ، هذا ونود أن نشير الى أن نصيب الفرد في الوقت الحاضر من مساحة المحاصيل ، يبلغ حوالى عشرة قراريط ، على حين أن نصيبه من المساحة المتزرعة قد تدهور الى حوالى ستة قراريط فقط ، وقد تبو هذه الزيادة في مساحة المحاصيل غير ذات قيمة بالنسبة للزيادة الهائلة في عدد السكان ، ومع ذلك فاتها تمثل أقصى محاولة لزيادة حجم الإنتاج الزراعى دون التوسع في مساحة الأرض المتزرعة فعلا ، وقد يعبر ذلك في نهاية الأمر عن احتمال الهبوط في مستوى الدخل القومى ودخل الأفراد معا ، ومع ذلك فقد استنفدت هذه المحاولات لزيادة مساحة المحاصيل وزيادة حجم الإنتاج الزراعى هذه الطريقة جهودا مضيئة ؛ من أجل توفير مزيد من الماء ، للوفاء باحتياجات الرى الدائم وتنظيم الدورة الزراعية بمواسمها الثلاث ، المعبى والنبل والشئى .

ومها يكن من أمر فيمكن للباحث أن يتابع العمل المضى والمجهود المستمر من أجل تحقيق هذه السياسة المائية ، التى استهدفت زيادة مساحة الأرض المتزرعة ومساحة المحاصيل وتحقيق الرى الدائم ، على اعتبار أنه استغرق ثلاث مراحل أساسية . وقد شملت المرحلة الأولى البدايات المبكرة للثورة الزراعية والاقطاب الزراعى في النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وقد اعتمد العمل فيها على إنشاء وتشغيل القناطر في مجرى النهر لرفع مناسيب المياه في موسم انخفاض المناسيب الى أقمام ترع التوزيع . أما المرحلة الثانية فهى التى أكدت المضى في تحقيق أهداف الثورة الزراعية ، ومتابعة العمل على رفع مستوى الكفاءة الزراعية وتحسين حجم الغلة من ناحية وزيادة مساحة الأرض المتزرعة ، ومساحة المحاصيل من ناحية أخرى . وقد شهدت هذه المرحلة التنظيمات التى حققت سياسة مرسومة تعتمد على أسلوب التخزين السنوى ، وتسوية الإيراد الطبقى للنبل من موسم الى موسم آخر ، وكانت المرحلة الثالثة التى لم تبدأ بعد بكامل طاقتها ، مشتملة على أساليب من شأنها تسوية الإيراد للملئ

في المدى الطويل ، أو ما نعبّر عنه بالتخزين المستمر ، والمفروض أن يفي بزيادة حجم حصة الماء السنوية لمتابعة التوسع الزراعي . ويعني ذلك أن العمل الانشائي في هذه المرحلة يضمن تعبيرا عن الانطلاق في الثورة الزراعية الى أقصى مدى ، ومتابعة التوسع الانفي والرأسي في الاتحاج الزراعي على السواء . ويهنا في هذا المجال أن نعرف على صفة العمل في كل مرحلة من هذه المراحل ، و النتائج المرتبطة بها وبكل الأعمال الإنشائية الضخمة ، التي تقفد للوفاء بالاحتياجات المائية للنمو في قطاع الزراعة بصورة أساسية . كل هذا في إنجاز شديد ودون الدخول في تفاصيل فنية بالنسبة للعمل الهندسي . كما يهنا أن نعرف بعد ذلك كله على خطط المستقبل التي تحقق الاستمرار في سياسة يكون من شأنها الوصول الى أوسع مساحة يمكن زراعتها والوفاء بالماء اللازم لها .

### أولا - مرحلة إنشاء وتشغيل القناطر<sup>(١)</sup> :

بدأ التفكير في فجر القرن التاسع عشر الميلادي في زيادة رقعة الأرض المنزرعة في موسم انخفاض المناسيب . وكان ذلك يستهدف زيادة حجم الإنتاج الزراعي وتنويعه ، على اعتبار زراعة محصول صيفي جديد بعد أن ينضج المحصول الشتوي ، الذي يعتمد على ماء النيل في موسم الفيضان . ولما لم يكن من الممكن الاعتماد على الآلات لرفع المياه في رى مساحات كبيرة فقد اتجه التفكير نحو تعويق أهام الترع لكي تصل إليها مياه النيل في موسم انخفاض المناسيب . ولكن تكاليف المشروع الباهظة وحجم مكعبات الحفر الكبير ، وانخفاض منسوب الماء في ترع التوزيع بعد التعويق بشكل يحمل الفلاح نفقات غالية في رفع الماء إلى مناسيب الحقول والأرض المنزرعة ، كان - كل ذلك - سببا في العدول عن هذه الفكرة غير الناجحة وغير الاقتصادية . وقد اتجهت الأفكار مرة أخرى إلى عدل يكون من شأنه رفع منسوب الماء في النيل الرئيسي ارتفاعا يحقق تغذية أهام ترع توزيع الماء على الأرض المنزرعة . وكان ذلك سببا دافعا إلى الأخذ بسياسة إنشاء القناطر على مجرى النيل . ويمكن القول أن سنة ١٨٣٣ كانت البداية المبكرة لهذه المحاولات ، التي استهدفت ثورة زراعية شاملة في الأساليب والمطالبات وفي نظام المواسم والمحاصيل . وقد تم في هذه السنة

(١) راجع الفصل الخاص من إنشاء القناطر في كتاب Egyptian Irrigation من صفحة ١٤٦ الى ١٦٩



قل فم فرع رشيد بسد من الصخور والاحجار الكبيرة لتحويل كل الجريان المائى إلى فرع دمياط ، لكن يرتفع منسوب الماء فيه إلى أقام ترع التوزيع الكبرى .

وليس ثمة شك في أن هذا العمل كان مقدمة طيبة أوحى بفكرة استخدام وتشغيل القناطر التى توضع في مجرى النهر ، وتشتمل على فتحات لها بوابات ضخمة قوية للتحكم في الجريان وحجم الماء الذى يسمح له بالمرور . وتتحصر وظيفة القناطر في رفع منسوب الماء أمام جسم البناء الكبير في عرض النهر ، إلى الارتفاع المعين الذى يصل به إلى أقام الترع التى تقع على مناسيب أعلى من مناسيب الجريان الطبيعى في موسم الفيضان ، وبعد انتهاء الفيضان مباشرة . وقد كانت قناطر الدلتا أول تجربة يدخل بها الإنسان المعمرى إلى مشارف الثورة الزراعية ، وبمارسها من أجل تحقيق أهداف اقتصادية عظيمة . وقد شهدت أرض مصر الزراعية في سنة ١٨٦٣ بشأراً النتائج الإيجابية الخطيرة ، التى ترتبت على إنعام العمل في هذه القناطر وتشغيلها . ويمكن القول أن هذا تسجيل حقيقى للبداية الذهنية في الثورة الزراعية التى حققت نتائج مؤدية إلى انقلاب زراعى خطير وتنمية اقتصادية شاملة ، واشتمل الانقلاب الزراعى على ممارسة أساليب جديدة في الرى وزيادة في مساحة الأرض المروية ريثا دأماً في مصر السفلى على الأقل ، كما اشتملت على تنوع كبير في المحاصيل التى تذكر من بينها القطن . وكان القطن كمحصول تقضى على زيادة في الدخل العام ، كما يعنى زيادة في دخل الفرد .

وهكذا تحققت نقطة الانطلاق في تخطيط شامل جديد للزراعة والإنتاج الزراعى من جوانبه المختلفة . وكان النجاح في تشغيل قناطر الدلتا سبباً دافعاً مرة أخرى للاستمرار في إنشاء مجموعة من القناطر المماثلة في مواقع متفرقة مناسبة على النيل الرئيسى ، لإمكان حجز المياه على المناسيب المناسبة للتغذية ترع توزيع كبرى جديدة ، وزيادة مساحة رقعة الأرض المزروعة المروية ريثا دأماً . ومع ذلك فلقد برهنت السنوات التالية على أن حجم الإيراد الطبيعى في موسم انخفاض المناسيب لا يكاد يفى بالتوسع في الرى الدائم . وكان ذلك سبباً في التفكير الجدى في الأخذ بنظام التخزين السنوى وتسوية الإيراد السنوى . وربما كان من الطبيعى أن يدعو ذلك التخزين وزيادة حجم الماء في موسم انخفاض المناسيب ، أو ما تسمى بالفترة الحرجة إلى المضى في تنفيذ إنشاء عدد من القناطر . ويبدو أن بناء تلك القناطر في كل من أسبوط سنة ١٩٠٢ وزففى سنة ١٩٠٣ ، كان مطلوباً بالحاح للإفادة

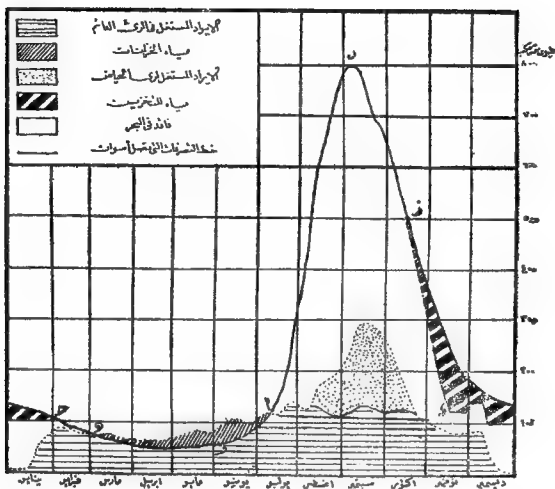
من حجم الماء الذى يخزن فى حوض الخزان أمام سد أسوان ، الذى كان العمل فيه جاريا فى نفس الوقت . ثم تم بعد ذلك بناء قناطر نجح حمادى وقناطر اسنا لزيادة مساحة الأرض المروية والمنزرعة . بل لعل بناء وتشغيل سد جبل الأولياء كان سببا فى تقوية قناطر أسبوط وتعليتها بلجهة التوسع فى الرى الدائم وزيادة مساحة المحاصيل . وجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه المرحلة التى بدأت فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، قد استمرت وتداخلت تداخلا تاما مع المرحلة التالية ، التى مارست مصر فيها سياسة التخزين السنوى . ذلك أن مجرد تسوية الإيراد السنوى بهذه الطريقة ، وتخزين بضعة مليارات من الأمطار المكعبة كان فى حاجة إلى تنظيم لضمان وصول المياه على مناسيب معقولة إلى الأرض المنزرعة .

### ثانيا - مرحلة التخزين السنوى وزيادة حجم الإيراد الصفى :

يمكن القول أن الأخذ بسياسة التخزين وتسوية الإيراد الطبيعى السنوى سجل بداية مرحلة خطيرة من مراحل الانقلاب الزراعى والثورة الهادفة إلى زيادة مساحة الأرض المنزرعة بصفة عامة ، وتلبية احتياجات مساحات جديدة تروى ربا دائما وتحقق زيادة فى مساحة المحاصيل وتنظيم الدورة الزراعية فيها . وجدير بالذكر أن نظام الدورة الزراعية كان قد استقر استقرارا تاما فى مساحات كبيرة ، وبات القطن الغلة الرئيسية التى لها كل السيادة فى تنظيم الدورة سواء كانت ثنائية أو ثلاثية . والمفهوم أن التخزين السنوى يكون بصفة عامة من أجل تسوية إيراد النيل من موسم إلى موسم آخر . ويعنى ذلك وضع حد أو التقليل - على الأقل - من أثر الذبذبة بالنقصان والزيادة التى تعرض لها مناسيب الجريان الطبيعى فى النيل .

ونود بهذه المناسبة أن نشير الى نظرية التخزين السنوى ، وإلقاء الاضواء على تسوية الإيراد المائى الطبيعى ، على النحو الذى يحققه التخزين فى أحواض التخزين أمام جسم السد فى أسوان وجبل الأولياء . ويمكن للباحث على ضوء الرسم البيانى التالى <sup>(١)</sup> الوقوف على عملية تسوية الإيراد من موسم إلى موسم آخر ، ويظهر من الرسم البيانى - لأول وهله - أن خط التصرفات الذى يعبر عن الإيراد الطبيعى للهر طول العام عند أسوان ، لا يكاد

(١) دكتور الشامى : مياه النيل دراسة موضوعية صفحة ٩٢ و ٩٣



(1) رسم بياني يوضح نظرية التخزين السنوي

يوفر كل المياه اللازمة للرى واحتياجات الزراعة في أثناء الشهور الخمسة من فبراير الى يونيو . ذلك أن الايراد المائي الطبيعي يكون محدودا وضئيلا . بل لعله يتناقص بشكل ملحوظ من شهر الى شهر آخر ، حتى يسجل النهاية الصغرى وأقل المناسيب في شهر مايو ويونيو من كل عام . واذا كانت صفة الايراد الطبيعي على المناسيب المنخفضة في الفترة الحرجة Critical Period لا تفي بكل الاحتياجات ، فإن الايراد الطبيعي فيما بعد شهر يوليو يسجل زيادة كبيرة على مناسيب عالية . ويزيد الايراد في هذه الفترة عن الاحتياجات على النحو الذى يبينه خط التصرفات المرموز له بالحروف ا - ب - ج في الرسم البياني .

ويوجه التخزين السنوي الى تسمية ذلك الايراد الضخم والفائض الكبير في أثناء الفترة من شهر أغسطس الى آخر يناير، بمحجز جزء من هذا الماء الزائد عن الحاجة ، والذي يمثله في الرسم البياني الجزء المرموز له بالحروف ز - د - ج ، ويكون المحجز في حوض

التخزين أمام جسم السد الكبير الذى يمتد في وادى النهر من جانب إلى جانب آخر ، ويعمل الى ارتفاع مناسب للحجز . ويمثل هذا الماء المخزون رصيда ، تضاف منه دفعات تطلق مع الايراد الطبيعى ، في كل شهر من شهور الفترة الحرجة ، على النحو الذى يبينه الجزء المرموز له بالحروف ا - و - هـ في الرسم البيانى . ويمكن للباحث أن يلاحظ أن أحجاما كبيرا من الماء والايراد المائى في شهور الفيضان وارتفاع المناسيب والذى يحدده الجزء المرموز له بالحروف ا - ب - د ، لا يمكن التحكم فيه أو حجزه . ذلك أنه يمثل المياه التى تزداد فيها نسبة المواد العالقة والرواسب الطبيعية ، والتي لا يمكن حجزها أو استخدامها في ملء حوض التخزين أمام جسم السد خشية الإطماء والتأثير المباشر على سعة الحوض في المدى الطويل ، أو بعد عدد من الفيضانات المتتالية . ويعنى ذلك أن هذا الحجم من الايراد المائى في موسم الفيضان يكون جريانه حرا . ويتحول جزء كبير من هذا الجريان الى فاقد في البحر المتوسط في أثناء شهور أغسطس وسبتمبر .

ومما يمكن من أمر فإن استخدام هذا الأسلوب من أساليب التخزين وتسوية الايراد كان معناه - كما قلنا - تعديلات هامة وحيوية في نظام المواسم الزراعية . ذلك أن التحكم في جزء من ايراد النهر وتخزينه وإطلاقه في الفترات المناسبة ، كان سبيلا لتحقيق الزيادة المطلوبة في حجم الإيراد المائى في الفترة الحرجة ، للوفاء باحتياجات الرى الدائم في مساحات كبيرة . ولعلنا نشير بهذه المناسبة إلى أن مساحة الأرض المنزرعة قد زادت بصفة عامة من ٤٩ مليون فدان في سنة ١٨٩٧ ، الى ٥٤ مليون فدان في سنة ١٩٠٧ . وكانت الزيادة البالغ قدرها حوالى نصف مليون فدان ، تمثل توسعا أقييا في المساحة المنزرعة ، كما كان تنظيم الدورة الزراعية على اعتبار الوفاء باحتياجات الرى في الفترة الحرجة ، يعنى التوسع الرأسى في انتاج المحاصيل وزيادة الغلة بصفة عامة . ذلك أن تشغيل سد أسوان في سنة ١٩٠٣ لأول مرة حقق زيادة في مساحة المحاصيل ، يمكن أن يدركها الباحث على ضوء المقارنة بين مساحة الأرض المنزرعة فعلا في سنة ١٩٠٧ ، والبالغ قدرها ٤٩ مليون فدان ، ومساحة المحاصيل في نفس السنة والبالغ قدرها حوالى ٧٦ مليون فدان ، وهذا معناه أن حوالى ٢٧ مليون فدان كانت تخضع لنظام الدورة الزراعية ، وتعطى أكثر من محصول واحد في السنة . وتظهر نتائج مماثلة ترتبت على تعلية سد أسوان في سنة ١٩٣٣ ، وتشغيل سد جبل الأولياء لأول مرة في سنة ١٩٣٧ وزيادة حجم الماء المخزون لتلبية الإحتياجات المتزايدة في الفترة الحرجة . وقد سجلت الأرض المنزرعة في سنة ١٩٤٧ زيادة طفيفة ،

بالقياس إلى مساحة الأرض المزروعة في سنة ١٩٣٧ ، حيث ارتفعت من حوالى ٥ مليون فدان إلى ٨.٥ مليون فدان ، على حين أن مساحة المحاصيل ازدادت من ٨.٣ مليون فدان في سنة ١٩٣٧ ، إلى حوالى ٩.١ مليون فدان في سنة ١٩٤٧ . وليس ثمة شك بعد ذلك في أهمية حجم الماء المخزن في تحقيق الزيادة الكبيرة في مساحة المحاصيل على أساس ممارسة الري الدائم ، ويمكن القول أن حوالى ٣ و ٣ مليون فدان على الأقل من المساحة المزروعة . كانت تروى ربا دائما وتخضع لنظام الدورة الزراعية ، وتعطى أكثر من محصول واحد في المواسم الزراعية الثلاث في السنة .

والمفهوم أن سد أسوان الذى تم تشغيله لأول مرة في سنة ١٩٠٣ ، وصارت تعليمته في سنة ١٩١٢ ، وتعليمته للمرة الثانية في سنة ١٩٣٣ . يخزن في حوض التخزين أمامه قنارا من الماء يبلغ خمسة مليارات من الأمطار المكعبة <sup>(١)</sup> أما سد جبل الأولياء على النيل الأبيض فان حوض التخزين أمامه يحقق خزن كمية أخرى تبلغ مقبرة عند أسوان ٢.٥ مليارات من الأمطار المكعبة . ويعنى ذلك أن سد جبل الأولياء وسد أسوان يحققان معا ٧.٥ مليارات من الأمطار المكعبة ، التى تضاف الى الإيراد الطبيعى لزيادة المناسيب من أجل الري الدائم وتحقيق مناولات الري الموضوعة بكل دقة للوفاء باحتياجات الزراعة في الفترة الحرجة . وعلى الرغم من ذلك كله فان التخزين السنوى الذى مارسته مصر والسودان كان يثير القلق في نفوس بعض الفئتين . ذلك أنهم كانوا يشعرون باستمرار بخطورة الاعتماد على هذا النوع من التخزين ، لأنه لا يحقق في نظرهم كل الرجاء . ويذكرون في هذا المجال أنه بمراجعة الأرقام الدالة على كل تصرفات النهر والإيراد في مواسم الفيضان في الثمانين سنة الماضية ، يظهر أنه قد يستحيل امتلاء أحواض التخزين في حوالى تسع سنين منها <sup>(٢)</sup> . ويات العجز الطارئ أو المحتمل في إيراد النهر في سنة من السنوات خطرا قد يبعد الفئتين ، ويعنى عجزا تاما من مجابهة الاحتياجات وتليبيا في الفترة الحرجة ، التالية للفيضان الشحيح . وكان لابد من دراسات مستفيضة عبيقة لمواجهة المستقبل ومتابعة زيادة مساحة الأرض المزروعة ومساحة المحاصيل .

ونود أن نشير الى ما كان متوقعا منذ سنة ١٩٤٦ من حيث عدم كفاية الإيراد المائى وماء التخزين للاحتياجات بعد سنة ١٩٥٠ ، والاستمرار في التوسع الزراعى . والمفهوم أن

Hurst. H. Black, E. q Simaika, Y. M. : The Nile Basin Vol VII p. 44-46 (1)

Simaika, Y. M. : Filling the Aswan Reservoir.

(٢)

ممارسة التوسع كان ضروريا لزيادة مساحة الأرض المنزرعة زيادة تتكافأ مع التطورات المتوقعة في زيادة عدد السكان . وكان تأليف لجنة خبراء مشروعات النيل سنة ١٩٤٨ (١) للدراسة البرامج المعدة لضبط النيل ومتابعة البحث في المراحل التالية للتوسع الزراعي بعد سنة ١٩٥٠ ، أمرا ضروريا تقتضيه السياسة الزراعية والرغبة الملحة في المحافظة على حد أدنى من الأرض المنزرعة كمنصب للفرد ، وقد أشارت اللجنة في تقريرها المفصل الى مساحات الأرض الصالحة للزراعة ، والتي يمكن أن تصل اليها رقعة الأرض المنزرعة في مصر في حالة تدبير حجم الماء الكافي لها ، وزيادة حصة مصر السنوية من مياه النيل . وتضمن هذه المساحات بعض الأراضي التي تتطلب مجهودا معيناً من أجل استصلاحها وإعدادها إعداداً تاماً للزراعة . وفيما يلي بيان عام بتلك المساحات بملايين الأفدنة (٢) :

الوصف	مصر السفلى	مصر العليا	المجموع	ملاحظات
مساحة الأرض الصالحة للزراعة	٤,١٨٨	٢,٦٦٢	٦,٨٥٠	
مساحة الأرض التي يمكن زراعتها على ارتفاع ١٠ أمتار	١,٥٦٠	—	١,٥٦٠	
مساحة الأرض التي يمكن زراعتها على ارتفاع ٢٠ متراً	—	٠,٦٧٠	٠,٦٧٠	تتطلب التجهيز والاستصلاح
نصف مساحة البحيرات الشمالية	٠,٢٧٠	—	٠,٢٧٠	
المساحة الكلية للأرض الصالحة للزراعة	٦,٠١٨	٣,٣٣٢	٩,٣٥٠	
مساحة المجرى وأرض النافع	٠,٤٢٤	٠,١٧٢	٠,٥٩٦	
مساحة أرض المبنى	٠,٠٣٨	٠,٠٣٦	٠,٠٧٤	في المدن والقرى
المساحة الكلية للأرض المستعملة في غير الزراعة	٠,٤٦٢	٠,٢٠٨	٠,٦٧٠	
المساحة الكلية	٦,٤٨٠	٣,٥٤٠	١٠,٠٢٠	

(١) كانت هذه اللجنة مشكلة من السادة المهندسين عبد القوى أحمد وحسين سرى وعثمان معزم .

(٢) تقرير لجنة الخبراء لسنة ١٩٤٩ صفحة ١٨

ويظهر من دراسة الأرقام في هذا الجملول أن المساحة التي قدرتها لجنة الخبراء مخصصاً منها مساحة أرض النافع والمباني تصل إلى حوالي ٩٥ مليون فدان . ويعبر هذا الرقم في نظرم على الأقل عن أقصى توسع ممكن في حدود الوادي التضي في الصعيد والأرض الطيبة في الدلتا وأطرافها الشمالية . ولما كانت المساحة المزروعة فعلاً في الوقت الحاضر تبلغ حوالي ٦٢ مليوناً من الأفدنة فقط ، فإن ذلك يعني إمكانية التوسع في حوالي ٣ ملايين من الأفدنة الجديدة . وقد أشارت اللجنة في دراستها وفي التقرير المقدم منها إلى أن تحقيق هذا التوسع الآتقي في المساحة المزروعة يتطلب مزيداً من الماء ، ورفض حصة مصر من الماء سنوياً وخاصة في أثناء الفترة الحرجة . كما أشارت إلى أهمية هذا التوسع وضرورة تحقيقه في أسرع وقت ممكن لمجابهة الزيادة الرتبية المنتظمة في عدد السكان ، وعلى اعتبار أن تلبية قطاع الزراعة وزيادة المساحة المزروعة وسيلة ملى للمحافظة على مستوى دخل الأفراد والدخل القومي بصفة عامة .

وبهنا بهذه المناسبة أن نعرف على التقديرات العامة لاحتياجات مصر من مياه النيل على ضوء ما عرضه الخبراء في تقريرهم ، وكل الدراسات الشاملة التي أجريت بشأن هذا الموضوع . هذا مع العلم بأنهم قد أدخلوا في حسابهم كل مراحل التوسع الآتقي في الأرض الصالحة للزراعة والقابلة للاستصلاح من جانب ، كما وضعوا في اعتبارهم كل العوامل المحيطة بالجريان المائى وطبيعة الإيراد المائى السنوى من الأحباس العليا الحشبية والاستوائية ، وحساب التصرفات في كل الأوقات من جانب آخر . وقد قدر الخبراء للمساحة المزروعة أن تتسع في المرحلة الأولى اتساعاً أقبيا في المساحات التي تصل بالرقعة المزروعة إلى حوالي ٨٥ مليوناً من الأفدنة ، ثم يزداد الاتساع الآتقي في مرحلة تالية إلى حوالي ١٠ مليوناً من الأفدنة . وقد أوصوا بسياسة مائية جديدة لتوفير حجم الحصة من الماء ، التي تقي باحتياجات التوسع في كل مرحلة من هاتين المرحلتين . ويبدو أنهم اتجهوا هذه الوجهة لأنهم أدركوا أن السياسة المائية الموضوعة في سنة ١٩٤٠ ، جاءت مبنية على قدرات غير صحيحة بالنسبة للنمو السكاني على الأقل . وقد جاء تقرير سنة ١٩٤٠<sup>(١)</sup> على أساس إحصاء

---

(١) راجع بحث المهندس حامد سليمان في سنة ١٩٤٧

السكان لسنة ١٩٣٧ — مقدرا للعمل الهندسى وتنظيم الجريان وزيادة حصة مصر من الماء أن يحافظ على مستوى نصاب الفرد من الأرض المزروعة بحوالى سبع قاريط . وجدير بالذكر أن أصحاب هذا التقرير قد وضعوا في اعتبارهم أن احتياجات مصر من ماء التخزين ستزداد من ٧٥٠ مليارا من الأمطار المكعبة ، بحققها تشغيل سد أسوان وسد جبل الأولياء إلى ١٨ مليارا من الأمطار للمكعبة في سنة ١٩٧٠ وقد اقترح هذا التقرير لسنة ١٩٤٠ توقف التوسع الأفقى الزراعى في سنة ١٩٧٧ ، عندما تبلغ مساحة الأرض المزروعة حوالى ٧٥٠ مليونا من الأفدنة . وأساس الخطأ في تقديرات مقررى السياسة المائية والتوسع الزراعى سنة ١٩٤٠ ، أنهم افترضوا وصول عدد السكان على أساس معدل زيادة طبيعية مقترض بنسبة ١.٤٪ في سنة ١٩٧٧ إلى حوالى ٢٥ مليون نسمة . ولكن لما صدرت نتائج تعداد سنة ١٩٤٧ ، تحطم هذا الرقم وذلك المعدل المقترض ، حيث قفز عدد السكان بمعدل زيادة سنوية بلغت ١.٩٪ إلى أكثر من ١٩ مليون نسمة .

وهكذا كان من الطبيعى أن تخرج لجنة الخبراء لسنة ١٩٤٩ الى رسم خطة مائية جديدة تلام مع الواقع الجديد من ناحية ، ومع احتمالات ازدياد معدلات النمو السكانية بعد اهتمام الحكومة بالخدمات الصحية والعمل على رفع مستوى المعيشة من ناحية أخرى . وقد استغرقت مجهودات لجنة الخبراء — كما قلنا — دراسات وافية للآثر وإيراده المائى ، و انتهت الى تحقيق شامل لكل احتياجات الزراعة والتوسع الزراعى المرتقب . وبين الجدول التالى بالتفصيل الحاجة الى الماء بمليارات الأمطار المكعبة للتوسع الزراعى الى مساحة ٨٥٠ مليون فدان ، ثم إلى ١٠ مليون فدان . وهذا الرقم الأخير في رأى لجنة الخبراء وكل الباحثين على وجه العموم أنهى توسع زراعى ممكن في كل من مصر العليا ومصر السفلى ، وعلى الهوامش المرتقعة على مناسيب تتراوح بين ١٠ و ٢٠ متراً .

ويمكن للباحث أن يدرك قيمة هذه الأرقام والتقديرات التى يوضحها هذا الجدول ، وأن يعرف على كل النتائج المترتبة عليها على ضوء عدد من الأمور .



الموسم	التاريخ	ري السراجل	ري الخيام	الاحتياجات المائية	مساحة ٨٥٠ مليون فدان	مساحة ١٠ مليون فدان
		ري	ري	ري	الري الدائم	الري الدائم
القيضان	١ - ٣١ أغسطس	١	١	٤٠	٨٠١	١٢١٣
	١ - ١٩ سبتمبر	١	١	٢٥	٥١	٧٨
	المجموع	٢	٢	٦٥	١٣٠٢	٢٠٠١
التخزين	٢٠ - ٣٠ سبتمبر	٥٠	-	١٠٣	٢٠٦	٣٠٩٥
	١ - ٣١ أكتوبر	١٥	-	-	٧٥	٨٠٨
	١ - ٣٠ نوفمبر	١٥	-	-	٥٤	٥٥٥
	١ - ٣١ ديسمبر	٥٠	-	-	٤٤	٤٤٥
	١ - ٣١ يناير	-	-	-	٣٠	٣٠
	المجموع	٤	-	١٠٣	٢٢٩	٢٤٠٦
الصيفي	١ - ٢٨ فبراير	-	-	-	٤٣	٤٣
	١ - ٣١ مارس	-	-	-	٤٤	٤٤
	١ - ٣٠ أبريل	-	-	-	٤٤	٤٤
	١ - ٣١ مايو	-	-	-	٦٠	٦٠
	١ - ٣٠ يونيو	-	-	-	٦٩	٦٩
	١ - ٣١ يوليو	-	-	-	٨٧	٨٧
	المجموع	-	-	-	٣٤٢	٤٣٢
الاحتياجات السنوية					٧٨٠٩	١٩١١

ويتعلق الأمر الأول بالفهم السليم للأرقام الدالة على كل الاحتياجات الفعلية في الوقت الحاضر ، وعلى اعتبار أن مساحة الأرض المزروعة في مصر ما زالت لا تتجاوز ٦٠٢ مليون فدان . وتشير تقارير الخبراء في هذا المجال الى أن جملة الاحتياجات لكل من مصر

والسودان تبلغ حوالى ٦٤ مليارا من الأمطار المكعبة فى السنة ، وأن توزيعها يكون على اعتبار أن حصة مصر تبلغ حوالى ٥٨٠٣ مليارا من الأمطار المكعبة ، وأن حصة السودان — مقدرة عند أسوان — تبلغ حوالى ٥٠٧ مليارا من الأمطار المكعبة سنويا<sup>(١)</sup> . والفهم أن جملة هذه الاحتياجات لا تقل عن متوسط حجم الإيراد الطبيعى للجريان النبلى طول العام ، ومع ذلك فإن المخطوطة تنجم عن علمنا بأن إيراد الفترة الحرجة لا يكاد يزيد فى المتوسط عن ١٣٠٥ مليارا من الأمطار المكعبة ، وأن أى توسع فى المساحة المزرعة يتطلب مزيدا من الماء . ذلك أن تسوية الإيراد السنوى فى الوقت الحاضر وتخزين سبع مليارات ونصف مليار من الأمطار المكعبة لصالح مصر ، يكاد يفى بالكاد بحاجة المساحة المزرعة فعلا الآن ، ولا يمكن التوسع الأتى فى مساحات جديدة دون زيادة الحصة السنوية من الماء فى الفترة الحرجة .

أما الأمر الثانى فيرتبط بالفهم السليم لعدم جدوى الأخذ بسياسة التخزين السنوى لتحقيق التوسع الكبير الأتى فى المساحة المزرعة فى مصر . ذلك أن سياسة التخزين السنوى اصطدمت بمحققة هامة مرتبطة باحتمالات العجز فى الفيضان فى سنة من السنوات ، وعدم الوفاء بالحجم الكافى لى تمثلا الخزانات . ويمكن القول أن هذا يرجع إلى العلم بالأرقام التى تعبر

(١) احتياجات مصر الحالية لزراعة ٦٠٢ مليون فدان يصير توزيعها والوفاء بها على النحو التالى :

( أ )	إحتياجات عند اسوان فى موسم الفيضان	١٣٠٣ مليارا
(ب)	الاحتياجات عند اسوان لى الخزانات من اكتوبر الى يناير	١٧٠ مليارا
(ج)	الاحتياجات عند اسوان فى الفترة الحرجة من فبراير الى يونيو	٢١٠٢ مليارا
(د)	الاحتياجات عند اسوان فى الفترة الحرجة من ١ يوليو الى ٣١ يوليو	٦٨ مليارا
	جملة الاحتياجات السنوية لمصر	٥٨٠٣ مليارا

أما احتياجات السودان فيصير توزيعها على النحو التالى :

( أ )	الاحتياجات فى الفترة الحرجة من يناير الى يوليو	٢٨ مليارا
(ب)	الاحتياجات فى الفترة من يوليو الى ديسمبر	٤٤ مليارا
	جملة الاحتياجات عند سنار	٧٢ مليارا
	جملة الاحتياجات مقدرة عند اسوان	٥٧ مليارا
	جملة الاحتياجات لكل من مصر والسودان	$٥٨٠٣ + ٥٢ = ٦٣٠٥$ مليارا

عن متوسط الإيراد النهري في السبعين أو الثمانين سنة الماضية ، وتعرض الإيراد السنوي في بعض السنوات للتدهور الشديد على النحو الذي حدث في سنة ١٩١٣ ، حيث سجل الإيراد النيل رقما يبلغ ٤٥ مليارات من الأمطار المكعبة فقط . وهذا الرقم الخطير لا يمكن مهما بذلت الجهود في سبيل تنمية الإيراد ، أن يفى بالاحتياجات المائية السنوية بالنسبة لمصر وحدها . أما الأرقام التي تعبر عن متوسط الإيراد الطبيعي للفترة من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٩٨ ، وهي ١٠٣ مليارات من الأمطار المكعبة ، ومتوسط الإيراد الطبيعي للفترة من سنة ١٨٩٩ ، إلى سنة ١٩٣٦ ، وهي ٨٣ مليارات من الأمطار المكعبة ، فإنها تظهر من ناحية أخرى وتعبّر عن عدم الوفاء في حالة استخدام التخزين للسنوي بالاحتياجات الكاملة للتوسع الآتقي في المساحة المزروعة في مصر إلى حوالي ١٠ مليوناً من الأفدنة . ذلك أن الخبراء أشاروا إلى أن الاحتياجات المائية المطلوبة لهذا التوسع في مصر تبلغ ٩١١ مليارات من الأمطار المكعبة . وهذا الرقم يزيد عن متوسط الإيراد النهري الطبيعي للفترة من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٩٣٦ (١) .

وهكذا كان من الضروري أن يتجه التفكير السليم في اتجاهين هامين . يحقق الاتجاه الأول مزيداً من الاطمئنان على الاحتياجات والوفاء بها ، ويتحقق الثاني تقليل حجم الفاقد من الإيراد الطبيعي للنيل ، وزيادة إيراداته بصفة عامة . ويعني ذلك أن التفكير والبحث تقتضي ضرورة الاعتماد على التخزين المستمر Over Year Storage ، لتسوية الإيراد الطبيعي للنهر على عدد كبير من السنوات . كما كان يعني مجابهة الفاقد من ماء النهر الوارد من الأحباس الإستوائية العليا ، وبصير ضياعه في مستنقعات بحر الجبل . وقد سار البحث في أمر مشروعات كثيرة ، بعضها له القدرة على ممارسة التخزين المستمر ، كمشروع التخزين المستمر في بحيرة فكتوريا وبحيرة البوت وبحيرة تانا ، وفي بعضها الآخر بالتخزين السنوي لمصر كمشروع خزان شلال دال ، ومشروع خزان الشلال الثاني ، ومشروع خزان مروى ، أو السودان كمشروع خزان الرصيرص ومشروع خزان خشم القربة ومشروع خزان غبيللا . كما اهتمت الدراسات والبحث بأمر الفاقد في مستنقعات بحر الجبل وتوفير قدرات من الماء الضائع الذي يقدره هرسث بحوالى ٣٠ ملياراً من الأمطار المكعبة سنوياً . (٢) ولعلنا

(١) الشامي مياه النيل صفحة ١٢١ و ١٢٢

(٢) هرسث موجز عن حوض النيل صفحة ٧٥

نشير الى أن كل هذه المشروعات كانت تركز على إيراد النهر من المنابع الاستوائية ، وتعمل على زيادة حجمه وتسوية جريانه للوفاء بكل الاحتياجات . ويعنى ذلك من ناحية أخرى صرف النظر كلية عن معظم الإيراد الموسمي الذي يضيع معظمه في البحر في الشهور الأولى من الفيضان في أغسطس وسبتمبر . ذلك أنه لا يمكن التحكم فيه نتيجة لارتفاع نسبة الرواسب والمواد العالقة به والخوف من تأثير الإطماء على سعة أحواض التخزين السنوي . وهذا معناه خسارة كبيرة أخرى وفقد عظيم لمعظم الإيراد المائي الموسمي ، الذي يمثل حوالي ٦٠ ٪ من الإيراد الطبيعي السنوي للنيل .

ومها يمكن من أمر فإن البحث فيما حول كل هذه الأمور والرغبة الملحة في التوسع الزراعي في مصر لم تنته إلى نتيجة إيجابية ، حتى صار التفكير في إنشاء السد العالي ، وتحقيق التخزين المستمر وزيادة حجم الماء والحصة السنوية لمصر ، وبالتالي تحقيق التوسع في مساحات جديدة لمجابهة الزيادة في عدد السكان .

### (ثالثا) مرحلة التخزين المستمر وإنشاء السد العالي :

قلنا أن الاتجاه إلى التخزين المستمر وتسوية الإيراد الطبيعي لمدة عدد كبير من السنوات قد اختلفت جهتا عظيمتا من حيث الدراسة والمباحث المائية ، التي قامت بها مصر على الطبيعة على طول امتداد النيل وروافده . وكانت هذه الدراسات المستمرة من أجل البحث عن الموقع أو المواقع الصالحة ، للوفاء بأهداف هذا النمط من أنماط التخزين . ونود أن نذكر أن من أهم النتائج التي صار اتفاق الفنين والمختصين عليها ، هو البحث عن الموقع الملائم للتخزين المستمر شمال النقطة التي يقترن عندها النيل الأزرق والعبارة بالنيل الرئيسي ، وذلك على اعتبار تخزين بعض الماء الذي يمثل فاقدًا كبيرًا في موسم الفيضان . وقد دلت الأبحاث الفنية قبل ثورة ٢٣ يوليو على أنه لا يكاد يوجد على النيل الرئيسي من فم نهر العبارة إلى موقع وادى حلفا أى موقع مناسب أو صالح لإنشاء السد العظيم الذي يحقق أهداف التخزين المستمر في مجرى النهر وواديه الضيق . هذا وقد دلت الأبحاث من ناحية أخرى على أن نسبة الفاقد بالتبخر في أى حوض من أحواض التخزين التي تستخدم في حدود هذه المسافة المذكورة ، تزيد عن نسبة الفاقد بالتبخر في حوض التخزين أمام جسم سد أسوان الحالي . وتبلغ نسبة هذا الفاقد بالتبخر بالنسبة لحوض خزان أسوان حوالي ٧ ٪ من مكعب التخزين الكلي ، على حين أن هذه النسبة تتراوح بالنسبة للمواقع الأخرى

بين حلفا وعطبرة بين ٠.٨٥/ و ١٠٪ من مكعب التخزين السنوى ونحو ١٨ ٪  
بالنسبة للتخزين المستمر (١) .

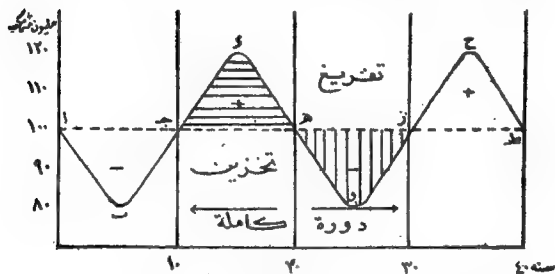
ومع ذلك فقد وجدت فكرة التخزين المستمر في وادى النهر نفسه بعد الثورة ترحيبا شديدا ، لأن مصر كانت ترغب برغبة حقيقية في عدم الاعتماد على التخزين المستمر في خارج حدودها السياسية ، حتى لا يستغل كأداة للضغط عليها من وجهتى النظر الاقتصادية والسياسية معا وقيل في مجال تفضيل الأخذ بهذه السياسة الجديدة أن التخزين المستمر في وادى النهر في داخل الأرض المصرية من شأنه التحكم والسيطرة على مياه النيل بطريقة تضمن لها زيادة كبيرة تصل بالحصة السنوية لمصر الى ٧٠ مليارا من الأمتار المكعبة ، على حين أن التخزين المستمر بالنسبة للمشروعات الأخرى في الهضبة الامتوائية لاتضمن بالنسبة لاحتياجات مصر والسودان معا مقطرة عند اسوان ، أكثر من ٦٦ مليارا من الأمتار المكعبة . وهكذا كانت فكرة السد العالى التى ظهرت لأول مرة في نوفمبر سنة ١٩٥١ في بحث صغير اعده وكتبه مستر اديان دانيتوس ، محققة للكمال وكل الأهداف الرامية الى تحقيق حجم كبير من الماء من أجل التوسع الأتقى في المساحة المزروعة وزيادة مساحة المحاصيل وتعميم الرى الدائم . ونود قيل الاشارة الى هذا المشروع الضخم والتعريف به بأهميته البالغة في تحقيق التوسع الأتقى والرأسى فى الأرض المزروعة ، أن نتحدث عن نظرية التخزين المستمر وتسوية الايراد المائى النيل لعدة سنوات .

والمقصود من ممارسة التخزين المستمر هو تسوية الايراد الطبيعى لعدد كبير من السنوات تسوية يكون من شأنها أن نضع حتما للذبذبة التى تطرأ على الايراد الطبيعى من سنة إلى سنة أخرى . ويمكن القول إن احتمال الذبذبة فى الإيراد الطبيعى لنهر النيل بالزيادة أو بالنقصان كبير بشكل ملحوظ . ذلك أن الايراد الطبيعى للسنة يتراوح بين نهاية صغرى تقدر بحوالى ٦٥ مليارا من الأمتار المكعبة ، ونهاية عظمى تقدر بحوالى ١٣٠ مليارا من الأمتار المكعبة . بل لعل بعض السنوات الشاذة الطارئة التى يسجل الايراد الطبيعى فيها هبوطا خطيرا ، تكون شحيحة بحيث يتدهور الايراد السنوى الى ٤٥ مليارا من الأمتار المكعبة فقط (٢) . وعندئذ يكون الخطر عتقا وجسما ،

(١) تقرير مجلس الانتاج القومى لسنة ١٩٥٥ صفحة ١٢٩ و ١٣٠

(٢) سجل هذا الايراد الطبيعى في سنة ١٩١٣ ، حيث كان النيل شحيحا الى ابعد حدود الشح .

لأن هذا الرقم يقل بشكل ملحوظ عن حجم الاحتياجات المائية اللازمة للرى في كل من مصر والسودان في الوقت الحاضر . وهكذا يمكن القول أن التخزين المستمر لن يؤدي إلى زيادة وتسوية الإيراد الطبيعي والاستفادة منه في زيادة حصة مصر وحصة السودان لتابعة التوسع في الأرض المزرعة خصب ، بل لعلة الوسيلة المثلى لوضع حد لكل خطر محتمل حدوثه بشأن الذبذبة التي تصل تقديراً إلى حوالي ٥٠ ٪ بالزيادة ، أو بالنقصان ، بالنسبة لم توسط حجم الإيراد الطبيعي السنوى .



## كروكي لبيان نظام التخزين المستمر

الرسم البياني رقم ( ٢ )

ويمكن للباحث أن يعتمد على الرسم البياني (٢) للتعرف على نظرية التخزين المستمر ، التي تقوم على تسوية الإيراد الطبيعي لعدة سنوات وحجز كل المياه الزائدة عن الاحتياجات في سنوات الزيادة للوفاء بالاحتياجات في بعض السنوات التي يتميز الإيراد الطبيعي فيها بالنقصان . وبمثل الخط الرموز له بالحروف ( ا ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ط ) في الرسم البياني خط الإيراد الطبيعي للهر في أثناء فترة طويلة تستغرق أربعين سنة كاملة . ولعل من الواضح أن التصرف من الإيراد الطبيعي يتذبذب بين نهاية صفرى قدرها ٨٠ مليوناً من الأمطار المكعبة في اليوم الواحد ، ونهاية عظمى قدرها ١٢٠ مليوناً من الأمطار المكعبة في اليوم الواحد . وتكون هذه الذبذبة واضحة غاية الوضوح وهي منسوبة للخط الذي يحقق الاحتياجات ، والذي يرمز له في الرسم البياني بالخط المنتظم

المستقيم الممتد من أ إلى ط ، ويسجل تصرفا يبلغ قدره ١٠٠ مليونا من الامتار المكعبة في اليوم الواحد . ويظهر من مقارنة خط التصرفات الطبيعية بخط الاحتياجات أن هناك مرحلة أو فترة تحددها على الرسم البياني المثالي الحروف ج ، د ، هـ ، و ، ز ، تمثل دورة كاملة هي التي يتناولها التخزين المستمر بالتسوية . ونحن اذا ما بدأنا من النقطة ج ، نلاحظ أن الإيراد الطبيعي يمتشي تماما مع معدل الاحتياجات ، ولكنه يأخذ بعد ذلك في الارتفاع والزيادة الى أن يصل الى نهاية عظمى عند النقطة د . ثم نلاحظ بعد ذلك الارتفاع إلى النهاية العظمى هبوطا الى النقطة هـ ، وهي التي تمتشي فيها تصرفات الإيراد الطبيعي مرة أخرى مع معدل الاحتياجات للزراعة . ويعنى ذلك على كل حال أنه في هذه الفترة تكون الفرض مواتية لزيادته في حجم الإيراد الطبيعي تفاوتت من سنة الى سنة أخرى ولكنه يصل في سنة من السنوات الى قمة تمثل نهاية عظمى . ويلاحظ الباحث بعد ذلك هبوطا واستمرارا في الهبوط يسجله الإيراد الطبيعي فيما بعد النقطة هـ ، حتى يصل الهبوط الى نهاية صغرى عند النقطة و . ويظهر الاعتدال والعودة الى الزيادة الى أن تصبح النقطة ز معبرة عن وصول التصرف من الإيراد الطبيعي الى الحد الذي يتبادل فيه مع معدل الاحتياجات . وهذه الفترة التي تستغرق هبوط التصرف من الإيراد الطبيعي عن المعدل ، من النقطة هـ الى نهاية صغرى يرمز لها الحرف و ، وعودة الى المعدل في النقطة ز ، تسجل عجزا في الإيراد الطبيعي السنوي في كل سنة من سنواتها ، وبحيث ينخفض بل درجات متفاوتة عن المعدلات ، وكانت النقطة د رمزا للقمة أو للنهاية العظمى ، قد استغرقت عشر سنوات كاملة ، وأن فترة الشح والتقصان التي يسجل الإيراد الطبيعي فيها نقصانا عن المعدلات وكانت النقطة ز رمزا للنهاية الصغرى ، وقد استغرقت عشر سنوات أخرى ، فإن ذلك يعنى بوضوح أن الجزء على الرسم البياني المرموز له بالحروف ج ، د ، هـ ، يسجل الزيادة والفائض عن المعدلات ، على حين أن الجزء المرموز له بالحروف هـ ، و ، ز يسجل الشح والتقصان عن المعدلات ، ويمكن أن يؤدي التخزين المستمر في موقع من المواقع الصالحة من وجهة النظر الفنية إلى تسوية الإيراد الطبيعي ، تسوية تكفل تخفيف الاحتياجات فيما بين فترتي الشح والزيادة . ذلك أن التخزين المستمر سوف يمحى ويخزن قمة الماء الزائدة عن معدلات الاحتياجات ، والتي يمثلها على الرسم ج ، د ، هـ ، لكي تكون رصيدا يصير صرفه وإضافته إلى الإيراد الطبيعي ، لتعويض العجز والشح في الفترة التالية ، التي يسجل الإيراد الطبيعي فيها نقصانا عن معدل الاحتياجات <sup>(١)</sup> .

وكانت مصر ترى ضرورة الأخذ بسياسة التخزين المستمر في الموقع الصالح والمناسب ،  
الذى يوفر لها كل الاحتياجات المائية ، ويقلل القرض أمام الذبذبة الكبيرة في حجم  
الإيراد الطبيعي ، ويكفل لها سبل التوسع الأفقى والرأسى في مساحات جديدة تسد حاجة  
السكان المتزايدة بمعدل كبير . وقد أشرنا الى الاتجاه نحو تنفيذ مشروع السد العالى ،  
لاعتبارات كثيرة متعددة . ونذكر منها بصفة خاصة الإعتبارات المرتبطة بالموقع الجغرافى  
وقرب حوض التخزين من أرض مصر ، بالشكل الذى يضمن للزراعة سرعة الاستجابة ،  
كما يضمن الاستفادة من مياهه على الوجه المطلوب . ونحن على كل حال لن ندخل في سرد  
تفاصيل كثيرة حول تنفيذ مشروع السد العالى ، سواء كانت تتعلق بمجرد الفكرة في بداية  
المراحل المبكرة من حيث الإعداد والتجهيز والتصميم والتنويل ، أو كانت تتعلق بالبحث  
والدراسات من أجل الإنشاء والعمل ووضع خطة التشغيل . ومع ذلك فلا يفوتنا أن نقرر  
ضخامة العمل الذى يعبر عن كل معنى من معانى قوة العزيمة والتصميم ، بقدر ما يعبر عن  
الأمل المرقب بشأن التوسع الأفقى والرأسى في مساحات جديدة من الأرض المزروعة .  
وتتمة قطاع الزراعة . بل لعلنا نسجل في هذا المجال حقيقة الارتباط الوثيق بينه وبين  
العمل الوطنى القومى ، حتى بات رمزاً على كفاح شعب كبير ، من أجل وضع كل الطاقات  
والقدرات في سبيل تطوير الزراعة والمضى بالثورة الزراعية وزيادة مساحة الأرض المزروعة  
من ناحية ، وتتمة قطاع الصناعة على اعتبار أنها سوف تسجد في الكهرباء الناجمة عن استغلال  
تدفق الماء منه ، قوة محركة هائلة من ناحية أخرى . ويعنى ذلك أنه تعبير واقعى عن المضى  
بالثورة الزراعية والاقبال الزراعى إلى قمة جديدة ، تسجل الجهد في سبيل رفع مستوى  
للعيشة والدخل القومى .

ونحن عند ما نهتم بدراسة السد العالى من وجهة النظر الموضوعية ، يكفينا في هذا  
المجال أن نتعرف على سعة حوض التخزين وتشغيله لكن نترك حجم الماء ، أو الحصص  
التي يحقها لمصر هذا النوع من التخزين المستمر من ناحية . كما يهتما من ناحية أخرى  
أن نتعرف على كل الآثار الاقتصادية التى سوف تتحقق بعد وصول العمل فيه والتشغيل  
إلى نهاية الشوط . ويعنى ذلك إننا لن نجد الفرصة المناسبة أو المجال الذى يسمح لنا بالتعريف  
بالصميم المعتمد للمشروع أو بكل الخطوات الإيجابية في مجال الإنشاء والبناء ، ووضع جسم  
السد موضع التنفيذ الفعلى .

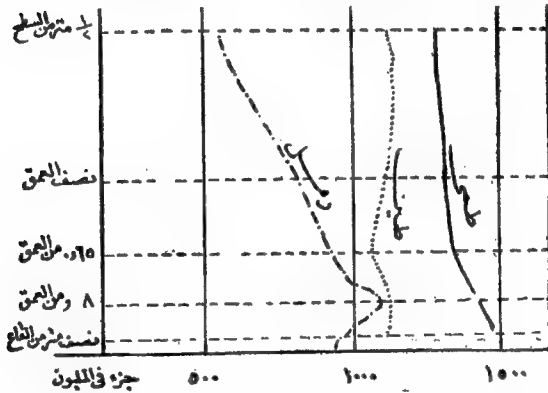


وقد استغرقت عملية تقدير سعة حوض التخزين أمام جسم السد العالي عملاً شاقاً ، وخبرة فنية عالية . واشتمل العمل على مساحة وتحقيق ١٧ قطاعاً عرضياً في الوادي ، في المسافة فيما بين أسوان وشلال دال جنوب حلفا . وكان من حساب النتائج أن سطح حوض التخزين في هذه المسافة يصل إلى حوالي ٣٣٠٠ كيلو متراً مربعا . وكان حساب الفاقد بالتبخر مبنياً على اعتبار أن متوسط الفاقد في السنة من سطح هذا الحوض ، يبلغ حوالي ١٨ متراً . وقد قدر هذا الفاقد بحوالي ٩ مليارات من الأمطار المكعبة . وأسهمت الدراسات المبينة على المساحة الهيدروجرافية ، ودراسات أخرى مرتبطة بالمساحة الجوية في تقديم كل البيانات اللازمة لتقدير سعة حوض التخزين . ويمكن القول إنها سعة كبيرة للغاية ، وإنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، هي السعة للتخزين المفقود ، والسعة للتخزين الحى ، والسعة المعمول حسابها الوفاية من الفيضان وارتفاع المناسيب .

والمقصود بالسعة للتخزين المفقود هو حجم القطاع الذى سوف يتعرض في المدى الطويل، لإرساب المواد العالقة بالماء كالرمل الناعم والحشن والملت والطين . وقد قدرت هذه السعة بحوالى ٣٠ مليارات من الأمطار المكعبة . وتحقق هذه السعة عند منسوب ١٤٧ متراً أمام جسم السد . ويقرر الفنيون القطاع الذى يشمل هذه السعة ، على اعتبار أنه يكفي لإرساب وتراكم المواد العالقة في مدة تبلغ حوالى ٥٠٠ سنة . وذلك على أساس أن معدل الإرساب المتوقع سوف يكون حوالى ٦٠ مليوناً من الأمطار المكعبة في السنة الواحدة . ونود بهذه المناسبة أن نشير إلى أن الدراسات الخاصة بحساب المواد العالقة قد استغرقت وقتاً طويلاً وجهداً عظيماً ، وخاصة لأنها اتصلت دائماً بتشغيل سد أسوان والحجز عليه ، ونوقيت التواريخ المناسبة لبداية مراحل الحجز والتخزين : وأثبتت هذه الدراسات والمباحث أن نسبة المواد العالقة في مياه النيل ، تبلغ في موسم انخفاض المناسيب ٤٠٠ جزء في المليون ، ثم تزداد في موسم الفيضان إلى ٤٠٠٠ جزء في المليون . وقد نفر الفنيون كمية الطمي والرواسب والمواد العالقة بالماء المرة بالموقع بحوالى ٣ ملايين من الأطنان في اليوم الواحد ، أو ما يعادل إرساب طبقة يبلغ سمكها ٤ المليمترات على قاع حوض التخزين . ويظن أن الحجم من المواد العالقة الذى يمر بوادى حلفا في السنة الكاملة يزن حوالى ١١٠ مليوناً من الأطنان في المتوسط<sup>(١)</sup> . ويضاف حجم هذه المواد العالقة

(١) وزن المتر المكعب من المواد العالقة بماء النيل حوالى ١٨ طناً .

كما تختلف أقطارها ؛ لكي تتراوح بين الرمل الخشن والرمل الناعم والطين والغرين <sup>(١)</sup> . ويمكن الاعتماد على الرسم البياني التالي لبيان توزيع المواد العالقة في القطاع الرأسى للجريان المائى فيما بين حلفا وأسوان . وجدير بالذكر أن تشير إلى إن معظم هذه المواد العالقة تصل في شهور الفيضان ، ويمثل الرمل الناعم ٣٠٪ من هذه الحمولة ، ويمثل الطين حوالى ٣٠٪ أخرى ، على حين إن نسبة الطمي ترتفع قليلا لكي تمثل ٤٠٪ من مجموع الحجم الكلى للحمولة العالقة <sup>(٢)</sup> . ومما يكن من أمر فإن السعة المحسوبة للتخزين المقنود كبيرة ، ويكفى أن ندرك إنها سوف تستغرق خمسمائة سنة قبل أن تمتلأ بالرواسب تماما ، وتأثر تبعا لذلك السعة الأساسية للتخزين الحى - وليس ثمة شك بعد ذلك فى أن المعلومات عن الإطماء ما زالت فى حاجة إلى المزيد من البحث والدراسة والتحقق .



رسم بياني يوضح توزيع المواد العالقة فى الجريان الطبيعى بين حلفا وأسوان

وإذا انتقلنا الى الحديث عن السعة المقدرة للتخزين الحى ، فيجب علينا أن نشير الى إنها مقدرة على اعتبار أن حجم الماء فيها مطلوب منه الوفاء باحتياجات الرى والملاحة

Selim, M.A. ; The High Dam Project P. 119 (١)

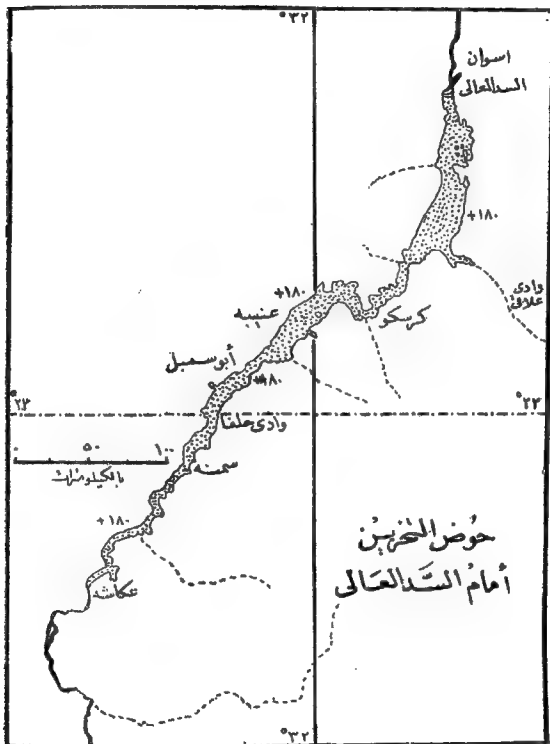
Simaiika, Y.M ; The Suspended Matter in the Nile, (٢)

في كل المساحات المنزرعة في الوقت الحاضر ، والتوسع في مساحات جديدة تزداد بها رفعة الأرض المنزرعة ومساحة المحاصيل . وتبلغ هذه السعة المقدرة للتخزين إلى حوالي ٧٠ ملياراً من الأمتار المكعبة في السنة . والمفهوم أن هذه السعة بحقتها حجم الماء الذي يبحر في حوض التخزين بين منسوبي ١٤٧ متراً و ١٧٥ متراً ، أمام جسم السد العظيم . ولعلنا نتوقف عند هذه النقطة ، لكي نشير إلى أن هذا القدر من الماء الرصيد للاحتياجات بعد اتمام البناء والتشغيل الكامل ، يزيد بحوالي ١٢ ملياراً من الأمتار المكعبة عن حصة مصر التي تستخدم الآن ، وقبل تشغيل السد العالي . وهذا القدر الزائد في حصة مصر يحقق الفرصة الكاملة للتوسع في مساحة الأرض المنزرعة إلى حوالي ٨ ملايين من الأفدنة ، التي تروى رياً دائماً ، وتغطي أكثر من محصول واحد في السنة — ومع ذلك فإن هذه الحصة المتوقعة تقل عن الحصة المقدرة بواسطة لجنة خبراء مشروعات النيل لسنة ١٩٤٩ ، للتوسع في مساحات تصل بالأرض المنزرعة إلى حوالي ٨٠٥ مليون فدان .

أما السعة المقدرة للتخزين من أجل الوقاية من الفيضانات وأخطار ارتفاع المناسيب ، فإنها تؤدي إلى زيادة المنسوب الذي يصير الحجز عليه أمام جسم السد العالي ، في حوض التخزين زيادة كبيرة . وقد قدرت هذه السعة بحوالي ٣٠ ملياراً من الأمتار المكعبة ، على اعتبار أن حجم الإيراد المائي في الفيضان العالي الخطير ، لا يمكن أن يتطلب أو أن يستغرق أكثر من هذه السعة . ويمكن القول أن تحقيق هذه السعة يتطلب الارتفاع بمنسوب الحجز أو التخزين ، إلى ١٨٢ أمام جسم السد . ويعني ذلك أن سعة التخزين للوقاية من الفيضانات بكافة الاحتمالات ، تم بين منسوبي ١٧٥ متراً و ١٨٢ متراً . ونكرر القول بشأن هذه السعة ، فنذكر إنها محسوبة على اعتبار أنها تحقق الوقاية من الفيضانات في أخطر حالاتها ، وعلى اعتبار أن أقصى تصرف يمكن أن يحقق هذه الوقاية في سنوات الفيضانات العالية ، هو ٥٠٠ مليوناً من الأمتار المكعبة في اليوم الواحد .

ومهما يكن من أمر فإن سعة حوض التخزين أمام جسم السد العالي سوف تصل إلى ١٣٠ ملياراً من الأمتار المكعبة . وتشمل هذه السعة الكلية ٣٠ ملياراً كسعة للتخزين المفقود ، و ٧٠ ملياراً كسعة للتخزين الحثي ، مضافاً إليها ٣٠ ملياراً كسعة لتحقيق الوقاية من خطر الفيضانات في موسم ارتفاع المناسيب . وتحقيق هذه السعة الضخمة — كما ذكرنا — على اعتبار الوصول بالحجز إلى منسوب ١٨٢ متراً أمام جسم السد ، وعلى اعتبار أن الفاقد بالتبخر ، يبلغ قدره يتراوح بين ١٠ و ٩ مليارات من الأمتار المكعبة سنوياً . وتشير تقارير

الحجراء الفنين إلى أن امتلاء حوض التخزين إلى السعة الكاملة له والوصول إلى منسوب ١٨٢ مترا أمام جسم السد ، سوف يستغرق خمس سنوات على الأقل ، وبحيث يكون الإيراد المائي الطبيعي في كل سنة منها عاديا وغير شحيح . ويعنى ذلك إن الزيادة في حجم الإيراد المائي ، وخاصة في موسم الفيضان قد تعجل بامتلاء حوض التخزين ، كما أن التدهور وتوالي الفيضانات المنخفضة ، قد يؤدي إلى طول الفترة اللازمة لذلك .



والمفهوم أن تشغيل السد العالي وفق الخطة الموضوعة تنفيذا كاملا ، لن يحقق إلا بعد أن يتأهل حوض التخزين تماما في الفترة المقدرة . ويخضع التشغيل الكامل لخطة مرسومة بدقة بالغة (١) ، وتقسّم السنة إلى قسمين متباينين تماما . ويشمل القسم الأول من السنة فترة تستغرق ستة أشهر من أغسطس إلى نهاية يناير ، وهي الفترة المعروفة بفترة الملء . والمفهوم أن مياه الفيضان تصل خلال هذه الفترة ، ويصير حجز المياه ، ولا يسمح بتمرير أكثر من ٥٠٠ مليوناً من الأمطار المكعبة في اليوم الواحد من الاتفاق الجانبية . هذا على اعتبار أن هذا الصرف اليومي ، يفي تماما بكل الاحتياجات اللازمة للزراعة والملاحة ، وفق الخطة المرسومة للمناوبات التي تستخدم في ري الأرض ردا دائما . ويستغرق القسم الثاني من السنة فترة أخرى ، تبدأ من شهر فبراير إلى نهاية شهر يونيو . ويكون الصرف في هذه الفترة خاضعا لنظام معين ، يحقق الاحتياجات للزراعة ونظام المناوبات في الري الدائم ، وزراعة المحاصيل الصيفية . هذا ويلاحظ أن خطة التشغيل تقضى بأن يحقق في نهاية يوليو من كل عام صرف كل الماء في حوض التخزين فوق منسوب ١٧٥ مترا ، على اعتبار أن الاستعداد لاستقبال حجم الماء الكبير من الفيضان التالي يستلزم هذا التفريغ .

والآن بعد أن ألقينا بعض الأضواء على السد العالي ، وقيمته الكبرى كبداية ضخمة لتحقيق التخزين المستمر وتسوية الإيراد الطبيعي لعدة سنوات ، نود أن نتعرف على أهميته وقيمته الحقيقية من وجهة النظر الاقتصادية البحتة . وقد أشرنا في أكثر من موضع من هذا البحث ، الى التناقض الشديد الواضح بين معدلات الزيادة الطبيعية في السكان من ناحية ، وبين معدلات الزيادة في مساحة الأرض المزروعة والانتاج الزراعي بصفة عامة من ناحية أخرى . وذكرنا أن في ذلك تعيدا صريحا عن عدم التناقص بين النمو السكاني والنمو الاقتصادي في أم وأخطر قطاعاته ، الأمر الذي يؤدي بالضرورة الى هبوط خطير في نصيب الفرد من المساحة المزروعة ، وتدهور حقيق في دخل الفرد والدخل القومي بصورة عامة . وهذا معناه من وجهة النظر الاقتصادية تدهورا خطيرا في مستوى المعيشة . ولا بد أن تصور بعد ذلك كله أن الأخذ بكل الوسائل التي انتهت الى وضع خطة إنشاء السد موضع التنفيذ ، من شأنها أن تحقق كسبا في ميدان المحاولات المجدبة من أجل تنمية الانتاج بقطاعاته المختلفة ، تنمية أقيية ورأسية ، ووضع حد لصفة التناقص وعدم التناقص بين النمو

---

(١) كتاب المجلس الدائم لتنمية الانتاج القومي لسنة ١٩٥٥ صفحة ١٣٩

السكاني والنمو الاقتصادي ، وضمان عدم التدهور في مستوى المعيشة . وليس ثمة شك في أن السد العالي سوف يؤدي بالضرورة الى نتائج إيجابية في تنمية قطاعين من قطاعات الإنتاج وهما قطاع الزراعة وقطاع الصناعة .

ونذكر في مجال الحديث عن أهمية السد العالي من وجهة النظر الاقتصادية بالنسبة لقطاع الزراعة<sup>(١)</sup> والإنتاج الزراعي ، أن حجم الماء أو الحصة التي سوف يحققها للوفاء بالاحتياجات تكون كفيلاً بتحقيق نمو وتوسع في الزراعة على المستويين الأدنى والرأسي في وقت واحد . والمفهوم أن تقرير لجنة خبراء مشروعات النيل لسنة ١٩٤٩ ، قد أورد جدولاً يتضمن احتياجات مصر من الإيراد المائي للتوسع الزراعي وزيادة مساحة الأرض المزروعة فعلاً . وقد حددت اللجنة بمليارات الأمتار المكعبة الأرقام اللازمة للوصول بمساحة الأرض المزروعة الى ٨٥٠ مليوناً من الأفدنة أو الى ١٠ ملايين فدان . وروعت الدقة البالغة في تقدير هذه الحصة ، على اعتبار حاجة الفدان الواحد في مساحات الري الدائم إلى حوالي ٨٠٠٠ متراً مكعباً في السنة . ويعني ذلك أنها وضعت التقدير على اعتبار تحويل كل الأرض المزروعة إلى الري الدائم ، واستصلاح مساحات أخرى جديدة تعاف إلى رقعة الأرض المزروعة . وليس ثمة شك في أن وضع السد العالي موضع التنفيذ يعتبر خطوة إيجابية في سبيل تحقيق هذه الأهداف . ذلك أنه سوف يحقق كما قلنا زيادة في حصة مصر من الإيراد المائي ، حيث ترتفع من ٥٨ و ٣ مليارات من الأمتار المكعبة في السنة ، إلى ٧٠ ملياراً من الأمتار المكعبة . وهذا القدر الزائد من الماء ، هو الذي يمكن الاعتماد عليه في تحقيق التوسع في مساحة الأرض المزروعة لكن تصل إلى حوالي ٨ ملايين من الأفدنة على الأقل .

وتشير التقارير المرفوعة بشأن خطة استصلاح الأرض ومتابعة تجهيزها للزراعة على مياه السد العالي ، إلى إنه يمكن لمصر بعد عشر سنوات من بدء العمل في المشروع ، التوسع في مساحة جديدة تقدر بحوالي ١٤ مليون فدان . ويبان توزيع هذه المساحات الجديدة يشمل ٢٥٠ ألف فدان يصير اقتطاعها من مساحة البحيرات الشالية وتخفيضها واستصلاحها وتحويلها للري الدائم ، كما يشمل ٥٥٠ ألف فدان ، يصير استصلاحها في شمال الدلتا في الأرض المعروفة باسم البراري و ٥٥٠ ألف فدان أخرى من الأرض على هامش

المصحاء ، على طول امتداد السهول النيلية الفيضية . ويعبر هذا الأمر في حد ذاته عن التوسع الأفقي المترتب على زيادة مساحة الأرض المزروعة من ٦.٢ مليون فدان إلى ٧.٨ مليون فدان على الأقل . هذا بالإضافة إلى علنا بأن حصة الماء سوف تؤدي إلى تحويل مساحة الأرض التي تروى ريا حوضيا في مصر العليا إلى الري الدائم أيضا . ويعتبر هذا التحويل - في حد ذاته - كسبا مجزيا من وجهة النظر الاقتصادية ، لأنه يؤدي إلى زيادة حقيقية في مساحة المحاصيل ، أو مانع عنه بالتوسع الرأسي وزيادة حجم القلة . وهذا معناه في نهاية المطاف ارتفاع وزيادة مساحة الأرض المزروعة سنويا إلى حوالي ثمانية ملايين من الأفدنة، وزيادة مساحة المحاصيل إلى حوالي ١٥ مليونا من الأفدنة .

ويمكن اعتبار وفرة الماء واستجابة التخزين أمام السد العالي للاحتياجات ، والمحافظة على تصرف معين من الماء في اليوم الواحد ، سببا من أهم الأسباب المؤدية إلى التوسع الأفقي والرأسي في مساحة الأرض المزروعة أزا سنويا . ذلك أن حجم الماء والتصرف من ماء التخزين سوف يحقق زراعة ٧٠٠ ألف فدان سنويا وبصفة مستمرة ، دون أن يرتبط ذلك بإيراد النهر السوي وطبيعة الجريان في الفترة الحرجة في كل سنة من السنوات<sup>(١)</sup> . ولعل من الضروري أن نشير إلى أن مساحة الأرض التي تزرع أزا في الوقت الحاضر ، السابق لتشغيل السد العالي ، تعرض لذبذبة خطيرة ، وترتبط بذبذبتها التساعا وضيقا زيادة وتقصا ، بطبيعة وصفة وحجم الإيراد النهرى الصيفي . ويكون منح التصاريح لزراعة هذا المحصول الحيوى الخطير من وجهة النظر الاقتصادية ، خاضعا خضوعا حقيقيا لمشيمة الظروف التي تنغير من سنة إلى أخرى ، وتؤثر على حجم الإيراد المائى في الفترة الحرجة . وهكذا يضمن التخزين في حوض الخزان الكبير أمام السد العالي ، حصيلة من الماء تعول التوسع الأفقي والرأسي ، في قطاع الزراعة في المساحات المرتبة ، في كل سنة من السنوات ، بل في أكثر السنوات شحا . ويعنى ذلك أن شبح الانخفاض في الإيراد الطبيعى للنهر في سنة من السنوات ، لم يعد مبعث خوف أو قلق بأى صورة من الصور . بل لعله يحقق إلى جانب ذلك كله فرصة كاملة تمثل في ضمان انتظام وصول مياه الري ، بالكميات المناسبة والمواعيد المناسبة التي تستجيب لنظام المناوبات ، لتلبية احتياجات الأرض المزروعة حسب نظام الدورة الزراعية المتبعة .

(١) الشنمى مياه النيل دراسة موضوعية صفحة ١٨٢

وكما يتوهم السد العالي وتشغيله وتخزين الماء في حوض التخزين امامه بهذا الدور الابحالي المباشر ، في خدمة قطاع الزراعة وتطوير الانتاج الزراعى تطورا اقصيا ورأسيا ، فإنه يحقق من ناحية أخرى خدمات ومزايا يكون من شأنها الاسهام بطريق غير مباشر في تنمية الانتاج الزراعى . ذلك إنه سوف يحقق فرصة صرف الأرض بالراحة في الصعيد ، لأمر الذى يؤدى الى تخليصها من أخطر عامل من عوامل إفساد التربة ، وتدهور غلة الفدان . بل لعلنا نشير الى إن ذلك الصرف لن يكون في حاجة الى محطات ضخمة للصرف ، سواء ما كان منها قاعا ، أو الزرع إنشاؤه على النيل ، أو على بحر يوسف . ويمكن القول إن تنظيم السد للجريان المائى في النهر ، وإمكانية التحكم فيه في كل يوم من أيام السنة ، وعلى اعتبار تمرير دفعات من الماء لتلبية الاحتياجات فقط ، سوف يؤدى من جانب آخر الى الانخفاض الملحوظ في منسوب الماء الباطنى على جانبي النهر ، في الأرض المزروعة في كل من مصر العليا ومصر السفلى . ويكفل ذلك وحده زيادة في القدرة الانتاجية للفدان وحيث الغلة ، بالنسبة للمحاصيل المختلفة في كل موسم من مواسم الزراعة المعروفة . ويعنى ذلك إن التحكم في الجريان في النيل وفروعه ، والتحكم في مناسيب الجريان في ترع التوزيع الكبرى والصغرى ، التى تنتشر وتختلل الأرض المزروعة . سوف يقلل من أخطر ما يواجه الانتاج الزراعى من أخطار مترتبة على ارتفاع نسبة الرطوبة في التربة والتربة التحتية . ويجب علينا أن نسجل هذه المناسبة أكبر خطأ وقعت فيه مصر ، يوم أن أخذت بسياسة الرى الدائم ، وقطعت شوطا في الانقلاب الزراعى ، دون أن تهتم بالصرف وتخفيض التربة من الرطوبة التى تصرب لها ، وتؤدى الى التدهور الشديد في غلة الفدان .

أما قطاع الصناعة الذى تعمل الجمهورية العربية المتحدة على تنميته وتطويره تطورا يؤدى الى إنتاج كبير ، بهم في زيادة حجم الدخل القومى ، ورفع مستوى المعيشة ومجابهة الاحتياجات المتزايدة مع النمو السكانى ، وارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية ، فسوف يجد في انتاج السد العالي من الطاقة الكهربائية قوة محركة رخيصة . ويعبر ذلك عن كسب حقيقى في زيادة حجم الانتاج الصناعى من ناحية ، وفي انخفاض تكاليف السلع المصنوعة من ناحية أخرى ، كنتيجة مباشرة لانخفاض سعر الكهرباء . والمفهوم أن اتمام العمل في السد العالي وتشغيله تشغيلا كاملا ، واستغلال كل المولدات الكهربائية للربطة هذا التشغيل ، سوف يحقق فرصة الحصول على حوالى ١٠ مليار كيلووات ساعة في السنة<sup>(١)</sup> . ويمكن أن توفر هذه الطاقة الكهربائية الكبيرة نتائج هامة وخطيرة ، في خدمة الصناعة

(١) الكتاب السنوى للجمهورية العربية المتحدة لسنة ١٩٦٣ صفحة ١٠٠



الثقيلة والصناعة الخفيفة والتحويلية على حد سواء . كما إنها تكون كفيلة برفع نصيب الفرد من ٦٠ كيلوات ساعة إلى حوالى ٤٠٠ كيلوات ساعة فى السنة . ويعنى ذلك أيضاً من وجهة النظر الاقتصادية - توفير ثمن حوالى ٢٠٦ مليون طنأمن الوقود ، المستعمل فى مصر سنوياً فى الوقت الحاضر ، والتي يقدر ثمنها حسب مستوى الأسعار العالمية الآن بحوالى ١٨ مليوناً من الجنيهات ، يدفع معظمها بالعملات الصعبة .

ومهما يكن من أمر فإن الباحث يتصور أهمية هذا المشروع العظيم ليس على اعتبار أنه يحقق معجزة هندسية جبارة ، أو إنه يعبر عن التصميم والتفوق البشرى فى مجال إحكام السيطرة على كل الجريان المائى فى النيل فحسب ، بل لأنه من حيث الواقع يمثل حجر الزاوية فى تخطيط هادف مرسوم ، من أجل رفع مستوى القدرة الإنتاجية فى قطاعات الزراعة والصناعة ، وزيادة الدخل القومى بصفة عامة . وليس ثمة شك فى أن تكاليف إنشاء السد العالى ، وكل الأعمال العظيمة المتصلة بتشغيله واستغلاله ، سوف تتكافئ مع مزاياه ومنافعه والعائد منه على الدخل القومى . ويقدر الباحثون الدخل المباشر العائد على خزينة الدولة ، من تشغيل السد العالى بكامل طاقته بحوالى ٢٢ مليوناً من الجنيهات فى السنة<sup>(١)</sup> . أما تحويل المزايا الاقتصادية فى قطاع الزراعة وفى قطاع الصناعة إلى أرقام ، فبغنى زيادة فى الدخل القومى بصفة عامة ، تصل إلى ٢٣٤ مليوناً من الجنيهات<sup>(٢)</sup> هذا بالإضافة

(١) بيان زيادة دخل الحكومة فى أرقام :

(١) ضرائب الأطنان جديدة وزيادة فى الضرائب الحالية بعد

٩ مليون	تحسين الانتاج
٢٠٥ مليون	(ب) زيادة متوقعة لتحسين الملاحة
١٠٠ مليون	(ج) زيادة متوقعة ثمننا للكهرباء
جملة الزيادة = ٢٢ مليوناً من الجنيهات	

(٢) الزيادة فى الدخل القومى فى أرقام :

(١) التوسع فى مساحات جديدة وتحويل الحياض

٦٣ مليون	الى الرى العالم
٥٦ مليون	(ب) العائد من زراعة ٧٠٠ الف فدان ارضا
١٠ مليون	(ج) الوقاية من الفيضان
٥ مليون	(د) تحسين حالة الملاحة النهرية
١٠٠ مليون	(هـ) توليد ١٠ مليار كيلوات ساعات كهرباء
جملة الزيادة = ٢٣٤ مليوناً من الجنيهات	

إلى مزايا وفوائد حقيقية يلجأ تشغيل السد العالي للسودان . ويأتى في مقدمتها إمكانية التوسع في مساحة الأرض المزروعة على مياه النيل، إلى حوالى ثلاثة أمثال المساحة المزروعة الآن . وهذا يحقق السد العالي للسودان فرصة إنشاء المزيد من السدود على النيل أو على روافده الرئيسية ، التي نذكر منها سد خشم القربة ، وسد الرصيرص المقترح للتوسع في زراعة أرض كثانة الذى يناظر مشروع الجزيرة . بل لعله فوق كل ذلك يعطى السودان فرصة مؤكدة في مجال ملء أحواض التخزين السنوى المستخدمة في السودان في وقت متأخر نسبيا ، من المياه التي تقل المواد العالقة بها إلى حد كبير . وهذا معناه كسب حقيقى من وجهة النظر الفنية ، لأن التأخير يقلل من تأثير سعة أحواض التخزين بالإطماء . ويقدر الباحثون في مجال الدراسات الاقتصادية على ضوء ذلك كله زيادة مؤكدة في دخل الحكومة السودانية ، والدخل القومى السودانى من الإنتاج الزراعى بنسبة ٣٠٠٪ سنويا .

\* \* \*

وعند هذا الحد الذى تمضى إليه الثورة الزراعية الشاملة ، وعلى ضوء الفهم الكامل والتقدير الشامل لكل النتائج والمزايا التي يحققها إنشاء وتشغيل السد العالي بالنسبة لكل من الجمهورية العربية المتحدة والسودان ، تدافع الأسئلة وتقرض نفسها على الباحث فرضا . ويعلق سؤال من بين هذه الأسئلة بالعلاقة بين الزيادة في مساحة الأرض المزروعة ومساحة المحاصيل ، التي ستتحقق بعد تشغيل السد العالي من ناحية ، وبين الزيادة أو النمو السكاني واستمرار هذا النمو في المستقبل بالمعدلات التي تسجلها أرقام الإحصاء الأخير في الجمهورية العربية المتحدة في سنة ١٩٦٠ ويتضمن سؤال آخر رغبة ملحة في مجال الدراسة والبحث على المدى الطويل للاطمئنان على احتمالات المستقبل القريب والبعيد ، في أثناء العشرين أو الخمسين سنة القادمة ، من حيث السياسة الزراعية العامة وتطويرها تطويرا يحقق التوسع الرأسى وزيادة حجم الغلة ، ومن حيث المضى في الأخذ بسياسة توسيع رقعة الأرض المزروعة ، للوصول بها إلى حوالى ١٠ ملايين فدان . والواقع إن سياسة مصر الاقتصادية التي تخضع لقواعد وتخطيط شامل وتوجيه كامل ، تضع في اعتبارها الاهتمام بكل أساليب التنمية والتطوير في مجال الإنتاج الزراعى والإنتاج الصناعى على السواء ، لتحقيق حياة أفضل لكل الناس ، ولتأهية سد حاجة النمو السكاني الكبير . وليس ثمة شك في أن قطاع الزراعة الذى يحتل مركزاً هاماً وخطيراً في الإقتصاد القومى في مصر ، يحظى وسيظل يحظى بكل اهتمام

وبكل تقدير . بل لعلنا تؤكد إن الانقلاب الزراعى الهائل الذى انطلقت أول شرارة له فى حوالى منتصف القرن التاسع مئ الميلادى ، لن يكون تشغيل السد العالى بكامل طاقته ، ورى كل المساحات المقدره على مياه التخزين المستمر أمام جسمه الكبير ، نهاية يصل إليها هذا الانقلاب أو الثورة ، أوقمة ينتهى عندها التوسع الزراعى فى الأنجاهيم الأفقى والرأسى . وهذا معناه — بما لا يدع مجالا للشك — الاستمرار فى إصرار تام فى البحث ، وبذل الجهد فى سبيل التوسع الأفقى والتوسع الرأسى فى قطاع الزراعة .

ويمكن للباحث أن يسجل بهذه المناسبة السبب الرئيسى الذى دعا الى تشكيل هيئة مياه النيل ، من مصريين وسودانيين وفقا لأحكام اتفاقية سنة ١٩٥٩ بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية السودان ، وعلى اعتبار أنها معا أصحاب المصلحة الحقيقية فى مياه النيل وضبط النيل ، هو الاستمرار فى البحث فى شأن الإيراد النبلى ، وتحقيق مزيدا من السيطرة ومزيدا من الماء . ذلك أن المزيد من الماء هو وحده السبيل الذى يعطى السودان والجمهورية العربية المتحدة ، فرصة الحصول على إيراد إضافى كبير يضاف الى حصة كل منها . ويكفل هذا القدر المضاف الى حصة كل منها ، فرصة توسيع مساحة الأرض المزرعة مرة أخرى ، والوصول بها بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة الى الرقم الذى قدره خبراء لجنة مشروعات النيل لسنة ١٩٤٩ وقد تحقق سياسة الأخذ بنظام التخزين المستمر فى مواقع جديدة زيادة فى حجم الإيراد الطبيعى بصفة عامة ، ولكن هل هذه الزيادة المتوقعة كافية لأن تبلغ حصة مصر منها الى الرقم المحدد للوفاء بالاحتياجات ، التى تحقق الاستمرار فى التوسع الأفقى فى الأرض المزرعة الى حوالى عشرة ملايين فدان ؟ والمفهوم أن حصة مصر مطلوب لها أن تصل الى حوالى ٩٢ مليارا من الأمتار المكعبة سنويا ، لتحقيق هذا التوسع ، ومع ذلك نحن لا نتصور الوصول الى هذا الرقم الكبير الذى يزيد عن متوسط إيراد النيل الطبيعى فى السبعين سنة الماضية ، إذا ما أخذت مصر بسياسة التخزين المستمر فى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا<sup>(١)</sup> فقط ، لأن طبيعة الفائد فى حوض بحر الجبل وقفرة الجرى على تصريف الماء تقف عند حد مناسب معينة ، يتحول كل الإيراد بعدها الى فاقد فى المستنقعات بالتسرب والتبخر والتنج . ويعنى ذلك ضرورة

---

(١) تم انشاء سد اوين للتخزين المستمر فى بحيرة فكتوريا . وقد أسيت مصر فى تكاليفه للاستفادة منه فى المستقبل القريب او البعيد .

الانتقال الى مرحلة جديدة ، يكون من شأنها أو من شأن العمل الهندسى فيها زيادة الايراد الطبيعى من الاحباس الاستوائية ، والاطمئنان على انطلاق المياه من أحواض التخزين المستمر في الهضبة الاستوائية النيلية ، القائم منها والمقترح عند البرت ، حون أن تعرض للضياع ، أو فقدان في مستنقعات بحر الجبل .

ونود أن نشير في بداية الحديث عن خطط المستقبل وطبيعة العمل الهندسى ، الذى يجب أن نتجه اليه في أقرب فرصة ممكنة ، إلى أن إنشاء السد العالى وتشغيله حقق جانبا واحدا فقط من جوانب تقليل الفوائد في الإيراد النيل الطبيعى . ذلك إن حجما كبيرا من ماء الموارد الحبشية كان ينساب في فصل الفيضان إلى البحر المتوسط ، وكانت لا تحقق منه أى فائدة في مجال الرى والزراعة في مصر أو في السودان . ويعنى تشغيل السد العالى حجز كل قطرة من هذا الماء الفائد والإستفادة منه ، أما العمل في مرحلة قادمة لا ريب فيها ، فإنه يجب أن يكون موجها بالكلية إلى معالجة الفائد من إيراد النيل الطبيعى من الاحباس الاستوائية وتقليله إلى أقل قدر ممكن . ذلك أن صافي الايراد الطبيعى الوارد إلى النيل من الاحباس الاستوائية ، وبعد حساب كل الفائد في مستنقعات بحر الجبل وبحر الزراف ، لا يكاد يزيد عن ١٦ ٪ من الإيراد الطبيعى الكلى للنيل طول العام (١) . وتشير الدراسات والمباحث المائية المستمرة إلى أن النهر فيما بعد منجلا شمالا ، يبدو غريبا جدا ، حيث تتبدل طبيعة الجريان فيه نتيجة مباشرة للانحدارات المهادنة ، التى تزداد اعتدالا كلما تقدم النهر شمالا إلى بحيرة نو ، ويجرى النهر إلى فم السوبات (٢) . ويعنى ذلك تعرض حجم كبير

(١) همرست موجز عن حوض النيل صفحة ٥٠

(٢) فيما يلى بيان بحساب الانحدارات في بحر الجبل ، والتي قيسست بدقة على أساس خط الميزانية من الدرجة الأولى .

المحس من بحر الجبل	طول المحس	المسوب في أول المحس	المسوب في آخر الجبل	فرق المتاحيب	الاعداد في الكيلومتر
كيلومتر	مترا	مترا	مترا	مترا	سم
٢٧٥	٦١٧,٢٢	٦١٢,٢١	٥,٠١	١٧٨	من البرت إلى نيمولى . .
١٥٦	٦١٢,٢١	٤٥٦,٢٧	١٥٥,٩٤	١٠٠,٠٠	من نيمولى إلى رجب . .
١٢٦	٤٥٦,٢٧	٤٢٨,٥٠	٢٧,٧٧	٢٢,٠٠	من رجب إلى حنجيج . .
٢٧٢	٤٢٨,٥٠	٤٠٥,٨٣	٢٢,٦٧	٨٢,٢	من حنجيج إلى شامي . .
٢٠٥	٤٠٥,٨٣	٣٩٤,٤٦	١١,٣٧	٥٥	من شامي إلى حلة نور . .
٢٢٢	٣٩٤,٤٦	٣٨٦,٢٣	٨,٢٣	٣,٦	من حلة نور إلى نو . .
١٢٤	٣٨٦,٢٣	٣٨٤,٧٥	١,٤٨	١,٢	من نو إلى فم السوبات . .

من الماء ، لأن يفترض ويتدفق إلى المستنقعات على جانبي المجرى ، ويضيع بالتبخر أو التسرب أو التسح .

وقد جمعت كل البيانات الاحصائية التي تعبر عن هذا الفاقد بصفة منتظمة منذ وقت بعيد ، وعلى الرغم من صعوبة العمل المبينة على عدم تماسك الجسور وانتشار المستنقعات والأمراض الوبائية . وتحقق هذه البيانات الاحصائية فرصة التعرف على طبيعة الخسارة الكبيرة السنوية ومعدل الفاقد من إيراد الأحياس الاستوائية . وبين الجدول التالي صفة هذا الفاقد ونسبته المئوية ، محسوبة على اعتبار حساب الفرق بين تصريف النهر عند منجلا ، وتصريف النهر عند خروجه من منطقة السدود والمستنقعات ، في الفترة من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٤٨

ويظهر من دراسة هذه الأرقام الواردة في الجدول التالي ، أنه كلما زادت التصريفات الداخلة إلى منطقة السدود زادت بالتالي احتمالات الفاقد في المستنقعات ، التي تتراوح مساحتها بين ٨٣٠٠ كيلومترا مربعا في حالة المناسيب المنخفضة ، و ١٢٠٠٠ كيلومترا مربعا في حالة ارتفاع منسوب الجريان في بحر الجبل ٥٠ سنتيمترا فقط . وقد وصل البحث إلى قاعدة عامة تقضى بأن كل زيادة عن قدر معلوم من مليارات الأمطار المكعبة في السنة من الأحياس الاستوائية ، يكون مصيرها الضياع في المستنقعات بالتبخر أو التسرب أو التسح . ذلك أن تصرف النيل العام الخارج من منطقة السدود يتراوح بين نهاية عظمى قدرها ١٦٠٦ مليارا من الأمطار المكعبة ، ونهاية صغرى قدرها ١١٠١ مليارا من الأمطار المكعبة وهكذا يكون متوسط الإيراد النيل الطبيعي من الهضبة الاستوائية حوالى ١٤ مليارا من الأمطار المكعبة ، وأن حوالى ٥٠ ٪ من المياه الاستوائية يصير ضياعا وفقدانها كل عام . وإذا أضفنا إلى هذا الفاقد كمية المطر السنوى على حوض بحر الجبل ، التي تبلغ مساحته حوالى ١٠ آلاف كيلومترا مربعا ، والتي تقدر بحوالى ٩ مليارات من الأمطار المكعبة ، فظهر لنا بوضوح أن حجم فقدان في حوض بحر الجبل كبير للغاية ، ويتراوح هذا الفاقد بين ١٥ مليارا من الأمطار المكعبة كنهاية صغرى ، و ٢٨ مليارا من الأمطار المكعبة كنهاية عظمى . وهذا الفاقد الكبير السنوى هو الذى يدفع الفنين والمختصين إلى اعتبار التخزين في بحيرة من بحيرات الهضبة الاستوائية عديم القيمة ، لأن معظم الماء سوف يضيع حتما في الطريق فيما بين منجلا وملكال (١) .

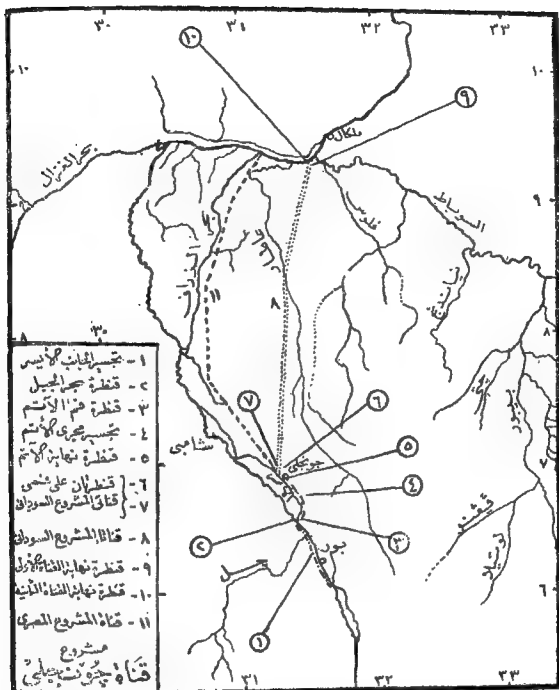
صفة الفاقد ونسبته المئوية

النسبة المئوية للفاقد	الفاقد	التصرف الخارج من السلود	التصرف عند منجلا	السنة
٤٢٪	٨٠٢ مليار م <sup>٣</sup>	١١١ مليار م <sup>٣</sup>	١١١ مليار م <sup>٣</sup>	١٩٢٣
٣٦٪	٧٤	١٣٠	٢٠٤	١٩٢٤
٣٢٪	٦٠	١٢٩	١٨٩	١٩٢٥
٤٨٪	١١٨	١٣٠	٢٤٨	١٩٢٦
٤٦٪	١٢٠	١٤٠	٢٦٠	١٩٢٧
٤٧٪	١٢٦	١٤٠	٢٦٦	١٩٢٨
٣٢٪	٧١	١٤٢	٢١٣	١٩٢٩
٣٨٪	٨٧	١٤٢	٢٢٨	١٩٣٠
٥٢٪	١٥١	١٣٩	٢٩٠	١٩٣١
٥٣٪	١٧٢	١٥٤	٣٢٦	١٩٣٢
٤٦٪	١٤٠	١٦٦	٣٠٦	١٩٣٣
٣٧٪	٩٦	١٦٧	٢٦٣	١٩٣٤
٣٥٪	٨٣	١٦٢	٢٣٥	١٩٣٥
٣٨٪	٩٠	١٤٤	٢١٤	١٩٣٦
٤٩٪	١٣٨	١٤٣	٢٨١	١٩٣٧
٥١٪	١٥٥	١٤٧	٣٠٢	١٩٣٨
٤١٪	١٠١	١٤٨	٢٤٩	١٩٣٩
٣٥٪	٧٨	١٤٤	٢٢٢	١٩٤٠
٤١٪	٩٥	١٣٤	٢٤٩	١٩٤١
٥٧٪	١٨٢	١٣٩	٣٢١	١٩٤٢
٤٩٪	١٣٦	١٤٦	٢٨٢	١٩٤٣
٢٩٪	٦٠	١٤٧	٢٠٧	١٩٤٤
٣٠٪	٥٧	١٣٠	١٨٧	١٩٤٥
٤٢٪	٩٢	١٢٩	٢٢٢	١٩٤٦
٥١٪	١٤٢	١٣٧	٢٧٩	١٩٤٧
٥٦٪	١٧٩	١٤٠	٣١٩	١٩٤٨

وليس ثمة شك في أن تقليل هذا الفاقد ، أو وضع حد على الأقل له ، يعنى زيادة في حجم الإيراد الطبيعى من الأحباس الاستوائية ، وبالتالي زيادة الإيراد الطبيعى للنهر بصفة عامة . ونصف هذه الزيادة ، وهى الحصة المفروضة أن تحصل عليها مصر بمقتضى الاتفاق القائم بينها وبين السودان بشأن أى زيادة في حجم الإيراد المائى الطبيعى للنيل ، سوف تحقق مزيدا من القدرة على التوسع ، وزيادة مساحة الأرض المزروعة . ذلك أن هذه الحصة المقررة سواء صار تقديرها على اعتبار الحد الأدنى للفاقد بحوالى ٧ مليارات ، أو صار تقديرها على اعتبار الحد الأعلى للفاقد بحوالى ١٤ مليارا من الأمطار المكعبة في السنة ، إذا أضيفت إلى حصة مصر التى يحققها تشغيل السد العالى ، فإنها تمنح مصر فرصة التوسع في نصف مليون فدان جديد آخر على الأقل . والمفهوم أن استغلال التخزين المستمر الذى يحققه سد أوين القائم فعلا ، على فم النهر الخارج من بحيرة فكشوريا ، واستغلال موقع بحيرة البرت لإنشاء سد آخر للتخزين المستمر ، يمكن أن يحقق مزيدا من الماء (١) . وقد تزيد حصة مصر السنوية عندئذ عن الرقم المقرر للوصول بالأرض المزروعة إلى المساحة المقدرة في سنة ١٩٤٩ وهى ١٠ مليون فدان . ويكون ذلك رهن شرط واحد ، هو وضع حد للفاقد في منطقة المستنقعات .

ومهما يكن من أمر فإن حجب الزاوية في كل هذه المشروعات ، والتخطيط بشأن زيادة حجم الإيراد المائى الطبيعى ، وتقسيم الزيادة مناصفة بين مصر والسودان ، يمثل في إنجام عمل هندسى على صورة معينة يكون له القدرة على تقليل الفاقد في منطقة السدود إلى أقصى حد ممكن . ويجدير بالذكر أن هذا العمل الهندسى كان من بين الأعمال التى تناولها البحث والدراسة منذ أوائل القرن العشرين بقصد ضبط النهر والسيطرة على جريانه . وقد نبه سير ولیم جارستون الأذهان إلى ضخامة حجم الفاقد من الإيراد النيل الطبيعى ، من الأحباس الاستوائية . وقد أجريت بعض الأعمال الأولية التى قصد منها تقليل الضغط على جصور بحر الجبل ، ونحويل بعض الماء إلى بحر الزراف ، وذلك في الفترة ما بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١٣ . واقترح سير مردوخ ماكولنالد شق قناة صناعية لتصريف ١٩٠٠ مترا

(١) راجع كتاب مياه النيل للتعرف على سد أوين وتشغيله والمقترحات بشأن التخزين في البرت وإنشاء سد عند نيمولى أو عند موتير صفحة ١٤٦ - ٥٦ !



في الثانية (١) وتعمير المياه في حالة ممارسة التخزين المستمر في البرت . وهكذا كان التفكير المبكر وتعددت الاقتراحات وزادت عمليات البحث والدراسة زيادة مستفيضة . واتى الأمر إلى الأخذ بمشروع قناة جونجلى . ثم كانت دراسات إضافية ومباحث أخرى في سنة ١٩٣٦ ، ووصل الرأي إلى المفاضلة بين مشروعين لوضع حفر قناة جونجلى موضع

(١) ماكدونالد م . ضبط النيل من صفحة ١٣٨ - ١٤٠



التنفيذ . وهذان المشروعان هما ، مشروع بوتشر الذى يعتمد على الحفر بالكراكات المائية ، ومشروع آخر يفضل حفر القناة في ظهر الأرض المرتفعة على حدود المنطقة الشرقية للمستنقعات ، ويعتمد على الحفارات الأرضية . وقد فضلت لجنة خبراء النيل سنة ١٩٤٩ المشروع الأول ، لأنه يقلل من مكعبات الحفر والنفقات على الأقل . ونحن — على كل حال — لا نرى ما يدعونا إلى الدخول في تفاصيل دقيقة للتعريف بالقناة في المشروع المصرى أو في المشروع السودانى <sup>(١)</sup> . ولكن الذى نراه فقط ، هو أن الوقت قد حان ، لأن توضع خطة متكاملة تلزم : مصر والسودان ، لوضع المشروع موضع التنفيذ في الوقت المناسب ، الذى يتناسب مع كل الخطط الرامية لزيادة مساحات الأرض المتزرعة فيها بصفة عامة .

---

(٢) راجع هذه التفاصيل في كتاب مياه النيل من صفحة ١٥٧ — ١٦٢ :

## أم المراجع

- ١ - أمين سامى ( باشا ) تقويم النيل ، جزء أول سنة ١٩١٦ ، جزء ثان سنة ١٩٢٨
- ٢ - محاضرة المهندس حامد سليمان بجمعية المهندسين ، سنة ١٩٤٧
- ٣ - صلاح الدين الشامى ( دكتور ) مياه النيل . دراسية موضوعية ، سنة ١٩٥٨
- ٤ - محمد عوض ( دكتور ) نهر النيل ، سنة ١٩٥٦
- ٥ - مردوخ ماكdonald . ضبط النيل ( النسخة العربية ) ، سنة ١٩٢٠
- ٦ - مشروعات للرى الكبرى . تقرير لجنة الخبراء . سنة ١٩٤٩
- ٧ - هرست . موجز عن حوض النيل ( النسخة العربية ) ، سنة ١٩٤٦
- ٨ - كتاب المجلس الدائم لتنمية الانتاج القومى ، سنة ١٩٥٥
- ٩ - الكتاب السنوى للجمهورية العربية المتحدة ، سنة ١٩٦٣

1. Awad, H. M. : El Sadd El Ali, Les Plus Grande Reservoir du Monde et ses Consquences Geographiques. Bull. Soc. Geog D'Egypte 1957.
2. Butchet, A. D. : The Jouglie Canal Diversion Scheme. M.P.W., 1938.
3. Hurst, H. E. : The Nile London, 1951.
4. Hurst, H. E. : The Nile Basin vol. I. Cairo, 1931.
5. Selim, M. A. : The High Dam Project. Bull. Soc. Geog. D'Egypte 1955.
6. Simaika, G. M. : The Suspendid Matter in the Nile, M.P.W. 1940.
7. Simaika, G. M. : Filling As was Reservoir in the Future. M.P.W.

## الرأى العام والحياة السياسية \*

للعاتور حسنين عبد القادر

### ١

#### وسائل الإعلام والدعاية ودورها فى تكوين الرأى العام

يحسن أن أبداً بعريف الرأى العام . وهناك تعاريف كثيرة أرى أن من أحسنها ما يأتى :  
— الرأى العام هو مجموعة الأفكار أو المعتقدات التى تكونها الشعوب عادة فى مسألة معينة ، وفرة معينة ، وتحت تأثير الدعاية .

— الرأى العام هو الحكم الذى تصل إليه الجماعة فى مسألة ذات اعتبار عام إبعد مناقشات علنية واقية .

— الرأى العام هو اصطلاح يستخدم للتعبير عن مجموعة من الآراء التى يدبى بها الناس إزاء المسائل التى تؤثر فى صالح الجماعة .

#### ومن خصائص الرأى العام ما يأتى :

— يظل الرأى العام ساكناً كما كنا حتى تبرز قضية للجماعة . والقضية تظهر حينما يوجد تصادم أو قلق أو خيبة أمل .

---

\* بحوث قدمها الدكتور حسنين عبد القادر الى المؤتمر الدولى الثالث للعلوم السياسية المنعقد فى بيروت فى المدة من ١٤ الى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٣ لمحت موضوع « الرأى العام والحياة السياسية » . وقد حضره ممثلون للأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا ويوغوسلافيا ولبنان والعراق والمغرب والجمهورية العربية المتحدة .

— اذا أعطى الشعب في البلد الديموقراطى الحر فرصة التعليم والاعلام الطيب ،  
فان الراى العام يبدو صلب العود ، ولا يسهل خداعه عن طريق الدعاية .

— من السهل على الناس أن يحددوا الأهداف ، لكنه من الصعب عليهم أن  
يبينوا الوسائل التى توصلهم الى هذه الأهداف (١) .

وأم خصائص الراى العام في نظرنا أنه سريع التقلب ، وأنه يتأثر بالأحداث اليومية  
أكثر من أى شئ آخر ، وأن منطق المادة يهره أكثر من منطق العقل والخطب الرنانة ،  
وأن الكوارث التى تصيب المجتمع تجعله فى الذروة من حيث الحماسة وشدة الاحساس  
بالضجعة . . . وقد تسبب الأحداث التى تثير السخط العام إلى تحويل الراى العام من  
التقيض إلى التقبض ، ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار .

ومن نواحي الضعف فى الراى العام ما يلى :

— تستطيع التغييرات السطحية فى التقاليد والعادات الشعبية والأخلاق العامة أن تهدىء  
من تأثير الراى العام .

— يضرب الراى العام بما يعلنه الأشخاص من نتائج الاستفتاءات والدراسات  
الإحصائية عن المسائل المختلفة التى تشغل باله .

ويمكننا أن تبين هنا عناد الجماهير الشبيه بعناد الطفل فتأبى إلا أن تختار الطريق الآخر  
أو تعتنق الراى المضاد أو تسيء وراء القافلة ، فتأخذ النتائج كقضية مسلمة غير قابلة للنقاش  
أو الجدل .

وقد نخضع الجماهير للإبحاء فنستعمل الدعاية القوية الناجحة هذه النتائج للتدليل على  
صلى آرائها ولتدعيم وجهة نظرها .

— كلما قويت الرغبة فى الحرب ومادت الروح العسكرية فإن الراى العام يصبح أقل  
تقلا ورشدا .

---

(١) راجع كتابنا ( الراى العام والدعاية ) — الطبعة الثانية — ص ١٤ — ٢١  
وص ٤٦ — ٤٨ للوقوف على تعاريف أخرى للراى العام لبعض العلماء الأمريكين  
مثل دوب Doob وتشيلدز Childs وألبورت Allport وغيرهم ، وكذلك خصائص  
أخرى للراى العام يعتبرها كانتريل Cantril قوانين له .

— لا ينسئ خلق رأى عام على إلا إذا قاربت الاخلاق العامة للشعوب .

وفى رأى الشخصى ان رأى العام يتأثر تأثيرا كبيرا باحتيياجات الشعب الى مطالب الحياة ، وخاصة تلك المطلب اليومية من ماكل وملبس .. ذلك لأن الجماهير تتأثر عادة ببناء البطون أكثر مما تتأثر ببناء العقل ، أو بعبارة أخرى مجازية انها تفكر ببطونها لاعقلوها .

ولذلك تستطيع أية حكومة استبدادية أو أية دولة استعمارية أن تكسب قلوب الجماهير وتأييدها عن طريق غمر الأسواق بالسلع الضرورية ، وتخفيض الأسعار ، ورفع الاجور وتهيئة حياة شعبية تدمم بالرخاء .

وعلى العكس من ذلك تستطيع أية جماعة أو أية أزمة اقتصادية طاحنة أن تخرض الجماهير على الاطاعة بأية حكومة وطنية قد عجزت عن إصلاح الأحوال الاقتصادية لأسباب خارجة عن إرادتها وفوق طاقتها .

ولذلك يجب أن تضع الحكومة الوطنية مسألة الرشاء الاقتصادى ومكافحة الغلاء فى أول قائمة أعمالها إذا أرادت أن تكسب ثقة الجماهير ، لأن الجماهير لا تستطيع أن تاكل من الدعايات والخطب السياسية الرنانة والوعود المتكررة دون جدوى ، والتي لا طائل نحتها ، ولا تلبث أن نكتشف أنها مخلوعة فى تلك الدعاية وتلك الخطب والوعود ، فتثور وتنقض على حكماها .

فالثورة الفرنسية الكبرى لم تهم إلا بسبب جموع الجماهير وتعثر حصولها على لقمة الخبز .

والحرية السياسية وحرية رأى وحرية الاجتماع وحرية الصحافة وما إلى ذلك من الحريات العامة لا يهتم بها رجل الشارع كثيراً ، وإنما يهتم بها فئة قليلة من الناس وهى طائفة المثقفين .

وهذه الظاهرة ليست مقصورة فقط على الشعوب المختلفة بل إننا نجدتها أيضاً فى الشعوب المتقدمة .

فى عام ١٩٥١ بينما كانت الحرب الكورية على أشدها ، وكانت الحرب مشتعلة أيضاً فى الهند الصينية طرح على الفرنسيين السؤال الآتى :

ما هى المشكلات التى تهكم أكثر من غيرها ؟

فكان جوابهم \* كالاتى :

٣٣ ٪ سعر اللحم .

١٥ ٪ إعادة تسليح ألمانيا .

٤ ٪ أحداث كوريا .

والرأى العام - فى نظرى - منقاد لقوتين كبيرتين : الاولى هى الزعامة الشعبية . والثانية : هى القيادة الفكرية للصفوة .

لكن للأسف الشديد يلاحظ أن الزعماء المستبدين لا يسمحون لمثل هذه القوة بالوجود ، فضلا عن ممارسة حقها فى إبداء الرأى . والزعماء المستبدون يكسبون الأقواء الحرة ، ويحاربون الأفكار المناهضة لأفكارهم . وإذا استطاعت القوة الثانية أن تودى عملها بحرية كانت صمام الأمان بالنسبة للديموقراطية ، وحالت دون الطغيان الفردى والاستبداد .

#### دور الزعامة فى تشكيل الرأى العام :

وتلعب الزعامة دوراً كبيراً فى تشكيل الرأى العام وتوجيهه والسيطرة عليه . ومع تسليمنا بأن الزعيم هو وليد الرأى العام ، وأنه حينما يتصدر الجماعة إنما يعبر عن آلامها وآمالها ، فإنه بعد أن يسيطر على الموقف لايسير من خلف الجماعة وأهوائها ، وإنما يتقدمها دائماً فى الطريق الذى يرى أنه خير طريق ، ولو كان مخالفاً للرأى الأصيل للجماعة .. وهذه هى خاصة الزعيم الرشيد التقدمى .

#### نوعان من الزعامة :

فنحن نفرق بين نوعين من الزعامة .

الزعامة الرشيدة العاقلة ، والزعامة غير الرشيدة التى تتصف بالرعونة والعناد ، وتستخير الجماهير لتحقيق مطامع فردية بحثاً عن المجد الشخصى الزائف .

---

\* راجع كتاب ( مناهج السياسة الخارجية فى دول العالم ) لطائفة من علماء السياسة . اشراف روى مكريدىس ترجمة الدكتور حسن صعب . ( منشورات المكتبة الاهلية . بيروت ) ص ٩٤ و ٩٥ .

والزعامة الرشيدة تستفيد باستمرار من القيادات الفكرية في الأمة ، وتستمتع بها عن كثب ، ولا ترى غضاظة في استشارة أهل الرأي من الفنين والمختصين .

بينما تنجح الزعامة غير الرشيدة إلى ركوب رأسها والتفكير على هواها ، وتكسب أفواه المعارضين ، بل وسد الطرق في وجوههم ، والقضاء على نشاطهم في مجال القيادة الفكرية .  
إن هؤلاء الزعماء المستبدين هم الذين جلبوا لشعوبهم الدمار ، وزجوا بهم في ميادين الحروب ، كما فعل هتلر وموسوليني وغيرهما .

ولا شك أن النقابات المهنية والاتحادات والجمعيات المختلفة والأندية وسائر التنظيمات المهنية تقوم هي الأخرى بدور كبير في تشكيل الرأي العام داخل الجماعات الصغيرة ، ولا يلبث هذا الرأي أن ينمو وينشط على مر الأيام والسنين .

#### دور وسائل الاعلام الكبرى :

ومع ذلك فإن وسائل الاتصال الكبرى بالجمهور Media of Mass Communication هي التي تلعب الدور الأول في تكوين الرأي العام ، وذلك لالتصاقها الدائم بالجمهور ، والتقاءها اليومي بالناس بشكل منظم ، وبصورة رتيبة .

وعلى رأس هذه الوسائل الصحافة والراديو والتلفزيون .. وكذلك السينما والمسرح . فالقالات المتابعة في الصحافة أشبه بقطرات المياه التي تنساق باستمرار — وانظام — فوق حجر ، ولا بد آخر الأمر من أن تفتته وتصل إلى باطنه .

كذلك تستطيع الصحافة عن طريق تلوين الأخبار والإثارة أن توظف الرأي العام وتدفعه إلى الحركة .

والصحافة فضلا عن ذلك هي التي تمد الجماهير بالحقائق والمعلومات والآراء والأفكار التي هي النسيج الذي يتألف منه الرأي العام الناضج .

لكن دور الصحافة في البلاد المتخلفة اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً محدود بالنسبة لدورها في البلاد المتقدمة التي يتمتع فيها الشعب بمستوى مرتفع من المعيشة .

ففي الأولى تكون الصحافة عادة فقيرة وتوزيعها محدوداً للغاية ، ولا يشتري الصحف إلا نسبة ضئيلة من السكان ، ولا يستطيع المواطن أن يقرأ سوى صحيفة واحدة . والنتيجة

هى أنه يظل منساقاً وراء هذه الصحفة ويصدق كل ما تنشره . . . ولا حيلة له فى ذلك .  
أما فى البلاد المتقدمة فإن المواطن يستطيع الحصول على أكثر من جريدة وأكثر من  
مجلة ، ويوازن بينها ويرجح خبراً على خبر أو رأياً على رأى .

وإذا انحرف الصحافة فى البلاد المتخلفة عن جادة الطريق فإنها لا بد وأن تفضل الرأى  
العام ، وأن تخلق رأياً عاماً بخفا وعاجزاً عن حل المشكلات العامة ، أو اتخاذ أية خطوة  
إيجابية فى سبيل مواجهة أية أزمة طارئة أو أى خطر داهم .

ومن أخطر الأشياء فى الصحافة أنها تستخدم العناوين على نطاق واسع ، وتكثر من  
هذه العناين ، وتضفى فى صياغتها بطريقة تبعدنا فى أغلب الأحوال عن الحقيقة . فالصحف  
تلون العناوين ، وتبالغ فيها أحياناً ، بل وتمهد أحياناً إلى التحريف أو الخداع أو الكذب  
للمسابح التجارية محضة ، فهى تريد أن تغير الناس ، وتجذب المشترين وتجبرهم على شراء  
الصحيفة ، لكى يروج نوزيعها ويتضاعف ، ومن ثم تزيد إيراداتها وأرباحها فى آخر العام .

وهذه العناوين نفسها تصرف الناس عن قراءة تفاصيل الأخبار أو التحقيقات الصحفية  
أو التقارير المصورة أو المقالات .. فى حين أنه لا غنى عن معرفة هذه التفاصيل إذا أريد  
تكوين رأى عام ناضج علم بمحقائق الأمور .

ولهذا يطالب بعض علماء الرأى العام والصحافة والاجتماع بضرورة الكف عن  
استخدام العناوين ، أو على الأقل الاقتصاد فى نشرها ، وعرضها بطريقة موضوعية تدفع  
الناس إلى قراءة باقى التفاصيل والمواد التى تجسئ تحت هذه العناوين .

أما الراديو فإن صوته قد وصل إلى جميع الأسماع حتى فى القرى والساكن .  
والشوارع والطرق . . . ولا يخلو منزل الآن فى المدينة أو الريف من جهاز للراديو .  
بل إن كثيراً من المواطنين وخاصة من الشباب والعمال والفلاحين يحملون أجهزة الراديو  
الصغيرة ذات البطاريات الجافة (الترانزستور) أينما ذهبوا .

وقد استطاع الراديو عن طريق استخدام العوامل المساعدة من موسيقى وغناء وتجميل  
أن يجذب الناس إلى استماعه ، وأن يدخل فى رموسهم الأفكار والآراء التى يريد المهيمنون  
على برامج الإذاعة ، وتريدها السلطات المسيطرة على الإذاعة .

يبدأن تأثير الراديو لا يزال أوضح فى جماهير الشعب غير المتعلمة أو التى لم تظفر بقطر  
من الثقافة .



وقد ثبت من بعض البحوث التي أجريت في أمريكا أنه كلما انخفض المستوى الثقافي والاقتصادي للفرد ، زاد اعتماده على الراديو كوسيلة من وسائل الاعلام والترفيه . . والعكس بالعكس (١) .

والملاحظ أن جبهة المثقفين لا تقبل كثيراً على برامج الراديو لأن مستوى البرامج ضحل بوجه عام ، ويتم أحياناً بالسطحية والسذاجة والسخف . . ذلك لأن واضعي هذه البرامج يجهلون إلى رجل الشارع ، ويعملون إلى تقديم برامج تلائم أذواق الجماهير من الفلاحين والعمال وغيرهم من الفئات المشابهة .

أما المثقفون فإن الاذاعة تقدم لهم برامج خاصة كالبرنامج الثاني في إذاعة الجمهورية العربية المتحدة أو البرنامج الثالث في الاذاعة البريطانية .

وهذه البرامج لا تحقق الهدف المقصود لثلاثة أسباب :

الأول : أن منها تصيرة جداً بالقياس إلى مدة البرنامج العام .

الثاني : أن توقيتها لا يناسب كثيراً من الفئات التي يضطرها عملها إلى عدم الاستماع إليها .

الثالث : أنه قد يطغى عليها لون معين من التفكير كالفن أو الأدب أو الموسيقى الكلاسيكية مثلاً ، لأن المشرفين على هذه البرامج ينتمون إلى أحد هذه الألوان الفكرية المختلفة ، أو يحبذون أحدها دون الألوان الأخرى .

لكن يلاحظ أن برامج الاذاعة آخذة في تحسين مستواها ، وأنها ترتفع تدريجياً لتلائم روح العصر والتطور الثقافي والاجتماعي ، ولتوائم بين نفسها وبين وسائل الاعلام الأخرى كالصحافة .

وفي بعض البلدان — كبريطانيا — يرى بعض المفكرين — ومنهم إرنست باركر Ernest Barker — أستاذ علم السياسة بجامعة كمبريدج — أن مستوى الاذاعة البريطانية أعلى من مستوى الصحافة هناك . . وأن الصحافة تعمل على رفع مستواها لتلحق بمستوى الاذاعة من النواحي الفكرية (٢) .

(١) راجع كتابنا ( الرأي العام والدعاية ) — الطبعة الثانية — ص ٧٨ .

(٢) راجع كتابه Britain and the British People. pp. 108,109.

أما الوسيلة الثالثة الكبرى وهي التلفزيون فتمتاز بأنها يجتمع فيها في آن واحد العناصر الثلاثة المؤثرة في الحيلة وهي الصورة والصوت والحركة . . . ولذلك كان التلفزيون أقوى وسائل الإعلام المؤثرة في نفوس الناس ، خصوصا بالنسبة للأطفال وطبقة العوام وغير المتعلمين بوجه عام .

هذا فضلا عن أن التلفزيون يستخدم العوامل المساعدة من موسيقى وغناء وتغليل ومناظر جميلة خلاصة — يستخدمها خير استخدام ، وفي أقوى صورة وأعلى درجة .

لكن لا يزال للراديو ميزة على التلفزيون وهي أن الأول تخترق موجاته كل أنحاء الأرض في لمح البصر ، إذ أن موجة الاثير تدور حول الكرة الأرضية في ١/٢ ثانية ، وتخترق كل الحدود والسدود فوق البحر واليابس . . . بينما لا يزال مجال التلفزيون محدودا ولا يتعدى دائرة قطرها نحو ١٠٠ ميل ، ولا بد من وجود محطات تقوية كلما أريد توسيع هذه الدائرة . والشاهد أن برامج التلفزيون لا تتعدى في الغالب حدود البلد الذي تتبعه محطة التلفزيون ، بينما تصل الاذاعات الموجهة بالراديو إلى جميع بلدان العالم .

وعلى ذلك فإن الراديو أقدر على تكوين الرأي العام العالمي وتشكيله بجانب قوة تأثيره على أغلبية الشعب من الفئات غير المتعلمة ، بينما يتفوق التلفزيون عليه من ناحية تكوين الرأي العام المحلي أو الوطني ، ومما يؤكد ذلك أن أكثر الناس تنصرف إلى مشاهدة برامج التلفزيون كلما وجد جهاز التلفزيون بين أيديهم دون الاستماع إلى الراديو حتى ولو كان الجهازان موجودين معا في غرفة واحدة أو مسكن واحد .

أما السينما فإن أكثر روادها من الشباب . وقد ثبت من بحث أجرى في أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية أن ثلثي هؤلاء الرواد هم دون الثلاثين ، وأن السينما أقوى وسائل الإعلام تأثيرا في الأطفال . كما ثبت من بحث آخر أجرى خلال الحرب العالمية الثانية بين الجنود الأمريكيين في ميدان القتال أن السينما أقدر على تغيير الممارسات ولكنها لا تستطيع تغيير الأفكار والآراء<sup>(١)</sup> .

والأفلام السينمائية التجارية أغلبها ذات مستوى منخفض من الناحية الفكرية والفنية ،

---

(١) راجع كتابنا ( الرأي العام والدعاية ) الطبعة الثانية ص ١٥٨

والقليل النادر من الأفلام ما يرقى إلى المرتبة العالمية حتى بالنسبة لأكبر مدينة للإنتاج السينمائي وهي مدينة هوليوود الأمريكية . . لأن هذه الأفلام المتأثرة تحتاج إلى نققات طائلة ، فضلا عن أن جمهورها محدود جداً فهي لا تلائم سوى فوق الطبقة المثقفة .

أما الجماهير فإنه لا يروقها إلا الأفكار السطحية وألوان الصخب والتبريج ، وما يشبع الفرائز المنحطة ، ويملأ النزعات والعواطف البشرية .

ومن الأفلام السينمائية ما يخصص في الإعلام كالجريدة السينمائية ، وفيها ما يخصص في التعليم والتثقيف . . ولكن هذه الأفلام تكون في العادة قصيرة جداً ، ويكون إنتاجها متواضعاً من الناحية الفنية . وقد ثبت من البحوث التي أجريت أخيراً أنها ذات فائدة محدودة من ناحية التزية والتعليم ، وتحقيق الرسالة المنشودة .

والمرح — وهو أبو السينما — له جمهوره المخلود . . ورواده في العادة أقل عدداً وأعلى في مستوى الثقافة والمستوى الاجتماعي والاقتصادي ، وهم أكثر نجاحاً من رواد السينما . لكن أمكن في بعض البلاد — كالجمهورية العربية المتحدة — تشييط المسرح وتيسيره لعامة الشعب ، بحيث أصبح يناقش السينما في ميدان التوجيه والإرشاد والتثقيف والترفيه .

والمرحجة في العادة ذات مستوى أعلى من الناحية الفكرية من القصة السينمائية . كما أن المسرحية تهتم بالمشاكل الاجتماعية وتعرضها بطريقة موضوعية وواقعية أكثر مما نجده في الروايات السينمائية .

بل إن السينما قد تشوه الإنتاج الأدبي أحياناً ، وتبعد عن القصة الأصلية لأسباب فنية أو تجارية .

وكل هذه الظواهر ينعكس تأثيرها على الرأي العام وإلى جانب هذه الوسائل الكبرى يشترك في تكوين الرأي العام الكتب العامة التي تلائم أذواق الجماهير المثقفة ، وكذلك الكتيبات والنشرات والمنشورات والملصقات . . الخ . كما يشترك التعليم والمحادثات الشخصية التي تدور بين الناس على قارعة الطريق أو في المركبات أو في الأماكن العامة أو على موائد الطعام — تشترك في هذه العملية ، وقد تتخذ صورة حملة قوية من الشائعات أو الأقاويل ، وهي ما يعبر عنها بحملات الهمس ، أو تتخذ صورة الاغتياب « والبردشة » التي تتناول سيرة الناس وقد تنهش لحمهم . وهنا يتبادر هذا السؤال :

هل استطاعت وسائل الاعلام ان تؤدي دورها كما ينبغي من ناحية تكوين  
الرأى العام ؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول ان هذه الوسائل ليست محرة من الضغط والتوجيه  
والاستغلال الناتج حتى في البلاد الديمقراطية ، فبى تستغل في الغالب للدعاية السياسية  
أو المهنية أو التجارية .

كما ان هناك ظاهرة خطيرة تهدد حرية الصحافة بالذات ، وهى تركيز الصحف <sup>(١)</sup>  
في أيدي عدد قليل من الناشرين الرأسماليين أو الشركات الرأسمالية الكبرى ، حتى لقد  
أصبح الطريق مسدوداً أمام الأفراد الذين يفكرون في إنشاء صحف جديدة ، لضخامة  
رأس المال اللازم لمثل هذا المشروع ، ويقدر بـ مليونين من الجنيهات على الأقل بالنسبة  
للمدن الصغيرة في الدول الغربية الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ،  
وبضعف هذه التكلفة ( أى نحو أربعة ملايين من الجنيهات ) بالنسبة للمدن الكبرى .

وقد تطور الأمر إلى اندماج <sup>(٢)</sup> كثير من الصحف لمواجهة الأعباء المالية المتزايدة  
والإزمات المالية التي تهدد أكثر الصحف ، واختفاء عدد كبير من صحف الرأى في نصف  
القرن الأخير ، الأمر الذي يهدد الديمقراطية نفسها . وكأن الصحف قد أصبحت كالسك  
ياكل منه الكبير الصغير . وأقرب مثال على ذلك صحيفة ( نيوز كرونيكل ) لسان حزب  
الأحرار في بريطانيا ( وكان توزيعها ١٥ مليون نسخة ) التي باعها صاحبها مستر كادبوري  
صاحب مصانع الشيكولاتة العالمية المشهورة إلى غريميتا ( الدبلي ميل ) الناطقة بلسان  
حزب المحافظين في عام ١٩٦٠ . وكانت ( النيوز كرونيكل ) تطالب الحكومة البريطانية  
بتغيير سياستها الاستعمارية والقضاء على التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا ، ووقفت أيضاً  
هذه الصحيفة الحرة إلى جانب مصر ضد حكومة إيدن أثناء العدوان الثلاثي الفادر في  
عام ١٩٥٦ بينما المعروف عن ( الدبلي ميل ) أنها صحيفة استعمارية ، وأنها لا تزال متعلقة  
بالإمبراطورية البريطانية ، وتؤيد التمييز العنصرى ، وقد أبدت أيضاً العدوان الثلاثي  
على مصر ، وكانت قبل العدوان تحرض إيدن على استخدام القوة ضد مصر بعد تأميمها  
قناة السويس .

(١) و (٢) راجع كتابنا ( إدارة الصحف ) - الطبعة الثانية - ص ٣٢ - ٣٩  
وكتابنا ( الرأى العام والدعاية ) - الطبعة الثانية - ص ٣٦٢

كذلك تلاحظ ظاهرة التركيز أيضاً في محطات الاذاعة والتلفزيون في كل البلاد الرأسمالية ، ويغلب الطابع التجارى والاستغلاتى على هذه الوسائل جميعاً بما فيها الصحافة .

وأكثر من هذا أن بعض هذه الوسائل يسخر لخدمة المصالح الأجنبية أحياناً عن طريق الرشاوى والإعانات المالية المستترة في صور طلبات نشر الاعلانات السياحية وغيرها . وبعض هذه الوسائل — كالراديو والتلفزيون — خاضع للحكومة مباشرة في صورة احتكار سافر .

والصحافة نفسها رسمية أو شبه رسمية في بعض البلدان ، وتسيطر عليها الحكومة عن طريق الرقابة الإدارية الداعة أو الاشراف والتوجيه المستمر . كما أن الصحافة ليست منتشرة في معظم الشعوب بالقدر الكافى ، ولا يقرأ الصحف إلا نسبة ضئيلة جداً من السكان ، بل إن جمهور قراء الصحف لا يستفيد من كل ما ينشر في الصحف كما هي الحال بالنسبة للأخبار الخارجية التى ثبت من استقصاءات أجريت في البلاد المتقدمة ذاتها — ومنها الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا — أن رجل الشارع لا يهتم بها ولا يقرأ منها شيئاً . ومعنى هذا أن الرأى العام في تلك البلاد يجهل السياسة الدولية والمساكل الدولية .

وهناك فوق ذلك كله أزمة خلقية في محيط المشتغلين بالإعلام بالرغم من صدور « عهد الشرف الصحفى » الذى كلفت « لجنة حرية الإعلام » بالأمم المتحدة في سبيل تقريره .

والذى يسيطر على وسائل الاعلام يسيطر على ( الرأى العام ) ويشكله كيف يشاء .

ولهذا فإن الضمان الوحيد لتكوين رأى عام حر ناضج فاهم أن تعمل هذه الوسائل بحرية وأمانة . وهذا لا يتحقق الا في ظل الديمقراطية ، وفي ظل التقاليد المرعية لمهنة الاعلام وآدابها .

أما فرض السيطرة الحكومية أو التوجيه الحكومى أو الرقابة الادارية على هذه الوسائل فإن هذا كله يعوق قيامها بوظيفتها في خدمة الحقيقة ، وخدمة مصالح الشعب ، وحماية السلام العالمى .

ومن ناحية العلاقات الدولية تقوم وسائل الإعلام بعرض السياسة اتقومية والدولية والدعاية لها أيضاً . وقد يكون هذا العرض وافياً بالفرض ، وقد يكون مشوهاً . ومن هنا

يحدث تضليل الرأى العام الخلى ، وتكدير صفو العلاقات الطيبة بين الدول والشعوب .  
فحين نريد من الذين يصلون بوسائل الإعلام أن يقولوا كلمة الحق والصدق ، وأن  
يبحروا الحقيقة فيما ينشرونه أو يذيعونه من أخبار وتعليقات ، خصوصاً ما يتعلق منها ببلاد  
غير بلادهم .

#### أنواع الرأى :

يفرق الاستاذ بوجاردوس Emory S. Bogardus <sup>(١)</sup> بين أنواع كثيرة من  
الرأى منها :

رأى الفرد (ومنه رأى ظاهر وآخر باطن) ورأى الأغلبية ورأى الأقلية والرأى  
الامتلاقي والرأى الساحق (أو الرضى العام) والرأى الجامع (أو الإجماع)  
والرأى العام .

والرأى الباطن بالنسبة للفرد يستطيع أن يبين عن نفسه ، ويصبح إيجابياً فى الانتخابات  
العامه إذا أحبطت بالسرية وكانت حرة .

ورأى الأغلبية هو رأى ما يزيد على نصف عدد أفراد الجماعة ، وقد يتكون نتيجة الدعاية  
القوية أو بحسب زعامة ناجحة . وهذا الرأى يكون فى الغالب نتيجة الاقبياد للزعامة أو  
لفتة قوية من القيادة .

وأما رأى الأقلية فهو رأى ما يقل عن النصف ، وقد يصف بالضيوج ويضم العناصر  
الطبية .. وفى إمكان هذا الرأى أن يصبح رأى أغلبية لو استخدم الدعاية الناجحة .

ورأى الأقلية يحفظ التوازن بين القوى السياسية المختلفة ، ويحول دون طغيان  
الأغلبية واطلاها إلى دكتاتورية مستقبلية بالأقلية .

وللأقلية فى البلاد الديمقراطية احترامها لأنها تقوم بوظيفة هامة فى تحقيق الديمقراطية ..  
ولولا المعارضة لأصيب الرأى العام بالجمود والتبلد . .

ولهذا لم يكن عجيباً أن يجمع زعيم المعارضة فى مجلس العموم البريطانى راتبا مساوياً لرئيس  
المجلس وهو يمثل حزب الأغلبية الذى يولى الحكم .

---

(١) راجع كتابه بعنوان The Making of Public Opinion pp. 7-16

أما الرأى الاتلاقي فهو رأى مصطنع يتألف من عدة أقليات قد اجتمعت سويًا لمواجهة ظرف طارئ وت تحقيق مصلحة مشتركة . فإذا زال هذا العامل الخارجى تفتت الرأى الاتلاقي من جديد ، وعادت الأقليات متنافسة وأنشط عما كانت فى الشاحن والتطاحن .. بل إن هذا الشاحن والتطاحن لا ينعدم أو يخفى أثره فى وقت الائتلاف ذاته ، وقد يكون على أشده أحيانًا نتيجة للصراع الحزبى والأطاع الحوية والشخصية .

ووجود الرأى الاتلاقي دليل على عدم نضج الرأى العام وأن النظام الديمقراطى نفسه مهدد بالخطر .

ولا يوجد هذا الرأى عادة إلا فى البلاد التى تفتت فيها الرأى العام تفتتًا كبيرًا ، واضطربت فيها أحوال البلاد السياسية .

أما الرأى العام فمعناه أن كل الشعب تقريبًا قد آمن بالقضية أو الفكرة أو الشخص .. فالرأى العام هنا شئ أكبر بكثير من رأى الأغلبية وهو يناهز ٩٠ ٪ أو أكثر .

ووجود هذا النوع من الرأى — فى نظر بعض المفكرين — فيه اتهام صريح للجماهير بأنها ساء بكها عيبه لا تقبل ، وأنها لم تفكر فى المشكلة أو تكلف نفسها عناء البحث . وإذن فهذا النوع من الرأى هو وليد الاقتياد والتقليد أو التسليم .

ولو أمكن وصول الجماعة إلى هذا النوع من الرأى عن تفكير وروية فإنه بعد أدنى مراتب الديمقراطية .

أما الرأى الجامع فإنه يستمد أصوله من تاريخ الأمة وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وميراثها الثقافى بوجه عام .

وهو يتميز بالثبوت والاستقرار ، ولا يتغير إلا فى القشور ، أما الجوهر فإنه مصون لا يمس ، ولا يقصر سوى الأنبياء والرسل والفلاسفة وأصحاب المذاهب الاجتماعية الجديدة (كالشيوعية مثلا ) على مواجهة هذا النوع من الرأى والتصديق له .

ومعنى وقوف الفرد فى وجه الرأى الجامع أنه يقف فى وجه الجماعة ، ويحدى وجودها وكيانها ، وهذا مما يعرضه لأذاها أو احتقارها على الأقل .

والرأى الجامع هو الوسط أو المجال الذى تسبل بداخله كل أنواع الرأى .

وأما الرأي العام فإنه ينقسم في رأى إميل دوفيفات Emile Dovifat<sup>(١)</sup> مدير معهد الصحافة بجامعة برلين إلى ثلاثة أقسام :

#### الرأى العام اليومى :

وهو الذى يتكون نتيجة لنشاط الهيئات المختلفة للحكومة والبرلمان . وهو متقلب من يوم إلى آخر تغلب الطقس في شهر أبريل على حد قول الانجليز . والصحف تعيش على هذا النوع من الرأى وهو يؤلف عناوينها الرئيسية بالصفحة الأولى ( المانشيت ) .

#### الرأى العام المؤقت :

وتثله الأحزاب السياسية . وهو موقوت بوجودها .

#### الرأى العام الكلى :

وهو الرأى الثابت على مر الاجيال والذى أطلقنا عليه الرأى العام . وهناك أيضا التقسيم المتعارف عليه وهو أن الرأى العام يتألف من ثلاثة أنواع :

١ — رأى عام نابه .

٢ — رأى عام قارىء .

٣ — رأى عام منساق (أو منقاد) .

والأول يؤلف نسبة ضئيلة جداً في كل المجتمعات ، ويمثل في فئة المفكرين وأصحاب المهن الرفيعة وهؤلاء هم الذين يؤثرون في وسائل الاعلام ويوجهونها ولا يتأثرون بها .

والثاني (القارىء) توقف نسجه على انتشار التعليم ، وهو يتأثر بوسائل الاعلام ويؤثر فيها إلى حد ما .

والثالث (المنساق) يؤلف الأغلبية الساحقة من الشعب ويتأثر بكل وسائل الاعلام ولا يؤثر فيها على الاطلاق .

---

(١) راجع كتاب Karl Bömer-Das Internationale Zeitungswesen. pp. 5-9



## وظائف الرأى العام :

نستطيع أن نجمل وظائف الرأى العام فى أربعة وظائف :

الاولى : أنه يسن القوانين ويلغىها عن طريق البرلمانات .

الثانية : أنه يسند الهيئات الاقتصادية والاجتماعية .

الثالثة : أنه يعزى المثل الخلقية .

الرابعة : أنه يحافظ على الروح المعنوية ويملؤها قوة <sup>(١)</sup> .

فمن ناحية الوظيفة الاولى لا يمكن أن ننظر أن القوانين تفرض بالقوة على الناس ،  
ونستطيع أن نخلق الرأى العام .

كذلك لا نستطيع أن نعيش أية هيئة بدون مساندة الرأى العام والحصول على السمعة  
الطيبة بين الناس .

كذلك يعتبر الرأى العام حارسا على الأخلاق . والرأى العام أيضا إذا اتحد يستطيع  
أن يصل بالروح المعنوية إلى الذروة .

وعلى العكس من هذا تضعف الروح المعنوية فى الشعب وتتضعف اذا انقسم  
الرأى العام على نفسه انقسما كبيرا ، أو اذا تألف من قوتين فقط متصادمتين  
ومتعاديتين أشد العدواة أو اذا تألف الشعب من طبقتين اجتماعيتين اثنتين فقط  
احدهما راسمالية ذات ثراء فاحش ، والثانية معدمة لا تملك غيرا ولا قطميرا .

وإن فالانحداد بين أبناء الشعب والثقة بالزعماء والشباب وقرب الفوارق بين الطبقات  
من العوامل الهامة فى رفع الروح المعنوية والحيلولة دون التصادم الاجتماعى والثورات  
الدموية .

ولا شك أن الاشتراكية هى التى تستطيع أن تعالج كل هذه الأدواء والمشاكل .

والثورة الاشتراكية فى الجمهورية العربية المتحدة تعمل على ازالة الفوارق  
بين الطبقات من غير اجحاف بحق الفرد فى تحصيل ثمره كده وكفاحه وعلمه وعمله ،  
دون الاضرار بمصالح الغير أو استغلال الجماهير .

---

(١) راجع كتابنا الرأى العام والدعاية ١ - الطبعة الثانية ص ٥٨ - ٦٩

كيف يمكن كسب الرأى العام ووقوفه الى جانب الحكومة ؟

هذه مهمة « العلاقات العامة » سواء داخل الحكومة أو بين الحكومة والشعب .

يفينى أن تقوم إدارات العلاقات العامة بالوزارات والمصالح والمؤسسات العامة بالواجبات الآتية :

أولاً — إعلام الموظفين والعمال بكل ما يهمهم من ناحية العمل والخدمات المختلفة التى تؤديها لهم الجهة الحكومية التى يعملون بها واختيار وسائل الاتصال المناسبة لتحقيق هذا الغرض من مجالات وثرات خاصة وكتيبات وأفلام سينمائية ... الخ .

ثانياً — استفتاء الموظفين والعمال من آن لآخر للوقوف على آرائهم واتجاهاتهم ومطالبهم إزاء سياسة التوظف والخدمات العامة التى تؤديها لهم الحكومة ، وكذلك السياسة العامة التى تنتهجها الجهة الحكومية التى يعملون بها فى أداء الخدمات للقطاعات المختلفة .

ويمكن تحقيق هذا الهدف عن طريق المؤتمرات التى تعقد بصفة دورية ولو مرة على الأقل كل عام ، أو بواسطة المحاضرات والمناظرات والندوات ، أو المجالات الخاصة التى تفرد باباً لآراء الموظفين والعمال ومقترحاتهم وشكاواهم .

ثالثاً — وضع برامج تثقيفية وترفيهية متنوعة للموظفين والعمال واختيار وسائل الاتصال المناسبة لكل فئة من الفئات كالمحاضرات والمكتبات والدوريات الصحفية والمختلفة والحفلات والرحلات ... الخ .

رابعاً — توفير الظروف الطيبة للعمل من حيث المكان والأثاث والإضاءة والتهوية وكذلك الخدمات العامة المتصلة بالمصاعد الكهربائية وما يلزم الموظف أو العامل من شراب ( أو طعام أحياناً ) أثناء العمل .

خامساً — تيسير حصول الموظف أو العامل على ما يلزمه هو وأسرته من مسكن صحى ملائم وغذاء وكساء وترفيه بأقل تكلفة ممكنة وذلك عن طريق الجمعيات التعاونية .

سادساً — تقديم المساعدات المادية للموظفين والعمال ( أو عائلاتهم ) الذين يصابون بكموارث ومواساتهم فى أحزانهم .

سابعاً — تقديم الهدايا الصغيرة أو باقات الزهور إلى الموظفين والعمال فى المناسبات السارة الخاصة بهم ( كالزواج مثلاً ) أو على الأقل إرسال برقيات التهنئة أو البطاقات

الشخصية من رئيس المصلحة التي يعمل بها ، إشعاراً للموظف أو العامل المشاركة الوجدانية والاهتمام بشئونه الخاصة . وفي رأينا أن العلاقات العامة الطيبة داخل الحكومة ينبغي أن تسبق العلاقات العامة مع جماهير الشعب وان يكون لها الحل الأول . ذلك لأنه لا ينتظر لاداة حكومية لا أثر للعلاقات العامة الطيبة في داخلها أن تقوم بالخدمة العامة على أى وجه حسن ، وأن تكون صلتها بالشعب على مايرام . . فالصورة التي تكون عليها الاداة الحكومية نفسها هي نفسها الصورة التي تنطبع في أذهان الشعب عن هذه الاداة .

وبالنسبة للعلاقات انعامية بين الحكومة والشعب ينبغي أن تقوم أولاً وقبل كل شيء على أساس من التفاهم بين الجانبين عن طريق تبادل المعلومات والآراء ، ويتم هذا بوسائل الاعلام المختلفة .

كما ينبغي أن تتوفر في هذا الاتصال صفة الاستمرار والدوام حتى تظل الصلة وثيقة بين الطرفين ، فلا تقتصر الجهة الحكومية على عمل الحملات الدعائية في مواسم خاصة أو مناسبات معينة .

كذلك هناك وسيلة سهلة للوصول إلى هذا الغرض وهي تخصيص مكاتب لتلقى شكاوى الجمهور وتحقيقها ، ومتابعة تنفيذ الأعمال الحكومية حتى لا تتطفل مصالح الناس ، أو تلاح الفرصة لاستغلال النفوذ الحكومى للمصالح الشخصية والضغط على الجمهور لدفع الرشاوى لضعاف النفوس من الموظفين .

وفي الامكان أيضاً إنشاء قسم للاستفتاءات بكل إدارة للعلاقات العامة للاتصال المباشر بأفراد الشعب عن طريق الاستفتاء المكتوب أو الشفهي للتعرف على رأى الشعب فيما تقدمه الحكومة له من خدمات ، أو ماسوف تقدم عليه من مشروعات أو تخطيطات جديدة . بل إننا ننصح بإنشاء مثل هذ القسم لتحليل الرأى العام من حين لآخر . ونستطيع أن نجمل الأسس التي تقوم عليها العلاقات العامة الحكومية مع الشعب فيما يلى :

أولاً — يجب أن تتعاون الحكومة مع الصحافة باعتبار الأخيرة مرآة الرأى العام ، وأن تمد مندوبى الصحف والاذاعة والتلفزيون ووكالات الأنباء يومياً بالأخبار والملاحظات والمعلومات التي تتعلق بأعمال الجهات الحكومية المختلفة ، كما ينبغي على المسؤولين أن يجيبوا على أسئلة هؤلاء المنلوين .

وعلى ذلك فليس من المستغاب فى النظام الديموقراطى أن تفرض الرقابة على وسائل الاعلام ، أو أن توضع القيود عليها ، لأنها تعوق مهمة رجال الصحافة والمستفتلين بالمشاكل العامة . ونحجب كثيراً من الحقائق التى يجب أن يعرفها الجمهور ، وتقصد العلاقات بين الحكومة والشعب .

والرقابة — فضلاً عن ذلك — تمهد الطريق لانتشار الشائعات الضارة بالحكومة والمجتمع وزويج الأكاذيب .

ثانياً — ليس من مصلحة الدولة الديموقراطية أن تعتمد الحكومة على وكالة أنباء رسمية بالنسبة للرأى العام العالمى ، لأن مثل هذه الوكالة تكون أخبارها محل شك باستمرار باعتبارها وسيلة من وسائل الدعاية .

ثالثاً — يجب أن يكون هدف العلاقات العامة كسب الرضى العام والتأييد من الجمهور والهبة التشريعية ، وهذا لا يتم إلا بإحاطة المواطنين بالخدمات التى تؤدىها الحكومة للشعب فى مختلف الميادين ، وتمكينهم من الانصاح عن آرائهم بحرية .

رابعاً — يجب أن تقوم الحكومة بشرح وتفسير التنظيمات والتشريعات الجديدة للشعب ، وبيان المزايا التى يمنحها منها ، حتى لا يشعر بأنها مفروضة عليه قسراً وقهراً ، فيقبلها بهدر رحب ، ويقوم بتنفيذ القوانين عن رضى واقتناع .

خامساً — يجب الرد على الأكاذيب والمقتربات والمجلات الهجومية على الحكومة فى الأحوال التى تتطلب ذلك أو القيام بمحملات الدعاية المضادة دون الإشارة إلى الشائعات الرائجة أو مصدرها ، فذكر الحقائق والمعلومات المتعلقة بالموضوع والتى تهدم الأقوليل التى تدور على ألسنة الناس .

وفد ندعو الضرورة أو المصلحة العامة فى بعض الأحوال أن تلوذ الحكومة بالصمت نحو خبر أو أخبار أو شائعات معينة رائجة على ألسنة الجماهير ، أو نحو محادثات سياسية جارية مع إحدى الدول الأجنبية أو بعضها (١) .

(١) للاستزادة فى هذا الموضوع ارجع الى كتابنا ( اصول العلاقات العامة ) وكتابنا ( العلاقات العامة فى الحكومة ) . وكذلك مقالنا بعنوان ( أهمية العلاقات العامة فى سياسة الحكم ودورها فى الدولة الاشتراكية ) بالمجلة المصرية للعلوم السياسية بعدد مايو سنة ١٩٦٢

## الرأى العام والحياة السياسية فى الجمهورية العربية المتحدة

من الظواهر التى تلفت النظر بالنسبة للرأى العام فى الجمهورية العربية المتحدة الآن أمران :

الأول — زوال الانقسامات التى كانت موجودة فى الرأى قبل الثورة والتى كانت نتيجة لتعدد الأحزاب السياسية .

الثانى — ازدياد قوة الرأى العام بعد القضاء على الفوارق الكبيرة بين الطبقات واندحار الإنطاع والرأسمالية المستغلة فى ظل الثورة الاشتراكية ، مما رفع الروح المعنوية فى صفوف الطبقة العاملة من الفلاحين والعمال وهم الذين يكونون الأغلبية الساحقة من الشعب .

ومن أسباب هذا التغيير الجذرى فى الرأى العام المصرى ما يأتى :

أولا — القضاء على الأحزاب السياسية والصحافة الحزبية .

ثانياً — تسخير وسائل الإعلام لخدمة الشعب وتمليكها المؤسسات الصحفية الكبرى، واستحداث وسيلة جديدة لها أعمق التأثير فى الرأى العام لتوجيهه وهى التلفزيون . وقد بدأ عمله فى يولييه سنة ١٩٦٠ .

ثالثاً — تحميم وتنويع برامج الراديو والتلفزيون ومضاعفة مدة الإرسال بحيث يستغرق البرنامج العام فى الإذاعة الآن نحو ١٩ ساعة أو أكثر بالإضافة إلى عدة برامج إذاعية أخرى تنافى فى نفس الوقت مثل ( إذاعة الشعب ) وإذاعة ( صوت العرب ) و ( البرنامج الثانى ) والبرامج الموجهة إلى العالم الخارجى . وتبلغ مدة هذه البرامج مجتمعة نحو ١٢٠ ساعة يومياً (١) .

---

(١) راجع كتاب ( الإذاعة فى عشر سنوات ) لهيئة الإذاعة والتلفزيون ص ١١ .  
وقد بلغ متوسط ساعات الإرسال اليومى فى عام ١٩٦٢ ما يزيد على ١١٧ ساعة .  
وهذا مقابل ١٥ ساعة فقط فى عام ١٩٥٢ .

كذلك يقدم التلفزيون العربى ثلاثة برامج مختلفة على ثلاث قنوات مستقلة ويعتبر فى المرتبة الأولى بين تلفزيونات العالم من حيث طول مدة الارسال :

كما تحتل إذاعة الجمهورية العربية المتحدة المرتبة الثانية بين إذاعات العالم من حيث قوتها وتلى إذاعة الاتحاد السوفيتى مباشرة ، وهى أقوى إذاعة فى العالم .

رابعا — إنشاء جهاز قوى للإعلام والدعاية فى الداخل والخارج وهو ( مصلحة الاستعلامات ) التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد القومى الآن . وقد ظلت هذه المصلحة منذ إنشائها تحت إشراف السلطة العليا فى البلاد .

وللمصلحة مكاتب ومراكز تغطى جميع أنحاء الجمهورية وتمتد إلى أكثر العواصم فى الخارج . وكذلك تحبب قوافل الاستعلامات جميع أنحاء الريف فى الداخل .

خامسا — العناية بنشر الكتاب الشعبى على نطاق واسع وإنتاج مئات الكتب السياسية والثقافية وتمكفل بهذه المهمة الآن ( الدار القومية للطباعة والنشر ) إلى جانب دور النشر الأخرى ، وكذلك مصلحة الاستعلامات وإدارة الثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد القومى .

سادسا — العناية بالسينما والمسرح وإنشاء مؤسسة دعم السينما ( وهى مؤسسة عامة تابعة لوزارة الثقافة والإرشاد القومى ) . وتألّف ثمرات الفرق المسرحية واستغلال الفن فى الدعوة الاشتراكية والدعاية للثورة .

سابعا — التوسع فى التعليم وتقرير مجانية التعليم فى جميع مراحلها بما فى ذلك مرحلة التعليم الجامعى والعالى .

ومما ساعد على تنوير الراى العام المصرى ان اجهزة الاعلام عندنا وخاصة الاذاعة والتلفزيون تعرض على نشر الحقيقة ، وقول الكلمة الصادقة ، وتنسم فى أحاديثها بالصراحة ، وهى الطريقة التى تسير عليها الدولة سواء فى سياساتها الداخلية او الخارجية .

والذى لا شك فيه أن الرئيس جمال عبد الناصر يعتبر أصرح زعيم وأصرح رئيس دولة فى العصر الحديث . وقد رسم طريقا جديدا للدبلوماسية الدولية قائما على الصراحة والصدق والشجاعة الأدبية ، مما يخالف الأساليب الدبلوماسية

التقليدية التى تقوم على أسس المناورات السياسية واللف والوردان والخداع السياسى والكلب أحياناً<sup>(١)</sup> .

كذلك لم يتقيد الرئيس جمال عبد الناصر بالأساليب التقليدية فى أحاديثه وخطبه حينما يتناول مياسة رؤساء الدول والحكومات بالنقد ، فهو يتحدث بصراحة لاذعة ويستخلم أحياناً عبارات وأساليب لا تعجب أتباع مدرسة الدبلوماسية التقليدية .

وكان لتخديه للدول الكبرى ومهاجمتها هجوماً عنيفاً فى خطبه السياسية ضجة كبرى فى العالم كله ، وكان لهذا الأسلوب الجديد فى الخطابة السياسية لرئيس دولة ناشئة أثار بعيدة المدى فى قلب السياسة الدولية ، وتشجيع كل الدول الصغيرة حديثة العهد بالاستقلال على الصمود فى وجه القوى الاستعمارية ، بل كان لأسلوب عبد الناصر وانتصاره على العدوان الثلاثى الصادر على مصر فى عام ١٩٥٦ أثر عميق فى دفع حركات التحرر الثورية كما حدث فى الجزائر والعراق واليمن .

وكان لنجاح عبد الناصر أيضاً فى سياسة التأميم ونعدى الدول الأجنبية أثار كبير على دول أخرى غير عربية فى الشرق والغرب اتبعت نفس الأسلوب فيما بعد كما حدث فى إندونيسيا وكوبا وغيرهما .

ثامناً — ولعل أهم هذه العوامل جميعاً تكتل قوى الشعب العاملة فى تنظيم سياسى شامل كبير وهو ( الاتحاد الاشتراكي العربى ) حيث يجتمع كل أبناء الشعب من الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والمشتغلين بالاقتصاد القومى فى صعيد واحد ، وتآلف منهم وحدة واحدة ، تتفاعل كل عناصرها مع بعضها البعض ، فى بوتقة ( الديمقراطية الاشتراكية التعاونية ) التى يؤمن بها الجميع كما صورها ( الميثاق ) .

وقد سبقت هذه التجربة تجربتان أخريان :

---

(١) يشاطروننا هذا الراى الكاتب الصحفى البريطانى توم ليتل Tom Tittle الذى قال فى كتابه عن الرئيس جمال عبد الناصر انه « يتحدث عن الدول الغربية بازدياء وبجراة لم يسبقه إليها أى زعيم فى الشرق الأوسط » - راجع كتابه عن السيد الرئيس الذى ترجمته لجنة من الأساتذة الجامعيين ببيروت تحت عنوان ( جمال عبد الناصر رائد القومية العربية ) ص ٢٨٠

الاولى — تجربة ( هيئة التحرير ) التي تشكلت عقب قيام الثورة . وقد استطاعت أن تؤدى دورها في ذلك الوقت من ناحية تعبئة الرأى العام والقوى الشعبية لمقاومة الاحتلال البريطانى حتى تم الجلاء بحمد الله في يونيه سنة ١٩٥٦

الثانية — وهى تجربة ( الاتحاد القومى ) الذى تشكل عام ١٩٥٨ ، وقد استطاع الاتحاد جمع شمل الأمة ، وضح صدره لكل العناصر دون تحزب أو احتياط ، مما أعطى الفرصة للعناصر الرجعية والانتهازية بأن تنسرب إلى منظماته ، بل لأن تصل إلى الصفوف الاولى ، والمراكز القيادية (١) .

وكان هذا أحد أسباب ( نكبة الانفصال ) في سوريا ، وخروجها من الجمهورية العربية المتحدة تحت تأثير الرجعية والدعاية الاستعمارية والصيونية ضد سيادة الرئيس جمال عبد الناصر .

وقد فطن فيما بعد الضباط السوريون الاغرار الذين نفلوا الحركة الانفصالية إلى أنهم قد خدعوا ووقعوا في الشرك الذى نصبه أعداء القومية العربية والوحدة العربية ، ثم أتيت الفرصة للعناصر الرجعية للتحريض الصحيح هذا الخطأ في شهر مارس سنة ١٩٦٣ ، وقامت ثورة تندو إلى الوحدة وصدر إعلان الرحلة ثم ميثاق الوحدة في ١٧ ابريل من نفس العام بقيام الدولة العربية الكبرى وهى ( الجمهورية العربية المتحدة بأطرافها الثلاثة مصر وسوريا والعراق ) . ولكن حدثت نكسة ثانية بسبب ( حزب البعث ) الذى يحكم الآن في سوريا والعراق والذى أقصى العناصر الوحدية عن الجيش والمناصب الحكومية مما دعا مصر إلى إعلانها أن لا وحدة مع حزب البعث ) .

فلما كانت التجربة الأخيرة ( وهى تجربة الاتحاد الاشتراكي العربى ) وقد استفادت مصر درساً نافعاً من التجربة التى سبقتها ( وهى تجربة الاتحاد القومى في سوريا ) سدد الطريق امام العناصر الرجعية والانتهازية وأعداء الشعب ، فلم يدخلوا تنظيماً الاتحاد .

---

(١) لمعرفة الفروق الجوهرية بين ( الاتحاد القومى ) و ( الاتحاد الاشتراكي العربى ) راجع مقالنا بعنوان « كيف حققنا الديمقراطية في بلادنا بعد الثورة » بعدد أكتوبر سنة ١٩٦٢ من المجلة المصرية للعلوم السياسية .



الفرق بين تجربتنا الديمقراطية الجديدة في الجمهورية العربية المتحدة وبين الديمقراطية التقليدية القائمة على تعدد الأحزاب :

لست أنكر أن الأحزاب السياسية تقوم بدور كبير في الحياة السياسية ، وأن بعض البلاد قد نضجت فيها الحياة الحزبية بحيث أصبح هناك أحزاب لها برامج محددة ومذاهب سياسية واضحة الأهداف ، فضلا عن التنظيم الحزبي السليم الذي يمكن كلا من القيادة الحزبية وسائر الأعضاء من الاضطلاع بواجبهم الحزبي والسياسي .

وهذا كله كان نتيجة للتجربة الديمقراطية طويلة الأمد لتلك البلاد ، ونتيجة أيضا للتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وخاصة من ناحية سعة انتشار التعليم ، وانعدام الأمية وحرص الأغلبية العظمى من الناس على قراءة الصحف والمجلات والكتب العامة والاستماع إلى برامج الراديو والتلفزيون ومتابعة القضايا العامة .

ولكن الوضع بالنسبة لوطننا العربي يختلف عن ذلك كله . فلا زالت الأمية متفشية بين غالبية السكان ، ولا يعرف أكثر الأقطار العربية من الديمقراطية إلا اسمها فقط .. وإن وجدت الأحزاب فهي في الغالب تشكيلات تجري وراء الأشخاص لا وراء المبادئ أو البرامج المرسومة أو الأهداف المحددة لصالح الشعب .

وفي الجمهورية العربية المتحدة بالذات كان يوجد قبل ثورة ٢٣ يولييه سنة ١٩٥٢ نظام ديمقراطي اسمًا وشكلًا ، لا فعلاً وعملاً . كانت هناك ديمقراطية زائفة تقوم على أحزاب أشخاص ، وعلى برلمان مؤلف من الإقطاعيين والرأسماليين المستغلين وبعض الاتهازيين من المثقفين الذين يأكلون على كل الموائد ، ويحنون الفرس للتسلق ولو على جثث أصدقائهم بالأمس ، فهم قوم مذنبون متلونون ، ويحسون تغيير لون جلودهم وقت الزوم .

وكان الحكم قبل الثورة لصالح الملكية والإقطاع والرأسمالية المستغلة بل وأقول أيضا لصالح الاستعمار الذي استطاع أن يسيطر على الاقتصاد القومي ، وأن يتحكم في تجارتنا الخارجية وميزاننا التجاري - ولم يكن ذلك الحكم بطبيعة الحال لصالح الشعب .

وكان هناك برلمان ولكنه كن يمثل مصالح هذه الفئات المستغلة للشعب ، والتي نهبت خيرات البلاد ، وحرمت الفلاح والعامل من ثمرة كده وعرق جبينه وتركت لهما الفتات .

وإن فحيرة الأحزاب في بلادنا كانت تجربة فاشلة من وجهة الديمقراطية . بل إن وجود تلك الأحزاب كلن السبب الجوهرى والرئيسى فى إطالة أمد الاستعمار الأجنبى والاحتلال البريطانى فى بلادنا الذى أخذ يلعب بالأحزاب ، وبرأوغ الشعب فى مفاوضات ظلت حلقاتها متصلة طوال عشرات السنين ، ولم يكن الاحتلال خالص النية فى تلك المفاوضات فى أى وقت من الأوقات من ناحية الجلاء ، وإنما كان يريد أن يكسب الوقت من وراء هذه المفاوضات التى تكررت على يد الأحزاب . وفى نفس الوقت كان الاحتلال هو الذى يقيم الحكومات الحزبية ويقصها عن الحكم ، ويلوح لرئيس هذا الحزب أو ذاك برئاسة الوزارة ، بل إن الاحتلال فرض أحد رؤساء الأحزاب فرضاً — وبالقوة العسكرية — لى برأس الحكومة فى حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ المشهور خلال الحرب العالمية الثانية (١) .

فكيف ينتظر أن تقوم حكومة حزبية هى من صنع الاحتلال بطرد الاحتلال ؟

ولهذا لم يجعل المحتلون عن مصر الا عندما تالفت لأول مرة فى تاريخها نحت الاحتلال البريطانى — حكومة وطنية حرة — هى حكومة الثورة — ليس للاحتلال يد فى حصولها على الحكم .

لقد استولت الثورة على الحكم بالقوة ، ووقفت فى وجه الاحتلال وقفة المصمم الذى لا يلين . وهنا اسقط فى يد الاحتلال ولم ير بدا من حمل عصاه على كتفه ومقادرة البلاد مغلولا مدحورا .

وإذا حللنا الديمقراطية التقليدية القائمة على تعدد الأحزاب لوجدنا أن هذه الأحزاب إنما تنقاد أكثرية أعضائها فى الغالب لرئيس الحزب أو فئة قليلة من أعضائه البارزين الذين يتلون مجلس إدارة الحزب أو هيئة مكتب الحزب .

وعلى هذا يكون حكم الأغلبية فى الظاهر ، بينما هو — فى حقيقة الأمر — حكم هذه الفئة القليلة المثلة فى زعامة الحزب وقيادته ، واستبداد هذه الفئة أحياناً بالحزب

---

(١) حاصرت اللبابات البريطانية قصر عابدين حيث كان يقيم الملك السابق فاروق ، وهدده السفير البريطانى — باسم الحكومة البريطانية — بنفيه خارج البلاد ، إذا لم يستجيب للأنذار البريطانى بتعيين مصطفى النحاس ( باشا ) رئيس حزب الوفد رئيساً لوزارة وكان هذا الحزب اكبر الأحزاب السياسية فى ذلك الوقت .

نفسه ، ومن باب أولى بالحكم وبأحزاب الاقلية الأخرى . بل إن هذه القيادة الحزبية تفرض آراءها فرضاً أحياناً على الحزب ، وتضع القرارات مقدماً لكي يقرها بقية الأعضاء ، أو تستخدم على الأقل أساليب ناجحة في الإقناع ، تم عن الدهاء والذكاء ، بحيث تفقد أكثرية الحزب لهذه الفئة القليلة التي تضطاع بدور القيادة .

أما في تجربتنا الديمقراطية الجديدة ، فإن الأغلبية هنا تمارس حقها على نطاق الشعب كله ، وهكذا تفعل الأقلية أيضاً .

ولكن كليهما - أعنى الأغلبية والأقلية - ليست ثابتة ولا متكتلة في صورة أحزاب .

فالأغلبية في نطاق ( الاتحاد الاشتراكي العربي ) لا تمثل حزبا ، ولا تنقاد الى شخص معين أو قيادة حزبية معينة ، ولا يتبعها أفراد بعينهم على طول الخط . وهكذا الحال بالنسبة للأقلية . فالفرد الواحد قد يكون اليوم مؤيدا لقضية من القضايا أو مسألة من المسائل ، ثم يصبح غدا معارضا للقضية أخرى أو مسألة أخرى .

ومادامت حرية الرأي مكفولة لجميع المواطنين بمقتضى « الميثاق » فلكل واحد أن يناقش القضايا والمسائل العامة بحرية داخل تنظيمات الاتحاد على مستوياته المختلفة طالما كان مقيدا بمبادئ « الميثاق » الذي ارتضاه الشعب مناجاً للحياة وخطة للعمل .

لقد أقر الشعب « الميثاق » على يد « المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية »<sup>(١)</sup> الذى انتخبته القطاعات الشعبية المختلفة ( من فلاحين وعمال ومثقفين ومشغلين بالاقتصاد القومى ) انخباها حراً . وكان لى شرف العضوية فى ذلك المؤتمر ممثلا لقطاع أساتذة جامعة القاهرة .

وناقش المؤتمر « الميثاق » مناقشة حرة صريحة أذيعت على الهواء بالراديو والتليفزيون ( أى فى نفس الوقت الذى دارت فيه هذه المناقشات ) كما نشرت عنها ملخصات وإنية بالصحف اليومية ، والأسبوعية والمجلات .

---

(١) بدأ المؤتمر جلساته فى ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ وقدم الرئيس جمال عبد الناصر إليه « مشروع الميثاق » ثم أخذ المؤتمر يناقش المشروع فى جلسات متتالية انتهت بموافقة عليه وعلى تقرير « لجنة الميثاق » الذى يعتبر مكملاً له ، ويحتوى هذا التقرير على بعض المبادئ الهامة والتوجيهات العامة . وأنهى المؤتمر أعماله فى يوم ٤ يولييه سنة ١٩٦٢

اننى اعتقد ان هذه التجربة الجديدة وهى تجربة (الاتحاد الاشتراكى العربى) ستصور امتنا العربية وتخلصها من الشوائب التى عقلت بها طوال القرون بسبب الاقطاع والاستعمار والاستبداد . وستتيح لها ممارسة الديمقراطية ممارسة فعلية . وستنضج الراى العام العربى على مر الأيام الى الحد الذى يخلق قيادات فكرية وسياسية جديدة لا تلبث ان تصبح النواة التى تلتف من حولها عناصر اخرى مؤيدة ، وهكذا يتمخض المستقبل عن تشكيلات سياسية ذات معدن اصيل شبيه بتلك التشكيلات التى توجد فى البلاد العربية فى الديمقراطية .

أما المرحلة الحالية فى تاريخ الأمة العربية — وهى مرحلة التحرر من الاستعمار والصهيونية والنفوذ الأجنبى والسيطرة الأجنبية على الاقتصاد العربى . . . ومرحلة التحرر من الرجعية والتخلف الاقتصادى والاجتماعى . . . ومرحلة البناء الاشتراكى — فلا أجد من صالح امتنا العربية أن تقسم على نفسها شيعاً وأحزاباً فتفتت جهودها ، وتضل طريقها ، أو على الأقل تفتت فيه .

ان الوحدة الوطنية ، والوحدة العربية هما طريق الأمن للأمة العربية فى هذه المرحلة التاريخية الحاسمة من حياتها .

وحبذا لو استمعت الأمة العربية فى كل الاقطار العربية إلى صوت العقل ، ونخلت عن عواطفها وأوهامها ، ونخلت أحزابها عن أنانياتها وحب ذاتها ، وأخذت بالتجربة الواقعية العاقلة التى قام بها أبناء الشعب العربى فى الجمهورية العربية المتحدة حتى تصل السفينة إلى بر السلامة .

ومن أقوى دلائل وقوف الراى العام فى مصر من وراء الرئيس جمال عبد الناصر أنه حينما أعلن تأميم قناة السويس هلل الشعب وكبر لهذا القرار التاريخى العظيم الذى أعاد القناة لصاحبها الشرعى وهو شعب مصر . حتى الذين كانوا يعارضون عبد الناصر من قبل أصبحوا من المؤيدين .

وحينما حدث العدوان الثلاثى على مصر كانت إذاعات الإعداء تقول للمصريين إن عبد الناصر دكتاتور وحرّم الشعب نعمة الديمقراطية . وكانوا يأملون أن يثور الشعب ضد عبد الناصر أثناء العدوان ، ولكن الذى حدث أن عبد الناصر وزع السلاح على جميع المصريين ووقف الشعب كله إلى جانب الجيش مع عبد الناصر ، يدافع عن مصر ، وعن القناة .

لماذا ؟

لأن الشعب يؤمن بعبد الناصر ويؤمن بالثورة .

لقد وقف الجميع أيام العدوان الثلاثي يدافعون عن وطنهم وعن ثورتهم حتى أساتذة الجامعة كانوا في المعركة مع طلابهم . . وكان لى شرف التطوع للتدريب العسكرى قبل العدوان الثلاثى بأسابيع قليلة فى أول فرقة من المتطوعين من أساتذة جامعة القاهرة ، فقد كنا نتوقع الحرب . وكان يقف الى جانبى فى الصف أساتذة كبار فى السن فوق الخمسين ، وهم يحملون البنادق الثقيلة ، ويزحفون على بطونهم ، ويلقون بالقنابل اليدوية .

وطوال سنى الثورة وإذاعات العدو تهاجم سياسة عبد الناصر ، وقد تعدت الإذاعات السرية الموجهة ضد بلادنا حتى بلغ عددها بضع عشرة محطة ، ولكن الرأى العام المصرى لم يتدخل بهذه الإذاعات . بل إنه لم يستع إليها لأنه مؤمن بثورته وزعيمه ، عن وعى وفهم .

وهناك سؤال يجبل إلى أنه يتردد فى أذهان بعض المفكرين من المثمين بالرأى العام والحياة السياسية وهو :

هل نضمن أن الديموقراطية تأخذ مجراها الصحيح فى ( الاتحاد الاشتراكى العربى ) بعد اعطاء الفلاحين والعمال نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية وهم على ماهم عليه من أمية وجهل ، أو على الأقل من ضيق أفق ؟

ولرد على هذا السؤال أقول إن الفكرة الشائعة بين علماء الاجتماع والسياسة والرأى العام أن أغلبية الشعب — أى شعب — من تلك الفئة التى يطلقون عليها ( الرأى العام المنساق أو المنقاد ) . وهو الذى يضم الطبقة العاملة وعلى الأخص من الفلاحين والعمال وسائر الفئات التى حرمت من التعليم ، أو لم تحصل على أى قسط من القانة .

وهذه الفئة هى فى نظر هؤلاء المفكرين أشبه بالقطيع من السائمة يوجهها الزعماء كيفما يشاؤون .

وإذا صح هذا الوصف على الطبقة العاملة التي تعيش في كنف النظم  
الاستبدادية والرجعية فإنه لا يجوز في البلاد الديمقراطية . . ولا يقبل على وجه  
الخصوص في البلاد التي تعيش في ثورة .

إن طوبى الثورة تدق في كل مكان في بلادنا ، ويستمتع اليها الجميع ، في طول البلاد  
وعرضها ، يحس الجميع بضرباتها القوية ، ويفكر الجميع في كل ما قوله وتصنعه ،  
ويقدرونه بامعان .

وهذا لم يعد هناك فلاح أو عامل في الجمهورية العربية المتحدة إلا ويشعر  
بمشاعر الثورة ، ويحس بأحاسيسها ، ويتتبع خطتها ، ويعرف ماذا قامت به  
بالأمس ، وماذا تفعله اليوم ، وما الذي ستصنعه غدا .

إن كل فلاح في الجمهورية العربية المتحدة يعرف الآن حقه في الحصول على قطعة  
أرض ، وحقه في زراعة الأرض التي يستأجرها ، وحقه في تحديد الاجارات ، وفي الحصول  
على البنور والمأشبة وسلفة مالية من الجمعية التعاونية الزراعية ، وحقه في الانتخاب  
والترشيح لعضوية لجان الاتحاد الاشتراكي العربي والمجالس المحلية ... الخ .

وإن كل عامل في الجمهورية العربية المتحدة يعرف الآن حقه في الأرباح وفي تحديد  
ساعات العمل ، وحد أدنى من الأجر ، ويعرف حقه في التأمينات الاجتماعية والصحة  
والحصول على معاش .

وقد تبين لي في ( المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ) أثناء مناقشة « الميثاق »  
أن زملائي من أعضاء المؤتمر من الفلاحين والعمال كانوا على وعي كبير لا يقل عن  
وعى المثقفين ، بل كان بعضهم أشد تحمسا وأفصح لسانا في التعبير وأوضح في  
عرض آرائه ومقترحاته . واستمع المؤتمر الى آراء ناضجة من بعض الفلاحين  
والعمال تدل على تفكير سليم ، ووعى أكيد ، وتجربة طويلة مثمرة ، وكان من هؤلاء  
السيد أنور سلامة الذي كان يمثل قطاع العمال ثم اختير بعد ذلك أول وزير للعمل  
من العمال في عهد الثورة تشييا مع روح ( الميثاق ) الذي أعطى الفلاحين والعمال  
نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية بما في ذلك المجلس النيابي .

ولهذا فأنى أحب أن أطمئن أولئك المنسائكين المتشائمين الذين ينكرون على ( الميثاق ) إعطاء الفلاحين والعمال هذه النسبة الكبيرة من مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية ومجلس الأمة ، لأنى واثق أنه لم يصل الى هذه المقاعد - ولن يصل اليها - الا العناصر الطيبة الواعية من صفوف الطبقة العاملة .

وإنما أراد ( الميثاق ) أن يرد لهم حقهم المسلوب والذي حرموا منه أجيالا طويلة . كما أن هؤلاء الفلاحين والعمال هم الذين يؤلفون أغلبية الشعب ، وهم أصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة واستمرارها والحفاظة على المكاسب الكبيرة التي حققها لهم ، والتي يجب أن يعضوا عليها بالتواجد .

ومع ذلك فلا يزال للمثقفين في التنظيمات الشعبية والسياسية في بلادنا - سواء داخل ( الاتحاد الاشتراكي العربي ) أو في البرلمان ( مجلس الأمة ) - لا يزال لهم القيادة الفكرية ، وعليهم الا يهملوا هذه القيادة أو يفرطوا في أداء هذا الواجب الذي يعتبر من انقل وجباتهم في المرحلة الحالية من حياة أمتهم .

إن سلبية المثقفين قد تمهد الطريق للانحراف عن الطريق المستقيم من جانب العناصر الأخرى التي تكوّن الأغلبية العددية ، ولهذا يجب على المثقفين أن يقوموا بدور إيجابي في مجال الرأي العام ، وأن يصغروا باليقظة والشجاعة الأدبية ، مع مراعاة الأثران وعلم التعصب للانجاهات الفكرية الأجنبية التي تناقض تراثنا الفكري والثقافي والديني ومثلنا الاجتماعية بوجه عام .

ثم هناك مسألة أخرى لا بد من الإشارة اليها لتفكيك الديوقراطية والحرية في ظل ( الاتحاد الاشتراكي العربي ) - وقد تعرضت اليها في كلمتي بال مؤتمر الوطني - وهي ضرورة هيمنة الاتحاد نفسه على جميع وسائل الاعلام والتوجيه بما فيها الصحافة والراديو والتلفزيون والسينما والمسرح ، حتى تعبر جميعاً عن إرادة الشعب ، وتعكس الرأي العام على حقيقته ، وتحافظ على تقاليد الأمة وعاداتها الحميدة ، ومثلها الاجتماعية والحلقية والعقائدية . وكذلك

يجب تمكين الاتحاد من استخدام الراديو والتلفزيون بحرية ، فضلا عن إشرافه على تخطيط برامجهما (١) .

كما طالبت بضرورة إسناد القيادات الصحفية إلى العناصر المشهود لها بحسن السيرة من الاشتراكيين المخلصين قولاً وعلاً ، وأن يحترم الصحفيون « عهد الشرف الصحفي » ، في أداء رسالتهم الجليلة ، واحترام الحقيقة ، والتزام الصلح ، وعدم استغلال مهنتهم للأطماع الشخصية أو التشهير بالناس .

ونبهت أيضاً الى ضرورة الاهتمام بالصحافة الاقليمية باعتبارها وسيلة ضرورية للإعلام والتوجيه والارشاد بالنسبة لسكان الريف والأقاليم ، والاهتمام كذلك بالصحافة المتخصصة التي تخدم فئات بذاتها فهي أقدر على التأثير بدرجة أكبر من الصحف العامة التي تصدر في العاصمة والتي لا تتسع صفحاتها لمناقشة جميع المشاكل المحلية والإقليمية والمهنية .

وفي رأي أيضا أنه ينبغي تشكيل ( مجلس أعلى للإعلام والدعوة الاشتراكية ) يتولى وضع السياسة العامة لجميع وسائل الإعلام والتوجيه والثقافة ، وتحديد نظم العمل بها ، ووضع لوائحها الادارية والمالية ، ويتألف هذا المجلس من ممثلين للاتحاد الاشتراكي العربي والحكومة والهيئات المشغلة بالإعلام والثقافة العامة ، على أن تتبعه ستة مجالس أخرى وهي مجلس الصحافة ، ومجلس الإذاعة والتلفزيون ، ومجلس السينما والمسرح ، ومجلس الثقافة والإعلام ، ومجلس العلاقات العامة ، ومجلس السياحة والآثار (٢) .

ان تنفيذ هذه المقترحات سوف يساعد على خلق رأى عام في بلادنا أكثر نضوجاً وفهماً لشئوننا العامة ، وأقدر على القيام بأعبائه السياسية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ شعبنا .

---

(١) للاستزادة في هذا الموضوع راجع الفصل الخاص بفلسفة الدعاية في الجمهورية العربية المتحدة في كتابنا ( الرأى العام والدعاية ) - الطبعة الثانية من ص ٢٤١ الى ص ٢٨٣ وكذلك كلمتنا بالمؤتمر الوطنى بمضبطة لجلسة التاسعة للمؤتمر بتاريخ ٣ يونيه سنة ١٩٦٢ والوفردة بالملحق رقم ٢ من كتابنا المشار اليه ص ٣٧٠ - ٣٧٧

(٢) يمكن الرجوع الى تفصيلات هذا المشروع بكتابنا ( الرأى العام والدعاية ) الطبعة الثانية - من ص ٢٧٧ الى ص ٢٨٣



## مسئولية الصحافة نحو الرأى العام العالمى

ودور الأمم المتحدة فى تحقيق حرية الإعلام

اهتم معهد الصحافة الدولى<sup>(١)</sup> بمدينة زيورخ بسويسرا بدراسة الأخبار الخارجية فى صحافة عشر دول من بينها الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول غرب أوروبا والهند ، وذلك من ناحية الكم والكيف ، ومن ناحية أثر تلك الأخبار فى شعوب تلك الدول ، وهل هى كافية لإحاطة القارئ بما يجرى خارج بلاده من أحداث هامة فى البلاد الأجنبية ، وهل ما ينشر من تلك الأخبار كفيل بأن يربط الدول بعضها ببعض يرباط متين ، ويؤلف بين قلوب شعوب العالم باعتباره وحدة واحدة ، فيساعد ذلك على تدعيم السلام وتوطيد أركانه . ذلك لأن سياسة الحكومات المختلفة تأثر بالرأى العام فى شعوبها ، ولن يكون هذا الرأى العام مبنياً على أساس سليم فى مجال السياسة الدولية إلا إذا كان الشعب مزوداً بالمعلومات الصحيحة الكافية عن الشعوب الأخرى .

وكان منهج البحث على أساس قاعدتين :

الأولى : جمع الأخبار الخارجية التى نشرت فى أهم الصحف اليومية المحلية .

والثانية : تحليل هذه الأخبار واستخلاص النتائج المختلفة من حيث المساحة التى تشغلها فى الصحيفة ، ونوع تلك الأخبار وكيفية عرضها ووفائها بالقرص من ناحية الإعلام وإحاطة القارئ بالمعلومات الكافية المفيدة التى تساعد على تكوين رأى صحيح عن الأحداث العالمية الجارية .

وقد أسفرت تلك الدراسة عن نتائج هامة نجملها فيما يلى :

١ - أن وكالات الأنباء هى المصدر الأساسى الذى يزود الصحافة بالأخبار

(١) نشر المعهد نتائج بحوثه فى كتاب بعنوان : The Flow of The News وراجع كتابنا ( الصحافة كمصدر للتاريخ ) - الطبعة الثانية - من ص ١٤٢ الى ص ١٦٢

الخارجية ، ولكن الأخبار التي تنساب من وكالات الأنباء هي أولاً وقبل كل شيء  
— وفي معظمها — أخبار ذات صبغة محلية ، كما أنها أخبار عناوين ، ولو أن وكالات  
الأنباء قد أخذ اهتمامها يزداد شيئاً فشيئاً بتفسير الأخبار التي تقوم بتوزيعها .

٢ — أن ما ينشر من أخبار خارجية في الصحف اليومية العالمية محدود وغير كاف  
لتعريف القراء بإجراءات العالم الخارجى .

٣ — أن تلك الأخبار تنشر مقتضبة وقد يصل الحال إلى إهمال بعض فقرات الخبر  
مما يجعله غامضاً مبهماً في نظر القراء وبالتالي لا يفيئون منه شيئاً . هذا فضلاً عن أن الخبر  
قد يفتر أحياناً إلى الإيضاح والتفسير لمساعدة القارئ على متابعة قراءته وفهمه على  
وجهه الصحيح .

٤ — أن القراء لا يهتمون بالأخبار الخارجية إلا قليلاً ، ومستوى معلومات القراء  
عن الحوادث الخارجية الهامة حتى تلك الحوادث التي يخص لها باستمرار أكبر مساحة  
منحط للغاية . وقراء الأخبار الخارجية في الصحف يكوّنون نسبة ضئيلة من القراء ،  
وتزداد هذه النسبة بين المثقفين والمعلمين ، وتقل أو تنعدم في غيرهم . كما أنها أعلى في  
الرجال منها في النساء في نفس الطبقة الثقافية .

ومن أسباب عزوف القراء عن هذا اللون من الأخبار اعتقادهم أنها أخبار للدعاية ،  
وأنها لا تهمهم في حياتهم اليومية . ويبدو أن القارئ غير مستعد للتضحية بجزء من مساحة  
الأخبار الداخلية والوطنية في صحيفته لحساب الأخبار الخارجية .

وقد أجرى استفتاء في الولايات المتحدة الأمريكية لتعليل انصراف القراء عن الأخبار  
الخارجية ، وكان نص السؤال هو :

كثير من الناس لا يهتمون اهتماماً كبيراً بالأخبار الخارجية فيم تعلق ذلك ؟  
وكانت الإجابة كالآتي :

النسبة المئوية

أنهم أكثر اهتماماً بأنواع أخرى من الأخبار ولا يجدون لذة في قراءة الأخبار	
الخارجية	٤٥ . . . . .
أنهم لا يفهمونها فهي معقدة جداً وليس لديهم فكرة أساسية عنها إلخ	١٣ . . . . .

١١	.	.	.	.	.	.	.	ليس لها تأثير مباشر عليهم
٨	.	.	.	.	.	.	.	حاجتهم إلى فسحة من الوقت فهم مشغولون جداً
٦	.	.	.	.	.	.	.	أنهم يكرهون الأخبار الخارجية ومعلولون من الحرب
٤	.	.	.	.	.	.	.	فيها قدر كبير من الدعاية فهم لا يعرفون ماذا يصدقون
٢	.	.	.	.	.	.	.	ذات صبغة وطنية إلى درجة كبيرة
٢	.	.	.	.	.	.	.	تقر الصحف في تغطية الأخبار الخارجية
٦	.	.	.	.	.	.	.	إجابات أخرى
١٥	.	.	.	.	.	.	.	لا يعرفون شيئاً

٪١١٢

ملحوظة : يزيد المجموع على ١٠٠ ٪ نظراً لأن بعض الأشخاص أدلوا بأكثر من سبب .

٥ - أن اهتمام القراء بالأخبار الخارجية ينصرف أولاً وقبل كل شيء إلى الأخبار الإنسانية التي تمس شغاف القلوب ، مثل أخبار ضحايا الفيضانات والسيول والزلازل والأوبئة ، وحوادث قتل الأطفال والنساء والطاعنين في السن ، بصرف النظر عن أسماء الضحايا وأهميتهم في الهيئة الاجتماعية . كما أن القراء مولعون بأخبار الأسماء اللامعة أما كانت هذه الأخبار . ويأتي في المرتبة التالية بالنسبة لاهتمام القراء أخبار السياسة العالمية وأخبار الاقتصاد والمال والثقافة . . . الخ .

لكن بالرغم من ذلك فلا تزال الأخبار الرسمية وغير الرسمية الهامة مثل أخبار الحرب والسياسة والعلاقات الدولية والدفاع والاقتصاد تحتل المكانة الأولى في أخبار وكالات الأنباء . وقد وجد أن هذه المجموعة تكون نحو ثلثي أخبار جميع الوكالات بالولايات المتحدة . أما المجموعة الثانية فهي الأخبار التي لها أهمية اجتماعية ، وتشمل الأخبار الثقافية والتعليمية والعلمية والفنية والدينية والقضائية والقانونية والأخبار ذات الصبغة الاجتماعية . وهذا النوع من الأخبار الخارجية يكون في الولايات المتحدة الأمريكية نحو ١٢ ٪ من جملة الأخبار التي تم تحصيلها .

وأما المجموعة الثالثة فذات أهمية شخصية وتشمل الأخبار ذات الطابع الإنساني وأخبار الجرائم والكوارث والرياضة . وهذا النوع من الأخبار يكون نحو ٢٢ ٪ من جملة أخبار الوكالات .

ويمثل الجدول الآتي متوسط النسبة المئوية لأنواع الأخبار الخارجية في أربع وكالات  
للأنباء في الولايات المتحدة الأمريكية لمدة أربع أسابيع :

الموضوع	الوكالة (أ)	الوكالة (ب)	الوكالة (ج)	الوكالة (د)
الحرب . . . .	٢٨١	٥٢	١٧٧	١٢٩
السياسة . . . .	١٦٨	٣١٢	٢١٩	٢١٧
العلاقات الخارجية . . . .	٢٣٠	١٠٤	٢٠٩	٢١٥
الدفاع . . . .	٥٦	٥١	٢٨	٤٥
الاقتصاد . . . .	٢٨	٧٩	٣١	٥٦
الأخبار الثقافية . . . .	٠١	٠٩	٠٥	٠٦
الأخبار التعليمية والعلمية . . . .	٠٧	٣٩	١٩	٢١
الدين . . . .	٢٢	٢٦	٣٣	٣٢
الجريمة . . . .	١٤	٢٢	٣١	٢٠
الأخبار القضائية والقانونية . . . .	٥٦	٤٧	٦٢	٥٣
الدمار . . . .	٤٧	٥٠	٦٥	٥٦
الأخبار الإنسانية . . . .	٧٩	١٧٦	١٢٥	١٢٧
المسائل الاجتماعية . . . .	٠٥	١١	٠٣	١٠
الرياضة . . . .	٠٦	٢٢	٠٣	١٣
	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

٦ — أن سكان المدن الكبيرة أكثر اهتماما بالأخبار الخارجية من سكان المدن الصغيرة ، والآخرين أكثر اهتماما بتلك الأخبار من سكان الريف . وهذا يفسر لنا لماذا كانت طبعات الصحف في المدن الكبرى تقدم قسطا أكبر من الأخبار الخارجية ، بينما هي تنقص في طبعاتها الإقليمية في هذا اللون من الأخبار .

وفيما يلي أهم أسباب هذا التقصير :

١ - أن وكالات الأنباء والمراسلين الخصوصيين للصحف في الخارج لا يتحرون الدقة في جمع الأخبار ، وهم يميلون إلى نشر الأخبار المبالغ فيها لجذب القراء مما يؤدي أحيانا إلى تكدير العلاقات بين الشعوب .

وبلاحظ أن بعض الصحفيين ورؤساء التحرير يتركون العنوان لخبرهم أحيانا بطريقة تبعد عن الحقيقة والواقع ، وقد يخلطون أحيانا بين الخبر والتعليق عليه في آن واحد مما يشوه الحقائق ، ويضل الرأي العام .

٢ - أن الصحف لا تولي الإحصائيات ما تستحقه من عناية هذا العصر الذي يتسم بالتقدم الاقتصادي والعلمي والفني . والإحصائيات تعتبر دراسة فنية ولا يمكن أن يفهمها أي شخص شغوف بتتبع الأحداث العالمية .

٣ - أن رئيس التحرير أو بالأحرى رئيس قسم الأخبار الخارجية في أية صحيفة يومية كبرى يرد إليه سيل جارف من الأخبار الخارجية عن طريق وكالات الأنباء المختلفة والراديو ، وهو مقيد بمساحة الصفحة التي لا تسمح بنشر هذه الكمية الضخمة من الأنباء والقصص والمعلومات الخارجية . وعليه أن يختار من بينها ما تنسج له المساحة المحدودة المخصصة من الصحيفة للأخبار الخارجية . ولذلك فهو يفاضل بين خبر وآخر ، ويحذف بعض الفقرات من الخبر الواحد ، ويهمل بعض الأخبار إهمالا تاما ، واضعا نصب عينيه دائما أنه لا ينشر من تلك الأخبار الخارجية إلا ما يعرف ويعتقد أنه يروق قراء صحيفته الذين اعتادوا قراءتها ويفضلونها على غيرها من الصحف ، وتشبع رغبتهم وهواياتهم ، وتضيق مع العرف والتقاليد ، فضلا عن سياسة الصحيفة .

ومعنى هذا أن القائم على نشر الأخبار الخارجية في الصحيفة ليس حر التصرف في النشر كما يبدو لأول وهلة ، وإنما هو في حقيقة الأمر مقيد بسياسة الصحيفة وطبيعة قرائها ، ودرجة ثقافتهم وميولهم بوجه عام .

ولعل هذا هو السبب في أن ما ينشر من أخبار خارجية بالصحف العالمية لا يمكن أن نعدّه كافيا سواء من ناحية الكم أو ناحية الكيف ، لإعلام القارئ بما يجري في العالم الخارجي وتزويده بالتوسط الكافي من المعلومات التي تؤهله لكونه رأى سنهم في السياسة

الدولية . ولعله السبب أيضا في اختلاف صحيفة عن أخرى سواء في نوع الأخبار الخارجية التي تقدمها للقراء ، أو في المساحة المخصصة لهذا اللون من الأخبار .

فالمصحف الجادة المحافظة التي يقرأها الصفوة والمثقفون من الشعب تحرص على ان تنشر معلومات معروسة مستفيضة في السياسة الدولية والمشكلات الدولية ، وهي تهتم أولا وقبل كل شيء بنشر الأخبار السياسية والاقتصادية والثقافية ، وان كانت لا تغفل الأخبار الإنسانية ، بينما تتجنب المصحف الشعبية الى إبراز الأخبار الإنسانية التي تستهوي القارئ العادي أو رجل الشارع ، وتستحوذ على مشاعر المرأة التي تكون نصف المجتمع ، وتعتبر عميلا هاما للصحيفة في الأمم الراقية ، في حين تضع الأخبار السياسية الخارجية في المحل الثاني .

ومهما يكن من شيء فإن الصحف اليومية العالمية بوجه عام لا تزال شحيحة في أخبارها الخارجية بالنسبة لما ينبغي أن تقدمه لقراءها من تلك الأخبار . ولا تزال المساحة المخصصة لهذا اللون من الأخبار محدودة جدا بالقياس إلى الأخبار الداخلية والمواد الأخرى الصحفية .

وقد تبين أن الصحيفة المتوسطة في الولايات المتحدة الأمريكية تنشر من الأخبار الخارجية ما يزيد على أربعة أعمدة بقليل من كل مائة عود ، بينما تنشر الصحيفة المتوسطة في أوروبا والهند أقل من ذلك ، ولو أنها حين تفعل هذا تخصص نسبة أكبر من مساحتها للأخبار الخارجية من مثيلها الأمريكية . يدأنه من المشاهد أن الصحف فاطمة ليست مقيدة بحد أقصى أو حد أدنى من المساحة التي تخصصها للإشباع رغبة القراء من الأنواع المختلفة من الأخبار الخارجية .

لكن الذي يفتينا هو كيف يتسنى لأية صحيفة أن تحقق انغرض المنشود من الأخبار الخارجية في هذه المساحة الصغيرة ؟ وتظهر أهمية هذه المسألة اذا تذكرنا أن قارئ الصحيفة لابد له في أحيان كثيرة من الإحاطة بالأخبار الخارجية ، حتى يستطيع ان يتابع بعض الأخبار المحلية والوطنية ويفهمها على وجهها الصحيح . وهذا واضح كل الوضوح بالنسبة للمسائل السياسية والدولية التي تشغل بال الرأي العام في كل دولة على حدة .

وعلى ذلك فالصحيفة مطالبة بتزويد قرائها بالنقسط الكافي من الأخبار الخارجية التي تعينهم على تفهم أحوال بلادهم ومشكلات وطنهم في مجال السياسة والاقتصاد والثقافة .

ثم إن هذه المساحة المحدودة المخصصة للأخبار الخارجية لا يمكن بأية حال أن تصور لنا حياة الشعوب في الخارج تصويراً صادقاً دقيقاً ، وتعطى القارئ فكرة صحيحة عن تلك الشعوب . وإنما الذى يحدث عادة هو أن الصحف تشير إليها إشارات طفيفة من وقت لآخر ، وهى لا تستطيع أن تتابع الحديث عن جميع شعوب الأرض ، وحسبها أن تفعل ذلك بالنسبة لأربعة أو خمسة شعوب فقط . وهى مع ذلك تقدم الشيء اليسير عن حياتها مما لا ينفى الصلر أو يطفىء الغلة .

والذى لا شك فيه أن الأخبار الخارجية أصبحت لها أهمية أكبر منذ قيام الحرب العالمية الثانية . وبعد انتهاء تلك الحرب وتأسيس هيئة الأمم المتحدة التى تضم جل دول الأرض فى صعيد واحد ، أصبحت تلك الهيئة تلعب أهم دور على مسرح السياسة الدولية . فجميع الشعوب — سواء منها الكبيرة أو الصغيرة — حريصة أشد الحرص على متابعة نشاط هذه الهيئة ، وجهود الهيئات المتفرعة منها كمجلس الأمن ومجلس الوصاية الدولية والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ومحكمة العدل الدولية وسائر المنظمات الدولية الأخرى فضلاً عن الجمعية العامة للأمم المتحدة . ذلك لأنه لم تعد هناك دولة على وجه الأرض لا تمسها من قريب أو بعيد قرارات الأمم المتحدة ونشاط المنظمات الدولية المختلفة .

لكن للأسف لازال اهتمام الناس بالأخبار الخارجية محدوداً حتى فى البلاد الغربية الرافقة ، وهم يفاوتون فى ذلك — كما سبق أن بينا — تبعاً للدرجة الثقافية : وللتدليل على ذلك نسوق الاستقصاء التالى عن الصحافة الأمريكية والذى يبين مدى إلمام الشعب الأمريكى بالأحداث الخارجية ، وهذا الاستقصاء الذى أجرى منذ سنوات مبنى على سؤال عينة من ٢٠٠٠ شخص . وكان من بين الأسئلة التى وجهت ما يأتى :

١ — ماذا تعيد الحروف N. A. T. O .

الاجابة :

التعريف الصحيح . . . . . ٢١

عاجزون عن الاجابة . . . . . ٧٩

١٠٠

٢ — من هو زعيم الصين الوطنية ؟

٪

٥١	.	.	.	.	.	.	.	.	.	إجابة صحيحة
٤٩	.	.	.	.	.	.	.	.	.	إجابة غير صحيحة أو لا يعرفون شيئاً
١٠٠										

٣ — ما اسم الرجل الذى خلف ستالين كرئيس لوزراء الاتحاد السوفيتى ؟

٦٠	.	.	.	.	.	.	.	.	.	إجابة صحيحة
٤٠	.	.	.	.	.	.	.	.	.	إجابة غير صحيحة أو لا يعرفون شيئاً
١٠٠										

٤ — من هو رئيس وزراء المملكة المتحدة الآن ؟

٧٩	.	.	.	.	.	.	.	.	.	إجابة صحيحة
٣١	.	.	.	.	.	.	.	.	.	إجابة غير صحيحة أو لا يعرفون شيئاً
١٠٠										

واتضح من هذا الاستقصاء أن أغلبية القراء يجهلون المعلومات الدولية ، وأن المثقفين أقدر من غيرهم على تتبع الأخبار الخارجية ، وأن الرجال أكثر إلحاحاً من النساء بتلك الأخبار ، وأن سكان المدن الكبرى يتفوقون على سكان المدن الأقل تعداداً من هذه الناحية .

كذلك اتضح أن الأشخاص الذين اعتادوا قراءة الصحف بانتظام هم أكثر إلحاحاً بالمجريات الدولية من غير المواطنين على مطالعة الصحف ، وهذا أمر طبعى .

تلك هى الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال . ولا بد لنا من أن نلقى نظرة على صفحتنا اليومية من وجهة الأخبار الخارجية .

والحق إن صفحتنا اليومية الكبرى أصبحت تشر علينا يوماً بعد يوم من الاختيار الخارجية ما يفوق الصحف اليومية الكبرى فى أمريكا وغرب أوروبا سواء من ناحية الكم أو ناحية الكيف . فنحن نلاحظ تنوعاً كبيراً فى الأخبار الخارجية التى تشرها صفحتنا اليومية الكبرى . فهناك باستمرار أخبار الأمم المختلفة والمنظمات الدولية والسياسة الدولية خصوصاً فى الدول



الكبرى والدول العربية . وهى تعرض بطريقة تمكن القارئ العادى من متابعتها وفهمها بسهولة . وتعمل الصحيفة فى أحيان كثيرة على تفسير ما غضى من السياسة الدولية فى مقالات منتظمة أو فى تعليقات .

وهناك الأخبار الإنسانية والاقتصادية والثقافية والرياضية . . . الخ . وصحفا لا تقصر أخبارها الخارجية على الدول الكبرى والمسكرين الغربى والشرق ، بل تشمل أيضاً العالم العربى والعالم الإسلامى ودول الشرق الأدنى والأوسط والأنهى عامة ، أى أنها لا تنقل الأخبار الهامة التى ترد إليها من أركان المعورة الأربعة .

ومعنى هذا أن صحافتنا تخلم قرائها من ناحية الإعلام الخارجى بدرجة تفوق على أكثر الصحف الأمريكية والأوروبية . بل إنها تخلم القراء فى جميع البلاد العربية باعتبار القاهرة مركزاً للجامعة الدول العربية ، وقلبا لنشاط العالم العربى ، سواء من الوجهة السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية .

وإذن فالمنتظر والحالة هذه أن يكون شعبنا أعلم بالمشكلات الدولية والسياسية العالمية وأحوال الشعوب الأجنبية ، وأن يكون الرأى العام العربى أكثر نضجاً ووعياً بالمشكلات الدولية المعاصرة ، ما دامت صحافتنا تقدم له كل يوم وجبة دسمة من المعلومات عن الماجريات الدولية .

فهل هذا ما حدث حقاً ؟

الحقيقة المرة أن شعبنا لم يفد مما تقدمه له صحفنا اليومية كما كان منتظراً . فإن قراء الصحف عندنا فى الجمهورية العربية المتحدة - وهى أكبر دولة عربية - لايزالون يكونون نسبة ضئيلة جداً من السكان قد لا تتجاوز المليون أى حوالى ٤ ٪ فقط من السكان . ولبيت هذه النسبة الضئيلة من القراء كانت كلها تهتم بقراءة الأخبار الخارجية . فالواقع أن الذين يتابعون تلك الأخبار قليلة ضئيلة أيضاً من هؤلاء القراء . فلا يعنى بقراءتها سوى المثقفين ، بل نفر قليل من المثقفين واعنى بهم الرأى العام النابه أو الصفوة أو القادة . أما الأغلبية الساحقة من القراء فهم منصرفون عن أبناء العالم الخارجى ، متلهفون على قراءة الأخبار المحلية عامة والأخبار المثيرة خاصة ، وأخبار الجرائم ( خصوصاً الجرائم الجنسية ) بوجه أخص .

وإذن فلا بد للشعب العربي — إذا أراد أن يكون له رأى عام مستنير في المشكلات الدولية — أن يتضاعف عدد قراء الصحف فيه أولاً أضعافاً كثيرة ، ثم على هؤلاء القراء ألا يسهلوا قراءة الأخبار الخارجية التي تتكلف صفحا اليومية مشقة كبيرة في تقديمها لهم كل يوم ، تلك الصحف التي تقوَّت على صفح الغرب في هذا المضمار .

ونحن لن نصل إلى هذا الطور الذي نرجوه لأننا العربية إلا إذا قضينا على الأمية ، وعممنا التعليم ، وشرنا الثقافة بين جميع أفرادها من الجنسين ، وصنعنا شيئاً فعلاً لرفع مستوى المعيشة بين الطبقات المتوسطة والفقيرة ، وهى التى تكون سواد هذه الأمة .

### دور الأمم المتحدة في تحقيق حرية الاعلام :

أولت الأمم المتحدة موضوع حرية الاعلام اهتمامها ، رغبة في تيسير سبل التفاهم بين الشعوب ، والحفاظ على السلام العالمى .

وقد كان لاستاذنا المرحوم الدكتور محمود عزمى الذى كان يرأس « لجنة حرية الإعلام » بالأمم المتحدة الفضل في إعداد « عهد الشرف الصحفى » الذى أقرته اللجنة ، ووافقت عليه « لجنة حقوق الانسان » ثم « اللجنة الاجتماعية للمجلس الاقتصادى والاجتماعى » في عام ١٩٥٢

### ويتألف « عهد الشرف » من المبادئ الآتية :

١ — يجب على رجال الصحافة والإعلام أن يبدلوا كل ما في وسعهم لتزويد الجمهور بالانباء الصحفية المطابقة للحوادث التى وقعت ، وأن يحققوا من صحة المعلومات التى يحصلون عليها ، وألا ينفذوا أى حادث مهم أو يشوهوا الوقائع عبداً .

٢ — تطالب المزاولة الشريفة للمهنة الصحفية الإخلاص للمصلحة العامة ، ولذلك يجب على الصحفيين أن يتجنبوا السعى وراء منفعتهم الشخصية أو تأييد المصالح الخاصة المتعارضة مع المصلحة العامة أيا كانت الأسباب والدوافع .

فلافتراء والتشهير المتعمد والنم إلى لا تستند إلى دليل وانحال أقوال الغير ، كل ذلك يعد أخطاء مهنية خطيرة .

وإخلاص النية إزاء الجمهور يعتبر أساساً للصحافة المحترمة الجديرة باسمها .

وكل نأ يتضح كذبه وضرره بعد إذاعته يجب تصحيحه على الفور وطواعية ، كما يجب صياغة الشائعات والأخبار التي تنشر إلى الإثبات في قالب متسم بطابعها الحقيقي .

٣ — يتحتم على رجال الصحافة والإعلام ألا يقلبوا لأنفسهم أو يكتفوا غيرهم بأعمال لاتتفق مع أمانة المهنة وكرامتها ، ويجب أن تسرى هذه القاعدة على جميع الذين يشتركون في الأعمال الاقتصادية والتجارية التي تحصل بالمهنة الصحفية .

ولا بد للمستغلين بإذاعة الأخبار وكتابة التعليقات أن يحملوا كامل المسؤولية المترتبة عليها ما لم يرفضوا صراحة ومقدما تحمل المسؤولية .

ولسلك من تمسه تهمة في أخلاقه أو سمعته الحق في تيسير الرد على هذه التهمة التي قد ترد في الأخبار أو التعليقات .

إذ يجب أن يكون احترام سمعة الناس قاعدة من قواعد المهنة الصحفية ، ولا يجوز التعرض لحياهم الخاصة أو المساس بسمعتهم إلا إذا اقتضت ذلك المصلحة العامة .

ومن واجب الصحفي الاحتفاظ بسرية المصادر التي يستقي منها الأنباء . إذ أن الأخبار والمعلومات التي تصرح بها بعض المصادر بصفة سرية لرجال الصحافة تسرى عليها سرية المهنة الصحفية التي ينبغي الاستمساك بها إلى أقصى حدود القانون .

٤ — يجب على الصحفيين الذين يريدون الكتابة والتعقيب على الحوادث التي تقع في بلاد غير بلادهم أن يحصلوا على معلومات تتيح لهم الكتابة والتعقيب على هذه الحوادث بإنصاف وصدق .

٥ — بمقتضى المبدأ الذي يقوم عليه هذا العهد تقع المسؤولية في كفالة احترام المهنة وشرفها على رجال الصحافة والإعلام لاعلى الحكومات ، ومن ثم لا يجوز تفسير أية مادة من مواد هذا العهد على نحو يسوغ تدخل الحكومات أيا كان هذا التدخل لتنفيذ الالتزامات الواردة في وثيقة هذا العهد \* .

---

\* راجع كتابنا ( الرأي العام والامنية ) - الطبعة الثانية - ص ٢٣٠

## اتفاقية التصحيح :

كما وضعت « لجنة حرية الاعلام » أيضا « اتفاقية التصحيح » التي أقرها « المجلس الاقتصادي والاجتماعي » وكذلك « الجمعية العامة للأمم المتحدة » بعد جهد جهيد بذلته الدول الصغيرة وعلى رأسها مصر ، والحرب الباردة قائمة على أشدها بين كتلتى الشرق والغرب .

وتنص « الاتفاقية » على أنه من حق كل حكومة ترى أن صحيفة أو وسيلة من وسائل الإعلام الأخرى كالراديو والسينما قد صدر عنها ما يمس هذه الحكومة أو ما يمس مقومات الأمة التي تمثلها هذه الحكومة أن تقدم لحكومة البلد الذى تتبعه الصحيفة أو وسيلة الإعلام وتبلغها تصحيحا وتطلب إليها العمل على إذاعته ونشره ، فإذا مضت خمسة أيام على وصول الإبلاغ من جانب الحكومة الشاكية إلى المشكوة ولم يذع التصحيح انتجت الحكومة الشاكية إلى الأمين العام للأمم المتحدة ، وفي هذه الحالة يتولى « و بوسائل إعلام الأمم المتحدة نشر هذا التصحيح ، وهى أوسع انتشارا وأقوى في سبيل النشر من وسائل أية دولة لذاتها .

## الحرب الباردة لا زالت قائمة :

بالرغم من إقرار « عهد الشرف الصخى » و « اتفاقية التصحيح » فإن الحرب الباردة لازالت قائمة بين الدول ، وعلى الأخص بين الكتلتين الشرقية والغربية ، ولا تزال القيود مفروضة على المراسلين الأجانب في كثير من الدول غير الديمقراطية ، فضلا عن فرض الرقابة الإدارية على الصحافة وسائر المطبوعات ووسائل الإعلام المختلفة في كثير من البلاد التي يسود فيها الحكم المطلق .

ومعنى هذا كله أنه لا سبيل إلى إيجاد تفاهم صحيح بين الدول والشعوب ما دامت العناية السياسية بهي الظائع العام لكل وسائل الإعلام في العالم ، وما دام الطريق مسدودا أمام بعض الحقائق التي تخفيها بعض الدول أو تشوهها بطريقة تفضل الرأى العام المحطى والرأى العام العالمى لأغراض سياسية بحتة .

كذلك أحب أن أشير بصفة خاصة إلى سلوك وسائل الإعلام الأمريكية إزاء النول العربية والجمهورية العربية المتحدة بالذات وقضية فلسطين على الأخص . فالملحوظ

أن الصحافة الأمريكية ومحطات الاذاعة والتلفزيون الأمريكية تخضع لسيطرة المخابرة الأمريكية ، ولذلك تقف إلى جانب إسرائيل ، وتدافع عنها بكل قواها ، وتحض الشعب الأمريكي على جمع التبرعات لإسرائيل ، كما تطالب الحكومة الأمريكية بزيادة الإعانات المالية والإمدادات العسكرية وغيرها إلى إسرائيل . وتقف هذه الوسائل ضد العرب وضد اللاجئين ، حتى وصل الأمر إلى أن الصحافة الأمريكية لا تحترم (حق الرد) وهو من أبسط الحقوق المقررة في الصحافة ، ولا تحترم أيضا (اتفاقية الصريح) التي أقرتها الأمم المتحدة حينما يريد العرب الرد على المقترحات والأكاذيب التي تنشرها الصحافة الأمريكية ضد العرب . فإذا بعثت إحدى الهيئات الدبلوماسية العربية ردها إلى رئيس التحرير ألقى به في سلة المهملات .

ومن هذا يتضح أن المواثيق الدولية لا قيمة لها طالما كان بعض الدول يفكر إلى حسن النية ، وتضر في نفسها شعورا آخر نحو هذه المواثيق .

والأمل معقود على القرار « اعلان حرية الاعلام » الذي بذلت الدول غير المنعازة جهودا كبيرة في اعداد مشروعه ، ولا يزال معروضا على الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وعلى أن تحترم جميع الدول - وخاصة الدول الكبرى - هذا الاعلان ، حتى يسود التفاهم والثواب بين جميع الشعوب ، ويصبح الطريق ممهدا لخلق رأى عام عالمي يكون أقوى دعامة للسلام ، ويقف في وجه أى عدوان من جانب أية دولة تسول لها نفسها خرق « ميثاق الأمم المتحدة » والقانون الدولي .



The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin, Prof. M. H. El-Bakry, Faculty of Arts, Giza, Egypt.

---

Back numbers of this Bulletin are available  
at 30 P. T. for each Part.

**BULLETIN**  
**OF**  
**THE FACULTY OF ARTS**

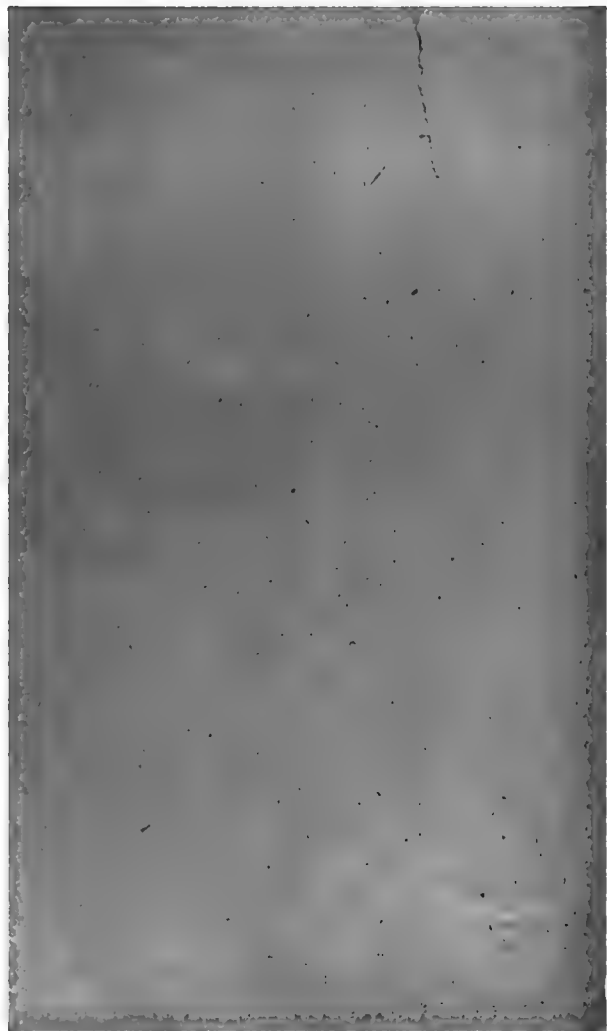


**VOL. XXI—PART II**

**DECEMBER 1959**

**CAIRO UNIVERSITY PRESS**  
**1964**





**BULLETIN**  
**OF**  
**THE FACULTY OF ARTS**



**VOL. XXI—PART II**  
**DECEMBER 1959**

**CAIRO UNIVERSITY PRESS**  
**1954**









Bibliotheca Alexandrina



0542788